أمثال القرآن

وصور من أدبه الرفيع

تأملات وتدبر

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

عبد الرحمن حسن
حبنكة الميداني
أمثال القرآن
وصور من
أدبه الرفيع
دار القلم
دمشق

أمثال القرآن

وصور من أدبه الرفيع

دراسة وتحليل وتصنيف ورسم
لأصول الأمثال القرآنية وقواعدها ومناهجها
وعرض لطائفة من الصور الأدبية القرآنية
مقرونة بالشرح والتحليل الأدبي

تأملات وتدبر
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٩

القسم الأول من الكتاب
حول الأمثال القرآنية

الباب الأوّل
القواعد العامة للأمثال القرآنية

الفصل الأول
مقدّمات عامّة

تعريفات	١٩
(١) المثل القائم على التشبيه	١٩
(٢) إطلاق كلمة المثل بمعنى النموذج	٢٤
(٣) إطلاق كلمة المثل بمعنى الوصف	٣٣
اعتراض الذين كفروا على بعض الأمثال القرآنية	٤٠

الفصل الثاني
أقسام الأمثال

(١) تقسيم أول من جهة كون التمثيل بسيطاً أو مركباً	٤٥
(٢) تقسيم ثانٍ للأمثال من جهة كون الممَثَّل به والممثّل له مما يُدْرِكُ بالحسّ الظاهر أو لا يُدْرك به	٤٧

الموضوع	الصفحة

القسم الأول: تمثيل مدرك بالحسّ الظاهر بمدرك بالحسّ الظاهر ٤٧
القسم الثاني: تمثيلُ مُدَرك فكري أو وجداني بمُدْرَك فكري أو وجداني ... ٤٧
القسم الثالث: تمثيل مُدْرَكٍ فكريّ أو وجدانيّ بمُدْرِكٍ بالحسّ الظاهر ٤٧
القسم الرابع: تمثيل مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمدركٍ فكريّ أو وجداني ٤٧
القسم الخامس: الصّورة التمثيلية المختلطة الّتي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية ٤٨
(٣) تقسيم ثالث للأمثال من جهة كون المثَل صورةً منتزعة من الواقع أو من الخيال .. ٥١
جدول أقسام الأمثال ٥٥

الفصل الثالث

أغراض ضرب الأمثال

(١) شرح الغرض الأول: وهو تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل ٦١
(٢) شرح الغرض الثاني: وهو الإقناع بفكرة من الأفكار ٦٦
(٣) شرح الغرض الثالث: وهو الترغيب بالتزيين والتحسين أو التنفير بكشف جوانب القبح ٧٧
(٤) شرح الغرض الرابع: وهو إثارة محور الطمع والرغبة، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب ٨٦
(٥) شرح الغرض الخامس: وهو المدح أو الذمّ، والتعظيم أو التحقير......... ٩٩
(٦) شرح الغرض السادس: وهو شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكريّة، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته، حتى يتأمّل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكّر ١٠٤
(٧) شرح الغرض السابع: وهو تقديم أفكار غزيرة بعبارة قصيرة ١٠٨
(٨) شرح الغرض الثامن: وهو إيثار تغطية المقصود من العبارة بالمثل تأدّباً باللفظ واستحياءً ١١٠
جدول أغراض ضرب المثل ١١٢

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
خصائص الأمثال القرآنيّة

(١) الخصائص ١١٥

(٢) الأمثلة ١١٧

المثال الأول: من سورة (هود)

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ... ﴿٢٤﴾﴾ ١١٧

المثال الثاني: من سورة (إبراهيم)

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ... ﴿١٨﴾﴾ ١١٨

المثال الثالث: من سورة (البقرة)

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً... ﴿١٧١﴾﴾ ... ١١٩

المثال الرابع: من سورة (آل عمران)

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ... ﴿١١٧﴾﴾ ١٢١

المثال الخامس: من سورة (الرعد)

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا... ﴿١٧﴾﴾ ١٢٣

المثال السادس: من سورة (النور)

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ... ﴿٣٥﴾﴾ ١٢٤

المثال السابع: من سورة (النور)

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ... ﴿٣٩﴾﴾ ١٢٩

(٣) جدول خصائص الأمثال القرآنية ١٣٥

الباب الثاني
تطبيقات عامة على الأمثال القرآنية
الفصل الأول
تطبيقات عامّة على أمثال هي بمثابة فرائد الجواهر

مقدمة ١٤١

الموضوع	الصفحة

التطبيق الأول: من سورة (الفيل)

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ ١٤٢

التطبيق الثاني:

١ ـ من سورة (القارعة)

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ ١٤٣

٢ ـ ومن سورة (القمر)

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ ١٤٤

٣ ـ ومن سورة (المعارج)

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ١٤٤

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ ١٤٥

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ ١٤٥

٤ ـ ومن سورة (الرحمن)

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ ١٤٦

التطبيق الثالث:

ضرب الله مثلاً لقضية الحياة بعد الموت بحياة النبات في دوراته ١٤٦

١ ـ من سورة (ق)

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ ١٤٦

٢ ـ من سورة (الأعراف)

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ ١٤٦

٣ ـ من سورة (فاطر)

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ ١٤٧

٤ ـ من سورة (الزخرف)

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ ١٤٧

٥ ـ من سورة (الروم)

﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ ١٤٧

٦ ـ من سورة (الحج)
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ... ﴿٥﴾﴾ ١٤٧
التطبيق الرابع: من سورة (الأعراف)
﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ... ﴿٤٠﴾﴾ ١٥٠
التطبيق الخامس: من سورة (الأعراف)
﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ... ﴿١٥٤﴾﴾ ١٥٢
التطبيق السادس: ضرب الله عزَّ وجلّ الأنعام مثلاً للذين كفروا ١٥٣
١ ـ من سورة (الأعراف)
﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ... ﴿١٧٩﴾﴾ ١٥٣
٢ ـ من سورة (الفرقان)
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ ١٥٣
٣ ـ من سورة (محمّد)
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ... ﴿١٢﴾﴾ ١٥٣
التطبيق السابع: ضرب الله أمثلة قرّب بها للناس صورة جمال الحور العين في دار النعيم ....
١ ـ من سورة (الواقعة)
﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ ١٥٤
٢ ـ من سورة (الرحمن)
﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ ١٥٥
التطبيق الثامن: من سورة (يونس)
﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴿٢٧﴾﴾ ١٥٦
التطبيق التاسع: من سورة (الأنعام)
﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ... ﴿٧١﴾﴾ ١٥٧
التطبيق العاشر: من سورة (الأنعام)
﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ... ﴿١٢٥﴾﴾ ١٥٩

الموضوع	الصفحة
التطبيق الحادي عشر: من سورة (الكهف)	
﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا... (٥٧)﴾	١٦٤
ومن سورة (الإسراء)	
﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا... (٤٦)﴾	١٦٦
ومن سورة (لقمان)	
﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا... (٧)﴾	١٦٦
ومن سورة (الكهف)	
﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي... (١٠١)﴾	١٦٧
التطبيق الثاني عشر: من سورة (الأنبياء)	
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ... (١٨)﴾	١٦٧
التطبيق الثالث عشر: من سورة (الأنبياء)	
﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾	١٦٨
التطبيق الرابع عشر:	
وصف الله المهلكين من قوم عاد بأنهم صاروا كأعجاز نخل خاوية، وبأنهم كأعجاز نخل منقعر.	
في سورة (الحاقة)	
﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾	١٧١
في سورة (القمر)	
﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾	١٧٢
التطبيق الخامس عشر: من سورة (البقرة)	
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً (٧٤)﴾	١٧٤
التطبيق السادس عشر: من سورة (البقرة)	
﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ... (١٨٧)﴾	١٧٦
التطبيق السابع عشر: من سورة (البقرة)	
﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾	١٧٧

الموضوع	الصفحة

ومن سورة (لقمان)

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ١٧٧

ومن سورة (آل عمران)

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ... ﴿١٠٣﴾﴾ ١٧٨

التطبيق الثامن عشر: من سورة (البقرة)

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾﴾ ١٧٩

التطبيق التاسع عشر: من سورة (الأنفال)

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ ١٨١

التطبيق العشرون: من سورة (الأحزاب)

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ... ﴿١٩﴾﴾ ١٨٢

التطبيق الحادي والعشرون: من سورة (الرعد)

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ... ﴿١٤﴾﴾ ١٨٤

التطبيق الثاني والعشرون: من سورة (الحجّ)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ... ﴿١١﴾﴾ ١٨٦

التطبيق الثالث والعشرون: من سورة (الحج)

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿٣١﴾﴾ ١٩٠

التطبيق الرابع والعشرون: من سورة (الحج)

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ... ﴿٢﴾﴾ ١٩١

التطبيق الخامس والعشرون: من سورة (الحج)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ... ﴿٧٣﴾﴾ ١٩٢

التطبيق السادس والعشرون: من سورة (المنافقون)

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ... ﴿٤﴾﴾ ١٩٤

الموضوع	الصفحة

التطبيق السابع والعشرون: من سورة (الحجرات)
﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا... (١٢)﴾ ١٩٦
التطبيق الثامن والعشرون: من سورة (الصف)
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ ١٩٨

الفصل الثاني

تطبيقات عامة على أمثال تكرَّر في القرآن ورودها
حتى صارت بمثابة حقائق في مصطلحاته

● المقولة الأولى:
حول الظلمات والنور ٢٠٣
مقدمة ٢٠٣
استعراض النصوص مع التحليل ٢٠٤
النص الأول: من سورة (الأعراف)
﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ... (١٥٧)﴾ . ٢٠٦
النصّ الثاني: من سورة (فاطر)
﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥)﴾ ٢١٥
النص الثالث: من سورة (الأنعام)
﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا... (٩١)﴾ ٢١٦
النص الرابع: من سورة (لقمان)
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾ ٢١٩
النص الخامس: من سورة (الزّمر)
﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ... (٢٢)﴾ ٢٢٠
النص السادس: من سورة (الشورى)
﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا... (٥٢)﴾ ٢٢٢
النص السابع وأشباهه: من سورة (إبراهيم)

الموضوع	الصفحة

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿١﴾﴾ ٢٢٤
وقوله تعالى فيها:
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿٥﴾﴾ ٢٢٥
ومن سورة (البقرة)
﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿٢٥٧﴾﴾ ٢٢٦
ومن سورة (الأحزاب)
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿٤٣﴾﴾ ٢٢٦
ومن سورة (الحديد)
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿٩﴾﴾ ٢٢٧
ومن سورة (الطلاق)
﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿١١﴾﴾ ٢٢٧
ومن سورة (المائدة)
﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ... ﴿١٦﴾﴾ ٢٢٧
النص الثامن وما يشبهه: من سورة (الصف)
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ... ﴿٨﴾﴾ ٢٢٨
ومن سورة (التوبة)
﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴿٣٢﴾﴾ ٢٢٩
النص التاسع: من سورة (الأحزاب)
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ٢٣٠

الموضوع	الصفحة

● المقولـة الثانيـة :

حول البصر والعمى والغشاوة والصّمم والوقر والحياة والموت ونحو ذلك ٢٣٢

مـقـدمـة ٢٣٢

استعـراض النصـوص

النص الأول: من سورة (الأعراف)

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٣٤

النصّ الثاني: من سورة (فاطر)

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٣٥

النص الثالث: من سورة (النمل)

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٣٩

النص الرابع: من سورة (النمل)

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٢٤٠

النص الخامس: من سورة (طه)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ ٢٤٣

النص السادس: من سورة (الإسراء)

﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ ٢٤٥

النص السابع: من سورة (الإسراء)

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ ... ﴿٩٧﴾﴾ ٢٤٥

النص الثامن: من سورة (يونس)
﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ
تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٤٧
النص التاسع: من سورة (هود)
﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ... ﴿٢٤﴾﴾ ٢٤٨
النص العاشر: من سورة (الأنعام)
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ... ﴿٣٦﴾﴾ ٢٤٩
النصّ الحادي عشر: من سورة (الأنعام)
﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ... ﴿٣٩﴾﴾ ٢٥٠
النص الثاني عشر: من سورة (الأنعام)
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ؟ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٥١
النص الثالث عشر: من سورة (الأنعام)
﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ... ﴿١٠٤﴾﴾ ٢٥٢
النص الرابع عشر: من سورة (الأنعام)
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى
ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ... ﴿١٢٢﴾﴾ ٢٥٣
النص الخامس عشر: من سورة (غافر)
﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ... ﴿٥٨﴾﴾ ٢٥٧
النص السادس عشر: من سورة (فصلت)
﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ... ﴿١٧﴾﴾ ٢٥٨
النص السابع عشر: من سورة (فصلت)
﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ

الموضوع	الصفحة

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ... ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢٥٩

النص الثامن عشر: من سورة (الزخرف)

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٦٠

النص التاسع عشر: من سورة (الجاثية)

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ... ﴿٢٣﴾ ﴾ ٢٦١

النص العشرون: من سورة (الروم)

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ ٢٦٣

النص الحادي والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ... ﴿٧﴾ ﴾ ٢٦٥

النصّ الثاني والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ٢٦٦

النص الثالث والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ٢٦٧

النص الرابع والعشرون: من سورة (الأنفال)

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٢٦٩

تحليل كون الله يحول بين المرء وقلبه ٢٧٢

الموضوع	الصفحة

النص الخامس والعشرون: من سورة (محمد)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ... ﴿١٦﴾﴾ ٢٧٤

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٧٥

ومن سورة (المنافقون)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ ٢٧٥

النص السادس والعشرون: من سورة (الرعد)

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ ... ﴿١٦﴾﴾ ٢٧٧

النص السابع والعشرون: من سورة (الحج)

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٧٩

النص الثامن والعشرون: من سورة (المائدة)

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ... ﴿٧١﴾﴾ ٢٨٠

● المقولة الثالثة:

حول البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة والقرض ٢٨٤

مقدمة ٢٨٤

استعراض النصوص

النصّ الأول: من سورة (فاطر)

﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ ٢٨٧

النصّ الثاني: من سورة (النحل)

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ... ﴿٩٥﴾﴾ ٢٨٩

النص الثالث: من سورة (البقرة)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ... ﴿١٦﴾﴾ ٢٩١

الموضوع	الصفحة

النص الرابع: من سورة (البقرة)

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ ٢٩٢

النص الخامس: من سورة (البقرة)

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... (٧٩)﴾ ٢٩٥

النص السادس: من سورة (البقرة)

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ... (٨٦)﴾ ٢٩٦

النص السابع: من سورة (البقرة)

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا ... (٩٠)﴾ ٢٩٧

النص الثامن: من سورة (البقرة)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... (١٧٤)

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ... (١٧٥)﴾ ٢٩٩

النص التاسع: من سورة (البقرة)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ... (٢٠٧)﴾ ٣٠٢

النص العاشر: من سورة (آل عمران)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... (٧٧)﴾ ٣٠٣

النصّ الحادي عشر: من سورة (آل عمران)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ... (١٧٧)﴾ ... ٣٠٥

النص الثاني عشر: من سورة (آل عمران)

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... (١٨٧)﴾ ٣٠٧

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... (١٩٩)﴾ ٣٠٧

النص الثالث عشر: من سورة (النساء)

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)﴾ ٣١٠

الموضوع	الصفحة

النص الرابع عشر: من سورة (النساء)

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ... (٧٤) ﴾ . . ٣١١

النص الخامس عشر: من سورة (الصف)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢)
وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ ٣١٢

النص السادس عشر: من سورة (التوبة)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ... (١١١) ﴾ ٣١٧

النص السابع عشر وأشباهه: حول القرض

١ ــ من سورة (البقرة)

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (٢٤٥) ﴾ ٣١٩

٢ ــ من سورة (الحديد)

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (١١) ﴾ ٣١٩

﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (١٨) ﴾ ٣١٩

٣ ــ ومن سورة (التغابن)

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (١٧) ﴾ ٣١٩

خاتمة قسم أمثال القرآن ٣٢٣

القسم الثاني من الكتاب
صُورٌ من أدب القرآن الرفيع

مقدمة ٣٢٧

الصورة الأولى: من سورة (الملك)

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) ﴾ ٣٣٠

الصورة الثانية: من سورة (المرسلات)

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٣٣٧

الصورة الثالثة: من سورة (الأعراف)

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ٣٤٦

الصورة الرابعة: من سورة (البقرة)

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٣٥١

الصورة الخامسة: من سورة (المدثر)

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾ ... ٣٦٠

الصورة السادسة: من سورة (الغاشية)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٣٦٣

الصورة السابعة: من سورة (الفتح)
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا... ﴿٢٩﴾﴾ ٣٦٦
الصورة الثامنة: من سورة (الأنفال)
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴿٣٧﴾﴾ ٣٧٦
الصورة التاسعة: من سورة (الأعراف)
﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ ٣٨١
الصورة العاشرة: من سورة (القمر)
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ ٣٨٩
الصورة الحادية عشرة: من سورة (المؤمنون)
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ... ٤٠٠
الصورة الثانية عشرة: من سورة (الرعد)
﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ... ﴿١٧﴾﴾ ٤٠٣
الصورة الثالثة عشرة: من سورة (الفجر)
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾

الموضوع	الصفحة

وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ
فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ ٤٢٠

الصورة الرابعة عشرة: من سورة (يس)

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾
وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ
بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ٤٢٤

الصورة الخامسة عشرة: من سورة (الحجرات)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ
عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ
ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ
بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ٤٣١

الصورة السادسة عشرة: من سورة (الأعراف)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا . . . ﴿١٨٧﴾ ﴾ ٤٣٧

الصورة السابعة عشرة:

ظاهرة استقطاع النصوص من أزمانها الماضية أو المستقبلة، وعرضها بألفاظها
دون الإشارة إلى أنه كان كذا فيما مضى، أو سيكون كذا فيما يأتي، وأمثلة
على هذه الظاهرة من عدة سور ٤٤٤

الصورة الثامنة عشرة:
ظاهرة التنويع العجيب البديع في أساليب الأداء البياني القرآني، وأمثلة على هذه الظاهرة من عدَّة سور ٤٥٣
الصورة التاسعة عشرة:
وصف حال الإنسان إذا ركب الفلك وأحاطت به المهلكات تجاه الربّ الخالق جلّ وعلا، ويقاس على أشباهها ٤٦٥
وتدبر النصوص الخمسة الواردة في القرآن حول ذلك من سورة (يٓس) و (الإسراء) و (يونس) و (لقمان) و (الزخرف).
الصورة العشرون: من سورة (النور)
﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٥٠٢
خاتمة الصور الأدبية ٥٤٦
الخاتمة العامَّة للكتاب ٥٤٧
الفهـرس ٥٤٩

● ● ●

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة الطّبعة الثانية

المزيدة في مضمونها والمعدّلة في عنوانها

الحمد لله العليّ الأعلىٰ الوهّاب، منزِّل الكتاب، هدايةً وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على نبيّ الرحمة، من آتاه الله الحكمة وفَصْلَ الخطاب، وأنزل عليه معجزة البيان الخالدة، كتابَهُ المجيد، خاتمة كتُبه للنّاس.

وبعدُ: فإن كتاب «الأمثال القرآنية» الذي صَدَرَتْ طبعتُه الأولى سنة (١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م) قد وجَدَ بحمد الله لدى المهتمّين بالدراسات القرآنيّة البيانيّة قبولاً، لما فيه من جِدَّةٍ في الاستخراج والتَّقْعيدِ والتقسيم والتصنيف وتحليل النصوص وشرحها، حتى جعله بعض أساتذة الدراسات الأدبيّة من القرآن في الجامعات مرجعاً يرجع إليه الطلبة لدراسة الأمثال في القرآن المجيد.

وخلال هذه المدة الماضية ظهر في الساحة الأدبية علمانيّون حداثيون، أطلقوا فرية أن القرآن كتاب تشريعٍ فقط، وليس كتاباً مشتملاً على أدبٍ رفيع مُعْجز، ليستروا خطَّتَهُمُ الكيديّة الرامية إلى تجريد النصوص الأدبية الرفيعة لا سيّما القرآن والسُّنَّة، من معانيها التي تدلُّ عليها، بمقتضى الدلالات اللّغوية، في حقيقتها ومجازاتها، وبمقتضىٰ ضوابطها النحوية والصرفية، بغية إطلاق العنان للذين يضعون للنصوص الأدبيّة معاني من عند أنفسهم وتخيّلاتهم، على أساس أنّ النصّ كائن مستقلٌّ عن قائله، وعن مراد قائله منه، ضمن مقولتهم التي يردِّدونها: ينبغي أن يكون للنصّ الأدبيّ الواحد من المعاني بعدد قرّائه.

وبهذه الفِرْيَةِ المحدَثَةِ الحداثيّة يتمُّ في تصوّرهم القضاءُ على الثوابت الفكرية الإسلامية، ضمْن مكيدة هي أشدّ شناعةً من مكيدة الحركة الباطنية اليهودية القديمة، التي كانت تزعم أنّ النُّصوص الدينيّة لها ظاهر وباطن، فالظاهر الذي يُفْهَمُ منها بحسب أصول اللّغة في حقيقتها ومجازاتها هو بمثابة القشر، والباطنُ الذي يَفْتَرونَهُ هُمْ هو بمثابة اللّبّ، ثم يفسّرون باطن النّصوص بما يشاؤون من ضلالات، ينسفون بها الدين نسفاً من جذوره.

وجاءَتِ الحداثَةُ المعاصرةُ لتَنْسف كلّ النصوص، وتُفْسِدَ كلّ الأفكار والمعارف، ولا أشك أن المكر اليهوديّ وراء هذه الحداثة المعاصرة، لأن أئمتها باطنيُّون قرامطة، وشيوعيُّون، وملاحدة من الشرق والغرب، وبلاد المسلمين.

فرأيت من واجبي الدينيّ أن أنتصر بالفكر وبالدراسة العلميّة المتأنِّية، للحقّ الرَّبَّاني، وأستخرجَ من القرآن طائفةً من الصُّوَرِ الأدبيّة، وأُحلِّلها تحليلاً فكريّاً أدبيّاً، وأشرحها شرحاً بيانيّاً، بأسلوبٍ معاصر.

وقد فتح الله عليَّ في استخراج بعض هذه النصوص، وتَحْلِيلِها وشَرْحِها، ودُعيتُ إلى إلقاء محاضرات عامّة أَعرض فيها ما يُفَنِّد ادّعَاءاتِ الحداثيين، بالشواهد من الأمثلة القرآنية، وقد ألقيت محاضرتَيْن عامّتَيْن منها في قاعة المحاضرات الكبرى بجامعة أمّ القرى، بعنوان «صُوَر أدبيّة مِنَ القرآن المجيد».

ولمَّا اجتمعت لديَّ طائفةٌ حَسَنَةُ الكَمّ ظاهرةُ الدّلالة على المقصود في هذا المجال، من هذه الصُّوَرَ الأدبيّة المقرونةِ بالشَّرح والتحليل، ألهمني الله عزّ وجلّ أَنْ أضُمَّها إلى الأمثال القرآنية، وأجعلهما في كتابٍ واحد، نظراً إلى التشابه العامّ بين القسمَيْن، ونظراً إلى التداخل بينهما أحياناً، وأن أضَعَ للكتاب في صورته الجديدة عنوانَ: «أمثال القرآن وصُوَرٌ من أَدَبه الرفيع».

وإذْ قد نضجت الفكرة لديَّ استعنْتُ بالله العليّ الأَعْلَى الوهّاب، وأعَدْت النظر في كتاب الأمثال، فجوَّدت منه ما يحتاج إلى تجويد، وأضفت إليه شرح أمثلةٍ

تطبيقيّة، وضممت إليه قسم الصّور الأدبية التي فَتَح الله عليَّ في استخراجها من القرآن وشرحها وتحليلها تحليلاً أدبياً.

وبعد أن أكْملتُ بعون الله وتوفيقه وفتحه وتيسيره ترتيب الكتاب وفق خطته المعدَّلة المزيدة، كان عَلَيَّ أن أدفعه للطبع، رجاء أن ينفع الله به، وأن يكون خدمةً مبتكرة موفّقة لكتابه المجيد.

والحمد لله دواماً، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على محمّد النبيّ الأمّيّ رحمة الله للعالمين، وعلى إخوانه النبيِّين والمرسلين، وصحابتهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مكة المكرّمة

في شهر رجب ١٤١١ هجرية

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأُولَى

ربِّ لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثناء والمجد، وكلُّنا لك عبد. لا مانع لما أعطيتَ ولا معطي لما منعت.

وصلِّ اللهمّ على نبيّك محمد الذي أنزلتَ عليه القرآن كتاباً معجزاً لا يخلَق على كثرة الرَّدّ، ومَعيناً ثرّاً لا ينضب، للدين والخلق، وعلم السلوك، ومناهج سعادة الإنسان، والأدب، وفنون القول، وطرائق البيان، وطمأنينة النفس، وسكينة القلب، وسعادة الروح لمن واظب على تلاوته وتدبُّر معانيه، وغير ذلك من علوم.

وبعد: فهذه دراسة للأمثال في القرآن، اعتمدتُ فيها على منهج الاستقراء والتحليل والتدبُّر والتصنيف واستخلاص القواعد الكلّيّة واكتشاف الخصائص. وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في هذا العمل لاكتشاف منهج البيان القرآنيِّ في الأمثال، وهو عملٌ متواضع في خدمة القرآن العظيم، إلَّا أنّه مهمٌّ بحدّ ذاته، ويمكن أن يضاف إلى المكتبة القرآنية الزّاخرة بروائع درر هذا الكتاب العظيم.

وما سبق إليه علماء البيان في هذا المضمار لم أهمله في هذه الدراسة، إلّا أنني لم أتقيَّد به ولا بمصطلحاته، وذلك لأنني قصدت من الإفادة مما توصَّل إليه السابقون التحرُّرَ من القيود التي قد توقف عن البحث الذي يجب أن يسعى إلى الكمال، وينشدَه باستمرار، فلربّما لم يترك الأول للآخر في بعض الجوانب شيئاً، ولربّما ترك في جوانب كثيرة أشياء كثيرة.

وفي التحرُّر من بعض مصطلحات علماء البيان آثرت الاستعمال القرآني، واستخدام الألفاظ على وفق معانيها ودلالاتها العربية الأصيلة، عن طريق الحقيقة أو عن طريق المجاز؛ فأرجو أن يلاحظ البلاغيّون هذا، حتى لا يحاسبوني بمقتضى

مصطلحات متأخرة قفزت عنها إلى ما قبلها، لأدرس الأمثال القرآنية واضعاً في اعتباري الزمن الذي تنزَّل فيه القرآن، والأمة التي أنزل عليها غضّاً طرِيّاً.

وما ندَّ عن فكري وملاحظتي، أو فاتني إدراكه في هذا الموضوع، أو ما يمكن أن أكون قد قصَّرت فيه ــ أو أخطأت ــ فسيأتي مِن بعدي مَن يتمّ، أو يستدرك، أو يصحِّح، من أهل البحث والتأمُّل والنظر.

ويمكن أن تكون هذه الدراسة فصلاً من فصول إعجاز القرآن، وفصلاً من فصول علم البلاغة، إذ فيه رسمٌ لقواعدِ جانبٍ مُهمّ من جوانب البيان القرآني المعجز، وهو جانب الأمثال.

ربِّ أَلهمني الصواب، وسدِّدني، وافتح لي فتحاً مبيناً، واجعل عملي خالصاً لوجهك، وارفعني به عندك، وانفع به، واهْدِ به عباداً من عبادك، وأتمم عليَّ نعمتك، إنّك أنت الوهّاب، ولا حول ولا قوة إلاّ بك، وأضف إلى صحيفة أبي ما تَمُنّ به من أجرٍ على ثمرات الأعمال المبرورة التي توفقني إليها، فأنا غرسة من غرساته الكثيرات، علَّمني كثيراً، وأعطاني مفاتيح العلوم الإسلامية، وربّاني، وأرشدني إلى طاعتك والعمل في مرضاتك والجهاد في سبيلك، فاجزه عني وعن أمثالي خير الجزاء، واكتب في صحيفته مثل ثواب أعمال من علَّمهم وكان السبب في هدايتهم، وتربيتهم حتى كانوا علماء أعلاماً، وقادة دعوةٍ وجهاد في سبيلك، فقد بلغنا عن رسولنا الذي أرسلت لنا أنّك تمنح الأجر بفضلك العظيم على العمل الصالح وعلى ثمراته وآثاره وكلّ ما ينجم عنه من خير إلى يوم القيامة، دون أن ينقص ذلك من أجور العاملين شيئاً.

تباركت ربّنا وتعاليت، ولك الحمد على ما أنعمت به وأوليت، وصلِّ اللهمّ ربّنا على نبيّك ورسولك محمّد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين.

مكة المكرمة

في ٢٠ شوال سنة ١٣٩٩ هجرية

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

ينقسم الكتاب إلى قسمين

القسم الأول

حول الأمثال القرآنية

القسم الثاني

صور من أدب القرآن الرفيع

القسم الأول

حول الأمثال القرآنية

وفيه بابان

الباب الأول : القواعد العامة للأمثال القرآنية .

الباب الثاني : تطبيقات عامّة على الأمثال القرآنية .

الباب الأوّل

القَوَاعِدُ العَامَّة لِلأَمْثَالِ القُرآنيَّة

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول : مقدّمات عامّة .

الفصل الثاني : أقسام الأمثال .

الفصل الثالث : أغراض ضرب الأمثال .

الفصل الرابع : خصائص الأمثال القرآنية .

الفصل الأول

مُقدِّماتٌ عامَّةٌ

مُقَدِّمَاتٌ عَامَّةٌ

تَعْرِيفَاتٌ

ما هو المراد من المثل في الاستعمالات القرآنية؟

(١)

المثل القائم على التشبيه

الأصلُ في المَثَل أنَّه قائمٌ على تشبيه شيءٍ بشيءٍ لوجود عنصر تشابُه أو تماثُل بينهما، أو لوجود أكثر من عنصر تشابه.

ففي هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر بحسب تقدير الله وإتقان صنعته، ألسنا نلاحظ في ظواهر الأشياء ممّا تدركه الحواس أشباهاً ونظائر في أنواعها وأجناسها وأصنافها وأفرادها؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك، في طبائع الأشياء من كلّ ما خلق الله من نبات، وماء، وهواء، ونار، وتراب، وقوى، وطاقات، وغير ذلك ممّا بثّ في كونه من حيّ؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك، في طبائع النفوس، وأحاسيسها، وسلوكِ ذوي الإرادات الحرّة؟.

إن الملاحظة الذّكيّة تستطيع أن تتصيّد للشيء الواحد عدّة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير.

ولا يشترط في الشبيه أن يكون مطابقاً من كلّ الوجوه، بل يكفي فيه أن يُلْمَح منه جانب فيه شبَهٌ ما صالحٌ لتحقيق غرضٍ من أغراض التشبيه أو التمثيل.

وتمثيل شيءٍ بشيءٍ قد يكون تمثيلاً بسيطاً وقد يكون تمثيلاً مركّباً، ففي كلٍّ منهما تُضْرَبُ الأمثال.

أمّا التمثيل البسيط: فهو المشتمل على تمثيل شيءٍ بشيءٍ آخر مفرد يماثله بوجه من الوجوه، أو بجانب من الجوانب: كتمثيل من يحمل العلم ولا ينتفع به بالحمار الذي يحمل أسفار العلم على ظهره، وكتمثيل الجاهل بالأعمى، والعالم بالبصير، وكتمثيل الجهل بالظّلُمات، والعلم بالنور، وكتمثيل الجالس في مجلس العلم وهو لا يعي من العلم شيئاً بالخشبة المستندة إلى جدار، وكتمثيل القلوب القاسية التي لا تُحرِّكُها عاطفة نبيلة بالحجارة الصَّلْدة، وكتمثيل العلم المنزل من عند الله بالغيث الذي ينزل من السماء، وكتمثيل العلماء الدعاة إلى الله بنجوم الهدى، إلى غير ذلك.

وأمّا التمثيل المركّب: فهو التمثيل الذي يُقَدَّم على شكل لوحة تُصَوِّر أكثر من مفرد، والمماثلة الملاحظة بين هذه الصورة وبين الممثَّل بها ليست مأخوذة من مفرد بعينه، وإنّما هي مأخوذة منه ومن غيره، إمّا على شكل عناصر مفردة متلاقية، وإمّا على شكل وحدة مركّبة لا يشرط فيها التقابُل الجزئي بين مفرداتها وبين مفردات ما ضُرِبَ له المثل.

فالتمثيل المركَّب الآتي على شكل عناصر مفردة متلاقية يمكن أن نمثِّل له بما جاء في القرآن من تمثيل الإنفاق في سبيل الله بإخلاص بالحبّة التي تُزرع في أرض طيبة مباركة فتنبت سبع سنابل في كُلِّ سنبلة مئة حبّة، فلوحة التمثيل هنا تشتمل على حَبّ، وزرع، ونبات خصيب، وسنابل سبع لكلّ حبّة، ومئة حبّةٍ في كلٍّ سنبلة.

وإذا حلَّلنا العناصر في هذا المثل أمكننا أن نرجعه إلى عدّة أمثال بسيطة، فالبذل يشبه عملية الزرع، وتنميةِ الله له تُشبه النبتَ الجيِّد، ومضاعفةُ الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة وتكاثر الحبّ في كلّ سنبلة.

وروعة مثل هذا التمثيل تأتي من الدقة في تلاقي العناصر وتناسُقها في اللَّوحة التمثيلية، ومماثلة كلّ عنصر منها لعنصر مما ضرب له المثل.

والتمثيل المركَّب الآتي على شكل وحدة مركَّبة متداخلة، دون اشتراط

التقابل بين مفرداتها وبين مفردات ما ضُرِبَ له المثل، يمكن أن نمثل له بما جاء في القرآن من تمثيل المنافق المحتار المتردِّد بين الخوف والطمع، وبين الإيمان والكفر، وبين شهوات النفس المسيطرة على ساحتها وومضات الضمير، بالذي استوقد ناراً في ليل مظلم، ليرى طريقه، فلمّا أضاءت النار ما حوله وانكشفت عنه الظلمات انطمس بصره بسبب منه، فانحجب عن إدراك النور الذي حوله، فعاد إلى ظلمة قاتمة كان هو السبب فيها. هذا إذا ارتدَّ بنفاقه ردة نهائية عن إدراك الحق والإيمان به، فاللَّوْحةُ التمثيلية بجملتها تمثل حالته من دون اشتراط التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ما ضُرِبَ له المثل. أمّا إذا ظَلَّ المنافق متأرجحاً بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب، فيمكن أن نُطَبِّقَ عليه المثل الثاني الذي جاء في القرآن للمنافق، وهو مثل الذي يمشي في الظلمات فنزل عليه صيب[1] من السماء، مصحوب برعد وبرق، فإذا سمع الرعد الشديد جعل أصابعه في أذنيه من شدّة الصواعق حذر الموت، وإذا لمع البرق فأضاء له طريقه مشى فيه قليلاً، ثم إذا عاد الظّلام وقف مكانه، لا يسير في طريق الهدى. إنّ هذا الصنف من المنافقين لم يفقد القدرة على رؤية طريق الهداية ولا على سماع إنذارات الجزاء العادل، لكنّه حيران تتجاذبه المتناقضات. فلوحة المثل بجملتها تمثّل صورة هذا الصنف المنافق المتردّد المتذبذب الحيران، الذي تتجاذبه المتناقضات وهو قادر على أن يسمع الإنذارات التي تهزّ قلبه، ولكنّه يُعْرِض عنها، وحين يتلامع له نور الهداية الذي يكاد يخطف بصره لقوته يتأثر به، فيسير قليلاً في هدايته، ثم تغلبه نوازع نفسه، فتعود به إلى ظلمات الكفر. وإذْ تُمَثِّل لوحة المثل هنا بجملتها هذا الصنف من المنافقين، فقد يبدو من العسير علينا أن نجري تقابلاً جزئياً بين عناصر المثل، وعناصر ما ضُرِبَ له المثل.

هذان المثلان للمنافقين قد جاءا في قول الله تعالى في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

(١) الصّيب: المطر الغزير، والسحاب الممطر.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فقد اشتمل هذا النصّ كما هو واضح على مَثَلين للمنافقين، ومن تَدَبُّرِ هذين المثلين تبيَّن لي أنهما مَثلان لصنفين من المنافقين، كما أَوْضَحْتُ آنفاً، وليسا جميعاً لأيّ منافق، فالتنويع في التمثيل يُقصد منه ــ والله أعلم ــ الإشارة إلى صنفين من المنافقين:

(أ) فالأول للصنف الذي مَرَد على النفاق، فهو كافر ضمناً دون تردد، متظاهر بالإسلام كذباً وزوراً، لذلك جاء في وصف أفراده:

﴿صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون﴾.

(ب) والثاني للصنف المتذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب، وهذا الصنف لم تنطمس بصيرته انطماساً تاماً، بل يتلامع له نور الحق أحياناً فيراه، فيسير قليلاً فيه، ثم يعود إلى حالته الأولى، ولذلك قال الله في شأن أفراده:

﴿ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأَبْصارِهم﴾.

أي: إنهم لم يصلوا بعد إلى حضيض ﴿صمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

تلخيص:

فالأصل في المثل قائم على تمثيل شيءٍ بشيءٍ لوجود عُنْصرٍ أو أكثرَ من عناصر التشابه بينهما.

والتمثيلُ إمّا بسيط، أو مركّب.

فالتمثيل البسيط: هو المشتمل على تمثيل مفرد بمفرد.

والتمثيل المركّب: هو الذي يُقدِّم على شكل لوحة تُصَوِّرُ أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مُفْرَدٍ بعينِه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصُّورَة العامّة.

والتمثيل المركّب: إمّا أن يكون على شكل عناصر مفردة متلاقية، تقابل أمثالها في الممثَّل له. وإما أن يكون على شكل وحدة مركّبة متداخلة، تعطي بجملتها وجه الشبه، دون ملاحظة التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ما ضُرب له المثل. ولكن ربّما يكشفُ التحليلُ الدقيقُ رجوع بعض أمثلة هذا القسم الثاني إلى القسم الأول، ولا يُدْرِكُ هذا إلاَّ مَنْ وَهَبَهُ الله دقّة ملاحظةٍ، وقدْرةً على تحليلِ المركّبَاتِ إلى عناصرها البسيطة.

• • •

(٢)

إطلاق كلمة المثل بمعنى النموذج من ذي أفـراد متعـدّدة

ويُـطلق المثل في القـرآن ويُراد منـه ذكر نمـوذجٍ أو أكثـر لنـوع من الأنـواع، أو عمـل من الأعمال، أو سُنَّـةٍ من سنن الله، نظراً إلى التشـابه المـوجـود بين أفـراد النوع الواحد، أو نظراً إلى اطراد سنن الله وأعماله الحكيمة.

ثمّ يأتي القياس المستند إلى مبدأ شمول الأحكام للمتماثلات الذي تقضي به أصول الحقائق، أو تقضي به حكمة الخـالق في خلقه، وفي تصـاريفِ عَدْلِـه، وفي ثبات سُنَنِه، فينتج أحكاماً عامّةً تشمل سائر الأفراد المماثلة لما جاء في المثل.

وضمن هـذا الإطلاق نستـطيع أن نفهم المـراد من قول الله تعـالى في سـورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فهذا التعميم الموجود في هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكلّ نـوع ليقاس عليها سائر الأفراد المشابهة.

ويمكن الاستدلال بهذه الآيات على حجّيّة القياس إضافة إلى الحجج التي ذكرها علماء أصول الفقه.

ومن الأمثلة على هذا الإطلاق القرآني ما يلي:

١ ـ ضَرْبُ مَثَلٍ للّذين كفروا عن تصميمٍ وعنادٍ بامرأة نوح وامرأة لوط، ومعلومٌ أنهما من أفراد هذا النوع.

٢ ـ وضَرْبُ مَثَلٍ للّذين آمنوا في بيئة الكفر الطاغي، بامرأة فرعون.

قال الله تعالى في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

ويأتي القياسُ المستندُ إلى حكمة اللّهِ وعَدْلِه وثَوابت سُنَنِه فيُصْدِر أحكاماً عامّة على سائر أفراد النوع، بحُكْم التّماثل بين الأفراد الذي نَبَّه عَلَيْه ضَرْبُ المثل ببعض منها، فكلّ اللّواتي يُماثِلْنَ امرأة نوح وامرأة لوط ينطبق عليهنّ مثل ما انطبق عليهما، وكلّ اللّواتي يُماثِلْن امرأة فرعون ينطبق عليهنّ مثل ما انطبق عليها، ويعمّ القياس الرجالَ أيضاً.

٣ ـ وما جاء في القرآن من ضَرْبِ الأمثلة القياسية، كتمثيل الخَلْقِ الثاني الموعود به بالْخَلْقِ الأول الذي جرت وتجري أَحْداثُه، وغَدا يقيناً مشهوداً، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

ومن الأمثلة القياسية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

هذا المثل تضمَّن حجَّة قياسية، وفي هذه الحجة ردّ على النصارى الذين ادَّعَوا أنّ عيسى عليه السلام هو الله، أو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، على اختلاف مذاهبهم في ذلك. وكانت شُبْهَتُهم في ذلك أنه وُلِدَ من أمّ بلا أب، وأنه قد كان من مُعْجِزاته إِحْياءُ الموتى، فقال قائلون منهم: إذن هو ابن الله، وقال آخرون: بل هو الله ظَهَر على صورة إنسان، وقال الفريق الثالث: هو أحد أقانيم ثلاثة هي في مجموعها الله. وغلَوا في عيسى غُلوّاً كبيراً، مع أنه عليه السلام لا يَزيدُ على أنه عبد الله ورسوله، وقد جعله الله آيةً للناس، إذْ خَلَقَه من أُمّ بلا أب، وآتاهُ مِنَ المعجزات وخوارق العادات ما يَشْهَدُ له بصدق دعواه، إذْ قال لهم: إنّي رسُولُ الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أيْنما كُنْتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً.

ونقول في شرح الحجة القياسيّة التي اشتمل عليها هذا المثل: إذا كانت شُبْهةُ النصارى في عيسى عليه السلام تَسْتَنِدُ إلى أنه جاء من أمّ بلا أب، فإنّ آدم أَحْرىٰ بذلك منه، فقد خلقه الله من التراب مباشرة من غير أبٍ ولا أُمّ، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطلٌ فحجَّتهم في عيسى أشَدُّ بطلاناً، لأن وُجُودَها في عيسى أَضْعَفُ من وُجُودِها في آدم.

٤ ــ وما جاء في القرآن من بيانِ قَصَصِ الأوّلين، ومَا جَرىٰ لهم من أحداث، وما أَجْرىٰ الله عليهم من سُنَنِ عِقَابٍ أو ثوابٍ، فَقِصَصُهُمْ أمثالٌ ونماذج يُقاسُ عليها نظائرها، بمقتضى التشابه بين أفرادِ النَّوْعِ، وثَباتِ سُنَنِ الله المستندةِ إلى حكمته وعِلْمِه وعَدْلِه.

وأمّا إحياؤه الموتى فهي معجزة آتاه الله إيّاها لإثبات نبوته ورسالته، وهو لا يستطيع ذلك إلا بإذن الله، وهو نفسه لا يستطيع أن يدرأ عن نفسه الموت إذا أراد الله أن يهلكه، كما قال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

إن عرض عقوبات الأوّلين الذين كَفَروا وكَذَّبوا رُسُلَ ربِّهم، أمثالٌ قرآنية من هذا القبيل، وقد سَمَّاها الله أمثالاً، لأنها نَمَاذِجُ مِنْ حِكْمَته في إقامةِ عَدْلِه، وقَطْعِ دابِرِ الفسادِ المنتشرِ في الأرض.

فمن ذلك عرض قصص إهلاك عادٍ وثمودَ وفرعونَ وجنودِه وأصحابِ الأيكة وقَوْمِ تُبَّعٍ وقومِ لوط، وسائر الأمم التي قصَّ الله علينا قصص إهلاكها.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا.

فهذا الانتقام الذي انتقمه الله من فرعون وجنوده، قد جعله الله مَثَلاً يتَّعظ به مَن يأتي مِن بعدهم، فيقيسون عليه تَصاريفَ عَدْل الله في عباده، ويُلاحِظُون فيه نَمُوذجاً من حكمة الله في مُعَاقبة الطُّغاة، ومُجَازاة البغاة، وسمّاه الله مثلاً، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً وَمَثَلاً للآخِرِينَ﴾.

أي: مثلاً للّذين يأتون من بعدهم من الأمم على عدل الله وانتقامه، ممّن يصلُ إلى مثل ما وصل إليه فرعونُ وجنودُه.

وقال الله تعالى في سورة (النور/٢٤ مصحف/١٠٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فأبانت هذه الآية تقسيماً ثلاثيّاً لما جاء في القرآن:

فالقسم الأول: آيات بينات، وهي التي تتحدّث عن حقائق الدين، وتكشف طريقي الخير والشرّ في السلوك الإنساني.

والقسم الثاني: قِصَصُ الذين خَلَوْا من قَبْل، وسمَّاها الله مثلاً، لأن الغرض من ذكرها التنْبيهُ على سُنَّةِ الله في عباده، نظراً إلى أنها نماذج من تَصَارِيف الله وحكمته في مُجَازاة عباده.

وأبان الله هذا المعنى بقوله في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

وبقوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

ونظير ذلك قول الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: فإنه يأتيهم ما أَتَى لِلأَوَّلين مِنْ عذاب وهلاك، لأن ذلك من سُنَّةِ الله في عباده فَلْيَقيسوا أحوالَهم على أَحْوالِ من سَبَقُوهم من الكافرين وأعمالهم، ولْيَعْلَمُوا أنَّ سُنَّة الله لها صِفَةُ الثبات، وأنَّ عِقاب الله سينزل بهم كما نَزَل بالذين من قبلهم إذا استمرّوا على ما هم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحقّ.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾.

والقسم الثالث: هو ما جاء في القرآن من موعظة للمتقين، وهو قسم النصائح والوصايا التي يرتقي بها المتقون إلى مراتب الأبرار، فمراتب المحسنين.

ومن الشواهد القرآنية على استعمال الْمَثَلِ بمعنى النَّموذج الذي يُقَاس عليه من سُنَنِ الله في خلقه، ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾.

أي: وكل قوم من هؤلاء الأقوام الذين أهلكوا قد ضرب الله لهم الأمثال بمن سبقهم من الأمم التي أهلكها بكفرها وتكذيب رسُل ربّها وتمرُّدِها وفِسْقِها.

(ب) وقول الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ

نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: وضَرَبْنا لَكُم الأمثالَ مِمَّا أنزلنا من عِقَابٍ في الذين كفروا من القرون الأولى، لِتَتَّعِظُوا بها، وتَقِيسُوا أنفسَكم عليهم، وأعمالَكُم على أعمالِهم، ولتعلموا أنه سيحلُّ عليكم مِثلُ الذي حلَّ على الذين من قبلكم، متى انتهت مُدَّةُ إمْهَالِكم، وبَقِيتُم على كُفْركم وتَمَرُّدِكُم ومُقَاوَمَتِكُم لدَعْوة الحقّ.

(ج) وقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

فَمَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلهم وهم أتباع الرسل، هو أنَّهم لم يأتهم النَّصر حتى ابتلاهم الله بالبأساء والضرّاء وحتى زُلْزِلوا، وبذلك استحقُّوا النصر ودُخُولَ الجنة.

وفي الآية محذوف تقديره: ولمّا يأتكم مَثَلُ ما أَتَىٰ الذين خَلَوْا من قبلكم الذي هو مَثَلٌ مِنْ سُنَّةِ الله فيهم.

(د) وقول الله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿وأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: أي: وأصلح أحوالهم وشؤونهم وخواطرهم، لأن البال يطلقُ لغة على الحال والشأن والخاطر.

يبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه الآيات تتحدَّث عن ناسٍ مُعَيَّنين عاصروا النبي محمداً ﷺ، وهؤلاء فريق مِنْهُمْ كَفَرُوا وصَدُّوا عن سبيل الله فأضلَّ الله أعمالهم، أي: حَكَمَ عليهم بالضلالة، والْحُكْمُ بالضلالة يستتبع الجزاء العادل بالعقاب. وفَرِيقٌ منهم آمنوا بالله واليوم الآخر، وآمنوا بكلّ ما نُزِّل على محمَّدٍ علماً منهم بأنه هو الحقّ من ربّهم، فكفَّر الله بذلك عنهم سَيِّئاتِهم، وأثَابَهم ثواباً مُعَجّلاً فأصلح بالهم.

وحُكْمُ الله بالضلالة على الذين كفروا، وحُكْمُهُ بالهداية للذين آمنوا؛ من مظاهر حكمته جلّ وعلا: فالذين كفروا اتَّبَعُوا الْبَاطل، ومن اتَّبَعَ الباطل كان ضالاًّ، فكان الحُكْمُ عليهم بالضلالةِ هو الحكم الحقّ العادل. والذين آمنوا اتَّبَعُوا الْحَقّ المنزَّل عَلَيْهِمْ من ربّهم، ومن اتَّبَع الحقّ كان مهتدياً، فكان الْحُكْمُ لَهُمْ بِالْهِدَاية هو الحُكْم الحقّ العادل، وهذا يستتبع بفضل الله الجزاء بالثواب.

وهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم من الفريقين، هم أمثالٌ ضربهم الله للناس: فكلّ من جاء بعدهم من الناس وجد فريق الذين كفروا مثلاً يتعظ به، فلا يتّبعُ طريقته، حتّى لاَ يَكُونَ مِنَ الضَّالين، فينزلَ به جزاء الله العادل. ووَجَدَ فَريقَ الذين آمنوا مَثَلاً صالحاً يَقْتَدِي به، فيتّبع طريقته فيكون من المهتدين، فَيَظْفَرُ بفضل الله وثوابه الجزيل، وَيُكَفِّرُ الله عنه سيئاته، وَيُصْلِحُ باله.

وكهذه الأمثال التي ضربها الله للناس في هذه الآيات يضرب الله للناس أمثالهم.

(هـ) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

إلى آخر القصة المذكورة في هذه السورة، ففيها نموذجان لرجلين أحدهما مستكبر اغترَّ بما آتاه الله من مال وولد، فتطاول على صاحبه، فأعلن أن جنته لن تبيدَ، وأنكر بالظن قيام الساعة، فنصحه صاحبه فلم يستجب، فأنزل الله بجنته هلاكاً جعلها خاويةً على عُروشِها، والآخرُ مؤمن ناصح وثق بما عند الله من خير عظيم، فله عند ربه جنّات النعيم.

• • •

(٣)

إطلاق كلمة المثل بمعنى الوصف

وتُطْلَقَ كَلِمةُ (المَثَل) في القرآن ويُرَادُ مِنْها وَصْفُ الشَّيء بعبارة كلاميـة، نظراً إلى أنَّ الأوصاف التي تُذْكَر لشيءٍ ما تَرْسُمُ له مِثالاً وَصْفِيّاً بِدَلَالَات تعبيريَّة.

فتقع كلمة (الْمَثَل) بَدَلَ كلمةِ (الْوَصْف) فمن ذلك ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وصف الجنة التي وُعد المتقون أنها تجري من تحتها الأنهار، وأنَّ أُكُلَها دائم، وأنَّ ظلَّها دائم كذلك.

فالمثال الـذي رُسِم للجنة في هـذا النصّ ضِمْنَ لَوْحَـةٍ تَعْبِيريَّـة، قد أُبْـرِزَ فيه رَسْمُ أَشْجَارِها ذاتِ الثمار الدائمة التي لا تَنْقَطع، وأُبْرِزَ فيه رَسْمُ ظِلّها الدائم.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ...﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾: أي: وصف الجنة.

و ﴿الْمَاءُ الآسِنُ﴾: هو الذي تغير طعمه وظهر نتنه فهو غير صالح للشرب.

فالمثال الذي رُسم للجنَّة في هذا النَّص ضِمْنَ هَذِه اللَّوْحَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ، قد أُبْرِز

فيه رسمٌ لمجموعة أنهارٍ مختلفة الأنواع: فأنهارٌ من ماءٍ غير آسِن، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طعمه، وأنهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وجاء في بيان آخر أنها لا غَوْلَ فيها ولا يُنْزِف عنها شاربُها (أي: لا يسكر ولا يذهب عقله) وأنهارٌ من عسل مُصَفًّى. وأُبْرِزَ فيه أيضاً أن لأهل الجنة من كلِّ الثمرات، وأنَّ لهم مغفرةً من ربّهم.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ذلك مَثَلُهُمْ في التوراة﴾: أي: ذلك وَصْفُهُمْ فيها.

﴿ومَثَلُهُم في الإنجيل﴾: أي: وَصْفُهُمْ في الإنجيل.

﴿أخرج شَطْأه﴾: الشَطْءُ: فَرْخُ الزرع والنَّخْلِ. وشَطْءُ الزرع نَبَاتُه وفِراخه.

فَوَصْفُ أصحابِ محمد ﷺ في التوراة رَسَمَتْهُ صُورَةٌ تَعْبِيريَّة كَلامِيَّةٌ أُبْرِزَ فيها ما يلي:

أولاً: شِدَّةُ بأسهم في قتال الذين كفروا. وهذا الوصف يُلَاحَظُ فيه أبطال أشدَّاءُ مؤمنونَ مُسْتَعْلُون بقوَّتِهِمْ وبأسهم على الكفار.

ثانياً: رَحْمَتُهُمْ العظيمة، وتواضُعُهُمْ فيما بينهم. وهذا الوصف يُلاحَظُ فيه صُوَرُ العطفِ والتآخي والتراحُمِ والتَّوادِّ والتواضع فيما بينهم.

ثالثاً: عباداتهم الكثيرة المخلصة لله تعالى، فهم رُكَّع سُجُودٌ يدعون الله تعالى أَنْ يَهَبَهُمْ مِنْ فَضْلِه في الدنيا والآخرة، وأن يُسْبِلَ عليهم رِضْوانه، ويُلَاحَظُ في هذا الوصف مَشْهَدُ عِباداتهم في الصلوات والدعاء.

أَمَّا وصفهم في الإنجيل فقد جاء على شكل مَثَلٍ تشبيهي من الزرع، وقَدْ

صَوَّرَ هذا المثلُ التَّشْبِيهي نشأتَهُمْ، ونَماءَهُم، وتكاثرهم، وتآزُرَهم، وَوَحْدَةَ جَماعَتِهِمْ.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾: أي: كَمَنْ وَصْفُهُ الذي نُعَبِّرُ عَنْهُ في صورة كلاميَّة تماثل حقيقته، أنه في الظلمات ليس بخارجٍ منها، وهذا مثل الكافر المصرّ على كفره، الذي لا يريد أن يخرج من ظلمات الكفر إلى نُور الإيمان والإسلام.

وفي هذه الآيةِ يُمَثِّلُ الله تبارك وتعالى مَنْ لا دِين له ولا إيمانَ في قلبه بالميّت، فإذا آمن وأسلم أَحْيَاهُ الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، فالحيّ مثال للمؤمن المسلم.

٥ ــ وقول الله في شأن يهود بني النضير في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾: أي: كَصفة الذين من قبلهم، وهم يهود بني قينقاع، ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم، وقيل: كصفة كفار أهل بدر.

فأبان النصّ أنَّ وصف بني النضير كوصف بني قينقاع الذين ذاقوا قبلهم على

أيدي المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبالَ أمرهم، فأجلاهم الرسول من المـدينة بسبب ما كان منهم من شرّ، ونقضٍ للعهد والميثاق.

وعقب النصّ السابق من سورة (الحشر) قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وفي هـذا النصّ تشبيه حـال المنافقين وحلفـائهم من يهود بني النضيـر بحـال الشيطان إذْ قال للإنسان: اكفر. فلمّا كفر قال: إنِّي بَريءٌ منْكَ.

وذلك أن المنافقين قالوا لهم كما جاء في سورة (الحشر):

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

ولكنّ الله قال في شأن المنافقين كما جاء عقبه في السورة نفسها:

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وكـذلك كـان من أمرهم حين حـاصرهم الـرسـول وأجـلاهم عن المـدينـة، لم ينصـرهم إخوانهم المنـافقون. فكـان حال المنـافقين وإخوانهم من يهـود كحـال الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر. وكان الْوَصْفُ هنا شبيه الوصْفِ هناك.

٦ ــ وقول الله تعالى لرسولـه محمد ﷺ في سـورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰ

﴿أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿**انظر كيف ضربوا لكَ الأمثال**﴾: أي: انظر كيف وَصَفُوكَ بما ليس فيك ظلماً وعدواناً؛ فقالوا: رجل مسحور، وقالوا ـ كما جاء في نصوص أخرى ـ: شاعر، ومجنون، وكذَّاب.

ونظيره ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

أي: انظر كيف وصَفُوك بما أنت منه بريء؛ فقالوا: مفترٍ كذّاب، وقالوا: رجلٌ مسحور.

٧ ـ وقول الله تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف ٦٣ نزول):

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿بما ضرب للرحمن مثلاً﴾: أي: بِمَا وَصَفَ اللَّهَ بِـه من أنَّ الملائكـة بنات الله.

لقد وَصَفَ أهلُ الجاهِليَّةِ الله بهذا الوصف، مع أنهم يكرهون لأنفسهم البنات، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم، يكظم غيظه، ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، أيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أمْ يدُسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾؟!

كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف ٧٠ نزول) في الآيتين (٥٨ ـ ٥٩).

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾: أي: وجعلوا له من عباده الذين خلقهم مواليد له، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وذلك إذ زعموا أن الملائكة إناث، وأنَّهنَّ بنات الله.

ويقال لغة: أجزأتِ المرأة إذا ولدت أُنْثى، وعليه قول الشاعر العربي:

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَبٌ ... قد تُجْزِىء الحُرَّة المِذْكارُ أحياناً

أي: إن ولدت امرأة حُرَّةٌ بنتاً فلا عجب، فقد تَلِدَ الإناثَ أحياناً الحرّةُ التي من عادتها أن تنجب الذكور.

٨ ـ وقول الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف ٦٢ نزول):

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فيمكن أن نقول في ﴿ليس كمثله شيء﴾: ليس كوصفه شيء، أي: لا يُشْبِهُ أوصافه شيءٌ من الأشياء. وذلك لأنَّ المِثْلَ والْمَثَل يستعملانِ بمعنى الوصف.

وبهذا ينحل الإشكال الذي ألجأ الْعُلَمَاء إلى تأويل اجتماع كلمتي تشبيه، هما: (الكاف) و(مثل) وهل الكاف زائدة، أو للتأكيد، أو أنَّ المراد نفي مثل المثل، فنفي المثل من باب أولى، إلى غير ذلك من كلامٍ طويل حول هذا التعبير.

ونظيره ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ و﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَان عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ و﴿مَثَل الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾.

والمعنى: وَوَصْفُ من أخلد إلى الأرض واتَّبَع هواه في كدحه سعياً لبلوغ ما يهوى ويشتهي من الحياة الدنيا يشبه وصْفَ الكلب، إن تحمل عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْه يَلْهَثْ، فهو لاهثٌ باستمرار، وكذلك من أخلد إلى الأرض واتبع هواه هو لاهث سعياً وراء أهوائه وشهواته باستمرار، لا يقرّ له قرار.

ووَصْفُ الَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئَاء الناس ولَا يؤمن بالله واليوم الآخر يُشْبِهُ وَصْفَ من يَـزْرَعُ زرعَه في تُراب رقِيق على حَجَر صَلْد أملس، إذا نزل عليه الوابل من السماء انسفح الترابُ والحبُ، ولَمْ يَخْرُجِ الزرعُ.

وَوَصْفُ المنافقينَ الَّذين مَرَدُوا على النفاق يُشْبِهُ وَصْفَ الذي استوقد ناراً فلما أضاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذهَبَ الله بنورهم وتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ.

ووَصْفَ الَّذِين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أولياء يَلْجَؤُون إليهم ويعتمدون عليهم، يشبه وَصْفَ العنكبوت التي اتَّخذت لِنَفْسِها بيتاً واهياً، وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم نصوصاً قرآنية كثيرة، وبتفسير كلمة (مَثَل) أو (مِثْل) بمعنى الوصف تنحلّ إشكالات لفظية كثيرة يتعب كثير من

المفسِّرين في تخريجها وتوجيهها، مع أنَّ المفسّـرين قد ذكـروا أنَّ كلمة (مَثَـل) قد جاءت بمعنى الوصف في عدة آيات، منها «مَثَلُ الْجَنَّـةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُـونَ» قالـوا: وَصْفُ الْجَنَّة. ومنها «وَلِلَّه المَثَلُ الأعلى» أي: له الوصف الأعلى.

الخـلاصـة:

فتحصَّـل لدينـا أن كلمة (مَثَـل) أو (مِثْـل) قـد تـرد في القـرآن بمعنى وصف الشيء بعبـارة كلاميـة، نظراً إلى أنَّ الأوصـاف التي تُذْكَـرُ لشيءٍ ما تـرسم له مثـالاً وصفيّاً بدلالات تعبيرية كلامية.

* * *

اعتراض الذين كفروا على بعض الأمثال القرآنية

ذكر المفسِّرون أنَّ فريقاً من المنـافقين وفريقـاً من المشركين وفـريقاً آخـر من اليهود، أوردوا شبهة تتعلَّق ببعض الأمثـال القرآنيـة، وهي التي ضرب الله فيهـا مثلاً بالذباب، والعنكبوت، والنحل، والنمل، ونحو ذلك. فقالوا: لا يليق ذكر مثل هـذه المحقرات بكلام البلغاء، واتَّخذوا ذلك حجَّةً للطعن في صِحَّةِ نسبة القرآن إلى الله تعالى.

وقـد ردَّ الله عـزَّ وجـلّ هـذه الشبهـة بقـولـه في سـورة (البقـرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فأبان الله تعالى في هذا أنه لا يستحيـي أن يضرب مثلاً أيَّ مثل، سـواءٌ أكان

هـذا المثلُ بعـوضةً أو شيئـاً آخر فـوق البعوضـة، لأنَّ الله تعالى يقـول الحقّ، والله لا يستحيـي من الحقّ.

حين يكـون التمثيل بـالمخلوقات التي يـراها النـاس في أعينهم حقيرة طـريقاً قريباً لبيان الحقّ، فليس في ذكرها والتمثيل بها ما يدعو إلى الاستحياء، يضاف إلى هذا أن الله تبارك وتعـالى قد خلق جميـع الكائنـات الحية، من أدنـاها إلى أرقـاها، وجعل في كلِّ نوعٍ منها أدلَّة كثيرة على كمال قدرتـه وكمال علمـه وكمال حكمتـه. ووجَّه أنظار الناس إليها ليتفكروا في خلقها، ويتأمَّلوا في إتقان صنعهـا، حتى تكون طريقهم لمعرفة خالقهم وخالق كلّ شيء. فهل استحيـىٰ سبحـانه وتعـالى من خلقها ووضعها أمام أسماع الناس وأبصارهم حتى يستحيـي من ذكرها والتمثيل بها؟

إنَّ في هـذه المخلوقات التي يحتقـرها النـاس آياتٍ مـدهشـات على عـظمـة الخالق وحكمته، وقد ارتقت هذه المخلوقـات في نظر العلوم الحـديثة إلى مستـوى الدراسات المستفيضة المضنية الجادَّة، وكتب فيها العلمـاء كتباً كثيـرة، سجَّلوا فيها خصائص هذه المخلوقات وصفاتِها وأنواعَ سُلوكهـا، فلم يعُد التمثيـل بها لـدى كبار علماء الكون أمراً مستنكراً ولا مستهجناً، بل مَدْعَاةً لتوجيه الاهتمـام بشأنهـا ودراسة أنـواعها بـإمعان، وقـد كـان استنكـار الـذين كفـروا للتمثيـل بهـا نـاشئـاً عن جهـل أو تجاهل، فبعضهـم كان جاهلاً، وبعضهم كان متجاهلاً.

أمَّا المؤمنون فالعلماء منهم يفهمون الأمثال القرآنية ويتعظون بها، والآخـرون الذين قد لا يَصِلُون إلى مستـوى الفهم المطلوب يعلمـون أنَّها حقٌّ من عنـد ربهم، فيؤمنون بها، لأنهم آمنوا بأنَّ القرآن كُلَّه تنزيل من لدن حكيم حميد.

وفي المؤمنين جميعاً قال الله تعالى:

﴿فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقّ من ربّهم﴾.

ولمّـا كان إنكـار المنكرين نـاشئـاً عن كفـرهم وفسقهم، كـان من حكمـة الله وعدله أن يحكم بضلالتهم.

ولمّا كان علم المؤمنين بأنه الحقّ من ربّهم ثمرةَ إيمانهم، كـان من حكمة الله أن يحكم لهم بالهداية.

وفي الحكم بالضلالة والحكم بالهـداية على وفق الحكمـة قال الله تعـالى في ختام الآية:

﴿يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضُلّ به إلاَّ الفاسقين﴾.

● ● ●

الفَصل الثاني

أَقسَامُ الأَمْثَال

أَقسَامُ الأَمْثَال

(١)

تقسيم أول للأمثال

سبق في التعريفات بيانُ أنّ المثَلَ القائمَ عَلَى تمثيل شيءٍ بشيءٍ لوجود عنصرٍ أو أكثرَ من عناصر التشابه بينهما ينقسم إلى قسمين:

أولاً ــ التمثيل البسيط:

وهو المشتمل على التمثيل بمفرد، لأنّ المُمَثَّل لهُ يُشَابِهُ الممثَّل به من وَجْهٍ من الوجوه أو جانبٍ من الجوانب، كتمثيل الجاهل بالأعمى، والعالم بالبصير، والجهل بالظلمات، والعلم بالنور.

ثانياً ــ التمثيل المركب:

وهو الذي يُقَدَّمُ على شَكْلِ لَوْحَةٍ تُصَوِّر أَكْثَر من مفرد، وَوَجْهُ الشَّبَهِ فيه لا يكون مأخوذاً من مفردٍ بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصورة العامَّة.

والتمثيل المركَّبُ ينقسم إلى قسمين:

(أ) إما أن يكون على شكل عناصرَ متلاقيةٍ تُقابِلُ أمثالَها في المُمَثَّلِ له، كتمثيل الإنفاق في سبيل الله بإخلاصٍ، بالزرعِ الذي تُزْرَعُ فيه الحبوب في أرض طيبة مباركة فَتُنْبِتُ الْحَبَّةُ منها سَبْعَ سنابل في كلّ سنبلة مئة حبة. فالإنفاق يشبه عملية الزرع، وتَنْمِيةُ الله له يشبه النبت الجيّد، ومضاعفةُ الأجر تُشْبهُ تكاثر السنابل من الحبة الواحدة، وَتَكاثُرَ الحبِّ في كلِ سنبلة.

(ب) وإمّا أَنْ يَكُونَ على شَكْلٍ وَحْدَةٍ مُرَكَّبةٍ مُتَداخِلَةٍ، تُعْطِي بجملتها وجْهَ الشَّبه، دونَ مُلاحظة التقابل الجزئي بين الممثَّلِ به والممثَّلِ له.

كالمثل الذي ضربه الله لفريق من المنافقين إذ قال في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وكالمثل الذي ضربه الله لفريق آخر من المنافقين إذ قال عقب النص السابق:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

• • •

(٢)

تقسيم ثانٍ للأمثال
من جهة كون الممثَّلِ به والممثَّلِ له
مِمّا يُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر أو لا يدركُ به

كلُّ مَعْلُومٍ إِمَّا أن يكون شيئاً يُمْكِنُ إِدْراكُهُ بالحواسّ الْخَمْسِ الظَّاهِرَة، السَّمع والْبَصَرِ والشَّمّ والذَّوْقِ واللَّمْسِ، وإِمّا أَنْ يَكُونَ معنىً من المعاني، أو شعوراً يحسّ به الوجدان، كالأفكار، والعواطف، والانفعالات، وكلّ أنواع الشعور النفسيّ الباطن.

وبتأمل قليل نستطيع أن نتبين أنّ تمثيل شيءٍ بشيءٍ قد يكون بين مدركين بالحسّ الظاهر، كمرئيَّيْنِ بالعين، وقد يكونُ بين مُدْرَكَيْنِ بالحسّ الْبَاطِنِ، كالمدْرَكاتِ الفكرية والوجدانية، وقد يكونُ الممثَّلُ بِه مُدْرَكاً بالحسّ الظاهر، والممثَّلُ لَهُ غير مدركٍ به، وقد يكون عكس هذا، وقد تأتي الصورة التمثيليَّةُ مختلطةً من القسمين.

فالتقسيم العقلي يقدِّم لنا خمسة أقسام:

القسم الأول: تمثيلُ مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

القسم الثاني: تَمثيلُ مُدْرَكٍ فِكْرِيّ أَو وِجْدَانِيّ بمُدْرَكٍ فكري أو وجداني.

القسم الثالث: تَمْثيلُ مُدْرَكٍ فِكْرِيّ أو وِجْدانِيّ بمُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

القسم الرابع: تَمْثيلُ مُدْرَكٍ بالْحِسّ الظّاهر بمُدرَكٍ فكريّ أو وجدانيّ.

القسم الخامس: الصُّورَةُ التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المُدْرَكَة بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية.

* * *

أمثلة لهذه الأقسام الخمسة

١ ــ فيُمْكِنُ أن نُمَثِّل للقسم الأول (وهو تمثيلُ مُدْرَكٍ بالحسِّ الظاهر بمُدْرَكٍ بالحسِّ الظاهر) بتمثيل العودة إلى الحياة بعد الموت، بالنَّبات الذي يَعُودُ إلى الحياة عن طريق بزوره، بعد حصاده الذي يشبه موت حياته الخضراء.

فالصورتان بينهما تَماثُلٌ، وكلتاهما ممّا يدركُ بالحسِّ الظاهر.

ونظيره تمثيل أصحاب محمد وتَكَاثرِهم بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه. وتمثيلُ عيسى عليه السلام إذ جاء من أمّ فقط، بآدم عليه السلام إذْ جاء من دون أبٍ ولا أمّ. فكلا المتماثلين في المثلين ممّا يدركُ بالحسِّ الظاهر.

٢ ــ ويُمْكِنُ أن نُمثِّل للقسم الثاني (وهو تمثيل مُدْرَكٍ فكريّ أو وجدانيّ بمُدْرَكٍ فِكْرِيّ أو وجدانيّ) بتمثيل الْخَشْيَةِ مِنَ الناس بالخشية من الله، قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴿٧٧﴾﴾.

ويمكن أن نمثّل له بأن نلاحظ شبهاً بين النِّفاق والْحَيْرَةِ، أو بين النفاق والْقَلَق النفسيّ، وشَبَهاً بين الإيمان وطُمَأنينة النفس، أو بَيْنَ الإيمان والسعادة، وشبهاً بين لذّة الوصول إلى المعرفة ولذّةِ تحقيق شهوة من شهوات النفس.

٣ ــ ويمكن أن نمثّل للقسم الثالث (وهو تَمْثِيلُ مُدْرَكٍ فكريّ أو وجدانيّ بمُدْرَكٍ بالحسّ الظّاهر) بتمثيل العلم بالنور، وتمثيل الإيمان بالبصر، أو بالهداية إلى

الطريق. وتمثيل الجهل بالعمى. وتمثيل الكفر بالسير في الظلمات. وتمثيل من يتّخذ من دون الله أولياء بالعنكبوت التي تنسج لنفسها بيتاً واهياً. وتمثيل من يَنْقُضُ العهدَ بالمرأة الحمقاء التي نقضت غزلها من بعد قُوَّةٍ أنكاثاً. وتمثيل إبطال أعمال الذين كفروا بربّهم برماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف فنسفته وبدّدته فلا تَجِدُ لَهُ أثراً. وتمثيل حال المنافق الذي مَرَدَ على النفاق بالذي استوقد ناراً فلَمَّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ بَصَرُهُ فهو لا يرى شيئاً. وتَمْثيلُ حَالِ المُنافق المتردِّد المتذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب بمن يكون في صَيِّبٍ من السماء فيه ظُلماتٌ ورَعْدٌ وبَرْق، إنه يخشى الصواعق فيجعَلُ أصابعه في أذنيه، وتَنْدَفِعُ نفسُه إلى النجاة فيَمْشِي قليلاً في ضوء البرق المتلامع، ثم يرجع إلى حالته فيقف في الظلمات، هذه هي صورة الحالة النفسية للمنافق المترَدِّدِ الحيران.

وأمثلة هذا القسم كثيرة جدّاً لما فيه من تقريب المعنويات بالحسّيات.

٤ ــ ويمكِنُ أن نُمَثِّل للقسم الرابع (وهو تمثيل مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمُدْرَكٍ فكريٍّ أو وجداني) بتمثيل الأُمّ بالمحبّة. وتمثيلِ الأعداءِ بالأحقاد والكراهية. وتمثيلِ الانفجارات النارية والانفجارات البركانية بالغيظِ العنيف في نفوسِ المغتاظين، ومنه وصف جهنّم في قول الله تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ . . . ﴿٨﴾﴾.

فمثَّل ضَغْطَ تَوقُّدِها الداخلي بالغيظ في نفوس المغتاظين، الذي يضغط داخل الصدور، فهي منه تكاد تَمزَّق وتَتميَّز.

٥ ــ ويُمْكِنُ أن نُمَثِّل للقسم الخامس (وهو المشتملُ على الصُّورة التَّمثيليَّة المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المدْرَكَةُ بالْحِسِّ الظَّاهر بالْمُدْركاتِ الفكرية أو الوجدانية) بالتمثيل القرآني للحياة الدنيا المنحَصِرَةِ باللَّعب واللَّهْوِ والزينة والتفاخر والتكاثر؛ بِغَيْثٍ من السماء أَعْجَبَ الْكُفَّار نَباتُه، ثم يَهِيجُ فَيَصْفَرُّ، ثم يأتي

حَصاده فيتكسَّر ويتحطَّمُ وينتهي. فالممثَّلُ له الحياة الدنيا، وفيها أشياء مدركةٌ بالحسّ الظاهر، وأمورٌ فكرية، وأمورٌ نفسيّة وجدانية، وكل هذه الأمور ممتزجةٌ في لَوْحَةٍ متحركة بحركة الزمن. ثم يأتي التمثيل، فنجده لَوْحَةً صغرى من الحياة نفسها، وفيها جُمْلَةُ عناصر: غيثٌ من السماء، نجمَ عنه نبات بديع تحرّكت لمشهده نفوس الزُّرَّاع بِالإِعْجاب، وهذا أمرٌ وجداني، ثمّ مرَّ الزَّمَنُ من اللّوحة التمثيلية المتحرّكة، فآذَنَ دَوْرُ النبات بالانتهاء فهاجَ فاصفرّ، ثمّ تكسَّر وتحطَّم وانتهى، وكذلك الحياة الدنيا بكلٍّ ما فيها.

ففي هذه اللَّوحة التمثيلية دخَلَتْ أشياءُ تُدْرَكُ بالْحِسِّ الظّاهر، وأشْياءُ أُخْرى فكرية ووجدانية، ومنها الحركة، والحياة، ومرور الزمن، وأحاسيسُ النفوس وَمَشاعِرُها، فالتَّمْثِيلُ بهٰذِه اللَّوحَاتِ الممتزِجَةِ الْجَامِعَةِ من أرْقَىٰ أنواعِ التَّمْثِيل.

والنص القرآني الذي اشتمل على هذا التمثيل هو قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿أعجب الكفّار﴾: أي أعجب الزّراع.

﴿يهيج﴾: أي يصفرّ وييبس.

• • •

(٣)

تقسيم ثالث للأمثال
من جهة كون المَثَل صورةً منتزعةً من الواقع أو من الخيال

لدى تتبّع الأمثال يتبيّن لنا أن الصورة الواردة في المثل: إما أن تكون صورة منتزعة من الواقع، وإما أن تكون صورة منتزعة من الخيال.

(أ) فمن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الواقع تَمْثِيلُ الّذي يُنْفِقُ مالهُ رِئَاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، بزارعٍ يَـزْرَعُ بُزُوره في تراب رقيقٍ مبسوط على صخرةٍ صمَّاء مَلْسَاء، إذا نزل عليها غَيْثُ السماء سَفَح الترابَ والبزورَ معه، وَجَرَفَها السَّيل، فَتَرك مزرعَتَه حَجَراً صَلْداً أمْلَسَ لا شيء عليه، فهو لا يطمع بنبات ولا ينتظرُ حصاداً. فالصُّورة التمثيلية هنا مُنْتَزعةٌ ومُقْتَبَسَةٌ من الواقع في الأحداث الكونية.

ومنها أيضاً تَمْثِيلُ الذي يُنْفق مالَه ابتغاءَ مَرْضَاةِ الله وتثبيتاً من نَفْسِه لقاعدة الإيمان في قَلْبه ولفَضيلةِ خُلُقِ الجودِ عنده، بزارعٍ حصيفٍ عاقلٍ، يزرع حبَّهُ في جنّةٍ سَمِينَةِ التربةِ، بِرَبْوَةٍ لا تجرفها السيول، فنزلَ عَلَيْها المطرُ الغزيرُ فآتت أُكُلها ضعفين، فإن لمْ يُصِبْها المطَرُ الغزير كفاها الطَّلُّ ــ وهو المطر الخفيف ــ لتُعطي الثمر الطيب المضاعف.

فهذه الصورة التمثيلية صُورَةٌ منتزعةٌ ومقتبسةٌ من الواقع.

(ب) ومن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الخيال، تمثيلُ طَلْعِ شَجَرة الزّقّوم التي تخرج في أصل الجحيم بصورة رؤوس الشياطين.

فالناس لا يعرفون صورة رؤوس الشياطين، ولكن في خيالهم صُورةٌ قبيحةٌ منفِّرَةٌ مخيفة للشياطين ورؤوسهم، وهي أقبح وأخوف صُورةٍ يتخيَّلونها.

وقد جرى تمثيل طلع شجرة الزَّقوم في جهنَّم بأقبح صورة وأخوفها يمكن أن يتخيّلها الناس. إن الشياطين أقبحُ وأخبثُ ما في الوجود، والصورةُ التي يَنْسُجُهَا خيالُ الناس لَهُمْ هي أقبح وأخبث صورة، فالتمثيل بها تمثيلٌ منتزع من الخيال، لا من الواقع، وقد يكون الواقع كذلك، لكنّ المخاطَبِين قد خوطبوا على مقدار ما في خيالهم. وفي عرض هذا التمثيل يقول الله تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿نُزُلًا﴾: النُّزُل: الْمنزل. والنُّزُلُ: الرِّزقُ وما يُهَيَّأ للضيف من ضيافة، والجمعُ الأنْزال وهي المآكل التي يُتَقَوَّتُ بها، وبهذا المعنى فُسِّرت كلمةُ «نُزُلًا» هنا.

﴿شجرة الزَّقّوم﴾: هي شجرة خبيثة تَنْبُتُ في أَصْلِ الجحيمِ، وقد جاء ذكرها في القرآن في ثلاثة مواضع:

الأول: هذا الذي في (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

الثاني: ماجاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

الثالث: ما جاء في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

فشجرة الزَّقّوم شَجرةٌ جهنميّةٌ كَرِيهـة المنظر، طَلْعُهـا كأنـه رؤوس الشياطين، وهي طعـام الأثيم من نزلاء جهنم المعـذَّبين فيهـا، إنَّهم فيهـا مضـطرون أن يـأكلوا منهـا، لأنَّهم لا يَجِدُون مـا يأكلونـه غيرهـا، حين يشتدّ بهم الجـوع، فيملؤون منهـا بطونهم، وما يُؤْكَلُ من هذه الشجرة الجهنّميّة يُشْبِهُ الْمُهْل، والْمُهْـل اسم يطلق على المنصهـر الذائب من المعـادن، ويطلق على نـوع من القطران، ويـطلق على عَكَـر الزيت، ويطلق على العكر الذي يغلي من الزيت.

ومـا يؤكل من شجـر الزّقـوم يغلي في البـطون من شـدَّةِ حـرارتـه، كمـا يغلي الحميم. فيشتدّ ظمأ المعذبين الذين أكلوا من شجر الزَّقُّـوم في جهنم، فلا يجـدون إلّا حميماً يشربونه، فيشربون منه لِيُطفئوا ظمأهم، لكنّه لا يُـطْفىء الظّمـأ، فيشربـون ويشـربون كمـا تَشْرَبُ الْهِيم، وهي الإِبـل المصابـة بداء الْهُيَـام، وهـو داء يجعلهـا لا تروى مهما شربت.

﴿لَشَوْباً من حَمِيم﴾: الشَّوْبُ اسم عامّ لكل ما خُلط بغيـره. والحميم: الماء الحارّ المتناهي في الحرارة.

ويَـظْهرُ أنَّ المعـذَّبين بهذا العـذاب يُضطرون أن يَـرْحَلُوا إلى أَصْـلِ الجحيم حين يشتـدّ بهم الجوع، ليـأكلوا من شجر الـزَّقّوم ويَشْـرَبوا عليـه من الحميم، فـإذا مَلَؤوا بُطُونَهم عادُوا إلى أمـاكِنِهم في جَهَنَّمَ، دلَّ على هذا قـول الله تعالى: ﴿ثمّ إنّ مَرْجِعَهُم لإِلَىٰ الْجَحِيم﴾.

أمّا كَوْنُ شجَـرةِ الزَّقُّـوم فتنةً للظالمين، فقـد ذكر المفسـرون في تأويلهـا عدّة آراء، وهي في جملتها لا تخلو من إشكالات. وبالرُّجُـوع إلى معاني كلمـة (الفتنة) في اللّغـة وجدت أنَّ أصـل هـذه الكلمـة مـأخـوذ من قـول العـربي: فتنتُ الفضَّـةَ والذهب، إذا أذابهما بالنار ليميز الرديء من الجيد. ويقول العرب: دينار مفتون إذا

أُدْخِلَ النَّارَ لاكتشافِ جَوْدته. والْفَتْنُ: الإحراق. ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: «يَوْمَ هُمْ عَلَىٰ النَّار يُفْتَنُون» أي يحرقون بالنار. والفتنة: الإحراق بالنار. ويُسَمَّى الصائغ الفتان، لأنه يستخدم النار فيما يصُوغُ من حُليّ (انظر لسان العرب).

وباستطاعتنا في ضوء هذا المعنى أن نفهم دون أي إشكال قول الله تعالى في وصف شجرة الزَّقوم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾.

فإذا كانت الفتنة عَرْضاً على النار وإحراقاً بها، وإذا كانَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم طعاماً لاهباً يغلي في البطون كغلي الحميم، كان من أوجه المعاني وأَقْرَبِها أن نقول: إنّ شجرة الزَّقّوم الجهنّميَّةَ شجرةُ تعذيبٍ للظالمين بإحراق داخلي في بُطُونِهِمْ، إنهم يأكلون منها من شدَّةِ جُوعِهِمْ ثم يكونُ ما أكلوه كنارٍ لاهبةٍ تحرقهم من داخِل بطونهم.

أمّا تأويلات المفسّرين فمعظمها يدور حول معنى الافتتان بالشيء، ومعنى الابتلاء والامتحان من معاني كلمة (الفتنة)، لذلك كانت تأويلاتٍ لا تخلو من إشكال. ومعلوم أنَّ الدار الآخرة دار جزاء، لا دَارُ ابتلاء، وأمّا امتحانُ المكذبين في الدُّنيا بذكر شجرة تَنْبُتُ في النار يَوْمَ القيامة فيفتنهم هذا فيبالغون في كفرهم، فتأويل ضعيف جدّاً، وخُرُوجٌ بالنصِّ عن أَصْلِ غرضه الرَّامي إلى بيان عذاب الظالمين يوم الدين، والله أعلم.

جدول أقسام الأمثال

[١] التمثيل البسيط

وهو المشتمل على التمثيل بمفرد.

[٢] التمثيل المركب

وهو الذي يقدم على شكل لوحة تصور أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينه بل منه ومن غيره.

[١] وهو إمّا أن يكون على شكل عناصر متلاقية تقابل أمثالها في الممثَّل له.

[٢] وإمّا أن يكون على شكل وحدة مركبة متداخلة تعطي بجملتها وجه الشبه دون ملاحظة التقابل الجزئي بين الممثَّلِ به والممثَّل له.

وكلٌّ منها ينقسم نظريّاً إلى الأقسام التالية:

← ١ ــ تمثيلُ مُدرَكٍ بالحسّ الظاهر بمدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

← ٢ ــ تمثيلُ مُدرَكٍ فكريّ أو وجداني بمدْرَكٍ فكري أو وجداني.

← ٣ ــ تمثيلُ مُدرَكٍ فكري أو وجداني بمدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

← ٤ ــ تمثيلُ مُدرَكٍ بالحسّ الظاهر بمدْرَكٍ فكري أو وجداني.

← ٥ ــ الصورةُ التمثيليّة المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحسّ الظاهر بالمدرَكات الفكريّة أو الوجدانية.

وكلٌّ من الأقسام السابقة ينقسم نظريّاً إلى قسمين:

[١] أن تكون الصورة التمثيلية فيه منتزعة من الواقع.

[٢] أن تكون الصورة التمثيلية فيه منتزعة من الخيال.

فحاصل جملة الأقسام تصل نظريّاً إلى ثلاثين قسماً هي ناتج ٣ × ٥ × ٢ = ٣٠ وقد يسقط منها صور يصعب التمثيل لها.

الفَصل الثالث

أَغْرَاضُ ضَرْبِ ٱلأَمْثَالِ

أَغْرَاضُ ضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ

مـقـدمـة:

الأصل في البيان أن يتضمن التعـريف بما يـراد التعريف بـه بأسلوب مبـاشر، والخروج عن هذا الأصل لا يكون عند البلغاء والعقلاء إلَّا لغرض يقتضي ذلك.

ولمّـا كانت الأمثـال من الأساليب البيـانية غيـر المبـاشـرة للتعـريف بمـا يـراد التعريف به، وكـانت من أساليب الكـلام البليغ التي يلجـأ إليها كبـار البلغاء، ولمّـا كانت تصاريف الربّ الحكيم منزهة عن العبث ـ كان اللجوء إلى ضرب الأمثال في القرآن لا يخلو عن غرض يدعو إليه.

ولَدى تتبُّع الأمثال القرآنية تكشف لي الأغراض التالية:

الغرض الأول: تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل.

الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجَّة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجَّة الخـطابية، وقـد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح. فالترغيب يكـون بتزيين الممثَّـل له وإبـراز جوانب حسنـه، عن طريق تمثيله بمـا هو محبوب للنفوس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، أو تنفر النفوس منه.

الغرض الرابع: إِثَارَةُ مِحْوَرِ الطَّمَعَ أو الرَّغبة، أو مِحْوَرُ الْخَـوْف والْحَذر لـدى المخاطب.

ففي إثـارة مِحْورِ الـطَّمع والـرغبةِ يتَّجـه الإنسانُ بمُحَـرِّضٍ ذَاتِيِّ إلى ما يُـراد

تَوجيهُه له. وفي إثارةَ مِحْوَرِ الْخَوفِ والْحَذَرِ يبتعد الأنسانُ بمحرِّضٍ ذاتي عمّا يُراد إبعاده عنه.

الغرضُ الخامس: الْمَدْحُ أو الذَّمُّ، والتَّعظِيم أو التحقير.

الغرض السادس: شَحْذُ ذِهْنِ المخاطَبِ، وتَحْرِيكُ طَاقَاتِهِ الْفِكْرِيَّة، أو استرضاءُ ذكائه، لتوجيه عِنايته، حتى يتأمَّل ويتفكَّر ويَصِلَ إلى إدراك المراد عن طريق التفكُّر.

والأمثال التي يَدْفَعُ إليها هذا الْغرضُ يُخاطَبُ بها الأذكياء، وأهل التأمُّل والنَّظر والبحث العلميّ، وكبراءُ القوم.

الغرض السّابع: تقديم أفكارٍ غزيرة جدّاً وَدَقيقةٍ يحتاجُ بيانها عَنْ غير طريق المثَلِ كلاماً كثيراً قد يَصِلُ إلى عشرات الصفحات وأكثر من ذلك، فَيَدُلُّ عليها المثل بأخصر عبارة، لأنَّ المثَلَ قد يكون بمثابة نموذج مشهود من نماذج الوسائل التعليميَّة، فيكفي في العبارة أن يُقالَ: مِثْلُ هذا.

الغرض الثامن: إيثارُ تغْطِيَةِ المقصود من العبارة بالمثل، تأدُّباً في اللَّفظِ واستحياءً.

* * *

هذه الأغراض الثمانية هي الأغراض التي تكشَّفَتْ لي من تتبع الأمثال القرآنية، وقد يُرَادُ من ضرب المثل الواحد أكثر من غرض من هذه الأغراض في وقت واحد، فبعض الشواهد القرآنية ـ التي سيأتي تفصيلها وشرحها إن شاء الله ـ تَصْلُحُ شَواهِدَ لأغراض متعددة: فقد يكون المثل الواحد لغرض تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب به، ولغرض الإقناع بالفكرة التي جاء المثل كدليل عليها، ولغرض الترغيب، وهكذا.

• • •

(١)

شرح الغرض الأول
وهو تقريب صورة الممثل له
إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل

قد يكون لدى المخاطب نوع جهالة حول الممثَّل له، ويُراد رفْعُهَا عنه، والتمثيل قد يكون وسيلةً سهلة للتعليم ورفْعِ الجهالة، بل ربَّما كان أحسن الوسائل عند تعذّر إحضار الممثَّل له، أو إحضار صُورَتِه بالفعل، أمام المخاطب الذي يُراد رَفْعُ الجهالة عنه.

لكنَّ الممثَّل له قد لا يكون ذا صورة مادِّية يُمْكِنُ أن تُدْرك بالحسّ الظاهر، بل أمراً فكريّاً ذهنيّاً، أو أمراً وجدانياً، وقد يكونُ ذا صورة مادِّية يمكن أن تُدْرك بالحسّ الظاهر: ويراد من المثل في الحالة الأولى تقريبُ الصورة الذهنية أو الوجدانية، وفي الحالة الثانية تقريبُ الصورةِ المادِّية لذهن المخاطب.

* * *

أمثلة:

١ ــ يحدِّثُنا الله تبارك وتَعَالَى عن الْحُورِ العين في الجنة، وهُنَّ ذواتُ صُوَرٍ يمكن أن تُدْرَكَ بالْحِسّ الظاهر، ولكنَّهنَّ مجهولاتٌ لنا، بعيداتٌ الآن عن إدراكنا الحسي، وعن تصوراتنا الْخيالِيَّة، فَيُقَرِّبُ الله لَنَا طَرَفاً من صُورَةِ لون بشرتهنَّ ونعومتها، فيقول الله تعالى في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فاللؤلؤ المكنونُ المحفوظُ مثالٌ لألـوان بَشَرتِهنّ ونعـومتها بصفـة تقريبيـة، مع الفارق العظيم بين الممثَّل له والممثَّل بِه.

ونـظير هـذا ما جـاء في وصْفِ الولـدان المخلَّدين، وهم خَـدَمُ المؤمنين في الجنة، قال الله تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

فضـرب الله مثـلاً لألـوان بشـرتهم ونعـومتهـا، ولمشهـد تـوزّعهم في الجنـة للخِدْمَةِ، باللؤلؤ المنثور، وهو مثل تقريبي، والحقيقة أعظم من ذلك وأرفع.

* * *

٢ ــ وضرب الله مثلاً لفريقين من الناس:

الفريق الأول: الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله.

الفـريق الثـاني: الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحـات وأخبتـوا إلى ربّهم، أي تواضعوا وخشعوا لربّهم وسكنت إليه قلوبُهم ونفوسُهم.

فمثل الفريق الأوّل كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأصمّ الـذي لا يسمع شيئاً، فهو مُنْطَمِسُ أدوات الإدراك الحسي، وبانطماسها تُحْجَبُ عنه المعرفة.

ومثل الفريق الثاني كمثل البصير شديـدِ البصر حادِّهِ، والسميعِ قـويِّ السمعِ مُرْهَفِه، فهو دَرّاك لما يجري حوله، قادر على اكتساب المعارف.

فالفريقان لا يستويان مثلاً، إذْ حقيقتاهما متفـاوتتان وهمـا على طرفي نقيض، وهل يستوي العمى والبصرُ الحديد؟ وهَلْ يستوي الصَّمَمُ والسَّمْعُ المرهَفُ الشديد؟

قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ

عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فحالةُ الصَّدِّ النفسيّ والقلبيّ والفكريّ عن الْهِدَايَةِ الربَّانيَّة وعن الاستجابة لنداءاتها، يُمْكِنُ تمثيلُها بحالَةِ الأعمى الذي لا يَرى شيئاً والأَصَمِّ الَّذي لا يَسْمَعُ شَيْئاً، فهو لا يَهْتَدِي إلى طَرِيقه.

وحالةُ الاسْتِجَابة النفسيّة والقلبيّة والفكريّة لآيات الْهِدَاية الرَّبَّانيَّة ولنداءاتها البيانية، يُمْكِنُ تمثيلُها بحالَةِ البصير الذي يرى طريقه وكُلّ ما حوله، ويسمع أصواتَ الأَدِلَّاء والمرشدين، وكُلَّ الأصوات التي تصل إلى سمعه.

والممَثَّلُ لَهُ من قَبِيلِ الْفِكْرِيَّات والوجدانيات، والممثَّلُ بِهِ من قبيل الْحِسِّيات الظاهرة.

ومن أغراض ضرب هذا المثل تَقْرِيبُ صُورةِ الممثّل له إلى ذهن المخاطب مع غرض الترغيب والتنفير، ومع غرض المدح والذمّ.

* * *

٣ ـ وضَربَ الله مثلاً لِحَالةِ اللَّهَثِ النفسي والظَّمَأ لمطالب الحياة الدُّنيا، لَدَى الذين كذَّبوا بآيات الله وانْسَلَخُوا مِنْها بعد أن آتاهم الله إيَّاها، إخلاداً إلى الأرض وطلباً للطمأنينة فيها والاستمتاع بلذاتها، بحالة الْكَلْب الذي يلهث باستمرار، إنْ تحملْ عليه يلهث، أو تتركه يلهث. هكذا حال طُلَّابِ الحياة الدنيا، ينشُدُونَ الطمأنينةَ والسكينةَ والراحةَ والسعادةَ بالإخلاد إلى الأرض، فإذا بهم يَكْدحُون كَدْحاً دائماً لتحقيق مطالبهم فيها، فهم لا يزالون يَلْهَثُون وهم يَكْدَحون في طلبها، ثمَّ لا يبلغون ما يريدون، وتأتيهم مناياهم وهم على ذلك.

قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ

مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

فهـذا المَثَلُ المقـدَّمُ في صورةٍ تُـدرَكُ بالحسّ، قـد جيء به لتقـريب صورةِ الحالةِ النفسية للمكذِّبين بـآيات الله الـذين أخلدوا إلى الأرض طلباً للذّاتهـا وتحقيق السعادة عن طريقها، فإذا بهم لا يظْفَرون منها بطائـل، ويَظَلُّ الـظَّمأُ النفسيُّ لـديهم على حَـالِه، ويَسْتَمِـرُّون في لِهَثٍ نفسيٍّ مُتواصـل، فحـالتُهُم النَّفْسِيَّـةُ هـذه كحـالـة الكلْبِ الحِسِّيَّةِ إذْ يلهثُ باستمـرار، سواء أجْهَـدْتَهُ أم لم تُجْهِـدْه، حملت عليـه أم لم تحمل عليه.

* * *

٤ ــ وضرب الله مثلاً للصراع بين الحق والباطـل وللصِّراع بين أنصـار الحق ودُعاته، وجنودِ الباطل ودُعَاته، ولنتيجة كلٍّ من الفريقين وعاقبته: بحالة الصِّراع بين مـاء السيل الغـامر وأكـوام الزبـد المتناثـر. وبحالـة الصِّراع بين المعـادن المنصهرة وزَبَـدِها الـذي يتميَّز عن جـوهرهـا، ثمَّ يُطرح عنهـا فيذهب جفـاء، وبالنتيجـة التي تتحصّل بعد هذا الصِّراع، وهي أنَّ الزَّبَدَ المخالط المصارعَ للجوهر النـافع يـذهب جُفـاء، وأمّا مـا ينفع النـاس فيمكُثُ في الأرض، ويكون لـه الدَّوامُ ومَجْـدُ النفـع. وكذلك الحق، مهما صارعَهُ الباطـلُ، فالبـاطل إلى اضمحـلال وزوال، والحقّ إلى دوام وثبات واستقرار. وكذلك المحِقُّـون الثابتـون المجاهـدون لنصرة الحقّ، مهمـا صـارَعَهُم المُبطِلُون، فـالمبـطلون إلى اضمحـلال وزوال، والمحقُّـون إلى انتصـارٍ ودوامٍ وثباتٍ واستقرار.

قال الله تعالى في سورة (الرعد/١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

﴿جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ والْبَاطِلَ﴾: أي: يضربُ مثل الصراع بين الحقّ والباطل.

ويلاحظ في هذا النصّ مثلان متشابهان: أحدُهما مَشْهَدٌ من المشاهد الكونية التي يُشَاهِدُها باستمرار الذين يعيشون في متقلبات الأحوال الجوية. وثانيهما مَشْهَدٌ آخر يلاحظه أَرْبَابُ الصِّناعاتِ المعدنيَّةِ داخلَ مَصَانِعهم. وفي كلٍّ من المثلَيْنِ ظَوَاهِرُ تُمَاثِلُ حَركَةَ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطل، والمحِقِّين والمبطِلِينَ، ونَتَائِج هذا الصراع.

ولدَىٰ تحليلِ المثَلَيْنِ نَرَىٰ أنَّهما مَثَلان حِسِّيَّان يُدرَكَان بالحسِّ الظاهر، مُثِّلَ بهما صِرَاعٌ معنويٌّ لا يُدْرَك بالحسّ الظاهر، وهو الصراع بين الحق والباطل. وصِراعٌ حِسِّيٌّ يُدْرَكُ بالحسّ الظاهر، وهو الصِّراع بين المحقِّين والمبطلين.

أما الغرضُ من ضَرْبِ المثل هنا فرُبَّما يَكُونُ لِتقْريب تَصَوُّر حقيقةِ الممثَّلِ له، وذلك بتمثيله بمثال ماديّ يُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر، وقد يكون للإقناع بأنَّ الغلبة في النتيجة للحقّ والمحقِّين، وبأن الْبَقَاء والدَّوَامَ للأصلح النافع، أَمَّا الْبَاطِلُ والمبطِلُون والزَّبَدُ الَّذي لا يَنْفَعُ النَّاسَ فَعَرَضٌ زائل. وقد يكون للغرضين معاً، ولغير ذلك من أغراض.

● ● ●

(٢)

شرح الغرض الثاني
وهو الإقناع بفكرة من الأفكار

الإقناعُ بفكرة من الأفكار قد يصل إلى مستوى الْحُجَّةِ البرهانيَّةِ، وقد يقتصر على مستوى الحجَّة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

والحجَّةُ البرهانية هي الحُجَّةُ الملزمةُ التي تُفيدُ اليقين. أمّا الحجَّة الخطابية فهي حُجَّةٌ إقناعية ظَنِّيَّة تُفيدُ الظنّ الراجح، ولفت النظر يكفي فيه إيراد المثل المشابه ولو لم يشتمل على أيّة حجَّة.

* * *

أمثلة:

١ ــ فمن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يُقْصَدُ منها الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع يشتمل على حجَّة برهانية، ما يلي:

ضرب اللَّهُ المثلَ بِبَدْءِ الخلق لإِثْبَاتِ قُدْرته على إعادة خَلْقِ الأحياء بعد إماتتهم وفَناء أجسادهم.

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا

مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ
تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فضرب اللَّهُ في هذه النصوص مثلاً ببَدْءِ الْخَلْق، وضربَ مثلاً بخلقه للسماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس؛ دليلاً على قُدْرَته سبحانه وتعالى على إعادة خلق الناس بعد فناء أجْسَادهم.

وضَرْبُ المثَلِ بكلٍّ من الأمرين قد تَضَمَّن حُجَّةً برهانيةً على قدرة الخالق على إعادة الخلق بعد فنائه، لأنَّ مَنْ قَدَر على ابتداء الخلق لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قادراً على إعادته، لاستواء البدء والإعادة في الواقع بالنسبة إلى قُدْرَةِ الخالق القادر، الذي إذا أَراد شيئاً فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيكون ذلك الشيء. ولأن مَنْ قدر على خلق الشيء العظيم الكبير لا بدَّ أن يَكُون قادراً على خلق ما هو أقل وأصْغَرُ منه.

وباستطاعتنا أن نصوغ البرهان الذي تضمنه مثَلُ بدْءِ الخلق ومَثَلُ خلق السماوات والأرض على الوجه التالي:

إنّ مَثَلَ إعادة الخلق بعد فنائه كمَثَلِ بَدْءِ خَلْقِه بَعْدَ أَنْ لمْ يكن شيئاً مذكوراً، فالأمران مستويان، بَلِ الإعادةُ أهون، فمن كان قادراً على بَدْءِ الخلق فهو على إعادته قادر.

وإنّ خلقَ السماوات والأرضِ مَثَلٌ أعلى لقدرة الله على الخلق، وهو أكبر من

خلق الناس، ومَنْ كان قادراً على ما هو أكبر وأعظم من إعادة الْخَلْقِ بعد فنائه، فهو قادر على الإعادة لا محالة.

ونظير ما سبق قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِه إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوىٰ﴾: أي: نحن أعلم بالحالة التي يستمعون بها إليك يا محمد، وهي حالة الاستهزاء والإعراض والإنكار والتكذيب حين تدعوهم إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر. ونحن أعلم بما يتناجون به سراً فيما بينهم عنك وعن دعوتك، وذلك إذْ يستمعون إليك حينما تدعوهم، وإذْ هم نجوى.

قال أهل التفسير: أمر رسول الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه أن يتَّخِذَ طعاماً ويدعُوَ إليه أَشْرافَ قُرَيْشٍ من المشركين، ففعل عليٌّ رضي الله عنه ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ، وقرأ عليهم من القرآن ودعاهُمْ إلىٰ التَّوْحيدِ، وقال لهم: قُولُوا: لا إله إلَّا الله حتَّى تُطِيعَكُم الْعَرَبُ وتَدِينَ لَكُمُ العجم، فأَبَوا عليه ذلك، وكانوا عند استماعهم من النبي ﷺ القرآنَ والدعوةَ إلى الله يقولون بينهم متناجين: إن تَتَّبِعون إلَّا رجلاً مسحوراً، وما أشبه ذلك من القول(١).

---

(١) انظر تفسير الإمام الرازي عند تفسير هذه الآية.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: أي: انْظُرْ كَيْفَ وَصَفُوكَ بأَنَّكَ مسحور، أي مع أنَّك نبيٌّ مرسل من عند الله.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: أي: فَلمَّا رفضوا سبيل الحق ضَلُّوا في متاهات الباطل، ومن تنكّبَ سبيلَ الحقّ الواضح فإنه لا يستطيع أن يجد سبيلًا آخر يُوصِلُهُ إلى الْهِدَاية والسَّعَادة. إنَّه ليس بعد الحقّ إلاَّ الضلال وليس بعد سبيل الحقّ الوحيد إلاَّ المتاهاتُ والمهالك.

﴿ورُفَاتاً﴾: أي: وأَجْزاءً متفتتة.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾: أي: فسيحركونها حركة إنكار واستهزاء.

لقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في هذا النصِّ مقالةَ المشركين، إذْ جاؤوا بمثَلٍ من بقايا أَجْسَادِ الموتى، وهِيَ عظامُهُمْ ورُفَاتُهُمْ، وقالوا: أئذا كُنَّا عِظَاماً ورُفَاتاً أئِنا لمبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً؟!

لقد أوردوا مقالتهم هذه على سَبيل الاستفهام، إلاَّ انَّه اسْتِفْهَامُ المتعجّب المنكر لخبر الْبَعْثِ. وتَصَوَّروا أنَّهم يُقَدِّمُون حُجَّةً تَدْحَضُ ما أَخْبَرَهُمْ به الرسول ﷺ من الْعَوْدَةِ إلى الحياة للحساب والجزاء.

إنَّهم إذْ لم يُشَاهِدُوا شيئاً من الْعِظَام والرفات يعود إلى الحياة، وَقَعَ في توهُّمِهم أنَّ عدم عوْدَتها في ظروف الحياة الدنيا ناشِئٌ عن أن هذه العودة غير مُمْكِنَة، وقاسوا قُدْرَةَ الخالق على قُدْرَتِهِمْ هُمْ، فأنْكَرُوا خبر البعث للحساب والجزاء.

فهذا مثلهم وهذا قياسهم، وكلٌّ منهما مَنْزَعُه التَّوَهُّم الفاسد.

أمَّا البرهان الربَّاني فقد قدَّم مثَلًا واقعيّاً من قُدْرَة الله على خَلْقِهِم أَنْفُسِهِمْ أوَّلَ مَرَّة، إذْ لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وهذا المثل من الواقع يُقَدِّمُ برهاناً على قُدرةِ الخالق على إعادتهم بعد فناء أجسادهم، لاستواء عمليتي الخلق في البدءِ والإعادة. والْفَارِقُ الزمني والاختلاف بين الماضي والحاضر والمستقبل لا يُغَيِّرُ من

الحقائق شيئاً، فالله تبارك وتعالى أزليٌّ أبديٌّ، وصفاته أزلية أبدية، لا يتغير منها شيء، ولا يتناقص منها شيء، وهذا ما أثبتته الحجج البرهانية التي هدت المؤمنين إلى وجود الله وكمال صفاته.

لقد قالوا متعجبين منكرين: أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً ورُفَاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً؟!

فقال الله لرسوله: **﴿قُلْ: كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾**: أي: افترضوا ما شئتم أن تفترضوا من مادّة أو صورة تتحول أجسادكم بعد الموت إليها؛ كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخر ممَّا يَكْبُر في صدوركم، لا مُجَرَّدَ عِظام ورُفَات وأجزاء متفتتة.

بعد هذا الافتراض سيقولون: مَنْ يُعِيدُنا إلى الحياة إذا تحوَّلت أجسادُنا هذا التحول الكبير إلى حجارة أو حديد، أو عنصر آخر من عناصر الكون؟ ولعلَّ في هذا إشارةً إلى التحوُّلات التي تحدث للأجساد الحيوانية في الأحقاب الجيولوجية، كما يقولون عن متحجرات الأسماك وغيرها، أو تحوّلات ما تفحّم منها إلى الماس يكبرُ في صدورهم.

إنَّ الجواب هو الجواب نفسه، وإنَّ البرهان هو البرهان نفسه، «قل» يا محمد: **﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**، فمن خلقكم أوَّلَ مرَّةٍ ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، قادر على أن يعيد خلقكم، ولا يُغيّر شيئاً من واقع الأمر أن تتحوَّل الأجساد إلى أيّة مادَّة أو أيَّة صورة.

وإذْ تَنْقَطِعُ اعتراضاتُهم أَمَامَ هذا البرهان الذي لا رَدَّ له فسيسكتون ويُحَرِّكُون رؤوسهم حركةَ تعجُّبٍ واستهزاءٍ وإنكارٍ، وهذه طريقةُ مَنِ انقطعتْ حُجَّتُه وظَلَّ مُصِّراً على باطله.

ثم يلجؤون إلى السؤال عن زمن البعث، فيقولون: متى هو؟

فقال الله لرسوله: **﴿قُلْ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ**

بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً﴾.

* * *

٢ ـ ومن الشواهد على الأمثالِ الّتِي يُقْصَدُ مِنْها الإقناعُ بحُجَّةٍ خَطَابِيَّةٍ ما يلي:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لقد اتخذ المشركونَ شُرَكَاء لله من خَلْقِه، أي من عبيده ومما هو مملوكٌ له، واعتقدوا أنّ الله قد اتَّخذهم شركاء له، ومنحهم قدرة على التصرُّف، وفوَّض إليهم أموراً من أمور خلقه، حتى استقلوا بكثيرٍ من الأمر، وغَدَوْا مُسْتبِدّين منافسين، أو وُسَطاءَ شافعين، ومُقرِّبِينَ إلىٰ الله زُلْفَىٰ.

وفي الإقناع بعقيدة التوحيد الإسلامية، وبأنَّه لا إلٰه إلَّا الله وبأنه ليس لله ندّ ولا شريك؛ جاء في القرآن أدلة برهانية كثيرة، وجاء فيه أيضاً أدلة خطابية قد يكون لها تأثير على بعض النفوس أكثر من تأثير الأدلة البرهانية، لما فيها من تأثير على المشاعر النفسية، أمَّا البراهينُ فقد تكون أدلة عقلية بحتة لَا تُحرِّك بعض مشاعر النفوس ولا تهزّها.

ويَبْدُو أنَّ ما جاء في الآية من الأدلة الخطابية في هذا الموضوع، قد خَاطَبَ اللَّهُ المشركِينَ به فقال لهم:

﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ؟﴾:

أي: يا أيها المشركون، هَلْ ترضون لأنفسكم شُرَكَاءَ مما تملكونَ من أرقاء، حتى تجعلوهم مالكين معكم لما تملكون مما رزقكم الله؟. هَلْ تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُون

عبيدُكم شركاءَ لكم فيما تملكـونَ من أشياء حتى ينـازعوكم فيهـا؟. هَلْ تَـرْضَوْنَ أنْ تُفوِّضُوا لَهُمُ الأمر في سُلْطَانِكُمْ حتَّى تَشْتَدَّ قُـوَّتُهُمْ فتصلَ إلى درجـة مساواتِهِمْ لَكُمْ، وحتَّىٰ يَكُـونُوا قـوَّةً مخيفةً لَكُمْ، كَمـا تَخافُـونَ أَمْثَال أنْفُسِكم من الأحـرار ذوي القوة والسلطان؟

إذا كنتم لا تـرضون شيئاً من ذلك لأنفسكم، لمنـافـاتـه مـرتبـةَ كمـالكم في تصوُّرِكُمْ، ولأنـه يُقَلِّلُ من سُلْطانكم فيمـا هـو لكم، أَفَتَـرْضَـون مثله لبـارئكم؟. أفتعتقدون أن الله يَرْضَىٰ بذلك لنفسه مع أنكم تَتَرَفَّعُونَ عَنْه ولا تَرْضَوْنَه لأنفسكم؟ لو قِسْتُمْ الله على أنْفُسِكُم في أدنى الحدود لرفضتم أن تجعلوا لله شـريكاً، فتعـالى الله عن ذلك علُوّاً كبيراً.

فالذي يبدو من هذا المثل أنَّه قـد جيء به لإقـامة حجـة قياسيـة تتضمن دليلاً خـطابياً، ولا يبعـد ــ إذا تعمقنـا في تحليـل الـدليـل ــ أن يكـون دليـلاً بـرهـانيـاً، والله أعلم.

* * *

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ
مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ
لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: الْحَفَدَةُ في اللغة: هم الأعوان والخدم، وهو جمع مفرده الحافد. وحفدةُ الرجل: بَنَاتُه، وأولاد أولادِه، وأَصْهَارُهُ. وأَصْلُ مادةِ الكلمةَ يَدُلُّ على معنى الخدمة بِخِفَّةٍ وسُرْعَة. يقال لغةً: حَفَدَ الرجلُ يَحْفِد حَفْداً وحَفَدَاناً إذا خَدَمَ بِسُرْعَةٍ وخِفَّةٍ.

ويترجَّح عندي من أقوال المفسرين تفسير الحفدة ببنات الرجل، فهو الذي يتلاءم مع ذكر «بَنِينَ» في النصّ الذي عُطف عليه «وحفدة» والعطف يقتضي التغاير، وبناتُ الرَّجُلِ هُنَّ اللَّواتي يُسْرِعْنَ في خدمته في بيته، وهُنَّ اللَّواتي جعلهنَّ الله للرجال من أزواجهم.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّه الأَمْثَالَ﴾: أي: فلا تُشَبِّهُوا الله بخلقه، ولا تَجْعَلُوا لِلَّه مِثلاً ولا شَبِيهاً.

في هذا النص من سورة النحل ثَلاثَةُ أمْثالٍ للإقناع بحُجَجٍ خَطَابية في قضية التوحيد، وَأَنَّهُ لَا إِلَه إِلاَّ الله، وأَنَّهُ لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته.

المثل الأول: فيه محاكمةٌ للمشركين بأنَّهم هم أنْفُسُهُمْ مَثَلٌ صالح يمكن أن يستفيدوا منه للإقلاعِ عن عقيدة الشرك بالله.

وذلك أَنَّهُمْ إذا كانوا هم أنفسهم لا يَقْبَلُونَ أن يُمَلِّكُوا ويُسَلِّطوا عبيدَهم وأرقاءَهم على أموالهم أو على شطر منها، حتى يكونوا هم وإِيَّاهُمْ سواء في الملكية والتسلُّط والقدرة على التصرف، وحتى يكونوا شركاءَ لهم وهُمْ أرقاؤهم، فَكَيْفَ وقع في تصورهم أنّ الله قد فعل مثل ذلك مع بَعْضِ مَن خلق، فجعلهم شُرَكَاءَ لَه، مع أَنَّهُم لا يملكون حُجَّةً منزلةً من عند الله على اعتقادهم هذا.

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص:

﴿والله فَضَّل بعضكم على بعضٍ في الرزق فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾.

أي: فإذا كانوا لا يقبلون هذا لأنفسهم فكيف ينسُبُون إلى الله أنَّه جعل قسماً من خصائص الألوهية لشركائهم؟

إن خلقهم ورزقهم وكل خير يصل إليهم هو من نعمةِ الله عليهم، وشُرَكَاؤُهُمْ الذين يعبدونهم من دون الله لا تَمْلِكُ لهم رزقاً من السماوات والأرض ولا تَمْلِكُ لهم شيئاً، ولا تستطيع لو أرادت، فقال الله تعالى:

﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحدُون؟﴾.

﴿أَفَالْبَاطِلُ يُؤْمِنُون وبنعمةِ الله هُمْ يكفرون؟! ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون؟﴾.

المثل الثاني: أنهم في واقعهم الإنساني يرفُضُون التسوية بين عبدٍ مملوك لا يَقْدِرُ على شيء، فلا هو يعطي ولا هو يمنع، وبين حُرٍّ مرزوق ذي جُودٍ وكَرَمٍ يُنْفِقُ من ماله سرّاً وجهراً.

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني، ثم يعتقدون ما هو أقبح منها، إذْ يُسَوُّون بين الله وخلقه، فَيَجْعَلُونَ لله من عِبَادِه أو من جَوَامِدِ خلقه كالشجر والحجر شركاء؟!

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص:

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيءٍ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً. هل يستوون؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

المثل الثالث: أنهم في واقعهم الإنساني أيضاً يرفضون التسوية بين إنسان أَبْكَمَ لا يقدر على شيءٍ وهو كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاه أينما يوجِّهْهُ لا يأتِ بخير، وبين عاقل حصيف فصيح اللسان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني ثم يعتقدون ما هو أقبح منها، إذ يُسَوُّونَ بين الله العليم الحكيم القدير الذي بيده مقاليد السماوات والأرض وبين بعض خلقه الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً فَيَجْعلونَ لله من خَلْقِهِ شُركاءَ في ألوهيته أو في ربوبيته؟!

هذه الأمثال اكتفت بحجتها الخطابية في عرضها الإقناعي، لاستثارة المشاعر

النفسية لدى المخاطبين، مع إمكان تَقْدِيمِ الحجة بطريقة برهانية، كما جاء في نصوص قرآنية كثيرة أُخرى.

وفي الطريقة البرهانية نقول: إن المشركين يُسَوُّون بين الخالق وبين بعض خلقه، إذ يعتقدون أنهم شركاءُ له، مع أن هؤلاء الشركاء فقراء لله لا يَقْدِرُون على شيء، والله هوالغني ذو الجود والمنّ، يُعْطِي سِرّاً وجهراً بغير حساب، وهؤلاء الشركاء لا يُرْجَىٰ منهم نفع ولا يُخشى منهم ضرّ، ولا تستفاد منهم هداية، والله تعالى لديه الخير كلّه، وهو الآمر بالعدل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

فالتَّسْويةُ بين الله وأيّ خلقٍ من خلقه مرفوضةٌ بالبداهة العقلية، ولما كانت الربوبية والألوهية تتطلبان صفاتٍ خاصة لا تُوجَدُ إلاَّ في الرب الخالق وحده، كان ادِّعاءُ الألوهية أو الربوبية لغير الله تعالى أمراً باطلاً قائماً على تَسْوِيَةٍ مرفوضة بالبداهة العقلية بين الله سبحانه وتعالى وبين الشركاء.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي: مُتَخَالِفُونَ مُتَشَدِّدُونَ عسرو الأخلاق.

﴿سَلَماً لِرَجُلٍ﴾: أي: خالصاً له لاَ يُشَاركه في ملكيته رجل آخر يُشَاكِسُه ويختلف معه، فيكون المملوك بذلك معذَّباً تحت سلطان المتشاكِسَيْنِ المالكين له.

في هذه الآية مثلٌ تضمن إقناعاً بحجةٍ خطابية بغية تخلي المشركين عن عقيدة الشرك بالله عزَّ وجلَّ.

لقد اختار المشركون لأنفسهم أن يتخذوا آلهة متعددة يعبدونها من دون الله، دون أن يكونوا مُلْزَمِين عقلاً ولا واقعاً بعبادتها، بَل العقلُ والواقعُ يلزمانهم بالتوحيد، وأن يعبدوا الله وحده لا يُشْرِكُونَ بعبادِتِه أحداً.

لقد اتخذ المشركونَ الآلهةَ المتعدّدةَ من دون الله استناداً إلى أوهامٍ لَا أَساسَ لها، وباختيارهم لاتّخاذِ الآلهة المتعدّدةِ تَركُوا مَا هُوَ أَكْرَمُ لَهُمْ وَأَشْرَفُ وَأَعَزُّ لِنُفُوسِهِمْ، ألا وهو عبادةُ الله وَحْدَه، والخضوعُ لِلَّه وَحْدَهُ.

ولما كان الأمر يرجِعُ إلى اختيارهم وإيثارِهم الشركَ على التوحيدِ، فَمَثَلُهُمْ في هذا كَمَثَلِ عَبْدٍ رقيق، يُفَضِّلُ باختياره الحرّ أن يَكُونَ عَبْداً مَمْلُوكاً لِعَدَدٍ مِن الرِّجَالِ هُمْ فِيه شُرَكَاءُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ له عليهِ سلطانٌ، وله منه مَطَالِبُ، وهُمْ فيما بينهم مُتَشَاكِسُون مُتَخَالِفُون، ويُؤْثِر هذا الحالَ المتعِبَ المذِلَّ له على أن يكون عبداً مملُوكاً لِرَجُلٍ واحِدٍ فقط لا يُنَازِعُه فيه منازع.

إذا كان لا مناصَ من أن يكون عبداً مملوكاً، فَلأَنْ يكون مملوكاً لرجلٍ واحدٍ فقط أَكْرمُ له وأشرف من أن يكون مملوكاً له ولغيره من الشركاء المتشاكِسِين.

فالحجَّةُ في هذا الْمَثَلِ تُثْبِتُ أَنَّ انفِرَادَ الْمالكِ الذي تَجبُ طاعَتُه أفضلُ وأكرمُ للمملوك من تعدُّدِ المالكين، فالأمرانِ لَيْسَا بمتساويَيْن، فَقَال تَعالىٰ:

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً؟!﴾.

ومن الواضح في هذه الحجة أنها لا تُقَدِّمُ برهاناً على نفي الشركاء، لكنها تُقَدِّم إقناعاً خطابياً للمشركين بأن التوحيدَ أكرمُ لنفوسِهم وأشرفُ وأَعَزُّ. فهي تثير في نفوسهم عنصر الكرامة، ليستبصروا بالحقيقة وينْظُروا إلى الأدلة البرهانية التي تُثْبِتُ لهم أنه لا إِلَه إلَّا الله.

وإذا كان التوحيد أكرمَ لهم فما بالُهم يتعصَّبُونَ لشِرْكِهم؟!

ونؤكد أن هذا الإقناع القائم على تحريضِ عنصر الكرامة في نفوس المشركين مسبوق بالأدلَّة العقلية البرهانية، التي تُثْبِتُ أن لا إِلَه إلَّا الله، وتُثْبِتُ أن الربَّ الخالق واحدٌ لا شريك له، وأنَّه هو وَحْدَهُ الذي يستحقّ أن يَعْبُدَه عِباده، وأنَّه هو وحده الذي يَجِبُ أن يعبدوه.

• •

(٣)

شرح الغرض الثالث
وهو الترغيب بالتزيين والتحسين
أو التنفير بكشف جوانب القبح

أما الترغيب فيكون بتَزْيين الممثلِ لَهُ وإبرازِ جوانِب حُسْنِه عن طريق تمثيلِهِ بما هو مَحْبُوبٌ للنُّفُوسِ مرغوبٌ لَدَيها.

وأمّا التنفير فيكونُ بإبرازِ جَوانِب قُبْحِهِ عن طريق تمثيله بما هو مكروهٌ للنفوس، أو تنفرُ النفوس منه.

ومن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يُقْصد منها الترغيبُ بأمرٍ من الأمور، أو التنفيرُ من أمرٍ من الأمور ما يلي:

١ ــ ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة، ومثلاً للكلمة الخبيثة. فالمثلُ الأَوَّلُ يَشُدُّ الرغبةَ إلى العناية بالكلمة الطيبة، والاهتمام بتقديمها وبذلِها في مواطن نَفْعِها. والمثل الثاني يُنفِّر من الكلمةِ الخبيثةِ ويُحَرِّضُ على كَفِّها وإمْسَاكِها، مهما وُجِدَتِ الدواعي النفسية لإطلاقها.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا
فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا
مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿الكلمةُ الطيبة﴾: هي مثل كلمة التوحيد، وكلمة الدعوة إلى الله، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة الحلوة التي يسرّ بها المسلمُ أخاه المسلم في طاعةِ الله، والكلمةِ التعليمية التي يقدمها المعلِّم المسلم الناصح لمن يستمع إليه، والكلمةِ التربوية التي يبذلُها المسلم المربي الناصح لمن يشرف على تربيته، والكلمةِ الرشيدة التي ينصح بها المسلم أخاه، هذه الكلمة ضَرَب اللَّهُ مثلاً لها بالشجرة الطيبة المزروعة في الأرض الطيبة، ذاتِ الجذور والأصول الثابتة المتغلغلة في عمق الأرض، وذاتِ الفروع الممتدة في السماء، وهي شجرةٌ مثمرةٌ لا ينقطع ثمرها النافع في أي فصل من فصول العام، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وصورةُ هذا المثل منتزعةٌ من الواقع المشاهَدِ للناس، مع إضافة شيءٍ من الْخَيال بالنسبة إليهم، وهي بالنسبة إلى ما خلق الله منتزعةٌ من الواقع، فأشجار الجنة كذلك.

ويستفادُ من هَذَا المثل أن الكلمة الطيبة ثابِتَةُ الأصل، ناميةٌ باستمرار، مثمرة في كل حين.

إن كل كلمة طيبة يقولها مؤمن مسلم يبتغي رضوان الله تعالى ويرجو ثوابه، تنمو عند الله، أما أصلها الثابت فإيمانُ صاحبها وإخلاصُه لله في بذلها، وأما فروعها الممتدةُ في السماء فبلوغها مستوى القبول عند الله، وأما ثَمَرُهَا فما تقدمه من أجرٍ بفضل الله لباذلها وزارعها في أرض التقوى والبرِّ والإحسان. فإذا كانت كلمة تعليم وهداية وإرشاد ونصحٍ لعباد الله، حتى يهتدوا إلى صراط الله المستقيم، وكانت مقرونة بالإخلاص لله، بارَكَ الله بها، فامْتَدَّتْ وتَسَلْسَلَتِ الهداية بها، فما انتفع بها منتفع، ولا اهتدى بها مُهْتَدٍ، إلا كان لباذلها الأول مِثْلُ أُجُورِ من اهتَدَىٰ بها وتأثَّر بها فعمل صالحاً، وهكذا من ثمرها الذي تؤتيه كل حين بإذن ربها. والكلمة الطيبةُ تدل على عَقْلِ باذلها وحصافته.

وبهذا المثل الترغيبي الرائع تشتد القلوب المؤمنة للاهتمام ببذل الكلمة الطيبة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وفي مقابل الكلمة الطيبة تأتي الكلمة الخبيثة، وفي مقابل مثل الكلمة الطيبة يأتي مثلُ الكلمة الخبيثة.

إن مثل الكلمة الخبيثة شجرةٌ خبيثة ضارَّة مؤذية، قد اجتثت من فوق الأرض، أي قطعت واستؤصلت كلُّ صِلَةٍ جذريَّةٍ لها بالأرض، فليس لها قرار تثبتُ فيه وتستمد منه، حتى يكون لها نماءٌ أو نفع.

وهذا الْمَثَلُ الذي يُنَفِّرُ العقلاءَ من الكلمة الخبيثة يَرْسُمُ صورةً لشجرةٍ خبيثة قد لا يكون لأمثالها وجودٌ مشهودٌ للناس، ولا ضير أن لا يكون لمثل هذه الشجرة وجود مشهود، إذ يكفي أن يصوِّر المثلُ للأذهان المعالِمَ المميِّزةَ لهذه الشجرة الخبيثة الضارة.

فهي أولاً خبيثةٌ، أي: ضَارَّة ليستْ بِنافعة مَكْرُوهةُ المنظرِ والرَّائِحَةِ، تؤذي من يَقْرُب منها أو تضرُّهُ.

وهي أيضاً ليس لها فروع ناميةٌ في السماء حتى تنفع في ظلٍّ أو حَطَبٍ. وليس لها أُكلٌ يستفيد منه إنسان أو حيوان.

وكذلك الكلمة الخبيثة هي مؤذيةٌ أو ضارَّةٌ، وليس لها جذور من الخير حتى تَمُدَّها بقوى النماء، فهي مقطوعة الصِّلَةِ بِالعوامل القادرة على إمدادها بما يُنَمِّيها.

إن الكلمة الخبيثة تُقْذَفُ إِلَىٰ أَسْماعِ الناسِ من فَمِ قائلها، فَتُؤْذيهم، أو تضُرُّ من تضرُّ منهم، أو تُفْسِد من تُفْسِد منهم ويشمئز العقلاء منها كما يشمئزون من

القمامات والأقذار التي تُطرح في طرُقَاتِهم، وتكونُ بمثابة الْعَثَراتِ من الْحِجَارة وأشجارِ الشوك التي تُعرقِلُ سبيلَ المارة.

والكلمة الخبيثة: مثلُ كلمةِ الكفر، وكلمةِ الإثم والظلم والعدوان، كقَذْفِ الناس في أعراضهم، وسبّهم وشَتْمِهم بغير حق. ومثلُ كلمةِ الغيبة والنميمةِ، وكلمةِ الكذبِ المحرم، وكلمةِ الدعوة إلى الكفر والفجورِ والفسوق والعصيان، وكلمةِ الأَمْرِ بالمنكر والنهي عن المعروف، والكلمةِ التي يغشُّ ويخدعُ بِها مَنْ لا أمانة له، والكَلِمةِ الْمُضِلَّةِ التي يُفسِدُ بِها رَجُلُ التربيةِ والتعليم مَنْ يشرف على تربيتهم وتعليمهم، والكلمةِ الباطلةِ التي يقدِّمها المعلّم الغاشُّ لتلاميذه، فيأخذونها عنه على أنها حق وعلمٌ صحيح، وكلماتِ الْفُحْشِ والبذاءَةِ، إلى غير ذلك من الكلمات، وكل أولئك خبيثاتٌ غير طَيِّباتٍ، فقال تعالى:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

إن الكلمة الخبيثة تدل على هبوط مستوى قائلها، وقلَّةِ عَقْلِهِ، أو نذالته وخُبْثِ نَفْسِه.

* * *

٢ ــ وضرب الله مثلاً للَّذين اتَّخذوا من دُونِ الله أولياءَ يَسْتَنْصِرُون بهم، ويَعْتَمِدون عليهم، ويرجون عندَهم نفعاً يجلُبُونَهُ لَهُمْ، أو ضَرّاً يدفعُونَهُ عنهم أو يقذفون به علىٰ أعدائهم، بالْعَنْكَبُوتِ الَّتِي اتخذتْ لِنَفْسِهَا بيتاً تأوي إليه يحميها ويقيها، وبيتُها أَوْهَىٰ وأضعفُ بُيُوتِ الحيوان، وهُو أَشْبَهُ بِنَسِيجِ الأوهام.

فقال الله تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لا يصعب على متدبر هذا المثل أَنْ يُلاَحِظَ ما فيه من تصويرٍ يُنَفِّر أَهْلَ البصر من أن يتخذوا مِنْ دُونِ الله أولياءَ. إِذْ يُصَوِّر اعتمادَهُمْ على أوليائهم باعتمادِ العناكبِ عَلَىٰ بُيُوتِها الَّتي تتخذُهَا مِمَّا تَغْزِل من خيوطها الَّتي تُفْرزها من غُدَدٍ في صدورها.

حين نقولُ لِمَنْ يتَّخِذُ من دونِ الله أولياءَ: إنَّ اعْتِمَادَكَ على أوليائك اعتمادٌ ضائع لا ينفعُك شيئاً، إنما نُقَدِّمُ له الفكرة مجردَةً تجريداً ذِهْنياً. لكِنَّنا إذَا وَضَعْنَا له هذه الفكرةَ نَفْسَها في صُورَةٍ يُشَاهِدُ شَبيهَهَا في الحِسّ، وهذا الشَّبيهُ لا يَحتاج بيان الْفِكْرَة فيه إلى شَرْحٍ أو إقامة حُجج كان ذلك أَدْعىٰ إلى وضُوح الرؤية، مع ما في ذلك من إرضاء لذكائه وحِسِّه الأدبي الذي يذلِّلُ في نفسه عقبةَ الإِعراض والرفض، ويجعله يُقْبِلُ إلى محدِّثِه للاستمتاع بمتعة الأدب الرفيع.

ولما كان أهلُ البصيرةِ يَنْفِرُون من اتِّخاذِ بيوتٍ واهيةٍ واهنة لأنفسهم، أمثالِ بيوتِ العناكب، كان ضرب المثل للعمل الضائع والاعتماد الخائب ببيت العنكبوت بياناً حكيماً لغرض التنفير من اتِّخاذ أولياء من دون الله.

إلَّا أنَّه لما كان التمثيل ببيت العنكبوت قد يسمح بتصوُّرِ مَنْفَعَةٍ ما مهما كانت ضئيلةً وحَقِيرةً، أتبعَ اللَّهُ هذا المثل بقوله:

﴿إن اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أي: ليس الذين يدعونَهُمْ من شركائهم من دون الله شيئاً أي شيء، إنَّهُمْ لا يدعون إلَّا أوهاماً، ولا يَعْتَمِدُون إلَّا على أوهام، إنْ هِيَ إلَّا أسماءٌ سمَّوْهَا هُمْ وآباؤهم مَا أنْزَلَ الله بها من سلطان، وليس لمسميَّاتِ هذه الأسماء نفعٌ ولا ضرٌّ مطلقاً.

قوله تعالى:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلَّا العالمون﴾:

أي: وما يفهم دلالاتها العميقة ويمسكُ بما تُرْشِد إليه إلَّا العالمون، وهم المتصفون بصفات العالِم الباحِثِ عن الحقيقة.

وبَنَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ الْمَثَلِ كأنَّه عَيْنُ الْمُمَثَّل له فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُـونَ﴾ عقِب ضربه المثل ببَيْتِ العنكبوت، أي: لـو كانـوا يعلمون لعلمـوا أن من يتخذ من دون الله أولياء، كمن يتخذ لنفسِهِ بيتاً مثل بيت العنكبوت.

* * *

٣ ـ وضرب الله مثلاً تشبيهيّـاً لناقضي عُهُـودِهم، فجعل مَثَلَهُمْ كَمَثَـل المرأة الحمقاء التي نَقَضَتْ غزْلَها من بَعْدِ قُـوَّةٍ أنكاثـاً، قال الله تعـالى في سورة (النحـل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فـالله تبـارك وتعـالى يضْـربُ في هـذا النص مثـلاً للَّذِين يَنْقُضُـون عهـودَهُمْ ومواثيقَهم، أو ينقضون أيْمانَهُم التي يُوثِّقُون بها عهودَهُم، بالمـرأة الحمْقاء التي من شأنها أنْ تَغزِلَ غزْلَهَا، حتَّىٰ إذا أَحْكَمَتْهُ وأَبْرَمَتْهُ إبْراماً مُناسباً، عادَتْ فَنَقَضَتْهُ وجعلَتْهُ أَنْكَاثاً.

الأنكاث: جمعٌ مفردهُ (نِكْث) والنِّكْثُ هو ما يؤخذ من الخيوط المُبْرَمـةِ[١] من نسيج قد بلي أو غير ذلك فيُنْقَضُ بَـرْمُهُ، ويُعَـادُ إلى مثل مـا كان عليـه سابقـاً صُوفـاً أو شَعراً أو قُطناً، ثم يُخْلَطُ بالصوف أو الشعر أو القطن الجدِيد، ويُضْرَبُ بـالمطارق إعداداً له حتى يكونَ صَالحاً للغزل.

إنَّ هَذا الْمَثَلَ يُقَدِّم صُورةً لعملِ امرأةٍ حمقاء، تَبْذُلُ جَهْـداً لتغزل غـزلها، ثمَّ تَبْذُل جَهْداً آخر لتنقُضَ ما غزلَتْ، وتُعِيدَ صُوفَها أو ما غزلت من شَعْرٍ إلى مثل حـالته

(١) برم الخيط أو الحبل وأبرمه فتَلَه طاقين أو أكثر وجعل من ذلك خيطاً أو حبلاً أغلظ وأقوى.

الأولى، فتُضَيِّع جَهْدَيْنِ، وتُبَدِّدُ زَمَنَيْنِ من عُمْرِها، من دون أن تَسْتَفِيد من جَهْدِها أو زَمَنِها شيئاً.

وكذلك حالُ الذِين ينْقُضُون عُهُودَهُمْ ومواثيقَهم التي أكَّدُوها بأيمانهم، إنهم يرتَكِبُونَ حماقةً شَبِيهةً بحَمَاقةِ المرأة التي نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثاً.

ألَمْ يُعْطُوا كلمةَ العهد؟. ألم يؤكِّدوا مواثيقَهم بالأيمان؟. ألم يجعلوا الله بهذه الأيْمان كفيلًا عليهم إذْ قَبِلَ منهم مَنْ أعطَوْهُم عهودَهم وأيْمانَهُم، واعتبروا هذه الأيمان بمثابةِ كفالةٍ منَ الله لَهم؟

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾:

للمفسرين في المراد من عهد الله هنا وجوهٌ من الرأي، وأرى أنه يشمل كلّ عهد يقدِّمه المؤمن في أمرٍ لا معصية لله فيه. وحين يوثِّق المؤمن عهده بالقَسَم بالله فإنَّ عهده يكون من قبيل عَهْدِ الله، أي عهده مع الله، بشرط أن لا يكونَ في هذا العهد معصيةٌ لله عزَّ وجلّ، ولو كان هذا العهدُ مع غير المسلمين.

ويدخُلُ في عمومِ العهد عَهْدُ الإيمان، وعهْدُ الْبَيْعَةِ على الطاعة لإمام المسلمين، وعَهْدُ الجهاد في سبيل الله، وكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره.

قال ابن عباس: والْوَعْدُ من العهد.

وسياق النصّ يفيد أن الْعَهْدَ يشمل كلّ ما يكون بين أُمَّةٍ وأمَّةٍ من عُهُودٍ سياسيَّةٍ أو عسكريَّةٍ أو غير ذلك.

﴿تتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخلاً بَيْنَكُمْ﴾:

الدَّخَلُ والدَّغَلُ: الْغِشُّ والخيانة، وكلُّ ما دخله عيبٌ فهو مدخول، وفيه دَخَل. والدَّخلُ هو ما أُدْخِلَ في الشيءِ على فساد.

فقول الله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخلاً بَيْنَكُمْ﴾: أي: أتحلفون الأيمان

لتَخْـدَعُوا بِهـا الناس وتَغِشُّـوهم بها، حتى يصـدِّقـوكم في عهـودكم ووعـودكم، ثم تنقضُونَها بِغَيْرِ حقّ؟! إنَّ هذا لأمرٌ كَبِيرٌ شَنِيعٌ.

﴿أنْ تكونَ أُمَّةٌ هي أربـى مِنْ أمَّة﴾:

أربـى: أي أكثـر، والمعنى أتتَّخِذُون أيمـانكم الكاذبـة وسيلةَ خديعـةٍ لتكـونَ أمَّتكم أكثر وأقوى من أمَّة عدُوِّكُمْ؟!

وواضح في هذا الاستفهـام أنَّه من قبيـل الاستفهام الإنكـاري. أي لا تَتَّخِذُوا العهود والأيمان الموثَّقَةَ لها وَسِيلة غشٍ وخديعة، تخدعون بها من تُعـاهدونَهُم، ثمَّ تَنْقُضُون هٰذِه الْعُهُودَ والأَيمانَ بغير حقّ، وتُبَرِّرُون اتِّخَاذ هذِهِ الوسيلة المحرَّمـة بِأَنَّكُمْ تُـرِيـدُون غـايـةً نبيلة، وهي أن تكـون أمَّـةُ الإيمـان والإسـلام أرْبَىٰ من أمَّـة الكُفْـرِ والعِصْيَان.

إنَّ الله يُحَرِّمُ هذه الوسيلَةَ وأَمْثَالَها، ولو كانَ الْغَرَضُ منها تقويةَ أُمَّةِ الإِسْلام.

إنَّكُمْ أيُّها المؤمنونَ المسلمون في مَوْضِـع الامتحان ﴿إنَّمـا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾، والامتحان يتطلَّبُ منكم التـزام حدودِ الله، ولـو مع أعـداء الله، ويكلِّفكُمْ أن تكونـوا دعـاةً هداة صـابرين، ملتـزمين أوامر الله ونـواهيَه، مُمَثِّلين في أعمـالكم شريعـةَ الله لعباده.

إنَّكم أيهـا المؤمنـون المسلمـون أمَّـةُ تبليـغٍ وإقـامــةٍ لحكمِ الله في الأرض ولشريعتِه في الناس ما استطعتم إلى ذلك سبيـلًا، ضِمْن حُدودِ أوامـرِ الله ونواهيـه، فإذا اتَّخذتم أيمانكم بالله وسيلةً لمخادعةِ أعـدائِكُمْ خالفْتُمْ أُسُسَ رِسَـالَتِكُمْ للناس، وأعطيتم مثلًا سيِّئاً عنها بتصرُّفاتكم، وكان ذلك منكم مزلةَ قَدَمٍ، وصدَّ عَمَلُكُمْ هـذا النَّاسَ عن الدخولِ في الإسلام، فتـأتي النتيجة على عكس مـا تُريـدُون، إذْ تُمْسِي أمَّةُ الكفر أرْبَـىٰ من أمَّة الإيمان.

إنَّكم أيها المؤمنون المسلمون لم تكلَّفُوا أَنْ تُحـوِّلُوا النـاسَ إلى الإيمان حتى تَتَّخِذُوا لذلك أيَّة وسيلة، كالإكراه، والمخـادَعةِ بـالعهودِ والْـوُعُودِ والأيمـان، إنَّ الله

لَوْ شَاء تحويلهم إلى الإيمان بـالإكراه لتـولَّاه بنفسه؛ فجَعَـلَ الناسَ كُلَّهُمْ أمَّـةً مؤمنةً واحِدةً، فسلب الناس إراداتهم الحرَّة وجعلهم مجبورين غيـر مخيَّرين، وإذا جعلهم مجبورين لم يجبرهم إلَّا على الإيمان الحق، والإسلامِ الكامل له جلَّ وعلا، ولكن يبطل بذلك الابتلاء وما يترتب عليه من جزاء.

ولـذلك قـال الله تعالى عقب الآيـة التي جـاء فيهـا مَثَـلُ الحمقـاء في سـورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

فنقض العهود مزلَّةُ قدمٍ عن صِراط الله، وعقوبَتُهـا المعجَّلَةُ أن يذوقَ نـاقِضُو عهـودِهِمْ السوءَ في الـدنيـا، بسبب عملهم الـذي أعـطى صـورةً سيِّئـة صَـدَّت عن سبيل الله، ثمَّ تكونُ العقوبةُ في الآخرة عذاباً عظيماً.

إنَّ نقضَ الْعُهُود أمرٌ خَطِيرٌ وإثمٌ عظيمٌ في الإسلام، ولذلك كَـانَ حماقـةً تُشْبِهُ حماقةَ التي نقضت غزلها من بعد قوَّةٍ أنكاثاً، وهذه الحماقة مما ينفر العقلاء منه.

• • •

(٤)

شرح الغرض الرابع
وهو إثارة محور الطمع والرغبة
أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب

ففي إثارة محورِ الطَّمعِ يتّجه الإنسانُ بمُحَرِّضٍ ذاتي إلى ما يُراد توجيهُهُ لَهُ. وفي إثارة محور الخوف والحذرِ يبتعدُ الإنسانُ بمُحَرِّضٍ ذاتيّ عمّا يُراد إبعادُه عنه.

وهذا من الأغراض التربوية المهمَّة، ونلاحظه بكثرة في البيانات القرآنية.

* * *

أمثلـة:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾.

في هذا المثل إثارة لمحور الطمع في الإنسان، ففي تمثيل بذلِ المال في سبيل الله بِبَذْرِ الحَبِّ في الأرض الزراعية المعطاء الطيبة، إثارةٌ قويّةٌ لمطامعِ الإنسان.

إنَّ الناسَ يعرفون قيمةَ العطاء الزّراعي إذا أقبل، ويشهدونَ أمْثِلَتَهُ الكثيرةَ في الواقع، فإذا كان هذا الإقبال في العطاء الزراعي قد يَصِلُ بعمليّة حِسَابيّة سهلَةٍ إلى سبعمئة ضعف، لأن الحبَّة الواحدة تنبت سبعَ سنابل، والسنبلةَ الواحدةَ تحملُ مئة

حبَّة، كانت إثارتُهُ لطمع الإنسان المزارع والتاجر بطبعه أعظم وأكثر، فأيُّ إنسان لا يحبُّ الرِّبْحَ؟. وأيّ إنسان لا يَطْمَعُ بفيوضِ الثروة؟

فالغرض من التمثيل في هذا النصّ، مع بَيَانِ حقيقةِ مضاعفةِ ثَوابِ المنفقين في سبيلِ الله إلى أضعاف كثيرة جدّاً، إثارةُ مِحْوَرِ الطَّمَعِ بِفَضْلِ الله في نفس المخاطبين، ليكونَ هَذا الطَّمَعُ مُحَرِّضاً ذاتِيّاً في الأنْفُسِ عَلَىٰ بَذْلِ الأَمْوالِ في سَبِيلِ الله.

* * *

٢ ـ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

في هذا النصِّ إثارةٌ لِمِحْوَرِ الطَّمَعِ للتحريض على البذل في سبيل الله، وإثارةٌ لمحور الخوف من الخسارة للتَّحْريضِ على البُعْدِ عن إبطال أثَرِ الصدقة برذيلة المنّ والأذى، وإثارةٌ لمحوري الطمع والخوفِ معاً للتحريض على الإخلاص لله وابتغاءِ مرضاته في بذل الصدقات، وللتَحْذِيرِ مِنْ مُراءَاةِ النَّاسِ وابتغاءِ الثَّناء والثواب منهم في بذل الصدقات.

لقد شَبَّه اللَّهُ الَّذين يُبْطِلُون صَدَقَاتِهم بالمنّ والأذى بالذي يُنْفِقُ ماله رئاء الناس ولا يُؤْمِنُ بالله وَلَا بِاليوم الآخر، ثم ضَرَبَ مَثَلاً لهذا المرائي فكان في الحقيقة مَثَلاً له ولمن يُبْطِلُون صَدَقَاتهم بالمنِّ والأذى نظراً إلى تشبيه هؤلاء به.

أمّا المثَلُ فقد صوَّرَ المنْفِقَ الذي ينفق ماله رئاء الناس، بزارعٍ على صخرةٍ صمَّاء ملسَاءَ، عليها طبقةٌ رقيقةٌ جدّاً من التراب، على قَدْرِ رياء المرائي.

قوله تعالىٰ:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾:

أي: فوصفُهُ كوصْفِ زارعٍ على صَفْوَانٍ عليه ترابٌ قليل.

الصَّفْوَانُ: الصَّخْرُ الأمْلَسُ.

ثم ينزلُ غيث السماء الغزيرُ لإمْدَاد الزَّرْعِ وإنْباته، وهو مَثَلُ رحمة الله وجودِهِ الشَّامِلِ للباذِلين.

ولكنَّ الزارع على صفوانٍ لا يَمْلُك أرضاً سمينة تمتصّ الغيث، وتُمِدُّ منه الحبَّ المزروع. وكذَلِكَ قلبُ المرائي وَنَفْسُهُ، ليس فيهما قابلية لامتصاص رحمة الله وثوابه.

والنتيجةُ التي تحصُل أن يَجْرفَ الغيثُ الكثيرُ الغِلَالة التُّرابيَّة وما زرع فيها، ويَظْهَرُ الصَّفْوَانُ على حقيقته صخراً صَلْداً أملس، وتظهر في المقابل نفس المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر صمَّاءَ ملساءَ قاسِيَةً، ليس فيها لِينٌ من رحمة، ولا رِقَّةٌ من إيمان، فَيَنْجَرِفُ عنها غيثُ رحمةِ الله، كما يَنْجَرِفُ الوابِلُ عن الصَّفْوان.

* * *

٣ ــ ثم يقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

في هذا النصّ مثلان:

في الأول منهما إشارةٌ لمحورِ الطَّمعِ في الإنسان، للتَّحريضِ على الإخلاص لله، بابتغاءِ مرضاتِه والبذْلِ في سبيله، حتى يكونَ الباعِثُ ذاتيّاً مِنْ أنفسهم، بدافع من الإيمان بالله واليوم الآخر، ودافعٍ من الرحمةِ وخُلُقِ الجود.

في الثاني منهما إشارةٌ لمحور الخوف في الإنسان، ليكون على حذر من إبطالِ الصدقات بالمنِّ والأذىٰ، وليكونَ لَدَيْهِ مُحَرِّض ذاتي يُبْعِدُه عمَّا يبطل صدقاته، فإتْبَاع الصدقةِ بالمنِّ والأذىٰ، بمثابةِ الإعصار ذي النار تُحْرِقُ الجنَّات الخضرَ المثمراتِ، مَعَ أنَّ الباذِلَ أَمَامَهُ مستقبلٌ يَحْتَاجُ فِيهِ إلىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ صالح.

أمَّا المثل الأول فهو مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، أي: تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم، وخلق الرحمة والجود فيهم.

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلاً بزارعٍ حَصِيفٍ زَرَعَ جنَّةً كثيفة الأشجار عظيمتها، بربوةٍ[1] مرتفعة من الأرض، سمينةِ التربة لا تَجْرِفُها السيول، أصابها وابلٌ من السماء، فآتت أُكُلَها ضِعْفَيْنِ، عِلْماً بأنَّ أكُلها ثروةٌ عظيمة، وأضعافٌ مضاعفة جداً لما بُذِر فيها، فإن لم يُصِبها وَابِلٌ (وهو المطر الغزير) كفاها الطلّ (وهو المطر الخفيف).

وختم الله المثل بقوله: ﴿والله بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾، إلماحاً إلى واقع حال أنفس الباذلين، فمن الباذلين من يستحقُّ فَيْضاً من رحمةِ الله ومضاعفةِ الأجر يُمَاثِلُهُ الوابل من المطر، ومن الباذلين من يستحقُّ عطاءً يماثله الطلُّ من المطر. فالوابل والطلّ صورتان لعطاءِ السَّماء تُقَابلان التفاوت في ثواب الباذلين، إذْ يُعَامِلُ الله كلّ باذلٍ على قدر عَمَلِه وإخلاصه، فمن الناس من يستحق وابلاً من رحمة الله وجوده، ومن النَّاسِ من يستحقُّ طَلًّا من رحمة الله وجوده.

وأمَّا المثل الثاني فهو مثل الذين يُبْطِلُون صَدَقَاتهم بالمنّ والأذى، وقد استثارَ اللَّهُ به في الذين آمنوا رغبةَ المحافظة على ما غَنِمُوه من أجرٍ عظيمٍ، إذا هم أنفقوا

---

(١) الرَّبوة: الرابية، وهي ما ارتفع من الأرض، فلا تجرف السيول تُربتها.

في سبيل الله وابتغاءَ مَرْضَاتِه وتثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم، وذلك بأن لا يأتوا إليه بما يَنْسِفُه ويُتْلِفُه ويُحْرِقُ ثَمَراتِه، ألَا وهو إِعْصَار المنّ والأذى، فالمنّ والأذى بالنسبة إلى أجر الصدقات العظيم كالإِعْصَار النارِيّ المحرقِ بالنسبة إلى جنّة فيها أفضل الشجر وأَوْفَرُ الثمر. وفي عرض هذا المثل قال الله تعالى:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

أي: لا تُتْبِعُوا صَدَقَاتكم بالمنّ والأَذىٰ حتّىٰ لا يكونَ مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ من عنده هذه الجنّةُ ذاتُ الشَّجَر الكثير، والثَّمَر الوفير، والماءِ الغزير، وله فيها من كلّ ما يحبّ من الثَّمَر، وقد كَبِرَتْ سِنُّه وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونُوا من بَعْدِهِ أغنياءَ بِمَا يُوَرِّثُهُمْ مِنْ هٰذِهِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ إذا كان وضعه كذلك فاجأه إعصارٌ فيه نارٌ، فأحرق جَنَّتَهُ هذه، وأتْلَفَ كلَّ شيء فيها. كذلك يفعل المنُّ والأَذىٰ فيما هو مُنْتَظَرٌ لِلْمُؤْمِنين من أجرِ الصدقات.

والإنسانُ يحتاجُ في آخرته كُلَّ عَمَلٍ صَالحٍ قدَّمه في دُنْياه، فَلا يأتِ أعماله الصالحات التي قدَّمها بما يُبْطِلُها ويُلغيها، إنَّ العملَ القليل الذي يراه في منظاره قليلاً، هو كزرع قليل؛ إلَّا أن الله يُنَمِّيهِ لَهُ ويُضَاعِفُه له أضعافاً كثيرة، فإبطاله إبطالٌ لما وصل إليه بفضل الله.

* * *

٤ ــ وضرب الله أمثلة متعدِّدة من قصص الأوَّلين أَبَانَ فيها سُنَّتَهُ في معاملة عباده ومجازاتهم بالثواب أو بالعقاب، ليحرِّض طمع الطامعين بفضله، حتى يؤمنوا ويُسْلِمُوا ويَعْمَلُوا صالحاً، وليُثِيرَ خوْفَ الخائفين من عدله، حتى يجتنبوا ما يُسْخِطُه سبحانه من عقيدة أو نيَّةٍ أو عَمَلٍ.

فمنها ما يلي:

(أ) مثلُ أصحاب القرية التي جاءها المرسلون، فكذبوهم وهددوهم بالرجم

إن لم ينتهوا عن إرشادهم ودعوتهم إلى الله، ثم جاءهم من أقصى مدينتهم رَجُلٌ يَسْعَىٰ، فقال لهم: يا قوم اتَّبِعُوا المرسلين، اتَّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، فحاكموه على إيمانه برسل ربه، فأعلن حُجَّتَه، وأبان منطق إيمانه، ثمَّ أعلن تحدِّيه لقومه، فقال لهم: إنِّي آمنت بربِّكم فاسمعون، فقتلوه، فكان شهيد الإيمان والدعوة إلى الله ونصرةِ الحقِّ بالحقِّ، فذهبَ إلى ربه، فقيل له: ادخل الجنة، إشعاراً له بأنَّه من أهلها، فقال: يا ليت قومي يَعْلَمُونَ بما غفر لي ربِّي وجعلني من المكرمين. وأمَّا أهل القرية من بعده فلم يكونوا بحاجة إلى إنزال جُنْدٍ من السماء لإهلاكهم، إنْ هِيَ إلاّ صيحة واحدة من صوت كوني مميت، فإذا هم خامدون ميتون.

قال الله تعالى في سورة (يٰس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا
أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا
عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ
مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ
أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ
آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا
لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ
قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ
مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

إنَّـه مثـلٌ واقعيّ، وفي المثـل الـواقعيّ عبـرةٌ مُثيـرَةٌ للخـوف من عقـاب الله، ومحرّكَةٌ للطَّمَعِ بفضله، فالَّذين كذَّبُوا الرُّسُلَ أُهْلِكُوا في الدنيا بـالصيحة، ولهـم في الآخـرة عذاب النـار، والرَّجُـلُ المؤمن الـذي دعـاهم إلى الله، ونَصَـرَ رسُـلَ ربـه، واستُشْهِدَ في سبيلِ الله، دخَلَ الجنَّة، وغفر الله له، وَجَعَلَهُ من المكرمين(١).

ونلاحظ في عرض القصة أموراً مطويّة لم تذكر لفـظاً، اعتماداً على أنَّ النـظر الذكيّ يكشفها.

فمن المطويّات ما جاء محذوفاً بين:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبين ما جاء بعده، وهو:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى . . . ﴿٢٢﴾﴾.

والظاهر أنَّ أهل القرية لما دعـاهم هذا الـرجل المؤمن منهم لاتِّبـاعِ الرسُـل، اعتبروه صابئـاً عن دينهم، وخارجـاً عن ملَّتهم، فحاكمـوه، فقالـوا له مثـلاً: أتركت عبادة آلهتنا، وذهبتَ تعبُدُ ما يدعو إليه هؤلاء الرسُـل؟. فقال لهم: ﴿**ومـالي لا أعبد الذي فطرني** . . .﴾ إلى آخر مقالته المملوءة بحجج الإيمان.

ولمَّـا شدَّدُوا عليـه أعلَنَ تحدِّيَـهُ لهم، وإصراره على إيمـانـه بـربهم خـالقهم ورازقهم ومن بيـده مقاليـدُ أمورهم، لا بـآلهتهم التي يعبـدونهـا من دون الله، والتي

(١) ذكر بعض أهل التفسير أن اسم القرية التي جاءت في هذا النصِّ انطاكيّـة، وانتقد ابن كثيـر هذا الرأي من وجـوه قويـة، وقيل: أسمـاء الرسُـل الثلاثـة «صادق وصـدوق، وشلوم» وذكر المفسرون أن اسم الرجل المؤمن الذي نصرهم «حبيب النجار». ولا أرى لكلٍّ هذه الأقـوال سنداً يمكن الاعتماد عليه، من تاريخ مقبول، أو خبـر صحيحٍ عن رسـول، على أنه لا يُهم معرفة ذلك، المهمّ أنَّ القصة وقعت، والمثلُ فِيهَا كافٍ لعظة من آمن وعقل.

لا تغني شفاعتهم شيئاً، ولا ينقذونه من عـذاب الله، فقال لهم منـادياً بـأعلى صوتـه ليسمع آخر الْجَمْعِ مِنْ أَهْلِ قريته: إِنِّي آمنتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُون.

وبعد مقالة التحدِّي هذه كلامٌ مطويّ آخر، لم يصـرِّحْ به النصّ للعلم بـه ممَّا جاء وراءه، وهو ما يدُلُّ على أنَّهم حكموا عليه بالقتل فقتلوه، دلَّ على هذا المطويِّ قول الله تعالى عقب حكايته لمقالة التحدِّي:

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ويؤكـد هذا أنَّ النصَّ الـذي دلَّ على إهلاك أهـل القريـة، أبانَ أنَّ إهـلاكَهم بالصيحة قد كان من بعده، فقال تعالى:

﴿وما أنزلنا على قومه من بَعْده من جُنْدٍ من السَّماءِ وما كُنَّا مُنْـزَلِين. إنْ كَانَتْ إلَّا صَيْحَةً واحدةً فإذا هم خامدون﴾.

رحمة الله وبركاته على هذا المؤمن المجاهد الصابر الشهيد، قال ابن عباس: نصَحَ قومه في حياته بقوله: «يا قـوم اتَّبعوا المـرسلين» وبعد ممـاته بقـوله: «يـا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربـِّي وجعلني من المكرمين».

ونتساءل: ما الذي جعل أهل القرية يقولون لرسلهم: «إنَّا تطيرنا بكم»؟

ويـظهـر لي في الجـواب أنَّهم بسبب تكـذيبهم لـرسُلهم أصيبـوا بـشيء مما يَكْرَهُـونَ من قَحْطٍ أو جَوَائِـحَ أو أمراض، وهـو ما جـرت به سُنَّـة الله قبل إنـزال العقاب الشامل، لذلك تطيَّرُوا مِنْ رُسُلِهِمْ. فقال لهم رُسُلهم: طائركم معكم، أي: أعمـالكم هي سبب بلائكم ومصـائبكم، أإنْ ذُكِّرْتُم بـربِّكم تطيـرتم بنا وهـددتمونـا بالرجم والعذاب الأليم؟!

(ب) ومثل القرية التي قال الله في شـأنها في سـورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

في هذا النصّ القرآني مثلٌ يحكي قصّة أصحاب قرية كانت آمنة مطمئنّة، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله، وكذّبت رسولَ ربِّها، فبعث الله عليها جوعاً عامّاً وخوفاً شاملاً كانا عليها كاللّباس الشامل، عقوبة لها وإنذاراً، وعظةً وذكرى لمن شاء أن يتذكر.

أمَّا المراد من هذه القرية فقد قال ابن عباس: إنَّها مكَّة. كانت آمنة مطمئنَّة يُجْبَىٰ لها ثمرات كلّ شيء، فكذّب أهلُها ـ وهم مشركو قريشٍ ومن تبعهم ـ رسولَ الله محمداً ﷺ، وكفروا بأنعم الله عليهم، فدعا الرسول ﷺ عليهم بسبعٍ من السنين شديدةٍ كسبعِ يوسف، فذاقوا جوعاً شديداً، وقويت شوكة المسلمين في المدينة، فكانوا منهم في قَلَقٍ دائم، وخوفٍ من غزوٍ مُدَاهِم.

وما قاله ابن عبَّاس ذهب إليه مجاهد وقتادة والزهري ورجَّحه ابن كثير.

والسياق يؤيد أنَّ المقصود كُفَّارُ قريش في عهد الرسول ﷺ.

ومثلُ الرجُلين اللَّذين جعل الله لأحدهما جنَّتَيْنِ من أعناب، وهو المثل الذي ذكره الله بقوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ
لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ
إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ

دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ
رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ
فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾: أي: بستانين مليئين بالأشجار الكثيفة الساترة بظلِّها ما تستر من أرضهما.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: أي: وجعلنا النخل محيطاً بالجنَّتَيْن.

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾: أي: ولم تَنْقُصْ من أُكُلِها شيئاً بل يأتي وافياً وافراً.

﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾: أي: وأقوى عشيرة وأصحاباً وأنصاراً. نَفَرُ الرجل: عشيرتُه وأصحابُه وأعوانُه الذين يدافعون عنه وينفرون معه إلى القتال إذا دعا الداعي.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾: أصلها لكنْ أنا هو الله ربِّي، فحذفت همزة أنا وألقيت حركتُها على نون لكن فاجتمعت النونان فأدغمتا، فصارتا نوناً واحدة مشددة.

﴿ويُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾: الْحُسْبَانُ: العذاب، وهو على هذا مصدر كالغفران. وقيل: الحسبانُ الْمَرَامِي وهي الصواعق التي تنزل من السماء فتدمِّرُ ما تقع عليه، وعلى هذا فالحسبان جمع مفرده حُسْبانة.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾: صعيداً: أي أرضاً ملساء لا شجر فيها ولا نبات. زَلَقاً: أي لا تثبت عليها قدمٌ بل تنزلق عنها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾: أي: غائراً في الأرض. فالغورُ: مصدر وصف به، فهو بمعنى اسم الفاعل، نحو رجل عدل، أي عادل.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: وهي خالية، لا ثَمَر فيها، لم يبق فيها إلّا عيدان منبسطة على عُروشها. عروش أشجار العنب: هي ما يُصْنع من خشب ونحوه مرتفعاً عن الأرض لتمتد عليها قضبانها فتحمل أثقالها.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: الْوَلَاية بفتح الواو هي النصرة والتولّي. وبكسر الواو هي السلطان والملك[1]. وفي اللفظة قراءتان، والمعنى: هنالك النصرة والتولي لله الحق، وهنالك السلطان والملك لله الحق.

واضحٌ في هذا المثل أنه يشتمل على قصة رجلين سَلَفَا في الزمان الأول: أحدُهُما كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، والآخَرُ كان كافراً بربِّه مُنْكِراً لليوم الآخر.

أمَّا الكافر منهما فقد آتاه الله مَالاً وخَدَماً وولداً، وجعل له جنَّتَيْن من أعناب، محفوفتين بنخلٍ، بينهما زَرْعٌ، يَجْرِي خلالَهُما نَهَرٌ يَسْقِيهما، تؤتيان ثَمَرَهُما كاملاً غيرَ ناقص.

وفي سنةٍ من سنوات الإنتاج الطيب، والثَّمَرُ على شجره بهيج، التقى الرجلان، فبدأ الكافر منهما يفتخر على المؤمن بكثرةِ مالِه وأولادِه وقُوَّةِ أعوانه، كأنَّه يدعو صاحبه إلى أن يَسْلُكَ مِثْلَ طريقته، ويَلُومُهُ على إيمانه، ويوحي له بأنَّ طريقة إيمانه أفقرته، ثم أخذ بيد صاحبه ودخل جنَّته مفتوناً بإتقان زِرَاعتها وحمايتها من الجوائح، وقال له: ما أظنّ أن تبيدَ هذه أبداً، فهي محصَّنة بالأسوار، محصَّنةٌ من الرياح الباردة بأشجار النخيل المحيطة بها، مخدومة أحْسَنَ خِدْمة. وتَمَادَىٰ في غروره، فأعلن إنكاره للسَّاعة، فقال: وما أظنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً. ثم تمادى مرَّة ثانية في غروره فزعم أنَّه قد جاءه هذا الغنى لجدارةٍ فيه، واستحقاقٍ ذاتي له، فقال: ولئن رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً.

أَيْ: على الفرض والتقدير البعيد، إنْ كانت توجدُ رجعةٌ إلى الحياة مرَّة أخرى، فإنَّ ربِّي سيُعْطِيني جنَّةً خيراً من هذه الجنَّة، لأنني أستحقُّ ذلك.

---

(١) كذا ذكر صاحب الكشاف (عن الرازي).

أجابَهُ صاحبه بأسلوب الاستفهام الإنكاريِّ، المتضمّن أنَّ ما ارتكبه من الظلم لنفسه أمرٌ عظيمٌ شنيعٌ، فقال له: أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثُمَّ من نطفة ثمَّ سوَّاك رجلاً؟!

لقد أرشده في جوابه هذا إلى دلائل الإيمان، وذكَّره بأصل نشأته، وأنَّه كان تُراباً، ثمَّ كان نُطْفَةً مَهينة، ولولا أَنْ سوَّاه الله رجُلاً تامَّ الصِّفاتِ الإنسانية، لبقي تراباً أو نطفة مستقذرة.

وبعد هذا أعلن له عقيدته بربِّه، فقال له: لكنَّا (أي لكن أنا) هو الله ربِّي ولا أشركُ بربِّي أحداً.

ثمَّ نصحه بأن يذكر نعمة الله وفضله عليه، وبأنَّه لولا مشيئة الله وإمدادُه له بالقوة لم تكن له جنَّة، ولم تنبت له أشجار ولا ثمار، فقال له: ولولا إذْ دخلت جنَّتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله. وفي هذا الذكر ـ الذي هو عقيدة المؤمن بربِّه في تصاريف الكون ـ تحصينٌ من عَوَارِضِ السوء، واستجداءٌ لدوام إمداد الله، فالله هو الذي يَدْفَعُ بمقادِيرِه الجوائح، وهو الذي يُمِدُّ بمقادِيرِه بأسباب البقاء والنماء.

ثمَّ وجَّه نظره للدَّار الآخرة، وما أعدّ الله للمؤمنين فيها من خيرٍ عظيمٍ وثواب جزيل، وأبان له أنَّ مَكْرَ الله غير مأمون، وأنَّ معجَّل عقابه في الدنيا رُبَّمَا يقع، وأنَّ من معجّل عقابه أن يَسْلُبَ النعمة التي كانَتْ سَبَبَ الفتنة.

ولِيَصْرِفَ عنه أوهَامَه التي جعلته يقول: «ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً» ذكَّره بالمخاطر التي رُبَّما كان غافلاً عنها، وهذه المخاطر لا يملك التحصين منها، فلا مندوحة له من الإيمان بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه، لِيَدْفَعَ عَنْهُ عوارض البلاء: ومن هذه المخاطر أمطارٌ غزيرةٌ مُتْلِفَةٌ، وصواعِقُ سماوية، ورياح عاتية تكسر الشجر وتتلف الثمر وتجرف الجنَّة من أصولها، حتى تصبح صعيداً زلقاً، أي أرضاً لا تثبت عليها قدم، ولا ينبت فيها زرع. ومن هذه المخاطر أن يغوِّر الله الماء في

الأرض، فلا يُبْقِي للجنَّة نهراً جارياً، ولا عيناً معينة، ولا مسرباً في باطن الأرض يمدّ بئراً، ومهما طلب الماء حفراً في الأرض فلن يستطيع الظفر به، لأن الله قد غوره. لذلك قال له: إن ترنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً فعسى ربِّي أن يؤتينِ خيراً من جنَّتك(أي في الدار الآخرة) ويُرْسِلَ عليها(أي على جنّتك) حُسْباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً.

وعاقب الله المغرور بجنتيه، الكافرَ بِرَبِّه وباليوم الآخر؛ فأرسل عليهما ما أتلف ثَمَرَهُمَا، فأصبحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حسْرةً وندماً على ما أنفق فيها، ويقول: يا ليتني لم أُشْرِكْ بربِّي أحداً، وَلَعَلَهُ قَد كان ممَّن يؤمن بالأسباب ولا يؤمن بمسبِّبها.

لقد أثَّرت فيه موعظة العقاب، بعد أن لم تؤثر فيه موعظةُ الخطاب.

وهكذا نُلَاحِظُ في هذا المثل أنَّه يُثِيرُ محورَ الخوفِ من عِقاب الله لدى كلّ مَنْ تؤثر فيه العظات، وتَنْفَعُهُ الذِّكْرى.

• • •

(٥)

شرح الغرض الخامس
وهو المدح أو الذمّ، والتعظيم أو التحقير

كثيراً ما نلاحظ في الأمثال أنَّها أسلوب بارع جدّاً لمدْحِ من ضُرب له المثل، أو ذمّه، أو تعظيمه، أو تحقيره.

* * *

أمثـلـة:

١ ــ ما ضربه الله من مَثَلٍ لأصحاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وذكره لنا في القرآن بقوله تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاةِ﴾: أي: وَصْفُهُمْ في التوراة.

من الظاهر أنَّ الله تبارك وتعالى كما بشر بمحمد وأصحابه في التوراة والإنجيل بذكر صفاتهم، فقد مدحهم فيهما ببيان أوصافهم الرفيعة السامية.

فمَثَلُهُمْ في التوراة جاءَ بِذِكْرِ صفاتهم دون تشبيه.

ومَثَلُهُمْ في الإنجيل جاءَ عن طريق تشبيههم بالزَّرع الذي ينمو ويتعاظم بسرعة عجيبة.

فوصفُ أصحاب محمد ﷺ في التوراة قد اشتمل على ما يلي:

أولاً: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَىٰ الكُفَّارِ**﴾: أي: هم شجعان أهل بأس وجهاد وجلاد، وتضحية وفداء، يقاتلون أعداء الله بقوّة.

ثانياً: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾: أي: مجتمعُهم مجتمعٌ تآخٍ وتوادٍّ وتعاونٍ وتراحم، كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسهر.

ثالثاً: ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾: أي: هم عُبَّاد لله مخلصون في عباداتهم له، إذ يبتغون فضلاً من الله بالثواب الذي وَعَدَ به عبادَه المؤمنين الذين يعبدونَهُ مُخلصين له الدين. ويبتغون رضواناً من الله، لأنَّهم يعلَمُون أنَّ السعادةَ العظمَىٰ تحصُل لهم بالظفر برضوان الله. ولمّا كانوا من الذين يُكثِرون السُّجود لله تعالى ويُطِيلون مدَّته كانت علامته ظاهرةً في وجوههم.

ومن هذه الصفات نستطيع أن نستخلص صفاتِ المجتمع المثالي، فهو مجتمع مؤمنٌ، عابد لربِّه، متراحِمٌ فيما بينه، مجاهِدٌ شُجاعٌ ضِدَّ أعداءِ الله.

أمَّا وصْفُ أصحاب محمَّدٍ ﷺ في الإْنجيل، فقد تناوَل عن طريقِ التَّمْثِيل والتَّشبيه مظهرَ نماءِ الأُمَّة الإسلامية وتكاثرها وتماسكها ووحدةِ كيانها، بدءاً من النَّواةِ الأولَىٰ لهذه الأمة، فالقلَّةُ المخلِصَةُ الَّتِي اجتمَعَتْ حوْلَها، إلى التكاثر السريع، حتى أخذَ الناسُ يدخلونَ في دين اللَّهِ أفواجاً.

فمثلُهم كزَرْعٍ يبدأُ نباتاً ضعيفاً، ثمَّ يَشْتَدُّ شَيْئاً فشَيْئاً، ثُمَّ تَنْبتُ من جوانبه فِراخُه وصِغَارُه، ثم يقوىٰ ويشتَدُّ عُودُه، ثمّ يَنْتَشِرُ في الأرْضِ، عندئذٍ يُعْجبُ الزُّرّاع، وجاء في سورة «الحديد» تسمية الزُّرَّاع باسم «الكُفَّار»، فالكافر يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الزارعِ، لأنَّه يَكْفِرُ الحبَّ في الأرضِ، أي: يَسْتره.

ولمّا استكملت الصُّورةُ عَناصِرَها في المَثل، وحضرتْ صورةُ الممثَّلِ لَهُ في الذهن، كانَ المثَلُ بمَثَابَةِ الْمُمَثَّلِ له تماماً، فبنى النصُّ على هذه الصورة الذهنية

التي أحضرها المثل، فقال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، كأن الذي جاء قبلها هو: ومثلهم في الإنجيل يبْدَؤون ضعافاً، ثم يتكاثرون وتقوى شوكتهم، وينتشرون في الأرض، ويشدُّ الله أرزهم، وينصُرُهم علىٰ عدُوِّهم، ليغيظ بهم الكفار الذين كفروا به، ساترين أدلّة التوحيد، وكفروا بالرسول وبما جاء به.

* * *

٢ ـ وضرب الله مثلاً للّذين حُمِّلوا التوراة من بني إسرائيل ثمّ لم يحملوها (أي: تعلّموا الألفاظ وحفظوها، ثمّ لم يفهموا دلالاتها ولا عملوا بها، أو تعلموها وفهموا معانيها ولم يعملوا بها) بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفار العلم، وهو لا يفْقَهُ ما فيها من دلالات، ولا يعمل بشيءٍ منها، وظاهرٌ أن الغرض من ضرب المثل لهم بهذا ذمُّهم بالجهالة المساوية لجهالة البهائم.

لقد كان من الممكن أَنْ يُخْتَار في المثل بدلَ الحمار الجَملُ أو الحصانُ، فهما أيضاً لا يَفْقَهانِ شيئاً ممّا يُحَمَّلُ على ظُهُورِهما من أسفار العلم، لكنَّ التَّمْثِيل بالحمار أبلَغُ في الذَّمِّ، لاشْتِهَارِ الْحِمَارِ عند الناس بالبلادَةِ والغباءِ والجهالة المفرطة.

قال الله تعالى في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

* * *

٣ ـ ومِنَ الشَّواهد التي يُلاحَظ أنَّ الغرض من ضرب المثل فيها التعظيم، ضرب المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، مع ما يَتضَمَّن من أَغْراضٍ أخرى.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وقد سبق شرح هذا النص.

* * *

٤ ــ ومن الشواهد التي يُلَاحظُ أنَّ الغرضَ من ضرب المثل فيها التحقير، ما تكرَّر في القرآن من ضَرْبِ المثل لتحقير الحياة الدنيا، وتهوين شأنها وشأْنِ لَذَّاتها ومتَاعِها، ولسرعة زوالها وفنائها؛ بدَوْرَةٍ مِنْ دَوْرَاتِ الربيع، وما يظْهَر فيه من خُضرة ونُضْرة، ولكِنْ سَرْعَانَ ما تذبُلُ وتَصْفَرّ، ثمّ يتكسَّر الزَّرع ويتحطَّم، ثمّ يزولُ ويَفْنَىٰ، وتَعُودُ الأرضُ جَرْدَاءَ غبراء.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿هَشِيماً﴾: الهَشِيمُ هُوَ النبتُ اليَابِسُ الْمُتَكَسِّرُ.

﴿تَذْرُوهُ﴾: تَنْسِفُهُ وتَطَيِّره.

وقول الله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿دَار السلام﴾: هي الجنة التي وعد المتقون.

وقول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿أعجب الكفار﴾: أي: أَعْجَبَ الزُّرَّاع.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: أي: ثم يَيْبَسُ ويَصْفَرُّ.

﴿ثم يكون حُطاماً﴾: الحُطام ما تكسَّر من اليَبَس.

• • •

(٦)

شرح الغرض السادس
وهو شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته، حتى يتأمَّل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكر

هـذا النوع من الأمثال يُخَاطَبُ بـه الأذكياءُ وأهـلُ التأمـل والتفكر، ومعلومٌ أنَّ استخـدامَ الأساليبِ الـذكِيَّة التي يحتـاج إدراكُ المرادِ مِنْهـا إلى ذَكاءٍ، ممَّـا يُـرْضِي الأذْكِيَـاء، ويُحَرِّكُ طـاقاتهم الفكـرية، ويَلْفِتُ أنـظارَهُمْ بِقُوَّةٍ، ويـدفعهم إلى تَوْجِيـه عِنَايتهم، لإِدْراكِ المراد بالتأمُّل وإمعان النظر.

ونظيرُهُ في آداب الناس ما يَضْرِبُونه من أمثال في الأحاجي والألغاز، لِيَسْتَخْرِجَ الأذكياءُ المرادَ منها، وليُقَاس بها مقدار ذكاء المخاطبين أو سرعة انتباههم.

ومن الأمثال القرآنيـة التي قد تصلح شـاهداً لهـذا، قول الله تعـالى في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

إنَّ إنزال القرآن على جَبَلٍ من الجبالِ لَيْسَ من خِبْراتِ الناس، حتَّىٰ يُضْرَبَ المثلُ به للإقناع أو للتقريب أو لغير ذلك من الأغراض التي سبق شرحها، لكنَّـه مَثَلٌ يحرِّك في الأذكياء طاقاتهم الفكرية ويُوَجِّه عنـايتهم حتى يتأمَّلوا ويتفكـروا ويَدْرُسُـوا

ويتابعوا البحث، رجاءَ أنْ يَصِلُوا إلى معارف يحلُّون بها لغز هذا المثل.

ويُشِيرُ إلى هذا قَوْلُ الله تعالى عَقِبَ ضـرب المثل: **﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. فما جاء في المثل يحتاج إلى تفكُّر. وأشار إلى بُعد مُدْرَك هذا النوع من الأمثال بقوله: **﴿وَتِلْكَ﴾** إذْ مِنَ المعلوم أنَّ هذه الإشارة تستعمل فيما هو بعيد حسّاً أو معنىً أو منزلة.

ولدى التفكُّر في هذا المثل على مقدار أفهامنا يظهر لنا ما يلي:

أولاً: يوجد معنى قريب يدلّ عليه النصّ بجملته، وهو مطالبة المؤمنين بأن يقرؤوا القرآن ويستمعوا إلى آياته بخشوع وتدبّر، حتى تهتزَّ قلوبهم، وتقشعرَّ جلودهم من خشية الله.

فمن خصائص هذا القرآن أنَّ الله تعالى لو أنَّه أنزله على جبل في قسوته وكبر حَجْمِه، لرأيته خاشعاً ساكناً مُتَصَدِّعاً مُتَكَسِّراً من خشيةِ الله، لمَا لَهُ من قوَّةِ تأثيرٍ جعلها الله فيه، عند إنزاله على شيءٍ ما وحياً.

ثانياً: وباستطاعتنا أن نَتَعَمَّق فنقول: إنَّ القرآن كلام الله، وهو نور من نور الله، ونورُ الله إذا توجَّه لشيء ما في الوجود سواءٌ أكان حيّاً أو جماداً خشع وتفجَّرَتْ منه الخشيةُ على قدره، والشرط في هذا أن يكون مصحوباً بأنوار الإنزال الرّبّاني.

لذلك لمَّا سأل موسى عليه السلام ربَّه فقال: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قال: إِنَّكَ لَنْ تَرَانِي، ولكن انْظُرْ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّه لِلْجَبَلِ (أي كشف الحجُبَ عن نور ذاته عزَّ وجلّ) لَمْ يَقْوَ الْجَبَلُ عَلَىٰ تَحَمُّلِ مواجهةِ نُورِ اللَّهِ، فانْدَكَّ بتأثير سَطْوَةِ النُّورِ الرَّبَّاني، ورؤيةُ موسَىٰ عليه السلامُ للجبل الذي تَجَلَّىٰ نورٌ من نور الله له جعلته يخرُّ صَعِقاً لا حَيَاةَ لَهُ، لأنَّهُ لم يَقْوَ علىٰ تحمُّلِ تَجَلِّي النُّورِ الرَّباني لِلْجَبَلِ، فكَيْفَ به لو أَنَّهُ تَجَلَّىٰ لَهُ مُبَاشَرَةً؟!

بعد هذا نقول: لَوْ أَنَّ نُورَ الْقُرْآن أُنْزِلَ على جَبَلٍ لَخَشَعَ وتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ الله ولرأى الرَّاؤون أثَرَ ذلك فيه.

ويـدُلُّ عَلَىٰ هـذا أيضـاً قـول الله تعـالى في سـورة (الـرعـد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ... ﴿٣١﴾﴾.

أي: لكان هذا القرآن، إذ النُّورُ الرّباني فيه يفعلُ الأعاجيب فتسير بـه الجبال عن أماكنها، وتُقَطَّعُ به الأرض، ويُكَلَّمُ به الموتى فَتَسْمَعُ وتُجِيبُ.

ومن هذا تأثير الرُّقَىٰ القرآنية، كما ثبت ذلك في الصحيح من كلام الـرسول، وفي التجارب.

ولكن ليس كلّ تالٍ للقرآن يُصَاحِبُ تـلاوتَه نُـورُ القرآن الـرَّباني، ذلــك لأنَّ رَبْط النُّورِ الرَّبَّانِي بالألفاظ والحروفِ المجـردة ربْطٌ ضعيف لا دليل عليـه، لكنَّ نور القـرآن يَتَفَجَّرُ على مقـدار إيمان التـالي لآياتـه، وعلى مقدار قُـوَّة أسْلاَكِـه الروحيـة المـوصولـة بالله، فـالنبـيُّ عليه الصـلاة والسلام يَتْلُو القـرآنَ فيكونُ بتـلاوته لـه نُورٌ عَظِيمٌ، لو أذن الله له به أن يُسَيِّـرَ الجِبالَ لَفَعَـلَ، ومؤمنٌ ضعيفُ الإيمان يتلو القـرآن فلا يَتَفَجَّرُ من نور القرآن بتـلاوته إلاَّ خَيْطٌ دقيق، أو رَذَاذٌ من شُعَـاعٍ يسير، وتـرتقي المراتب، وفي قمتها مرتبة النبـيِّ ﷺ.

وحينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ إنسانٌ كافر بالله واليوم الآخر، لا يَتَفَجَّرُ من نور القرآن لَدَيْـهِ شيء، لانقطاع صِلَتِه الرُّوحِيَّةِ الإيمانية بالله، فمن أين يستمدّ النور.

إنَّ الألفـاظ والحروف وحـدهمـا إذا لم تكن مـوصـولـةً بـالله عن طـريق قلب المؤمن ورُوحِه كانَتْ عَدِيمَة الأثر، والله أعلم.

وباستطاعتنا أن نفهم من قول الله عزَّ وجلَّ في سـورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وأشـدّ تحمُّلاً لتلقِّي نـور الله في القرآن منهـا، إذْ كان يَنْـزِل عليـه الـوحيُ بـالقـرآن فيتحمَّـل أنوار التنـزيل العـظمىٰ، لكنَّه ﷺ كـانت تظهـر عليه عـلامات معـانـاةٍ في تحمُّله، وقـد وصَفت السيدة عـائشة رضي الله عنهـا بعض حال الـرسول عنـد نزول الوحي فقالت: ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الـوحيُ في اليوم الشـديد البـرد، فَيَنْفَصِمُ عنه، وإنَّ جبينه ليتفصَّدُ عرقاً.

وورد أنَّ رَاحلته كانت تبركُ به إلى الأرض إذا نـزل عليه الـوحي وهو راكب، ونـزل عليه الـوحيُ مرَّة وفخـذُه على فخذِ زيـد بن ثابت، فثقلت عليـه حتى كـادت تَرُضُّهَا.

• • •

(٧)

شرح الغرض السابع
وهو تقديمُ أفكارٍ غزيرَةٍ بعبارَةٍ قَصِيرَة

إنَّ تقديمَ الْمَثَلِ لموضوعٍ من الموضوعات يُغْني عن شرح هذا الموضوع بكلامٍ كثير، قَدْ يُكْتَبُ في صفحاتٍ، وقَدْ يُكْتَبُ فِي سِفْرٍ كبير، وقَدْ يُكْتَبُ فِي مُجَلَّدَاتٍ، وهو نظيرُ النماذجِ الَّتِي تُقَدَّمُ للأشياء بالوسائل التعليميَّة الَّتي تُدْرَكُ بالحواسِّ الظَّاهِرَة.

فلو أراد المعلِّم شرح النموذج الحسِّيّ بالكلام لاحتاج دُرُوساً عديدة، ولَمَا وصَلَ بَعْدَ الشرح الطويلِ في إفهام تلاميذِه إلى مثلِ ما يُدْركونه بدقائقَ معدودات، حين يشاهدون النموذج الحسِّيّ للشيء المراد التعريف به.

كذلك قد يُغْني الْمَثَلُ هذا الغناءَ نفسَهُ، فيقُومُ تقديمُ الْمَثَلِ مقامَ شرْحٍ طويلٍ جدّاً.

* * *

أمثلة:

١ ــ إنَّ تشبيه الكافر بالأعْمَىٰ يُغْنِي عن شرْحٍ طويلٍ يُفَصِّلُ فيه حالَةُ الْكَافِرِ في الحياة الدُّنيا، إذْ يَتَخَبَّطُ علىٰ غير هُدَىً في كلِّ تصرُّفاتِهِ.

وقَدْ جاء هذا في نصوصٍ كثيرة سبَقَ شرْحُ بعضها، وسيأتي إن شاء الله شرح بعضها الآخر.

* * *

٢ ــ وإنَّ وصْفَ أعمال الكافر بأعمال السَّاعي إلى سراب، يُغْني كذلِكَ عن شرحٍ طويلٍ يَصِفُ حالة الكافر في الحياة الدّنيا الساعي إلى إرْواءِ ظمئِهِ منها، لكنَّه لا يَصِلُ إلى ما يريدُ، ويظلُّ مُتَعَلِّقَ الأمل بما يَسْعَىٰ إليه، حتّى يُدْرِكه الموت وهو على ذلك، ويرىٰ عندئذٍ حسابه عند ربِّه علَىٰ ما قدَّم وأخَّر في الحياة الدُّنيا.

وقد جاء هذا المثل في الآيتَيْن (٣٩ ــ ٤٠) من سورة (النور) وسيأتي شرحُهُ إن شاء الله في خصائص الأمثال.

• • •

(٨)

شرح الغرض الثامن
وهو إيثارُ تغطيةِ المقصودِ من
العبارة بالمثل تأدُّباً في اللَّفظ واسْتِحياءً

قد يكونُ الموضوعُ المقصودُ التعبيرُ عنه من الموضوعات التي يُسْتَحيا من التصريح بها، أوْ يَحْسُنُ في أدَبِ التعبير عدَمُ التصريح بها، فيأتي استخدامُ الْمَثَلِ وسيلَةً مُهَذَّبَةً للتعبير عن المراد.

ومن الأمثلة القرآنية على هذا الغرض قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

فتمثيلُ الحالات الخاصّة التي تكونُ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ بأنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا لباسٌ للآخر، أسلوبٌ مُحْتَشِمٌ مُهذَّبٌ للتعبير عن المراد.

وسيأتي شَرْحُ هذا النصّ إن شاء الله.

ويُمْكِنُ أنْ يكُونَ من الأمثلة القرآنيَّة على هذا الغرض قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في وصف المهلكين من عادٍ:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وقوله تعالىٰ بشأنهم في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

فوصفَ الله عزَّ وجلَّ الْمُهْلَكِينَ بالـرِّيحِ الصَّـرصَرِ العـاتية من عـادٍ قوم النبـيِّ هودٍ عليه السَّـلام، بأنَّهم يُشْبِهُـونَ وهُمْ هَلْكَىٰ أصولَ نَخْـلٍ مُنْقَعِرٍ، أي: مُنْقَلع من أرضه، وبانقلاعه يرتمي فتَظْهَرُ أسافِله ذواتُ المنظر القبيح، إنَّ هـذا يدُلُّ على أنَّهُم مُنْكَفِئون مَرْمِيُّونَ تَبْدُو أسَافلهم بصُوَرٍ قبيحةٍ تَشْمَئِزُّ منها النفوس، وتَنْفِر منها الأعين.

وهـذا أسلوبٌ محتشم مهذَّب للتعبيـر عن المراد من ظهـور أدبارهم بصُـوَرِهَا القبيحة التي انصبَّ عليها سوطُ عذاب، وسيأتي إن شاء الله شرح هذين النصَّيْن.

• • •

(٩)

جدول أغراض ضرب الأمثال

← **الغرض الأول**: تقريبُ صورة الممثَّلِ له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل.

← **الغرض الثاني**: الإقناع بفكرةٍ من الأفكار.

وهذا الإقناع

[١] قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية.

[٢] وقد يقتصر على مستوىٰ إقامة الحجَّة الخطابية.

[٣] وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

← **الغرض الثالث**: الترغيبُ أو التنفيرُ.

فالترغيب يكون بتزيين الممثَّل له وإبراز جوانب حسنه، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها.

والتنفير يكون بإبراز جوانب قبح الممثَّل له عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، أو تنفر النفوس منه.

← **الغرض الرابع**: إثارةُ محور الطمع أو الرغبة في الإنسان، أو إثارةُ محور الخوف والحذر.

← **الغرض الخامس**: المدحُ أو الذمّ، والتعظيمُ أو التحقير.

← **الغرض السادس**: شحذُ ذِهْن المخاطب، وتحريكُ طاقاته الفكرية، أو استرضاءُ ذَكائه، لتوجيه عنايته حتى يتأمّل ويتفكر ويصلَ إلى إدراك المراد عن طريق التفكر. وهذا النوع من الأمثال يُخَاطَبُ به الأذكياء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي، وكُبَراء القوم.

← **الغرض السابع**: تقديمُ أفكارٍ كثيرة، بعبارةٍ قصيرة.

← **الغرض الثامن**: إيثارُ تغطية المقصود من العبارة بالمثَلِ، تأدُّباً واستحياءً.

الفصل الرابع

خَصَائِصُ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ

خَصَائِصُ الأَمْثَالِ القُرْآنِيَّةِ

(١)

الخصائص

مِنْ تتبُّع الأمثال القرآنية نستطيع اكتشاف الخصائص التالية لها:

الأولى: دقّةُ التصوير مع إبراز العناصر المهمَّة من الصورة التمثيلية.

الثانية: التَّصْويرُ المتحَرِّكُ الحيُّ الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والَّذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحرَكاتُ الفكرية للعناصر الحيَّة في الصورة.

الثالثة: صِدْقُ المماثَلَةِ بين الْمَثَلِ والممثَّل لَهُ.

الرابعة: التَّنْوِيعُ في عَرْضِ الأمثال، مَرَّةً بالتشبيه، ومَرَّة بالعرض المفاجىء، وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركَّب الذي يُطَابِقُ كلّ جزء منه جزءاً من الممثَّل له، وأخرى بالتمثيل المركب الذي ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كليّة عامَّة، وغير ذلك من فنون القول وأساليبه.

الخامسة: البناءُ على المثلِ والحُكْمُ عليه كأنَّه عَيْنُ الممثَّل له، على اعتبار أنَّ المثَلَ قد كَان وَسِيلةً لإحْضَارِ صُورَةِ الممثَّل لَهُ في ذِهْنِ الْمُخَاطَبِ ونَفْسِه، وإذْ حَضَرَت صُورَةُ الْمُمَثَّلِ لَهُ وَلَوْ تَقْدِيراً، فالبيانُ الْبَليغُ يَسْتَدْعِي تَجَاوُزَ المثل، ومُتَابعةَ الكلام عن الممثَّلِ لَه، وتسقُط صورةُ الْمَثَلِ لتبرُزَ الْقَضَايَا المقصودَةُ.

السادسة: كثيراً ما يُحذَفُ من المثل القرآني مقاطعُ من الصورة التمثيلية، اعتماداً على ذكاءِ أهل الاستنباط، إذ باستطاعتهم أن يتصوروا في أذهانهم كامل الصُّورة ويُتِمُّوا ما حُذِفَ منها.

وعلى هذا فقد تُعْرَضُ الصُّورَة التمثيليةُ من وَسَطِها، أو مِنْ مَشْهَدٍ أَخيرٍ فيها.

وقد يُحْذَفُ أيضاً من الممثَّل لَهُ مَقَاطع، فَتُعْرَضُ مثلاً بداياته، وتحذَفُ نهاياته، أو العكس، اعتماداً على أنَّ المثلَ قد ذُكِرَتْ فيه الصورة المماثلة لما حُذف من الممثَّل له، فَيَدُلّ المعروضُ في كلٍّ منهما على المحذوف مِنْ صَاحِبه.

● ● ●

(٢)

الأمـثـلـة

المـثـال الأوَّل:

قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ
مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ
ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿أخبتوا إلى ربِّهم﴾: أي: خَشَعوا واطمأنَّتْ قلوبهم ونفوسهم إلى ربِّهم.

في هـذا النص تمثيل الـذين كفروا وصـدوا عن سبيل الله بـالأعمى والأصم، وتمثيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخْبَتُوا إلى ربِّهم بالبصير والسميع.

وذلـك لأن الكافـرين صَرَفُـوا أبصارهم عن رؤيـة آيات الله، وتـراكبت عليهـا غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغباتُ مَتاعِ الحياة الدنيا. وصَـرَفُوا أسمـاعهم عن تفهّم كلام الله وكلام رسوله، وتـراكَبَتْ عليها غشـاوة أهوائهم وشهـواتهم ورغبات الحيـاة الدنيا، فكانوا بسبب ذلك كمن هو مُصَابٌ بالعمىٰ والصمم.

أمَّا الذين آمنوا فقد رأوا آيات الله فانتفعوا بها وآمنوا بربِّهم، وتدبروا كـلام الله

وكلام رسوله، ففهموا وانتفعوا واستجابوا، فمثلُهُمْ بالنسبة إلى هذا القِسْمِ من الْمعارف الربانية كالْبَصِير حديدِ البصر والسميعِ شَديدِ السَّمْعِ.

وقد كثر في القرآن تمثيلُ الكافرين بالعُمْيِ الصُّمّ، وتمثيل المؤمنين المهتدين بمن هو بصير سميع، وفي بعض النصوص لم يصرح باللفظ الذي يدل على التمثيل. وسيأتي إن شاء الله شرح النصوص الواردة حول هذا التمثيل.

تحليل المثل:

(أ) من الملاحظ في هذا المثل دقة التصوير، وصدق المماثلة بين المثل والْمُمَثَّلِ لَهُ.

(ب) في هذا المثل تمثيلُ شيءٍ معنويٍّ بشيءٍ مُدْرَكٍ بالْحِسِّ الظَّاهِرِ.

* * *

المثال الثاني:

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

يصوِّرُ هذا المثلُ أعمالَ الذين كفروا في مُقَاوَمة رُسُل الله، ومُحَاربة دينه، تُجاهَ نَصْرِ الله لرُسله وأوليائه إذا شاء، برمادٍ مُجْتَمِعٍ لا تَمَاسُك بين ذرّاته، وهو خفيفٌ لا وزنَ له، فاشتدَّتْ به رِيحٌ عاتية في يومٍ عاصفٍ، فنَسَفَتْهُ وبَدَّدَتْهُ تَبْدِيداً.

فهل يَقْدِر صاحبُ الرَّماد أن يجمع ذرات رماده بعد أن بدَّدته أيدي الرياح العاتيات؟

كذَلِك الذين كفروا تَغْدُو أعمالُهُمْ الَّتِي أَعَدُّوها لِمُحَاربة رُسُلِ الله ودِينِه أمامَ سُلْطَان نَصْر الله، مثْلَ هذا الرَّمادِ الذي اشتَدَّتُ به الرِّيح في يومٍ عاصفٍ. إنَّهم لا يَقْدِرُون ممَّا كَسَبُوا على شيء.

أو لَيْسَ ضَلالُهُمْ في مُحَاربة دين الله هو الضَّلال البعيد؟

بلى: ﴿**ذلك هو الضلال البعيد**﴾.

من الواضح في هذا المثل دقَّةُ التَّصْوِير المتحرك، مع صدق المماثلة بين المثل والممثَّل له.

* * *

المثال الثالث:

قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿**يَنْعِقُ**﴾: أي: يصيح في الغنم، والنَّعِيقُ: هو صياح الراعي في غنمه.

هذا مَثَلٌ لصنف من الكافرين، وهم الذين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان، لأنَّهم صمَّمُوا على أن لا يؤمنوا، واختاروا بكمال إراداتهم سبُل الكفر على سبيل الإيمان.

وهم الذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

هؤلاء قسمٌ من الكفار، كفروا عن تَصْمِيم علَىٰ رفض الإيمان، وإرادة جازمة لهذا الرفض، بعد وضوح دلائل الإيمان لهم، ولم يكفروا عن جهلٍ أو غفلة، أو انشغال بالشهوات. لذلك فإنَّ عُقْدَةَ هذا القسم من الناس تعمل في أعماقهم، ومن كانت عُقْدَةُ كُفْره في أعماق نفسه، كانت النتيجةُ الطبيعيَّة التي تقضي بها سنَّةُ الله في خلقه أن يخْتِمَ على قلبه فلا يقبلَ الهداية، وأن يكون على سَمْعِهِ غشاوة

لا تسمح بانتقال أقوال الهداية إلى مراكز إدراكه الواعي، وأَنْ يَكُونَ على بَصَرِه غِشَاوة لا تسمح بانتقال مرئيات الهداية إلى مراكز وعيه، فسواءٌ عليه أَأَنْذَرْتَهُ أم لم تُنْذِرْهُ، إنَّه لا يؤمن، لأنه لا يريد أن يؤمن.

فإذا استوى لدى هذا القسم من الكافرين الإنذار وعدمه، ودعوتهم إلى الهداية وعدم دعوتهم، لأنَّهم أرادوا أن لا يؤمنوا، وصَمَّموا على ذلك، فإنَّ باستطاعتنا أن نُمَثِّلَ مَنْ يدعُوهم بمن يدعو الجدار ويخاطبه، وأَنْ نُمَثِّل من يُنْذِرُهُم بمن يُنْذِر الحجارة التي لا تستجيب لداعيها أو منذرها.

لكنَّ الجُدُرَ أو الحجارةَ لا تَسْمَع شيئاً وهم يَسْمَعُون، إلَّا أنَّ ما يَسْمَعُونه لا يَنْفُذُ إلى مراكز وعْيِهم الذي يؤثر فيهم، فلا يهزّهم بطمعٍ ولا بخوف.

إذن فأَحْسَنُ تمثيل لهم أن نُمَثِّلهم بالأنعام، وأن نُمَثِّل من يدعوهم إلى الهدى ويُنْذِرُهم عاقبة كفرهم بخطيب يقف في قطيع من الغنم، فيخطُبُ فيه خطبةً بليغة، إنَّ هذا هو التمثيل الملائم المطابق لصُورَةِ الممثَّل له والمراعىٰ فيه دقة التصوير، وهو ما جاء في المثل القرآني.

فَمَثَلُ من يدعو الذين كفروا ممَّنِ استوَىٰ لديهم الإنذار وعدمه، كَمَثَلِ مَنْ يخاطب بصوته العالي قطيعاً من الغنم، فلاَ يَسْمَع القطيع منه إلَّا دُعاءً ونداءً، لأنَّه لا يفهم ولا يعي الكلام الذي يخاطب به، ولا يدرك دلالاته، وهؤلاء كذلك، لأنَّ سمعهم الواعي عليه غِشَاوَة من عُقْدَةِ كُفْرِهم، ومِثْلُ سمعهم سائرُ حواسّهم، لذلك فهم بالنسبة إلى دَعْوَةِ الإيمان وآياته صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون.

وهكذا وَضَحَتْ لنا دِقَّةُ التَّصْوير، ووَضَحَتْ لنا أيضاً في الصورة التمثيلية الحركةُ الحَيَّةُ الناطقة، إذْ بَدَا فيها نَاعِق يخطُبُ في قطيع من الغنم، والقطيع يَمُوجُ بعضُه في بعض، وهُو لا يَدْرِي من كلامِ الناعق الخطيب شيئاً، ونَفْسُ الخطيب تَتمزَّق بمشاعر الخيبة، وعَدَمِ جَدْوىٰ عَمَله.

وفي هذا المثل إلماح للدعاة بأن لا يوجّهوا اهتمامهم الكبير لهذا الصنف الميؤوس من إيمانه، إذِ استوى عنده الإنذار وعدمه.

* * *

المثـال الـرابع :

قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فيها صِرٌّ﴾ : أي : فيها بردٌ شديد.

أبـان هذا النصُّ أنَّ الـذين كفروا لَنْ تُغْنِي عنهم أمـوالُهم التي يبـذلـونهـا في إعداد الْعُدَّةِ لمُحَارَبة دِين الله، وإقامة الحصون، واستخدام الجنود، ولن تُغْنِي عنهم أولادهم الذين يعينُونَهم في ذلك، مِنْ بَأْسِ الله شَيْئاً إذا أراد الله إنزال بأْسِه وعقـابه فيهم.

ثمَّ ضَرَبَ الله مثلاً لخيبة أَعْمالهم بقوم بذَلُوا أموالَهُمْ ووجَّهُوا أَعْوانَهُم وأولادَهُمْ لاستثمـار أرضٍ في الزِّراعـة، فنبت الزَّرْع ونمـا، ودَنَا وقتُ حَصَـادِه والانتفاع بـه، فأرْسَلَ الله عَلَيْهِ رِيحاً بارِدَةً فأهْلَكَتْهُ، وكَان ذلك بسبب أنَّهم ظَلَمُوا أنفسُهُمْ.

فالممثَّل له ما يُنْفِقون من أموال في هـذه الحياة الـدنيا لتـدعيم قضايـا الكفر، وتَهْدِيم قضايا الإيمان، وعاقبة ما ينفقون إذا أراد الله إفسـاد أعمالهم، وإنـزال بأسـه فيهم، ونصرةَ أوليائه الصادقين عليهم[١].

---

(١) يرى جمهور المفسرين أن مثل العاقبة الأخروية لما ينفق الكافرون في الحياة الدنيا، كالزرع الذي تهلكه الريح الباردة، فلا تبقي منه شيئاً، وكذلك الكـافرون لا يستفيـدون من أعمالهم شيئاً يوم القيامة، ولو كانت في الخيرات والصالحات، لأنَّ كفرهم بالله يحبطها ويبطلها، إلاَّ أنني أرجّح أنّ المراد خيبة أعمالهم في الدنيا لمحاربة الله ورسله وأوليائه، ما وُجِدَ لدين الله أنصار مخلصون مطبقون لشريعته، فالسّبَاق والسّياق يدلّ على هذا.

والْمَثَلُ هو الـزَّرْع الذي أهلكتـه الرِّيـحُ الباردة، وهـذا الـزرع لقـوم ٍ ظَلَمُـوا أنفسهم فعاقبهم الله بإهلاك زَرْعِهِمْ.

ثمَّ تحدَّثت الآياتُ بَعْدَ ذلك عن طَائفةٍ من الشـروط التي يجب على المؤمنين أنْ يَسْتَوْفُوهَا حتَّى يُؤَيِّدَهُم اللَّهُ بنصره، ويُبْطِلَ أعمالَ أعدائهم.

وَمِنْ هذه الشروط أن لا يتَّخِذَ المؤمنون بـطانةً من دونهم، ومنهـا التزامُ طـاعة القيادة، وعدم التأثُّر بمطامع الدنيا.

ثمَّ ضرب الله مثلين واقعيَّيْن:

الأول: معــركـةُ أحــد، وكيف تحـوَّلت ريــاحُ النَّصْـرِ عن المؤمنين، بسبب إخلالهم بالشروط التي يتوقَّفُ التأييد الرَّباني الكامل على استيفائها.

الثـاني: معركـةُ بَـدْرٍ، وكيفَ نصـرَ الله المؤمنين، وهَـزمَ أعـداءَهُمْ، هـزيمـةً منكرة، مع أنَّ المؤمنين كانوا قليلين جدّاً عُدةً وعدداً، بالنسبة إلى عدوِّهم المتفـوِّق عليهم كثيـراً من الناحيـة المادّيـة، ولكنْ لمّـا أراد الله نَصْـرَ المؤمنين لم تُغْنِ أمـوالُ الكافرين ولا جُمُوعُهم عنْهُم من الله شيئاً.

فالنصُّ يَدُورُحوْلَ بيان إبطال الله عزَّ وجلَّ لأعمال الكـافرين وإعـداداتهم التي يقْصِـدُونَ منها محـاربةَ دِين الله، ومحـاربةَ جُنْـدِه المخلِصين المـطبقين لشـريعتـه، تحقيقاً لوعده بِنَصْرِ أولِيَائِه على أعدائه.

والنصّ يُـطَمْئِنُ قلوبَ المؤمنين من جهـة، ويُلَوِّحُ للكـافـرين مُهَـدِّداً بـإفسـاد إعْدَادِهم وتَدْمِيرِ ما يَجْمَعُون لمحاربـة دين الله، ومُحَارَبـة أوليائِـه، كما يَبْعَثُ ريحـاً باردةً علىٰ حَرْثِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ فتُهْلِكه.

تحـليل المثـل:

(أ) يـلاحظ أنَّه لم يعـرض من صُورَة الممثَّـل له إلاَّ مَقْـطَعٌ واحـد، وهـو: «مَا يُنْفِقُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا».

وهـذا المقطع يَسْتَلْزِمُ ماوَراءَه حتَّىٰ النَّتِيجـة، فهـو المقـطع الأول من صـورة الممثَّل له.

(ب) ويُلاَحَظُ في صُورَة الْمَثَلِ أَنَّهُ قَـدْ حُذِفَ منهـا المقطع الأول، وعُـرِضَ المقطع الأخير، والمقطع الأوَّل المحذُوفُ هو: قوم حرثوا أرضـاً وزَرَعُوهـا، فأَنْبَتَتْ لهم نَباتاً حسنـاً، ولم يَبْقَ عَلَيْهِمْ إلاَّ أن يَجْمَعُوا نتـاجها. والمقـطع الأخير المـذكور هو: رِيحٌ فيها بَرْدٌ شَدِيدٌ، أَصَابَتِ الحرثَ فأهلكته.

(ج) ولمّا قامت صورة المثل مقام صورة الممثَّل له، جاء الْبِنَاءُ على الْمَثَلِ والحكمُ عليه كأنَّهُ عَيْنُ الممثَّل له، فقال تعالى عقب ذلك مباشرة:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقد يقال: هذا البناء صَالِحٌ لِلْمَثَلِ والممثَّلِ لَهُ معاً.

(د) من الدِّقة في التعبير ما نُلاحِظُهُ من القيد في الْمَثَل، الذي يدلّ على أنّ إهلاك الزرع بالريح الباردة إنَّما جاءَ لِحَرْثِ قَوْمٍ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ، ولَمْ يَأْتِ لِحَـرْثِ قوم أراد الله أن يمتحنهم بالْمُصِيبَة، وهذا القيدُ يُتَمِّمُ التطابقَ في عناصر التمـاثل بين المثل والممثَّل له.

* * *

المثـال الخـامس:

قال الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: أي: وِدْيان بِقَدَرِ استيعابِ كُلٍّ منها.

﴿زَبَداً رَابِياً﴾: أي: الزَّبَدُ ما يحتمله السيل من شوائب. رَابِياً: نَامِياً.

﴿وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ في النَّارِ﴾: أي: المعادن وأشباهها.

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾: الحلية: اسْمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به من مَصَاغِ الذهب والفضة. والْمَتَاعُ: ما يُنْتَفَعُ بِهِ في البيوت من آنية وأوعية.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ والْبَاطِلَ﴾: أي: يَضْرِبُ مَثَلَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾: أي: يَذْهَبُ مُضْمَحِلاً مُتَلاشِياً لاَ مَنْفَعَةَ فِيه وَلاَ بَقَاءَ له.

تحليل المثل:

لقد سبق شرح هذا المثل، ولدى تحليله هنا نلاحظ ما يلي:

(أ) دِقَّةَ التَّصْوِير، وصِدْقَ الْمُمَاثَلة بين الْمَثَلِ والْمُمَثَّل له.

(ب) العرضُ المفاجئُ للْمَثَلِ دُون سابق تَنْبِيه عليه.

(ج) التَّصْوِيرُ الْمُتَحَرِّكُ. والْجَمْعُ بين مَثَلَيْنِ: أحدُهُما لأَهْلِ الْبَوَادِي والثَّانِي لأَهْلِ الصِّنَاعات.

(د) حَذْفُ ما يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُه مِنْ صُورَةِ الْمُمَثَّلِ لَهُ. وإبرازُ الْمُهِمِّ مِنْ صُورَة المثل.

* * *

المثال السادس:

قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لقد وصف الله نفسه بأنه نُورُ السَّموات والأَرْض، ورَجَّحَ الْمُحَقِّقُونَ من أهل

التفسير أنَّ المعنى: اللَّهُ هَادي أَهْلِ السَّمَوات والأَرْضِ، بما أعطاهُمْ مِنْ نُورٍ يُدْرِكُون به المعارف، وبِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ من آياتٍ مُبَيِّنات هي النور.

وقد وصف الله القرآن بأنه نور، فقال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾.

وهو القرآن.

وقال الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

ويؤيد تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنه هَادِي أَهْلِ السَّماوات والأرض، ما جاء قبل الآية، وهو قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: أنزلَ الله هذه الآيات من أجْلِ هِدَايتكم، فالْمَصْدَرُ الوحِيدُ للهداية

هو الله، إذْ هُو نُـور السماوات والأرض، أي هَـادي مَنْ فِيهما، واسْتُفِيـدَ الحصرُ من اللُّزوم العقلي. ومِنْ هِدَايته لكم أَنْ أنزل لكم آياتٍ مُبيِّنات هِيَ نورٌ لكم، لعقـولكم وقلوبكم ولأرواحكم.

﴿مَثَـلُ نُورِهِ﴾: أي: مَثَـلُ ما أَنْـزَلَ عليكم من نُورٍ لِهِـدَايَتِكُم في آيات كِتَـابِهِ وبياناتِ شَرِيعَتِه.

فهذا النور هو ما ضَرَبَ الله لَهُ المثلَ بقوله:

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مصباح، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ . . .﴾.

إلى آخر صُورَة المثل.

وهـذا هو الـذي يَتَناسَبُ مَـعْ سَوابق الآيـة ولَوَاحِقِهـا، وقد ذكـره بعضُ أَهْـل التأويل، وهو الذي ترجَّحَ لديّ، والله أعلم.

لَقَدْ ضَربَ اللَّهُ المثلَ لِنُورِ الْقُرآن المعنويّ بِمِصْبَاحٍ أَرْضِيٍّ مِنْ صُنْعِ النَّاس: ذي نورٍ صافٍ من أَيَّةِ شَائِبَة، وهذا النور يتلألأ كـالكوكب الـدري، والقرآنُ بـالنسبة إلى سـائر كـلام الله كَقَطْرَةٍ مِنْ بَحْـرٍ، وكـذلـك نُـورُ المصبـاح بـالنسبـة إلى سـائـر ما خلق الله من نور في الكون الكبير.

وبهذا نُلاحظ انطباق عُنْصُرٍ من عناصر خصائص الأمثال القرآنية، وهو صِـدْقُ المماثلة بين المثل والممثل له.

وصـدق المماثلة يَظْهَـرُ أيضـاً في الصَّفَـاءِ التَّامّ الـذي وصف الله بـه نُـورَ المصباح، والزيت الذي يُمِدُّه، والزُّجاجةَ التي تَنْشُرُه حتَّى كـأنها كَـوْكَبٌ دُرِّيٌّ، أي يُشْبه الدرَّ في صفائه ولَوْنِ نُورِه، وأَهدأُ النُّورِ وأَجْمَلُهُ هُو ذو اللَّوْن الدُّرِّيّ.

ومن البديع في صورة هذا المثل ما جاء فيها مِنْ رِسْمٍ كَـامِلٍ بِلَوْحَـةٍ كَلامِيَّـةٍ رائعة:

(أ) لقد بدأَتْ بِرَسْمِ مَكَانِ المصباحِ، وهي الْمِشْكَاةُ (وهي كُوَّةٌ في الجدار غير نافذة يوضع فيها المصباح).

(ب) ثمَّ رَسَمتْ زُجَاجَتَهُ الدُّرِّيَّة المُشِعَّة.

(ج) ثم انْطَلَقَتْ بحَرَكَةٍ سَريعة جداً، فعرضت مشهد الشجرة المباركة التي تُمِدُّ المصباح بالزيت الصافي، فهي نابتة في أرض واسعة لا تُحجبُ عنها الشمس عند الشروق، ولا تُحجبُ عنها الشمس عند الغروب، فهي لا شَرْقِية تَحْجُبُها جبال الوادي الواقعة في شَرْقِه، ولا غربية تَحْجُبُهَا جِبَال الوادِي الواقعةُ في غَرْبه، وبسبب ذلك تَكُونُ الشجرَة خَضِرَةً نَضِرة، صَافيةَ الزَّيْتِ.

(د) ثمّ رَسَمَتْ صُورة الزَّيْتِ، فأبانَتْ أَنَّه مِنْ شِدَّةِ صَفَائه يكادُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تمسَسْه نار، وصفاءُ الزيْتِ من الشَّوائِبِ يُعْطِي نوراً صافياً خالياً من شوائِب الظلمة..

وكذلك نور آيات الله وكَلِمَاته.

(هـ) وتركَتْ الصورةُ التمثيليَّة للخيال أن يَسْتَكْمِلَ بنفسه مشاهِدَ أَخْذِ الزيتون بعْدَ صَلاحه، وعَصْرِه في مَعَاصِرِه، واستخلاصِ الزيْتِ منه. وقدَّمتْ مشهد الزيْتِ الصّافي المتلامع، الذي يَكادُ يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تمسَسْه نار.

(و) ولما اجْتَمَعَ صَفَاءُ الزَّيْتِ، وصَفَاءُ نُورِ المِصْبَاح، وصفَاءُ الزُّجَاجَة الدّرِّية المشعَّة، التي تَزيد النورَ وتُضَاعِفه بانعكاساتها، قال الله تعالى:

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وهنا نلاحظ أن المِمِدَّ بالزيتِ بالغٌ دَرَجَةَ كَمَالِه. والزيت بالِغٌ درجةَ كَمَالِه. والمصباح بالغٌ درجة الكمال في جوهره، والقَدْرِ المناسب في نسبته. والزجاجة بالغةٌ درجة كمالها في جوهرها ودرِّيتها. أما المشكاةُ التي هي الكوة التي فيها المصباح فهي المكان الأَنْسَبُ لوضع المصابيح التي من هذا النوع.

فاللَّوحَةُ التمثيليةُ قد استكملَتْ كلَّ عناصرها بدقَّة تامَّة، وهذا يكشف لنا انطباقَ عُنْصُرٍ آخر من عناصر خصائص الأمثال القرآنية، وهو دِقَّة التصوير مع إبرازِ العناصر المهمةِ من الصورة التمثيلية، يُضَاف إلى ذلك بعضُ الأبعاد المكانية

والزمانية. فما أنزل الله من هداية قد جاء من مصدر كامل، وجاء مَدَدُه كاملاً، وظهرَ نُورُه لأهل الأفهام السليمة صافياً، وقد وُضع ضِمْنَ كلامٍ بليغ واصلٍ إلى درجة الكمال، مُشِعٌّ بالنـور من كمالـه، وقد وضـع في المكان المنـاسب له، إذ أُنـزل على الْعَرَب وبِلُغَتِهم الدقيقة، أو وُضِعَ في قلب المؤمن يهديه وينير له السبيل.

(ز) ولما انتهتْ صورةُ المثل قال الله تعالى:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾.

وبهذا ينكشف عنصر آخر من عناصرِ خصائص الأمثال القرآنية، ألا وهو البناءُ على المثَلِ والْحُكْمُ عليه كأنَّه عيْنُ الممثَّل لَه، وعلى اعْتِبَـار أن الْمَثَـلَ كَـان وَسِيلةً لإحضار صُورَةِ الممثَّل له في ذهن المخاطب ونفسه. وعندئذٍ طُويت صورة المثـل، وبرزت توابعُ الممثَّل له فجأة، وكأن معنى التمثيل تلاشى،، وظهرت حقيقةُ الممثَّل له ظهوراً تاماً، فحَسُن استغلالُ المشاعر النفسية لترتيب النتيجة المقصودةِ بالـذات، فقال الله تعالى:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فمن استجـابَ لدعـوة الإيمان، وتـدَبَّرَ آيـاتِ الله بصـدق، وكـان من طُـلَّاب المعرفة، ظهرَتْ له أنوارُ المعرفة الرَّبَّانية من كتابه.

(ح) ومن البـديع في اللَّوحَـةِ التمثيلية أنَّهـا أتمَّتْ الصُّوْرَةَ فـرسَمَتْ الْبُيُـوتَ التي توضَع فيها هذه المصابيح، ورَسَمَتْ مَنْ في هذه البيوت من الناس.

أما البيوت فهي بيوتُ العبادة لله تعالىٰ، التي أذِنَ اللَّهُ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه. وأما مَنْ فيها فهم رجالٌ يُسَبِّحون الله فيها بالغـدوِّ والآصال، لا تُلْهِيهِمْ تجـارةٌ ولا بَيْع عن ذكر الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة، يخافونَ يـوماً تَتقلَّبُ فيـه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحْسَنَ مَا عَمِلوا ويَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِه.

ومن الرائع في هـذه التتمة أن المنتَفِعينَ بمصبـاحِ الْمَثَلِ هُمُ الـذين يَنْتَفِعُون بما أنزلَ الله مِنْ نُورٍ في كتابه وآياته، إنَّهُمْ أهلُ بُيُوتِ الله والذكْـرِ والصَّلَاةِ والـزكاة،

وهُمْ طُلَّابُ الآخِرَةِ والثوابِ الجزيلِ عند الله. فمثَلُ آياتِه لَهُمْ كَمَثَلِ المصباحِ الذي وُصِفَ لهم إذا كان في بيوت عبادتِهم لربِّهم. وقد جاء المثل كذلك ليكون ذا مضمون توجيهي يَجْمَعُ تَصوُّرَاتِ المخاطَبِ في دائرةِ ما ضُرِبَ لَهُ المثَلُ.

* * *

المثال السابع:

وقال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿كَسَرَابٍ﴾: السَّرابُ: هو ما يَراهُ الْمُسَافِر في الصَّحْراءِ مِنْ بَعيدٍ مِثْلَ الماء في وَسَط النَّهار، ومَا هُو بِماء، إنَّما هو انعِكَاسَاتٌ من أشعَّة الشمس، إذا جاءها الوارد لم يَجِدْهَا شيئاً، وظَهَر لَهُ أنَّها كانَتْ سَراباً.

﴿بِقِيعةٍ﴾: الْقِيعَةُ والْقَاعُ: ما اسْتَوىٰ مِنَ الْأَرضِ.

﴿في بَحْرٍ لُجّيّ﴾: اللُّجّيّ: هو المنسوبُ إلى اللُّجة، واللُّجَّةُ من البحر ما كان منه عظيماً عَميقاً، وَهِيَ أواسِطُه. أي في بحرٍ عظيم عميق.

﴿يَغْشَاه مَوْجٌ﴾: أيْ: يَعْلُوه مَوْجٌ.

﴿إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يراهَا﴾: أي: لَمْ يَقْرُبْ من رُؤيَتِها فَضْلاً عن أَنْ يَراها وكثيراً ما يَسْتَعْمِلُ العربَ مثلَ هذه الصيغة بمعنى فَعَلَ بَعْدَ شِدَّةٍ وإبطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: أي: فعلوا بعد إبطاء. فَيصِحُّ في استعمال العرب أن تقول: ما كادَ فلانٌ يقوم، بمعنى قام بعد إبطاء، إلَّا أن أصل تركيب الكلام يدلّ على نفي المقاربة، وهو أبْلَغُ من نَفْيِ الفعل، وهو المعنى الأول الذي نفهم بموجبه: ﴿إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾. ولعلَّ العربَ في الاستعمال

الثاني لاحظوا تسليط النفي على الفعل بعد «كَادَ» لا على فعل «كَادَ» ففهموا المعنى الثاني فكأنهم يقولون في «مَا كَادَ فُلانٌ يَقُوم»: «كَادَ فُلَان أَنْ لاَ يَقُوم»، وهذا مما خَرَجَ عن أصلِ وَجْهِ تركيب الكلام، إلَّا أنه استعمال شائِعٌ عند العرب في هذه اللفظة.

* * *

الشــرح:

بَعْدَ المثَلِ الذي ضَرَبَهُ الله لِنُورِه في الناس، بِمِشْكاةٍ فيها مصباحٌ، المصباحُ في زجاجة، الزجاجَة كأنَّها كوكبٌ دُرِّي، إلى آخر صورة المثل الذي سبق شرحه. ضَرَب الله مثلاً آخر مُقَابلاً له، مثَّل فيه أعمالَ الذين كفروا.

إنَّ المثل السابق مَثَلٌ لهداية الله في الناس، وهو النورُ المعنويُّ الذي يَنْبعِثُ من كتابِه وبياناتِ شريعته، فانتفع به المؤمنون، إِذْ كانَ هادياً لهم، فصَلُحَتْ أعمالهم، واسْتَقَاموا على الطريقة، وظَفِرُوا بالثَّوابِ الْجَزِيل والْفَضْلِ الجميل من الله تعالى، وكان عَرْضُ هذا المثل مبتدئاً بتمثيل نُورِ الهداية الربانية للناس، ومنتهياً ببيان العاقبة الحُسْنَىٰ لمن انتفع به وعَمِلَ بهُدَاه.

وضَرْبُ هذا المثل اقتضى ضَرْبَ مَثَلٍ آخر لمن أعرض عن نور الهداية الربّانية، وذَهَب في صَحْرَاءِ حَيَاته يَلْتَمِسُ سعادتَه بوسيلةٍ أخرى، هَـذَا ما تَقْضِي بِه حِكْمة التقابل بين الأضداد، وهو الأمر الذي دَرَجَ عليه الأسْلُوب القرآني في بياناته.

واقْتَضَتْ بلاغةُ التَّنْويعِ في حَركَةِ رَسْمِ الصُّورَةِ أَنْ يأتيَ المثلُ هنا مبتدئاً بتمثيل عَاقِبة أعمال الذين كَفَرُوا، ومثنِّياً بتَمْثِيلَ تَخَبُّطِهِمْ في الضَّلاَلَةِ، وهم يَقُومُون بالأعْمالِ الَّتي يَرْجُون منها سعاداتهم: أما نتيجة سَعْيهم لتَحْصِيل سَعَاداتهم، فَمِثْلُ نتيجةِ السَّاعي إلى سَراب وهو يَحْسَبُه ماءً. وأمَّا تخَبُّطُهم فِي الضَّلاَلَةِ إِذْ أَعْرَضُوا عن نُورِ الْهِدَاية الربَّانيّة الّذي هو النُّور الوحيدُ في الوجود، فمثلُ تخبُّطِ من هو في

ظُلمَاتٍ متراكمة بعضها فوْقَ بعض، في بَحْرٍ لُجّيٍّ تُحِيطُ بِه المخاوفُ والمخاطِرُ من كلٍّ جانب.

مَن لم يلْتَمِسْ نُورَ الْهِداية الربّانيَّة ليهتديَ لَمْ يَجِد بعدَهُ في الوجودِ نُوراً يَهْدِيه في الظلمات، فهُدَىٰ الله هو الهُدَى، وهو الحقُّ وحْدَه، وليس بعد الحقّ إلاَّ الضلال.

وفي تَدَبُّر المثل وتحليله نلاحظ أنَّه اشْتَمَل على صورتين تمثيليتين:

الصورة الأولى: صورة السّاعي إلى سراب، وهو ظمآنٌ يحسبُه ماءً، فلمّا وصل إليه أصابته خيبة أمل قاتلة، إذْ لم يجده شيئاً.

الصورة الثانية: صورةُ المتخبِّط في الظُّلُمات المتراكمة.

والمثلُ بصُورتَيْهِ يَحْكِي واقعَ حَالِ الكافرين، سلوكاً في الحياة، وخيبةً مُهْلِكة في العاقبة.

إنَّ الكَافِرين أَعْرضُوا عنْ نُور الله الَّذي هُو المصدَرُ الوحيدُ لِلْهِدَاية، وانْطَلَقُوا يَلْتَمِسُون أَسْبابَ سَعَادَتِهم في ظُلماتِ الهوىٰ والشَّهَوَاتِ والْجُحُودِ والكُنُود، والكِبْر والْفُجُور، فأَخَذُوا يتعثَّرون في كُلِّ وادٍ من الهمّ والحَزَنِ والقلَقِ وضِيق الصَّدْر وأَلْوانِ الْخَيْبَة، وَيَتَجَدَّدُ عِنْدَهُمْ الأَمَلُ فَيُكَرِّرُون الْمَسْعَىٰ، وهكذا، حتى تَأْتِيَهم منايَاهم وهم ظامئون للظفر بسعاداتهم، ولكنَّهم لا يَجِدُونها، وعنْدئذٍ يَرَوْن أَنَّ الدُّنيا الَّتي سَعَوْا وراءَها بِمَثَابَة سَرَابٍ خادِعٍ وعنْدئذٍ يَجِدُون أنْفُسَهم بين يَدَيْ ربّهم يُحَاسِبُهم على أعْمَالِهِم، لِيُجَازِيَهُمْ بالعدل.

هذا ما يَحْكِيهِ الْمَثَلُ بصُورَتَيْه:

أما الصورة الأولى: فيقولُ الله تعالى فيها:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فِي صُورة هذا المثَلِ تَمْثِيلُ أعمال الذين كفروا في الحياة الدنيا. وعلَيْنا أن نتفكَّر في هذه الأعمالِ مِنْ عدَّة وُجُوه:

(أ) في العمل نفسه.

(ب) في الغاية منه.

(ج) في الفكرة الَّتي جعلَتْ هذا العمل سبباً لتَحْقِيق الغاية منه.

أمّا الغايةُ التي يسعىٰ إليها الكافرون بعد أن رفَضُوا نُورَ الْهِدَاية الربّانية وكَذَّبوا بالْيَوْمِ الآخر، فَهِيَ تحقيقُ السعادَةِ لأنفسهم عن طريق متاعِ الحَيَاة الدنيا، وقَصَرُوا همَّهُمْ على طلب ما في هذه الحياة من مُتعٍ ولذّات.

وأمّا مخطَّطُ العمل الذي رسَمُوه لأنفسهم لِتَحْقِيق هٰذِه الغاية، فلا يَعْدُو اتِّخاذ الوسائل لِكَسْبِ المال، أو الظفر بالجاه أو السلطان، أو الاستمتاع بالشهواتِ واللَّذاتِ، أو اللَّهْوِ واللّعب، أو السَّبق فيما يستعلون به ويفتخر به بعضهم على بعض.

وأمّا العملُ نَفْسُه فالكدحُ الدائم المتواصلُ.

ولكنّهم يَكْدَحُون للظّفَرِ بالسَّعادة التي ينشدون، فلا يَصِلُون، لأنَّ لذَّاتِ الحياة كلَّها غير قادرة على منح السعادة الحقيقية، على أنَّ القليل منها لا يأتي إلَّا مقروناً بالمنغِّصَات والأكدار، فيا خيبةَ المسعَىٰ!! إنَّ سَعْيَهم وكدحَهُم كساعٍ إلى سرابٍ في صحراء، وهو شديدُ الظمأ ذُو حاجة مُلِحَّة إلى الماء. وإذا كان مكان السَّرَاب نهايةَ مسعَىٰ هذا الظامىء الْمُسَافِر في الصَّحْراء، وقد يَنْتَهِي عِنْدَه صَبْرُه، فيَقَعُ فِيه صَرِيعاً هالِكاً، فإنّ نِهَاية مسعَىٰ الْكَافِر الْكَادِح لتِحْقِيقِ سَعَادَتِه في ظروف الحياةِ الدنيا نُزولُ المنيّة به، وعندئذٍ يلْقَىٰ الله ربَّهُ، فيُحَاسِبُه ويُوَفِّيه حِسَابه، ويَلْقَىٰ بِكُفْرِهِ عَذَابه.

وفي هذا الْمَثلِ الرَّائِعِ يَظْهَرُ لنا من خصائص الأمثال القرآنية صِدْقُ المماثلة بين المثَل والْمُمَثَّلِ له. ويَظهر لنا أيضاً عنصُرُ البناء على المثَلِ والْحُكْمُ عَلَيهِ كأنَّه

عيْنُ الممثَّل لَه، على اعتبار أنَّ الْمَثَل كانَ وسِيلةً لإحْضَارِ صُورَةِ الممثَّل لَهُ في ذهن المخاطَبِ ونفسِه. وإذْ حَضَرَتْ صُورَةُ الممثَّل لَهُ حَسُنَ طيُّ المثل. وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾.

فالنصُّ ينْتَقِل بشَكْلٍ مُفَاجِىء من الْمَثَلِ إلى الْمُمَثَّلِ لَهُ، ويأْتِي ترتيبُ النتيجة المقصودَةِ على المثلِ كأنَّه عَيْنُ الممثَّل له.

ويظهر لنا أيضاً من الخصائص حَذْفُ مقاطِعَ من الصُّورة التمثيلية اعتماداً على ذَكَاءِ أَهْلِ الاستنباط، وكذَلِكَ حذْفُ مقاطع من الممثَّل له.

ففي الْمَثَلِ أُبرِزَتْ صُورَةُ السَّراب، ثمَّ صُورةُ الظامىء الذي ظنَّه ماءً، ثم خيبتُهُ عِنْدَ وُصُوله إليه، وحَذْفُ ما عدا ذلِكَ لأن الْخَيَال يتِمُّ رَسْمَها.

وفي الممثَّل له لم يُذْكر إلاّ عملُ الذين كفروا، وطُوِي ما عَدا ذلك، لأنَّ الفكر قادر على أن يستدعيه، وهذا من بلاغة القرآن.

وأمّا الصُّورة الثانية: فيقولُ الله تعالى فيها:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

فهذا المثل يُصَوِّر الحالةَ النفسيَّة والفكريَّة والْقَلْبية للذين كفروا بعد أن تركُوا نورَ الهِداية الرَّبَّانية.

إنَّهم يطلُبون سَعَادَتَهم في الظلمات، فقلُوبُهم مظلمة بالكفر، ونفوسُهم تائهة في بحرٍ لُجّيّ من ظُلُمات الأهواءِ والشَّهوات، وأفكارُهم تسبَحُ في ظلمات أسباب لذّات الدنيا، وإراداتُهم تحْتَ كلّ هذه الظلمات.

فمَثَلُهُم كَمَنْ هو في ظُلُماتِ قَاعِ بحرٍ عميق، فوْقَهُ أمواجٌ في الْعُمْقِ تزيد الظلمة، فوقها أمْواجٌ في السَّطحِ تُضاعف الظُّلْمة، فوقَها سَحَابٌ يَزِيدُ الظَّلام ظلاماً، ظلماتٌ بعضُها فوق بعض.

﴿إِذَا أَخْـرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَـدْ يَـرَاهـا﴾ : أي لم يَـرَهَـا ولَمْ يُقَـارِبْ رُؤيتهـا لشـدَّةِ الظلمة.

ومن كان كذلك فلا بدَّ أن يَسْلُكَ مسالك المهالك، وكذلك حالُ الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديدِ الغاية من أعمالهم، وفي ما يقرِّرون من أسباب لذلك.

ولمّا حَضَرَتْ صُورةُ الممثَّل لَـه عن طريق المثـل، حُسنَ طيّ المثل، والبنـاء عليه كأنه عينُ الممثّل له، فقال الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

أي: فمن لم يستنـر بنور الهـداية الـربّانيـة، فلا جَـرمَ أن يتيه في الـظلمات، ويضلّ ضلالاً بعيداً، ويخيب مسعاه.

وهكذا يظهر لنا في هذا المثل من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي:

(أ) صدقُ المماثلة بين المثل والممثّل له.

(ب) البناءُ على المثل والْحُكْمُ عليه كأنَّه عَيْنُ الممثّل لَه.

(ج) دقّةُ التَّصْوِير مَعَ إبرازِ الْعَنَاصِر الْمُهِمَّةِ منَ الصُّورَةِ التَّمْثِيليَّة.

(د) التصويرُ المتحرِّكُ الحيُّ الذي تَبْرُز فيه الْمشَاعِر النَّفْسِيَّة.

(هـ) حذفُ مقَاطِعَ يستطيعُ الذَّكِيُّ أن يَسْتوعِبَها وَيَتَخيَّلَها بذكائه.

إلى غير ذلك من أمور يكشفها المتأمل الباحث.

• • •

(٣)

جدول خصائص الأمثال القرآنية

← **الأولى**: دقّةُ التّصوير مع إبرازِ العناصر المهمّة من الصُّورة التمثيلية.

← **الثانية**: التصويرُ المتحرِّك الحيّ الناطقُ، ذُو الأبعاد المكانية والزمانيّة، والـذي تبرز فيـه المشاعرُ النفسيَّة والوجدانيَّة والحركات الفكريَّة للعناصر الحيَّة في الصورة.

← **الثالثة**: صدقُ الْمُمَاثلة بين المثَلِ والممثَّلِ له.

← **الرابعة**: التنويعُ في عَرْضِ الأمثال مرَّةً بالتشبيـه، ومرَّةً بـالعرض المفـاجىء، وبالتمثيـل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يُطابِقُ كـلُّ جزءٍ منـه جزءاً من الممثـل له، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يُنْتَزَعُ منه وَجْهُ الشَّبَهِ بِنظرةٍ كلية عامة.

← **الخامسة**: البناءُ عَلَىٰ الْمَثلِ والحُكْمُ عَلَيْهِ كأَنَّهُ عَيْنُ الممثَّلِ لَـهُ، علىٰ اعْتِبارِ أنَّ المثـلَ كـان وسيلةً لإحضَارِ صُـورةِ الممثَّلِ لـه في ذِهْن المخـاطَبِ ونفسِـه، وإذْ حضَـرتْ صُورة الممثَّلِ له ولو تَقْدِيراً، فالبيَانُ البليغُ يَسْتَدْعِي تجاوُزَ المَثلِ، ومتابعةَ الكَـلامِ عَنِ الممثَّلِ له، وتَسْقُطُ صُورَةُ المَثَلِ لتبرُزَ القضايا المقصودة.

← **السادسة**: قَدْ يُحْذَفُ من الْمَثَـلِ الْقُرآني مَقَـاطِعُ، اعْتِمَـاداً علىٰ ذَكَاء أَهْـلِ الاسْتِنْباط. وقد تُحْذَفُ من الممثَّلِ لَهُ مقاطِعُ أيضاً، ويَبْقَىٰ في دلَالاتِ الألفاظ أولَوازِم الْمَعاني ما يَدُلُّ على الْمَحْذُوف.

• • •

الباب الثاني

تَطْبِيقَاتٌ عَامَّةٌ عَلَى الأَمْثَالِ القُرْآنِيَّةِ

وفيه فصلان

الفصل الأول : أمثالٌ هي بمثابة فرائد الجواهر .

الفصل الثاني : أمثالٌ تكرَّر في القرآن ورودها حتَّى صارت بمثابة حقائق في مصطلحاته .

الفَصل الأول

تَطْبيْقَاتٌ عامَّةٌ على
أَمْثَالٍ هِيَ بمثَابَةِ فَرائِدِ الجَوَاهِر

مُقَـدِّمَةُ

في هذا الفصل تطبيقات عامة على طائفة من النصوص القرآنية التي اشتملت على أمثال.

وفي هـذه التطبيقـات عمَدْتُ إلى تفسيـر النصّ القرآني مستهـديـاً بمـا ذكـره المفسرون، وبقواعد التدبُّر التي انتهيت إليها بعـد تأمـل طويـل في كتاب الله، وهي التي دونتها في كتابـي «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عز وجل».

وعَمَدْتُ أيضاً إلى تحليل الأمثال ولَفْتِ النَّـظر إلى ما جـاء فيها، وفق مـا سبق أن انتهيت إليه في هذه الدراسة للأمثال القرآنية، وهو ما جاء في الفصول السابقة:

١ ــ التـعـريـفـات.
٢ ــ أقسـام الأمثـال.
٣ ــ أغراض الأمثال القرآنية.
٤ ــ خصائص الأمثال القرآنية.

ولدى التَّحليل في هذه التطبيقات قَدْ لا أستوفي ذكْرَ كلّ العناصر الذي اشتمل عليهـا المثل، أقسـاماً وأغـراضاً وخصـائص، لأترك للقـارىء فرصـة التأمـل الحرّ، واستكمال ما أغفَلْتُه، وقياسِ ما لَمْ أَذْكُرْه على ما ذَكَرْتُه، فالتَّدْريب والتأمُّل يسمحان باستِنْباط أمور جديدة لم يَصِلْ إلى استنباطها المتأمل السابق، ولم يتنبَّه إليها، وبهما يظهر من سنة الله في خلقه سنَّةُ التكامل المتلاحق.

وفيما يلي التطبيقاتُ على النصوص:

التطبيق الأوَّل

قال الله تعالى في سورة (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾.

﴿أصحاب الفيل﴾: هُمْ أَبْرَهَةُ الحَبشيّ وجَيْشُه الذين جاؤوا لهدم الكعبة.

﴿كَيْدَهُم﴾: الكَيْدَ: هو تدبير أمرٍ مُضِرٍّ بالغير. وأكْثَرُه يكون في الخفاء. ويكونُ بالحقّ وبالباطل، فإذا كان بالحق فهو خيْرٌ وإذا كان بالباطل فهو شرّ. فالكَيْدُ لإيقاع المجرمينَ في الفخّ وإنزالِ العقوبة بهم هو كَيْدٌ في الخير، والكَيْد لإبطال حقٍّ وإحقاق باطل، أو لقتل البُرَآء وأكْل أمْوَالِ النَّاس بالباطل، هو شرّ.

قال الله تعالى في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧ ﴾.

﴿في تَضْلِيل﴾: أي: في تَضْييع وإبطالٍ. وكذلك ضاعت جُهُود أَبْرَهَة، وتبدَّد كيدُه، وعاقَبَه الله ومَنْ معه عقاباً شديداً، فأهلكهم.

﴿طَيْراً أبابِيلَ﴾: طيراً: أي: نوعاً من الطيور. أبَابِيلَ: أي: جَمَاعَاتٍ متفرقات، تتتابع عليهم لتعمَّهُم بما تَرْمِي عليهم من قواتل. قيل: هو جَمْعٌ واحدُه (إبَّالَة). وقيل: واحده (إبَّوْل) كعِجَّوْل وعَجَاجِيل. وقيل: هو جَمْعٌ لا وَاحِدَ له.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل﴾: سِجِّيل: جاء في تفسير هذه الكلمة أقوال أقربها: أنَّ السِّجِّيل نوعٌ من الطين يتَحجَّر بالنار.

ويقال لغةً: سَجَلَهُ بالشَّيء إذا رَمَاهُ به مِنْ فَوْق.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ﴾: العصف: هو وَرقُ الزَّرْع. والْعَصْف الْمأْكُول: هو الزرع الذي أكِلَ حَبُّه وتُرِكَ وَرَقُه، أو تُرِكَ منه ما لا تأْكُلُه الدَّوابُّ عادة، فهي تدوسه بأقدامها. أو هو الزَّرْع الذي أكَلَتْه الدَّوابُّ وخَرَجَ رَوْثاً.

في هذه السورة ضَرَبَ الله مثَلاً لصُورة أصْحَاب الفيل بعد هلاكهم بصورةِ الْعَصْفِ المأكول.

لقد رمتهم الطَّيْرُ الأَبَابِيلُ بِالْحِجَارة الَّتِي كانَتْ تَحْمِلُها بأَرْجُلها ومناقيرها لإهلاكهم، فما تُصِيبُ واحداً منهم إلَّا أهْلَكَتْه وقَتَلَتْه.

وقد جَاءَ في الخبر أنَّ الْحَجَر من هٰذِه الحجارةِ الصغيرةِ التي لا يتجاوز كبيرُها مِقْدارَ الحِمَّصَة، كان يصيبُ أحَدَهُمْ على رأسه فيخترقه حتى يخرج من أسفل. وعن سعيد بن جُبَيْرٍ أنَّ هذه الحجارة كانت تَحْمِلُ دَاءَ الْجُدَرِيّ، فما تُصِيبُ أحداً منهم إلَّا نَفِطَ جِلْدُهَ وثَارَ به الْجُدَرِيُّ حتى يُهْلِكه.

إنَّ هَؤلاء الَّذين أهْلَكَهُم اللَّهُ بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِهْلاك قد ترامَتْ جُثَثُهم في الرِّمَال والوديان، فكانت صورةُ كلِّ جثَّة من جثثهم المصابة بالوباء الفتَّاك كالعصف المأكول، أي كروث البهائم التي تأكل الْعَصْفَ. وهذا المعنى أرجح عندي لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الداء الذي أهلكهم هو داء الْجُدَرِي.

فالتصوير مع الاحتشامِ في اللَّفْظِ تَصْوِيرٌ دَقِيقٌ.

* * *

التطبيق الثاني

ضَرَب الله أمْثِلةً تقْرِيبيَّة لما يَجْري من أحداثٍ في الكَوْنِ عنْدَ قيام السَّاعة، وتَغَيُّر نِظَام الْكَوْنِ القائم، ويَوْمَ القيامةِ وبعْثِ الناس إلى الحياة الأخرى.

فضربَ مثلاً لصُورة الناس يوم القيامة للحساب والجزاء بالفراش المبثوث، وبالْجَرادِ المنتشر، قال الله تعالى في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[1].

فالناسُ عند خُروجِهم من الأرْضِ تكُونُ صورُهم تُشْبه صورةَ الجراد الْمنتشَرِ، في كثرتهم وتجمُّعِهم وتتابعهم وتدافعهم وتصادُمِ بعضِهم ببعض.

وحين يدْرِكُون الموقفَ للحساب والجزاء، تَطِيشُ أحلامُهم، فيَنْبَثُّون، ويَقْذِفونَ بأنفسهم هَائمين على مواطنَ يَتوَهَّمُونَ فِيهَا نَجاتهم، فتكون صُورَتُهم في هذه الحالة مِثْلَ صُورة الفراشِ المبثوثِ الطائش المتفرِّق في كلٍّ جهة.

وضربَ الله سبحانه مثلاً لهم وهم يَخْرُجون من قبورهم سراعاً متجهين إلى الداعي الذي يدعوهم إلى الموقف، بصُورَةِ عبَّادِ الأوثان الذين يُسْرِعُون متدافعين إلى أوثانهم، فقال تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝١٦﴾.

﴿الأجداث﴾: القبور.

﴿نُصُب﴾: أي: أنصاب.

﴿يُوفِضُون﴾: أي: يُسْرِعون.

وضرب الله مثلاً للجبال يومئذٍ إذ تفقد صخورُها قِوامَها الْمُتَماسِكَ، وتُصْبح هشَّةً منتفخة، بصُورَةِ العِهْن المنفوش. (العِهْنُ: هو الصوف المصبوغ ألواناً مختلفة، والمنفوش: هو المندوف الذي تُفَرَّقُ أجزاؤه المتلبِّدة عن بعضها).

فهذه الصُّورة تبين أنَّ الجبال منْفُوشَة كالصُّوف، ولكنَّها مع ذلك تحافظ على ألوانها التي كانت عليها سوداً وحمراً وبيضاً وغير ذلك، ولهذا جاء تمثيلها بالعِهن، وهو اسْمٌ للصوف المصبوغ بألوان مختلفة، لا بمطلق الصوف، فقال تعالى في

(١) مهطعين إلى الداع: أي ناظرين إليه قد رفعوا رؤوسهم نحوه.

سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

وقال تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

وضَرَب الله مثلاً للسماء يومئذٍ بصورة الْمُهْلِ، وهو النُّحَاسُ المذاب. وبصُورَةِ الوردة الحمراء إذا تخيَّلنا وَرْدَةً أوراقها من مادَّة ذائبة رجْرَاجَةٍ تُشْبِهُ الدُّهن.

قال الله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾.

﴿الْمُهْلُ﴾: النحاسُ المذاب. ويُطْلَقُ أيضاً على دُرْدِيّ الزيت أي عَكَر الزيت. وقد رجحت هنا المعنى الأول.

وقال تعالى في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾.

﴿وَرْدَةً﴾: أي: مثل الوردة الحمراء.

﴿كالدِّهان﴾: أي: وهذه الوردة الممثَّلُ بِها تُشْبِهُ الدِّهان، **الدِّهان**: جمعٌ مفرده الدُّهْنُ، وهو يُجْمَعُ أيضاً على أدْهان.

ولعل لوصْفِ الوردة بأنها تُشْبِه الدّهان دلالةً مقصودةً تتحقَّق بالجمع ولا تتحقق بالمفرد، أي تُشْبِه أنواعَ الدهن، الذي يوجد منه ما هو سائل رقيق، وما هو كثيف أخف سيولة، وما هو قريب من درجة التماسك بنفسه. وهكذا تظهر السماء للناظرين يومئذ.

وهذه الصورة للسماء يومئذٍ ناتِجَةٌ عمَّا يحدُث فيها من حركة تشبه حركة

الدوّامة في البحر، فهي تَمُورُ مَوْراً، قال الله تعالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾.

فإذا ضممنا إلى هذه الحركة اللَّون الأحْمَر النُّحَاسِيَّ الذي دلَّ عليه قوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾.

كان الناظر لها من بُعْدٍ يراها كَوَرْدَةٍ حَمْراءَ كبرى مصنوعة من أنواع من الدُّهن، تتحرك أوراقها الذائبة، ويمُوجُ بعضُها في بعض، وهذه الصورة هي التي رسمها قوله تعالى:

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾.

إنَّها لدقة في التصوير بالغةٌ، مع إيجاز في اللفظِ متَناهٍ.

* * *

التطبيق الثالث

ضرب الله مثلاً لقضيَّة الحياة بعد الموت، بحياة النبات في دوراته المتكرِّرة من بزوره، عند توافر شروط نباته من جديد.

فقال الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

ثمَّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا

ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

ثمَّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.

ثمَّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ثمَّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذه النصوص مكيَّة.

ثمَّ أنزل الله تعالى في أواسط العهد المدني قوله في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿وحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي: وحبّ الزرع الْمَحْصُود، وهو يَشْمَل كلَّ حبٍّ يُنْتَفع به، لأيّ زرع تمَّ حصاده بعد أن بلغ درجة نضجه.

﴿والنَّخْلَ بَاسِقَات﴾: أي: عالياتٍ طوالاً.

﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾: أي: لها ثَمَرٌ مَنْضُودٌ، والْمَنْضُود هو المجموع المتراصف المتراكبُ بعضُه إلى بعض باتِّساق جميل، ونظامٍ بديع.

﴿سَحَاباً ثِقَالاً﴾: السَّحاب: جمع مفرده سحابة. وثقالاً: أي مثقلات بالماء الذي تحمله.

﴿لِبَلَدٍ ميِّتٍ﴾: أي: لأَرْضٍ لاَ نَبَاتَ فيها، فهي كالميتة لانعدام حَيَاةِ النَّبات منها.

﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ﴾: أي: تُحَرِّكُ السُّحُبَ من داخل تجمُّعاتها وتُهَيِّجُها وهي محمَّلة بالماء، وتَسُوقُها في السماء إلى بَلَدٍ محتاج للمطر لينبت فيه الزرع.

وأُعِيدَ الضمير على السحاب بالمفرد (فسقناه) مع أنَّ السحاب جمع سحابة، كما تقول المعاجم اللُّغويَّة، ملاحظة للماء الذي تحمله، والذي هو المقصود من السوق، فكأنه قيل: فتثير سحاباً ثقالاً بالماء فسقناه، أي فسقنا الماء، أو هو اسم جنس جمعي يُفرَّق بينه وبين واحدة بالتاء، فَيُعَامَلُ معاملة المفرد، مثل، نخل وتمر كما يقول النحاة.

﴿فأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾: أي: فأحيينا به بلدة ميتاً.

﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾: مِنْ دمٍ مُتَجَمِّد.

﴿مِنْ مضغةٍ﴾: مِنْ قِطْعَةِ لحم صغيرة. وقد سمِّيت بذلك لأنها بقدر ما يُمْضَغُ.

﴿مُخَلَّقَة وغَيْر مُخَلَّقَة﴾: هما طَوْران من مراحل الجنين: طَوْر تكون فيه المضغة مخلَّقة: أي: ظاهرة التقسيمات للأعضاء. وطورٌ تكون فيه غير مخلقة: أي: غير ظاهرة تقسيمات الأعضاء.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ : أي : وترى الأرضَ ميّتة لا حياةً فِيها ولا نَباتَ.

﴿اهتزَّتْ ورَبَتْ﴾ : أي : تَحرَّكَ النَّباتُ فيها، ونَمَتْ زُروعها، وظَهَرَتْ فيها الحياة.

﴿مِنْ كُلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾ : أي : من كُلِّ صِنْفٍ من النَّبات حَسَنٍ ذي نضارة.

في هذه النصوص ضَرَبَ الله عزَّ وجلّ لمنكري البَعْثِ الواقعين أسْرَىٰ مدركات حواسِّهم الظاهرة مثلاً إقناعياً، لتقريب فكرةِ الحياةِ بعد الموت من أجل الحساب والجزاء وإقامة مقتضيات حكمته وعدله في عباده.

وهذا المثلُ هو دَوْرَةُ الحياة النباتية، التي تنتهي بالحصاد فَتَعُودُ بِه الأرض ميْتةً لا حياة فيها، ولا خُضْرَةَ ولا نضرة، ثمَّ تبدأ الدورة من جديد، فَيَسُوقُ الله السَّحَاب المثقلةَ بالماء، فَتَنْزل الأمْطارُ على الأرض الميّتة، فتَتَحرَّك بقضاء الله وقدره عوامل الحياة الكامنة في البزور المتناثرة المدفونة في الأرض، فتمتصّ البزور ماءها وغذاءها من الطين، ثم تنبت من جديد، فتتشقَّق الأرض، وتخرُجُ الزُّروعُ المختلفة، وتَنْبُتُ الجنَّاتُ على أمثال أَسْلافها ممَّا تَركَتْ مِنْ بُزُورها.

هذه الدَّورة الحياتيَّة التي تتكرَّر باستمرار في النَّبات، تَكْفِي مثلاً مُقْنِعاً يُقرِّب لأذهان الذين يتعجَّبون مما لا يشاهدون له نظائر في الواقع فكرةَ إمكان عودة الحياة للَّذين يموتُون من الأحياء، وتَفْنَىٰ أجسادُهم، وتَبْلَىٰ عِظَامُهُمْ، إنَّ الأَمر لا يحتاج أكْثر من تَوَجُّه إرادة الخالق وقُدْرَته للتنفيذ.

فإذا كانت البزور المتناثرة، ونَوَيَاتها الصغرى جدّاً، مستعدَّةً بقضاء الله وقدره لأن تنبت منها شجرة عظيمة جديدة، تماثل الشجرة التي كانت أنتجتها من قبل، ثمَّ يبست وماتت، فما المانع من أن تكون نوياتٌ صغرى لا تدركها الأبصار في أجسام الناس مستعدَّة بقضاءِ الله وقدره لأنْ تنشأَ منها حياةٌ جديدة، متىٰ جاءتْ دورة هذه الحياة الجديدة، وبعث اللّهُ الأسبابَ الكفيلة بقضائه وقدره لإعادة النشأة من جديد، ولِرَجْعَةِ الأرواح التي فارقت من قَبْلُ أجسادَها، إلى أجسادٍ هي نظير أجسادها الأولى، ناشئة من نوياتها الصغرى المنبثة في الأرض؟

إنَّ البديهة العقلية تقول: إنَّه لا يُوجَدُ مانع عقلي من عودة الحياة هذه.

علىٰ أَنَّ أهـل الفكـر المتجـرِّد من المؤثـرات الحِسِّيَّـة، الـذين لَيْسُـوا أسـرى مُدْرَكَات حواسِّهم الظاهرة، والذين تكفيهم الأدلَّة البرهانية العقلية، لا يَحْتَاجُون إلى ضرب أمثالٍ تقريبيَّة كهذا المثل، بل يكفيهم البرهـان العقلي الذي تضمَّنَـه قول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾.

فـإذْ قد ثبت لهم ببـرهان العقـل أنَّ الله تعالى هـو الـذي خلق الخلقَ الأوَّل، فإنَّهم بالبداهة يقـولون: إنَّـه عزَّ وجـلّ قادر على أن يُعِيـدَ الخلقَ بَعْدَ مَـوْتِ الأحياء وفناءِ أجسادهم، فالبدء والإعادة بالنسبة إلى قُدْرَته العظيمة سواء.

* * *

التـطبيق الرابـع

قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: في بيان المراد من هذا أقوال:

الأول: لا تفتـح أبـواب السمـاء لأقـوالهم ولاَ لِأَعْمَـالهم، إذْ لَيْسَ لهم كـلام طيِّبٌ ولاَ عَمَلَ صَالِحٌ.

وهـذا المعنى ينطبق على مـا جاء في قـولـه تعـالى في سـورة (فـاطـر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾ ... ﴾.

وينطبق أيضاً على ما جاء في قوله تعالى في سورة (المطففين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نزول):

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ ﴾.

﴿سجين﴾: مشتق من السجن. وهو في مكان سافل. بخلاف كتاب الأبرار، فهو في علّيين في السماء كما قال الله تعالى فيها:

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ ﴾.

الثاني: لا تُفَتَّح أبواب السماء لأرواحهم عند موتهم، إذْ أرواحهم تظل حبيسة دون السماء.

وهذا المعنى يؤيده ما جاء في بيان الرسول ﷺ عن أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين، وهو أظهر المعاني.

الثالث: لا تُفَتَّح أبواب السماء لهم لأنهم من أهل النار، والنَّار لَيْسَتْ في السماء، والذين تُفَتَّحُ أبواب السماء لهم هم أهل الجنة.

الرابع: لا تفتح لهم أبواب السماء، بمعنى لا تنزل عليهم بركات السماء من الله.

﴿ولا يدخلون الجنَّة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾:

يَلِج: يدخل. **الجمل**: الحيوان المعروف.

في سَمِّ الخياط: في ثَقْبِ الخِيَاط. وكلّ ثقب لطيف دقيق فهو «سَمّ» بفتح السين وضمها. **والخياط**: الإبرة. وكلُّ ما يخاط به يقال فيه: الخِيَاط والْمِخْيَط.

وقد ضرب الله دخول الجمل في سَمّ الخياط مَثَلاً لعَدم إمكان دخولهم الجنة، أي: كما أنَّ نظام الخلق قائم على عدم إمكان دخُول الجمل بجثته الكبيرة في ثَقْبِ الإبرة للتفاوت الكبير بين جسم الجمل وفراغ ثَقْبِ الإبرة مع بقاء كلّ منهما على مستوى أبعاده، كذلك قوانين عَدْل الله وحكمته تقضي بأن لا يَدْخُل الذين

كذبوا بآيات الله واسْتَكْبَرُوا عن الخضوع لها، جنّتَهُ التي أعدّها للّذين آمنوا ولم يستكبروا عن طاعة الله والخضوع لجلاله، وسُلْطانِ أَمْرِهِ التكليفي.

ويُلاحَظُ في هذا المثل صِدْقُ المماثلة، فالْمُمَثَّلُ بِه مَظْهَرٌ من مظاهر قوانين الله في الخلق والْمُمَثَّلُ لَهُ مظهر من مظاهر قوانين الله في العدل، ويُلاحظ فيه تَجْسِيدُ الفكرة بصورة تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر. ويلاحظ التنويع في ضرب المثل، وذلك إذ جاء بيان عدم إمكان دخولهم الجنة بصيغةٍ توهمُ في مقدمتها إمْكَانُ دُخُولِهم الجنة.

* * *

التطبيق الخامس

قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

في هذه الآية تَمْثِيلٌ للغضب بمُحَرِّضٍ مِلْحاحٍ داخلَ النفسِ يُحرِّضُ بكلامه على الثورة، وعلى قيام الجسم وأعضائه بأعمال الانتقام ضد الذي حرَّكَ الغضب. فهيجانُ الْغَضَبِ مَثَلُه كَمَثَلِ صِياح هذا المحَرِّضِ الملحاح. وسكونُ الْغَضَب مَثَلُه كَمَثَلِ سكوتِ هذا الْمُحَرِّض عن الصياح، وعودَتِه إلى حَالَةِ الصَّمْتِ والْهُدوء.

كل هذه الصورة التمثيلية توحي بها كلمة (سَكَتَ) في الآية، بدل كلمة (سَكَنَ) التي كان من الممكن أن تؤدّي المعنى المراد، ولكِنْ دُونَ إعطاءِ هٰذِهِ الصُّورة النفسيَّة مِثالاً مِنَ الصُّوَر المدركَة بِالْحِسّ الظاهر، وهذه الصورة مأخوذة من صِيَاحِ صَائِحٍ ثائر.

ويلاحَظُ في الْمَثَلِ دِقَّةُ التَّصْوِير، والإيجازُ البديعُ، وصِدْقُ المماثلة، ولوفرة عناصر التماثل نُزِّل الممثَّلُ به مَنْزِلَةَ المُمثَّلِ له.

* * *

التطبيق السادس

ضرب الله عزَّ وجلَّ الأنعامَ مثلاً للذين كفروا، بل جعلهم أضلَّ من الأنعام.

فقال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذرأْنا﴾: أي: خلَقْنا. الذَّرْءُ: الْخلْقُ.

﴿مثْوى لهم﴾: أي: مَنْزِلٌ لهم. ثَوىٰ الرجل بالمكان يَثْوِي ثَواءً، أي: طال مقامه فيه.

في هذه النصوص ضَرَبَ الله الأنعامَ مثلاً للذين كفروا، وذلك لأنهم لم يستعملوا ما وَهَبَهُم الله من قُلوبٍ وعقولٍ وأبْصَارٍ وأَسْمَاعٍ فيما خُلِقَتْ من أجله، وهو استعمالها في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق.

إنَّهم بتعطيل هذه الأجهزة العظيمة عن استعمالها فيما خُلِقَتْ من أجله غَدَوْا في الحياة الدنيا بمَثَابة الأنعام التي ترىٰ ولكن لا تَرَىٰ آيات الله في الكون ولا دلائل وجوده، وتَسْمَعُ ولكن لا تسمع براهين وجود الله، ولا الوصايا التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر، فعقولهم محجوبة عن معرفة الحقائق الكبرى المتصلة بالنجاة والسعادة العظمى. وقلوبُهُمْ لا تفقه شيئاً من ذلك.

إنَّهم في الحياة الدنيا يأكُلُون ويَتمَتَّعُون، ولَيْسَ لَهُمْ وَرَاءهَا هَدَفٌ أَسْمَىٰ يَسْعَوْنَ إليه، فَهُمْ إِذَنْ يتمَتَّعُونَ وَيأْكُلُون كَمَا تأكُلُ الأنعام.

وفي هذا المثل تَبْدُو دقَّةُ التصوير، وصِدْقُ المماثلة بين الممثَّلِ به والممثَّلِ له. والتمثيلُ هنا قائم على التشبيه الصريح البسيط.

وقَرَّر النصان الأولان أنَّهُم أضَلّ من الأنعام، والسبب في ذلك أن الأنعام لم تُؤْتَ أدواتِ الكمال في أصل فطرتها، بخلاف الذين كَفَرُوا، فإنَّهم قَدْ أُوتُوا هذه الأدوات، ومع ذلك لم يَسْتَعْمِلُوها فيما خُلِقَتْ من أجله، بل عَطَّلوها واسْتَعْمَلُوها استعمالاً أَوْدَىٰ بهم إلى العذاب الأليم الخالد. فالنار مثوى لهم.

* * *

التطبيق السابع

ضَرَبَ الله أمْثِلَةً قَرَّب بها للناس في الدنيا صُورَةَ جَمالِ الحور العين في دار النعيم.

ففي وصفِ ما للسَّابقين المقربين من نعيم في جنات النعيم قال الله تعالى في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿حورٌ﴾: جمع حوراء. وهُنَّ زوجات المؤمنين في الجنة.

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عَيْناء، وهي ذات العين الواسعة الجميلة.

﴿اللُّؤْلُؤ المكْنُون﴾: هو اللُّؤلؤ المخبَّأُ المحفوظ المصون لصاحبه.

وفي وصف نعيم عباده المخلَصين في جنّات النعيم قال الله تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: خَفِراتٌ لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجهن مِنْ عفَّتِهِنَّ.

﴿كأنَّهنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: أي: بياض بشرتهنَّ يشبه البيض الْمَحْفُوظَ الْمَصُون.

وفي وصف نعيم من خاف مقام ربّه، قال الله تعالى في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿لم يَطْمِثْهُن﴾: أي: لم يَمْسَسْهُنَّ.

﴿كأنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ والْمَرْجَانُ﴾:

الياقوت: من الحجارة الكريمة الشفّافة، وفيه ذو اللون الأحمر والأبيض.

المرجان: صغارُ اللُّؤلُؤ، وهي أشدّ بياضاً من كباره.

أي: فمواطن الحمرة الجميلة فيهن كَلَوْنِ الياقوت، ومواطن البياض الجميل فيهن كَلَوْن صِغَارِ اللُّؤلُؤ.

ففي هذه النصوص ضرب الله أمثلة لجوانبَ من حُسْنِ الحور العين في الجنَّة.

فَلَوْنُ بَشراتهنَّ يُشْبِه لَوْنَ اللُّؤلؤ المحفوظِ الْمَصُون لصاحبه، ويُشْبِه لَوْنَ البَيْض المحفوظ المصون من الأوساخ. ومواطِنُ جَمال اللَّون الأحمر من أجسادِهِنَّ كوَجَنَاتِهِنَّ وشِفَاهِهِنَّ يُشْبِه لونُها لونَ الياقوت الأحمر.

ووصَفَهنَّ الله بأنَّهُنَّ عَفيفاتٌ قاصراتُ الطَّرف لا ينظرن إلى غير أزواجهن. وبأنَّهن وَاسِعَاتُ العيون جَمِيلاتُها. وبأنَّهنَّ أبْكارٌ لم يمسَسْهُنَّ قَبْلَ مَنْ هُنَّ له من المؤمنين إنسٌ ولا جَانّ.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الجنّ يعاشِرُونَ الزوجات كالإنس.

* * *

التطبيق الثامن

قال الله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لا يَرْهَقُ وجوهَهُم﴾: أي: لا يَغْشَى وجوههم. يقال: رَهِقَـهُ يَرْهقُـهُ رَهَقاً، أي: غشيهُ.

﴿قَتَرٌ﴾: القَتَرُ جمعُ القَتَرةِ، وهي الغبرَة التي يَعْلُوهَا سَوادٌ كالدّخان.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّة﴾: أي: وتغشاهم علاماتُ الذِّلّة وأماراتُها.

﴿ما لهم من الله من عاصم﴾: أي: ما لهم من عاصم يَعْصِمُهُمْ مِـنْ عذاب الله.

في هـذا النصّ ضـربَ اللَّه مثـلاً لمـا يَغْشَىٰ وُجُـوهَ الْكَافِـرِينَ الَّـذِين كَسَبُوا السيئات من علامات الذّلة والكَمَدِ والحُزْن والنَّدم، بـالقَترِ الـذي يغشَىٰ بعْضَ وجوه النَّـاس الذين يَعْمَلُون في أمـاكنَ يكثُر فيهـا الغبار والـدخان. وضَـرَبَ لَهُ مثـلاً أيضاً بقِطَعٍ من اللّيْلِ المظلم.

الصورةُ الأولى صورةٌ منتـزعة من الـواقع. أمّـا الثانيـة فهي صورة منتـزعةٌ من الخيال.

ويلاحظ في الْمَثَلَيْن دقّةُ التصوير. ولِوَفْرَةِ عَناصر التشابه في المثل الأول نُزل الممثّلُ به منزلةَ الممثّلِ له فكأنه هو.

ونظيره قوله تعالى في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

التطبيق التاسع

قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

هذه الآية تُعلِّمُ الرسولَ والمؤمنينَ جواباً إقناعيّاً للمشركين، إذْ يَدْعُون المؤمنين إلى الإيمان بشُركائهم، أو إلى عبادةِ شُركائهم، أو إلى رَجْعَةِ منْ آمنَ منهم إلىٰ مَا كان عليه قَبْلَ الإيمان.

والْجَوابُ يَتَلخَّص بحجَّةٍ برهانية جاءَتْ على طريقة الاستفهام التعجُّبي، وبتصوير الأخذ بمذهب الشرك بأنه رَجعةٌ عَلَىٰ الأعقاب إلى هاوية الْهَلاَك، بَعْدَ الهداية إلى صراط الله، وبتصوير الدَّعوة إلىٰ ذلك بأنّه رَدٌّ على الأعقاب لمن هداهم الله، ثم بتقديم هٰذِه الصُّورة في لَوْحَةٍ تمثيليةٍ.

تحليل المثل:

١ ـ أوَّل ما تُبْرزُه اللَّوْحَةُ التَّمْثيليَّة في هذا المثل صُورةُ إنسانٍ يَهْوِي إلى هاويةٍ سَحِيقةٍ مهلكة، فهو يَخْطُو في منحَدَرٍ إلى أَسْفَل، ثم تُبْرزُ أشباحَ شياطينَ من أسفلَ منه يستهوونه، أي يستدرجونه إلى الهاوية، إذْ يُزَيِّنُون ذلك لهوى نفسه، وهنا ترسم الصورةُ بعضَ ما تَهْوى نفوسُ أهْلِ الانْحِدار، ثُمَّ تكْشِف الصورةُ مشهدَ تحيُّرِ الرَّجل في ذاتِ نفسه.

لماذا هو حيران؟

هُنالك في أَعْلَىٰ الصُّورة وعلى القِمَّةِ صِراطٌ مستقيم، فيه نورٌ وهِدَاية، فيه طمأنينةٌ وسلامةٌ، غايتُهُ نجاةٌ ونجاحٌ وفلاح، وعلَىٰ الطريق أصحابٌ ناصِحُون مُخْلِصون للرجل، ينادونه: ائتنا وإيَّاك أن تضِلّ، وإيّاكَ أنْ يَسْتَدْرِجَك الشياطين إلى هلاكك.

فهو لذلك حيرانُ، هلْ يَسْتَجِيب لأصحابـه المخلصين الناصحين؟ أو يُـرْضِي أهْواءَ نفسِه وشَهَواتِها العاجلة ويَسْتَجيبُ لدعوةِ الشياطين، ورُبَّما كانَ مِنْ وَرَاء ذلـك هلاكه؟.

وفي ظـلال الصورةِ التمثيليـة ما يَـدُلُّ عَلَىٰ أنَّه كَـان مَع أصْحَـابهِ سَـائراً على الصِّراط، إلَّا أَنَّهُ عَدَلَ عَنْهُ مُنْحَدِراً، استجابةً لاستهواء الشياطين له، فَهُوَ مرتـدٌ على عقبيه.

٢ ــ ما أروعَ هٰذِهِ الصُّورَةَ التمثيليَّة المنتزَعَةَ من الواقع الحسّي ومن الخيال. إنَّها تُمَاثِلُ بصدقٍ تـامٍّ مَنْ يرتَـدُّ عنْ صِرَاط الإيمـان واليقين بالله واليـوم الآخر، إلى هَـاوِيَةِ الكُفْـر بالله أو الشـرك به، وإلَىٰ حَـالَةِ القَلَقِ والْحَيْـرَةِ والخوفِ من المصيـر، وشياطينُ الشرّ والضلالِ يستهوونَهُ بزينةِ الحياة الدُّنيا وشَهَواتِها.

٣ ــ في هذه الصورة التمثيليـة مُعْظَمُ خَصَـائِص الأمثال القـرآنية، ففيهـا دقَّةُ التصـوير مـع إبراز العنـاصر المهمَّـة من الصُّورة. وفيهـا التصـويـرُ المتحـرِّك الحيّ الناطق، الذي تبرزُ فيه المشاعر النفسيَّة والوجدانية والحركات الفكرية. وفيها صِدْقُ المماثلة إلى ما يَقْـرُبُ من التطابق. وفيهـا حَذْفُ مـا يمكن استـدعـاؤه واستكمـالـه بمقتضى اللُّزوم الذي يدركه الذهن.

٤ ــ ويَبْـدُو أنَّ الغـرضَ من هـذا المثـل التحـذيـرُ مِنَ الـرِّدَّة، ومن استهـواء الشياطين إليها، مع الإقناع بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة لها.

٥ ــ ولمَّـا انْتَهتِ الصورة التمثيليـة وحقَّقَتْ أغْرَاضَهـا طُـوِيتْ واسْتَمَـرَّ النصُّ يَبْني على الممثَّلِ له، أوعلى ما قبلَ المثل، كأنَّ المثَلَ قد جَاء مُعْتَرِضاً شَفَّافـاً غير حاجز، يُرَىٰ منه الممثَّلُ لَهُ، فقال الله تعالى في الآية:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: أُمرنا بالإيمان بالله وحْدَهُ لاَ شـريكَ لـه، لنُسْلِم قلوبَنَا ونُفُـوسَنَا وأهـواءَنا

وإراداتِنا لله ربِّ العالمين، خالِقِنا ورازقنا ومربينا ومُحْيينا ومُميتنا، وَمُجَازِينـا بالعَـدل والفضل بقدرتِهِ، علىٰ وَفْقِ علمه وحكمته.

فالواجِبُ علينا ألاّ نَعْبُدَ أَحداً سوى اللَّهِ رَبِّنا.

* * *

التطبيق العاشر

قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

في هذه الآيةُ يُمَثِّـلُ الله ضِيقَ الصَّدْرِ المعنـويّ الذي يُصِيب الـذين لا يؤمنون حينما يُدْعَـوْن إلى الإسلام، ويُهْـدَون إلى أن يَسْمُوا إليـه ويَرْتَفِعُـوا عن الإخلاد إلى الأرض، بضيق الصـدر الماديِّ الـذي يحْصُل لمن يصعَّـد في السماء، إذْ تتنـاقص عليـه في الطبقـات العليا من الجـوّ نسبة الأكسجين الـلاّزمة لتنفُّسـه، فيضيقُ صَدْره ويكاد يَخْتَنِقُ شيئاً فشيئاً كلَّما ارتفع صاعداً.

وكذلك الَّذي عُرِض عليه الإيمان الحقّ فلم يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا دُفِع به صُعوداً إلى الإسلام الذي هو التطبيقات السلوكية لما يُوجِبـه الإيمان، فـإنَّه يَجِـدُ صَدْرَه ضيِّقاً حَرَجاً، نَافِراً من التـطبيقات الإسـلامية التي لم يؤمن بجـدواها، ويَكَـادُ يخْتَنِقُ إذا أُلْـزم بها، لأنـه يَشْعُر بـأنَّ إرادته مُقَيَّـدَةٌ غير حـرَّة، وبأنَّ أهـواءه محْبُوسَـةٌ محجورٌ عليها.

تحـليل المـثل:

١ ــ نلاحظ هنا تَمْثِيـلَ ضيقِ الصَّدر بسببٍ نَفْسِيٍّ هـو الكفر، بضيق الصـدر بسبب نقص الهواء وقلة كمية الأكسجين فيه.

٢ ــ صُورةُ هذا المثل صورةٌ منتزعة من الواقع، إلَّا أنَّ هذا المثل لم يكن مَعْروفاً للنَّاس عِنْدَ نُزُول النصّ، لقد كان بالنسبة إليهم أمراً من أُمُورِ الغيب، ولمَّا اكْتَشَفَ الناسُ هذه الحقيقة بَعْدَ صُعُودِهم إلى طبقات الجوّ العليا ظَهَرَتْ إِحْدَىٰ معجزات القرآن الْعِلميَّةِ.

٣ ــ إنَّ التَّماثُل بيْنَ المثَلِ والممثَّلِ لَهُ قد بلغ من الدقة حدّاً قريباً من التطابق، فالإسلام في مكان السموّ المعنويّ، والإقبال عليه صُعُودٌ، فهُو يُمَاثِلُ من يصعَّد في طبقات الجوّ.

إلَّا أن المؤمِنَ يَحْمِلُ نَسَمَاتِ الْحَيَاة في قربة إيمانه فلا يضيقُ صدْرُه، بل ينشرح للإسلام، بخلافِ الْكَافِرِ فإنَّ الصُّعُود إلى الإسلام يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرجاً لأنَّه لا يحمل نسمات الحياة معه.

٤ ــ في هذا المثل التَّصْويرُ الْمُتَحَرِّكُ الحيُّ، الَّذي تَبْرُزُ فيه المشاعر النفسية.

٥ ــ في هذا المثل صِدْقُ المماثلة بين المثَلِ والممثَّلِ له.

٦ ــ يَبْدُو أنَّ الغَرَضَ من هذا المثل تقريبُ صُورَةِ الممثَّل لَهُ، بأمر يمكن أن يُحِسّ به الناس جميعاً مؤمنُهم وكافرُهم، فضِيقُ الصَّدْرِ من نَقْصِ الْهَوَاءِ من الأمور التي يشترك الناس جميعاً بالإحساس بها.

بحث اعتقادي حول مضمون المثل:

يستشهد بعض الناس بهذه الآية لتأييد مذهب الجبريين، الذين يرون أنَّ الإنسان لا اختيار له، وإنَّما هو مَجْبُور إمَّا على الإيمان وإمَّا علىٰ الكفر، إمّا على الطاعة وإما على المعصية.

وهذا خطأ في التَّصوُّر، وعدَمُ بصيرةٍ في فهم النص.

وذلك لأنَّ للَّهِ عزَّ وجلَّ في كونه الماديّ سنناً وقوانينَ، وهٰذه السُّنَنُ والقوانينُ

مستمـرَّةٌ بقضَاءِ الله وقَـدَرِه العامّ، لا يَتخَلَّفَ مِنْهـا شيءٌ إلاّ بإرَادَةٍ خَـاصَّة، ولحكمـة تقتضي خرق السنَّة.

فَمْن أَلْقَىٰ النَّـار علَىٰ شيء قابـلٍ للاحتـراق السَّـريـع، احْتَـرَقَ ذلـك الشيء بسرعة، ضِمْنَ سُنَن الله وقوانينه المستمرَّة، مع العلم بأن الله تعالى لَوْ شَاء لَمْ يسْمَح بحصول هذا الاحتراق، ولعطَّل أثَرَ القانون، وأوقف تأثير السبب. فالاحتراقُ أثرٌ من آثار قانونه الذي أوْجَدَه هو في طبائـع المحْتَرِقـات، فهو من فعله تعـالى، ولكنّ الذي أَلْقَىٰ شَرَارة النار بإرادته من الناس علىٰ مَا مِنْ طَبْعِهِ الاحتـراقُ في قانـون الله، هو المسؤولُ عمَّا كسب بإرادته.

ومن نَطَحَ الصَّخْرة برأسه نـطحاً ينكسـر به رأْسُـه، كَسَرَ الله رأسـه ضمن سننه الثابتة وقـوانينه الـدائمة. ولـو شاء الله لَم يَسْمَـحْ بحُصُول هـذا الكسر، ولعـطَّل أثر القانون، وأوقَفَ تأثيرَ السبب، لكن تغييـر قوانينـه ليس ألعوبـةً في أيدي الـلاعبين. ومسؤوليـةُ ناطِـحِ رأسه مسؤوليـةٌ تامَّـة عن انتحاره بغيـر إذن من الله، أمّا تحقُّقُ أثـر السنة الثابتة فَقَدْ تمَّ بخلْق الله عزَّ وجلّ.

ومن قَـطَع رَأْسَ إنْسَانٍ بـالسيف قَتَل اللَّهُ بِـه ذَلِكَ الإنسـانَ ضِمْنَ سُنَنه الثـابتة وقوانينه الدائمة. ولـو شاء الله تعـالى لم يَسْمَحْ بحُصُـول القطع، ولا بتحقق نتيجـة القتل، ولعَطَّل أثـرَ القانـون، وأوقف تأثيـر السبب، كما سَيَحْصُـل لأفضل الشهـداء الذي يتحدَّى الدَّجال فلا يستطيعُ الدجـالُ بعد المـرة الأولى قتله. ولكنَّ الله تعالى لا يَجْعَلُ تغيير قوانينه وسُنَنِه ألعوبة في أيدي اللاعبين.

ونَظِير هذه السُّنَنِ والقوانين الكونيَّة الـظاهرة، تُـوجَدُ في طبـائع النفـوس سُنَنٌ وقوانين، فَطَر اللَّهُ عَلَيْهَا عباده، وآثارُها تُنْسَبُ إلى الناس كسباً، ويُعْتَبَـرُون مسؤولين عنها مسؤوليَّةً تـامَّة، لأنَّ كَسْبَهـا يَخْضَعُ لإرادَاتِهِمْ الْحُـرَّةِ، وهي في نتائجهـا تُنْسَبُ إلى الله خلقاً. فَمَثَلُهَا في الـواقع النفسي، كَمَثَـلِ مَنْ يُلْقي شرارةَ النـار على الزيت فيحترقُ الزيت بخلق الله، ضِمْنَ سُنَنِـه الثابتـة وقوانينـه الدائمـة في الواقـع الحسّي المشاهد.

وهكـذا فمَنْ لمْ يُؤْمِنْ بمـا أوْجَبَ الله الإيمان بـه، أي: اختار بـإرادته الحـرَّة سبيل الكفر، لِكبْرٍ في نَفْسه، أو لـرغْبَةٍ بـالفجور، أو لعلَّةٍ أخـرى من عِلَلِ النفس، انطبَقَتْ عَلَيْهِ من سُنَن الله وقَوانِينه في الأنفس، ظاهرةُ ضِيْقِ الصَّدْرِ وحَرَجِه، إذا هُو دُعي إلى الإسـلام، أي: إلى الاستسلام لأوامـر الله ونواهيـه، ولطاعـة الله في ذات نفسه وفي ألوان سلوكه.

كَيْفَ يَقْبَلُ الاستسلامَ لله والطاعةَ له، وكيف يَنْشَرِحُ لذلك صَـدْرُ مَنْ لَمْ يَخْطُ مِنْ جِهَتِهِ خُطْوةَ الإيمان؟

إنَّ الذي لا يؤمن بمبدأ من المبادىء لا يُقْبِلُ على فعـل مقتضياتـه إلَّا مكرهـاً مُنْقَبِضَ النَّفْس، غَيْـر مُنْشَـرِح الصَّـدْرِ، وإذا فَعَلَه فـإنَّـه يفْعَلُه ونَفْسُـه منْـه في ضيق شَدِيد.

وهـذا من طبائـع النُّفوس، وطبـائعُ النفـوس مِنْ خلق الله، وهي من سُنَنِ الله وقوانينه، وهي في النفوس نظيرُ سُنَنِ الله وقوانينه الأخرى في طبائع الأشياء.

يُوَضِّح هذه الحقيقة قول الله تعالى في آخر الآية:

﴿**كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾:

أي: كذلك الرجْس الذي هو ضِيقُ الصَّدْرِ وعَـدَمُ انشراحِه للإسلام الذي هو نتيجةٌ طَبَعِيَّـةٌ تقضي بهـا سنَّةٌ من سنن الله في نفـوس عباده، لـرفض الإيمان وعـدم قبوله، مع وضوح دلائله، يَجْعَلُ الله كلَّ أنواع الرِّجس وأفراده على الذين لا يؤمنون، ومنها عبادة الأوثان، ورجس الخمر والميسر وسائر الكبائر الجالبة للفساد والشرّ.

أمَّا من آمن بالله واليوم الآخر، وصحَّ يقينُه واطمأنَّ قلبه، فإنَّه سينشـرح صَدْرُه لـلإسلام، نـظراً إلى أنَّ الإسلام إنَّمـا هو السّلوك الإراديّ الـذي يقتضيـه الإيمـان، ولا يَقِفُ دُون التَّطبيق ضيقٌ ولاَ حَرجٌ في الصَّدْرِ، وقد يتعثر التطبيق بعقبـات الأهواء والشهـوات، إلَّا أنها عـوارضُ نَفْسِيَّة، ولَيْسَتْ مِنْ مَعْـدِنِ الإرادة التي تَسْتَمِـدّ أصْـلَ توجيهها من جَذْرِ الإيمان.

وهكذا يظْهَرُ لَنا أن الْمُنْطَلَق الأوَّلَ يَبْدأُ مِنْ عِنْدِ الإنسان، إذْ يَخْتَارُ بإراداتِه الحرَّة سَبيلَ الإيمان، أو يَخْتَارُ سَبيلَ الْكُفْرِ، فإنِ اختارَ سَبِيلَ الإيمان انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِتَطْبِيقَاتِ الإسلام، وكَانَ ذَلِكَ من النتائج الطبعيَّة التي تَقْضِي بها سُنَنُ اللَّهِ وقوانينه في نفوس عباده.

أمَّا قول الله تعالى في هذه الآية:

﴿فمن يُرِد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلامِ. ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيِّقاً حرجاً﴾.

فَفَهْمُه يتوَقَّفُ علىٰ تَصَوُّرِ كُلِّ حلقات السلسلة، من أوَّلها حتى آخرها:

الحلقة الأولى: هي إيمانُ الإنسانِ بإرادته الحرَّة، أو كفره.

الحلقة الثانية: من آمن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام، أي: للاستسلام والطاعة ضِمْنَ سُنَنِه وقوانينِه التي فطر عليها طبائع النفوس. ومَنْ كَفر لَمْ يَشْرَحِ الله صَدْرَهُ للإسلام كذلك.

الحلقة الثالثة: مَنْ أَسْلَمَ وأطاع هَدَاهُ الله بإرادته، أي: حكم له بالهداية وجَعَلَهُ مَهْدِيّاً غَيْرَ ضالّ. ومَنْ لَمْ يُسْلِم لله أَضَلَّه الله بإرادته، أيْ: حكم عليه بالضلالة، وجَعَلَه ضالاً غير مهدي.

فالحكمُ مِن الله بهدايةِ عَبْدٍ من عِباده إرادةٌ ربّانية حَكِيمةٌ، مستندة إلى إسلامِ الْعَبْدَ لربِّه بَعْدَ إيمانِه به.

والْحُكْمُ مِنَ الله بِضَلال عبد من عِباده إرادَةٌ رَبَّانية حكِيمة، مُسْتَنِدَةٌ إلى تَمَرُّدِ الْعَبْدِ عَلَىٰ طاعةِ ربِّه بَعْدَ كُفْرِه بربِّه، أو بِوَعْدِه وَوَعِيدِه.

فإذا أردنا أن نَبْدأ التعبير من آخر السلسلة حتّىٰ أوَّلها استقام الكلام إذا قلنا كما جاء في الآية:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ومن يرد أن يضلَّه يجعل

صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾.

فلا دليل في الآية لمذهب الجبريّين، بل هي دليلٌ لمذهب أهل السنة والجماعة. والحمد لله على مَا وَهَبَ، ونَسْأَلُه صِحَّة الفهم، وحُسْنَ التَّبصر، وحُسْنَ التدبُّر.

* * *

التطبيق الحادي عشر

قال الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿أكِنَّةً﴾: جَمْعُ كِنّ. **الكِن**: هو البيت وكلُّ ما يقي ويَسْتُر ومَا يَرُدُّ الحرَّ والبرد من الأبنية والمساكن. **والأكنَّةُ**: الأَغْطِيةُ السَّاترة الواقية.

﴿أن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: أن يَفْهَمُوه فَهْماً صَحِيحاً مُسْتَوْعِباً مَعَانِيَه.

﴿وَفِي آذانهم وَقْراً﴾: أي: وفي آذانهم ثِقَلاً وحِجَاباً يخف به سمعهم، وقيل: الوقرُ هو الصَّمَمُ الْكَامِلَ الذي يذهَبُ معه السَّمْع كُلُّه. والمعنى الأول هو الأقرب لاتِّساقه مع نَفْيِ الْفِقْهِ الذي هو العلم القائم على الفطنة ودقَّة التأمل.

في هذه الآية ضَرَبَ الله مثلاً للصَّوارِف المعنويَّةِ التي تَصْرف قلوبَ الكافرين الذين لا يعبؤون بآيات الله إذا ذُكِّرُوا بها، فيُعْرِضون عنها، ولا يهتمون بتذكر جرائمهم التي فعلُوها وملاحظةِ عدْلِ الله الذي هو نازلٌ بهم لا محالة، بالأكنَّة التي تَحْجُبُ مَنْ فيها عن الشعور بما وراءَها، فتحجُبُه عن نور الشمس وعن رؤية ما في مدَىٰ البصر من أشياء. وبالْوَقْرِ الذي يُحْجَبُ به السمع عن أصوات كثيرة.

إنَّ انْصِـراف إراداتهم عن الاسْتِجـابــة للحقِّ تَسبَّبَ في حَجْب قلوبهم عن أنْ تَفْقَـه ما تشتَمِـلُ عليه آيـاتُ الله الَّتي يُـذَكَّـرون بهـا. وتَسَبَّبَ في حَجْبِ آذانهم عن سَمَـاعِ هـذِه الآيـات، فكـأنَّ في آذانهم وَقْـراً مِنْ نـوع خـاصٍّ يَحْجُبُ عن سمـاع آياتِ الله المنزلات.

وقـد قضَتْ المقـاديـرُ الـربَّـانيَّـة في سُنَنِهَـا التي لا تتخلَّف ـ إلَّا إذا اقْتَضَتْ حكمة الله بتخلُّفها ـ أَنَّ مَنْ رفَضَ الاستجابة لدلائلِ الإيمان بإرادَتِه قامَتْ عَلَىٰ قَلْبِه ونَفْسِـه وسَمْعِه وبَصَرِه الْحُجُبُ الصَّارِفَةُ لَهُ عَنْ الانتفاع بالمذكِّـرات مَهْمَا كـانَتْ أَنْوارُ الهداية فِيهَا مُشْرِقةً سَاطعة. فمهما دعـاهُم الدَّاعي إلى الهـدى فإنهم لَنْ يَهْتَـدوا إذاً أبداً.

لكنَّهم إذا تغيَّرتْ إرادَاتهم فاتَّجَهَتْ للاستجابة للْحَقِّ، زالَتْ الحُجُبُ المعنويَّةُ الصارفةُ عن قُلوبهم وسـائرِ حـواسِّهم الظاهـرة والباطنـة، وعلى مقدار تَـوجُّه الإرادَةِ الصادقة نحو ابتغاء الحق والخيـر والهدىٰ تَنْكَشِفُ أمـامَهُمْ دلائلُ الْهِـداية، وتَسْتَنِيـر بَصَائِرُهُم لفَهْم الْحَقِّ ورُؤْية سُبُله.

فمَثَـل الصَّوارف المعنـويَّةِ لقلوب الكـافرين عن فِقْـهِ آيات الله كمَثَـل الأكنَّة، ومَثَلُ الصَّوارفِ المعنوية لآذانهم عن سَمَاع آياتِ الله المنزَّلَات كمَثَلِ الْوَقْرِ.

ولوَفْرةِ عَنَاصِرَ التَّماثُل بَيْن الممثَّل بِه والممثَّـل له نُـزِّلَتِ الأكنةُ مَنْـزِلَةَ الْحُجَبِ المعنويَّة للقلوب فكأنها هي، ونُزِّلَ الوَقْرُ مَنْزِلَة الحجُب المعنويَّة للسَّمْعِ فكأنه هي، وبُنِيَتِ الأحكامُ على المثل كأنه عين الممثَّل له.

ويلاحظ في المثلين دقَّةُ التَّصْوِير، وصِدْقُ المماثَلةِ، والإيجازُ الْبَدِيعُ.

والخلْقُ الْقَدَرِيُّ الذي دَلَّ عليه قوله تعالى:

﴿إنَّا جَعَلْنَا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾.

هو نظير قولنا: من ضَرَبَ رأسَـهُ على الصخرة الصمـاء بعنف شديـد كَسَرَ الله

رأسه، ومن دخل في التنور الملْتَهِبِ ناراً أحْرَقَهُ الله فيه، ومن رَمَىٰ نَفْسَه في البحر واسْتَسْلَم للغرق أغرَقَهُ الله فيه، ومن شَرِبَ سُمّاً ليقتل به نفسه قتله الله بسمِّه، وكلّ هذه أسباب إرادية لها نتائج قدرية ضِمْنَ سُنَنِ الله الثابتة التي إذا أراد الله أوقفها لحكمةٍ هو يَعْلَمُها.

ونظير ما جاء في هذه الآية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

أمّا قول الله تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

فقد جاء فيه التصريح بما يدل على التمثيل:

﴿كأنَّ في أذنيه وقْراً﴾:

أي: فالصوارف المعنوية التي تَصْرِفُه عن استماع آيات الله التي تُتْلَىٰ عليه، تُشبه الوقر الذي تُصابُ به آذان المرضى بثقل السمع أو الصمم.

بخلاف النَّصَّيْنِ السَّابقين فقد نُزِّل فيهما الْوَقْرُ منزلَة هٰذهِ الصَّوارف، ونُـزِّلَتِ الأكِنَّة منزلة الصوارف التي تصرف القلوب عن فهم آيات الله، فكأنها هي، نظراً إلى وفرة عناصر التشابه.

وأمّا قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

فقد جاء فيه تمثيل الصَّوارِف المعنوية التي تَصْرِفُ أعينَ الكافرين عن رؤية الآيات الكونية التي تُذَكِّر بالله، بِالْغِطَاء الذي يُغَطِّي الأعين فيحجُبُها.

ونُزِّل الغطاء في التَّعْبِير مَنْزِل هذه الصوارف المعنويَّةِ نَظَراً إلى وَفْرَةَ عناصر التشابه بينها وبين الغطَاء.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾، فيه دلالة على أن تصميم إراداتهم على الكفر قد تَسَبَّب عَنْهُ حَجْبُ أسْماعهم حجباً كاملاً عن سماع أيّ قول يُذَكِّرُهم بالله، فَهُمْ بذلك لا يَسْتَطِيعُون السَّمع، كما لا يستطيع العاشق أنْ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّائمِين، لأنَّ نَفْسَه تَشْمَئِزُّ وتَنْفِرُ نُفْرةً شَدِيدةً مِنْ سَمَاعِ مِثْلِ هٰذا الْكَلَام؛ كذلك هؤلاء، فإن كراهِيَتَهُمْ للإيمان بَعْدَ تَصْمِيمِهِمْ على الكُفْرِ قَدْ جَعَلَتْ نُفُوسَهُمْ تشمئزُّ وتنفر نفرةً شديدة من سَمَاعِ أيّ كلام يُذَكِّرُهم بالله واليوم الآخر، ويدعوهم إلى عَدَمِ الافتنان بالحياة الدنيا وزِينتها، ويأمرُهم بفعلِ الخير وعمل الصالحات، وتركِ الشرِّ وعملِ السيئات.

* * *

التطبيق الثاني عشر

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿نَقْذِفُ﴾: أي: نرمي.

﴿فيَدْمَغُه﴾: أي، فيكسر رأسه حتى يُصِيبَ دماغه. يقال: دَمَغَهُ يَدْمَغُهُ دَمْغاً، أي: ضرب رأسه فكَسَره فأصابَ دِماغه فقتله.

﴿فإذَا هُو زَاهِقٌ﴾: أي: فإذا هُوَ مغْلُوبٌ مضمَحِلٌ مُتَلاشٍ بَاطِلٌ لا حياة فيه ولا حركةَ له.

في هذه الآية تمثيلٌ للصِّراع المعنويّ بَيْنَ الْحَقِّ والباطلِ وانتصارِ الحقِّ الرَّبَّاني على الباطل، بصُورةِ قذيفةٍ صلدة، وهي تُمثِّل حُجَج الحق وبراهينه وقوَىٰ الربَّانيين المناصرين له، فَتُصيبُ رأسَ هدفها فتكسره وتنْفُذُ إلى دماغه وتُرْدِيه صَرِيعاً قتيلاً متلاشياً، وهذا الهدفُ يُمَثِّل الباطلَ وحجَجَهُ الزائفة وهياكله المزخرفة المبهرجة، والقوى الماديَّة التي تدعمه وتنصره.

ويُلَاحَظ في هذا المثل الإبداعُ في التصوير الحسِّي، وتجسيدُ الفكرةِ التي يُراد بيانُها بمِثَال بالغِ الروعة، ونظراً إلى التطابق بين صُورةِ المثل وما ضرب له المَثَلُ، جُعل المَثَلُ جُزْءاً ممَّا ضُرب له، فكأنه منه، وامْتَزَجَ الممثَّلُ به بالممثَّل له ألفاظاً وأحكاماً ونتائج، وبهذا تَظْهَرُ خاصَّةُ التنويع من خصائص الأمثال القرآنية.

ويُلاحَظُ في هذا المثل أيضاً دِقَّةُ التصويرِ مع الإيجاز المعجز، والتَّصْويرِ المتحرِّك.

* * *

التطبيق الثالث عشر

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَصَمْنا﴾: الْقَصْمُ كَسْرُ الشيء الشَّديد حتي يبين بعضه عن بعض. ومنه قَصْمُ الظهر بمعنى كَسْرِه. ويقالُ: قَصَمَ الرَّجلُ الشَّيءَ إذا دقَّه فكَسَره فبان بعضه

عَنْ بَعْض. والفرقُ بَيْنَ الْقَصْم والْفَصم ــ بالفاء ــ أنَّ الْفَصم هو أن يَنْصَدِعَ الشَّيْءُ دُونَ أن يبين بعضه عن بعض، بخلافِ الْقَصْم، فَفِيهِ زِيادَةُ معْنَىٰ انْفِصَال بَعْضِه عن بَعْضٍ انفصالاً كاملاً.

﴿أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: أيْ: أَصَبْتُم فيه تَرفاً. **والتَّرَف**: هو التَّوسُّع في التَّنعّم بملاذّ الحياة الدنيا وشهواتِها. **والمُتْرَف**: هو الذي أبطَرَتْه النعمةُ وسَعَةُ العيش. ويقال: أترفته النعمة. أي: أطغته.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً﴾: أي حتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ هلْكَىٰ كالزَّرع المحصُودِ بالمنجل، **الزرع الحصيدُ**: هو الزرع المحصود.

﴿خَامِدِينَ﴾: أي: ميِّتين لاَ حَرَكَة لَهُمْ ولاَ صَوْت، فلا تَسْمَعُ لَهُمْ حِسّاً.

وعن الزَّجاج في ﴿خَامِدين﴾: أيْ: سَاكِتِينَ قَدْ مَاتُوا وَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ الرَّماد الْخَامد الهَامِد.

وأَصْلُ الْخُمُودِ سُكُونُ لَهَب النار، فقد يكونُ المرادُ الإشارة إلى أن نار بغْيِهم وشرِّهِم وطغيانهم قد انطفأتْ بَعْدَ إهْلاكِهِم، وقَصْمِ حياتِهِم وكلِّ قواهم.

في هذا النصّ يخبرنا الله عزَّ وجل أن أقواماً كثيرين سَلَفُوا قد أهلَكَهُم الله بظلمهم.

وأنَّ إهْلاكَهُمْ قد جاءَتْ قبلَهُ إنذاراتٌ بأنَّ العذابَ واقع بهم، كرياح عاتيات، وتغيُّرات مخيفات في سماء بُلْدَانهم وقُراهُمْ، وأنَّهم لمَّا أحَسُّوا أنَّ بأْسَ الله واقعٌ بأرضِهم حاوَلُوا أن يَهْرُبوا منها، كما قال الله تعالى في النصِّ:

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

لكنَّ الْعَذَابَ مُحِيطٌ بهم من كلِّ جانب، فَمَا يَتَّجِهُون إلىٰ جِهةٍ إلَّا ويَجدُون الْعَذابَ مُقْبِلاً علَيْهِم مِنْها، فيَرْجِعُون إلىٰ قُراهُمْ ومَساكنهم، كأن كلَّ شيء من حولهم يقول لهم:

﴿لا تركضوا. وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم﴾.

إنَّهُمْ مسْؤُولُون عن الظُّلْم الَّذي كانَ مِنْهُم، ومُعَاقَبُون عليه بعذابِ الْقَصْمِ والاستئصال.

وحينَ رَأَوْا أنْ لا نجاة لَهُمْ من العذاب النَّازل بهم مَهْمَا حاوَلُوا الفرار، أَخَذُوا يَصْرُخُون على أنفسهم بالويل، ويعترفون بأنَّهم كانوا ظالمين، لكنَّ هَـٰذا الاعْتِراف لا ينفَعُهُم بَعْدَ أن أمْسَوْا تحْتَ ضَرْبةِ العذابِ الَّذِي قَضَىٰ الله بِه عَلَيْهِم، فلقد انتهى زمن التوبة.

لمْ يبق أمامهم إلَّا أن يُرَدِّدُوا مقالتهم التي صارت دعاءهم:

﴿يَا وَيْلَنَا إنا كنا ظالمين﴾.

وتَتَابَعَتْ علَيْهِمُ المهلِكَاتُ القاتلات فَوْجاً بَعْدَ فوْج حتَّى صارُوا حَصِيداً، أي: كالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ الذي تساقط بعضُه عَلَى بَعْضٍ، وحتَّىٰ خمَدَتْ نارُ شرِّهم وبَغْيِهم وَطُغْيانِهم، وانْقَطَعَتْ أنْفَاسُهُم، وسَكَنَتْ أَجْسَادُهُم.

في هـٰذا النصِّ نلاحظ أنَّ اللَّهَ تعالىٰ قد ضرَب مثلاً لإهلاكه هؤلاء الأقوام الظالمين، بِالْحَصِيد الذي تَقْصِمُه المنَاجِل، فيَتَسَاقط بعضُه على بَعْض، وتأتي عليه نارٌ فتُحْرِقُه بِسُرْعة، ثم تَخْمُد هذه النار، فيكونُ الْحَصِيدُ رَماداً.

إنَّه تَمْثِيلٌ فِيه حَرَكَةٌ، وتَتَابعٌ، ودقَّةٌ في التصوير، وإبداعٌ، وإيجازٌ رائع.

ونظراً إلى وفرة عناصر التماثل بين المثل وما ضرب له، نُزِّلَ الممثَّلُ بِه منزلةَ الممثَّلِ لَه فكأنه هو، وصَارَ الْمَثَلُ جُزْءاً مِنْ أَصْلِ الموضوعِ الذي يَتَحدَّثُ عنه البيان القرآني.

* * *

التطبيق الرابع عشر

وصف الله عزَّ وجلَّ المهلكين من قوم عاد بالريح الصرصرالعاتية بأنَّهم صاروا صَرْعَىٰ كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوية، وبأنَّهم أعجاز نخلٍ منقعر.

فقال الله تعالى في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

﴿بالطَّاغِيةِ﴾: الطاغية صفةٌ للْمُهْلِكَة التي أهلكتهم، وهي من الطغيان الذي هو تجاوُزُ الحدِّ.

وقد جاء في سورة (هود) أن إهلاك ثمود قد كان بالصيحة، فهي إذن الصيحة العظيمة الطاغِيَةُ الَّتي كانَتْ السَّبَبَ في إهلاكهم، وقد أثبتت التجارب العلمية أنَّ من الأصوات ما يَقْتُل، وما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) هو قول الله تعالى:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾.

وجاء في شأنهم أيضاً في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾.

الْهَشِيمُ: هو النبْتُ الْيابِسُ المتكَسِّر. والمحتظر: هو صاحب الحظيرة.

﴿بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيةٍ﴾: أي: بريح باردة، ذاتِ صَوْتٍ، شديدة السرعة، ومثل هذه الريح قاتلة مدمِّرة، وهي معروفة في أحداث الكون، والرِّيحُ متَىٰ اشْتَدَّتْ وعَتَتْ اصْطَدَمَتْ بالأشياء فكان لها صوت مزعج مخيف، وهذا الصوت يُسمَّى

صَرْصَرةً. ويقال أيضاً للريح شديدة البرد: ريحٌ صَرْصَرْ. ومعنى (عَاتِيَة) متجاوزةً للحدّ، كالطاغية، ولا تكون الريح كذلك إلَّا إذا كانت عنيفة شديدة السرعة، لا تحتملها الأحياء ولا الأشياء.

﴿حُسُوماً﴾: أي: متتابعة مُتَوالية، فلم تَفْتُر الرِّيحُ الصَّرْصَرُ العاتية عنهم خلال هذه الأيام واللَّيالي المتتابعة، وإنَّما اسْتَمَرَّتْ عليهم كلَّ هذه الأيام والليالي المتتابعة لتَحْسِمَ مادَّتَهُمْ فلا تُبْقِي منهم أحداً، وأصْلُ معنى الْحَسْمِ في اللُّغة الْقَطْعُ والاستئصال، واكْتَسَبَ معنى التتابع لأن الدواء الحاسم والكيَّ الحاسم إنَّما يكونان بعد تكرار العلاج وتتابعه.

﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ قد ماتوا. وصرعى: جَمْعُ صريع.

﴿كأنهم أَعْجَازُ نخلٍ خَاوِيَةٌ﴾: أعجازُ النخل: أُصُولُ النَّخل.

خاوية: أيْ: أجوافها فَارِغة بَالِيَةٌ لَا شَيء فيها.

وقال الله تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿أَعْجَازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ﴾: أي: أصول نخلٍ مُنْقلعٍ من أرضه.

نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد ضرب مثلاً لصورة الهلكى من ثمود بصورة (هَشِيم المُحْتَظِر).

أي: بِصورة أكوام النَّبْتِ اليابس المتكسِّر بعضُه فَوْقَ بعضٍ في حظيرة صَاحِبِ أنعام.

وتُرِكَ لِلْخَيالِ أَنْ يَسْتَكْمِل صُورة هذا الْهَشِيم الذي تَدُوسُه الدَّوَابُّ بِأَرجلها وتُلْقِي ما تُلْقِي عليه مِنْ فَضَلاتِها.

إنَّ الصيحة الواحدة قد أهلكتهم في مَكَانٍ تَجمُّعِهم، ولمْ تَسْمَح لهم بأن يتفرَّقوا، فكانوا كَهَشِيم في حَظِيرةٍ.

وضَرَبَ الله مثلاً لصُورَةِ الْهَلْكَىٰ مِنْ عادٍ بِصُورةِ أعجازِ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ من أرْضـهِ، ثُمَّ إنَّ هـٰذِه الأعجازُ قدْ بَلِيتْ حتَّىٰ غَدَتْ أجْوَافُها خَالِية.

إنَّ هؤلاء قد أُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِية، صارَتْ تَقْلَعُهُمْ مِنْ مَنَازِلهم وأماكِنهم قَلْعاً عنيفاً وتَرْمِيهِم صَرْعَىٰ.

فصورتُهم وهُمْ صَرْعَىٰ مُتفَرِّقُون كَصُورَةِ أعجاز النَّخْلِ المنقَعِر. وصُورَتُهُمْ بعد أن بَلِيَتْ أَجْوَافُهُمْ كَصُورَةِ أعجازِ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ.

تحليل المثلين:

في هذيْنِ المثلَيْنِ تَبْدُو دِقَّةُ التَّصْوِير، مع إبرازِ الْعَنَاصِر المهمَّة من الصُّورَةِ التمثيلية. وفيهما صِدْقُ المماثلة بين المَثَلِ والممثَّلِ له.

والْمَثَلانِ مِنْ قبيل تَمثيل مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمدركٍ بالحسِّ الظاهر. إلَّا أنَّ صُورة الممثَّلِ له أصبَحَتْ غائبةً من أمور الزمان الماضي، وصورةَ الممثَّل بِهِ صُورةٌ حاضرةٌ لمن أراد أن ينظر إليها، فَفِي كُلِّ زمان مُحْتَظِرٌ لَهُ هَشِيمٌ في حظيرته. وَفِي كُلِّ زَمانٍ أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ، وأعجازُ نخلٍ خاوية.

والصورة التمثيلية في المثلين منتزعة من الواقع.

وفي سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

قال الله تعالى، في شأن ثمود وهو الأرجح فيما أرى، أو في شأن عاد، كما ذكر كثير من المفسرين:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

فقد أبان النصُّ هنا أن مَثَلَهُمْ بعد إهلاكهم كان كمَثَلِ الْغُثَاء، **الغثاء**: هو

ما يعلو السيل من زبد وهشيم وقُمَامات، فهو كقوله: ﴿فكـانوا كهشيم المحتـظر﴾، إذ الصورتان متقاربتان.

* * *

التطبيق الخامس عشر

خاطَبَ اللَّهُ بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآية ضَرَبَ اللَّهُ القَسْوةَ الماديَّة في الحِجَارة مثلاً للقَسْوَةِ المعنوية في قُلوبِ المخاطبين.

أي: فإذا قارَنَّا بين القلوب، ووجدنا منها ما هو هيِّنٌ ليِّن سَهْلُ الاستجابة للحقِّ ولمواعِظِ الهداية ودعوةِ الخير، ومنها ما هو أخفُّ ليناً، ومنها ما هو قاس، ومنها ما هو أشدُّ قسوةً. ثم إذا نظرنا إلى الأشياء الماديَّة، ووَجَدْنا منها ما هو هيِّنٌ لين سهلُ العريكة كعجين الدقيق الرطب، ومنها ما هو أخف ليناً كالعجين الذي أَخَذ يجِفُّ، ومِنْهَا ما هو قاسٍ كالطِّين الْيَابِس، ومنها ما هو أشدُّ قسوةً كالْحِجَارة شَدِيدةِ الصَّلابة.

إذا أجرينا هذه المقارنة وجَدْنَا أنَّ نِسْبة قساوَةِ قُلوب المخاطبين من بني إسرائيل المعنوية تُمَاثِل نسبةَ قَسَاوة الحجارة الصَّلْدَة الماديَّة، بل قلوبهم أشد قسوة، لأنها لا تتفجَّر بعطاء الخير مطلقاً، مع أن من الحجارة في الجبال ما يتفجَّر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يشَّقَّق ولو بصعوبة وكلفة فيخرج منه الماء القليل بعيون صغيرة، أو يَرْشَحُ منه الماء رشحاً، ولأنَّ قلوبهم متعالية مستكبرة لا تخضع لجلال الله ولا تَسْجُدُ له ولا تخرُّ من خشيته، مع أنَّ من الحجارة في شَاهِقات

الجبـال ما يتشقَّق ويهبط إلى سفـوحها أو إلى الـوديـان بمؤثـرات الأمـطار والسُّيـول وغيرها.

ولمَّا كان كلُّ شيء في الوجود يُسَبِّحُ بحمـد الله كما قـال الله تعالى في سـورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾.

ولمَّـا كان كـلُّ شيء يَسْجُدُ لله تعـالى كما قـال الله تعالى في سـورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿يتفيَّأُ ظِلَالُه﴾: أي: يَرْجعُ مِنْ جَانبٍ إلى جانب.

﴿دَاخِرُون﴾: أي: صاغرون أذلَّاء.

وكمـا قـال تعـالى بشـأن نبـاتـات الأرض وأشجـارهـا في سـورة (الـرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿النَّجْمُ﴾: كُلُّ مَا نَجَمَ من الأرض من نبات مِمَّا لَمْ يَكُنْ على ساق كالْعُشْبِ والبَقْل.

ولمَّا كانت ظـواهر حَـركَات الأشيـاء المادِّيَّـة أثراً من آثـار سُلْطان الله القهري على كـلِّ شيء، ومقرونـاً بمعنى تَسْبيح الله والسُّجُـودِ له، كـان هبوط الحجـارة من شواهق الجبال هُبُـوطاً من خشيـة الله، فهو مَـظْهَرٌ من مَـظَاهِر السُّجـود له سُبْحَـانه، والخضوعِ لسلطانِ قَهْرِه في قَضَائِه وقَدرِه.

* * *

التطبيق السادس عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ . . . ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿الرَّفَثُ﴾: الجماع ومُقَدِّماته. وقال: ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ على تضمين الرَّفَثِ مَعْنَىٰ الإفضاء، فكأنه على تقدير: أحل لكم ليلة الصيام الرفث مفضين به إلى نسائكم.

فِي هَذا النَّصّ ضَرَبَ اللَّهُ اللِّباسَ مَثَلاً لِمَا يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلِ وزوجته من مباشرة الْجَسَدِ للجَسَدِ، وتَلاَصُقِهما، وتَدَاخُلِهِما، وإِحَاطَةِ كلٍّ منهما بِصَاحِبِه، وطُولِ مُلازَمَتِه له، مَعَ مَا في كلٍّ منهما لِصَاحِبه منْ سَتْرٍ ودِفْءٍ وحفظٍ.

فالزوجةُ مِثلُ اللِّباس لزَوْجِها، والزَّوجُ مِثْلُ اللِّباس لِزَوْجَتِهِ، نظراً إلى أن اللِّباس مباشِرٌ للجَسَدِ، ومُلاصِقٌ له، ومُدَاخِلٌ، ومُحِيط، وساتر، وحافظ، وفيه دفء، وملازم لِلابِسِه مُدَّة طويلة، وكذلك حالُ كلٍّ منَ الزَّوْجَين الأليفين لصاحبه.

هذه المعاني التفصيلية قد استُغْنِيَ عن ذكرها بقوله تعالى:

﴿هُنَّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهنّ﴾.

ونظراً إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثَّلِ لَهُ حَسُنَ تَنْزِيلُ الممثَّلِ بِهِ منزلة الممثَّل لَه فكأنه هو، وفي هذا التنزيل إشعارٌ بهذه الوفرة.

ويُلَاحظُ في هذا التمثيل دقَّة التصوير، وصدق المماثلة، ووفرة عناصر التماثل، والإيجاز في ضرب المثل، وتنزيل الممثل به منزلة الممثل له.

* * *

التطبيق السابع عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿الرُّشْدُ﴾: والرَّشَد والرَّشادُ: نقيض الغَيّ والضَّلال، وهو السّداد في الأمور وإصابةُ وَجْهِ الْحَقِّ والصَّوَابِ والْهِدَاية. وإرشادُ الضَّال، هو هدايته إلى الطريق وتعريفُهُ بها.

﴿الْغَيّ﴾: نَقِيضُ الرَّشَد، وهو الضَّلال والْخَيْبَةُ، والْفَساد، وعِصْيَانُ من تجب طاعته، وتَنَكُّبُ طَرِيقِ الْحَقِّ والنَّجاةِ.

﴿الطَّاغُوت﴾: من الطغيان وهو تجاوز الحدّ، وهو اسْمٌ يَقَعُ عَلَىٰ كلٍّ ما يُعبَد ويُطاعُ مِنْ دون الله، مِن شَيْطان، أو قائد من الإنس أو الجن مُضِلّ، أو غير ذلك. ولفظ (الطَّاغُوت) يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿اسْتَمْسَكَ﴾: أي: اعتصم وأمْسَك بكل قبضته. قال الجوهري: أمسكتُ بالشيء وتَمَسَّكْتُ به واسْتَمْسَكْتُ به وامْتَسَكْت به، كلُّه بمعنى اعتصمتُ. وكذلك مَسَّكْتُ به تَمْسِيكاً.

﴿بالْعُرْوَة﴾: عُرْوةُ الدَّلْوِ والكُوزِ ونحوه مَقْبِضُه. وعُرى المزادة: آذانُها. وعروة القميص: مدخل زُرّه.

﴿الْوُثْقَى﴾: أي: شديدةُ الإحكام قَوِيّةُ الارتباط. والْوُثْقَى مؤنث أوثق.

﴿لا انْفِصَامَ لَها﴾: أي: لَا انْقِطَاعَ لَهَا، ولاَ انْكِسَار فيها. والانْفِصَامُ هو الانقطاع أو الانْكِسَار. والفَصْمُ هو الكسر من غير بينونة.

ونَفْيُ الانفصام الذي هو الكسر من غير أن يبين المكسور عن أصله أبْلَغُ من نفي الانقطاع.

في هذين النصين من القرآن الكريم تمثيلٌ لكلٍّ من الإيمان الذي أمر الله به، والإسلام إلى الله تعالى؛ بالْعُرْوةِ الْوُثْقى.

إنَّ النجاة والسَّعادَة لا يَتَحقَّقان إلَّا برضى الله عزَّ وجلّ، وَرضَىٰ الله إنَّما يكون بالإيمان بأنَّه لا إلَه إلَّا هو، وبالإيمان بِمَا أَمَر بالإيمان به، وبِالْكُفْرِ بالطاغوت. وبالإسلام لله تعالى.

فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد حقَّق لِنَفْسِه شرط النجاة، ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو مُحْسِنٌ فقد حقَّق لنفسه شرط السعادة.

ومن بديع التمثيل أنَّ الله تعالى قد مثَّلَ القرآن بالحبل المدلَّى منه لعباده، وأَمَرَهُمْ بالاعتصام به، وهو ما جاء في قوله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقد جاء في بيان الرسول ﷺ: أَنْ القرآن هو حبلُ الله المتين. فتأويل الحبل هنا بالقرآن أوجه وجوه التأويل والله أعلم.

وحبل الله المتين هذا فيه عُروتان، كلٌّ منهما عروةٌ وثقى:

الأولى: عُرْوَةُ الإيمان كما أمر الله، فمن تمسك بها نجا.

الثانية: عروةُ الإسلام إلى الله تعالى، فمن تمسك بها نال السعادة العظمى. فتكاملت الصورة التمثيلية: حَبْلٌ مَمْدُودٌ من الله عزَّ وجلّ، لَهُ عروتان وثيقتان عروة

الإيمان وعروة الإسلام، فمن تمسَّك بعروة الإيمان نجا، ومن تمسَّكَ معها بعروة الإسلام نال السعادة العظمى.

ويستطيع الذهن أن يُتابِع تَكْمِيلَ لوازِم هذه الصورة التمثيلية، فمن تمسك بِعُرْوة الإيمان من حبل الله جذبهُ اللَّهُ إلى النجاة وكان سعيداً، ومن تمسَّك بعروتَيْ حبل الله الإيمان والإسلام جذبه الله إلى السعادة الخالدة العظمى.

* * *

التطبيق الثامن عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾: أصل الْخَبْطِ الضَّرْبُ الشديد. والخَبْطُ ضَربُ البعيرِ الشيءَ بخفٍّ يده. والخَبْطُ الوطءُ الشديد على الأرض. وقيل: الخبطُ كلُّ سيرٍ على غير هدى. ويقولون: خَبَطَه الشيطان وتخَبَّطَه إذا مسَّه بأذى وأفسده. والخُبَاطُ داءٌ كالجنون وليس بالجنون، ويُطلق على الصَّرْع.

﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾: أيْ: يتوطؤه فيصْرَعُه. والمسُّ: الجنون.
(عن لسان العرب)

فريقٌ من الناس رفضُوا حُكْمَ الله في تحريم الرِّبا، واعْتَرضُوا عليه بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، مع أنَّ الحقيقة تثبت أنَّ البيع ليس مِثْلَ الرِّبا، فالربا ظلمٌ واستغلالٌ بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي بالْقَرْض الحسن، فكيف يكون البيعُ مثلَ الربا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؟!﴾.

إنَّ هؤلاء الـذين رفَضُوا حُكْمَ الله في تحـريم الربـا، فكَفَرُوا بهـذا الـرفض، سَيُعَاقَبُون عند الله عزَّ وجلّ على أكْلِهِمُ الرِّبا عقاباً فوق عقـاب الكفر الـذي يجعلهم من أصحاب النار هم فيها خالدون.

وهذا العقابُ الخاص الذي يُنَاسِبُ حالَهم وهم يأكلُون الرِّبـا إذ يسلُبُ الإثراءُ بِغَيْـرِ حَقٍّ عاطِفَتَهُم الإنسـانية. ويجعـلُ أفكارَهُم ونفـوسَهُمْ مضطربـةً دائمةَ التـطلُّعِ لمضـاعفة رؤوس أمـوالهم من جَهْد الآخـرين وشَقائهم واستغـلال ضَرُوراتهم، قـد ضَرَب الله له مثلاً بصُورَة المجنونِ ذي الحركات المضطربـة في جنون ثـائر، يمْشِي ويتعثَّـر، ويصْـطَدم بـالأشيـاء، فيَخْبِـطُه جـدارٌ من ذات اليمين، ثمَّ جـدارٌ من ذات الشمـال، ثم شجرةٌ، أو صخـرةٌ، أو حيـوانٌ، أو يسقُطُ في حُفْـرة، أو يَتَعَثَّـر فيَتَقَلَّب علىٰ دَرك، أو يَنْـزَلِقُ إلى هاويـة، فتأتيـه الْخَبـطَاتُ من كـلِّ جـانب، وهـو لا يَـرَىٰ الشَّخْصَ المسؤول عن الضربات التي تَتَهـاوَىٰ عليه من كـلِّ جهة، فكـأنَّما يتخبَّـطه شيطانٌ خبيث عَدِيمُ الرَّحْمَةِ، خَفِيٌّ لا تَرَاهُ أعين الناس.

وكـانَ العـربُ يَتَصَـوَّرون أنَّ الـذي بِـه مسٌّ (أي: جنـون) إذَا ثَـارَ جُنُـونُـه واضطربت حَركاته وأخَـذَ يَتَخبَّطُ في الأشياء، فـإنَّما يَتَخَبَّـطُه الشيطان، ويَـظُنُّونَ أنَّ جِنِّياً شَيْطاناً قد تَسَلَّط عليه هذا التسلُّطَ الخبيث.

هذه الصورة التي رَسَمَتْ لنا هذا اللَّون من العـذاب، قد ضَـرَب الله بها مثـلاً لعَذَابِ الَّذين يأكُلُون الرِّبا فلا يُقْلِعُون عنه، ولا يَتُوبُونَ إلىٰ بَـارِئِهم منه، ويـرَوْنَ مع ذلك أنَّهـم لا يَفْعَلُون شيئاً مُنْكَراً، ويَعْتَرِضُون على حُكْمِ الله ويَرْفُضُونه.

والصورةُ في هذا المثـل صورةٌ منتـزَعةٌ من الـواقع وخَيَـالِ النَّاسِ معـاً، فهي مزيج منهما.

* * *

التطبيق التاسع عشر

قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

فريقٌ من المؤمنين خرجوا مع الرسول ﷺ يَوْمَ بدرٍ وهُمْ كارِهُون لهذا الخروج، لأنّهم لا يُريدون قتالَ قُرَيْش والتعرُّض لِنِقْمَتِها.

وقد وعَدَ الله رسُولَه والمؤمنين إحْدَىٰ الطائفتين: عيرَ قريشٍ وما في العير من أموالها، والنَّصْرَ على نفيرِ قريشٍ الذين خَرَجُوا بأسلحتهم ومُؤَنهم لحماية العير. والله قَضَىٰ بحكمته الثانيةَ، ليُحِقَّ الحقَّ بكلماته، والمؤمنون كانُوا يوَدُّون الأولى، لما فيها من حيازة الغنائم دُونَ قتال كبير.

ولمّا نَجَتِ العيرُ ولم يَعُدْ بإمكان المسلمين اللُّحوق بها تبيَّن لهم أنَّ وعد الله سيتَحقَّق بالنصر على النفير لا بالظفر بالعير.

ومع أنَّ هذا الأمْرَ قد تبيَّن لهم وهم مؤمنون لا يشكُّون بوعد الله أخذ فريقٌ منهم يُجَادِلُون الرسول في هذا الحقّ، تأثُّراً بالظَّواهرِ السببيَّة، فالمشركون يَزِيدُونَ على ثلاثة أضعافِ المؤمنين، ومَعَهُم الأسْلِحَةُ الكَافية والمُؤَنُ الكثيرة، والمؤمنونَ قِلَّة أَذِلَّةٌ لَمْ يُعِدُّوا للقتال عُدَّته، وغَفلوا عن حقيقة يؤمنون بها وهي أنَّ الله عزَّ وجلّ إذا قَضَىٰ أمراً حقَّقه بقدرته ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

ولمّا تقرَّر أَمْرُ القتال بعد استشارة الرسول ﷺ لأصحابه، وأبدى كبارُهُم وزعماؤهم استعدادَهُمْ لما يُرِيد الرسولُ منهم، وجَدَ الفريقُ الْكَارِهُ منهم أنفسَهُم أمام الأمر الواقع، فأخذوا يَسْتَعِدُّون لدخول معركة القتال ولَكِنْ بخوف شديد.

وقد ضرب الله مثلاً لِحَالَةِ هؤلاء النفسيَّة يومئذٍ بالْحالَةِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونوا عليها لو أنَّهم كانوا يُسَاقون إلى قَتْلٍ مُحقَّق، على يَدِ جَلَّادٍ حَكَمَ عليهم بالموت، وهم ينظرون مَشْهَدَ أَعْمَال الْقَتْلِ التي تَتَساقَطُ فيه الرؤوس.

ففي هذا المثَلِ تمثيلُ حالةٍ نفسيَّة قائمة مجهولَةِ الكيفيَّة، بحالةٍ نفسيَّة أخرى لا يَجْهَلُ المخاطبون كيفيتها، أو باستطاعتهم تَصَوُّرُ كيفيَّتِها ومِقْدَارِ الذُّعْرِ فيها، ومالَهَا من آثارٍ في الْوُجُوهِ وحَرَكَاتِ الجسم.

* * *

التطبيق العشرون

قال الله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾: أي: المثبِّطين. وهم قومٌ من المنافقين كَانُوا يُثَبِّطُون المؤمنين عن نصرة رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، ويقولون لإِخْوَانهم: تعالَوْا إلينا واتْرُكُوا مُواجَهة الأحزابِ من المشركين المحَاصِرين وراء الخندق.

﴿هَلُمَّ إلينا﴾: أي: تعالوا إلينا. هَلُمَّ: في لغة أهل الحجاز يُخَاطَبُ بها على الإفراد: المفرد والمثنى والجمع.

﴿سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: أي: أسمعوكم ما تكرهون من القول مع صياح ورفع صوت، وآذوكم في الكلام بألْسنة سَلِيطةٍ جارحة. يقال: سُيوفٌ حِدَاد، أي ماضية لرقة شفراتها وصلابة حديدها. ويقال: ألسنة حِدَادٌ، على تشبيه الألسنة الجارحة للمشاعر بالسُّيوف الجارحة للأبدان.

وأصل السَّلْقِ شِدَّةُ الصَّوْتِ.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ـ أشِحَّةً عَلَىٰ الْخَيْرِ﴾: أي: أشِحَّةً بأموالهم عليكم، وأَشِحَّةً

بأموالهم على وجوه الخير. الشُّحُّ: أشدّ البخل، يقال لغةً: شحَّ بالشيء، وعلى الشيء بمعنى بَخِلَ به وحَرِصَ عليه.

إنَّهُمْ منافقون ليسوا بمؤمنين، فتظاهُرُهُمْ بالإِسلام تظاهرٌ بما لا يعتقدون، وتظاهُرُهُمْ بالولاء للمؤمنين تظاهُرٌ يخالِفُ مَا يُضمِرُون.

والبذْلُ الصَّادقُ إنَّما يَكُونُ بدافعٍ دَاخِلِيٍّ، والمنافقون لمَّا كانَ وَلاَؤُهُمْ للمؤمنين ولاءً كَاذِباً، ولا يُعَبِّرُ عن دَافِعٍ دَاخِليٍّ فيهم فَمِنَ الطَّبِعِيِّ أنْ يَكُونُوا أَشِحَّةً على المؤمنين. ولما كان إسلامُهُم إسْلاماً ظاهرياً يخالِفُ ما في قلوبهم من كُفْرٍ، فمن الطبعيّ أن يكونوا أشحةً على الخير، لأنَّ البذل فيما يأمر الإِسْلام بالبذل فيه هو بذل في الخير.

﴿فأَحْبَطَ الله أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيراً﴾: إحباط العمل إبطاله، وإيقافه عن تحقيق أثره.

لقد عَمِل المنافقون في غزوة الأَحْزَابِ أَعْمَالاً مُخْتَلِفَةً فيها تثبيطٌ للمؤمنين وخذْلٌ وتَهَرُّب، ولكِنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أَحبطَ أَعْمَالَهُمْ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

وقد وصف الله الحالَةَ النفسيَّة للمنافقين عِنْد الخوف الذي يتَعَرَّضُ المؤمنون له بقوله:

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهم كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

إنَّهم بحسَبِ ما يُخْفُون في صدورهم لا مصلحة لهم في قتال المشركين، والتعرُّضِ للمخاوف مع المؤمنين، وبحسَبِ ما يُظْهِرُون للمؤمنين من إسلام وولاء مُضطَّرون أَنْ يَتَظَاهَرُوا بِمُوافَقَةِ المسلمينَ عَلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، فَيَقَعُونَ في حالةِ التناقُضِ بين ما يُريدون أن يتظاهروا به، وما يُريدون أن يحقِّقوه فعلاً بأعمالهم ذات الآثار الحقيقية، وعِنْدَ الخوفِ تَشْتَدُّ حالةُ التناقض هذه، لأنَّهم غيرُ مُسْتَعِدِّين مطلقاً

أن يُضَحُّوا بأنفسهم في أمرٍ لا يُؤْمِنُون به، ولكنَّهم مع ذلك مضطَرُّون أن لا يَكْشِفُوا ما في أنفسهم من كُفْرٍ، ويُلِحُّ عليهم الخوفُ فَيَنْظُرُون إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين ولكِنْ أعيُنُهُمْ تَدُورُ من أَثَرِ اضطراب نُفُوسِهِمْ من شِدَّة الخوف. وضرَبَ الله مثلاً لِحَالَتِهم هذه بحالة الذي يُغْشَىٰ عليه من الموت فتَدُورُ عيناه. أي: إنَّ الذعْرَ يَكادُ يُوصِلُهم إلى حالة تشبه حالةَ مَنْ أخذ الموت يَغْشَاه.

* * *

التطبيق الحادي والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

في هذا النصّ القرآنيّ تمثيلُ دُعَاءِ الكافرين الذين يدعون من دون الله ويَرجُون من دُعائهم خيراً لهم، بمن يبسُط كفَّيه من بعيد إلى الماء ليبلغ فاه، ثمّ لا يستخدم وسيلةً صحيحةً ينقل بها الماءَ إلىٰ فَمِه، فهَلْ ينفعه عَمَلُه شيئاً؟

كذلك الذين يدعونَ مِنْ دُونِ الله لَا يَنْفَعُهم دُعاؤهم شيئاً.

تحليل المثل:

١ ـ يلاحظ في هذا التمثيل أنَّه من قبيل التمثيل البسيط، فالممثَّل بِه: إنسانٌ باسِطُ كفَّيه إلى الماء عن بُعْدٍ ليبلغ فاه، دون أن يتَّخذ الوسائل الصحيحة التي تُوصِلُ الماءَ إلى فيه.

وقد يقال: هو من التَّمثِيل المركَّبِ إذا جزأْنَا العناصر، فجعلنا وُقُوفَ الإنسانَ بعيداً عن الماء جزءاً من الصورة، وبَسْطَ يدَيْه جزءاً آخر، والماءَ جزءاً ثالثاً، ورغبةَ هذا الإنسان في أن يبلُغَ الماءُ إلى فِيهِ جزءاً رابعاً.

وعلى هذا يُمْكِنُ إجراءُ التقابل الجزئي بين عَناصِر المَثَلِ وعناصِرِ الممثَّلِ

لَهُ. فدُعَاء الداعي الذي يدْعُو منْ دُون الله كَبَسْطِ الكفَّيْن لطالب الماء، وما يرجوهُ من أوثانه كالماء الذي يطلُبُه الظامىءُ باسط كفَّيه، وحاجتُه النفسية كحاجة الظامىء، وعدَمُ تحقُّق المطلوب للداعي كعَدَمِ تحقُّقِ الْوُصُول إلى الماء بالنسبة إلى بَاسِط كفَّيه إلى الماء عن بُعْدٍ.

٢ ــ وهذا التمثيلُ هو من قَبِيل تمثيل مُدْرَكٍ بالحسِ الظاهر ومُدْرَكٍ فكْرِيّ ووجداني، بمُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر ومُدْرَك وِجْداني، فهو من قبيل الصورة التمثيلية المختلطة.

٣ ــ والصورةُ التمثيلية في هذا المثل صورةٌ منتزعةٌ من الخيال، إذْ لَا نَجِدُ إنساناً سَوِيّاً أو غير سوي يقف عن بُعْدٍ عن الماء ويَبْسُط كفَّيه إليه ليبلغ فاه.

٤ ــ والغرضُ من هذا المثل ــ مع تَقْرِيب صُورَة الممثَّلِ لَهُ إلى ذهن المخاطب ــ التَّنْفِيرُ مِنْ دُعاءِ غيرِ الله، والإقناعُ بلَفْتِ النَّظَر إلى الحقيقة عن طريق صُورَةٍ مُشَابهة.

٥ ــ ومن الواضح في هذا المثل دقَّةُ التَّصْوِير، مع إبْرازِ العناصِر المهمَّةِ من الصورة التمثيلية. وصِدْقُ المماثلة بين المثَلِ والممثَّلِ له.

٦ ــ والتنويع في عرض المثل، فقد جاء هنا عقب استثناء يُشْعِرُ في مقدمته بحصول شيء من الاستجابة فإذا بالمثل يؤكّدُ في مَضْمُونه عدَمَ حُصُول أيّ مقدارٍ من الاستجابة.

٧ ــ ودقَّةُ التصوير تظهر لنا حينما نتابع الصورة التمثيلية، فنشاهد في لوحتها إنساناً مُنْدَلِعَ اللِّسان من شِدَّة الظَّمأ، تبدُو عليه علَامات الْبَلَاهة، واقفاً على شفا بئر فيها ماء، باسطاً كفَّيْه في اتجاه الماء، يَدْعُوه ويَرْجُوه أن يأتي إلى فمه ليشرب منه ويُروِيَ ظمأه، ويظلُّ على هذه الحال دون أن يتخذ الوسائل التي تنفعه، فلا الماءُ بالغٌ إلى فمه، ولا هو عَائِدٌ إلى رشده.

هـذه اللوّحة التمثيليـة تصوّر بـلاهة الـرجل، وخيبـة مسعاه، وتعـريضَ نفسـه للهلاك، وهو يظنُّ أنَّه يَفْعَلُ شيئاً لنَجَاتِه، أو لتحقيق مطالبه.

وكذلك حـال الذين يـدعونَ من دُونِ الله، إنهم يَـرجُون مـطالِبَ حَيَاتِهم ممّـا اتَّخذوه شُركاءَ لله، أو يرجُونَ نجاتَهُم مِنْهم، وهم لا يَجْلُبُون لَهُمْ نَفْعاً، ولا يَـدْفعُون عنهم ضُرّاً، فيقفون لشركائهم متوسّلين داعين، ولا يتّخذون الوسائـل الحقيقية التي تَنْفَعُهم، فتنتهي قصةُ حياتهم بالخيبة، ويُثْبِتُون على أنفسهم أنَّهم كانـوا بُلْهاً، وأنَّهم خَسِروا أنفسَهم بحماقاتهم، كما فعـل ذلك الأبله الـظامىء إذْ بَسَطَ كفَّيه إلى المـاء داعياً ليبلُغ فاه.

٨ ـ ولا يخفى علينـا أنّ بعْضَ مـا طُــوِي في اللَّفظ من المثـل من السهــل استكماله، إذ يستدعيه التصوّر الذكي.

٩ ـ ولمّــا انتهى عـرْضُ لــوحـةِ المثــل طُـويتْ واستَمَــرَّ النصّ يبني على ما يستدعيه الممثّل له، فقال الله تعالى:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَل﴾.

وهذا كما عرفنا من خصائص الأمثال القرآنية، إذْ قد تُعْرَضُ صورةُ المثل، ثم تُطْوَىٰ، ويستمرّ النصّ بانياً القضايا علىٰ مـا كان قبـلَ المثل، أو بـانياً القضـايا على الممثّلِ له.

التطبيق الثاني والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: أي: على طَرَفٍ، حرفُ كلِّ شيءٍ طَرَفُه.

إنَّ عبادةَ الله ذاتُ مستويـات بعضها أرقىٰ من بعض، فبعضُ النَّـاسِ يعبُدُ الله من مستوىٰ مِحْوَرِ المحبَّـة. وبعضهم يعبُد الله من مُسْتَـوى مِحْوَر التعـظيم والإجلال والانتمـاء إليه بـالعبوديـة، وبعضُهُم يعبُـد الله من مُسْتَـوى مِحْـوَرِ الْحَمْـدِ والشُّكـر. وبعضُهم يعبـدُ الله من مستوى محـور الطَّمَـعِ والْخَوْف، ومَنْ عبـد الله من مستـوى أرقى هو عابد لله مِنْ كلِّ المستويات التي هي دونه، ولا عكس.

وأدنَىٰ مُسْتَوَيات العبادَة هِيَ العبادة من مُسْتَوىٰ مِحْوَرِ الطَّمع والخـوف. ولهَٰذِه الدَّرَجة الدُّنيا وَسَطٌ وطرف، أمَّا وَسَـطُها فيكـون بملاحـظة الآخرة ومـا فيها من نعيم وعذاب، وأمَّا طَـرَفُها فيكـون بملاحـظة ثَوَابِ العـاجلة وعِقابهـا فقط، ومَنْ يَعْبُد الله علىٰ هـذا الطرف لا يَثْبُتُ للْفِتْنَـة، سواءٌ أكـانَتْ الفتنةُ مِنْ قَبيـلِ الْمُغْرِيـات الماديـة والمطامعِ الدنيويـة، أو كانت من قبيـل المصائب والآلام، وهـذا الصنف من الناس هو الصِّنف الذي ذكـره النص هنا، فهـو يَعبُد الله على طَـرَفِ المطامـعِ والمخاوفِ الدنيويَّة العاجلة فقط.

لذلك فموقِعُهُ في الدِّين موقعٌ قَلِقٌ غيْرُ مطمئنٍّ، إنْ أصَابَه بانتمائه للدِّين خيـرٌ دنيـويٌّ سواءٌ أكـان بِجَلْبِ نفعٍ لـه أو بِدَفْـع ضرّ عنـه اطمأنَّ في مـوقعه بسَبَبِ هـذا الخيـر، وإنْ أَصَابَتْـهُ فِتْنَةٌ فمَسَّـهُ ضُرٌّ وهـو في موقِعِـه أو جاءَه إغـراءٌ يفتنـه عن دينـه لِيُخْرِجه منه، ترَكَ مَوْقِعه الكائن على الطرفِ وذهبَ مُرْتَدّاً كافراً.

وحين يكْفُر بالله وَيَتْرُك عبادتَه، فسَيَجد نفْسَه أمام مطالبِ حياتـه التي ليس في استطاعته أن يجلبها لنفسه، مدفوعاً إلى عبادة أوثانٍ يدْعُوها، وهي لا تَمْلِكُ لـه ضَرّاً ولا نفعـاً، أو إلى عبادة أربـابٍ من الإنس أو الجنّ يدعُـوهَـا من دون الله، وضـرُّهـا أقرب من نفعها، فهو إذنْ كما قال الله تعالى:

﴿يدعو من دون الله ما لا يُضرُّه وما لا ينفعه ذلك هو الضـلال البعيد﴾، وهي الأوثان وأشباهها، أو هو كما قال الله تعالى:

﴿يدعو لَمَنْ ضرهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العَشِير﴾، وهم الأرباب من الإنس والجنّ.

وهكذا حصل لمن أنْكَر وجود الله، واتَّخذ من النَّاس أرباباً يُطِيعُهُم في الشرِّ، ويَخْدُمُهُم، ويُنَفِّذُ أوامرهم ونواهيهم، إنْ حَصَل على بعضِ منافعَ ماديَّة بسبب طاعته لهم أصابَهُ بلاءٌ كبير وضرٌّ كثير من قبلهم، لأنَّهُمْ أرادُوا التخلُّصَ مِنْه بعد أن استَنْفَذُوا أغْرَاضَهُمْ من خَدَمَاته، أو منْ قِبَلِ أعدائهم، لأنَّ من كان منْ جُنْدِ الأعداء كان هو من الأعداء، فيصيبُه من الانتقام مثلُ ما يُصِيبهم وأكثر.

والأرباب من الإنس أو الجنِّ هم أسوأ الإنس والجنِّ أخلاقاً، إنَّهم لا يَعْرِفُون إلَّا مصالحَ أَنْفُسِهِمْ، ومتَىٰ وقعَ عبدٌ من عِبادِهِم في البلاء تخلّوا عنه فلم يَنْصُرُوه، وإذا كان في عِشْرَتِهم أيَّام الدَّعَةِ والرَّخاء والنَّصْر استأثروا من دونه بالخيراتِ والمنافع، وربَّما ألقوا إليه فُتَات موائدهم فقط، إنَّهم كما قال الله تعالى:

﴿لبئسَ المولى ولَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

هذا ما نفهمه من جملة النصِّ، ولكنَّ الذي يعبُدُ الله على حَرْفٍ، قد جاء تصويره في صورة بديعة امتزج فيها الممثَّل له بالمُمثَّلِ به.

فالممثَّل لَهُ هو من يعبُد الله من مستوى المطامع والمخاوف الدنيوية فقط، فهو لا يَثْبُتُ أمام الفتنة، سواء أكانت من قبيل المغريات أو المصائب والآلام الدنيوية.

والممثَّلُ به من يَدْخُل مع قوم دُخُولَ طَالِبِ المغنم فقط، فهو يَجْلِسُ على طَرفِ مَنَازِلهم، وفي أواخر مواقِعِهم قَلِقاً مُسْتَوْفِزاً مُسْتَعِدّاً للهرب، فإنْ وَجَدَ معهم مغنماً استقرَّ في مَوْقِعه واطمأنَّ وأصابَ من المغنم، وإنْ وجَدَ أن مصيبة يُمْكِنُ أن تَنْزِلَ بهم فيصيبه منها شيء، أو لاحت له مغانم عند أعدائِهِمْ تَركَهُمْ وانْقَلَبَ عليهم.

ولكنَّ الصُّورَةَ لَا بُدَّ أن تكون أدقَّ من هذه الصُّورَة، إن المرتدَّ عَنْ عبادة اللَّه

مُنْتَكِسٌ على وَجْهِه، وسَاقِطٌ إلى مُنْحَدَر، فهو كمَنْ ينقلب على وجهه بعد أن يَترِكَ القومَ الذين دخَلَ في طرفِ مواقِعِهم طمعاً بالمغانم لدَيْهِم، كذلك جاء تصوير المثل.

ومن البديع في هذا المثل أنَّه استعير منه للممثل له الفقرة التالية فقط من النصّ:

﴿علَىٰ حَرْفٍ. فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأَنَّ بِهِ وإنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وما قبل هذه الفقرة وما بعدها كلامٌ يتعلق بالممثَّل له، وهو من يعبد الله على طرف من الدين، كما سبق في البيان.

وبهذا نلاحظ أن المثَلَ قد جاء مُمْتَزِجاً بالممثَّل له، وبمثابةِ جُزْءٍ من أجزائه، وهذا من روائع التنويع في ضَرْب الأمثال.

ومن دقة التصوير في هذا المثل ما نَلْمَحُه فيه من وَضْعِ الداخل في القوم الجالس على حَرْفِ منازلهم، فالصورة تُوحِي بأنَّ منازلهم على مرتفع من الأرض، وقد جلسَ هذا الداخل فيهم على حرف المرتفع، فهو على شَفَا هَاوِية. والصورةُ تُوحي بأنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ نحو القوم تماماً، بل يعطيهم طرفه، ويلتفت إليهم التفاتاً لِيَغْنَم من مغانمهم، لأنَّه عند الفتنة ينقلب إلى الهاوية على وَجْهِه، ولو كان كلُّ صَدْرِهِ ووجهه إلى القوم لكان التصوير الدقيق يستدعي أنه عند المفاجأة ينقلب على رأسه من جهة ظهره.

ولمَّا وقَعتِ الفقرةُ من المثل موقع الممثَّلِ له تماماً بَنَىٰ النَّصُّ عليها الكلام كما لو كانت عين الممثَّلِ له، فقال تعالى:

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ، ذَلِكَ هُو الْخُسْرانُ الْمُبِين﴾.

أمَّا خسرانُ الدنيا فهو خسران سعادته فيها، وخسرانُ حياته إذا حكمت عليه

الدولة الإسلامية بالردَّة، وأمَّا خسران الآخرة فيظهر فيما يَحِيق به من عذاب أليم في جهنم مأوى الظالمين. وذلك هو الخسران المبين.

ففي المثل الإبداعُ، ودقةُ التصوير، والتصويرُ الحيُّ المتحرك، وصِدْقُ المماثلة بينه وبين الممثَّل له، والإيجازُ بحذْفِ ما يمكن أن يستدعِيَه ذهْنُ الألمعي، والبناءُ على المثَلِ والحكْمُ عليه كأنَّه عينُ الممثَّل له، والإبْداع هنا يتمثل بالمزج الرائع بين المثل والممثَّل له حتى ليكاد الأمر يخفى، ولا يكشفه إلَّا التأمل الدقيق.

* * *

التطبيق الثالث والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج/٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

في هذه الآية تمثيلٌ لانْتِكاس الإنسان بشركه بالله، وسُقُوطِه السَّريع على رأْسِه، من سماء عبوديته للرَّبِّ الأعلى وشرف هذه النسبة، إلى أسفلِ سافلين، إلى مكان تمزُّقِه وسَحِيق هلاكه.

لقد خلق الله الإنسان في أَحْسَنِ تقويم، ورفَعَهُ بالتَّكْوين إلى مَرْتَبَةِ عُبُوديَّتِهِ له، وتَحَرُّره من العبودية لمن سواه، فإذا اختار الإنسانُ بإرادته أن يشرك بربه، أي: أنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ عبْداً لبَعْضِ ما خلق الله، أو لبعض من خلق، فقد أسقط نفسَه من مرتبته، وبسُقُوطه انْتكس على رأسه، فخرَّ من مرتبة السموّ، وهوى إلى سَحِيقٍ مُهْلك، ونفسُه في سقوطه تتمزَّق من كلِّ جانب، لأنه لا يجد الطمأنينة، ولا سعادة الحياة الدنيا فيما هو فيه من شرك، ثم إذا انتهت حياته ووافته منيته لقي حسابه وعذابه عند ربه.

فما جاء في المثل يحاكي محاكاة تامَّة هذا الواقع.

إنَّ من أشرك بالله مَثَلُهُ كَمَثَل مَنْ خَرَّ من السماء، فَتَخْطُفُه الطير، وهذا تصوير لحالة التمزُّق النفسي الذي يعتري المشرِكَ بربِّه، أو تَهْوِي به الريح في مكان سحيق، وتصوير للنهاية التعيسة التي ينتهي إليها المشرك. فحالة المشرك في شركه تشبه حالَته لو أنَّه خرَّ من السماء فتخطفه الطير من كلِّ جهة، ثمَّ هوت به الريح في مكان سحيق.

تحليل المثل:

١ ـ في هذا المثل تمثيلُ أمرٍ معنويّ بمُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

٢ ـ صورةُ هذا المثل صورةٌ منتزعةٌ من الواقع والخيال معاً.

٣ ـ في هذا المثل دقَّةُ التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصُّورة التمثيلية، وتَرْكِ الباقي ليستكمله ذهن المخاطب.

٤ ـ في هذا المثل التصوير المتحرك الحيّ، الذي تَبْرُزُ فيه المشاعر النفسية.

٥ ـ في هذا المثل صِدْقُ المماثلة بين المثَلِ والمُمثَّل له.

٦ ـ يبدو أن الغرض من هذا المثل تقريبُ صُورَةِ الحالةِ النَّفْسِيَّة التي يكون عليها المشركون، والتعريفُ بحقيقةِ انتكاسهم، والتنفيرُ الشَّديد من الشرك.

* * *

التطبيق الرابع والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾.

في هـذا النصّ ضَرَبَ الله مثـلاً لحالـة الذهـول التي تصيب الناس عنـد قيام السـاعة بحـالة ذهـول السُّكارى المخْمُـورين الذين طـارَ صَـوَابُهُمْ، وذَهَبَ وعيهم. ولوفرة عناصر التماثل نُزِّلَ الممثَّلُ به منزلةَ الممثَّل له.

* * *

التطبيق الخامس والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

في هاتين الآيتين يَكْشِفُ الله تَعالىٰ عَجْزَ الشُّركاء الَّذين يزعُمُ المشركونَ أنَّهم شُركَاء الله، عَنْ أن يَخْلُقوا حيَواناً مهما كـان حقيراً، وعجـزَهـم أيضاً عمَّـا دون ذلك بكثير.

ومن الأمثلة على ذلك هَذَا الذبابُ الذي يَرَوْنَه حيوانـاً حقيراً، ولا يُقِيمُـون له وزنـاً، ويتأذَّوْن منـه فيذُبّـونه، ويَقْتُلُونَـه، ويُحاوِلُـونَ إبَادَتـه، إنَّهم لنْ يستـطيعـوا أن يخْلُقُوا مِثْلَهُ مُنْفَرِدين ولا مُجْتَمعين:

﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾.

وفي هذا تَحَدٍّ شامل لكلِّ الشركاء، ومن ورائهم من يَعْبُدونَهم من دون الله.

ومن أمثلة عجـزهم عمّـا هـو دون عمليَّـة الخلق، عجـزُهُمْ عن التحكُّمِ والتصـرف بالأشيـاء الدقيقـة الصغيرة جـدّاً، التي يستطيـع الـذبـاب أن يُحِسَّ بهـا، ويقبَض عليهـا، ويَسْلُبَهُم إيَّاهـا، ولا يَسْتَطِيعـونَ هُمْ أن يُحِسُّوا بهـا، ولا أنْ يَقْبِضُوا عليهـا، ولا أن يستنقذُوهـا مِنَ الذُّبـاب، لدِقَّتِهـا وصِغَـرِهـا، وضَعْفِ أبْصَـارِهم عن

رؤيتهـا، وضَعْفِ حَواسِّهم عن إدراكهـا، وعـدمِ قُـدْرَتِهِم على التحكُّم أو التصـرف بها، فقال الله تعالى:

﴿وَإنْ يَسْلُبْهُم الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والْمَطْلُوبُ﴾.

إنَّ التحدّي بالأمور الصغيرة جدّاً يشبهُ التحدي بالأمـور الكبيرة جـداً، فرؤيـة الـذرَّة وإخضاعُهـا للتجربـة المخبريَّـة أشقّ وأعقد من الـوصول إلى القمـر ودراسـة عناصره وخريطة كُرَتِه. وإن صِنـاعة سـاعة متقنـة صغيرة الحجم بمقـدار حبَّة الـذرة أو حبةِ القمح أشقُّ وأعقـد من صناعـة ساعـة كبيرة جـدّاً تملأ ميـداناً كبيـراً لمدينـة عظيمة.

وقـد أعجبني في هذا تَنَبُّـهُ ذكَرَه الـدكتور مصـطفى محمود في بعض أحـاديثه «التليفزيونية» استناداً إلى ما توصَّلَتْ إليه الدِّراسَاتُ العلمية على الذباب، إذ ذكـر أن الذباب قد انفرد عن سائر الحيوان بأنه يُفْرِزُ الهواضم على جزئيـات طعامـه فيَهْضِمُهُ في مكانِه قبل أن يَمْتَصَّهُ بخرطومه، فهو لا يَمْتَصُّـه بخرطـومه إلَّا مُتَحـوِّلاً مهضومـاً، وبسبب ذلك فإنه متىٰ سلب شيئاً وامتصَّه فعلاً فقـد سلبه متغيـراً متحولاً، تعجـز كل وسائل العلماء مهما كانت متقدمة عن استنقاذه منه، لقد صار مهضوم طعـام ذباب، ولم يَعُدْ جزيئة مِنْ سُكَّرٍ أو دقيقٍ أو دَم أو غير ذلك مثلاً.

فالآية بهذا شاهد من شواهد الإعجاز الْعِلْمِيّ في القرآن.

وهكذا فقد تحـدَّاهم الله تعالى بـالْخَلْقِ، وضَرَبَ لَهُمْ مثَـلاً على ذلك عمليَّـة خلق الـذباب، وتحـدَّاهم بما هـو دون عملية الخلق، وضـرَبَ لهم مثلاً على ذلـك عجْزَهُمْ عن استنقاذ ما يَسْلُبهم الذباب من شيء.

فكَيْفَ يتخذ المشركون شُركاء للّه، وهي عاجزةٌ هذا العجـز الذي يتنـافى مع صفتي الرُّبوبية والألوهية؟!

إنَّ هذا الأمر مرفوضٌ بَدَاهةً في منطق التفكير السليم والعلم الصحيح.

فإطلاق المثل في هذا النصّ يراد منه ذكر نموذج لِنَـوْعٍ من الأنواع، وهـو هنا

نوع الخلق، ونَوْعُ استنقاذ الأمور الـدقيقة الصغيـرة جدّاً، والتحكم بهـا، ممَّا تقـدر على التحكُّم به حشراتٌ صغيراتٌ من خَلْقِ الله.

* * *

التطبيق السادس والعشرون

قال الله تعالى في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

في هذه الآية وصف الله فئة من المنافقين الذين كانوا في عصر الـرسول ﷺ، ومنهم عبدُ الله بن أبـيّ بْنُ سَلُول بعدَّة صفات:

الصفة الأولى: أنَّهم ذَوُو أجسامٍ مَهِيبةٍ تُعْجِبُ الناظرين، دلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله:

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾.

الصفة الثانية: أنَّهم ذَوُو ألسنة فصيحة وكلامٍ يُعْجِبُ السامعين، وقد دلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله:

﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾.

الصفة الثالثة: أنهم يجلسون في مجالس الرسول ﷺ وهو يتحـدث أو يخطب أو يتلو آيات الله، لكنهم لا يَفْقَهُون مما يقول شيئـاً، لأنَّ قلوبهم وأسْمَاعهم منصـرفةٌ عن أقواله، فَهُمْ غير مؤمنين به حتى يحفلوا بما يقول، وحتى يوجهوا له انتباههم.

وقد دلَّ على هذه الصفة من صفاتهم مـا ضربـه الله من مثلٍ لهم، إذ شبههم بالخشب المسندة على الجدر. فقال تعالى:

﴿كأنَّهُمْ خشبٌ مُسَنَّدَة﴾.

إنَّ صورتهم وهم يجلسون في مجالس الرسول ﷺ وقد أسندوا ظهورهم إلى الجدر، وتظاهروا بالوقار، وأعطوا لأنفسهم أفضل الأماكن في مجالسه، وقلُوبهم ونفُوسهم وأفكارُهم وأسْمَاعُهم منصرفةٌ كلّ الانصراف عما يقوله الرسول ويحدث به من أمورٍ تتعلق بالدين وأحكامه، هذه الصورة تُشْبِهُ صورةَ الخُشُبِ المسندة على الجدر، إنَّ الخُشُبَ ذاتُ منظرٍ وهياكل عظيمة رفيعة القامة، لكنها فَاقِدةُ الحياة، لا تَسْمَعُ ولا تُبْصِر ولا تعي شيئاً، وهم ذوو منظرٍ مُعْجِبٍ وهياكل عظيمة رفيعة القامة بين الناس، لكنهم أجسادٌ فقط، خالية من روح الإيمان، وقلوبُهُم وحواسُّهم لا تعي شيئاً مما يُوجَّه لها من بيان ومواعظ وإرشادات.

ويلاحظ في هذا المثل دقَّةُ التصوير وحَلاوَتُه، ويظْهَرُ من الأغراض فيه التوبيخ والتهكم.

الصفة الرابعة: أنَّهُم جبناء، يخافون أن تنكشف خيانتهم، ويظْهَرَ نفاقهم، لذلك فهم كثيرو الْحَذَرِ من كلِّ شيء، فما يسمَعُونَ صيحةَ إنذار أو تهديدٍ إلَّا ويَحْسَبُونها عليهم. وقد دَلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى:

﴿يحسبون كلَّ صيحة عليهم﴾.

الصفة الخامسة: أنَّهُمْ شَدِيدُو العداوة للمسلمين، وأن خطرهم على المسلمين أشدُّ من خطر الكافرين الصرحاء، لأنَّهُم مخالطون مداخلون، لا يَعْلَمُ عداوتهم كثيرٌ من المسلمين. وقد دلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى:

﴿هم العدوّ فاحذرهم﴾.

أي: هم العدوُّ البالغُ العداوة، الشديد الخطورة، فيجب الحذر الشديد منهم.

* * *

التطبيق السابع والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

في هذه الآية نَهىٰ اللَّهُ الَّذين آمنوا عن طائفة من القبائح الاجتماعية:

الأولى: اتِّهَامُ الناس بالسيئات ومنكرات الأفعال والأقوال والنيّات وأفعال القلوب وحركات النفوس، استناداً إلى الظُّنُون الضَّعِيفَةِ التي لم يأذن الله ببناء أحكامٍ عليها.

وفي النهي عن هذه القبيحةِ الاجتماعية أَمَرَ الله عزَّ وجلَّ باجتناب مُسَبِّبَاتها، وهي أنواع الظنون الضعيفة، فقال الله تعالى:

﴿اجتنبوا كثيراً من الظَّن إنَّ بعض الظنِّ إثم﴾.

وذلك لأنَّ اتِّباع الظَّن الذي لا يَصْلُحُ للحُكْم والإدانة ولا لتحصيل المعارف، يجعلُ الإنسانَ دائمَ السَّبْح في الظنون، سريعَ إصدار الأحكام بمجرد الظنِّ، وهذا يُوقِعُه في كثير من الخطأ، وهذا الخطأ قد يكون أمراً هيناً لا إثم فيه، كالأخطاء التي ليس فيها ظُلْمٌ لأحد، ولا فَهْمٌ فاسد في الدين، ولا فهم يفضي إلى ضرر بصاحبه، ولكنْ قد يَكُونُ أمراً ليس هيناً نظراً إلى ما فيه أو يفضي إليه من الوقوع في الإثم الَّذِي يؤاخذ الله عليه.

وهنا تظهر لنا الدِّقَّةُ البالغة في قول الله تعالى:

﴿إن بعض الظن إثم﴾.

بعد قوله:

﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾.

على أنَّ الأمر باجتناب كثير من الظن يفيد أن من الظن ما لم يأمر الله باجتنابه، كالظنون التي تُبْنَى عليها شرعاً أحكام قضائية، وتُسْتَنْبَطُ بها أحكام شرعية ومفاهيمُ دينية، فحكم القاضي بشاهدين صحيحي الشهادة حُكْمٌ بالظن لا باليقين، لاحتمال خطئهما ونسيانهما، واحتمالِ فسقهما مع ظهور عدالتهما. والاستنباطاتُ الظنيَّةُ الاجتهادية من قِبَلِ ذوي أهلية الاجتهاد استنباطاتٌ مقبولةٌ شرعاً، ومن اجتهد فأصاب كان له أجران، ومن اجتهد فأخطأ كان له أجر واحد.

الثانية: التجسُّسُ على المسلمين، لاكتشاف عوراتهم التي يتوارون بها، ويخفونها عن أعين الناس، إن كانت لهم عورات. وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى:

﴿ولا تجسَّسوا﴾.

الثالثة: الغيبة، وهي ذكر المؤمن أخاه بما يكره، وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾.

وللتنفير الشديد من هذه الخصلة القبيحة ضرب الله مثلاً لمن يغتاب أخاه المؤمن بمن يأكل لحم أخيه ميتاً.

ونظراً إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثَّلِ به والممثَّلِ لَهُ نُزِّل الممثَّلُ به منزلة الممثَّلِ لَهُ فكأنه هو، إذن فحكمه مِثْلُ حُكْمِه.

ومن الإبداع في عرْضِ المثل الإتيانُ به على سبيل الاستفهام التقريري جزءاً من الممثَّل له، وهو من يغتاب أخاه، ولم يأت فيه لفظٌ يدلّ على التشبيه أو التمثيل، فقال الله تعالى:

﴿أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ فكرهتموه﴾.

ويبدو في هذا التمثيل أنه من قبيل التَّمْثِيل المركب: فَعِرْضُ المؤمن مثْلُ لحم جسده. وغَيْبَتُه عن مجلس من يتحدث عنه مثْلُ جسَدِه الذي لا حياة فيه، إذ ليس

لديه قدرة الدفاع عن نفسه في كلتا الصورتين. وذِكْرُهُ بما يَكْرَه مِثْلُ أكل لحمه وهو ميِّت.

والغرض من المثل التنفير، وتقبيحُ صُورَة الغيبة في نفوس المؤمنين.

وهذا المثل هو من قَبيلِ تمثيلِ أمرٍ حسِّيّ كلامي ذي أثر معنوي في أعراض الناس بأمرٍ حسِّيّ ذي أثر حسي في أجساد الناس، فهو من قبيل تمثيل أمرٍ حسي ومعنوي بصورة حسية.

وفي المثل هذا من الخصائص: دقَّةُ التَّصْوِير، والتَّصْوِيرُ الْحَيُّ المتحرك، وصِدْقُ المماثلة، والتنويعُ الإبداعي في عرض المثل.

أمّا قوله تعالى بعد عرض المثل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كرهتم أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً، فيبدو لي أنه معطوف على محذوف، ويمكن أن نقدره بنحو قولنا: إنكم عرفتم قبح أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، أي: لذلك فأنتم لا تفعلونه بطبعكم؛ إذن فلا تفعلوا ما هو مثله وهو أن يغتاب بعضكم بعضاً.

وإشارة إلى أنَّ الغِيبَةَ إثمٌ يعاقِبُ الله عليه، قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿واتقوا الله﴾، وتحريضاً على التوبة من هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى: ﴿إنَّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

* * *

التطبيق الثامن والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾: أي: بنيان مُتَلَاصِقٌ، مُحْكَمٌ، مجموع بعضه إلى بعض، وَيشُدُّ بعضه بعضاً.

في هذه الآية ضَرَبَ اللَّهُ البُنْيانَ المرصُوصَ مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه

المقاتلون في سبيله، في تماسكهم وتقوية بعضهم بعضاً، ومساندة بعضهم لبعض، واجتماعهم في وحدة جماعية ذات هيكل متكامل.

ويلاحظ في هذا المثل دِقَّةُ التَّصْوِيرِ، وصِـدْقُ المماثلة، وهـو من قبيل تمثيـل أمر معنوي وحسِّي، بشيءٍ حسِّي.

• • •

الفَصل الثاني

تَطبيقَاتٌ عَامّةٌ عَلى أَمْثالٍ تَكرّرَ في القُرآنِ وُرودُها حَتّى صارَتْ بمَثابةِ حقائِقَ في مُصْطَلحَاتِهِ

وفيه ثلاث مقولات

المقولة الأولى : حول الظُّلمات والنور.

المقولة الثانية : حول البصر والعمى والغشاوة، والسَّمع والصَّمَم والْوَقْر، والحياة والموت، ونحو ذلك.

المقولة الثالثة : حول البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة، ونحو ذلك.

المَقُولَةُ الأُولى
حَوْلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ

مـقـدمـة:

١ ـ ممّا تكرَّر في القرآن المجيد استعمالُ الظلمات مثلاً للكفر، ومثلاً للجهل، والاستغناء بالْمَثل في ذلك عن الْمُمَثَّل له.

وفي المقابل تكرَّر في القرآن استعمالُ لفظ النّور مثلاً للعلم، ومثلاً للإيمان، والاستغناءُ بالْمَثَلِ في ذلك عن الْمُمَثَّلِ له.

٢ ـ وسمّى الله عزَّ وجلَّ الكُتبَ المنزَّلةَ من لدنه نوراً، وسمَّىٰ ما أَنْزَلَ على رسُلِهِ من حقٍّ نوراً. وسمَّىٰ الحقَّ والإيمانَ نوراً.

٣ ـ ووصف الله رسُولَه محمَّداً بأنَّه سراجٌ منير، أي: كالسراج يبعث ضياءً يُنَوِّر الله به قلوبَ المؤمنين، الذين تأثَّروا به وانتفعوا منه، وفي مقدمتهم خيرةُ أصحابه، فينبعث منهم نورٌ منعكسٌ يكونون به هادين للناس في أقوالهم، وفي أعمالهم.

٤ ـ ووصف الله ما أنزل على رُسُله من كتب بأنها كتبٌ منيرة، أي: هي كتب تبعث ضياءً ينتفع منه المؤمنون المتدبِّرون، وينوِّر الله به قلوبهم، فينبعث منهم نور علمٍ وإيمانٍ وعمل صالح، فيكونون بذلك هادين للناس، كالقمر الذي يعكس ضياءَ الشمس نوراً.

* * *

التحليل:

إنَّ الظلمات هي أكثر شيءٍ في الحسيّات يُشْبه الجهلَ، ويشبه الكفرَ بالحقّ، فجعلها الله عزَّ وجلَّ مثلاً للجهل، ومثلاً للكفر بالحقِّ.

وإنَّ النُّور هو أكثر شيءٍ في الحسِّيّات يُشْبه الْعِلْمَ، ويُشْبهُ الْإيمانَ بالحقِّ، فجعل الله عزَّ وجلَّ النّور مثلاً للعلْم الحقِّ، ومثلاً للإيمان بالحقِّ.

ولمّا كانت الكتُبُ الرَّبّانيَّة مشتملةً علىٰ الْعِلْم الحقِّ الذي يهدي مَنْ عَلِمه وعَمِل به في حياته إلى سبيل سعَادتِه العاجلة والآجلة، كانت حَرِيَّةً بأنْ تُسمَّىٰ نوراً، وبأنْ توصفَ بأنَّها مُنِيرة، أي: باعثةً للنور، وتجعلُ من يَعْلَمُ ما فيها ويَعْمَل به يبعث نوراً بأقواله وأعماله، يكونُ سبباً لهداية طالبي الهداية من الناس، إذْ يكون إماماً للمتقين، وقُدْوةً حسنة.

ولمّا كان الرسولُ ﷺ قد وهبه الله من الصفات وأنْزَلَ عليه من الوحي ما جعله منبعاً ضوئيّاً معنويّاً، كالشمس في الحسيّات، وكان من صفاته أن يَبْعث ضياءً يُنَوّر مَنِ اقتبسَ منه، فينبعثُ منه بالانعكاس نورٌ يهدي المستفيدين، وصَفَه الله بأنه سراجٌ منير، أي: هو سراج يبعث ضياءً، كالشمس، وهذا الضياء يجعَلُ من اقتبس منه ذا نورٍ يهدي، فيكون إماماً للمتقين، وقدوةً حسنة في أقواله وفي أعماله، وكذلك كان أصحاب رسول الله.

* * *

فإذا أُطْلِقَتْ كَلِمةُ النُّور في القرآن بمعنى حقائق الدين وشرائعه وأحكامه ووصاياه، أسرع ذهن المخاطب إلى فهم المراد منها، لِتَكَرُّرِ هذا الإطلاق فيه.

وَإذا أُطلقت كلمة الظُّلُمات فيه بمعنى الكفر، أو الجهل بحقائق الدِّين وشرائعه وأحكامه ووصاياه، وبمعنى اتِّباع غير هُداها، أَسْرَعَ ذِهْنُ المخاطب إلى فهم المراد منها، لتكرُّرِ هذا الإطلاق فيه.

وجاءت الأحكام السابقة واللاَّحقةُ ملائمةً لِلْمُمَثَّلِ له، مع استخدام بعض الألفاظ الملائمة للَّفْظ الممثَّل بِهِ.

وأصل التمثيل الوارد في النصوص المشتملة على الصور التي سبق بيانُها هو من قبيل تمثيلِ أمرٍ معنويٍّ بأمرٍ مُدْرَكٍ بالحسِّ الظَّاهر، وهو من التمثيل البسيط، والصورةُ التمثيليَّةُ فيه منتزعَةٌ من الواقع.

ويُلاَحَظُ في التمثيل الوارد في النصوص التي يأتي استعراضها ما يلي:

١ ـ دقَّة التصوير.

٢ ـ صدق المماثلة بين المثل وَالْمُمَثَّل لَهُ.

٣ ـ التنويع في عرض المثل بتغيير الأساليب في النصوص.

٤ ـ البناء على الْمَثَلِ والحكْمُ عليه كأنَّه عيْنُ الممثَّلِ له.

واستعراض النصوص القرآنية فيما يلي مع قدرٍ ما من الشرح والتحليل.

* * *

النَّصّ الأوَّل

في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ بشأن عذابه ورحمته حكاية لما خاطب به موسى عليه السلام، بعد أن دعا موسى ربَّه لنفسه ولقومه بني إسرائيل بالمغفرة والرَّحمة، وبعطاءٍ من خَيْرَيِ الدنيا والآخرة، ورفع عَذَابِ الرجفة عنهم:

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ . . . ﴿١٥٦﴾﴾.

بعد هذا خاطب الله في القرآن أهل الكتاب المعاصرين للبعثة المحمَّدية فمن يأتي بعدهم منهم، بشأن رحمته تعالى، وبشأن من سيكتُبُها لهم منهم، فقال تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

نلاحظُ في هذا النَّصّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سمَّىٰ مَا أنزل على رسُولِه من القرآن نوراً.

وذلك لأنه بالنسبة إلى النفوس والقلوب والأفكار، كالنور للأبصار، إذْ يَكْشِفُ لها المرئيّات بمقتضىٰ سُنَّة اللَّهِ في كونه، وكالنور الذي يقع على الأشياء فيمدّها

بعاملٍ من عوامل فائدتها وخيرِها وصلاحها، وقد عرفنا من العلوم التجريبيَّة أنَّ النور أحد عوامل نماء النبات، وأحد عوامل الصلاح للأحياء، كما له تأثيراتٌ كثيرة مفيدة في الكون.

ونظراً إلى وفرة عناصر التماثل بين الْمَثَلِ هنا والممثَّل له جاء التعبير بالْمَثَلِ كأنَّه عين الممثَّل له، وجاء في النصّ الاستغناء بذكر المثل عن ذكر الممثَّل له، والاكتفاءُ لمعرفة المراد بدلالة القرائن.

* * *

بعد هذا البيان المتعلِّق بموضوع الكتاب من النصّ، نتابع فقراته بشيءٍ من التدبُّر.

﴿قَالَ: عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾:

أي: قال الله عزَّ وجل لموسىٰ: هذا الذي تطلبُ مني يا موسى رفعه عن المختارين من بني إسرائيل، وهي الرجفة التي أخذتهم إذْ طلبوا منك أن يَرَوُا الله جهرةً، هو عذابٌ من عذابي الذي أصيب به من أشاء.

ويفهم بعض أهل التأويل من إطلاق المشيئة في هذا النصّ وأمثاله، أنَّها مشيئةٌ لا يُشْتَرَطُ أن تكون مبنيَّةً على قاعدة العدل في العقاب، فيقعون في المفاهيم الجبريَّة.

وأقول: لمّا كانت صفات الله متكاملة فيما بينها، ولا يطغىٰ بعضها على بعض، كان لا بُدَّ أن تكون مشيئته سبحانه حكيمةً دواماً، لا تناقض صفات عدله ورحمته وأنَّه لا يظلم أحداً شيئاً، ولو مثقال ذرَّة.

ولهذا كان علينا أن نفهم أنَّ عذابَهُ وهو عقابُه إنَّما يُنْزِلُه بمن يستحقُّه من المذنبين.

وقد جاء التنبيه على أنَّ عذابه إنَّما يقع بمشيئته للدَّلالة على أنَّه سبحانه وتعالى لا مُكْرِهَ لإرادته، وكذلك لا يفعَلُ أفعالَه بالضرورة غير الاختياريَّة، كأفعال

القوى الكونيَّة الَّتي لا حياة فيها ولا اختيار لها، وإنَّما يفعلها بالمشيئة المختارة المقرونة بحكمته سبحانه، وبسائر صفات الكمال التي هي له.

ولهذا نظائر من الواقع البشريّ ولله المثل الأعلى، فالقاضي العادل حينما يحكم بالعدل على أحد المجرمين، فإنَّه يحكُم عليه بمشيئته الحرَّةِ، غَيْرَ مَجْبُورٍ ولا مُلْجأٍ، لكنَّ مشيئته الحرَّة لا تَحْكُمُ إلاَّ بالعدل، وذلك لأنَّ صفة مشيئته مقرونة بصفة عدله، وكلاهما صفتان له لا تتناقضان ولا تتعارضان، بل تتكاملان بتواؤمٍ وتلاؤم، وليس من طبيعة صفة المشيئة الحرَّة أن تطغَىٰ على كمال صفة العدل وحُدُودِ مجالاتها.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

رحمة الله صفةٌ من صفاته، من آثارها فيض العطاء والمعونة في تحقيق رغبات وحاجات ومطالب أيّ مخلوق له شيءٌ من ذلك.

وسِعَتْ كُلَّ شيءٍ: أي: لم تضق عن شيءٍ، يقال لغة: وَسِعَ الشيءُ الشَّيْءَ، أي: لم يضِقْ عنه، والمعنى: لديه مساحة لاستيعابه.

المتبادر في فهم هذه الجملة، والذي تواطأ عليه فهم المفسرين، أنَّ رحمة الله وَسِعتْ كل شيءٍ قابلٍ بتكوينه لأن يستفيد منها، والمعنى أنَّ كلَّ قابل لعطاءات ومعونات الرحمة هو مشمولٌ برحمة الله بوجه من الوجوه، وهذا يدلُّ على أنَّ الكفرة والمجرمين مع سائر العصاة يُصِيبُهم من رحمة الله مقدارٌ ما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معاً، كشفاعة الرسول لأهل الموقف يوم القيامة حتّى يتخلصوا مما هم فيه من طول الانتظار مع الغمّ والكرب.

فالذين يُعذَّبون بسبب ذنوبهم ومعاصيهم يُصِيبُون شيئاً من رحمة الله بالعفو عن بعضها، كما قال عزَّ وجلَّ في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذا العفو هو من عطاءات رحمته تبارك وتعالى.

لكنَّ هذه الجملة تحتمل معنًى آخر، وهو أن رحمة الله وسِعَتْ في مداها كلَّ شَيْءٍ يمكن في التصوُّر أن يكون ذا فائدة أو نفع أو خير للمخلوق الذي تصيبُه، فتشمل في مداها أنواعَ السَّعاداتِ وأفرادَها واللَّذاتِ القلبية والنفسيَّة والفكريَّة والجسديَّة، وما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ منها، وتشمل في مداها دفع الآلام والهمومِ والأكدارِ وكلِّ ما يَسُوءُ ذا حسٍّ حيٍّ، وتشملُ مُضاعفة الحسنات، وَمَحْوَ السَّيئاتِ، والغفران والعفو وتبديل السيئات حسنات، إلى غير ذلك من كلِّ ما فيه نفع أو دفع ضرّ أو مكروه.

وهذا المعنى لا يتعارض مع المعنى الأول، ولكلٍّ منهما ما يؤيِّده في النصوص.

فقد جاء ممَّا يؤيِّد المعنى الأوَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾.

وجاء ممَّا يؤيِّد المعنى الثاني وصفُ الجنة وما فيها من راحةٍ ونعيم وخيراتٍ حسانٍ بأنها رحمة الله، فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ (واللَّفظ للبخاري)، قال:

«تَحاجَّتِ النَّارُ والْجَنَّةُ، فقالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمتكبِّرين والْمُتَجبِّرِينَ. وقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهُمْ وَعَجزُهُمْ؟!

فقال الله لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وقالَ للنَّارِ: أَنْتِ عَذابٌ أُعذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ مِنْهما مِلْؤُهَا.

فأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ. قَطْ. قَطْ. فَهُنَالِكَ

تَمْتَلِىءُ وَيُـزْوَىٰ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ ، وَلاَ يَـظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَـداً، وَأَمَّـا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يُنْشِىءُ لَهَا خَلْقاً».

عَجَزُهُمْ: أي: عَجَزَتُهم جمع «عَاجِز» وهو الضعيف، والذي لا حزم له. قوله تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الذي ظهر لي أنَّ هذه الفقراتِ مِن النَّصّ الذي نتدبَّرُهُ تتضمَّن بياناً موجّهاً لأهل الكتاب في التنزيل القرآني، يدعوهم الله فيه للإيمان بخاتم النبيِّين والمرسلين محمَّد ﷺ، ولاتّباعه، ويَعِدُهُمْ فيه بأنه سيكتب جنَّتَهُ التي هي مظهر رحمته العظمى الخالدة للذين ذكر أوصافهم فيها، وليست من توابع ما قال الله لموسى، كما سبق لأذهان بعض المفسِّرين، بدليل ذكر الإنجيل فيها، وهو كتابٌ متأخِّر التنزيل عن عهد موسى، ولا دليل على أنَّ الله بشَّر به بني إسرائيل في عهده، والذي يتدبَّر أسلوب هذه الفقرات وصياغة جملها يُدْرِكُ أنَّها توجيهٌ مستأنف، وليست من توابع ما خاطب الله به موسى عليه السلام.

أمَّا الموعودون فيها برحمة الله العظمى التي هي جنته، فهم الذين ذكر الله أوصافهم في الجمل التالية:

١ ـ ﴿الَّذِينَ يتَّقُونَ﴾:

أي: الذين يتابعون في مسيرة حياتهم اتِّقاءَ عذاب الله وسخطه، بفعل الواجبات، وترك المحرَّمات.

٢ ـ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾:

أي: ويُؤدّون بالتّتابع ما أوجب الله عليهم في أموالهم من زكاة لمستحقّيها، في المواسم التي يجب عليهم فيها دفْعُها.

وهذا تخصيصٌ بعد تعميم، لأنّ أداءَ الزكاة المفروضة من التقوىٰ، والغرضُ من هذا التخصيص بالذِّكْر تَوجيهُ الاهتمام بعناية خاصّة لهذا الركن من أركان الإسلام، لأنّ اليهود من أهل الكتاب الذين توارثوا الشُّحّ هُمُ الْمُخاطَبُون الأولون في النصّ، إذْ جاء في معرض الحديث عنهم.

٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: والّذِين يُتابعون الإيمانَ بكلّ ما يتلقّوْنه من آيات الله في القرآن، لا يشكّون في شيءٍ منها ولا يجحدون.

ونفهم من هذا أنّ الشّك أو الجحود ببعض آيات الله ينقض الإيمان، فلا بدّ من متابعة الإيمان بكلٍّ ما يَتَلقّونه من كتاب الله في نجوم التنزيل، إذِ السُّورةُ مكيَّةٌ، نزل بعدها سُوَرٌ كثيرة.

٤ ـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: الّذِين يتّبعون في مسيرة حياتهم محمّداً الرسول النبيّ الأُمّيّ الّذي يَجِدُ أهل الكتاب ذكْرَ اسْمِه وبَعْضِ صفاته مَكْتُوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿الأُمِّيّ﴾: أي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذه من خصائص الرسول محمّد، التي تُبيّنُ صِدْقَ رسالته، وتُورِثُ القناعةَ بأنّ القرآن كلامُ الله حقّاً، فالرّسولُ الذي بلّغهُ عن ربّه لا يقرأ ولا يَكْتُبُ. وهو أيضاً أُمّيٌّ في نظر بني إسرائيل، إذ قَسَمُوا الناس إلى قسمين، هما: بنو إسرائيل، وأُمّيُّون، ويُطْلِقُونَ عليهم عبارة «جوييم» بلسانهم.

﴿يجدونه﴾: أي: يجدون ذكر اسمه وبعض صفاته، وهذا من تنزيل الاسم والصفات مَنْزِلةَ الذَّات، لأنَّها دالَّة عليها، فهو من إطلاق الدَّال على المدلول عليه، وهو في اصطلاح علماء البلاغة من المجاز المرسل.

ومن صفاته التي يجدونها لديهم:

● أنَّه يأمُرُهُمْ بالمعروف وينهاهم عن المنكر إذا آمنوا به واتَّبعوه.

﴿المعروف﴾: ما دلَّ الشرع على أنَّه مطلوبٌ إلزاماً أو ندباً من قولٍ أو عمل ظاهر أو باطن، وهو في غير التعبُّدِيّات من الأمور التي يُدْرِكُ العقلُ السليم حُسْنها.

﴿المنكر﴾: ما دلَّ الشَّرع على أنَّه مطلوبٌ في الدين تركهُ إلزاماً، من قول أو عمل ظاهرٍ أو باطنٍ، وهو في غير التعبُّدِيّات من الأمور التي يُدْرِك العقلُ السليم قُبْحَها.

● أنَّه يُحِلُّ لهم من المطاعم والمشارب وغيرها الطيّبات، ويحرِّمُ عليهم الخبائث.

أي: يُبَيِّن لهم أنَّ الله عزَّ وجلّ أحلَّ الطيِّبَاتِ وحرَّمَ الخبائث.

﴿الطيّبات﴾: هي كل مال تستطيبه الطباع البشريّة السَّويّة ولا تستقذره، وَخَلا مَعَ ذلك من أنواع الضرر والأذى المساوية أو الزائدة على ما فيه من منافع ومصالح، وخلا أيضاً من المفاسد الدينيّة والدنيويّة التي تُوجب اجتنابه أو تركه.

﴿الخبائث﴾: هي أضداد الطيّبات، ولو باختلال وصفٍ من أوصافها.

● أنَّهُ يَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ والْأَغْلَالَ الَّتِي كانت عليهم.

﴿الإِصْرُ﴾ الْعَهْدُ المؤكد بالتزام ما أُخِذَ عليه العهد، والإِصْرُ كالعهد يضاف إلى آخذهِ، وإلى مُعْطِيه، وقد أضيف هنا إلى أهل الكتاب، إذْ كانوا يُعْطونَ إصْرَهُمْ على الالتزام بأحكام دينهم، وبطاعة رسُلهم وأنبيائهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه، وقد كان هذا الإِصْرُ مُشدَّداً على أهل الكتاب، وقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ في الإسلام

الأمر، فوضع عمَّن يتَّبِع محمّداً ذَلِكَ الإِصْرَ المشدَّد، ومن الإِصْرِ الَّذي أُخِذَ عَلَيْهِم تبعاً لأنبيائهم أن يؤمنوا بمحمّد ﷺ ويتَّبعوه وينصروه متى بعثه الله، كما جاء في الآية (٨١) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

ولا أرى تفسير «الإِصْرِ» بالثقل، وذلك لئلا تكون «الأَغْلَال» من الإطناب الذي لا يُضِيف معنىً غير معنى الإِصر، والذين فَسَّروا الإِصر بالثقل، شرحوه بأنَّه التكاليف الشاقَّة، وبها فَسَّروا الأغلال أيضاً.

﴿الأغلال﴾: جمع «غُلّ» وهو طوقٌ من حديد أو من جلد، يُجعلُ في عُنق الأسير، ونحوه، أو في يديه، وقد تُجْمَعُ يَدُ المغلول إلى عنقه وتُطَوَّقان بالغُلّ، وتُعْقَدُ بالْغُلّ سلسلةُ من حديد، أو سَيْرٌ من جلد، لِجَرِّه بذلك.

والمراد من الأغلال في النَّصّ التكاليفُ الشاقةُ التي كانت عليهم، فلفظُ الأغلال مستعارٌ للدلالة علىٰ التكاليف الشاقَّةِ الشديدة، والأصل فيها تشبيهُ هذِهِ التكاليف بالأغلال.

والناظر في سفر التثنية من أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب يلاحظ عدداً كثيراً من التكاليف الشاقَّة قَدْ كُلِّفُوها.

ولمّا جاء الإسلام رفع الله به أغلال التكاليف الَّتي في الرِّسالات السابقات، نظراً إلى أنَّه الدين الخاتم، الذي قضى الله لأحكامه الدوامَ حتى قيام الساعة.

قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

﴿آمنوا به﴾ أي: بالرسول النبيّ الأُمِّيّ محمد ﷺ.

﴿وعَزَّرُوه﴾: يأتي التعزير في اللُّغة بمعنى التوقير والتعظيم، وبمعنى الإعانة

والتقوية، والنصر، وبمعنى التأديب الذي يكون باللّوم، والمنع، والضرب دون الحدّ.

والمناسبُ هنا من المعاني التوقير والتعظيم والإعانة والتقوية، أمَّا النصر فقد جاء مُصَرَّحاً به في النصّ، فيكون من قبيل التخصيص بالذكر، بعد دخوله في معاني التعزير، للتَّنبيه على أهميَّة نُصْرَة الرَّسُولِ على أعدائه.

﴿ونَصَرُوهُ﴾: أي: أيَّدوه وأعانوه ودَافعوا عنه ضدّ أعدائه، باللِّسان وبالسلاح والقوى الماديَّة.

﴿واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: واتَّبَعُوا القرآن، وقد سمَّاه الله نوراً، نظراً إلى أنه يكشف للناس صراط سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، والمراد من اتِّباعه اقتفاءُ أحكامِه ووصاياهُ والْعَملُ بها.

ونلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلّ قال بشأن القرآن: ﴿أُنْزِلَ مَعَه﴾، وقال في نصوص أخرى: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْه﴾ وقال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهْ﴾ وبالتأمل نُدرِكُ أنّ لكلّ تعبيرٍ منها دلالَتَهُ الخاصَّة:

- فحين يُلاحَظُ ما فيه من تكاليف يكون من المناسب أن يكون التعبير: ﴿أنزل عليه﴾.
- وحين يُلاحَظُ مَا فيه من علوم ومعارف قدَّمَها الله هديَّةً منه إلى عباده، يكون المناسب أن يكون التعبير: [أُنزلَ إليه].
- وحين يُلاحَظُ أنه نورٌ يهدي السالكين فيه عبر مسيرتهم في حياتهم، يكون المناسبُ أن يكون التعبير: ﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: أُنْزِلَ بالغاً إليه فهو نور مصاحبٌ له دواماً، يكشف له صراط الهدىٰ، وهو كذلك لمن تدبّره واتَّبَعَهُ.

﴿أولئك هم المفلحون﴾: أي: أولئك هم الفائزون الظافرون بما يُرِيدون وفَوْقَ ما يريدون. **الفلاح**: الفوز والظفر بتحقيق الأماني والآمال والمطالب.

* * *

النصّ الثاني

وفي سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) قال الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿خلا﴾: أي: سلف في القرون الماضية.

﴿نذيرٌ﴾: أي: رسول مبلغ معلم ومُنْذِرٌ من كفر بعذاب الله.

﴿فقد كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أي: كَذَّبُوا رُسُلَ ربّهم، وكَذَّبُوا بِمَا جاؤوهم به.

﴿جاءَتْهُمْ رسُلُهُمْ بالبيِّنات﴾: أي: بالآيات البينات المعجزات الدالات على أنّهم رسُلُ الله حقًّا وصِدْقاً، وبالآيات المنزّلات المشتملات على أصول الدين وأحكامه.

﴿وبالزُّبرُ﴾: الزَّبْرُ في اللُّغةُ الكِتَابة، يقال لُغةً: زَبَر الكتاب يَزْبُره زَبْراً إذا كتَبَه.

فالزَّبُور: الكتابُ المكتوب، وجَمْعُهُ الزُّبُر.

وقد سمّى اللّهُ الكُتُبَ الّتِي جَاءَ بها الرُّسُلُ وبلّغوهَا أقوامَهُمْ عن ربّهم زُبُراً، فدلّ هذا على أنَّ لكلّ رسُولٍ تنزيلاً من عند ربّه بلّغه قومه، يدخُلُ تحت عموم لفظ «الزُّبُر» ومنها صُحُفُ إبراهيم عليه السلام.

وخصَّ من هذه الزُّبُرِ السَّابقةِ للْقرآن المجيد التوراةَ بعنوان (الكتاب المنير) لما فيه من شرائع وأحكام.

ووصفه بأنّه منير لأنَّ ما فيه من تعاليم وبيانات تهدي متبعيها إلى صراط الله المستقيم، الذي يُنْجِي مَنْ سَلكه من الهلاك، ويُحقِّق له الفوز والسعادة.

* * *

النصّ الثالث

وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نـزول) بشأن مقـالة قـالها بعض اليهـود في عصر التنزيل وهي: «مَا أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ من شيءٍ» إنكاراً لرسالة محمد ﷺ، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

في هذه الآية وصف الله عزَّ وجلّ الكتاب الذي جاء به موسىٰ، وهو التـوراة، بـأنّه نـور، إذِ النورُ في الحسيّـاتِ يَهْدِي السـالكين، والكتاب الـذي جاء بـه موسى يشتمل على علمٍ حقٍّ يهدي من عَلِمه وعَمِلَ بِهِ إلى سبيل سعادته العاجلة والآجلة، فكانَ جديـراً بأن يُسَمَّى نـوراً، تمثيلاً لأسبـاب الهدايـة الفكريـة والنفسية والقلبيّـة، بأسباب الهداية الحسيَّة البصريَّة.

فـالذين قـالوا من اليهـود: ما أنـزل الله على بشَرٍ من شيءٍ، نَـاقضوا بـرهـان العقل، وتناقضوا مع أنفسهم فيما يَعْتَقِدونَ.

- أما مُنَاقضتهم لبرهان العقل، فقد نبَّه الله عليها بقوله:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

أي: مـا أعطوه من صفـات الكمال مـا يجب له، إذْ زعمـوا أنّ اللَّه عزَّ وجـلّ لم تبلُغْ حكمتُه إلى أن يصطفي بشراً من الناس، ويُنْزِلَ عليه كتـاباً ليبلّغهم إيّـاه عن ربّه، حتّى يكون هادياً لهم في مسيرتهم في حياة الابتلاء.

إنه لو لم يفعل ذلك لكان خَلْقُ الناس عبثاً، والله عزَّ وجلّ منزَّهٌ عن العبث.

- وأمّا تناقضهم مـع أنفسهم فيما يعتقـدون، فهو أنهم يؤمنـون بالتـوراة التي

أنزلها الله على موسى عليه السلام، وهو بشرٌ، وقد نبَّه الله عزَّ وجلّ على تناقضهم هذا بقوله خطاباً لرسوله فكلِّ مناظرٍ لهم من بعده:

﴿قُلْ: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وهُدىً لِلنّاسِ؟﴾:

وجواب هذا السؤال لدى عامَّة اليهود أن يقولوا: لقد أنزلَهُ اللّهُ عليه، وعندئذٍ تلزمهُم الحجَّة، فتسقط مقالة من قال منهم: «ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيءٍ».

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾:

﴿قَرَاطِيس﴾: جمع «قِرْطاس» وهي الصحيفة التي يُكْتَب عليها.

أي: تجعلونه مُجزَّأً في قراطيسَ متفرِّقة ليسهل عليكم إظهار بعضها وإخفاءُ بَعْضِها الآخر، بحسب أهوائكم، وهذا من مكر اليهود قديماً.

أمّا تحليل الجملة فكما يلي: تجعلون الكتاب المجتمع الذي جاء به موسىٰ، مُفرَّقاً مُجزَّأً قراطيسَ تُبْدُونَها، وتُخْفُون منه كثيراً من قَراطيسَ أخرى لا تُحبُّون أن يطَّلع عليها غيركم، لئلا يُقِيمَ عليكم الحجَّةَ بِها، أو يُدينكم بأعمالكم المخالفة لها.

﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾:

أي: وعُلِّمْتُم في هذا القرآنِ الَّذي تجحدونه ولا تؤمنون بأنه كتاب من عند الله، عِلْماً جديداً مُنَزَّلاً من عند الله زائداً على ما في كتُبُكم الأصول، وهذا العلمُ الجديد لم يَسْبِقْ لكم أن علمتموه عن طريق رُسُلكم أنتم ولاَ آباؤُكُمْ مِنْ قَبْلكُمْ.

فإذا قلْتُمْ حسبُنَا ما عندنا، فإنَّ الله يقول لكم: بلْ ما جدَّ منْ تنزيل يجب عليكم أن تعلموه وتَعْمَلُوا به كمَا أَمَرَكُمُ الله.

﴿قُلِ: الله، ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

أي: وإذا لم يعترفوا بأنّ الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فقل

أيها المناظر: الله هو الذي أنزلـه عليه، وأَمْهِلْهُمْ عسَىٰ أن يفيء بعضهم إلى الحق، ثمَّ إذا أصَرُّوا على باطلهم بعد الإمهال فذرهم في خَوْضِهِمْ في باطلهم يلعبون.

﴿في خَـوْضِهِمْ﴾: أي: في الكذب والبـاطل من القـول. أصلُ الخـوْض هو المشـي في المـاء الضَّحْل الـذي يثير من الأرض الأتـربة ونحـوها ومـا يكون تَحْتَ الماء من طين أسود إذا كان راكداً، وهو أَمْرٌ يَفْعَلُه أحياناً الـلَّاعبون ولـذلك جـاء في النّصّ:

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

والمتـلاعب بـالأقـوال في الجـدال بـالبـاطـل، يحـاول تعكيـر صَفْـوِ الأفكـار والمعارف ليسْتُر الحقائق، ولِتَتَسَنَّىٰ لَهُ المخادعَةُ بـالزيفِ الـذي يُقَدِّمُـه، فإذا وَصَـلَ الْمُبْطِلُ إلى مثل هذا التلاعب فإنَّ على صاحب الحقّ أن يَدَعَهُ وينصرف عنه ويتركه في خوضه يلعبُ وحده، فداعي الحقّ ليس من شـأنه اللّعب في الحقّ الـذي يدعـو إليه، ولا تضييع جَهْدِهِ ووقته مع اللّاعبين.

ونـظير مـا جاء في هَـذَا النّصّ ما في قـول الله عزَّ وجـلّ في سورة (المـائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بالنسبة إلى التوراة:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ... ﴿٤٤﴾﴾.

وما جَاءَ في قول اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (المـائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نـزول) أيضاً بشأن الإنجيل عقب الحديث عن النبيِّين من بني إسرائيل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ومـا جَاءَ في قـول اللَّهِ عزَّ وجـلّ في سورة (النسـاء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نـزول) بشأن القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾.

ومـا جَـاءَ في قـول اللّهِ عـزَّ وجـلّ في سـورة (التغـابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾.

فظهر أن الكتب الربّانية المنزلة هي نور، وفيها هدى ونور.

ولعَلّ الفرق بين الهدى والنور، أنّ النّور كاشِفُ صِرَاطَ اللّه، وأنَّ الْهُدَىٰ هـو المحدّد لمعالِمِهِ، والمبيّنُ لحدوده من حافتيه، والآخذ بيد السـالك إلى بلوغ الغـاية المرجوة.

* * *

النصّ الرابع

وفي سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾.

ومثل هذه الآية في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) أيضـاً في الآية (٨) منها.

أي: ومن أصنـاف الناس صِنْفٌ يُجَـادل في قضايـا تتعلّق بالله الـرّبّ الخـالق عـزَّ وجلّ، وفي ذاتـه، أو في صفاتـه، أو في مظاهـر خلقه وتـدبيره وقضـائـه وقـدره وحكمته، جاحداً وجوده، أو مشركاً به، أو جاحداً بعض صفاته، أو مُتّهماً حكمتَـهُ، أو رافضاً حقّه على عباده في الطاعة والعبادة، أو شـاكـاً في شرائعه وأحكامه، ومُؤْثِراً غيرها عليها، أو شاكاً في وعده ووعيده أو منكراً لهما، ونحو هذه الأمور.

ومجادلةُ هذا الصنف من الناس مجادلةٌ بالباطـل، فهو يُـزَخْرِفُ فيهـا الأقوال، ويـراوغ ويُغالطُ ويَحْتـال، ويتهرَّبُ من الحقّ بصنـاعة الأكـاذيب واعتمـاد الأسـاطيـر والإيهام والتلبيس، والتحريف، وإلباس الباطل ثياب الحقِّ تزييفاً وتزويراً.

فمُجَادلَتُه لا تقترن بأيّ دليل صَحيحٍ مقبول، فهي:

١ ــ لَا تقترن بما يؤيّدُ آراءَهُ من دليلٍ عِلْمِيّ تقبلُه العقول السليمة، وتُسَلِّم به.

٢ ــ ولا تقترنُ بما يؤيّد آراءَهُ من بيانات صحيحة هَدَى إليها رسولٌ صادق أمين، فيما أُنْزِلَ عليه من كتاب، أو فيما جاء به عن ربّه، أو هدى إليها نبيٌّ من أنبياء الله فيما صَحَّ عنه.

٣ ــ ولا تقترن بما يؤيّد آراءَهُ من بيانات اشتمل عليها كتابٌ ربّانيّ منير، كالتوراة والقرآن.

فوصف الله التوراة والقرآن ونحوهما بأنّها مُنِيرَة، أي: تَبْعَثُ نُوراً، أو تَبْعَثُ ضياءً، وهذا الضياء ينوّر عقول المؤمنين بها ونفوسهم وقلوبهم، المتبعين لما جاء فيها، بمقتضىٰ سنَّة الله فيها.

* * *

النصّ الخامس

وفي سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أَيَسْتَوي من شرح الله صدره للإسلام، فاستسلم لأحكام الله، وأَسْلَمَ قيادَهُ له، فأطاعَهُ في أوامره ونواهيه، ومَنْ كان صَدْرُهُ ضيِّقاً حَرَجاً لا يَنْشَرِحُ لطاعة الله والاستسلام لأحكامه وأوامره ونواهيه؟!

إنهما بالبداهة العقليّة لا يستويان، فمن شرح الله صدره للإسلام يسعىٰ في مسيرته في حياته وهو على نور من ربّه، بمعنى أنَّه يمشي على صراط مستقيم ومنهاجٍ واضح، وقد سمَّىٰ الله صراطه المستقيم نوراً، لأنَّ من سلكه اهتدى حتماً إلى نجاته وسعادته الخالدة.

وليس في هذه الآيةِ دليلٌ على قول الجبريّين في موضوع القضاء والقدر، لأنَّ

شرح الصدر للإسلام معونةٌ ربّانيّة يمنحها الله لمَنْ آمن بأركان القاعدة الإيمانيّة أوّلاً، فمن بدأ من عنده بالإيمان شرَحَ الله صدره للإسلام، أي: للاستسلام والطاعة له سبحانه.

دلَّ على هذا التحليل ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) السابقة نزولاً بقول الله عز وجلّ:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: كذلك الضِّيقِ والْحَرَجِ في الصَّدْر الذي يجعله الله في صدر من يُرِيدُ أن يُضلّه، يجعَلُ أيضاً الرِّجْسَ كالشركيّات وعِبَادَةِ الأوثان وأعمالِ الفسقِ والفجورِ والفواحشِ رِجساً مُتراكِماً على الّذين لاَ يُؤْمِنُون بالقاعدة الإيمانية.

فضيقُ الصَّدْرِ عن الإسلام لله عزَّ وجلّ، وتراكُمُ أنواع الرِّجس على الإنسان، إنَّما تَكونُ في سُنَّة الله وأنظمته في عباده بسبب عدم إيمانه بالقاعدة الإيمانية.

من غرس زرعَهُ وتعهَّده بما يحتاج إليه، أنبته الله له، وأخرج له منه الثمرات الطيّبات اليانعات، كذلك من آمن وتعهَّد إيمانه شرح الله صدره للإسلام، ومن كفر فلم يؤمن جعَلَ الله صدره ضيِّقاً حرجاً لا يَقْبَلُ الإسلام، وأَخَذَت تتراكم عليه أرجاسُ الباطل من المفاهيم والعقائد، وأرجاسُ الأعمال السيِّئة.

قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾:

﴿وَيل﴾: كلمةُ عذابٍ، أي: هلاكٌ ومشقةٌ وعذاب شديد للقاسية قلوبهم من ذكر الله، ولكن كيف تقسو قلوبهم من ذكر الله؟ هل لفظ «مِنْ» هو بمعنى «عن» أو بمعنى السببيَّة، أي: بسبب ذكر الله؟ رأيان جاءا في كتب التفسير.

والمعنى فيما أرى: عذابٌ شديدٌ للقاسية قلوبُهم من جهة ذكر الله، فهم

لا يـذكرون الله، وإذا ذُكِّـروا بـالله تحجَّـرت قلوبهم، أي: وأمـا من جهـة أهـوائهم وشهواتهم ومطالبهم من الحياة الدنيا، ومن جهة العواطف المتصلة بكفريّـاتهم، فإنَّ قلوبهم تلين وتتأثَّر ولا تتحجَّر.

فهم إذا ذُكِّرُوا بالله لم تَلِنْ قلوبُهم فلم يتأثَّروا بشَيْء، بلْ صَدُّوا عنـه صدوداً، واشمـأَزَّتْ قلوبُهم، وإذا ذُكِر شُـركـاؤهم لانَتْ قلوبُهم، واستبشـروا، كمـا قـال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿اشمَأَزَّتْ﴾: أي: تقبَّضَتْ وانكمشَتْ وَنَفَرَتْ، وهذا أمرٌ زائد على القسوة، لأنَّه استجابة عكسيَّة.

﴿أولئك في ضَلَالٍ مبينٍ﴾:

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله هم في محيط من الضلال المبين الـواضح الذي لا شَكَّ في ضلالِهِ ولَا شبهة.

* * *

النصّ السادس

وفي سـورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نـزول) قـال الله عـزَّ وجـلَّ خـطابـاً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾.

سمَّى الله في هـذه الآية القـرآن روحـاً، لأنّـه بـالنسبـة إلى القلوب والنفـوس والأفكار، مِثْلُ الروحِ بالنسبة إلى الأجساد، فكما أنَّ الروح تجعل الأجساد حيَّـةً إذا دخلت فيها، فإنَّ القرآن إذا خالط القلوب والنفوس والأفكار كان بمثابة الحياة لها.

وسمَّىٰ الله القرآن أيضاً نوراً، لأنَّه يكشف للقلوب والنفوس والأفكار صراط نجاةِ أصحابها وسعادتِهم في الدنيا والآخرة، فهو مِثْلُ النورِ الذي يكشف للأبصار الأشياء، فيهتدي الناس بِهِ في سبُل حياتهم وفي أعمالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾:

أي: كذلِكَ الوحي الذي أوحيناه إلى من سبقك من الرسُل يا محمد أَوْحينا إليك قرآناً مِنْ أَمْرِنَا نزل به عليك رسول الوحي جبريل، وهو كالرّوح الذي به حياة الأجساد، إذ هو حياة للقلوب والنفوس والأفكار، يحيى به من تلقاه وآمن به وتدبَّر معانيه وتأثَّر بها.

﴿مَا كنت تدري ما الكتابُ وَلاَ الإيمان؟﴾:

أي: ما كنت تدري قبل الوحي إليك جواب السؤال التالي: مَا الكتاب؟ مَا الإيمان؟ لأنَّك كنت لا تعلم عنهما شيئاً.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾:

أي: ولَكِنْ جعلنا القرآنَ نوراً هادياً للقلوب والنفوس والأفكار، فمن آمن به وتلَقَّاهُ وَتدَبَّرَهُ هَدَيناه به وفق مشيئتنا الحكيمة إلى صراط نجاته وسعادته، وإذْ جعلناه كذلك اصطفيناك للرسالة وأوحينا به إليك لتبلِّغه للناس، فصرتَ تدري.

﴿وإنَّك لَتَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم﴾:

أي: وإذْ صِرْتَ تدري بعد أن أوحينا إليك، فإنَّك بما أوحينا ونوحي إليك لتهدي إلى صراط مستقيم، هو صراط الله لعباده، الضامنُ لنجاتهم وسعادتِهم الخالدة.

* * *

النصّ السابع وأشباهه

وفي سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خاطب الله عزَّ وجلَّ رسولَهُ بقوله:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾.

في هذه الآية سمَّىٰ الله عزَّ وجلَّ الكُفْرَ والْجَهْلَ بعناصر القاعدة الإيمانية، والجهلَ بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه ومنهاجه للنَّاسِ ظُلُماتٍ، وأبَان أنَّ السَّالك في حياته على غير صراط الله سالكٌ في الظُّلُمَاتِ علىٰ غير هُدىٰ.

وسمَّىٰ الإيمانَ والْعِلْمَ بعناصر القاعدة الإيمانية، وبمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه ومِنْهَاجه للنَّاس نُوراً، وأبان أنَّ السالك في حياته على صراط الله سالكٌ في النور على بصيرة.

وأبان أنَّ وظيفة القرآن ووظيفة الرَّسول اتِّخاذُ الأسباب لإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور، عن طريق إراداتهم الحرَّة، بوسائل دعوتهم إلى الحقِّ وتعليمهم وهدايتهم وتربيتهم. واتخاذُ الأَسْبابِ والتأثيرُ والتَّأَثُّرُ بها يكُونُ بإذْن الرَّب الخالق عزَّ وجلَّ، وهذا شأْنُ أفعالِ ذوي الإراداتِ الحرَّة دَواماً. والإِذْنُ هو تمكينٌ لذوي الإرادات الحرَّة من تحريك الأسباب الكونيَّة لِتَجْرِيَ ضمن أنظمتها حتَّى تتحقَّق بها مُسَبَّبَاتُها بلا جَبْر، إذْ ليس فيه إكراهٌ للإرادات، ولا منعٌ للأسباب من أن تجري ضمن أنظمتها حتَّىٰ يتمّ بها تحقيقُ مسبَّبَاتها.

وعلى هذا ينبغي أن نفهم معنى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ جمعاً بينَ مفاهيم مختلف النصوص.

﴿إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، بَدَلٌ مِن: ﴿إلى النُّور﴾، فجعل الله صراطه نوراً.

ونظير ما جاء في هذه الآية ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) أيضاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

أكتفي عن التعليق على هذه الآية في موضوع الظلمات والنور بما أوضَحْتُه في الآية السابقة.

قوله تعالى لموسى:

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾:

أَيَّامُ الله: يُرَادُ منها الأحداثُ والوقائعُ المشتملة على النِّعم والنَّقَم الَّتي سبَقَ أنْ أجراها الله عزَّ وجلَّ فيما مضىٰ، فالعرب تُطلِقُ لفظ (الأيَّام) على الوقائع والأحداث.

فمن النعم ما سبق أن أكرم الله به بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام.

ومن النَّقم ما سبق أن أنزل الله عزَّ وجلَّ بقوم نوح وعادٍ وثمود من إهلاكٍ وعذاب، لأنَّهم كذَّبوا رُسُل ربِّهم، وطَغَوا وبَغَوْا في الأرض وأَكْثَروا فيها الفساد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

أي: إنَّ في أيَّام الله السَّابقة لآياتٍ دَالَّاتٍ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُمْهل المجرمين ثمَّ ينتقم منهم، ويأْخُذُهُمْ أخذ عزيز مقتدر، وأنه يُجَازي أولياءه المؤمنين المسلمين بالعزِّ والنَّصر والتمكين في الأرض، ويُمِدُّهم بخيرات كثيراتٍ، ونعم جليلات، مع ما ادَّخر لهم من نعيم ينالونه يوم الدين.

وينتفع من دلالات هذه الآيات كلُّ صَبَّار على مخالفة نفسه في طاعة الله، شكورٍ بالعمل الصالح لأنْعُم الله عليه.

* * *

ونظيرهما ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

الطاغوت: لفظ يستوي فيه الواحد وغيره والمذكر والمؤنث، ويجمع على طواغيت، وهو يطلق على كثير الطغيان، فيدخل فيه إبليس وسائر الشياطين، وكلُّ رأسٍ في الضلال، وكلُّ ما صدَّ عن الله والدِّين الحقِّ.

* * *

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هو الَّذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكته﴾: الصَّلاةُ من الله رحْمَةٌ، ومن الملائكة استغفارٌ ودُعاء.

﴿لِيُخرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النور﴾: أي: لِيُتَابعَ مع اللَّحظَاتِ والسَّاعاتِ عَمَليَّاتِ إخراجِكُمْ من ظُلُمَاتِ المعاصي والمخالفات إلى نور الطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ، بالمغفرة والعفو والمعونة، بسبب ذكركم الله بكثرة، وتسبيحكُمْ بُكْرَةً وأصيلاً، فالذكر والتسبيح يساعد المؤمنين على ترك الفحشاء والمنكر، والتزامِ الطاعاتِ والقيامِ بالقربات، فتأتي رَحمَاتُ اللَّهِ بالمغفرة والعفو والمعونة، واستغفارُ الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين، فتزيدهم تزكيةً وإخراجاً منْ أنواع ظلمات النفوس والقلوب والأفكار والأعمال الظَّاهرة والباطنة، إلى نور رضوان الله وصراطه المستقيم، وفضائل السلوك، وأنواع الطاعات والقربات.

* * *

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

أيْ: يُتَابعُ تنزيلَ الآيات البيِّناتِ على عبده محمَّد في نجوم التنزيل ليُخْرِجكم بها من الظلمات إلى النور، إذا استجبتم لها، وعملتم بما جاء فيها.

* * *

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ... ﴿١١﴾﴾.

أي: قد أنْزَل الله إليكم ذِكْراً هو القرآن، وأرسلَ إليكم رسولاً هو محمَّد بن عبد الله، يتلو عليكم آياتِ اللَّهِ حَالَةَ كَوْنِها مُبيِّنَاتٍ لصراط الله المستقيم، وَقُرِىء ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الياء، أيْ: جعلها الله ظاهراتِ الدَّلالات على المطلوب الدينيّ من الناس، فهي تجمع الوصفين، وفي القراءتين تكامُلٌ فكريّ.

لِيُخْرِجَ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات من ظُلُماتِ الأفكار والقلوب والنفوس وسَيِّئات الأعمال الجاهلية إلى نور رضوان الله وصراطه المستقيم.

* * *

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ

ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

سمَّىٰ الله رسولَه في هذا النَّصّ نوراً، لأنَّه ﷺ يهدي إلى صراط الله المستقيم.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾:

أي: يهدي الله بهذا القرآنِ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللَّهِ عقيدةً وعَملاً وفَهْماً لِآياتِ كتابه المشتملةِ على سُنَنِهِ الدينيَّة، والإرشادِ إلى التزام سننه الكونية، يَهْدِيهم سُبُلَ السَّلَامِ في الحياة الدُّنيا، فإذا سلكوها حَمَوْا أنفسهم من الشرورِ والمصائب التي تكسبها أيدي الناس، ودفعوا بها شرور أعدائهم عنهم.

ويُخْرِجُهم القرآن من ظلمات الكفر وسُبُلِ الكفر الفكريَّة والنفسية والعملية، إلى نور الإيمان والعمل الصالح، بإذن الله.

ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، هو صراط الله الموصول مَنْ سَلَكَهُ إلى جنَّات النَّعيم.

* * *

النَّصّ الثامن وما يشبهه

وفي سورة (الصَّف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) سمَّىٰ الله عزَّ وجلَّ ما جاء في القرآن وما جاء به الرسول ﷺ نوراً، وأنَّ الكافرين لا سيما اليهود والنصارى يريدون إطفاءه بأفواههم، أي: بأقوالهم المضلِّلة، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

هذا النَّصّ أُنْزِلَ في أواسط المرحلة المدنية، ثُمَّ أَنْزَل الله في أواخِر المرحلة

المدنية، قَوْلَهُ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن محاولات اليهود والنصارى أيضاً:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

في كلٍّ من هـٰذين النَّصَّيْن سمَّى الله عزَّ وجلَّ ما جاء في القرآن من بيان دينيّ نوراً، وأنَّ الكافرين لا سيما اليهود والنصارى منهم كما تدلُّ قرائنُ النَّصِّين يُريدُون إطفاءَ هذا النور بأفواههم، لكنَّهم إبّان نزول النَّص الأول كانت إراداتُهُمْ تتوجَّه لاتِّخاذ مُرادات مختلفات يَتَّخذونها وسائل ليطفئوا بها عن طريق أقوالهم بأفواههم نور الله، فأنزل الله قوله:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أي: يُريدُونَ مُرَادَاتٍ مختلفاتٍ يَتَّخِذُونها وَسَائل لِيُطْفِئُوا بِهَا نُورَ الله بأفواههم. ولم يَصِلُوا بعدُ إلى تِهْيئَتِها واتِّخاذِها، لِذَلِكَ جاءَ التعقيب بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾:

فجاءت الصيغة التعبيريَّةُ هادئةً خاليةً ممّا يدُلُّ على التَّهَيُّؤ للرَّدْع والمقاومة.

لكنَّهم إبّانَ نُزُولِ النصِّ الثاني الذي في سورة (التوبة) قَدْ اتَّخَذُوا الْوَسَائل، وَأَعَدُّوا الْعُدَّةَ لِيُطْفِئُوا نور اللَّهِ بأفْوَاهِهِمْ، فَأَنْزَلَ الله عزَّ وجلَّ قوله:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أي: إنَّهُمْ وصَلُوا فِعلاً إلى إرادة الإطفاء نفسه، بعد أن أَعَدُّوا الوسائل، وانْتَهَوْا مِن مرْحلةِ الاشتغال بتهيئتها على ما فكروا وقَدَّرُوا، فالوسائلُ بحسب تصوُّرِهم قد صارت جاهزةً وما عليهم إلاَّ التَّنفيذ، فجاء التعقيب بقوله تعالى:

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون﴾:

وهكـذا جاءت الصيغـةُ التَّعبيريَّـة حارَّةً دالَّـةً على التحـرُّكِ للرَّدْعِ والمقـاومـة والانتقام، والمراد توجيه العناية لإحباط مخططاتهم وتدبيراتهم.

فالنصّ الأول جاءت صيغتـه ملائمـة للمرحلة التي نـزل فيها، والنَّصُّ الثـاني جاءت صيغته ملائمةً للمرحلة التي نـزل فيها، وظهر لنـا أنَّ النَّصيْن مختلفان صيغـةً وأداءً بيانيّاً، ومختلفان دلالةً، وقد جاءت حركيَّة الأداء البياني ملائمة لحركة الواقع، وهذا من الإعجاز القرآني.

* * *

النصّ التاسع

وفي سـورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نـزول) قال الله عـزَّ وجـلَّ خـطابـاً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾.

في هـذا النَّصِّ وصف الله عزَّ وجـلَّ رسولَـهُ بأَنَّـهُ سِرَاجٌ وبـأنَّه منيـر، من فعل «أَنَارَ» المتعدّي، تقولُ أنارَ فلانٌ البيت إذا جعل فيه نوراً، وأنـار المصباحَ إذا جعـل النور ينبعث منه، وأنار الأمرَ إذا وضَّحه وبيَّنه.

أي: هـو منبع يشِـعُّ ضياءً، ونُـلاحظ أنَّ الله وصفَ رسولـه بأنَّـه سراج، كمـا وصف الشمسَ بـأنَّهـا سـراج، وأبـان تعـالى في سـورة (يـونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) في الآية الخامسة أنَّـه جعل الشمس ضيـاءً والقمر نـوراً، وقد عـرفنا بمـا صـار يقيناً في العلوم الإنسـانية أنَّ نـور القمر إنمـا هو انعكـاس أشعَّة الشمس التي تصـل إلى سطحـه، إذ هـو كـوكب بـاردٌ كـالأرض، فـدلَّنـا هـذا على أنَّ الـرَّسـول محمَّـداً ﷺ يشبـه الشَّمس في أنَّـه يَبُثُّ ضيـاءً، وأنَّ هـذا الضيـاءَ إذا استقبله مؤمن مستعدٌّ لاستقباله انعكس عنه نـور يهدي، كمـا أنَّ نور القمـر يهدي في الـظلمات، فمعنى وصف الرسول بأنه منير على هذا: أنَّه مُنَوِّرٌ غَيْـرَه، وبهذا نستـطيع أنْ نصف

خيرةَ أصحاب الرسول ﷺ بأنَّهم أقمار هداية، أخذاً من هذه الدَّلالة القرآنية. وكون الرسول ضياءً يلاحظ في كونه أسوةً حسنة مؤثرة، مع تأثير ضيائه فيمن يلقاه من المؤمنين الصادقين، وجاء الاستغناء بذكر أنه سراج عن التصريح بأنه يبث ضِياءً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾: أي: مُبَلِّغاً ما أوحينا إليك لتُبَلِّغَهُ، وشاهداً علىٰ الذين بلَّغتهم يوم الدين، بأنَّك بلَّغْتَ الرسالة وأدَّيتَ الأمانة، ونَصحْتَ الأمَّة.

﴿ومُبَشِّراً﴾: أي: ومبشِّراً مَنْ آمن بما جاء عن الله، واتَّبعه بما أعدَّ الله للمؤمنين من أجر عظيم يوم الدين في جنات النعيم، مع ما كتب لهم ممَّا يحبُّون في الحياة الدنيا من نَصْرٍ وتوفيق وسعادة قلبيَّة ونفسيَّة.

﴿ونذيراً﴾: أي: ومُنْذِراً من كفر بما جاء عن الله، ولم يَتَّبِعْهُ، بعقاب شديدٍ يوم الدِّين في جهنَّم وبئس المصير، مع ما يَنْزِل بهم في الحياة الدنيا ممَّا يكرهون من أمور مادِّية ومعنوية.

﴿ودَاعِياً إِلَىٰ اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾: أي: وداعياً إلى الله وإلى صراطه المستقيم، بمقتضىٰ منْهاج الدَّعوة الذي أذن به، وفي هذا دلالةٌ ضمنيَّة على أنَّ الدَّعوة إلى الله على غير المنهاج الربَّاني للدَّعوة أمرٌ لم يأذن الله به لرسوله، مع كمال أخلاقه صلوات الله عليه، وعظيم حكمته، فالدُّعاةُ إلى الله من بعده مُلْزَمُون بالتقيُّدِ بمنهاج الدعوة الرَّباني الَّذي أبان أُصولَه الْعَامَّة قَولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

• • •

المَقُولَةُ الثَّانِيَةُ
حَوْلَ ٱلبَصَرِ وَٱلعَمَىٰ وَٱلغِشَاوَةِ وَٱلصَّمَمِ وَٱلوَقْرِ وَٱلحَيَاةِ وَٱلمَوْتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ

مـقـدمـة :

ممّا تكرَّر في القرآن المجيد ما يلي :

١ ــ أنَّ الله عزّ وجلّ ضرب مثلاً للكافر بالأعمى، وللمؤمن بالبصير.

٢ ــ وشبَّـه قلوب الذين لا يستجيبـون لدعـوة الحقّ بأنَّهـا محجـوبـة بحُجُبٍ وسُـدود، وبـأَنَّهـا في أكِنَّـة (أي: مغلَّفـة بـأغـطيـة وستـور، أوحبيسـة في بيـوت أو مغارات).

وأبان أن في أبصارهم نوع عمًى، هو عَمَىٰ عدمِ رؤية ما يدلُّ على الحقّ من آيات، وأبان أنَّ في آذانهم نوعَ صَمَم أو ما هو قريب من الصَّمم، وهو الوقْـر (أي: ضعف السَّمـع) ألا وهـو صَمَمٌ أو وقْـرٌ يَحْجبُ سمـاع نـداء الحقّ، ودعـوة الحقّ، ويحجبُ عن الذهن إدْراكَ آيات الله المنزَّلات.

٣ ــ وضرب الله مثلاً للمهتدين بما أنزل للناس من هُدىً بالأحيـاء، ولغيرهم بالأموات، وضرب مثلاً لـلاهتداء بمـا أنزل للنـاس من هدىً بـالحياة، وضـربَ مثلاً لعدم الاهتداء بذلك بالموت.

إنَّه كما يوجد في الحسِّيّاتِ عَمَى الألوانِ ونحـوه، يوجـد في الفكريّـات عمىً عن رؤية آيات الحقّ، وإدراك حُجَجِه وبراهينه.

وكَمَا يوجد في الحسّيات صَمَمٌ يحجبُ جِهازَ السمع، فـلا يسمع الأصـوات،

يـوجد في الفكـريّاتِ صَمَمٌ أو وَقْـرٌ يحجُبُ عنِ الفكـر إدْراكَ نـداءِ الحقّ، أو إدْراكَ معنى الكلام الذي يدلُّ عليه نداءُ الحق، أو تدلُّ عليه دعوة الحق.

وكَمَا توجد في الحسِّيّات علَّة عدم الإحساس بالطُّعُومِ، أو بالـروائح، تـوجَدُ في المعنويّات علَّة عدم تذوُّق طَعْمِ الإيمان، أو طعم الفضيلة، وعلَّةُ عدَمِ الشُّعـور بشـذا العمـل الصـالـح، وعـدَمِ الشُّعـور بنَتْنِ الكُفْـرِ والـرذيلة والعمـل القبيـح، وهكذا. . . .

والشواهد على هذه الأنواع من الأمثـال كثيرة في القـرآن المجيد. وفيمـا يلي استعراض ما تيسّر لي أن أجمعه منها، مع قَدْرٍ ما من الشرح والتحليل:

* * *

النصّ الأوَّل

في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ بشأنِ قوم نوحٍ عليه السلام:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: في هَذا إيجازٌ لكلِّ مَا كان من قومِ نوحٍ في مقابل دعوته لهم إلى سبيل ربِّهم.

إنَّ قوماً قد كذَّبوا رسُولَهُم، وهم ذَوُو قُوَّةٍ ومنَعةٍ، واستمرّوا على تكذيبهم أحقاباً عديدة، لا بدَّ أن تكون منهم أمورٌ كثيرة، فيها إيذاءٌ للرَّسول ولمن آمن به، ومقاومةٌ لدعوته، وإصرارٌ على الظلم والطغيان، والفسق والفجور والعصيان، والبغي والعدوان.

أمّا العاقبة في الدنيا فكانت كما يلي:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ في الْفُلْكِ وأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتنا﴾:

وفي هـذا إيجاز للحَدثِ الأخير من قصة نوحٍ وقومه، تضمَّن إلماحاً إلى الطوفان العامّ الذي أغرق الله به المكذِّبين، وإلماحاً إلى الأحداث الَّتي نتج عنها ركوبُ نوحٍ ومن معه وما معه في الفلك، وإلى جريها بعناية الله وحفظه، حتّى مُسْتَقَرِّ النجاة.

وأخيراً أبان الله عزَّ وجلّ الصفة الدائمة التي سبَّبَتْ لقوم نوحٍ التكذيبَ والعنادَ والإصرارَ على الكفر والظلم والطغيان، حتى نزل بهم الإهلاك العامّ الشامل بالطوفان، فقال تعالى في آخر النصّ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾:

﴿عَمِينَ﴾: جمع «عَمٍ» بمعنى «أعمىٰ» أي: هم عَمُونَ عن رؤية الحقّ، وعن رؤية آياته ودلائله وبراهينه، وعَمُونَ عن الاهتداء بها، وعَمُونَ عن رؤية أنوارها البيانية والفكريَّة والوجدانيَّة.

وهذا العمى هو من نوع العمىٰ في القلوب والبصائر.

* * *

النصّ الثاني

وفي سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذا النَّص يبيِّن الله عزَّ وجلّ لرسوله ولكلّ داعٍ إلى دين الله من بعده طائفةً من ظواهر سنته الكونيَّة في الأحياء وفي الأشياء، ويبيِّن أنَّ هذه السُّنن قوانين ربّانيَّةٌ ذوَات ثبات، ولا يستطيع المخلوقون تغييرها، ولا يستطيعون تبديل شيءٍ فيها، وكلُّ استطاعتهم منحصرة في أن يستفيدوا منها ضمْن أنظمتها وصفاتها وخصائصها، والقادر الوحيد على تغييرها أو التبديل فيها هو الله الرَّبّ الخالق إذا شاء بحكمته أنْ يُغيِّرها.

١ ـ فمن السُّنن الثابتة أنَّه لا يستوي الأعمى والبصير، إذِ الأعْمَىٰ لا يرىٰ، فهو ناقصٌ صفة الرؤية، والبصير يرىٰ، فهو فاضلٌ على الأعمى بهذه الصفة، سواءٌ أكان ذلك في الحسيّات أو في المعنويّات، وهَلْ يُعْقَلُ أن يُحكَمَ بتساوي المفضول والفاضل، أو الناقص والزائد، من الجهة نفسها التي يُوجَد فيها التفاضل.

٢ ــ ومن السُّنن الثابتة المشاهدة أنَّه لا تستوي الظلُمات إذْ هي فيما بَيْنَها متفاوتات متفاضلات، فبعضُها أشدُّ من بعض.

٣ ــ ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنْس النور، إذْ هي على درجاتٍ متفاضلاتٍ جدّاً، بدءاً من أدنَىٰ النور، فإلى ما لا نعلَمُ من غايات شدَّته.

ولا يُعْقَلُ أنْ يُحْكَمَ بتساوي المتفاضلات.

٤ ــ ومن البَدَهيِّ أن لا تستوي الظلمةُ والنور، فالظلمة تنعدمُ معها الرؤيةُ أو تقلُّ، والنور بالنسبة إلى أبصارنا شرطٌ للرؤية على اختلاف درجاتها.

٥ ــ ومن السنن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنْس الظِّلّ إذْ هي على درجاتٍ متفاوتاتٍ في نسبتها المشاهدة بالبصر، وفي مقادير الحرارة التي تصاحبها.

٦ ــ ومن السُّنَن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنس الْحَرُور (وهو حرُّ أشعة الشمس الممتدَّة إلى الأرض)، إذ هي ذوات درجات متفاضلات شدَّةً وضعفاً.

٧ ــ ومن البَدِهيِّ أن لا يَستوي الظِّلُّ والحرور.

٨ ــ ومن السُّنَنِ الثابتة أنَّه لا يستوي الأحياء في حيواتهم، إذ الحيوات في الأحياء متفاضلات، فحياة النبات غير حياة الحيوان، وحيوات الجراثيم والفيروسات ذواتِ الحواسِّ القليلة، غيرُ حيوات ما فوقها في سلَّم الحياة، حتى مرتبة حياة الإنسان، فحياة الملائكة.

٩ ــ ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا يستوي الأموات، فمن الأموات من يعذَّبون في مدَّة البرزخ، وهؤلاء على دركات متفاوتات، ومن الأموات من يُنَعَّمُون وهم في مدَّة البرزخ، وهؤلاء على درجات متفاضلات، ومنازلُ أرواح كلٍّ من هؤلاءِ وهؤلاء منازلُ مختلفة متفاوتة متفاضلة.

١٠ ــ وكذلك لا يستوي الأحياء والأموات، في الماديّات وفي المعنويات.

فمن أراد أن يتَّخِذَ سبباً لأمْرٍ ما فليتقيَّدْ بسُنَنِ اللّٰهِ وقوانينه في كونه، وإلاَّ خابَ

في سَعْيـه، وعصَىٰ قوانين الله وسُنَنَـهُ السببيَّة، وعصى أوامـره الدينيَّـة، الَّتي أمـرت باتِّخاذ الأسباب التي جعلها سبحانه في كونه لتحقيق الغايات المطلوبة.

وقد خاطب الله رسوله وكلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من بعده بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِـعُ مَنْ يَشَـاءُ ومَـا أَنْتَ بِمُسْمِـعٍ مَنْ فِي الْقُبُـورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾:

أي: وما أنت بقادرٍ علىٰ أَنْ تخرق سُنَّةَ الله فتُسْمِعَ الموتى وهم في قبـورهم، أو تُسْمِـع أشباه المـوتى، وهم الـذين لم يؤمنـوا بـالله وحـده لا شـريـك لـه عنـاداً، ولم يؤمنوا باليوم الآخر، ولم يؤمنوا بآيات الله المنزَّلات، وقطعوا صلَةَ كـلِّ حواسِّهم بقضايا الدين، فكانوا بالنسبة إليها موتىً مقبورين.

فمن الحكمـة أن لا تهتمَّ لهم، ولاَ تُكَلِّف نفسـك محـاولـة اتِّخـاذ وسـائـل لإسماعهم دعوة الحقّ، وهم بـالنسبة إليهـا موتى، إنَّ محـاولتك بـالنسبة إليهم هي محاولة من يجتهد ليغيِّرَ سُنَن الله، وهو غير قادر على تغييرها، فما أنت بالنسبة إليهم إلَّا مبلِّغ منذر لهم، ولست مكلفاً أن تحوِّلهم من الكفر إلى الإيمان.

إنَّ القادر على تغييرها هو الله واضعُهـا، ومحدِّدُ حـدودها، ومنـظِّم أنظمتهـا، وهو مع ذلك لا يُغَيِّرَها إلَّا في خارقةٍ تقتضيها حكْمَتُه، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾:

ولَكِنْ لا تقتضي حكمتُهُ بالنسبة إلى الذين وضعهم موضع الامتحان أنْ يُسْمِع بعضَهُمْ بـإرادةٍ منـه جبريَّـة، إذا رفضـوا على عِلْمٍ الاستمـاع بـاختيـارهم، ضمن سُنَن الله فيهم، قـاطعين الصِّلة بينهم وبين قضايـا الدين، ولا تقتضي حكمتُـهُ تعالى أن يعاملهم معاملةً مخالفةً لمعاملةِ نُظَرائهم الذين استجابوا لدعوة الرَّسـول، وسمعوا باختيارهم الحرّ، ضمن سُنَن اللَّهِ وأنظمته فيهـم، التي وضعها في النفوس الإِنْسانيـة على نسبة سواء.

وقد وصف الله الكافرين المعاندين المصرِّين على التزام الباطل، والتولِّي عن

الحقّ، بوصفٍ من لوازمه أن يكونوا مقبورين، لأنَّهم بالنسبة إلى دعوة الحقّ الرَّبّانيةِ موتىٰ.

فالمعاني المستفادة من الأمثال التي اشتمل عليها هذا النصُّ مع دلالتها على معانيها الأصليَّة هي كما يلي:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَىٰ والبصير﴾:

أي: وما يستوي الكافر والمؤمن، إذ الكافر مثل الأعْمَىٰ والمؤمن مثلُ البصير.

وقد وُضِع الممثَّلُ به موضِعَ الممثَّل له تأكيداً لِلْمُمَاثلة.

﴿ولا الظلمات ولا النور﴾:

أي: ولا تستوي أنواع الكفر، ودرجات الإيمان، فالكُفْر بأنواعه مثل الظلمات بأنواعها، والإيمان بدرجاته ومراتبه، مثل أنواع أفراد النور ومراتبها ودرجاتها.

وقد وُضِعَ الممثَّلُ به مَوْضِع الممثَّل له تأكيداً للمماثلة.

﴿ولَا الظِّلّ وَلَا الْحَرُور﴾:

أي: ولا تستوي الراحة التي تكونُ في الإيمان على اختلاف مراتبه ودرجاته، ومتاعب الكفر على اختلاف أنواعه ومراتبه ودرجاته.

فراحة الإيمان كراحة المقيم في الظِّلّ، ومتاعب الكُفْرِ كمتاعب المقيمين في حرِّ الشمس، على اختلاف درجات حرارة أشعتها شدَّةً وإيذاءً، وقد لُوحظ في اختلاف درجات حرارتها اختلافُ أحوال الكافرين، بالنسبة إلى تفاوت دركاتهم في الكفر ولوازمه.

وقد وُضِعَ الممثَّل به موضع الممثَّل له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ﴾:

أي: وَما يَسْتَوي المؤمنون الذين هُمْ كالأحياء، في نسبة حيواتهم للتفاضل

فيما بينهم في الإيمان، ولا يستوي الكفار الذين هم كالأموات، في دركات كفرهم، ولا يستوي الفريقان أيضاً بداهة.

فالإيمان كالحياة للأنفس، والكفر كالموت لها.

* * *

النصّ الثالث

وفي سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قال الله عزَّ وجلّ بشأن الَّذين أنكروا الآخرة من مشركي العرب:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقرأ ابنُ كثير المكِّي، وأبو عمرو ويعقوب البصريان، وأبو جعفر المدني: (بَلْ أَدْرَكَ).

ومعنى ﴿ادّارَكَ﴾: تَتَابَع. ومعنى (أَدْرَكَ) الشيءَ: لَحِقَ بِهِ حسّاً أو معنىً.

أي: إنَّ أَمْرَ الآخرة ليس خبراً جديداً عليهم جاءهم في القرآن وعلى لسان محمد خاتم النبيِّين عليهم الصلاة والسلام، بل هو خبر قديم تتابع عليهم من الرسالات السابقة لرسالة محمد ﷺ، فعندهم علمٌ به، من بقايا الدِّين الذي ورثوه عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وعندهم علم به ممّا بلغهم عن اليهوديَّة والنصرانيَّة.

ومن لم يَتَتَابعْ عليه هذا الخبر منهم أدركه بوجه من الوجوه أخذاً من القراءة الثانية:

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾:

ومن أدرك الخبر أو ادَّارَكَهُ فقد حَصَلَ لَهُ بِهِ علمٌ ما.

والمعنى لم يأتِهِمْ محمَّدٌ ﷺ بنبأ جديد غريب عليهم في موضوع الآخرة، بل

أدْرَكُوهُ بعلمٍ خبري، أو تتابَعَ عليهم العلم به، عن طريق الأخبار السابقة، الّتِي بلَّغها المرسلون السابقون.

إنَّهم لا يعتقدون أنَّ محمَّداً ﷺ قد جاءهم بخبرٍ جديدٍ لم يَسْبِقْ لهم إدْراكُ المعرفة به عن طريق الأخبار.

بل هذا العلم الخبري هُمْ في شكٍّ نَفْسِيٍّ من صدقه، لأنَّهم لا يُريدون تصديقه، حتّى لا يمنعهم الإيمان به ـ وهو يتضمَّن الحساب والجزاء يومَ الدين على أعمالهم في الحياة الدنيا ـ من أن يفجُروا على ما يشتهون ويَهْوَوْنَ، وحتى لا يمنعهم من أن يتَّبعُوا أهواءهم ظالمين فاسقين مستكبرين.

بل هم فوق ذلك محجُوبُونَ بالعمىٰ القلبيّ الذي نزل بهم باتِّباعهم أهواءهم وشهواتهم وسائرَ جوامِح نفوسهم، لذلك فهم من جهة رؤية حقيقة خبر الآخرة عَمُونَ، لَا يَرَوْنَ أدلَّتها العقليَّة، ولا يُصَدِّقون أنباءها النقليَّة عن المرسلين.

﴿عَمُونَ﴾: جمع «عَمٍ»، بمعنى «أَعْمَىٰ».

ونُلاحظُ في هذا النصِّ أنَّه قد وُضِعَ الممَثَّلُ به مَوْضِع الممثَّلِ له، تأكيداً للمماثلة.

* * *

النصّ الرابع

وفي سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) أيضاً قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله بشأن منكري القرآن وما جاء فيه من حقٍّ حول مختلف قضايا الدين:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ :

أي إنَّكَ لَا تُسْمِعُ الـذين هم موتَىٰ بـالنسبة إلى قضـايا الـدين، إذْ فقدوا كُـلَّ حـواسِّهم التي تستجيب لمثيرات دعـوة القرآن، الَّتي تستثيـر من كانت لـديهم هـذه الحواسّ، وظاهر أنَّ فقد كلِّ الحواسّ الظاهرة والباطنة التي تستثيرها دعـوة القرآن، هـو نوعٌ من المـوت لجانبٍ من جـوانب الْمُحَسَّات، وهـو الجانب الـذي كان لـديه بالفطرة استعدادٌ لأن يُحِسَّ بالمثيرات المتعلِّقة بقضايا الدين الحقّ.

وقد سمَّاهم الله موتى، لأنَّ نفوسهم منصرفة عن كلِّ القضايا الَّتي تتَّصل بـالله واليوم الآخِر انصـرافاً كُلِّيـاً، فليس بينهم وبينها وسـائل اتِّصـال، وبانقـطاع الاتصال ينعدم التَّلَقِّي، وتنعدمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالموتى، وقد وُضع الممثَّل بـه موضع الممثَّل له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ :

أي: وإنَّـك لا تُسمِع الصُّمَّ الـذين نزل بهم الصَّمم بـالنسبة إلى دعـوة الدِّين الحقِّ، ففقـدوا القدرة على استمـاع أيِّ دعاء أو نـداءٍ يتعـلَّق بهـا، لأنَّ كـلَّ أجـزاء أسمـاعهم متَّصلةٌ بأُمـورِ شهواتهم وأهـوائهم ومطالبهم من دنيـاهم، فليس فيهـا خطٌّ استماعيٌّ يَسْتَجيبُ لمثيرٍ يتعلَّقُ بالله واليوم الآخـر والواجبـات الدينيَّـة، فهم بالنسبـة إلى النـداءات الَّتي تتعلَّقُ بهذِهِ المـوضوعـات مصابـون بداء الصمم، ولِفَـرْزِ حَـالـة الصمم هذه عن حالة العمىٰ قيَّدَها الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُـدْبِرِيـنَ﴾. وذلِـكَ لأنَّ الأَصَمَّ البصير إذا كان يُواجه ببصره من يناديه، فإنَّه قد يفهم من حركات شفـاهه ووجهه بعض ما اشتمل عليه نداؤه، وبسبب ذلك لا تُكْشَفُ حالة الصمم كشفاً تامـاً إلَّا إذا كان الأصمُّ قد ولَّىٰ مُدْبراً.

﴿وَلَّـوْا مُدْبِـرين﴾: أي: أدبروا وابتعـدوا وانصرفـوا، مقـابلين جهـة الـداعي بأدبارهم، وقد جاء لفظ ﴿مُـدْبِرينَ﴾ حـالاً مؤكِّدةً، لتـأكيد أنَّ تـولِّيهم لم يكن مجرَّد ابْتِعـادٍ وانصـرافٍ مقـرونٍ بشيءٍ من مـلاحـظتهم لمـا وراءهم، بـل هم مُـدْبِـرون لا يُبْصرون شيئاً ممَّا هو وراءهم، ولا يتَّجه لهم غير النداء الصوتي.

وقد سمَّاهُمُ الله صُمّاً لأنَّ نفوسهم منصرفة عن استماع كلِّ نداء يتعلَّق بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر قضايا الدين انصرافاً كليّاً، فليس بينهم وبينها وسائل اتِّصالٍ سمعي، وبانعدام الاتِّصال ينعـدمُ التلقّي، وتنعدمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالصُّمِّ، وقد وُضِعَ الممثَّلُ به موضِع الممثَّلِ له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ﴾:

أي: وإنَّـك لَا تهدي العميَ بـأنوار معـرفة آيـات اللَّهِ، مهما وجَّهتهـا لأبصـار بصيرتهم.

إنَّهم لا يرونها، فهم لا ينصرفون عن ضلالتهم التي هم فيها، إذْ فقدوا القدرة على رؤية الحقِّ الذي جاء في القرآن مهما كشفته الأنوار، بسبب أنَّهم عُمْيٌ بالنسبة إلى القضـايا التي تتعلَّق بـالدِّين، وإنْ كـانوا حـديدي الأبصـار بـالنسبـة إلى شؤون دنياهم وأهوائهم وشهواتهم ولذاتهم فيها.

وقد سمَّاهم الله عزَّ وجلَّ عُمْياً، لأنَّ نفوسهم وبصائرهم منصرفة عن رؤية كلّ مـا يتصل بقضـايا الـدين انصرافـاً كليّاً، فليس بين بصـائرهم وبينهـا وسائـل اتصال بصري، وبانعـدام الاتِّصال البصـريّ تنعدم الاستجـابة بـالرُّؤْيـة، فهم بالنسبـة إليها كالْعُمْي، وقد وُضِع الممثَّلُ به مَوْضِعَ الممثَّل لَهُ تأكيداً للمماثلة.

وأبان الله عزَّ وجلَّ السبب الحقيقيّ الذي جعلهم صُمّاً وعُمْياً وأشبـاه الموتى، وهو أنهم لم يؤمنوا بـآياتـه، ومعلوم في طبائـع النفوس أنَّ من لا يؤمن بـالشيء فإنـه لا يهتم له، ولا يستجيب لدعوته، بخلاف الذين آمنوا بآيات الله فإنَّهم يـرون سعادة أنفسهم منـوطةً بـالعمل بمـا جاء فيهـا، فهم يستمعـون إليهـا، ويُسْلِمُـونَ طـائعين، مجتهدين أن يعملوا بما جاء فيها، فقال تعالى:

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

أي: لا تُسْمِـعُ إلاَّ الذين يُتَـابعـون الإيمـان بكـلِّ مـا ينـزل من آيـاتنـا، وهم

حريصون على معرفة منهاج سعادتهم، مستسلمون، ومن استسلم وأسلم اجتهد في أن يعمل بما علم مما آمن به، وارتبطت بالعمل به سعادته.

* * *

النصّ الخامس

وفي سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ في حكاية ما قاله لآدم وزوجه إذْ أهبطهما من الجنَّة:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أعْرَضَ عَنْ ذِكْري﴾:

أي: أعطى عارضه لآيات الله فلم يتدبَّرها ولم يعمل بها.

﴿معيشَةً ضَنْكاً﴾:

أي: معيشة ضيِّقةً لَا سَعَةَ فيها، الضَّنْكُ: الضيقُ من كلِّ شيءٍ يستوي فيه المذكر والمؤنث.

﴿فَنَسِيتَهَا﴾:

أي: فتركْتَهَا وأهملت العمل بها، أصل معنى النسيان يدور حول الترك، ثم اشتهر بمعنى غيابه عن الذاكرة.

يبيِّن الله عزَّ وجلَّ حالة من أعرض عن ذكر الله بعد أن آمن به، وأبصر نوره، فجرَّه إعراضه إلى نسيان ذكر الله بتركه، وترك العمل به، وغيابه عن ذاكرته، حتى

كان كالكافر به الأعمى عن رؤية نوره، وأنَّه بسبب ذلك يُحْشَر أعمى مع الكفرة العميان، والمراد عمىٰ البصيرة عن رؤية الحقِّ الرَّباني الذي هو مطلوب الدِّين من العالمين.

وبما أنَّه كان من المؤمنين المبصرين نورَ ذكر الله، فإنَّه يقول يوم الحشر متسائلاً عن سبب حشره أَعمىٰ:

﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾:

أي: ربِّ لِمَ حَشَرْتني كالكفَّار أَعْمَىٰ وقد كنتُ مؤمناً؟ فيأتي جوابه من قِبَلِ ربِّه:

﴿كَذَلِكَ. أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾

أي: كذلك العمل الذي كان منك في الدنيا جاءَكَ جزاؤُكَ يوم الدِّين، وبالبيان التفصيليّ نقول لك: أَتَتْكَ آياتُنا فرأيتها وأبصرتها وآمنت بها، وعقب ذلك تركتها ولم تعمل بما جاء فيها، حتى نسيت ذكراها، فكان حالك كحال الكافر الأعمى الذي أدبر عنها فلم يرها، ولم يُؤْمن بها. فمن العدل أن تُترك مع العميان الكفرة إذْ لم تَنْفَعْكَ رؤيتُك وإيمانُكَ في سلوكِكَ شيئاً.

وأبان الله عزَّ وجلَّ أنَّه يُجَازي بمثل هذا الجزاء من أسرف في ظلمه وعدم إيمانه بآيات ربِّه ابتداءً، فيحشُرُه أعمىٰ، فقال تعالى:

﴿وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بآيَاتِ رَبِّه﴾:

وهذا من العذاب الذي يكون في موقف الحشر، ولكنَّ عذاب الآخرة الذي يكونُ بعد الحساب وفصْلِ القضاء، ويبدأُ مُنْذُ دخول أهل النارِ النارَ، هو أشدُّ وأبقىٰ، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَىٰ﴾:

أي: أشدُّ كمّاً وكيْفاً، وأكْثَرُ بقاءً مع تتابُع الأزمان، أعاذنا الله منه ومن كلِّ عذاب.

* * *

النصّ السادس

وفي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢ ﴾.

أي: ومن كان في هـٰذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيَا القريبة الجارية أَحْداثُها كافراً أَعْمَى الْبَصيرَةِ، لا يَرَىٰ الْحَقَّ الرَّبّاني المنزَّل في آيات اللَّهِ، بسبب إدْبارِهِ وتولّيه عنها، فهو يسير في متاهات الحياة ضالاًّ تائهاً على غير صراط الله المستقيم، متَّبعاً أهواءَهُ وشهواتِه ونزعَاتِ نفسِه ونزغاتِ الشياطين وخطواتهم، فإنَّه يُعاقَبُ في الآخرة يوم الحشرِ بمثل ما اختار هو لنفسه في الحياة الدنيا.

فيكونُ في موقف الحشر أعمَىٰ البصر، لا يهتدي إلى مسالكه، وتحيط به المخيفات المرعبات من كلِّ جانب، وهولا يَدْرِي كيف يحيد عنها، وهذا نوع من العذاب شديد.

ويكون أيضاً في مسيرته وحركاته على أرض المحشر يوم الدِّين أضلَّ سبيلاً مِنْهُ، يوم كان في الحياة الدُّنيا ضالاًّ بكفره وفجوره، واتِّباعه خُطُواتِ الشياطين، وتوغُّله في متاهات الْمَهالِك، وأودية الشرِّ والإثم، وارتكاب الجرائم، وفِعْلِ الكبيراتِ من الموبقات.

* * *

النصّ السابع

وفي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) أيضاً قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ۝٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ۝٩٨ ﴾

أي: ومَنْ يَحْكُم اللَّهُ لَهُ بالْهِدَايَة بناءً على إيمانه وعمله الصالح، فهُوَ المهتدي حقّاً، إذْ لا حُكْمَ إلاَّ لله. ومن يَحْكُمِ الله عليهم بالضلالةِ بناءً على كفرهم وما قدَّمُوا من سيِّئات، فَلَنْ تَجِدَ ـ يا أيُّها السامِعُ أيّاً كُنْتَ ـ لَهُمْ أولياء من دون الله يحكُمُونَ لَهُمْ بأنَّهم كانوا مَهْدِيِّين، وتكون أحكامهم نافذة الأَثَر، لأنَّ الحكم لله وحده، ولأنَّ الأمر كلُّه لله وحده.

وبما أنَّ هٰؤلاء الكفرة الضالِّين الذين يحكُمُ الله عليهم بالضلالة، قد كانوا في الحياة الدنيا أمثال البهائم، مُكِبِّينَ على وجوههم، لا يرفعون رؤوسهم لاستقبال ما يَنْزِلُ من عند الله من آيات كتابه، وكانوا بالنسبة إليها كالْعُمْي لا يَرَوْن الحقَّ الَّذي تهدي إليه، وَكالْبُكْمِ لَا يَعْتَرِفُون بما يَصِلُونَ إلى إدْراكِهِ مِنَ الْحَقِّ الرَّبّانيّ. وكالصُّمّ لا يَسْمَعُونَ نداءاتِ من يُذَكِّرهم به، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحشُرُهُمْ يوم القيامة على وُجوههم عُمْياً وبُكْماً وَصُمّاً، مجازاةً لهم بمثلِ عَمَلهم، ضِمْن قاعدة: «الجزاء من جنس العمل».

وبعد الحشر والحساب وفصل القضاءِ يكونُ مأواهُمُ الأخير جهنَّم التي يأتيها المدد بالوقود دواماً، وكُلَّما خَبَتْ (أي: سَكَنَتْ وخَمَدَ لَهَبُهَا) جاءَها بأمر الله مَدَدٌ من الوقود، فزادهم بذلِكَ سَعيراً (السعير: النار، ولَهَبُها) أي: زادهم اللَّهُ لَهَباً بالوقود الذي تُمَدُّ به، لاستمرار تعذيبهم، واستمرار تذوُّقهم للعذاب.

والسبب في مجازاتهم بهذا الجزاء، أنَّهم كَفَروا بآيات الله وهم في الحياة الدنيا، مُعَطِّلين أبصارهم وألسنتهم وسمعهم، وأنهم كذَّبوا بنبأ أنَّهُمْ مبعوثون خلقاً جديداً إلى يوم الدِّين، لمحاسبتهم ومجازاتهم، جاحدين قدرة الله على إحيائهم مرَّةً أخرىٰ بعد فناء أجسادهم الَّتي كانت لهم في الحياة الأولى، مع أنه هو الذي خلقهم للحياة الأولى ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَلِكَ جَزاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا: أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾:

يطرحون تساؤلَهُمْ على طريقة استفهام المنكر المتعجّب الذي يرى أن البعث إلى الحياة بعد الموت والفناء أمرٌ مستبعد مستحيل.

* * *

النصّ الثامن

وفي سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ خطاباً للرسول ويُلحق به الدُّعاةُ إلى الله من بعده:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ في هذا النصِّ حقيقةً من حقائق التكوينِ السَّمْعيِّ والبصريِّ في الناس، وهي أنَّ السَّمْعَ الظاهر والبصر الظَّاهر جهازان ناقلان، وأنَّ السمع الحقيقيَّ والبصر الحقيقيَّ إنَّما يكونان في مراكز السَّمع والبصر في الدماغ، وهي الَّتي تُدْرِك وتعقل ما ينقله جهاز السمع والبصر، وأنَّه حين يكون في داخل النفس صوارف أو حجب تصرف أو تحجُبُ ما تنقلُه أجهزة السمع والبصر الظاهرة، فإنَّ هذه المراكز في الدماغ لا تُدْرِك ولا تعقل بقواها شيئاً من الْمُدْرَكات التي تنقلها أجهزة السمع والبصر، فصاحبُها أصَمُّ وأعْمَىٰ في مراكز السمع والبصر داخل دماغه، بسبب الصوارف والْحُجُب.

وتكون النتيجة أن ترى من تحدِّثُه يستمع إليك بأُذُنه، لكنَّهُ لَا يَسمَعُكَ بمراكز السمع في دماغه، وأن تَحْسَبَ أَنَّ مَنْ تُبَصِّرُهُ بآيات اللَّهِ في كونه لِيُدْرِكَ دَلالَاتِها الفكريَّة، يَنْظُرُ إِلَيْكَ ببصره، بيد أنَّه لا يرى بمراكز البصر في دماغه شيئاً ممَّا تُبَصِّرُهُ به، فهو في الحقيقة أعمى بالنسبة إلى مراكز الرؤية في دماغه، بسبب الصوارف والحجب.

وقد جاء البيان بصيغة الاستفهام الدَّالّ على النفي، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانوا لَا يَعْقِلُونَ﴾:

أي: أنت لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ صَمَماً دَاخليّاً، وهم الَّذين لا يَعْقِلُونَ في مراكز السَّمع في أدمغتهم، ما تنقلُهُ من مسموعاتٍ أجهزةُ نقلِ الأصوات في آذانهم.

وقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾:

أي: أنت لَا تَهْدِي الْعُمْيَ عَمىً داخليّاً يمْنَعُ مراكز البصر في أدمغتهم من أن تُبْصِرَ ما تنقُلُه من مرئيّاتٍ أَجْهزةُ نقل المرئياتِ في أَعْيُنِهم.

والمعنى: إنَّك لا تستطيع ذلك، لأننا لم نعطك سلطة الإجبار التكويني، بعد أن منحنا النَّاس حرِّيَّة الاختيار بإراداتهم، لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

إنَّ القادر على فعل مثل هذا الجبر هو الله الرَّبُّ الخالق، لكنَّه سبحانه لم يشأْهُ، لمنافاته لمشيئة التخيير التي شاءها لعباده، ومشيئاتُ الله لا تتناقض فيما بينها

* * *

النّصّ التاسع

وفي سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

جاء هذا النصّ في معرض الحديث عن فريق الكافرين الذين افتروا على الله كذباً، ويَصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً، وقد حُجِبَتْ بحُجُبٍ من نفوسهم، مراكز سمعهم ومراكز بصرهم، فهم لا يستطيعون سماع نداءات الحقّ، ولا رؤية آياته. وفي معرض الحديث عن فريق المؤمنين الَّذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخْبتُوا إلى ربِّهم (أي: خَضَعُوا وخَشَعُوا له واطْمَأَنُّوا إليه).

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ :
أي : وصْفُ الفريقين .

والمعنى : وصْفُ الفريقين كما يلي : فالفريق الكافر كالأعمىٰ والأصَمّ بالنسبة إلى قضايا حقّ الله على عباده، إذْ جمع في ذاته صفة الأعْمَىٰ من جهة البصر، وصفة الأصم من جهة السَّمع . والفريق المؤمن كالبصير والسميع، بالنسبة إلى قضايا حقّ الله على عباده، إذْ جمع في ذاته صفة البصير شديد البصر، وصفة السَّميع شديد السَّمْع .

فهل يستوي هٰذان الفريقان وصْفاً؟!

إنَّهما لا يستويان بداهةً .

بعد هذا البيان يحضُّ الله عزَّ وجلّ على حُسْنِ التَّذَكُّر لحقائق الأمور بعد معرفتها، وعلى وضعها في الذاكرة للاستدعاء عند المناسبات الداعيات، فقال تعالى :

﴿أفَلا تَذَكَّرُونَ؟!﴾ .

* * *

النصّ العاشر

وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قال الله عزَّ وجلّ :

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

أي : لا يستجيب للدَّعوة الرَّبّانيَّة المبيِّنَةِ لحَقِّ الله على عباده إلَّا الذين يسمعون في مراكز سمعهم الداخليَّة نداء دعوة الحقّ، وهؤلاء هم الأحياء حقيقة، الحريصون على سعادتهم الخالدة .

أمّا الَّذِين لا يستجيبونَ لهذه الدعوة الرَّبّانية فهم في الحقيقة موتى، إذْ قد انقطعت صلة حواسِّهم الباطنة بما يحقِّق سعادتهم الأبديَّة، فهم بالنسبة إليها

كـالموتىٰ تمـاماً، وسيـظَلُّونَ وفق سُنَن الله السببيَّة مـوتى، لأنَّ أحـداً غيـر الله الـرَّبِّ الخالق المجبر لا يستطيع أن يبعثهم إلى الحياة القلبيَّة، فيبصـروا ببصيرتهم حقـائق الـدِّين، وواجبـاتهم تجـاه ربهم، التي إذا أدَّوْهـا كـانت سبب سعـادتهم الحقيقيَّـة، والله لا يجبرهم بعد أن وضعهم وهم ذوو إرادات حرَّة موضع الامتحان.

لقـد اختـاروا لأنفسهم هـذا المـوت، بسبب تـوجيههم كـلَّ حـواسِّهم لشؤون دُنْياهم من شهوات وأهواء ولذّاتٍ وتفاخُرٍ وتكاثر ونحو ذلك من زينـة الحياة الـدنيا، وستـأتيهم منايـاهم التي يموتـون بها المـوت الجسدي بعـد أن كانـوا ميِّتين المـوت القلبيّ والنفسيّ. ثمَّ يبعثُهم الله إلى يـوم الـدين، فهم إلىٰ حســاب الله وعـذابــه يُرْجَعُونَ.

* * *

النصّ الحادي عشر

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِۗ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: والَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللَّهِ المنزَّلَاتِ على رسـوله، هم في مـراكز السَّمْـع الحقيقيَّــة لـديهم داخــل أدمغتهم صُمٌّ عن استمـاع نــداءات دعـوة الحقّ، بسبب الحجب النفسيَّة القائمة بين آذانهم ومراكز السمع في أدمغتهم، أو في عقولهم.

وهم أيضاً بُكْمٌ عن الاعتراف بالحقِّ ولو عَرَفُوهُ، وذلك بسبب الموانـع النفسيَّة التي تمنعهم من أن يعتـرفوا بـالحقِّ أو يَدْعُـوا إليـه. وهم أيضـاً مُقِيمُـونَ في داخـل الظلمات كالْعُمْي، لا يرون آيـات الله الدّالاّتِ على عـظيم صفاتـه وبديـعِ إتقانـه، وجليلِ حكمته، فيما خلق وبَرَأَ وصوَّر.

فكيف يكـون حالُهم، وقـد حُجِبَتْ عن الحقِّ والخيـر والفضيلة وعن أسبـاب سعـادتهم في دنياهم وآخـرتهم، أَجَلُّ حـواسِّهم التي تَصِلُهُمْ بالحقـائق، التي تـدلُّ عليهـا آيات الله في كـونه، وتـدلُّ عليها آيـات الله فيما أنـزل على رسولـه من كتاب حكيم مجيد؟!

وما داموا كذلك فلا بُدَّ أن يُكَذِّبوا بآيات الله المنزَّلات.

* * *

النصّ الثاني عشر

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً، يأمر فيه رسوله محمّداً ﷺ أن يقول للكفرة المتعنّتين الّذين يَتَّخذونَ التَعنُّتَ بطلب الآيات والخوارق المادّيّة ذريعةً تعجيزيَّة لجعل إصرارهم على الكفر أمراً يُعْذَرُونَ به:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾.

أي: قل يا محمَّد لأصحاب المطالب المتعنِّتة: أنَا حينما أقول لكم إنّي رسول الله إليكم أبلِّغُكُمْ ما أوحى الله به إليَّ، وأمرني أن أبلِّغَكُمْ إيّاه، فإنَّنِي لا أقول لكم عندي خزائن الله، حتى تطالبوني بالمطالب المتعنِّتة على ما تشتهون، ولا أقول لكُمْ إنَّنِي أعلَمُ الْغَيْبَ، حتّى تسألوني من علوم الغيب ما لا أعلم، كسؤالكم عن زمن قيام الساعة، ولا أقول لكم إنِّي مَلَك، حتّىٰ تطالبوني بأن تكونَ لي صفات الملائكة، إنَّما أقول لكم: إنّي عَبْدٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَوْحىٰ الله إليَّ، وأرسلني إليكم لأبلِّغكم دينه، وهذه هي حدود ذاتي، وحدود خصائصي وحدود مُهِمَّتي ووظيفتي فيكم، فما هذه المطالب المتعنِّتة التي تطالبونني بها؟!

إنّي لا أملك من الأمر إلَّا أن أتَّبِعَ ما يُوحَىٰ إليَّ:

﴿إنْ أتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَىٰ إليَّ﴾.

وبعد هذا البيان قُل لهم يا محمَّد: إنَّ ما أقدِّمه لكم من حقائق دينيَّة مؤيَّدة بالبراهين العقليَّة، والأدلة العلميَّة، إنَّما يدركُها من يتفكَّر فيها، وهم أهل البصر الذين يبصرون بجهاز التفكير لديهم حقائق الأمور ببرهاناتها.

لكنَّكُمْ قد حجبتم عقولكم عن هذه الإدراكات، واخترتم لأنفسكم أن تكونوا عمياناً بالنسبة إليها، فماذا أفعل لكم؟!

إنَّ هذه الحقائق الدينيَّة التي أوحى الله بها إليَّ قد استطاع أن يُدْركها غيرُكُمْ من أهل الإيمان، أهلِ البصر الفكريّ النافذ الدَّرَّاك لحقائق المعارف الرَّبّانية، وأهلِ البصيرة التي لم تطمسها الأهواء والشهوات، ولم تحجُبْها غشاوات وساوس الشياطين وتسويلاتهم، وظلمات مطالبهم من الحياة الدُّنيا.

وبناءً على هذا البيان فإنَّني أسائلكُمْ قائلاً:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ والْبَصِير؟!﴾:

إنَّهُما لا يستويان بحُكْم البديهة العقليَّة.

وإنني أدعوكم بعد ذلك إلى التفكُّر السليم فأقولُ لكُمْ:

﴿أَفَلَا تتفكَّرُونَ﴾.

واعلموا أنَّ العدل الرَّبّاني يقضي بأن يُعَامِلَ مَنْ عَمِيَ عن الحقّ بإرادته بجزاء من جنس عمله، وبأن يعامل من أبصر الحق واستجاب له طائعاً مختاراً بجزاء من جنس عمله، وأن لا يُسَوِّيَ سبحانه بين الفريقين.

﴿قل: هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ والْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟!﴾.

* * *

النصّ الثالث عشر

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً يُعلِّم رسوله ما يقوله للناس، ويُلْحِقُ بالرَّسول كلَّ داعٍ إلى الله من بعده:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿بَصَائِرُ﴾: جمع «بَصِيرَة» وتُطْلَقُ على العِلْم، والحجَّة، والْعِبْرَةِ، وكلّ ما ينفع الْعِلْمُ والْعَمَلُ به من بيانات ونصائح وإرشادات.

أي: هذه الآيات القرآنية، والبيانات والحجج والْعِبَرُ المنـزَّلَةُ لهـدايتكم، هي بصائر من الرَّب الخالق الرحمن الرحيم مُهْداةٌ إليكم.

فمن أبصرها بتفكُّـر، وأدْرك دلالاتها، وفَهِم معـانِيَها، وَعَمِـل بما جـاء فيها، واعتبر بِعِبَرها، فلنفسه كسب خيراً وسعادة عاجلة في الدنيا، وآجلة إلى يوم الـدين، وهي يومئذٍ تكون سعادةً خالدة.

ومن تـولّى عنهـا، فلم يستقبلهـا، ولم يتفكَّـرْ فيهـا، ولم يتفَهَّم دلالاتهـا، ولم يعْمَلْ بما تضمَّنَتْهُ من هداية، وكان بـالنسبة إليهـا أعْمَىٰ، فعلىٰ نفسه جنىٰ شـرّاً وإثماً عظيماً، وعذاباً أليماً.

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾:

أي: ولستُ مكلَّفـاً أن أكـون حفيـظاً عليكم، مسؤولاً عن حفـظكم من النـار كمسؤولية الوليّ عن القاصرين من رعيَّتـه. وإنَّما مسؤوليتي منحصـرة في أن أبلِّغكم وأنذركم، ثمَّ أنتم المسؤولون عن أنفسكم.

* * *

النصّ الرابع عشر

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

أي: أوَمَنْ كان كالميِّتِ الذي لا يذوق من طعم الحيـاة الروحيَّـة القلبيَّة شيئـاً فأحيَيْناهُ حينَ آمَنَ باختياره الحرّ بالله ورسـوله وبمـا أنزل على رسـوله، فـذاق حلاوة الإيمـان، وجعلنا لـه قُرْآنـاً ذَا نورٍ لفكـره وقلبه ونفسـه، يهـديـه في داخله، ويعمـل بمقتضاه، فيمشي به في الناس سَوِيّاً على صراط مستقيم.

كمَنْ وصْفُهُ أنَّه بقي كالميِّتِ، بالنسبـة إلى أنوار الهـداية، فهـو لا يدرك منهـا

شيئاً، وهو يتخبَّط في الظلمات على غير هُدى، بسبب كُفْرِه، وعدم استجابته لـدعوة الحقّ الرَّبّانية، وهو في ظلماته يحاول أن يجد طُرقاً يسلُكُهـا غير صـراط الله، عسَىٰ أن يخرج من الظلمات التي هو فيها، لكنَّه لا يستطيع، بـل يظَلُّ في الـظلمات غيـر خارج منها، لأنَّ كلَّ الطرقات غير صراط الله طرقاتٌ مظلماتٌ لا نور فيها، ولا يوجَدُ له مخرج من ظلماته إلاَّ صراط الله، لكنه رفض عبوره، وأخذ يبحث عن غيره، ولن يهتدي، إذْ لا يوجد في الواقع طريق منيرٌ غيره.

لَقَـدْ زُيِّن له أن يعتمـد على آرائه وأوهـامه ووسـاوس الشياطين، فقـد اقترنت بـزخـارف الأفكـار والأقـوال والمـذاهب والآراء المضلَّة الصـارفـة عن صـراط الله المستقيم، وزُيِّن لـه أن يعمـل بهـا ويتَّبـع فيهـا خـطوات الشيـطان، إذْ وجـد فيهـا ما يشتهي ويهوىٰ من متاع الحياة الدنيا.

كذلك التزيين الذي حصل له زُيِّن لسائر الكافرين من قبله في تاريخ البشـريَّة ما كانـوا يَرَوْنَ من بـاطل، ومـا كانـوا يعملون بمقتضاه من أعمـال ترضي نفـوسهم، فاستحقوا نقمة الله وعذابه.

ونتابع فقرات النصّ بشيءٍ من التحليل:

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

أي: أومن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً عن قضايا الإيمان كالميت، فهدينـاه إلى المعارف الإيمانيَّة فآمن فصار بالإيمان حيّاً.

فجعل الله الكفر الناتج عن الجهل بمثابة الموت، لأنَّ الكفر للقلوب والنفوس كالموت للأجساد وأنواع الإحساسات الجسدية.

وجعـل الله الإيمـان الـذي هـو ثمـرة العلم الصحيـح بمثـابـة الحيـاة للقلوب والنفوس ومالها من إحساساتٍ باللّذاتِ وأنواع السعادات.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾:

أي: وأوضحنا له طريق حياته السعيدة، بما أنزلنا من تعاليم وشرائع ووصايا وأحكام.

فضرب الله تعالى النُّور مثلاً لتعاليم دينه الذي أنزله لعباده، فاهتدى به المؤمنون، ومشَوْا به في حياتهم على بصيرة من أمرهم.

ووضع الممثَّلَ به موضع الممثَّل له، حتى كأنَّه هو، تأكيداً للمماثلة بينهما، واستغناءً بلفظ المشبَّه به عن المشبَّه.

وذلك لأنَّ النور في الحسِّيات الظاهرة يكشفُ طريق الماشي على الأرض، ويعرِّفه بما حوله، فهو مثلُ التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربّانية التي تهدي المؤمنين لفعل الخير وترك الشرّ، وتنجي من المزالق والضلالات وأنواع المهالك.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منها﴾:

أي: كمن وصْفُه أنه بَقِي في كفره وأنواعِ جَهْله، أو رفضه اتِّباعَ ما ينجيه ويُسْعِدُهُ من فعل الخير وتَرْك الشرّ، وهو ما تهدي إليه التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الرَّبّانيّة.

فضرب الله عزَّ وجلّ الظُّلمات مثلاً لأنواعِ جَهْلِ الكافر بهذه المنجيات المسعدات، أو رفضه اتِّباعها والسَّيْرَ بهداها.

ووضعَ الممثَّل به موضع الممثَّل له، فكأنَّه هو، تأكيداً للمماثلة بينهما.

وذلك لأنَّ الظلمات في الحسِّيات تجعل الماشيَ فيها يتعرَّض للمخاطر والمهالك، فهي كالجهل بدين الله لعباده، أو رفضِ اتباعه والعمل به، إذْ كلاهما يوقعان الإنسان في المخاطر والمهالك وسوء المصير.

هذا النَّصّ البديع الذي اشتمل على تمثيل الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وتعاليم دين الله لعبادِه بالنور، واتِّباعها بالمشي بين الناس بالنور، وتمثيل الجهل بهذه التعاليم بالظلمات، وعدم اتِّباعها بالمشي في الظلمات والمتاهات، يلاحظ فيه أنَّ وفرة عناصر التشابه بين الممثَّل به والممثَّل له قد حسَّنت تنزيل الممثَّل به منزلة

الممثَّل له، فكأنَّه هو، إيجازاً في اللَّفظ، واختصاراً في التعبير.

وفي هذا ما فيه من تقديرٍ لذكاء المخاطبين وقدراتهم على فَهْمِ المراد، وحلٍّ لِلأَمْثالِ وإرجاعها إلى أصولها.

ولو أردنا أن نبسط الكلام، وندلَّ على كلِّ فكرة بعبارة مساوية لها دون اعتماد الإيجاز بالحذف، والإيجاز بتنزيل الأمثال منزلةَ ما ضُربت له الأمثال، لكان علينا أن نقول في هذه الآية ما يلي:

أومن كان كافراً بالله واليوم الآخر، غير مهتدٍ بهدي دين الله وشرائعه لعباده، فكان مَثَلُهُ في داخل نفسه كمثل الميِّت الذي لا حياة في جسده من جهة، وكمَثَلِ الضَّالِّ الذي يسير في الظلمات، فيتعرَّض لأنواع المخاطر والمهلكات من جهة أخرى، فهدَيناه إلى الإيمان فاستجاب باختياره الحرّ، فآمن واهتدى، وأنزلنا عليه الشرائع والوصايا، فاتَّبعها ومشى بهديها على بصيرة، فأسعدناه بذلك، وأنجيناه من المهالك، فكان في داخل نفسه كمثل الجسد الذي نفخنا فيه الرّوح فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس.

هل يستوي هذا الذي ذكرنا وصفه، هو ومن بقي في كفره، فهو في واقع حاله النفسيّ كالميّت من جهة، وهو في أعماله في حياته ضالٌّ تائهٌ يتعرَّض للمخاطر والمهالك من جهة ثانية، فمثله كمثَل من يمشي في الظلمات ليس بخارج منها، وهو مع ذلك راضٍ بواقعه، ويرىٰ فيه متعة نفسه، ومرضيات شهواته:

﴿كَذَلِكَ زُيِّن للكافرين ما كانوا يَعْمَلُونَ﴾.

هل يستوي هذان الفريقان؟!

إنهما لا يستويان بداهةً.

* * *

النص الخامس عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾.

أي: وما يستوي الأعمىٰ في بصرِه الظاهر أو في بصيرته القلبيَّة، والبصير في بصره الظاهر أو في بصيرته القلبيَّة.

كيف يستوي الفريقان في مقاييس الحقِّ والواقع، وفي مقاييس الآثار والنتائج، وفي التقدير والجزاء؟!.

إنهما لا يستويان أبداً.

وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنَّهُمْ على درجات ومستويات متفاوتاتٍ متفاضلات، إيماناً وعملاً صالحاً.

كيف يستوي الفاضل والمفضول، رغم وجود التفاضل والتفاوت بينهما، ولو اشتركوا في أصْل الصفة العامَّة الَّتي هي بمثابة الجنس الذي يجمع أنواعاً متفاوتة، أو بمثابة النوع الذي يجمع أفراداً متفاضلة متفاوتة فيما بينها؟!

وكذلك لا يستوي أفراد الفريق الْمُسيء، إذْ هم على دركاتٍ ومستويات متفاوتات في الإساءة، وفي نسبة الكسْبِ السَّيِّىءِ عقيدةً وعملاً.

فمِنَ البَدَهِيِّ إذَنْ أن لا يستوي المؤمنون والكافرون، وأنْ لا يستوي المسلمون والمجرمون.

﴿قليلاً ما تَذَكَّرُون﴾:

أي: هذا علْمٌ نقدمه لكم لتعلموه، ثم لتذكروه عند المقتضيات الداعيات لتذكُّره، ولكن قليلاً ما تَذَكَّرُون، إهمالاً وتهاوناً واتباعاً للأهواء والشهوات.

* * *

النصّ السادس عشر

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: وأمّا ثمودُ قومُ النبيّ صالحٍ عليه السَّلام فهدَيْنَاهم بالدَّعْوةِ إلى الحقّ، وسلوك الصراط المستقيم، على لسان رسولهم، فرفضوا الاستجابة لهذه الدعوة، فاسْتحبُّوا (أي: أحبُّوا بشدَّةٍ) الضلال الذي هو كالعمى، وآثروه على الهدى الذي هو كالبصر، فكفروا بما جاءهم به رسول ربهم، فأخذتْهُمْ صاعقة العذابِ الْهُونِ (أي: العذاب المقرونِ بما يُنْزِلُ بهم الْخِزْيَ) بسبب ما كانوا يكسبون من كفرٍ وأعمالٍ سيِّئة.

وقد وضع الممثَّلُ به مَوْضِعَ الممثَّل له، تأكيداً للمماثلة، إذ سمَّىٰ الله الكُفْرَ والضلالةَ عَنِ الحقِّ عَمىً.

وأَمَّا الذين آمنوا من ثمود، واتَّبعوا رسول ربِّهم، وكانوا يتَّقون الوقوع في المعاصي والآثام، ويتَّقون عذاب الله وعقابَه، فقد نَجَّيناهم من الإهلاك العام الذي أنْزَلْناه بثمود.

وهكذا نلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سمَّى الكُفْرَ ورفضَ قبولِ الحقِّ عمىً، ونُدْرِك بِالمقابل أنَّه سَمَّى قبولَ الحقِّ والإيمانَ به بصَراً، وفق المصطلح القرآني الَّذِي تكرَّر في نصوصه.

* * *

النص السابع عشر

وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) أيضاً، بشأن القرآن المجيد:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

لقد أنزل الله عزَّ وجلَّ القرآن عربيّاً، وشرَّف به العرب إذْ أنزله بلسانهم، فكفر به من كفر منهم، فقال اللَّهُ بشأن هؤلاء الذين كفروا به من العرب، وفي مقدِّمتهم كُفَّارُ مكَّةَ هٰذا القول.

والمعنى: ولو جعلناه قرآناً أعجميّاً، أي: مُنَزَّلاً بلسانٍ آخر من ألسنة الأعاجم، لقال الذين كفروا به من العرب: لولا أُنْزِل مُفَصَّل الآياتِ باللِّسان العربي، ولقالوا معترضين: أأعجميّ وعربي، أي: أقُرْآنٌ باللِّسان الأعجميّ ونبيٌّ عَرَبِي؟!

وفي عرض هذه القضيَّة بيانٌ لجانب من جوانب حكمة تنزيله قرآناً عربيّاً، بعد أن اختار الله خاتم رُسُلِهِ من أمَّة العرب.

بعد هذا علَّم الله عزَّ وجلَّ رسوله ما يقولُه لهم: وقد تضمَّن التعليم ما يلي:

قل: إنَّ القرآن هو للَّذين آمنوا باللَّهِ ورسوله هُدىً يَهديهم إلى سواء السبيل، وهو شفاءٌ لِعِلَلِ أفرادهم ومجتمعاتهم إذا اتَّبعوا ما أنزل الله فيه.

والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، يوجد في آذانهم وَقْرٌ (أي: صمم، أو ثقل في السمع قريب من الصمم) بحسب اختلاف أحوالهم.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾:

أي: والقرآن بالنسبة إليهم شيءٌ غير مُدْرَكٍ وغيرُ مفهوم، لأنَّهم لم يستمعوه

حتَّى يُفكِّروا فيه، فبين معانيه وبين عقولهم حجابُ الْعَمىٰ في البصيرة والقلب، أو القوى الإِدْراكيَّةِ في النفس.

جاء في كتب اللُّغة أنَّ كلَّ شيءٍ غيرِ مفهومٍ ولا مُدْرَكٍ بالأفكار والعقول فهو عَمىً بالنسبة إليها، ولَعَلَّ هذا هو في الأصل من إطلاق العَمَىٰ على المحجوب عن الإِدْراكِ بسببه.

ولمَّا كان حالُهُمْ كذلك فإنَّ من يُحاول أن يُبلِّغهم آيات الله ليستمعوا إليها كأنَّه يناديهم من مكان بعيد، فهم لا يسمعون من ندائه إلَّا صوتاً مختلطاً، ليس فيه حروف ولا كلماتٌ حتَّىٰ يفهموا دلالاتها.

فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

وهكذا وُضِعَ الْمُمَثَّلُ بِهِ موضع الممثَّل لَهُ تأكيداً للمماثلة، إذ سمَّىٰ عدم الاستماع لآيات الله وقراً، وسمَّى عدم فهم دلالاتها عَمىً.

* * *

النصّ الثامن عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) خطاباً للرسول فكلّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من بعده، بشأن الكفرة الَّذين حجبهم زُخْرُفُ الحياة الدنيا عن سماع كلمة الحقِّ الرَّبّانيَّة، وعن رؤية آيات الهداية بمراكز الإِدراك الفكريّ والقلبيّ لديهم:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

استفهام يُقْصد منه النَّفيُ، ويُؤتىٰ به لِتَلَقِّي الاعْترافِ بالنفي من المخاطب به.

والمعنى: أنت لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الَّذين أُصيبوا بالصَّمم الفكريّ والنفسيّ تُجاهَ موضوعاتٍ لا يُرِيدون أن يسمعوا عنها شيئاً، إنَّ مُحاولة من يريد إسماعهم وهم

صُمٌّ، محاولةٌ منه لخرق أحد أنظمة الله العامة في النفوس البشرية، وهٰذا الخرقُ لا يَقْدِر عليه إلَّا الله الرَّبُّ الخالق واضع الأنظمة والسنن، وهو سبحانه لا يفعلُهُ بعد أن وضع الناس موضع الاختيار الحرِّ للابتلاء.

وأنت لا تستطيع أيضاً أن تُوصِل الهداية إلى مراكز الاهتداء في نفوس الْعُمْي، الذين أُصِيبُوا بالْعَمىٰ الفكري والقلبيّ تجاه موضوعات لا يريدون أن يغيِّروا من مفاهيمهم حولها شيئاً، فمحاولة إيصال الهداية إلى قلوبهم وأفكارهم محاولةٌ خائبة، لأنَّها محاولةٌ لخرق أحد أنظمة الله العامَّة في النفوس الإنسانية.

وكذلك الحال بالنسبة إلى هداية من هو في ضلالٍ مُبين، ويعلَمُ أنَّه في ضلالٍ مبين، لكنَّه غارقٌ في لذَّاته التي يجلُبُها له واقعهُ الضَّال.

* * *

النصّ التاسع عشر

وقوله الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أفرأيت أيُّها الداعي إلى سبيل ربِّك أيّاً كُنْتَ، حالَ من اتَّخَذَ إلَٰهَهُ الذي يتَوَجَّهُ لَهُ بالطاعة التامَّةِ والاستسلام الكامل في أموره كُلِّها، هَوَاهُ الذي يَجُرُّهُ إلى مَهَالِكه، ويجعلُه يستجيب لوساوس الشيطان، ويَتَّبِع خطواته السائرة بهِ إلى النار وعذابِه الأبديّ.

لقد جعل معبوده هواه، فصار بذلك ضالاً موغلاً في ضلالته، وميؤوساً من إصلاح حاله، وخروجِه من ظلمات ضلالته.

وقد علم الله حاله، فحكم عليه بالضلالة، بناءً على علمه سبحانه بحالته الداخليَّة التي وصل إليها، فأجرى سنته فيه، وهي أنَّ كلَّ من وصل في ضلاله إلى

حالة اتَّخذ فيها إلّهه هواه، أقْفَلَ سمْعَه وقَلْبَه بالنسبة إلى دعوة الحق، فهـو لا يَسْمَعُ ولا يفهم شيئاً مما يتَّصل بقضايا الدين الحقِّ، ووضع على القفل ختمـاً، إيذانـاً بأنَّ المقفول ممنوع الفتح، أو صار ممتنع الفتح.

وجَعَلَ على بصره غشاوةً (أي: ستراً وغطاءً) وهذه الغشاوة تمنع عنه كلَّ رؤيةٍ تتَّصل بقضايا الدِّين الحقِّ.

والمعنى: لا تكلِّف نفسـكَ أَيُّها الـداعي إلى سبيل ربِّـك عنـاءَ إبـلاغِ دعـوة الحقِّ إلى قلب إنسانٍ وصلت به حالة الإدبار والتولّي إلى أن اتَّخـذ إلَهَهُ هـواه، فقد صار إنساناً مَيْؤوساً منه، فلا تصل إلى داخل فكره ونفسه دعوة الحقِّ، بسبب وصوله إلى حالة الصَّمم والعمَىٰ المعنويَّيْن.

ولذلك لا تحاولْ أن تتخذ له أعذاراً تجعله بها قابـلاً للهدايـة، أو معذوراً في ضلالته، فقد تواردت عليه بيانـات دعوة الحق، فـرفضها وأَبـاها وتـولَّىٰ عنها، فهـو بالنسبة إليها أصَمُّ أعمَىٰ لا يَعْقل.

لقد حكم الله عليه بالضلالة بناءً على عِلْمٍ منه بحالـه، فأضلَّه على علم بـه، قال تعالى:

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وأجرىٰ سبحانه فيه سنته التي يُجْريها في كُلِّ الذين وصَلُوا إلى حالـةٍ ميؤوسٍ منها:

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.

فَلَا أحدَ يستطيع أن يحكُمَ له بالهداية من بعد الله:

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ؟!﴾:

أي: لَا أحد يهديه من بعد الله، إنِ الحكْمُ إلَّا له سبحانه.

ولمـا كان في الـدُّعَـاة إلى سبيـل الله من لا يُـدْرك هـذه الحقيقـة من حقـائق

الصفات البشرية، ويظَلُّ طامعاً بهداية من وصل إلى مثل هذه الحالة من أهل الكفر، قال تعالى:

﴿أفلا تذكَّرون﴾.

استفهام فيه معنى الإنكار عليهم إذْ لم يفهموا هذه الحقيقة، ولم يضعوها في ذاكرتهم دواماً، لاستدعائها عند المناسبات الداعيات.

* * *

النصّ العشرون

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) خطاباً للرسول فكلّ داعٍ إلى الله من بعده:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

نلاحظ في هذا النصّ أن الأوصاف التالية: (الموتَىٰ ـ الصُّمّ ـ الْعُمْي) قد أريد بها الكافرون الذين رفضوا الإيمان وأصَرُّوا على الرَّفض بعد وُضوح أدلَّته لهم، فأمْسَوْا بسبب كفرهم القائم على رفض الحقِّ محرومين من الحياة القلبيَّة والنفسيَّة المطمئنَّة التي يكونون بها سعداء، فهم كالموتى بالنسبة إلى هذا الجانب من ذواتهم.

ومن رفض الحقَّ بإصرارٍ وعنادٍ انْصَرَفَ سمعه عن سماع الدعاء لهذا الحقِّ، والنداء لاتِّباعه، وأُلْقِيَتْ على سمعه الداخليّ الْحُجُبُ نتيجةً لما كان منه من رفضٍ إراديّ بإصرار وعناد، فكان بالنسبة إلى نداءات الحقِّ المرفوض من قِبَله كالأَصَمّ.

وكذلك انصرف بَصَرُهُ عن رؤية دلائل الحقِّ، ومعالم طرق الهداية التي يشتمل عليها، وأُلْقِيَتْ على بصرهِ الداخليّ الغشاواتُ، فكان بالنسبة إلى هذه المرئيَّاتِ كالأعْمَىٰ.

إنَّما يَسْمَعُ السَّمَاعَ المؤثِّر، ويُبْصر الإبصارَ المؤثـر، من خطا بـإرادته من أوَّل الـطريق خطوة الإيمـان بـالله وبـآيـاتـه، فـانتقـل بهـذا الإيمـان انتقـالاً تلقـائيّـاً إلى الإسـلام لله، والاستسلام لأوامِرِهِ ونـواهيـه، فهـو عنـدئـذٍ يَسْمَـعُ دُعـاء الهـدايـة، إذْ لا حجابَ ولاَ غشاوةَ على سمعه، وهو عندئذٍ يرى ويبصر معـالم طريق الهـداية، متى لفت الداعي الهادي نظره إليها، إذْ لا حجابَ ولاَ غشاوة على بَصَـرِه، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ونفهم من هذا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ضرب مثلاً للكـافر المصـرِّ على كُفْرِهِ بعـد وضوح أدلَّة الإيمان له، بالميِّت الأصَمّ الأعْمَىٰ.

ونظراً إلى وَفْرَة عناصر التماثل بين الممثَّـلِ بِهِ والممثَّـلِ له أُنْـزِلَ الْمُمَثَّلُ بـه مَنْزِلَةَ الْمُمثَّلِ لَهُ فكأنَّهُ هو، تأكيداً للمماثلة، واستغناءً بالألْفَـاظ الدَّالَّـة على الممثَّل به عن الألفاظ التي تَدُلُّ على الممثَّل له.

وأصل التمثيل هنا هو من قبيل تمثيل أمرٍ معنويٍ بأمْرٍ مُدْرَكٍ بالحسّ الـظاهر، وهو من التمثيل البسيط، والصُّورَةُ التمثيليَّةُ فيه منتزعة من الواقع.

ويلاحظ في هذا التمثيل من الخصائص دقَّـةُ التصويـر، وصدْقُ الممـاثلة بَيْنَ الممثَّـل به والممثَّـل له، والتنـويعُ في عـرض المثل، إذْ نُـزِّل الممثَّل بـه هُنَا مَنْـزِلَةِ الممثَّـلِ له فلم يُشَـرْ في اللَّفظ إليه، ثُمَّ البنـاءُ على المثل والْحُكْمُ عَلَيْـهِ كأنَّـهُ عَيْنُ الممثَّلِ له.

ومن الدِّقَّة في التصوير ما نلاحظه في قوله تعالى:

﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

وذلك لأنَّ الأصَمَّ إذا لم يُوَلِّ مُـدْبراً فقـد يفهم بعض النداء من حـركات الفم وإشارات الوجه، لكنَّه إذا ولَّىٰ مُدْبراً لم يفهم شيئاً، وكذلك حال الكافرين المدبرين بإصرار وعناد عن كلِّ أدلَّة الهداية إلى الله.

وفي هذا النصّ يؤكِّد الله عزَّ وجلَّ لرسوله ما سبق أن أنزله في سـورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) ليقطع رجاءه بشأن تحويل الكافرين إلىٰ الإيمـان وهم غير مستعـدِّين لذلـك بإراداتهم، وليؤكِّـد لـه أنَّ وظيفتـه هي التبليـغ فقط، لا الإصـلاح الفعليّ والتحويل من الكفر إلى الإيمان.

وهذا التوجيه هو في الحقيقة توجيـهٌ للدُّعاة من بعـد الرسـول ﷺ، لأنَّ أعظم مشكلة نفسيَّـة يتعرَّضـون لها هي أنَّ النـاس لا يستجيبون لـدعوتهم، ويحسبـون أنَّ عملهم في الدَّعوة يجب أن يُحقِّق ثمـرات استجابـة فعليَّة من النـاس بنسبة كبيـرة، تحقِّق زيادة نسبة الصالحين على الفاسـدين، حتَّى يكون لهم السلطان في الأرض، ويَغْفُلُون عن أنَّ الحياة الدنيـا كُلَّها هي دار امتحـانٍ للجميع، وأنَّ الـدار الآخرة هي دار الجـزاء، وأنَّ المؤمنين إذا لم يكن لهم تمكينٌ في الأرضِ لقلَّةِ عـددهم، فليس ذلـك بسبب سخط الله عليهم، بـل لأنَّ الله عـزَّ وجـلَّ لا يَخْـرِقُ سننـه الثـابتـة في المجتمع الإنسانيّ، من أجل رغبات النـاس، مهما كـان شأنُهم، ولـو كانـوا رُسُلاً، فكيف بالصالحين الدُّعاةِ إلى سبيل الله من بعد الرُّسُل؟!

هذا إذا استوفى الـدُّعاة في أنفسهم مـا يجب عليهم علماً وعملاً وإخلاصـاً لله في دعوتهم، والتزاماً بمنهاج الدعوة القويم.

* * *

النصّ الحادي والعشرون

وقـول الله عزَّ وجـلَّ في سورة (البقـرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشـأن الـذين كفروا معاندين بعد معرفة الحقّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾.

أي: إنَّ الذين كفروا بالله ورسوله وبما بعثَ الله به رسوله، جُحوداً وعناداً بعد أن وضحت لهم أدلَّة الحقّ فستروها وجحدوها، قومٌ لا تُجْدِي فيهم الإنذاراتُ مهما

بلَغَتْ شِدَّتُها، وهؤلاء سواءٌ عليهم الإنذارُ وعدَمُه، إنَّهم مهما تتابعت عليهم الإنذاراتُ لا يؤمنون.

وذلك بسبب أنَّهم أصَرُّوا على الكفر مع عِلْمهم بالحقّ، وهذا يتولَّد عنه بمقتضىٰ سُنَّةِ اللَّهِ أن تنصرف قلوبُهم وسَمْعُهم وأبصارُهم عن استقبال أيَّةِ بيانَاتٍ تتَّصل بالدّين الحقّ، ومتى انْصرفت هذه الأجهزةُ لديهم عن استقبال بَيانَات الحقّ قامت على منافذها حُجُبٌ كثيفة، وأُغلقت أبوابُها إغلاقاً تاماً، وأُقْفِلَتْ هذه الأبواب وضُرِبَتِ الأَخْتَامُ على أقفالها، إعلاماً بأنَّها غير قابلة لأن تُفْتَح، أمّا أبصارُهُمْ فقد وُضِعَتْ عليها ستورٌ وحُجب تَمْنَعُها من رؤيةِ آيات الله في كونه، كآثار إهلاكه الكافرين من أهل القرون الأولى، إنَّهم إذا رأوها لم يُدْرِكُوا مِنْها عِبَرَها ودلالاتها، لأنَّ على أبصارهم غشاوة، بل شاهدوا معالِمَها الماديَّة فقط، فاستمتعوا بمشاهدة الآثار، ولم يكن لهم بها اعتبار، فقال تعالى:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

* * *

النصّ الثاني والعشرون

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن المنافقين:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: بالنسبة إلى أجهزة إدراكهم الداخليّ صُمٌّ محجوبون عن استماع بيانات الْحَق، بُكْمٌ لا تندفع نفوسُهم للاعتراف بالحقّ، عُمْيٌ لا تَنْفَتح بصائرُهُمْ لرُؤْية أنوار الهداية، ورؤية صراطها المستقيم.

وبما أنَّهم منطلقُونَ في غوَايتهم فإنَّهُمْ لَا يَرْجعون عن غيِّهم إلى الحقِّ والخير والفضيلة.

وهـذا الوصف هـو لصنف من المنـافقين، وهم الـذين وصفهم الله عـزَّ وجـلّ بقوله:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقد شرحتُ كامل النصّ في غير هذا الموضع[١].

* * *

النصّ الثالث والعشرون

وقـول الله عزَّ وجـلّ في سورة (البقـرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نـزول) أيضـاً بشـأن الذين كفروا:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿يَنْعِقُ﴾: أي: يصيحُ في الغنم. النَّعيقُ: هو صياح الراعي في غنمه.

في هـذا النصّ مثَلٌ لصنْفٍ من الكـافرين، وهم الـذين رفَضُـوا أن يستجيبـوا لـدعوة الإيمـان، لأنَّهم صَمَّموا على أن لا يؤمنـوا، واختـارُوا بكمـال إراداتهم سبُل الكُفر على سبيلِ الإيمان، لأنَّهم حريصـون على أن ينالـوا ما يشتهـون ويهوَوْن من الحيـاة الدنيـا، من دون أن يَشْعُروا في داخلهم بـأنهم سيُحـاسبـون ويُجـازَون على أعمالهم وكلّ ما اكتسبُوه من إثم في الحياة الدنيا.

وهؤلاء هم الذين قال الله عزَّ وجلّ بشأنهم في أوائل سورة (البقرة) نفسها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) انظر شرح كامل النص في باب الصور الأدبيَّة من هذا الكتاب.

إنَّ هؤلاءِ هُمْ قِسْمٌ من الكُفَّـار، وهُمُ الـذين كفـروا عن تصميم على رفض الإيمان، وإرادةٍ جازمة لهذا الـرفض، بعد وضـوح دلائل الإيمـان لهم، ولم يكفُروا عن جَهْلٍ أوْ غَفْلَةٍ أو انشغالٍ بالشهوات.

لـذلك فـإنَّ عُقْدَةَ هـذا القسم من الكافـرين ذات أثر في أعمـاقهم، ومن كانت عُقْـدَةُ كُفره في أعمـاق نفسه، كـانت النتيجة الطبـعيَّة الَّتي تقضي بهـا سُنَّـة الله في خَلْقِـهِ، أنْ يُخْتَمَ على قَلْبِه فَـلَا يَقْبَل الهـدايـة، وأنْ يُخْتَم أيضـاً على سمعـه، فهـو لا يسمَعُ أقوال الهداية، أَوْ تكونَ الْغِشَاوَةُ على سَمْعِه فلا تَسْمَحُ بانتقال أقوال الهداية إلى مراكز إدْرَاكه الواعي، وأن يكون على بَصَره غِشَـاوَةٌ لَا تسمَحُ بـانتقال المـرئياتِ المتضمِّنة عبراً وعظاتٍ وآياتٍ من آيات الله، إلى مراكز وعْيه.

فسواءٌ عليه أأنذرته أمْ لم تُنْذرْهُ، إنَّه لا يؤمن، لأنه لا يُريدُ أنْ يؤمن.

وإذا استوى لدى هذا القسم من الكافرين الإنذار وعدمُه، وكانت دعوتُهم إلى الهداية مساويةً لعدم دعوتهم إلى الهداية، لأنَّهم أرادوا أن لا يؤمنـوا، وصَمَّمُوا على ذلك، فإنَّ باستطاعتنا أن نُمثِّلَ من يدعوهم إلى الهداية بمَنْ يدعو الجدار ويخاطبُه، وأنْ نُمَثِّلَ من يُنْذرهم بمَنْ يُنذِر الحجارة الَّتي لا تستجيب لداعيها أو منذرها.

لكنَّ الْجُـدُر أو الحجارة لا تسمَـعُ شيئاً، وهم يسمعـون، إلَّا أنَّ ما يسمعـونـه لا ينفذُ إلى مراكز وعيهم الذي يؤثر فيهم، فلا يهزُّهم بطمع ولا بخوف.

إذَنْ فأَحْسَنُ تمثيل لهم أن يُمثَّلُوا بالأنعام، وأن يُمَثَّل من يدعـوهم إلى الهدىٰ ويُنْذِرُهم عاقبة كفرهم بخطيب يقف في قطيع من الغنم، فيخطُب فيه خطبـةً بليغة، إنَّ هذا هو التمثيل الملائم المطابق لصُورَةِ الممثَّل له، والمراعَىٰ فيه دقَّة التصويـر، وهو ما جاء في المثل القرآني.

فـمثـلُ من يدعو الذين كفروا ممَّن استوى لديهم الإنذارُ وعـدمه، كمثـل من يخاطب بصوته العالي قطيعاً من الغنم، فلا يَسْمَعُ القطيعُ منـه إلَّا دُعاءً ونـداءً، لأنه لا يفهم ولا يعي الكلام الذي يُخـاطَبُ به، ولا يُـدْرِك دَلَالاته، وهؤلاء كـذلك، لأنَّ سمعهم الواعي عليه ختم أو غشاوة من عُقدَة كفرهم، ومثل سمعهم سائر حواسِّهم،

لذلك فهم بالنسبة إلى دعوة الإيمان وآياته صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون.

وهكـذا وضحت لنا دقَّـة التصويـر، ووضحت لنا أيضـاً في الصـورة التمثيليـة الحركة الحيَّة الناطقة، إذْ بدا فيها ناعقٌ يخطب في قطيع من الغنم، والقطيـع يموج بعضـه في بعض، وهو لا يـدري من كلام النـاعق الخطيب شيئـاً، ونفسُ الخـطيب تتمزَّق بمشاعر الخيبة، وعدم جدوى عَمَلِهِ.

والغـرض لفت نظر الـدعاة أن لا يكـونوا في دعـوتهم كمن يخطب في قـطيع غنم، بل إذا وجدوا المدعوّين ميؤوساً منهم فعليهم أن ينصرفوا إلى من يطمعون في أن يدركوا دعوتهم.

* * *

النصّ الرابع والعشرون

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ
ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

في سياق حثِّ الذين آمنوا على قتال الكافرين، الـذين أخرجـوهم من ديارهم وأموالهم، يخاطبهم الله عزَّ وجلّ بأسلوب النداء، ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وعقب النداء يأمرهم بطاعته، ويأمُرهم بطاعة رسوله فيما يأمُرهم به، وينهاهم عن أن يَتولَّوا عنه منصرفين مبتعدين عن الاستجابة له، وهم يَسْمَعُونَ دَعْوَته لأمرٍ من الأمور كأمر القتال في سبيل الله، فقال لهم:

﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾:

﴿**ولا تَوَلَّوا عنه**﴾:

أيْ: ولا تَنْأَوْا وتَبْتَعِدُوا عنه، يأتي فعلُ «تَوَلَّىٰ عَنْ كَـذَا» بمعنى «نأىٰ» وبمعنى «أدبر» وقد يكون التولّي نـأياً وابتعـاداً دون إدبار، فقـد يكون مـع الإعراض، بمعنى إعطاء العارض، وهو الجانب، ومنه: ﴿لَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وينهاهم عن أن يكونـوا مثل المنـافقين الكذّابين الـذين قالـوا للرسول سمعنـا دعـوتـك وأوامـرك ونـواهيـك، وهم في الحقيقـة منصـرفـون عنهـا في نفـوسهم لم يسمعوها، ولو كانـوا حاضـرين شاهـدين مجالس دعـوته، فـالسمْعُ الحقيقيّ هـو السَّمْعُ الداخليّ، لا سَمْع الأُذُن، فقال تعالى لهم:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾:

أي: وهم لم يَسْمَعُوا سَمْعاً حقيقيّاً فيما سبقَ، ولا يسمعُونَ دواماً، لأنهم غيـر مؤمنين باطناً، فنفوسهم منصرفة عن الحقّ والخير.

بعد ذلك وصف الله هؤلاء المنافقين بأنَّهُمْ شرُّ الدوّابّ عنـد الله، وبأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ لَا يعقلون، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

﴿الدَّوابّ﴾: جمع «دَابَّـة» وهي كلّ مـا يدبُّ على الأرضِ من حيـوان، ومنه الإنسـان، واشتهر بغلبـة الاستعمال إطـلاق «الدّابَّـة» على ما يُـرْكب من الحيوانـات ذوات الأربع، ففي إطلاق لفظ الـدّوابّ على المنافقين إشعـارٌ إلماحيٌّ بـأنَّهم أمثالُ هـذا الصنف من الحيـوانـات التي تُـرْكَبُ، فَهُمْ أَخَسُّ من الأنعـام التي لا تـركب، كالغنم، التي يُشَبَّه بها الكافرون.

وبما أنَّهم منافقون «مُسْلِمُون ظـاهراً كـافرون بـاطناً»، فـإنَّهم بحسب الظاهـر يَسْمَعُون، لكنَّهم في حقيقة الأمـر صُمٌّ لَا يسمعون الأقـوال التي تَتَعَلَّق بأمـور الدّين الحقّ، ومن كان أصَمَّ كانَ أَبْكَمَ بالنِّسبَةِ إلى الأشيـاء الَّتي هو فيهـا أصَمّ، ويَلْزَم من ذلـك أن يكونـوا لَا يَعْقِلُون شيئاً ممّـا يُـوجَّـه لهم من أمـور الـدين، لا عقـلَ حفظٍ، ولَا عقلَ فَهْمٍ، ولا عَقْلَ إرادةٍ تَكُفُّهُمْ عن اتّباع الهوى وفعل القبائح والسيِّئات.

هذه لوازم سببيّـة ظهرت لَـدَيْهم بسبب كونهم في بـاطنهم كافـرين، وهي من سنن الله الدائمة في أنظمة النفوس البشرية.

وبسبب ذلك فإنَّه لا يَسْتَطِيعُ أحدٌ أن يُوصِلَ إلى سمعهم الحقيقيِّ دعـوةَ الحقّ وبَيَاناته حتّىٰ يَفْهَمُوها غَيْرُ الله عزَّ وجلّ الذي لديه القدرة على خرْق سننه متى شـاء، لكنَّه سبحانه لا يَخْرِقُ سنَّتـه الثابتـة من أجلهم، إنَّهم فيها كسـائر النـاس، ولو أنَّهم كـانوا قـد اختـاروا لأنفسهم الإيمـان لمَّـا صُمَّتْ أسمـاعهم، ولمَـا أُصِيبَتْ ألسنتهم بـالْبَكَم بالنسبـة إلى دعوة الحقّ الـرَّبَّـانيـة، ولكـانـوا أَسْوِيـاءَ في سَمْعِهم وألسنتهم كالمؤمنين.

على أنَّ الله عـزَّ وجلّ لـو علم أنه يـوجـد فيهم استعـدادٌ داخليٌّ إرادِيٌّ لقبـول الحقّ، فيما لو أَصْلَحَ لهم سمعهم، لَخَرَقَ سنَّتَـه فأصْلَح سمعهم وأسمعهم بيانـات الحقّ، وأفهمهم دلالاتها.

لكنَّه سبحانه لو فعل ذلك فـأسْمَعَهُم، مع أنَّهم لا خيـر فيهم مطلقـاً، إذْ ليس لديهم استعدادٌ إراديٌّ للإيمان واتِّباع آيات الله، لكـان من أمرهم أن يَسْتَمِعُوا الآيات المنزَّلات، ويفهموا دلالاتها، ثُمَّ يتولّوا مبتعدين عنها، غير عاملين بها، في حين أنَّ أسماعهم تتلقـاها من جهة عارضهم، وهو جانبهم.

إنهم باعتبار كـونهم منافقين لا يُـدْبِرون كمـا يفعلُ الكـافرون الصُّـرحاء، بـل يعطون عارضهم، إشعاراً بأنهم ما زالوا مُسْلِمينَ، لكنهم يبتـدعون في إيمـانهم وفي سلوكهم، وهذا هو شأن المنافقين دواماً، فقال تعالى بشأنهم:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

بعد هذا نادى الله الذين آمنوا نداءً ثانياً قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾:

أي: يـا أيُّها الـذين آمنـوا استجيبـوا لله في كـلِّ مـا دعـاكـم ويـدعـوكم لـه، واستجيبـوا للرَّسُولِ إذا دعـاكُمْ بمُقتضَىٰ كونـه قائـدكم والحـاكمَ الإداريَّ لكم، إذا

دعاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ حياةً طيِّبَةً كريمة، كَبَذْلِ الأموال والأنفس جهاداً في سبيل الله، والسياقُ والسِّباقُ يدُلّان على هذا.

فَسَمَّى الله ما يُصِيبُه المؤمنون من خير باستجابتهم لما يدعوهم له الرسول حياةً، إشارةً إلى أنَّ عدم استجابتهم يُسبِّب لهم أموراً كريهةً تُشبهُ الموتَ الكريه.

ولمّا كان هذا البذلُ من الأموال والأنفس أمراً صعباً علَىٰ النفوس والقلوب، وكانت قلوبُ المؤمنين قد تُصَابُ نحوه بالتردُّد والضَعف، وقد يَمسُّها الجبْنُ والشُّحُّ، فتتخاذَلُ ولا يُوجَد لديها اندفاع الاستجابة لهذه الدعوة، ذكَّرَهُمُ اللَّهُ بأنَّه عليمٌ بِكُلِّ حَرَكاتِ نفوسِهِمْ وقلوبهم، مُطَّلع عليها اطِّلاعاً مُباشراً، وأَنَّهُ يَعلَمُها قبل أن تصِلَ إلى مشاعرهم الواعية، فقال تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

إنَّ حركات الإنسان الصادرة عن وعيٍ فكريٍّ يدركه الإنسان، هي آثارٌ لحركاتٍ قلبيَّةٍ إراديَّة، وهذه الحركات القلبيَّة الإرادية تمرُّ بأسلاكٍ عصبيَّةٍ حتى تصل إلى مراكز الوعي الظاهر.

ولمّا كانَ عِلْمُ الله عزَّ وجلّ نافذاً إلىٰ القلوب، فإنَّهُ يَتَلَقَّىٰ ما يصدُرُ عنها مباشرةً، كحائِلٍ شفَّافٍ يَعْلَمُ مَا يمُرُّ ولا يَمْنَعُ مُرُورَهُ، نظير جهاز مسجِّل الصوت المثبَّتِ في الهاتف، يُسَجِّلُهُ قبلَ أن يَصِلَ إلى أُذُنِ المخاطَبِ عن طريقه.

والتذكير بهذا العلم يستدعي التذكير بيوم الحساب، فقال تعالى:

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وفي هذا إلماحٌ تهديديٌّ لمن لا يستجيب لله ولرسوله.

تحليل كون الله يحول بين المرء وقلبه:

للمفسرين عدَّة آراء في فهم قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يحولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ﴾

وبعض هـذه الآراء متأثِّرٌ بالتصـوُّراتِ الجبريَّـة في موضـوع القضـاء والقدر. وبعضها قاصـر الدلالـة على بعض العناصـر، والذي ظهـر لي بعد طُـول تدبُّـرٍ لهذا النَّص، أنَّ كون الله عزَّ وجلّ يحول بين المرء وقلبه يحمل عدَّة دلالات:

الـدلالة الأولى: هي مـا سبق بيانُـه من عِلْم الله بكلِّ أعمـال القلوب قبـل أن تَصِلَ إلى الشعور الظاهر في مراكز وعي الإنسان، فلا يَصْدُر عنها شيءُ دون أن يَمرَّ على رقابة علم الله.

ونظيرُ هذا عِلْمُ الله بكلِّ أعمال النفوس وحـركاتهـا قبل أن تصـل إلى القلب، وتُحَرِّكَهُ بشيء ما.

الدلالة الثـانية: أنَّـه لَا يصل شيءُ من مستـويات دائـرة النفس إلى القلب إلَّا بإذن الله وعِلْمه.

ومن ذلك نزغ الشيطان ووساوسُه وتسويـلاته، وحـركاتُ الشهـوة، والغضب، والحبّ، والكراهية، ونحو ذلك، مما تتحرَّكُ به دوائر النفس من وراء القلب.

فمثلاً: إذا استعاذ المؤمن بالله عزَّ وجـلّ السميع العليم من الشيطان الـرجيم استعاذةً صادقة، سمع الله دعاءه، فحال بين هـذه النزغـات والوسـاوس وبين قلبه، فلم يـأذن لها بـأن تَصل إلى القلب، حتَّى لا يتـأثَّر بهـا، فتصْـدُرَ عنـه إرادات فيهـا معصية لله عزَّ وجلَّ، وهذا مساعدةٌ من الله للمؤمن الذي يستعيذ بالله ويستجيرُ به.

بخلاف مَنْ لا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله عزَّ وجلّ قـد لا يمنع نفوذها إلى قلبه مع علمه بها.

ونظير ذلك حركات النفس المختلفة، كحركاتها المتعلِّقة بـالشهوات والأهـواء والغضب والحبِّ والكُرْه ونحو ذلك، فإن المؤمن إذا دعـا الله أن يصرفهـا عنه، فـإنَّه تبـارك وتعـالى قـد يحـولُ بينهـا وبين قلبـه، فيمنعهـا من التغلغـل في النفس، ومن الوصول إلى القلب، حيث تنطلق الإرادات.

الدلالة الثالثة: أنّـه لا يخرج شيءٌ من القلب إلى مستـويات دائـرة النفس إلّا بإذن الله وعلمه.

وإذْنُ الله بشيءٍ ما ليس من الجبر في شيءٍ، بـل هو تمكين لـذوي الإرادات الحرَّة من تنفيذ مراداتهم.

ولكن حين لا يأذن الله بوارد علم أو حركة إراديَّة أن تَمُرَّ من القلْب إلى مراكز الشعور الظاهر، فهو فيما أرى يكون على وجهين:

- أمّـا بالنسبـة إلى المؤمنين فيكون على سبيـل المساعـدة لهم، مكافـأةً لهم على استعـانتهم به في أمـورهم، وعلى صـدق رغبتهم في طـاعتـه، ليصـرف عنهم مـا هو شـرٌّ لهم، وهـذا فضـلٌ من الله عليهم ليـزكّيهم من رجـاسـات الإثم، وسببـه إيمانُهم وصدق استعانتهم بربِّهم.

- وأمّا بالنسبـة إلى الكافـرين وذوي الفجور الـراغبين في المعاصي من عُمقِ قلوبهم، فيكون على سبيلِ الطمْسِ لبصائـرهم الذي كـانُوا هُمُ السبب فيـه، وربَّما يكونُ لصرفهم عن فعْلِ ضُرٍّ أو أذىً بمَنْ أراد الله كفَّ الأذى والضُّرَّ عنه.

إلى غير ذلك من أشباه هذه الأمور، وليس شيءٌ منها له صبغةٌ جبريَّة.

* * *

النص الخامس والعشرون

وقـول الله عـزَّ وجـلَّ في سـورة (محمـد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نـزول) بشـأن المنافقين الذين يحضرون مجالس الرسول، ولا يَعُونَ ممّا يقول شيئاً، فإذا خـرجوا من عنـده قالـوا للمؤمنين الَّذين سمعـوا وانتفعوا: مـاذا قـال آنِفـاً؟ (أي: مـاذا قـال في المجلس الذي مضىٰ قريباً؟):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

وقال بشأنهم بعد ستّ آيات من السورة نفسها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿آنِفاً﴾: أي: في الماضي القريب.

﴿ومِنْهُمْ﴾: أي: ومن المنافقين.

إنَّهم يكونون في مَجْلِس الرسول متصدِّرين، مُسْنِدين ظهورَهُمُ إلى الجُدُرِ أو السَّواري، كالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ، يُعْجِبُون من ينظر إليهم، بقاماتِهم الفارعة، وأَجْسَامِهِمْ الضخمة، ولكنَّهُمْ كالْخُشُبِ لا يَفْهَمُونَ ممّا يُقالُ شيئاً، كما قال الله بشأنهم في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

دلَّت هذه النصوص على أنَّ المنافقين محجوبون من داخل نفوسهم عن إدْرَاك الأقوال والبيانات والآياتِ الَّتي تتضمَّن علْماً يهدي إلى صراط الله المستقيم.

وقد اكتشفنا بالتحليل النَّفسيّ أنّ رفضهم للإيمان ابتداءاً، أو ما تعرَّضوا له من كُفْرٍ بعد إيمان، قد نتج عنه بمقتضىٰ سُنَن اللّهِ السببيَّة قيامُ حُجُبٍ من داخل نفوسهم، تمنع عن مراكز سمْعِهم الدّاخليّة، ومَرَاكِز فهمهم، وارِدَاتِ المعارفِ والعلوم المتَّصلة بقضايا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، لذلك فَهم لا يسمعون ولا يفهمون ولا يعقلون شَيْئاً من هذه الواردات.

وقد جاء التعبير عن هذه الحقيقية بالعبارات التالية:

١ ـ ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: كان من نتيجة كفرهم وتوليهم عن

دعـوة الدِّين الحق، أن جـرت سُنَّةُ الله فيهم، فـأقْفِلتْ قُلوبُهم إقْفَالاً كـاملاً، وطُبِـعَ على هذه الأقْفَالِ للإشعار بأنَّها غير مستعدَّةٍ لأن تُفْتح.

الـطَّبْعُ: هـو في الماديَّـات كالختم، فقـد كـان من عـادة الملوك وغيـرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرِّيَّة ما فيها، أقفلوها بإحكـام ووضعوا عنـد مكان إقفالها طيناً خاصّاً يَـطْبَعُون عليـه خاتمهم الخـاصّ بهم، فيجف الطين ومثـال الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلاَّ بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقـل ما هـو للماديّـات للمعنـويـات، جاء في القرآن التعبيرُ بالطَّبْـعِ والْخَتْمِ على القلوب للدِّلالة على أنهـا صارت محجـوبة عن إدراك أيِّ شيءٍ يتعلَّق بما هي محجوبةٌ عنه.

٢ ـ ﴿فَأَصَمَّهُمْ وأعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾:

أي: جعل بمقتضى سنته في خَلْقِه مراكز سمعهم وبصرهم الداخلية محجوبةً عن أن تصل إليها بيانات الحقّ من مسموعات ومرئيّات.

٣ ـ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَـالُهَا﴾: أي: بـل على قلوبهم أقفالُهـا وبسبب ذلك صارت محجوبة عن إدراك ما يُوجَّهُ لها من بيانات دعوة الحقّ.

ونلاحظ في هذه العبارة إبداعاً في الأداء البياني.

﴿أم﴾: هي المنقطعة بمعنى «بل» مع استفهام.

﴿قُلُوبٍ﴾: جاءَتْ منكّرةً والمراد قلوبُهم.

﴿أَقْفَالُها﴾: مضافة إلى ضمير ﴿قلوب﴾ للإشعار بأنَّ هذه الأقفال لم تأتِ من خـارجٍ عن قلوبهم بوسيلة جبـريّة، وإنَّمـا هي من قلوبهم أنفسهـا، إذ الأَمْـرُ تـابـع لاختيـارهم الحرّ، فكـأنَّه قـال: أم أقفلوا قلوبهم بأقفـالها الَّتي تكـون عليهـا حينمـا يتَّبِعُون الشياطين وجوامح نفوسهم النزّاعة إلى الإثم وفعل السيِّئات.

وقد علمنا أنَّ مَنْ كفر بالحقِّ، واتَّبـع أهواءه وشهـواته وسـائر جـوامح نفسـه،

واتَّبَعَ وساوس الشياطين، وخطواتهم، نزل به الصمم الداخلي، والطبعُ والختْمُ على قلبه، بالنسبة إلى بيانات الحقّ الرّبّاني وحُجَجِه وبراهينه وآياته البيِّنات.

* * *

النصّ السادس والعشرون

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) خطاباً لرسوله فلكلِّ داعٍ إلى الله من بعده:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦)﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩)﴾.

تضمَّنَتْ الآية (١٦) تعليماً جدليّاً حول توحيد الإلَهيّة للَّهِ الرّبّ الخالق عزَّ وجلّ.

والجدال في هذا التعليم يبدأ بمرحلة إثبات تَوْحِيدِ الربوبيَّة لله وحده، وحينما ينتزع المجادِلُ المؤمن من المشرك الذي يُناظرهُ الاعتراف بأنَّ الله هو وحده ربّ السماوات والأرض، يثبِّتُ معه هذه الحقيقة، لينقلَهُ إلى الحقيقة الثانية المبْنيَّة عليها، وهي أن من كان هو الرّبّ الخالق لا شريك له، وجَبَ عقلاً أن يكون هو الإله المعبود وحْدَهُ لا شريك له.

ومتى انتزع منه الاعتراف بهذه الحقيقة، وجَّه له وللمشركين جميعاً الانتقادَ حول اتِّخاذهم من دون الله أولياء شركاء له، لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولاَ نفعاً، بأسلوب الاستفهام الإنكاري.

وإذا انتصر على المشركين في الجدال بالحقّ، وأصرَّ المشركون على

شِرْكِهم، ولم يفارقوا طريقتهم وجَّه لهم الوخزات الفكريّة، الَّتي تكشف جهالتهم الشديدة بأسلوب التشبيه البليغ الذي يُنَزِّلُ الممثّلُ به منزلة الممثَّل له، فجاء في التعليم:

﴿قُلْ: هَلْ يَسْتَوي الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرُ؟﴾:

أي: هل يستوي الكافر الموغل في الجهالة فهو كالأعْمَىٰ، والمؤمن العارف بربّه فهو كالبصير؟ والجواب بداهة: لا يستويان.

فصوَّر الله عزَّ وجلّ الكُفْرَ والجهالةَ النفسيَّة بصورة الْعَمَىٰ الحسّيّ، على سبيل التمثيل.

وصوَّرَ الإيمانَ والمعرفةَ النفسيّةَ بصورة الْبَصَرِ الحسّيّ، على سبيل التمثيل أيضاً.

وجاء في التعليم:

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ؟﴾:

أي: هل تستوي الجهالةُ والعلْمُ؟! والجواب: لا يستويان.

فصوَّر الله عزَّ وجلّ أنواع الجهل بالظلمات، ومنها جهالات الكُفْر، وهو على سبيل التمثيل.

وصوَّر العلمَ والمعرفةَ بالنور، وهو على سبيل التمثيل أيضاً، والمراد هُنا المعرفة بمسائل الإيمان وقضايا الدِّين.

وتضمَّنت الآية (١٩) بياناً موجّهاً للرّسول وصفَ الله فيه من يؤمن بأنَّ ما أنزل إليه من ربّه الحقّ، مستنداً إيمانُه إلى علم صحيح، بأنَّه بصير، ووصف من يكفر بذلك إذْ لم يَسْمَحْ لأجهزة المعرفة لديه بأن تعلم الحقّ، بأنه أعمى. والجوابُ بداهة: أنهما لا يستويان، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟!﴾.

لقـد وصفه الله بـأنّه أعمىٰ لأنَّـه في واقعه النفسيّ والفكـري يشبه الأعمىٰ في واقعه الحسِّيّ الظاهر.

* * *

النصّ السابع والعشرون

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أَفَلَم يَسِيروا في الْأَرْضِ فَيَنظُروا آثار من أهلكهم الله بذنوبهم وتَكذيبهم رُسلَ ربهم ونذُره، فتكونَ لهم بهذا النظر قلوبٌ يعقلون بها أنَّ الله حقّ، وأنَّ ما جاء به رُسُله حقّ، وأنَّ سنَّة الله في عباده ثابتة، وأنَّه سيُصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الـذين من قبلهم، إذا هم أصَرُّوا على كفـرهم وعنـادهم، وتكُـونَ لهم بهـذا النـظر المثيـر إلى إدراك الحقّ آذانٌ يسمعون بها آيات القرآن ويتدبّرونها.

بعـد هـذا الحث على السَّيـر في الإرض للنـظر في آثــار المهلكين الأوَّلين، قرَّر الله حقيقة من حقائق النفس الإنسانية.

هـذه الحقيقة هي أنَّ إدْراكَ الحقـائق لا يتـوقف على كـون الأبصـار الحسِّيَّـة الظّاهرة سليمة، فالعمىٰ الحاجب عن رؤية الحقيقة ليس هو عمىٰ الأبصار الظّاهرة، إنّما هو عَمَىٰ القلوب التي في الصدور.

فالبصيرة الفكرية القلبيَّـة هي المسؤولة عن إدراك الحقـائق من وراء الظواهـر المادّية، سواءٌ أكانت بصريّةً أو سمعيّة أو غيرهما من الحواسّ الأخرى، أو كانت ممّا يدرك بمنطق الفكر أو الحسّ الوجداني في داخل النفس.

* * *

النصّ الثامن والعشرون

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن الـذين كفروا بالحقّ من بني إسرائيل:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

في هذا النصّ بيانُ خلاصةِ قصَّةِ بني إسرائيل الدِّينيّة في تاريخهم قبل نزول القرآن.

١ ــ ففي بدء الأمر أخذ الله عليهم الميثاق بأن يحافظوا على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية كلّها، وبأن يسيروا على منهاج الدّين الذي اصطفاه لعباده، وقد أَعطَوا على ذلك مواثيقهم.

ونلاحظ أنه جاء في القرآن بيان بعض ما أخذ الله به عليهم الميثاق، كما في الآيتين (٨٣ ــ ٨٤) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

والميثاق لأُمَّةٍ من الأمم يلزم كلَّ من ينتمي إليها في جيلها الأوّل، وفي كلّ الأجيال اللاحقة، لأنَّ الانتماء للأمَّة يقتضي الالتزام بكلّ العناصر والأصول الصحيحة التي قام عليها وجودُها، وتميَّزَتْ بها شخصيَّتُها عقيدةً ومفاهيم وسلوكاً، فالميثاق اللّازم للأوَّلين منها هو ميثاق لازمٌ لكلّ من يأتي بعدهم منضمّاً إليهم.

هذا البدء دلَّ عليه في النصّ:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاق بَنِي إِسْرَائِيل﴾.

٢ ــ ثُمَّ انحرفوا ونقضوا عهودهم ومواثيقهم، واتبعوا أهواءهم، فأرسل الله

إليهم رُسلاً يذكّرونهم بمواثيقهم وعهودهم، ويُعلِّمونهم ما نسوه من أمور دينهم، ويُحذِّرُونَهُمْ من نقمة الله عليهم، ومن إنزال عقابه فيهم.

دلَّ على هذا في النصّ مع ملاحظة اللوازم الفكرية:
﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾.

٣ ــ فكان أَمْرُ بني إسرائيل مع من جاءهم من رُسُلٍ يعلّمونَهُمْ ويُذكِّرونهم ويحذِّرونهم وينذرونهم، أنَّهم كانوا يحاولون الاستفادة من رسولهم فيما يتعلَّق بأمور دنياهم، كرفع بلاء، وجلب رخاء، ونصرٍ على الأعداء، أو بالإشراف على بعض الطقوس الدينيَّة التي لا تخالف أهواءهم.

لكن إذا جاءهم رسولهم بما لا تهوى أنفسهم، فنهاهم عن القبائح والمنكرات الَّتي يرتكبونها، ناصبوه العداء، وقاوموه.

هذا الحال منهم يُفْهَمُ من لوازم دلالة المقطع من النصّ الآتي في الفقرة التالية.

٤ ــ أمّا النظرة الكلّيّة العامة لحالهم مع رسلهم الذين تتابعوا عليهم، فتدُلُّ على أنَّهم كذَّبوا كلّ الرسل الذين جاؤوهم بما لا تهوى أنفسهم.

ولكنَّهم اقتصروا بالنسبة إلى فريق منهم على مجرَّد التكذيب، وأضافوا إلى التكذيب بالنسبة إلى فريق آخر منهم الملاحقة بالتنكيل والتعذيب حتَّىٰ القتل.

دلَّ على هذا وعلى الذي قبله من النصّ:
﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أنفسهم فريقاً كَذَّبُوا وفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾:
أي: كلَّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوىٰ أنْفُسهم ناصبوه العداء وقاوموه، ففريقاً من هؤلاء الرُّسل كذّبُوهم فقط دون أن يقتلُوهم، وفريقاً آخَرينَ كذَّبُوهم ولاحقوهم بالتنكيل والتعذيب حتّى قتلوهم أخيراً، كزكريّا ويحيىٰ عليهما السلام.

دلَّ على هذه الملاحقة استعمال الفعل المضارع: ﴿يقتلون﴾ الذي يدُلُّ على الحركة المتكرِّرة بتتابع.

إنّه لمّا كان القتل وحده للرسول لا يحتمل هذه الحركة المتكرِّرة بتتابع، كان علينا أن نفهم أنَّ المراد الملاحقة بالتنكيل والتعذيب وأنواع الكيد الشنيعة التي تنتهي بالقتل، إذْ هي بمثابة قَتْلٍ جزئيٍّ مُتكرِّر ينتهي بالقتل النهائيّ الذي تتوقف عنده عمليات الملاحقة.

وهذا فيما أَرَىٰ هو سِرُّ استعمال الفعل الماضي في ﴿كَذَّبُوا﴾، واستعمال الفعل المضارع في ﴿يَقْتُلُون﴾.

فالتكذيب يحصل دفعةً واحدة لأنّه عملية نفسيَّة وكلاميَّة، فجاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿فَرِيقاً كَذَّبُوا﴾.

وعمليّات الملاحقات الكيديَّة الَّتي تنتهي بالقتل ذواتُ أعمال متكرِّرات، فجاء التعبير عنها بقوله تعالى: ﴿وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾.

٥ ــ وغرَّ بني إسرائيل إمهالُ الله لهم حتَّى توَهَّمُوا أنَّ لهم عند ربّهم إعفاءً خاصّاً من العذاب على جرائمهم، زاعمين أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه.

فهو لا يُنْزل بهم عقابه مهما ارتكبُوا من قبائح وآثامٍ جسام، وبسبب ذلك انطلقوا وراء أهوائهم وشهواتهم وخطوات الشيطان، فسقاً وفجوراً وظلماً وبغياً في الأرضِ وعدواناً.

وأحاطَتْ بالمراكز الداخلية لأبصارهم وسمعهم حجبُ أهوائهم وشهواتهم، فَعَمُوا وصَمُّوا بالنسبة إلى قضايا الدين، وقضايا الدينونة على الأعمال التي يُعَامِلُ الله فيها الناس جميعاً بالعدل.

دلَّ على هذا من النصّ مع ملاحظة اللّوازم الفكريّة:

﴿وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾.

﴿وَحَسِبُوا﴾: أي: وتوهَّمُوا باطلاً. ففعل «حَسِبَ» ومشتقاته لم يستعمل في القرآن إلَّا في الظنّ الضعيف الباطل.

﴿فتنة﴾: المرادُ من الفتنة هنا: العقاب والعذاب الذي يُعَاقِب الله به المجرمين والعصاة.

أصل الفتنة في اللّغة العرضُ على النار والصَّهْرُ بها لاختبار المعدن. واستعملت الفتنة بمعنى مطلق الاختبار، واستعملت بمعنى التعذيب، واستعملت في غير ذلك.

وجاء هنا إطلاق العمىٰ والصَّمَم على ما يكون في الفكر والقلب، وهما عمىً وصمَمٌ خاصّان بما يتعلّق بقضايا الدِّين، وحقوق الله على عباده، وما يرتبط بذلك من جزاء.

٦ ـ ثم عاقبهم الله، فَأنزل بهم عذابه الذي لم يكن ماحقاً مستأصلاً شأفتهم، فتابوا إلى ربّهم، فتاب الله عليهم.

دلَّ على هذه المرحلة من تاريخهم في النصّ مع ملاحظة اللوازم الفكرية:

﴿ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ويظهر أنَّ هذه المرحلة من تاريخهم قد كانت بتعذيب الله لهم على يد «نبوخذ نصر» الّذي استباحهم وسباهم، ثمَّ أنقذهم على يد «كورش» الفارسي، الذي خلَّصهم من الأسر، وأعادهم إلى فلسطين.

٧ ـ ثمّ عادوا إلى انحرافهم، فطغَوْا وبغَوْا وظلموا وفجروا واتَّبعوا أهواءهم، وحَسِبُوا مرَّةً أخرىٰ أنْ لا تكون فتنة فعموا وصَمُّوا.

دلَّ على هذه المرحلة من تاريخهم مع ملاحظة اللّوازم الفكرية:

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كثيرٌ مِنْهُمْ﴾.

٨ ـ وتوقَّف النّصّ عند هذه المرحلة من تاريخهم، وختمه الله بقوله: ﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: والله بصير دواماً بما يعملون جيلاً بعد جيل، فَيُجْري فيهم سننه الإمهالية والجزائية وفق مجاري حكمته عزَّ وجلّ.

• • •

المَقُولَةُ ٱلثَّالِثَةُ
حَوْلَ ٱلبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ
وَٱلتِّجَارَةِ وَٱلرِّبْحِ وَٱلخَسَارَةِ وَٱلقَرْضِ

مقدمة:

ممَّا تكرَّر في القرآن المجيد أنَّ الله عزَّ وجلَّ ضرب فيه البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة والقرض والفوائد عليه أمثلةً للتعامل معه سبحانه وتعالى.

* * *

التحليل:

● إنَّ من يفعل الخير الذي رغَّب الله عزَّ وجلَّ فيه أو أمر به، فإنَّه يُقَدِّم عطاءً يسيراً جدّاً من ذاته، أو ممّا يملك التصرُّف فيه، وهذا العطاء اليسير يجازيه الله عليه بعطاء وفير عظيم جدّاً، وهو يبلغ في التقديرات الأوليَّة عشرة أضعاف، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمئة ضعف، ثم إلى أضعاف لا يعلم مقدارها إلَّا الله الكريم الوهاب.

فصورة هذا التعامل مع الله عزَّ وجلَّ تُمَاثِل صورة البيع والشراء بين الناس، وهذا التبايع بين الناس يحقِّق لهم فوائد وأرباحاً.

ولكن حين يُعامِل العبدُ المؤمنُ ربَّه، فيُقَدِّم ابتغاء مرضاته من ذاته أو ممَّا يَمْلِك التصرُّفَ فيه كَسْباً يُرْضِيه سبحانه، فإنَّ تعامله هذا يحقِّق له عند الله ثواباً عظيماً، وفوائد جسيمة، فهو إذن يشبه التجارة الرابحة.

● وإنَّ من يفعل الشرّ الذي نهى الله عنه، فإنَّه يقدِّم من ذاته، وعمره، ومما

يملك التصرُّف فيه، كسباً يسخط الله عزَّ وجلَّ، وهذا الكسب ينجم عنه ضرر كبير له، إذ يعرِّضه لعقاب الله بالعدل.

فصورة هذا التعامل مع الله تماثل صورة من باع نفسه لمن يعذِّبه، فعمله يماثل عمل ذي تجارةٍ خاسرة، ولكنَّ الخسارة هنا لا تقتصر على خسارة المال، بل قد تتعدّاها إلى خسارة الذات، وخسارة السعادة، والوقوع في العذاب الأليم.

ولكِنْ حين يُعَامِل العبدُ ربَّه، فيَكْسِبُ بعمله كسباً يسخطه، فإنَّ تَعَامُلَهُ هٰذَا يُعَرِّضُه لعقاب الله وعذابه، وخسارةٍ من ذاته وسعادته، فهو مثْلُ التجارة الخاسرة.

● وإنَّ من يبذل من ماله في وجوه الخير التي أمر الله أو رغَّب بالْبَذْلِ فيها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُضَاعِفُ له الأجر على ما بذله أضعافاً مضاعفة.

فصُورَةُ هذا التعامل مع الله عزَّ وجلَّ تُمَاثِلُ صُورَةَ من يُقرِضُ من ماله، ويأْخُذُ عليه من الفوائد أضعافاً مضاعفة.

إنَّ التعامل بالقرض الربوي محرَّمٌ بين الناس، لأنَّه ظُلْمٌ لا يَرْضَىٰ الله به، والنَّاسُ يَطْمَعُون به جدّاً، لأنَّه يُحَقِّق لهم مغانم دُونَ مُخَاطرات ولا مُغَامَرات، ودُونَ جَهْدٍ يُبْذَلُ، لكنَّه مع الله عزَّ وجلَّ يكون مختلفاً تماماً، لأنَّ التعامل مع الله تبارك وتعالىٰ تَعامُلٌ كُلُّهُ قائمٌ على أنَّ الْعَبْد يُقَدِّم ابتغاءَ مرضاة ربّه ما أمر الله به أو رغَّب فيه فعلاً أو تركاً، وأنَّ الله يتفضَّل على العاملين بمراضيه بالعطاءات الوافرات الكثيرات مِنَّةً منه وجُوداً وكرماً، فالفائدة بهذا التعامل مع الله ببذل المال في وجوه الخير مضمونةٌ حتماً بلا مخاطرة، وبدون جَهْدٍ يُبْذَلُ، غير بذل المال، كَمَا يَدْفَعُ المرابي مالَهُ لِيَجْنِي منه الفوائد الربوية، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ هو المالِك لما بَذَلُوا وهو المالك لما يُعْطِيهم، ولا ينفعه شيءٌ ممَّا بذلوا، ولا ينقص من ملكه شيء مهما أعطىٰ منه عبادَه.

ولمَّا كان الفضل الرَّبَّاني على العمل الصالح مكافأة من الله على مقـدار قيمته في ميـزان رحمته، كـان جزاءً وَثـواباً، وإطـلاق عبارة العـوض عليه إطـلاقٌ بحسب الصورة لا بحَسَب الحقيقة.

وفيما يلي استعراض النصوص مع مقدارٍ ما من الشرح والتحليل.

* * *

النصّ الأول

في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠﴾.

﴿يَرْجُونَ تَجَارَةً﴾: أي: يَتوَقَّعُونَ أَرْبَاحَ تجارةٍ عظيمةٍ.

التجارة: أعمال البيع والشراء بممارسَةٍ وامْتِهانٍ.

﴿لَن تَبُورَ﴾: أي: لن تَكْسَدَ ولَنْ تَتَعَطَّلَ ولَنْ تَخْسَر أو تَهْلِك. يقال لغة: بَارَ الشيءُ يَبُورُ بَوْراً وَبَوَاراً، أي: كَسِدَ وتَعَطَّل. أو هَلَكَ. وَبَارَ الْعَمَلُ إذَا لم يُحَقِّقِ المقصودَ منه فهو بائر.

فسمَّىٰ الله عزَّ وجلَّ في هذا النَّصِّ تعامُلَ المؤمنين معه بأعمال العباداتِ والطاعاتِ التي منها تلاوةُ القرآن وإقامةُ الصلاة والإِنْفَاقُ من أموالهم في سبيله سرّاً وعَلانيةً، سمَّاهُ تجارَةً، لأنَّه بمثابَةِ تَبادُلٍ بَيْنَ بائعٍ ومشترٍ، فالله عزَّ وجلَّ يَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْعملَ الصَّالحَ الذي يرضاه لهم، ويُقَابِلُهم عليه بعطاءٍ من لَدُنْه أجراً عظيماً فيه ربحٌ محقَّقٌ عظيمٌ لَهُمْ، مع أنَّ أعمالهم هي لخيرهم ومصلحتهم أفراداً وجماعات، إذْ هي لا تزيد في مُلْك الله شيئاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾: أي: يَتَّبِعُونَ بِتَدَبُّرِهِم وأعمالهم ما يَنْزِلُ من

كتاب اللَّهِ على رسوله، فالسورةُ من أواسط ما نـزل في المرحلة المكيَّـة من القرآن، فهم باستمرارٍ يَتلَقَّوْن مَا ينزل على رسوله منه، لتَدَبُّرِهِ والعمل به، تِبَاعاً.

وهم يَتْلُون آياته بـألسنتهم تَعَبُّداً، ليكُـونوا مـع الله في الذكـر والمناجـاة، مع تدبُّر آياته والعمل بما يُكَلِّفُهم من عمل وما يدعوهم إليه.

يقال لغة: تَلاَهُ يَتْلُوهُ تُلُوّاً إذا تَبِعَه. ويقالُ: تَلَا الكتـابَ ونحوه تِـلاوةً إذا قرأه. وتَلاَ الكتابَ والسُّنَّةَ إذا اتَّبَعَ ما فيهما، وعَمِل به.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: وثبت فيما مضى من أمرهم أنَّهم أقاموا الصلاة.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾: أي: وثبت فيما مضى من أمرهم أَنَّهم أَنْفَقُـوا ممَّا رزقهم الله من أمـوالٍ في حالَتَي السِّـرّ والعلَن، فكلَّمـا اقتضى الأمـر أن يكـونَ الإنفاق سـرّاً أنفقوا سِـرّاً، وكُلَّما اقتضى الأمـر أن يكون الإنفـاقُ علناً أنفقـوا علَناً.

وهـذا وصف لحال أصحـاب رسول الله الأوّلين في العهـد المكيّ قبل نـزول سورة (فاطر) وإبّانَ نزولها.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾: أي: يَتَـوقَّعُون ويَتَـرَقَّبُونَ في أَعمـالهم أَنْ تكونَ تِجارةً بَاقِيَةَ الرَّواجِ دَواماً، ناميةَ القيمة، ثقةً بوعـد الله الَّذي لا يُخْلِفُ الميعـاد، فَلَا تَهْلِكُ وَلَا تكسَدُ.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي: إنَّهم يَـرْجُـونَ دَوامَ رَواجِ تجـارتهمْ عند ربِّهم، ليُـوَفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ على أعمـالهم، وليـزيـدهُمْ منْ فضله فيضَ عطاءٍ من لدُنْهُ زائدٍ على الأجر الموعود به.

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: أي: يزيـدُهم من فضله لأنه غفـور يغفر لهم ذُنُـوبَهُمْ، وهذا من الزيادة، وهو شكُورٌ يضاعف لهم أجورهم، وهذا أيضاً من الزيادة.

* * *

النصّ الثاني

وفي سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) يقول الله عزَّ وجلَّ خطاباً للمؤمنين:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

نـزل هذا النَّص في الثلث الأخيـر من التنزيـل المكّي خطاباً للمؤمنين، وقد كانوا يُبَايعون الرَّسُول ﷺ، ويعطونه الْعَهْدَ على السَّمع والطاعة، والْعَهْدُ مع الرَّسول عَهْدٌ مع الله، ومبايعتُهُ مُبَايعةٌ لله.

وكانَ كثيرٌ منهم يتعرَّضُون لضغـوط شديـدةٍ من المشركين، منهـا اضطهـادية، ومنها إغرائيَّة، فاقتضت الحكمة التربويَّة توجيه التَّحـذير لهم من نقض عُهـودهم مع الرسول ﷺ، تأثراً بهـٰذِهِ الضُّغوط.

ولمَّـا كان رفْـعُ الاضطهـادِ عن المضـطهـد منهم، أو حصـولُ المـرغـوب من مصالح ومنافع لدىٰ المشركين لمنْ يتعرَّض للإغراء منهم، مشروطاً بنقض عهده مـع الرسول، كانَ ذلك بمثـابة ثَمَنٍ يَقْبِضُـه، مُقَابِـلَ عَهْدٍ ينقُضُـه، ويجعلُه بمثابـة سلعة يدفعها للمشركين، لينتفعوا منها، خاطبهم الله عزَّ وجلَّ بقوله:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

يُطْلَقُ الشّراء على العمـل الذي يقـوم به كُـلٌّ من المتبايعين، لأنَّهمـا يتبادَلان مملوكَيْنِ لهما، فكل منهما يَمْلِك مَمْلُوكَ صاحبـه، على سبيل المبـادلة والمعـاوضة في عقد المبايعة، وكلٌّ منهما يشتري مَمْلُوك صاحبه، ويدفَعُ مملوكَهُ ثمناً له.

كذلك كلٌّ منهما بائع، يَبِيع مَمْلُوكَهُ لصاحبه، ويقبض مَمْلُوكَ صاحبه ثمناً له.

لهذا يتبادل لفظا البيع والشراء في الاستعمال، والباء في فعل «اشترى» تدخل غالباً على المبذول لا على المقبوض، تقول: اشترى الكتـاب بدينـار. وتدخـل في فعل (باعَ) على المقبوض لا على المبذول، تقول: بعْتُ الكتابَ بدينار.

وقـد يأتي فعـل «شرى» مثـل فعـل «بـاع» في التعـديـة، فتـدخـل البـاء على المقبوض، وكذلك فعل (اشترىٰ).

وجـاء في النصّ فعل ﴿وَلَا تشتـروا﴾ من الاستعمال الغـالب، فجـاءت البـاء داخلةً على المبـذول، وهو عهـد الله، أمَّـا المقبـوضُ فهـو الثمن القليل، فجاء في النصّ منصوباً من دون اقترانه بالباء.

وقُـدِّمَ في النَّصِّ المبذولُ على المقبـوضِ لتهويـلِ أَمْـرِ هـذه المبـادلـة الَّتي لا تَعَادُلَ بين طرفيها، فمن أساليب البيـان أن يقدَّم في اللفظ الأخْـطَرُ والأهم والأكثر قيمة، كما تقول مستنكراً على من يُعَادل بين الشمس ومصباحـه: أَبِالشَّمْسِ تُعَـادِلُ مصباحَك.

واخْتير في النصّ فعل الشراء دون فعل البيـع، لـلإشعـار بأن دافِعَهُمُ الأصليَّ موجَّـهٌ لقبض الثمن المرغوب، لا لنقض العهـد، فالمؤمِنُ قـد يَنْقض عهد الله وهـو كاره، لدفع الضُّرِّ عن نفسه، أو لجلب المنفعة لها.

وأبان الله لهم أَنَّ ما أعَدَّهُ للمحافـظين على عهودهم هـو خير لهم ممَّـا تتوجـه نفوسهم له ثمناً لنقض عهودهم، فقال تعالى لهم:

﴿إنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أي: إنَّ الَّذِي هو عند الله مُدَّخرٌ لكم تنالـونه إذا حـافظْتُمْ على عهـودكم التي عاهدتمُ الله ورسوله عليها، هو خيـر لكم من كلِّ مـا يجلُبُه لكم نقضُ العهـود من رفع أذى واضطهادٍ، أو جلب منافع ومصالح دنيويَّة. إنْ كنْتُم تَعْلَمُونَ حقيقة ما ادَّخَرَهُ الله وأَعَدَّهُ للمحافظين على عهودهم، وإنْ كنْتُم تعلَمُـونَ مِقْدَارَهُ مـا نَقَضَ عَهْد الله منكم أحد. مهما تعرَّض لبلاء، أو لإغراء.

فالذي أراه أنَّ ﴿إنْ كنتم تَعْلَمونَ﴾ قَضِيَّةٌ شرطيَّةٌ حُذِفَ جوابُهـا لِلْعِلْم بِهِ، من القرائن.

وأبـان الله من الفـروق بين مُغْـرِيـات الحيـاة الـدنيـا بـالغـاً مـا بلغت، وبين

ما عند الله من خير للمؤمنين المتقين، والمحافظين على عهودهم، ممَّا أعده لأهل جنات النعيم، أن ما في الحياة الدنيا فانٍ زائل، لا دوام له، وأنَّ ما عند الله من نعيم وأجرٍ عظيم باقٍ خالد، وبنظرة حسابيَّةٍ قريبة يُدْرِكُ المتدبِّر أنَّه لا تُقَارَنُ السنوات المحدودة بالخلود الذي لا نهاية له، فقال تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

ولمَّا كان المحافظون على عهودهم يُضطَرُّون إلى تَحمُّلِ مرارة الصَّبْرِ، زادَهمُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ وَعْداً بأنْ يَجْزِيَهُمْ جزاءً خاصّاً فَوْقَ نظامِ الجزاء العامّ للمتَّقين، وهُو أنْ يَرْفع درجاتِ مُفْرداتِ أعمالهم الصالحة ذاتِ المستويات غير الرفيعة، فيجعلَها مساويةً لأحْسَن مَا كانوا يُقدِّمون من عمل صالح، ويُثيبَهُمْ على كلِّ عمل منها ثواباً مساوياً لثواب أحسن ما كانوا يَعْمَلُونَ، فضلاً منه وكرماً، فقال تعالى:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

النَّصّ الثالث

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾.

أي: أُولئك المنافقون الْبُعَداءُ عن رحْمَةِ الله، والبعداءُ في الدركات، لأنهم يوم الدِّين في الدَّرْكِ الأسفل من النار، الذينَ يَنْطَبِقُ عليهم وصفُ أنَّهم اشْتَرَوا، بمعنى أَجْرَوْا تبادُلاً في صفْقةٍ تُشْبِهُ الصَّفقاتِ التِّجاريَّة، فامتلكوا فيها الضَّلالَة، وَبذلُوا منْ جانِبِهِمْ فيها الْهُدَىٰ.

أمَّا الضلالَةُ التي امتلكوها في هذه الصفقة فهي إبْطَانُ الكفر، وسلوكُهم

بأعمالهم في السرِّ بعيداً عن مراقبة المسلمين سُبُلَ الكُفْر المظلمة التي يَتَعَرَّضون فيها للقَلَق وللعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، وهي في الحقيقة النفاق.

وأمَّا الْهُدىٰ الَّذي بذلُوه فهو ظاهر انتمائهم للإسلام، والعملُ ببعض الظواهر الإسلاميَّة الَّتي يَضْطَرُّهُمْ نِفَاقُهم أن يُشاركوا فيها المسلمين، إنَّهم يبذلُونها للشيطان لأنَّهم لا ينتفعون منها بشيء، مهما أَتْقَنُوا فيها بحسب الظاهر الْمُطَابَقَة بيْنَها وبين أعمال المؤمنين المسلمين الصادقين، لأنها فاقدةٌ شرطَ العمل الصالح الأول وهو الإيمان.

إنَّهم يَتَصوَّرون أنَّهم بهذه الْمُبَادَلة القائمة على النفاق يربحون ما عند المسلمين من أَمْنٍ وغنائم، وما عند الكافرين الصُّرحاء من مصالح ومنافع، لكنَّ تجارتهم في الواقع تجارةٌ غيرُ رابحةٍ الربحَ الذي يقصدونه من الدنيا، ولا يربحون ثواباً في الآخرة عند الله، فقال تعالى:

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

ولئلا يُفْهَمَ من النَّصّ أنَّهم كانوا على هُدىً حقيقيّ فَارْتَدُّوا عنه، أو أنهم يَنْجُون من عذاب الله يوم الدين ولو لم يحقّقوا ربحاً، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾:

أي: وما كانوا مُهْتَدِين في الحقيقة، بل بَذَلُوا هُدىً ظاهرياً غير حقيقيّ، لذلك فهم سيعذبون في النار بسبب كفرهم واختيارهم سُبُل الضلال.

* * *

النصّ الرابع

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً خطاباً لبني إسرائيل:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ

فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

الكلام على قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

نظير الكلام الذي سبق لدى تحليل قوله تعالىٰ في النص (٢) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴿٩٥﴾ ﴾.

فلا داعي إلى إعادته هنا.

والمرادُ من قوله: ﴿بِآياتي﴾ آيات الله التي يبذلُونها ليأخذوا بدلاً منْها عرضاً من عرض الحياة الدنيا ثمناً لها، وهي آيَاتُ اللَّهِ المنزَّلةُ في القرآن الذي يَدْعُوهم الله إلى الإيمان به، وآياتُ الله المنزَّلةُ في كتبهم التي تَدْعُوهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ وبما يأتي به من عند الله، وقد أخَذَ اللَّهُ علَيْهِمُ العهدَ أن يؤمنوا بِهِ ويتَّبِعُوه حين يبعثه الله.

وقد ظهر لنا أنَّ كُفْر الذين كفروا من بني إسرائيل بمحمَّد ﷺ، وبما أنزل الله عليه وهو القرآن، إنَّما كان الدافع إليه مصالحَ دنيويَّة، وتحقيقَ أهواءٍ نفسيَّة، ورغباتٍ عرقيَّة، فهي الثَّمَنُ الذي يحصُلُونَ عليه مُقابلَ تركهم العملَ بآيات الله التي لديهم، التي تكلِّفُهم الإيمانَ به واتِّباعه، ومُقابلَ تركِهِم مَا عرفوا من أنَّ محمّداً هو الرسول المبشَّر به في كتبهم، وأنَّ القرآن المنزَّل عليه هُوَ كلامُ الله حقاً وصِدْقاً.

﴿يا بني إسرائيل﴾: إسرائيل هو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. قالوا: ومعنى «إسرائيل» في لغتهم: عبد الله.

﴿اذكُروا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أيْ: جدِّدوا في تصوُّراتكم الحاضرة في أذهانكم وقلوبكم تذكُّرَ نِعَمِ الله الَّتي أنعم بها عليكم، وهي كثيرةٌ جاء بيانُها في طائفة من النُّصوص القرآنيَّة، وهم يعلمونها من تاريخهم، والغرضُ من تذكُّرها أن يَكون تذكّرهم لها دافعاً لهم إلى الإيمان برسول الله الخاتم، والإيمان بما جاء به عن ربِّه،

وشكر نعم الله عليهم بالعمل بما في القرآن، وبطاعة الرسول محمد ﷺ واتِّباعه.

﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: عَهْدُ الله هو الْعَهْدُ الذي أخذه عليهم أن يؤمنوا بالرسول محمد وبما يُنْزِل الله عليه، وأن يَتَّبِعُوه، ويعملوا بكتاب الله وبسنة رسوله.

وعَهْدُهُمْ الَّذِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ إيّاه هو أن يُجَازيهم بثواب مضاعف ويمنحهم التمكين في الأرض.

لكنَّهم لم يُوفوا بعهد الله، فلم يكونوا مستحقين أن يوفي الله بعهدهم. إنَّ وفاءَهُمْ بعهد الله شرط، ووفاء الله بعهدهم جزاء.

﴿وإيَّايَ فارْهَبُونِ﴾: أصلُها: فارهبوني. وفي هذه الصيغة معنى القصر، أي: ارهبوني وحدي، ولا تقدِّموا رهبة غيري على رهبتكم مني.

﴿وآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾: أي: آمنوا بالقرآن فهو مصدقٌ للتوراة ولما معهم من كتب ربّانيَّة أصول غير محرَّفة.

﴿ولَا تكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِه﴾: أي: ولا تكونُوا في الصف الأول من صُفُوف الذين كفروا به، فأنتم عالمون بأنه حقٌّ من عند ربكم، فإذا كفرتم به كنتم في مقدِّمة الكافرين به عن علم لا عن جهل، وكان الواجب أن تكونوا أول مؤمن به.

﴿وإيَّاي فاتَّقُون﴾: أصلها فاتقوني، ونقول هنا مثل ما قلنا في: ﴿فارهبون﴾ والغرض منهما التهديد والتحذير.

* * *

النصّ الخامس

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن اليهود الذين يفترون على الله الكذب، فيكتبونَ الكُتُبَ والصُّحفَ والأسفارَ بأيديهم من افتراءاتهم ويزعمون أنَّها من عند الله ليضلِّلوا بها جماهيرهم الذين لا يعلمون من العلم إلاَّ أنَّهم يقرؤون ما يقدِّمه لهم أحبارهم من مكتوبات يدَّعون لهم أنَّها من عند الله، والكتبةُ المفترون يفعلون ذلك مقابل منافع دنيويَّة ينالونها:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾:

أي: ليأْخذُوا ثَمناً قَلِيلاً من مالٍ أو منافعَ ومصَالِحَ دُنْيَوِيَّة، مُقَابِلَ هذا الذي يُقَدِّمُونه ويَبذلونه من مكتوبات أيديهم المفترَيَاتِ علَىٰ الله، الَّتي يقولون كاذِبين: إنَّها من عند الله.

إنَّهم يفعلون ذلك لتَبْرِير أباطيلهم التي يمارِسُونها، ولإرضاء ملوكهم وحُكَّامهم الفاسقين الفاجرين الضالِّين، ولإرضاء ذوي المال والجاه فيهم مُقَابلَ منافع ورشوات يحصلون عليها من قِبَلِهم.

فجعل الله عزَّ وجلّ هذه المبادلة، بمثابة الشِّراء والبيع، فهم يشترون الثَّمَن الْقَلِيلَ ويبذلُونَ الكذبَ المفترى على الله. وبقية التحليل قد سبق في النص (٢) من هذه النصوص.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمةُ عذابٍ، وفيها وعيدٌ بحُلُولِ عقاب الله فيهم، ووردَ أن «ويل» وادٍ في جهنَّم، وهي مبتدأ وما بعدها خبرٌ له، قالوا: وجاز الابتداء بها لأنها تتضمَّن معنى الدعاء، أقول: هي في القرآن وعيد من الله، فمسوغ الابتداء بها أنها تحمل وصفاً مقدَّراً، أي: ويلٌ عظيم. عذابٌ جسيم. وإذا كانت اسماً لوادٍ في جهنم فهي عَلَمٌ على هذا الوادي.

* * *

النصّ السادس

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن بني إسرائيل الَّذِين خالفوا أحكام دينهم، وعَصَوْا الله في أهل ملَّتهم، فكانوا يسفكون دماءَ بعضهم، ويُخرجون فريقاً منهم من ديارهم، يتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتُوهُمْ أُسَارىٰ يُفادُوهم:

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: أولئكَ الْبُعَداءُ عَنْ رَحْمَةِ الله، الَّذِينَ أخَذُوا مطامعهم من الحياة الدنيا وزينتها، وتركوا مُقَابِلَ ذلك الآخرة وما فيها من نعيم مقيم عند الله، وقد كانت في أيديهم بمقتضى إيمانهم بموسىٰ وأنبياء بني إسرائيل، وما أنزل الله عليهم في كتبهم.

لكنهم آمَنُوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، والإيمانُ لاَ يَقْبَلُ التجزئةَ والتبعيضَ، فمن كفر ببعض ما أنزل الله فقد كَفَرَ كُفْراً مُخَلَّداً في عذاب النار.

إذن فهم يوم الدين لا يُخفَّفُ عنهم العذابُ مراعاةً لأنَّهم آمَنُوا ببعضِ الكتاب، وهم أيضاً لا يَجِدُون ناصراً ينصرهم فينقذهم من عذاب ربِّهم.

فجعل الله في هذه الآية المبادلة ببذل الآخرة وأخذ الحياة الدنيا بمثابة الشِّراء، لأنَّ العملية صفقةُ مبايعة مع الله، كأنَّهم يقولون فيها لربِّهم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو مالك كلِّ شيء: أعطنا الحياة الدنيا وزينتها وشهواتنا وأهواءَنا منها، وخُذْ نعيم الحياة الآخرة الخالد.

* * *

النصّ السابع

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً وبشأن اليهود أيضاً إذ كفَرُوا بالقرآن وكفروا بالرسول محمَّد ﷺ، مع أنَّهم عرفوا أنَّ القرآن حقٌّ منزَّل من عند الله، وأنَّ محمَّداً هو المبشَّر به في كتبهم:

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: بِئْسَ الشيءُ الَّذي أخذوه وبذلُوا مقابله أنفسهم، فدفعوها لنقمة الله وغَضَبِه عليهم، وعقابه وعذابه.

باء التعدية هنا دخلت على المقبوض مثل فعل «باع» وهذا على خلاف الغالب من استعمال فعل «اشترى»، لأنَّ الغالب فيه أن تدخل الباء على المبذول، كما سبق بيانه لدى تحليل النصّ الثاني من هذه النصوص.

﴿بئسما﴾: أورد النحاة عدداً من الاحتمالات بالنسبة إلى «ما» من بئسما، فقال بعضهم هي اسم موصول، وقال بعضهم هي نكرة منصوبة مفسِّرة لفاعل بئس، وقيل غير ذلك.

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ النصَّ يفيد المعنى الذي سبق شرحه، وندع الصناعة النحويَّة للنحاة، فالمعنى هو الأهمّ.

فما هو الذي قبضوه وبذلوا أنفسهم مقابله؟

إنَّ تدبُّر النصّ يكشف لنا أنَّه هو كُفْرُهم بما أنزل الله بدافع الحَسد، إذِ اختارَ اللَّهُ للرسالة الخاتمة الخالدة، محمَّداً من العرب لا من بني إسرائيل، فقال تعالى في بيان هذا تفسيراً للشَّيْءِ الذي اشتروا بهِ فقبضوه أَنْفُسَهُمْ التي بَذَلُوهَا:

﴿أَنْ يَكْفُـرُوا بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ بَغْيـاً أَنْ يُنَـزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أنزل الله﴾: أي: أخذوا الكُفْـرَ بِمَا أنـزل اللَّهُ، والَّذِي أنـزله هو القرآن.

﴿بَغْياً﴾: أي: حسداً، فمن معاني البغي في اللُّغة الحسد، وهو المـراد هنا، ويُسمَّىٰ الظلم بغياً أيضاً، لأنَّ الحاسد يظلم المحسود جَهْده.

ويدور أصل معنى البغي على الطلب، وعلى تجاوز الحدّ. والحاسِـدُ يطلب لنفسه ما عند المحسود، أو يطلُب مثله، وقد يتجاوز الحدّ فيـظلم محسوده ويعتـدي عليه. ومن معنى تجاوز الحدّ يطلق البغي على الكبر.

واليهـود قد حَسَـدُوا العرب إذْ جـاء الرسـول الخاتم المُبَشَّـرُ به في كتبهم من العرب، لا من بني إسرائيل، كما كانوا يُحِبُّون أَنانيَّةً عرقيَّة.

إنَّ الرِّسالة اصطفاءٌ واختيارٌ من الله، يتفَضَّلُ بها على من يشاءُ من عباده، وقد اختار للرسالة الخاتمة محمَّداً من العـرب المستعربـة، المنحدرين من إسمـاعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

﴿فباؤوا بغَضَبٍ عَلَىٰ غضَبٍ﴾: أي: رجعوا بغضب من الله عليهم، مَحْمُولٍ علَىٰ غَضَبٍ آخـر كـان عَلَيْهِمْ بـأسبـابٍ كثيـرة كـانت منهم، ومنهـا تحـريفـاتهم في دين الله، وكُفريّاتهم وشناعاتهم الكثيـرة، التي كانت مـلازمة لكثيـر منهم قبل البعثـة المحمَّديَّة.

فعـل [بـاءَ] يـأتي بمعنى: رجـع، وبمعنى: اعتـرف، والمنـاسب هنـا معنى «رجع».

﴿وللكـافرين عَـذَابٌ مُهين﴾: أي: وللكافـرين منهم ومن غيرهم عـذابٌ من عند الله مُهينٌ مُذِلٌّ لهم جزاء كفرهم وكبرهم.

* * *

النصّ الثامن

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن أهل الكتاب لا سيما اليهود منهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿يَشْتَرُون بِهِ ثمناً قَلِيلاً﴾: أي: يُعْطُونَ من عملهم كتمانَ ما يريدون كِتْمَانَهُ ممّا أنزل الله من الكتاب، مُقَابِلَ ما يحصلون عليه من ثمنٍ لهذا الكتمان.

دخلت باء التعدية هنا على المبذول لا على المقبوض، وهو الغالب في فعل اشترىٰ كما سبق بيانه لدى تحليل النصّ الثاني من هذه النصوص.

والعُمُوم الوارد في ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يُراد منه خُصُوصُ ما يُريدون كتمانه منه، واسْتُخْدِمَ اللَّفظ العام للإشعار بأنهم مُسْتَعِدُّون لأَنْ يكتموا جميع ما أنزل الله إذا كان لهم هوىً بكتمانه، فمن كَتَم بعض الحقّ كَمَنْ كَتم كُلَّ الحقّ، وهذا المعنى دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ... ﴿٣٢﴾﴾.

إنَّ علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يكتمون ما أنزل الله من الكتاب الأمّ عنده، ممّا تبلَّغوهُ عن طريقِ رُسُلهم، لأنَّهم إذا أَظْهَرُوهُ كان حُجَّةً عليهم،

أو لم يُحَقِّقُوا ما يريدون من مصالح ومنافع أو شهوات وأهواء من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

فالدافع لهم على كتمان ما يكتمونه من الكتاب الرَّبّاني هو تحقيق منافع ومصالح دنيوية لأنفسهم، كرشوات، أو محافظةٍ على مكاناتٍ وزعامات، أو انطلاقٍ في ارتكاب المحرَّمات، أو أكْلٍ لأموال الناس بالباطل، ونحو ذلك.

إنَّهم يبذُلون من أنفسهم معصية الكتمان وهي من كبائر الإثم، مقابل ما يحصلون عليه من ثَمَنٍ قليل، هو من متاع الحياة الدُّنيا، وهم يحصُلُونَ عليه بالإثم والعدوان ومعصية الله.

ونعلم أنَّ ممّا كتموه، ما لديهم من بشائر بالنبيِّ محمّد ﷺ. وكذلك حُكْمُ الرجم الذي ستروه عن الرسول محمّد ﷺ حين طلب من بعض علمائهم تلاوة ما يتعلَّق بحكم الزاني والزانية في كتبهم، ليحكم في الزانيَيْنِ منهم اللَّذَيْنِ طلبوا منه أن يحكم بشأنهما بحكم الله.

ونقرأ الآن في سفر التثنية من كتابهم حكم الرجم، في الإصحاح (٢٢). ونقرأ أيضاً في إصحاحات أخرى أحكاماً بقتل الزاني والزانية، في صُوَرٍ خاصة، وقتل الزاني فقط إذا كان للزانية عُذْر يدلُّ على أنَّها استسلمت من ضعف لا من رغبة، وأحكاماً كثيرة بالقتل لارتكاب الفواحش المحرَّمة في شريعتهم.

ولمَّا كان معظمُ ما يحصلون عليه أموالاً ينفقونها في مطاعمهم ومشاربهم، كان جزاؤُهُمُ العادلُ يَوْمَ الدين أن تحترقَ بطونهم ممّا يُضطَّرُون أن يأكلوه من طعام شديد الحرارة في جَهَنَّم، وهو طعامٌ فيه موادّ تعطي حرارةً شديدةً في البطون كحرارة النار الملتهبة، مثل شَجَرَةِ الزَّقُّوم التي هي في جهنَّم طعامُ الأثيم، وقد وصفها الله عزَّ وجلّ بقوله في سورة (الدّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿الْمُهْلُ﴾: المعدن المذاب ــ والقطران ــ وعَكَرُ الزَّيْت المحمي.

﴿الْحَمِيم﴾: الْمَاءُ الْحَارُّ الـذي يغلي ويفورُ من شـدَّة حرارتـه. دلَّ على هذا النوع من التَّعذيب للَّذين يكتمون ما أنزل الله، قوله تعالى في النَّص الذي نتدبَّرُهُ:

﴿أولَئِكَ مَا يَأْكُلُون في بُطُونِهِمْ إلَّا النَّارَ﴾:

أي: أُولئـك البعداء عَنْ رحمـة الله، الْمُقِيمُونَ في عـذاب جهنَّم، ما يَـأْكُلُونَ بأفواههم ويَهْضِمُونَ في بُطُونهم الجائعةِ الطالبةِ للطَّعـام إلَّا طعامـاً حارّاً كـالْجَمْرِ من النار، فسمّى الله عزَّ وجلّ الطعام الذي يأكُلُونه ناراً، لأنَّه كالنار حرارةً وإيلاماً.

﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أي: ولا يكلِّمهم كـلاماً بـرفق وتكريم، أو كـلامـاً بمـواجهـة وخـطاب، بـل يحاسبهم كخطاب الغائب إعراضاً عنهم، لأنهم كَتَموا كلامه المنزل، فهو يجـازيهم بمثل عملهم.

﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾:

أي: ولا يغفر ذُنُوبهم، ولا يَعْفُـو عنهم، لأنَّ من يغفر الله لَـهُ يوم الـدِّين فإنَّـه يزكّيه، بمعنىٰ أنه يطهِّره من ذنوبه بالمغفـرة والعفو، وهـذا فضلٌ من الله على عبـده العاصي، لكنَّ الذين يكتمون ما أنزل الله لا يُزَكِّيهِمُ الله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: ولهم عذابٌ مؤلمٌ لهم في جَهَنَّم، إضافةً إلى آلام ما يأكُلُونَ في بطُونهم ممَّا هُو كالنّار.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ والْعَذَابَ بالْمَغْفِرَةِ﴾:

أي: أولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ، والْبُعَدَاءُ في دركـاتِ العذاب في جهنم، الَّذين ينطبق عليهم وصفُ أَنَّهم اشْتَرَوْا بمعنىٰ أجْرَوْا تبادلاً في صَفْقةٍ تُشبه الصفقات التجـارية، فـامتلكوا فيهـا الضلالـةَ بكتمانهم مـا أنزل الله، وبَـذَلُوا مِنْ جـانبهم فيها الْهُدَىٰ الَّذي كـانوا عليـه، وهو عِلْمُهُمْ بمـا أنزل الله، وبـواجب تبليغه والعمـل به.

وامتلكوا فيها العذابَ النازل بهم، وبذلُوا من جانبهم فيها ما كان في ملكهم بفضل الله، وهو مغفرة الله لذنوبهم التي لا تصل إلى الكفر، ولا تصل إلى كتمان ما أنزل الله.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾:

أي: فما أشدَّ حاجتهم للصَّبر الشَّديد الطويل على النار وعَذابها الأليم، أو فما أشدَّ جُرْأَتَهُمْ على ارتكاب الكبائر العظمىٰ التي تُفضي بهم إلى عذاب النار التي يحتاجون فيها إلى صبر شديدٍ طويل. أو فما أشدّ عذابَ النار عليهم الذي يَسْتَهْلِكُ منهم صبراً شديداً طويلاً، فهم فيها دائمو تحمُّلِ العذاب بالصَّبْر، إذ هو لا يتحوَّل إلى أمْرٍ مألوفٍ معتاد، وهُمْ لا يَتلَذَّذُون به كالأجرب الذي يَحُكُّ مواضع الداء فيَجْمَعُ بالحكِّ بين اللَّذة والألم.

* * *

النصّ التاسع

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

تتحدَّث هذه الآية عن فريق من المؤمنين ذوي تفوُّقٍ في أعمال البرّ والإحسان، فهم أبرارٌ أو محسنون، ومن صفاتهم أنَّهم يبذُلونَ أنفسهم وأموالهم مقابل حصولهم على مرضاةِ الله، فإذا دعا داعي الجهاد بالأموال بذلوا من أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وإذا دعا داعي الجهاد بالأنفس بذلوا نفوسهم ابتغاء مرضاة الله، وخرجوا مقاتلين في سبيله.

استُعْمِلَ فعل «يَشْرِي» هُنَا في التعدية مثل فعل «يبيع» فَنَصَبَ المبذولَ في صفقة المبايعة، أمّا المقبوضُ فمحذوف دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللهِ﴾،

أي: يشري نَفْسَهُ بثواب الله العظيم في الجنَّة، الذي يناله من بذل نفسه في سبيل الله وابْتِغاءَ مرضاته.

﴿ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾:

أي: طَلَبَ وإرَادَةَ رضا الله عزَّ وجلّ. ابْتِغاءُ الشيءِ: إرادتُه وطَلَبُه. «مرضاة» مصدر رَضِيَ: تقول لغة: رَضِيَ الشيءَ يَرْضَىٰ رِضاً، ورِضَاءً، ورِضواناً، ومَرْضَاةً، ويُعدّى بحرف الجرّ، فتقول: رَضِي به، ورَضِيَ عنه، ورَضِيَ عليه. والرِّضا هو القبولُ بارتياح وحبّ.

﴿واللَّهُ رؤوف بالعباد﴾:

أي: لا يُكَلِّفُهم إلزاماً بَذْلَ أنفسهم رأْفةً بهم، وشفقة عليهم، لكن يندبُهم إلى ذلك أحياناً لنصرة دينه، فينتدب فريقٌ منهم باذلاً نفسه ابتغاءَ مرضاة الله.

* * *

النصّ العاشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

سبب النزول:

روى البخاريّ ومسلم وأصحابُ السُّنَنِ وغَيْرُهُمْ عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

فقال الأشعثُ بْنُ قَيْسٍ : فِيَّ والله كان ذلك، كان بَيْنِي وبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فقدَّمْتُه إِلَىٰ النبيِّ ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ :

«أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟».

قُلْتُ: لا. قال لليهودي : «اِحْلِفْ».

فقُلْتُ: يا رسول الله إِذَنْ يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مالي، فأنزل الله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً. . . ﴾الآية :

أي : إنَّ الَّذين يَبْذُلُونَ عَهْدَ الله وأَيْمَانَهُمْ كاذِبينَ، مُقابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنْ متاعِ الحياة الدنيا يَحْصُلُونَ عليه، أُولَئِكَ البعداءُ عن رَحْمَةِ اللَّهِ يُعَاقَبُونَ يَوْمَ الدِّين بالعقوبات التاليات :

١ ـ ﴿لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ :

أي : لا يكون لهم نصيبٌ ممَّا يُحبُّونَ في الحياة الآخرة يومَ الدين، كنصيب أهل الإيمان المتقين، لأنَّهم من أهل الكفر المستهينين بعهد الله المأخوذ عليهم أن يؤمنوا برسول الله، وأن يلتزموا اتِّباعه، والمستهينين بأيمانهم التي حلفوها توثيقاً لهذه العهود.

٢ ـ ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ :

أي : لا يواجِهُهُم الله بالخطاب عند الحساب، بل يُحاسبهم كخطاب الغائب، إعراضاً عنهم، لأنَّهُمْ نقضوا عُهُودَهم مع ربِّهم، ولم يَفُوا بأيمانهم التي حلفوها.

٣ ـ ﴿وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يوم القيامة﴾ :

أي : ولا يرعاهم برأفة ورحمة وعطف، لأنَّهُمْ لا يستحقون ذلك، لِعِظَمِ جريمتهم، إذ كفروا برسول الله وبما أُنْزِلَ عليه، وهم يعلمون أن ما كفروا به حقّ وصدق، فهم أهل الكتاب السابق، وعندهم من البشائر ما يكفي لتصديق الرسول محمّد ﷺ.

٤ ـ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾:

أي: ولا يَغْفِر ذنوبَهُمْ ولا يعفو عنهم، لأن من يغفر الله له يوم الدين أو يعفو عنه فإنه يُزَكِّيه، بمعنى أنه يُطِهِّرُهُ بالمغفرة والعفو، وهذا يكون فضلاً من الله على عباده العصاة، لكنَّ هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً لا يُزكيهم الله، إذْ لَيْسُوا أهلاً لأنْ يتفضَّل الله عليهم بالعفو أو بالمغفرة.

٥ ـ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أليم﴾:

أي: ولَهُمْ عَذَابٌ مُؤْلِمٌ لهم في جهنَّم، جزاء كفرهم وعدمِ وفائهم بعهد الله، وجَزَاءَ استهانتهم بالأيمان التي حلفوها، ووثَّقوا بها الْعُهُودَ الَّتي أعطوها لله عزَّ وجلَّ على أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ويتبعوه.

* * *

النصّ الحادي عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

ارتَدَّ بعضُ الذين أسلموا عن الإسلام في العهد المدني فحزِنَ الرسول ﷺ من أَجلهم، فنهىٰ الله رسوله عن أن يحْزَن من أجل الذين يُسَارِعُون في طريق الكفر ابتعاداً عن الإسلام بعد أن ارتدُّوا عنه، وأبان الله تعالى لرسوله الأسباب التي تستدعي ألَّا يحزن من أجلهم:

● فالسببُ الأول: أنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا الله شيئاً، أي: فلا تَحْزَنْ من أجل ربِّك، دلَّ على هذا السبب قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾.

● والسبب الثاني: أنَّ الله بعد أن ارتَدُّوا وأخذوا يُسارعون مبتعدين عن الإسلام موغلين في طريقِ الكفر يُريد ألاَّ يجعل لهم حظّاً من السعادة والنعيم في الآخرة، فينبغي الرضا بمراد الله فيهم، دلَّ على هذا السبب قولُه تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لهم حَظّاً في الآخرة﴾.

● والسبب الثالث: أنَّ اللَّهَ أعَدَّ لهم عذاباً عظيماً، أي: فلا تحزن من أجل المسلمين الذين يتعرَّضون لأذاهم ومكرهم وكيدهم، دَلَّ على هذا السبب قولُه تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بعد هذا أبان الله أنَّ هؤلاء المرتدين وأمثالَهُمْ ينطبق عليهم وصفُ أنَّهم اشْتَرُوا الكُفْرَ فقبضوهُ امتلاكاً، وبذلُوا مُقَابِلَه من جانبهم الإيمانَ الذي كانوا يمتلكونه، أي: أجرَوْا تبادلاً في صفقة تشبه الصفقات التجاريَّة، بذَلُوا فيها الإيمان وأخذوا بدله الكفر.

وقد تكرر في القرآن استخدامُ هذا المثل مراعاةً لطبيعة البيئة العربيَّة، التي نزل القرآن بلُغَةِ أهلها، وقد كانُوا يعتبرون التجارة وهي أعمالُ البيع والشراء في مقدِّمة الأعمال الشريفة التي يجمعون عن طريقها ثرواتهم، أمَّا الزِّراعةُ فقد كانت قليلة في بيئتهم، وأمَّا الصناعةُ فقد كانت شِبْهَ منعدمة، والذين يمارسونها بينهم لا يَعْتَبِرُونَهم من ذوي المكانة العالية فيهم، وبَعْضُ الأعمال الصناعيَّة كانت محتقرة لديهم، وأمَّا تربيةُ الأنعام واستثمارها التي كانت من أعمالهم المنتشرة فالتَّبادُلُ فيها يتمُّ عن طريق التجارة والبيع والشراء، فكان تكْرِيرُ هذا المثل في المناسبات المختلفات هو الأسلوبُ الملائم للبيئة العربيَّة إبَّان تنزيل القرآن، فقال تعالى في هذا النصّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾.

إذن: فينبغي ألَّا نَحْزَنَ مِنْ أجلِ الله إذا ارتدَّ عن الإسلام مُرْتَدُّونَ، لأَنَّهم لن يَضُرُّوا اللَّهَ شيئاً.

وينبغي ألَّا نَحْزَنَ منْ أجل إضرارهم بجماعة المسلمين، فقد أعَدَّ الله لهم عذاباً أليماً، جزاء مَا جَنَوْا وأجْرَمُوا، فقال تعالى:

﴿ولَهُمْ عذَابٌ أليم﴾.

* * *

النصّ الثاني عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

يأمر الله المؤمنين المسلمين بأن يَعْلَمُوا ويَذْكُرُوا دوماً كبيرةً من كبائر الإثم الَّذي سقط فيه أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، وهي نَبْذُهم كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهم، وعدمُ قيامِهم بما أوجب الله عليهم بالنسبة إليه، وهو بيانُه وتوضيحُ معانيه، وعَدَمُ كتمانه، وقد أخَذَ الله عليهم الميثاقَ أن يُؤَدُّوا هذا الواجب، فلم يكن منهم وفاءٌ بما عاهدوا الله عليه.

وإعلامُ عُلَمَاءِ المسلمين بهذا الأمر، وتَكْلِيفُهم أَنْ يَذْكُرُوه دواماً، يَتَضَمَّن تحذيرَهم من أن يسقُطوا فيما سقط فيه أهل الكتاب من قَبْلِهم، فيكتُموا مَا جاءهم

عن الله من علمٍ في القرآن وفي بيانات الرسول محمَّد ﷺ، ولا يبيِّنوه للناس، فإذا فعلوا ذلك استَحقُّوا نقمةَ اللَّهِ وعقابه.

وأبان الله عزَّ وجلَّ أنَّ السَّبَبَ الذي جعل عُلَمَاء أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ يكْتُمون عن الناس ما أنزل الله في كُتُبِهِم ولا يُبَيِّنُونه لعامَّتِهم، ما كانوا يحصُلُون عليه من ثَمنٍ مُقَابِلَ هٰذِه الجريمةِ من جرائمهم، وهذا الثَّمَنُ لا بدَّ أن يكون مالاً، أو مصالحَ ومنافعَ دنيويَّة، أو تحقيقَ شهواتٍ ورغباتٍ، أو اتِّباعَ أهواء، أو استجابةً لمطالب ذوي السلطان والجاه الذين يبذلون لهم الرُّشا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾:

أي: اعلم واذْكُرْ دوماً يا مَنْ تحملُ علْم كتاب الله في القرآن هذه المعلومة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ:

هي أنَّ الله أَخَذَ ميثاقَهُم. الميثاق: الْعَهْدُ المؤكَّد المشدَّد المعقودُ بحبال الأيمان، أو نحو ذلك من مُبَايعة.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾:

جُمْلَةُ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ مؤكَّدَة بلام الابتداء، وبنون التوكيد المشدَّدَة، أي: يجب عليكم وجوباً مُؤكَّداً أن تُبَيِّنُوا الكتاب للناس، ولا تكتموا منه شيئاً.

واستعمالُ صِيغَةِ فِعْلِ المضارع الخبريَّة في الفعلين دون صيغَةِ فعلِ الأمر، للدَّلالة على أنَّ المطلوب فيهما من الأمور التي لا تحتمل المعصيةَ والمخالفة، بل لا بدَّ أن يكون أمراً واقعاً، فهو في مثل هذا الموقع أدلُّ على شِدَّة الإلزام من استعمال صيغة فعل الأمر.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

النَّبْذُ: طَرْحُ الشيء مع الاستهانة به، وأَصْلُه واقع على نبذ النواة بعد أكل ما حولها.

وزيادةً في الاستهانة، وإبعاداً للمنبوذِ عن ساحة النظر، فقد يَنْبِذُ آكِلُ التَّمْرِ النَّوىٰ وراء ظهره.

فالعبارة تَدُلُّ على تَوَغُّل أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ارتكاب كبيرة إهمالهم لما أخذ الله عليهم به الميثاق، من بيان كتاب الله وعَدَمِ كتمانه، حتى كان فيهم بمثابة النَّوىٰ الذي يُنْبَذُ وراء الظهور.

ولنا أن نجعلها من باب الكناية، أو من باب الاستعارة القائمة على تشبيه كتمانهم كتاب الله وإهمالهم بيانَه للنَّاس بنَبْذِ النوى وراءَ الظهور.

﴿واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾:

أي: واشْتَرَوْا بالميثاقِ الذي يجب عليهم أن يُحافظوا عليه، فَبَذَلُوهُ في صفقةٍ تُشْبه الصفقات التجارية، وامتلكوا بَدَلَهُ ثمناً قليلاً من متاع الحياة الدنيا.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

أي: فبئْسَ عملاً اشتراؤهم هذا، فاعل «بئْسَ» في أقرب الوجوه التي ظهرت لي من أقوال النحاة ضميرٌ يعودُ على ما فُهم من الجملة السَّابقة، ولم يُمَيَّز بلفظ «ما» لئلا يجتمعَ في العبارة لفظان متماثلان. و «ما» في ﴿مَا يَشْتَرون﴾ مصدرية.

ومن المحتمل أن تكون «ما» اسم موصول، وعلى هذا فالتقدير: فبئْسَ ثَمناً الذي يشترونه، أي: يأخذونه بدلاً عن عدم وفائهم بالميثاق الذي أخذه الله عليه، وعن نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم.

ولئلا يُفْهم أنَّ جميع أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى ارتكبوا هذه الكبيرة العظمى، قال تعالى في السورة بعد إحدى عشرة آية:

﴿وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وما أُنْزِلَ إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً أولَئِكَ لهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

* * *

النصّ الثالث عشر

وقَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: أَلَم تَرَ أيها الرائي المتفكِّر رؤيَةً علميَّةً فكريَّة حين نَظَرْتَ متفكراً في أحوال الَّذِينَ أوتُوا نصيباً من الكتاب، حالةَ كونهم يشترون الضلالة، إذْ يكفرون بالرسول محمَّد وبما أَنْزَلَ الله عليه، فيأخذون الضلالة، ويبذلون الْهُدَىٰ الَّذِي يَعْلَمُونَه من كتبهم، ولا يكتفون بأن يختاروا لأنفسهم الضلالة، بل يُريدون منكم يا أيُّها المؤمنون المسلمون أنْ تضلُّوا السَّبيلَ الْحَقَّ الَّذِي اصطفاه الله لعباده، وهو دينُ الإسلام، فتخرجوا عنه، وتنطلقوا تائهين في سُبُلِ الضلال والْغَواية.

إنَّ سبيل الحقّ واحد، أمَّا الباطل فلا حصر لسُبُله، وكلُّ سبُلِه التي لا حصر لها ضَلاَلٌ، وضياع، ومتاهات، وشرٌّ وضُرٌّ وعذاب.

والمراد من ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾: انظروا تَرَوْا، فهي دعوة إلى النظر بأسلوب الاستفهام.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً من الكتاب﴾:

هم اليهودُ أوَّلاً، فالنصارى.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾:

أي: يَعْقِدُون صَفْقَةَ مُبادلة يبذلون فيها الهداية، ويأخذون بدلها الضلالة، كصفقات البيع والشراء في التجارة.

وفي التنبيه على هذه الجريمة من جرائم أهل الكتاب تحذير للمسلمين من أن يعملوا مثل عملهم.

* * *

النصّ الرابع عشر

وَقَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ﴾:

أي: الَّذِينَ يَبْذُلُون الحياة الدُّنيا، لِيَنالُوا بَـذْلَها سعـادةَ الحياة الآخـرة ونعيمَها في الجنَّةِ خَالدين.

«يَشْرُونَ» هُنَا مثل «يَبِيعون» إذ دخلت البـاء على المقبوض لا على المبـذول. والذين يبذلُون الحياة الـدنيا لِيَنَـالُوا نعيم الجنـة في الآخرة هُمُ المؤمنـون المسلمون الصادقون الحريصون على أن يكونوا من الأبرار أو المحسنين، لذلـك كلَّفَهُمُ الله أن يقاتلوا في سبيله، تكليفاً إلزاميّاً فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ﴾:

وقد دلَّنا هذا على أنَّ تكليف الطامحين إلى مـرتبة الأبـرار أو مرتبـة المحسنين أشدُّ من تكليف المكتفين بمرتبة المتقين، الذين يؤدُّون الواجبات العـامَّة، ويتـركون المحرَّمات العامَّة، الموجهةَ لجميع المسلمين.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾:

رتَّبَ الله استحقاق الأجر العظيم الذي وعدَ به، على تَحقُّقِ القتال في سبيله، سواءٌ اسْتُشْهِد المقـاتل أو لم يُسْتَشْهَـدْ، لأنَّ القتال هـو الذي يكـون من كَسْبِهِ، أمَّـا الاستشهاد فهو من تدبير الله في قضائه وقدره، وكُلٌّ من الشَّهيـد وغيره كـان مُعرَّضـاً للقتل وللسلامة.

أمَّا تعويض الشهيد فيكون مكافأةً خاصة على ما نزل فيه قضاءً وقدراً.

ونلمـح من قـولـه تعـالى: ﴿فَيُقْتَـلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أنَّ هـذا الصنف من المؤمنين

الذين باعُوا الحياة الدنيا بالآخرة لا يَقَعُ في تصوُّرِهم إلاَّ أحَدُ احتمالين: إمَّا أن يُقْتَلُوا وإمَّا يَغْلِبُوا أعداءَ الله، أما أن يَنْهَزِمُوا أو ينتصر عليهم عدوّ الله فهذان أمران معزولان عن خواطرهم.

* * *

النصّ الخامس عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصَّفّ/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

جاء في هذا النصّ نَدْبُ عامَّة الذين آمنوا إلى ممارسة تجارة رابحة مع الله عزَّ وجلَّ، والتجارةُ كما نعلم تقومُ على قاعدة البيع والشراء، لتحقيق المكاسب، واغتنام الربح بالمبادلات التي يأخذ فيها التَّاجِرُ قيمة سلعته زائداً على القيمة التي اشتراها به، تعويضاً عن خدماته، أو تجميدِ قيمةِ السلعة ريثما يأتي راغبها، ومَهارَتِه في الاستيراد والتصدير والجلْب والتوزيع، وعن المخاطرة التي قد يتعرَّض لها في بعض السِّلَعِ بنزول قيمتها عمّا اشتراها به أو تَلَفِهَا.

لكنَّ التجارة مع الله تحقِّق للمؤمنين الرِّبْحَ قطعاً من دون احتمال خسارةٍ ما، فالمؤمن يقدِّم العمل الذي يرضي الله، فيتقبَّلُهُ الله ويُعْطِيه عليه ربحاً عظيماً، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلم غَيْرُ الله مقدارَها كمّاً ولاَ كيْفاً.

وقد شَبَّه الله هذا التَّعامل معه من عباده بالتجارة الرابحة، لأنَّ نفوسَ الناس تُحبُّ الثروات التي تُجْنَىٰ عن طريق الأرباح التجارية، إذْ يَشْعُرُ الرَّابحُ فيها أنَّه

لم يقدِّمْ لمن رَبِحَ منه إنتاجاً جديداً قد اجتهد في إيجاده أو استخراجه، ولم يقَدِّم خدمةً تستحق كلَّ الربحِ الذي حصل عليه.

وبعد هذا التشبيه جعل الله اسم المشبَّه به عنواناً للمشبَّه، أو نقول: جعل اسمَ الممثَّلِ به عنواناً للممثَّلِ، وجرى هذا الاستعمال في القرآن حتى كأنَّه اصطلاح واضح الدلالة، لا يحتاج إلى قرائن.

وجاء التوجيهُ هنا في هذا النَّصِّ بأسلوب الندب: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ؟﴾ لا بأسلوب التكليف الإلزامي، لأنه مُوَجَّهٌ لعموم المؤمنين، لا لخصوص الذين يَشْرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة، وهم أهل مرتبة البرّ وأهل مرتبة الإحسان، كما جاء في النصّ السابق من سورة (النساء/٤).

وأبانَ الله عزَّ وجلَّ أَنَّ أَوَّل أرباح هذه التجارة معه، أَنَّها تُنْجِي المؤمنين من عذاب أليم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟﴾:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: عَرْضٌ فيه إغراءٌ.

﴿تُنْجِيكُمْ من عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: تُخَلِّصكُمْ من عذاب أليم قد تتعرضون له في الحياة الدنيا، وتُخَلِّصُكُمْ يومَ الدين من عذابٍ أليم تَسْتَدعِيه معاصيكُم.

أمّا ما تَبْذُلُونه في هذه التجارة ابتغاءَ مرضاة الله شرطاً لتَحقُّقِ الأَرْباح فهو:

﴿تُؤْمِنُونَ بالله ورَسُولِهِ، وتُجاهِدُونَ في سبيل اللَّهِ بأموالكم وأَنْفسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: تُجَدِّدُونَ دواماً في قلوبكم وتصَوُّراتكم حركةَ الإيمان بالله ورَسُولِه، مع تَجَدُّد الأحداث في حياتكم، وهذا التجديدُ يَتَوَلَّدُ عنه أَنْ تَذْكُروا الله ذكراً كثيراً، وأَنْ تُطِيعوا الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، أداءً لحقُوقِ مرتبة التقوى، التي تستدعي فِعْلَ الواجبات وتركَ المحرَّمات.

﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: أي: وتُتَابِعُونَ أعمال المجاهدة في سبيلِ الله، ببَذْلِ ما تَستَطِيعُونَ مِنْ جَهْدٍ، في مغالبة نفوسِكم وأهوائكم وَشياطينِ الإِنْسِ والْجِنِّ، ابتغاء مرضاة الله، مع التزام السَّيْرِ في سبيله، الذي هو صراطه المستقيم.

وهذه المجاهدة تكونُ بالبذل من أموالكم كلَّما دعا داعي البذل في سبيل الله، لنشر الدين، ومقاومة المضلّين، وإعداد المستطاع من القوَّة لإرهاب عدوِّ الله وعَدُوِّكُم الْمَعْرُوفينَ لكم، ولإرهاب آخرين من دونهم لا تَعْلَمُونهم، الله يَعلَمُهُم.

وتكون بالبذل من أنفسكم في الصَّبْرِ والمصابرة والدعوةِ إلى الله، وتَحمُّلِ الأَذَىٰ، ثمَّ بالقتال إذا صار أمراً لازماً لا مندوحة عنه، لقمع المعتدين، وإزاحة الطُّغاةِ المُضلّين عن مراكز القوَّة الَّتي تُمكِّنُهُمْ من اضطهادأنصار الحقّ، ونَشْرِ الضلال، والإفساد في الأرض.

﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ﴾: أي: ذلِكُمُ الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خَيْرٌ لكُمْ من البخل والجبن والقعود والكسل، في دنياكم وآخرتكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: إن كنتم تعلمون ما في ذلكم الجهاد من خير عظيم لكم في دنياكم وأُخراكم عِلْمَ شُهُودٍ أو قريب منه ما قعد عنه قاعدٌ منكم، ولا تباطَأَ فيه متباطىء، ولا تكاسلَ متكاسل، ولا بَخِلَ أحد منكم ولا جَبُن. فجواب الشرط فيما ظهر لي محذوف تدلُّ عليه القرائن.

بعد هذا أبان الله بالتفصيل كُلِّيَاتِ الأَرْباح الَّتي ينالُها المؤمنون إذا مارسوا هذه التجارة الرابحة مع الله، وهي كما يلي إن مارسوها صادقين مخلصين ملتزمين منهاجَ الله:

١ ــ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾:

جوابُ شرطٍ محذوف مقدَّرٍ ذِهْناً، وهو يُفْهم من السّباق، أو مجزوم بجواب

الطلب المفهوم ضمناً من الفعلين الخبريّين: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿تجاهدون﴾ لأنهما بمعنى فلْتُؤمِنُوا ولْتُجَاهِدُوا يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكم.

إنَّ مغفرةَ الذُّنُوب الَّتي لا يسْلَمُ منها أَحدٌ من بني آدم، مَطْلَبٌ أساسيٌّ لكل مؤمن مسلم، حتّى ينجوَ من عقاب الله الأليم، في عاجل حياته وآجلها.

٢ ـ ﴿وَيُدخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَار﴾:

وهذا ثواب عظيم يكونُ يوم الدين.

﴿جنّات﴾: أي: أقسام في جنَّةِ الْخُلدِ العظمى، كلُّ قِسْمٍ منها يَصِحُّ أن يُسمَّىٰ وَحْدَهُ جَنَّةً.

ولمّا كانت الجنَّاتُ لا تستكمل أوصافها الْمُثْلَىٰ إلاَّ بالأنهار، تكرر في القرآن وصْفُ الجنَّة الَّتي وُعِد المتَّقُونَ بأَنَّها تجري من تحتها الأنهار.

٣ ـ ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾:

أي: ويُدْخلْكُمْ مَسَاكِنَ تَسْكُن فيها نفوسُكم بما هي عليه مِنْ جَوْدَةٍ وحُسْنٍ وطَهَارة، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيبات الطاهرات الزكيّات الْحِسَان، وهذه المساكن تكونُ في جنّات عَدْنٍ، أي: في جنات إقامةٍ دائمة.

وجاء اختيار التعبير بلفظ «مساكن» للإشارة إلى معاني السكون النفسيّ والقلبي فيها، نظراً إلى مَا فيها من أمنٍ كامل، مع تحقيق المطالب من النعيم المقيم مهما امتدت المطامع والآمال والأماني، ولما فيها من زوجات حِسانٍ يسْكُنُ إليهنَّ المنعَّمُونَ فيها.

﴿جنّاتِ عَدْنٍ﴾:

أي: جناتِ إقامةٍ دائمة، يقالُ لغةً: عَدَنَ يَعْدِنُ بالمكانِ عَدْناً وعُدُوناً، إذا أقامَ به إقامة مستقرَّة، ونظراً إلى كونها جنّاتٍ خالدات، وكونِ أصحابها المنعمين فيها خالدين، كانت جديرةً بأن توصف بأَنَّها جَنَّاتُ عَدْن.

بعد هذا أبان الله عزَّ وجلّ أنَّ الظَّفَرَ بهذا الرِّبْحِ العظيم الذي سبق تفصيلُ بعض عناصره هو الفوز العظيم، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

﴿الْفَوْزُ﴾: يأتي بمعنى النجاة من الشرِّ، وهذا قد تحقَّق بمغفرة الذنوب. ويأتي بمعنى الربح، وهذا المعنى قد تحقق بما يتفضَّل الله به عليهم في جنات عَدْنٍ، وهو يُناسب لفظ التجارة التي جاء النَّدْبُ إليها في مقدِّمة النصّ. ويأتي بمعنى الظَّفَر وهو الحصول على الشيء غنيمة بعد جهاد ومغالبة، وهذا المعنى قد تحقَّق بالحصول على النعيم العظيم في جنّاتِ عدْنٍ، بمغالبةٍ يَسِيرَةٍ للنفس والشيطان. وهو يُنَاسب الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله. فكانَ اختيارُ لفظة «الفوز» هنا من أحكم الاختيارات، لما فيها من الدَّلالة على كلِّ هذه المعاني المناسبة لما جاء في النصّ.

بعد هذا جاء في النصّ وعدٌ من الله للمؤمنين المجاهدين بتحقيقِ شيءٍ معجل في الدنيا يُحبُّونه، فقال تعالى:

﴿وأُخْرَىٰ تُحِبُّونَها: نصرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾:

أي: ولكم أيضاً نعمةٌ أخرى معجَّلةٌ تُحبُّونَهـا، لأنكُمْ تحبّونَ النِّعم العاجلة، هذه النعمة هي نصرٌ من الله لكُمْ على عدُوِّكم وفتْحٌ قَرِيبٌ يفتح الله لكم به ديارهم، وقد حصل هذا النصْرُ والفتح القريبُ للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بقيادة الرسول ﷺ.

وأخيراً أذن الله لرسوله بأن يُبَشِّرهم بهذا النصر والفتح القريبِ، فقال تعالى له:

﴿وَبَشِّر المؤمنين﴾.

* * *

النصّ السادس عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

في هذه الآية تمثيل بَديعٌ للتعامل مع الله بعمليَّة البَيع والشراء.

ونلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُبَيِّن فيها أنَّه فتَحَ عقْدَ مبايعـةٍ مع المؤمنين، أبْـرَمَ فيه من جانبه أنَّه اشترىٰ شراءً جازماً أَنْفُسَهم وأموالَهُمْ، مُقَابِلَ ثَمَنٍ يدفعه لهم جَـزْماً هـو الجنَّة.

وبقي أنْ يُبْرِم مَنْ يَشَاءُ من المؤمنين مِنْ جَانِبه عقْدَ المبايعة، بأنْ يَبْـذُلَ طائعـاً مختاراً بإرادةٍ حُرَّةٍ من مالِهِ أَوْ نَفْسِهِ، جهاداً في سبيل اللَّهِ عزَّ وجلّ.

أمّا بذلُ المالِ لإعداد وسائل الجهاد، ووسيلةً جهاديَّةً، فَأَمْرُهُ واضح، ويكون بتقـديم المال والخـروج عن ملكيَّته، لتحقيق إعـلاء كلمـة الله، ونشـر الإسـلام في الأرض، وقَمْـع الكفـرة المحـاربين لـلإســلام والمسلمين، وتـأليف القلوب على دين الله.

وأمّا بَذْل الأنفس فقد جاء بيـانُه في الآيـة بأنَّ المؤمنينَ يُقَـاتلون في سبيل الله أعداءَ الله، الأمر الذي ينتج عنه بحسب سُنَن الله الكونيَّة أنْ يَقْتُلوا من عَدُوِّهمْ، وأنْ يَقْتُلَ عَدُوُّهُمْ منهم.

والثَّمَنُ المقرَّرُ في هذه المبايعة هـو وعْدٌ من اللَّهِ جـازمٌ لا يُمْكِن أن يَتخلَّف، وهذا الوعدُ جاء بيـانُه في الكُتُب الـرَّبَّانيَّـة الثَّلاثَـةِ، التوراة والإنجيـل والقرآن، ففي

اليهوديَّة والنصـرانية دعـوةٌ إلى القتال في سبيـل الله لإعلاء كلمـة الله ونَشْرِ دينـه في الأرض، وإقامةِ الحقّ والعدل، كما هو موجودٌ في الإسلام.

ولمّا كانَ وعْدُ اللَّهِ محقَّقَ الوفاء قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾:

استفهامٌ جوابُه حتماً: لا أحـد أَوْفَىٰ بعهده من الله. وإذْ تَقـرَّرَتْ هٰذِهِ الحقيقـةُ في قُلُوبِ المؤمنين بعـد هذا البيـانِ وجَّهَ الله عـزَّ وجلّ للمؤمنين الَّـذِين يَعْقِـدُون من جانبهم صفقة هذه المبايعة، بأن يَبْذُلُوا فعلاً من أموالهم لدعم القتال في سبيل الله، وبأن يُجَنِّدُوا أنفسهم مقاتلين في سبيلِ الله، فقال لهم:

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾:

اسْتَبْشَرَ بالشيء: أي: فرح به وسُـرَّ، حتى ظهرت على بَشَـرَةِ وجْهِه أمـاراتُ ذلِكَ.

فالمعنى: فافرحوا أيُّها المؤمنون المبايِعُون، واستمتعـوا بالسُّـرور الذي ينـزل بكم، بسبب النعيم المقيم في الجنة، الذي تنالونه عوضاً عمّا تبـذلُونَـهُ ببيعكم الذي بايعتم به ربَّكُمْ، وإشارةً إلى ذلك العوض المفرح السّارّ، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيم﴾:

أي: وذلِكَ الْعِوَضُ الرفيع المنزلة، هو وحدُه الفوز العظيم، الـذي لا يُساوِيـه ولا يفوقه فوزٌ آخر.

﴿الفوز﴾: هو النجاة، والرِّبْحُ، والظفر، وكلُّ هـذه المعاني تتحقق في هـذه المبايعة مع الله.

* * *

النصّ السابع عشر وأشباهه

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) حثّاً على الإنفاق في سبيل الله لدعم قوّة الجهاد في سبيله:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) حثّاً على الإنفاق في سبيل الله لدعم قوّة الجهاد في سبيله أيضاً:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

وقوله تَعَالَىٰ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه النُّصوص شبَّه اللَّه عزَّ وجلّ من يَبْذُل من أمواله في سبيل الله وابتغاء مرضاته بمن يُقْرِضُ الله مقابل فائدة ربوية عظيمة، تبلغ أضعافاً مضاعفة كثيرة، لأنَّ الله يثيب على ما يَبْذُل عبادُه في سبيله وابتغاء مرضاته أضعافاً مضاعفة كثيرة.

فمن يتعامل مع الله بالبذل في سبيله وابتغاء مرضاته كمن يعقد عقد رباً مُتَحقِّقَ الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفة كثيرة بالنسبة إلى رأس المال المبذول.

ومثل هذا العقد مع الناس محرَّم في دين الله الذي اصطفاه لعباده، وما يُجْنَىٰ

بـه من فائـدة زائدة على رأس المـال سُحْت، لمـا فيـه من استغـلال لضـرورة ذوي الحاجات، ولما فيه من ظلم.

لكنه مع الله الرَّب الخالق عَمَلٌ مبرور، وعَقْدٌ مشكور، والله عزَّ وجلّ لا ينـالُهُ شيءٌ ممّـا يَبْـذُلُ عبـادُهُ في سبيله، إنمـا ينـالُـه التقـوى، والعمـلُ الصَّـالـح، والنيَّـة المبرورة، وهو يكافىء سبحانه عباده ثواباً، وهُمْ جميعاً مِلْكُهُ، وكلُّ ما يملكـونه هـو مِلْكُه سبحانه.

وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله الذي يشبـه عقد الـربا، اسْتِخْـدامُ أسلوبِ التربية بـالتحويـل لما يحبُّـه الناس من فـوائد ربـوية لا يبـذلون جهـداً في الحصول عليها، بل هم يدَّخرون أموالهم بعقد الربا ضامنين السلامة، لتربـو بنفسها دون كـدٍّ ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهـة الله عزَّ وجـلّ المالـك لكلِّ شيءٍ، الـذي لا تفنى خزائنه.

وفيه أيضاً استخدامُ أُسْلُوب التربية بالتصعيد عن الفوائـد الهابـطة الَّتي تُؤْخَـذُ من الناس، إلى الفوائد السَّامية التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً؟﴾:

استفهامٌ يتضمن معنى العرض والحثُّ على أمرٍ مندوبٍ إليه، غير واجب.

القرض: ما يُعْـطِيه صـاحبُ المال من مـالٍ لغيره على أن يَـرُدَّه إليه، بفـائدة أو بغير فائدة.

﴿قَرْضاً حسناً﴾: الْمُراد من كونه حسنـاً هُنَا أن يكـون في سبيل الله، وابتغـاءَ مـرضاتـه، وخاليـاً من رياءٍ وحبِّ شهـرة، وليس وسيلة لتحصيل منـافـع دنيـويَّـة من الناس.

﴿فيضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾:

المضاعَفةُ جعـلُ الشَّيْءِ أو عوضِـه بِقَدْرِ مِثْلَيْـه، وضِعْفُ الشَّيءِ مثْلُه، وجَمْعُه أضعاف.

وبهذا نلاحظ أنَّ هذه العبارة القرآنيَّة اشتملت على المضاعفة أوَّلاً، وبعد ذلك جَعَلَتْ هٰذِه المضاعفةَ أضعافاً بصيغة الجمع ثانياً، ثُمَّ ارتقت ثالثاً فوصفت الأضعاف بأنَّها كثيرة، كلُّ هذا قبل تقرير الثواب، فالعمل نفسه يضاعف في التسجيل، ثم يأتي الثواب بعد ذلك.

وهذا أسلوبٌ مؤثر في تحريك الطمع بتصاعد وارتقاء، أكثر من تأثير الوعد بالعطاء العظيم من أول الأمر، لا سيما في موضوع القرض الذي اعتاد المرابون أن تَتَحرَّك مطامعهم لتنمية فوائده كلَّما مرَّ الزمن.

﴿واللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾:

أيْ: إنَّ ما عند الناس من أموال هو من عطاء الله وفضله وتيسيره الأسباب، فهو الذي يقبض عن بعض عباده من أرزاقهم، وهو الذي يبسُط لهم الرزق، نظير قول الله عزَّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أي: وسَتَتْرُكون في الدُّنيا كلَّ ما تجمعون منها، فلا ينفعكم لآخرتكم إلاَّ ما بذلتموه في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

وجاء في آية (الحديد) (١١):

﴿ولَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

أي: ولِمَنْ يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حسناً أَجْرٌ كَرِيمٌ عِنْدَ الله فَوْقَ المضاعفَةِ، والكريم هو النفيس الرفيع في أوصافه، فأضاف هذا النصّ نَفَاسَةَ الأجر إلى مضاعفته أضعافاً كثيرة.

وجاء في الآية (١٨) منها:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ والْمُصَّدِّقَاتِ﴾:

أي: إِنَّ الْمُتَصَدِّقِين والمتصدِّقات، وهم باذلو الصدقة.

الصَّدَقة: هي ما يُبْذَلُ من عطاء على وجه القُـرْبَـةِ لله عزَّ وجـلّ في وجوه البـرِّ والإحسان.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ ولَهُمْ أَجْرٌ كريم﴾:

جمع الله في هذه العبارة بين المضاعفة والأجر الكريم.

وجاء في آية (التغابن) (١٧) بيانُ شرطٍ وجَزاءٍ، فالشرط:

﴿إنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.

والجزاء:

١ ـ **﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾**: كما جاء في النصوص السابقة.

٢ ـ **﴿ويَغْفِـرْ لَكُمْ﴾**: وهذا فضـل من الله مضـافٌ إلىٰ فضـل المضـاعفـة، والمؤمن شديد الحرص على المغفرة، لأنَّ كلَّ بني آدم خطّاء.

وختم الله الآية بقوله:

﴿واللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أمّا كونه سبحانه وتعـالى شكوراً، فهـو يناسب قضيَّـة مضاعفته القرض الحسن، وأمّا كونه حليماً، فهو يناسب قَوْلَهُ: **﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾**.

* * *

أمّا النصوص التي جاء فيها استعمال الخسران والخسارة ومشتقّاتِ هذه المادَّة فكثيـرة تَرْبُـو على الخمسين، وقد وردت في خسـارة الأنفس، وخسارة المسعَىٰ في الحياة الدنيا، ونحو ذلك.

والأصل فيها خسارة التاجر في تجارته.

• • •

خاتمة قسم أمثال القرآن

هذا ما فتح الله به عليَّ في موضوع الأمثال القرآنية، بعد أن سبرتها، وتأملت في أصولها، وأقسامها، وأغراضها، وخصائصها. وقد تأنيت في التدبُّر ولم أستعجل، ونظرتُ في كتب التفسير وفيما قاله المفسرون ولم أستقل بالرأي. أما علوم البلاغة، وما كتب الكاتبون حول إعجاز القرآن البياني، فقد كانت عندي حصيلة عِلْمٍ أَفَدْتُ منها كثيراً في بحثي هذا من دون أن أتقيد بمصطلحاتها، ولا بحدودها التي وقفت عندها. إلاَّ أنني لم أَنْظُرْ في كتابات مَنْ كَتَبَ قبلي في الأمثال القرآنية.

وأرجو أن أكون قد وفقت في بحثي هذا لخدمة كتاب الله المجيد، وأضفْتُ إلى المكتبة القرآنية الكبيرة بعض ما هو نافع وجديد.

وما أحسنت فيه فهو توفيق من الله، ونفحة من نفحات جوده، وما أخطأت فيه فهو من كبوات فكري، ومن قصوري أو تقصيري.

والحمد لله على ما أعطى، وأسأله أن يغفر زلّاتي، ويعفو عن خطيئاتي، وينفع بهذا العمل، ما دام في الناس مُنتفِع بعلم لدينه أو دنياه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

• • •

القِسمُ الثّاني

صُوَرٌ مِنْ أَدَبِ ٱلقُرْآنِ ٱلرَّفِيْعِ

مُقَــدِّمَةُ

أَجمعَ عُلماءُ الأدب من العربِ وغير العرب، وكذلك أساطينُ البلاغة الرفيعة، على أنَّ القرآن المجيد كتابٌ مصوغ بصياغة أدبيَّة بليغة معجزة.

ولا يخفَى على كلِّ ذي فكرٍ نظيفٍ حصيفٍ منصف، أنَّ المضامين والأهداف الفكريَّة مهما كان شأنُها قابِلةٌ لأَنْ تُقَدَّمَ بصُوَرٍ مِنَ الكلام، يَرْتقي بعضُها إِلَىٰ أَسْمَى الكلامِ الأدبيِّ البليغ المعجز، وتَتنازَلُ المراتبُ والدرجاتُ التي يَعْسُر حصرُها، حتَّىٰ تصلَ إِلىٰ أدنىٰ الكلامِ الرَّكيكِ الهابطِ.

لقد أَطْلَقَ الحداثيّون مقولاتهم التدميريَّة المستورَدَةَ من مصانعِ أعداء الإسلامِ اليهودِ وأشياعهم، والرامية إلى تجريدِ كلِّ النُّصوصِ الأدبيَّةِ من كلِّ المعاني التي يمكن أن يَقْصِدَها أصحابُها ويُشِيرُوا إليها بدلالات يمكن أَنْ يَتَّفِقَ على إدراكها من النصِّ اثنان فأكثر، وإلى جعل هذه النصوص خاضعةً لتفسيرات باطنيَّة لا حصر لها، تَتْبَعُ أهواءَ الْمُتصدِّين لهذه التفسيرات وأمزجتهم.

وكنا نعلم أنَّ الغرض الأبعد لدى المخطِّطين الدوْلِيِّينَ وأشياعهم التلاعبُ بتأويل النُّصوصِ الرَّبَّانية المنزَّلة، توسُّلاً إلى حربِ الدين، وإلغائه من الوجود، ونشر الإلحاد والكفر والرِّدَّة والْفَسَادِ في الأرض، ضِمْنَ المذهب الباطنيِّ اليهودي.

وقامَ المؤمنون الغيورون المتصدُّون للدفاع عن الدين، وعن كتابِ ربِّ العالمين، وعن سنة سيِّد المرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، يفْضَحُونَ أَهْدافَ هذه الحداثة المستوردة المدمِّرة، التي تلبس لباس الإبداع فقط في بيئةٍ، وتلبس ألبسة أخرى إلحادية أو شيوعية أو تحرُّرية أو غير ذلك في مواطن وبيئات تسمَح بذلك.

ورأى الحداثيُّون أنَّ مقولاتهم في البيئات المسلمة التقليدية، قد وجدَتْ لدىٰ الجماهير المؤمنة دروعاً وسدوداً، لا تسمَحُ بأنْ تجتاز إلى نفوسهم وقلوبهم مُغْرياتُها، مهما تستَّروا بشعارات الإبداع والتجديد، لأنَّ في هذه الجماهير طائفةً قويَّةَ الشكيمةِ مؤمنةً مسلمةً، تُقَاتلُ قتالَ الأبطالِ الشرفاء، دفاعاً عنْ دينها وكتابِ ربِّها وسنة نبيِّها ﷺ.

كما رأوا أنفسهم عاجزين عن تقديم نماذج أدبيَّة حداثيَّة تخضع لمذهبهم وطريقتهم صالحةٍ لأن تتقبَّلها الجماهير بأذواقها الأدبيَّة، وتُفَسِّرها تفسيراتٍ شتَّىٰ بعدَد قُرَّائها، باستثناءِ بعضِ نماذجَ فيها تجديدٌ في الشكل، مع التزامٍ في المضمون بفكرة ذاتِ هدَفٍ، فالْقُرَّاء أو المستمعون يتَّفقون على فهمها، على خلاف دعاوىٰ دُعَاة الحداثة، وتعريفاتهم الأساسيَّة لها.

ولمَّا اصطدم الحداثيون بعقبة رفضِ الجماهير المؤمنة المسلمة لمقالاتهم، لأنَّ هذه الجماهير أدركت أنَّ كتاب اللّٰهِ وسنَّة رسوله هُمَا في الحقيقة المستَهْدَفان بالتَّدْمير، من وراء لعبة الحداثة، حاولوا طَرْحَ مغالطة هي أكثر سُقُوطاً وسخفاً من مقولاتهم الحداثية.

فقالوا في مغالطاتهم، إنَّ القرآن كتابُ تشريع، محدودُ المعاني بما ورَدَ مِنْ تفسيرٍ مَأثور، فنصوصُهُ لَا تُعْتَبر من النصوص الأدبيَّة.

أليس عجيباً أن يطرحوا مثل هذه المغالطة، متوهِّمِينَ أنَّ أحداً من غيرهم يقبلُها، وينْخَدِعُ بها؟!!.

ألم يتحدَّ القرآن ببلاغته وأدبه الرفيع فُصحَاءَ الإِنْسِ والجِنِّ، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، أنْ يأتُوا بمثله، أو بمثل عشر سُوَرٍ منه، ولمَّا بدأتِ السُّوَرُ الطِّوال تنزل تحدَّاهُمْ بأن يأتُوا بسورَةٍ واحدةٍ مِثْله، فعجزوا جميعاً، وآثَرُوا الفرار من معركة التحدِّي؟!.

أَلَمْ يكُنِ القرآنُ المجيد النَّصّ الأدبيّ البليغ الرفيع الَّذِي وضع عُلَماءُ عِلْمِ البلاغة (بفنونه الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع) قواعد هذا العلم بهدي أنوار

أدب القرآن وبلاغته العظيمة، فكان الأَدَبُ القرآني هو الكاشف لهم عن عناصر الجمال الأدبي، وكانت نُجُومُه هي الهادية لهم في مسالك البحث والتنقيب، لاستخراج القواعد والأصول، واكْتِشَاف صور الجمال الأدبي، للاقتداء بها، والاهتداء بِهَدْيِها، والقياسِ عليها، ثمَّ الانطلاق إلى الابتكار والتجديد، في الأساليب والصُّوَر وطرائق أداء المعاني، كما كان جمالُ الكون الذي هو صَنْعَةُ الخالق عزَّ وجلَّ، هو المعلّم لصور الجمال، والباعثَ على إدراك دقائقه وعوامله، والقياس عليه، والدافعَ إلى الابتكارات الجمالية في الأشكال والصور المختلفة.

ألم تزخر كتب الأدب قديماً وحديثاً بروائع الأمثلة الأدبية في معظم فُنُونِ الأدب من القرآن المجيد، مصحوبةً بالتحليل والشرح الأدبي؟!!.

إنَّ هذه المغالطة الحداثية تَتَضَمَّنُ إعلاناً بضرورة شطبِ كلِّ مثالٍ من القرآن الكريم قدَّمه أدباء القرون قديماً وحديثاً، مستشهدين به على لون من ألوان الأدب، أو صورة من صوره، وإلغاءِ كلِّ كتابٍ كُتِبَ في إعجاز القرآنِ الأدبي البلاغي، وفي تحليل بعضِ مَا توصَّل إليه الباحثون فيه من أدبٍ سَامٍ رفيع.

ولكنْ لماذا نُلغي عقُول كلِّ هؤلاء العلماء من علماءِ الأدب والبلاغة عبرَ التاريخ؟!!

الجواب الحداثيُّ يقولُ في سِرِّه: ينبغي أن نُلْغِيَ كلَّ ذَلِكَ إكراماً لمشاعر ورغبات أئمة الحداثة من يهودٍ وملاحدة، وسائر السائرين إلى الوادي الجهنَّمي:

﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

وفي هذا القسم من الكتاب أقدِّم طائفةً من الأمثلة تشتمل على صُوَرٍ مِنْ أَدَبِ القرآن، مقترنةٍ بشيءٍ من التحليل الأدبيّ، على مقدار قُدْراتي الإدراكيَّة، لا على المقدار السامي لهذه الأمثلة البليغة ذات الأدب الرفيع، الذي تقف على سفوحه أفهامُ المحلِّلين والشارحين، لتلمَحَ مداركُهُم بعضَ ما اشتمل عليهِ من دلالاتٍ، وإشاراتٍ، ولوازمَ فكريَّة ذاتِ سلاسلَ مترامية الأطراف.

وفيما يلي الصُّوَرُ الأدبيَّة المختارةُ المشروحة، وبالله التوفيق:

• • •

الصُّورَةُ الأُولَىٰ

في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) يقـدِّم القرآن المجيد أدلَّةً عقلية، وأدلَّة من الظَّاهرات الكونيَّة المشهودَة، وهذه الأدلَّة ذاتُ دلالات بُرْهَانيَّة وإقناعيَّة على جملة من صفات الرَّبِّ الخالق عزَّ وجلَّ، ويُحَاصِرُ نُفوسَ المكذِّبين بالرغَبِ والرَّهب من مختَلفِ جوانبها، حتَّىٰ لا يُبْقِيَ لِذِي فكرٍ سَليم، ولُبٍّ حصيفٍ واعٍ مَهْرَباً من هذا الحصار الفكري والنفسيّ.

عنْدَ هذا الموقف نلاحِظُ أنَّ الْبَيانَ الأدبيّ الرفيع القرآنيّ يتوجَّهُ للتَّنْبِيه علىٰ أنَّ مَنْ لم يُؤثِّر فيه هذا الحصارُ الفكريّ المقنع لأرباب العقول وأولي الألباب، ولا هذا الحصار النفسيُّ المحرِّك لمحاور الرغَب والرَّهَبِ في النَّفْسِ الإنسانيَّة، فَهُو كالدَّوابّ التي تَمْشِي على أربع، أو كالأنعام، وعليه أنْ لَا يضَعَ نفسه في نَوْعِ البشر الذين فَضَّلهم الله، فخلقهم في أَحْسَنِ تقويم، وجعَلَ لهم قَامـاتٍ مُنْتصبات، ورؤوساً مرتفعةً، لأنَّ مكانَهُ إذْ هٰذِه حالتـه أَنْ يَمْشِيَ مع اللَّواتي تمشي على أربـع، خافِضَ الرأس مُكِبّاً على وجهه، ضِمْنَ قطعانِ الأنعام والدَّوَابِّ الَّتي تمشي على أربع.

لكِنَّ النَّصّ القرآنيَّ الأَدَبِيَّ الرَّفِيعَ لم يقُلْ عنْد هذا الموقف: فَمَنْ لَمْ يُؤثِّرْ فيه هذا الحصار الإقناعيُّ الفكريُّ والنفسيّ فهو من الحمير أو غيرها من الدَّواب، أو فهو من البقر أو غيرها من الأنعام.

بل طوىٰ هذا الحكم التشبيهيّ، وقدَّم ما يُشِير إليه إشارةً بارعةً يُدْرِكُها الذَّكيُّ باللَّمح، علىٰ طَريقة تَساؤُلٍ طرَحَهُ لانتزاعِ الاعتراف بنَفْيِ التَّساوي بين الإنسان

المفكِّر الَّذِي يَتَصَرَّفُ في حياتـه بمقتضىٰ فَهْمِه السَّليم لـلأمور، وبَيْنَ الـدَّوابِّ الَّتِي تمشي على أربع، والأنعام التي تَتَدَافَعُ في قُطْعَانِها على غرائزها وشهواتها.

وقد جاء في هـذا التساؤل استخـدامُ إحدى الـظَّوَاهِرِ التي هي من خصـائص الدَّوابِّ والأنعام، وهي ظـاهرةُ مَشْيِهـا علىٰ أربع وأعنـاقُها ورؤوسُهـا مُتطامِنَـةٌ، فهِيَ مُكِبَّةٌ على وُجُوهِهَا.

ولم يُذكَرْ في التساؤُلِ لفْظُ الدَّوابِّ أو النَّعَم، ولاَ مَـا يُقَابِلُهُ، مثـل لفظ الناس أو البشر، بل جاء فيه لَقْـطةٌ وصفيةٌ لجانب جزئيٍّ من الصُّورة الدالَّة على النوع غير الإنساني، ولقطةٌ وصْفِيَّةٌ أخرى لجانب جُزْئِيٍّ من الصُّورة المقابلة الدالَّة على النـوع الإنساني.

وذلكَ لأنَّ لقطةً تَصْوِيرِيَّةً مَا أيَّةَ لقطَةٍ هيَ منْ خـواصِّ نوعٍ من الأنـواع كافيـةٌ لأن تدُلَّ عليه في الأساليب الأدبيَّة الراقية البارعة المهذَّبة.

فقال الله عزَّ وجل في طرح التساؤل لانتزاع الاعتراف الدَّالِّ على المقصود:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿مُكِبًّا﴾: يُقال لُغـةً: أكبَّ الرجـلُ على وجهه يُكِبُّ إكْبـاباً إذا نَكَّسَ رأسَـه. ويقالُ: أكبَّ الرجل على وجهه إذا سَقَط على وجهه.

وقد ذكر المفسِّرون في تصوير حَال من يمشي مُكِبّاً على وجْهِهِ وجـوهاً، منهـا ما يلي:

(أ) أنَّه الذي يمشي ويتعثَّر في مَشْيِه فيخِرُّ على وجْهِه مُكِبّاً وهكذا دواليك.

(ب) أنَّه المتَعَسِّفُ الذي يمْشِي على غير هُدى فلا يعلم له طريقاً.

(ج) أنَّه الذي انْتَكَس فصار يمشي على وجهه، بَدلَ أن يَمْشِيَ على قدَمَيْه، وقامتُه منتصبةٌ سويَّة، يرىٰ طريقه.

(د) أنَّه الذي يمشي مُنكِّساً رأسَه كمَا يَمْشِي الحمار، لا كما يمشي الإنسان السوي.

ويبدو لي من التقابل المتباين بين من يمشي مكبّاً على وجهه ومن يمشي سويّاً على صراط مستقيم أنَّه لا بُدَّ من التخالف في الأمور التالية:

١ ــ الثَّاني يمشي على صراطٍ مستقيم، بخلاف الأول، فهو تائه ضالٌّ لا يعرف لنفسه طَريقاً مستقيمةً واضحة.

٢ ــ الثاني يمشي سَوِيّاً عالماً طريقَهُ مُشَاهداً له، بخلاف الأول، فهو يمشي غيرَ سَوِيّ، وهو مُكبٌّ على وَجْهِه لا يَرىٰ طريقه.

٣ ــ الثاني يُتابع سَيْره دون أن يتعرَّض إلى عَثَرات، لأنه يمشي سويّاً مشاهداً طريقه، وعلى صراطٍ مستقيم غَيْرَ مُتَعرِّج من ذاتِ اليمين أو ذات الشمال، وليس في سَطْحِه ارتفاعاتٌ وانخفاضات وحُفَرٌ وعَقَباتٌ ومَسَاقِط. بخلاف الأول، فهو يتابع سيره في متاهاته فيتعرض إلى عثرات كثيرات يَنْكَبُّ فيها على وجهه، لأنه يمشي غيرَ سَوِيّ، ولا يُشَاهدُ طَريقه، ومتَاهَاتُه لا اسْتِقَامة فيها، بل هي متعرِّجة وفِيهَا ارْتِفَاعات وانخفاضات وحُفَرٌ وعَقَبَاتٌ ومَسَاقط ومَزَالق.

فأيّ المتقابلين أهدى؟

سؤال لا يحتاج جواباً لبداهته، وكذلك فعل القرآن.

ولقد ضرب الله في هذا مثلاً للكافر الذي يسير في حياته على غير هدى، فهو كالمكبّ على وجهه، ومثلاً للمؤمن المتقي الذي يسير في حياته على صراط الله المستقيم، فهو كالذي يمشي سويّاً على طريق مستقيمة.

* * *

تحليل المثل:

١ ــ اشتمل النص على مثَلَيْنِ لفريقين مُتَقَابِلَيْن كِلاَهُما يمشي في الحياة إلاَّ

أنهما علىٰ وَصْفَيْن مُتَباينين، أمَّا أحدهما فيمشي مشياً سوِيّاً على هدى وهو المؤمن التقي، وأمَّا الآخر فيَمْشِي على غير هدى مشياً غير سويّ، وهو الكافر العاصي.

فهو من قبيل تَمْثِيل أَمْرٍ معنويّ بأمر يُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر:

٢ ــ إذا حلَّلْنا المثل أمكننا أن نجعله من قبيل التمثيل المركَّب، وإذا تتبعنا العناصر أمكننا أن نعتبره من قبيل العناصر المتلاقية التي تُقَابِلُ أمثالَها في الممثَّل له.

فإيمان المؤمن يشبه حالة السويّ، الذي لم يُفْسِدْ فطرتَه بانكِبَاب ولا انتكاس. وعملُه الصالح في الحياة، يُشْبِهُ حالة السَّوِيّ الماشي على صراط مستقيم.

وسعادتُه وهدايتُه إلَىٰ نجاتِه وفَلاحه، تُشْبِهَان حالةَ الماشي على الصراط المستقيم، وعاقبةَ مسعاه.

وكُفْرُ الكافر، يُشْبِهُ حالةَ الْمُكِبِّ علَىٰ وَجْهِه الذي لاَ يَرَىٰ طريقه، فهو كالأعمى، إنَّه بعملٍ منه قد يَحْجُبُ عَنْ نفسِه أبعادَ مسالكه، لأنه مكبٌّ على وجهه بإرادةٍ منه.

وعَمَلُ الكافرِ في الحياة، يُشْبِهُ حالةَ المكِبِّ على وجْهِه الذي يمشي في مَتَاهاته علىٰ غير هدى.

وتعاسَتُه وضَلالَتُه، تُشْبهان حالة الذي يمشي في متاهاته ضالّاً، فيَتَعثَّر كُلَّمَا مشى، ويتعرَّض لِلْعَثَرات والْعَقَبات والمزالِق والْحُفَر، فهو كادِحٌ مَكْدُود، كلَّما انتهى مِنْ وَرْطَةٍ وقعَ في وَرْطَةٍ أخرى، ويظلُّ يتنقَّل من متاهةٍ إلى متاهة، ومن ضلالة إلى أخرى.

٣ ــ الصُّورةُ التمثيليَّةُ في المثلَيْنِ مُنْتَزَعَةٌ من الواقع، مع بعض فقرات قد تكونُ منتزعةً من الخيال، إذْ قَدْ لا نَجد سائراً في متاهة مكبّاً على وجهه، إذا فسَّرنا المكِبَّ على وجهه بالمنتكس الذي يمشي على وجهه بدل أن يمشي على رجليه.

٤ ــ يَبْدُو أنَّ الغرضَ من المثَلِ تقريبُ صُورة الممثَّل لـه، وتجسيدُهـا، مع غرض التنفيرِ من الْكُفْر وضَلالَتِـه، والترغيبِ بـالإيمان وهـدايته، ومـع الإقناع بِلَفْتِ النظر إلى الحقيقة عن طريق المثلِ.

٥ ــ في المثَلِ دقَّةُ التَّصْوِير مَعَ إبْرَازِ الْعَناصِر المهمَّة مِنَ الصُّورَة التمثيليـة. وفيـه التصويـر المتحرِّك. وفيـه صِدْقُ الممـاثلة بينه وبين الممثَّـل له. وفيـه حَـذْفُ ما يمكن استكماله من دُون عنَاء، لأنَّ اللَّوازِم تَسْتَدْعِيه.

٦ ــ يلاحظ في هذا الْمَثَلِ التَّنْوِيـعُ، فقد جـاءَتِ المفاجـأةُ فيهِ على طـريقة الاستفهام الذي لَيْسَ له عند العقـلاء إلَّا جواب واحـد، ولم يَأْتِ في النص مـا يدلُّ على أنَّه مَثَلٌ، بل نُزِّل الممثَّلُ به منزِلةَ الممثَّلِ له تماماً، فكأنه هو.

* * *

الشـرح الأدبـي:

١ ــ إنَّ عبارة: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً علىٰ وَجْهِهِ﴾ تَدُلُّ بلَقْطَتِها التصويريَّة علىٰ الـدَّوابِّ، أو على النَّعَم، لأنَّهـا هي الَّتي تَمْشِي مُكِبَّـةً على وجـوههـا، أي: تمشي ووجوهها مُكِبَّةٌ غيرُ مُـرتفعة وصـورةُ الوجـهِ الْمُكِبِّ في اتِّجاهِ الأرض لمـاشٍ عليها تستـدعي في الذهن تلقـائيّاً أنَّ وراءهـا جِسْمَ حِمَارٍ أَوْبَغْـلٍ أو ثَوْرٍ أو غيـرِ ذلـك من الدَّوابِّ والنَّعم الَّتي لا تَفْهَمُ ولا تَعِي دلالاتِ النصوص الكلامية الفكريَّة، ولا تَقْتَنِـعُ بالبياناتِ الخاصَّةِ بنوعِ الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

واستخدام كلمة «مَنْ» الخاصةِ بالعقلاءِ، يُشْعِرُ بأنَّ المقصـود بالـوصف إنسان مَسَخَ نَفْسَه بتولِّيه عَنْ آياتِ اللَّهِ وبياناته، وعدمِ استجابته لوسائل محاصَرَته الفكريَّـة والنفسيَّة، فجعَلَها بمثابة واحدٍ من قطعان الدَّوابِّ أو النَّعم.

٢ ــ وعبـارةُ: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّـاً﴾ تدلُّ بلقـطتهـا التصـويـريَّـة على إنسـان خلقه الله في أحسن تقويم، وتَدُلُّ ضمناً على خصائصه الفكرية والنفسية.

٣ ــ وعبارةُ: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ تـدُلُّ علَىٰ المقصودِ مِنْ طـرح التساؤل الهادفِ إلى نَفْيِ التساوي بين النوعين.

فنفي التساوي ليس المقصود منه مجرَّدَ التَّبايُنِ في الصُّورَةِ الْخَلْقِيَّـةِ بيْنَ مُكِبٍّ على وجْهه وماشٍ ناصب القامة سوِيّ. ولكن بين ماشٍ علىٰ صراطٍ مستقيم يُوصِلُهُ إلى الغاية السعيـدة المنشودة بمُـوَجِّهٍ مِنْ عَقْلِهِ وإنْسَـانِيَّتِهِ، ومَـاشٍ على غير صـراطٍ مستقيم، فهو يَتَخَبَّطُ في المتاهات، ويَضِلُّ في السُّبُل، ولا يَصِلُ إلى غايتِهِ السعيـدة المنشودة.

واكتفى النصّ بذكر المشي على صراطٍ مستقيم بجانب ناصبِ القامـة السويّ عن ذكْرِ مقابله، إذِ الصُّورَةُ في المقابـل تَدُلُّ على ضِـدِّها في المقـابل الآخـر، لأَنَّ الطَّرْحَ قَدْ بدأ بتساؤلٍ يعرضُ في مضمونه نفيَ التساوي بين مُتَبايِنَيْن.

وقد فهمنا بالذكاء ضِمْن أسلوب التقابل بين الصور المتضـادَّة أنَّ الكلامَ على تقدير:

أفَمن يَمْشِي مُكبّاً على وجهه كـالدوابِّ أو النَّعمِ يَتَخَبَّطُ في السُّبُـلِ على غير هُدى، أهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَـوِيّاً نـاصبَ القامـة مرفـوع الرأسِ على صـراط مستقيم يوصله إلى سعادته على أحسن وجه وأقومه.

واكتفى النصُّ أيضاً بدَلاَلَةِ عبارة: ﴿مُكِبّاً علىَ وَجْهِهِ﴾ في النـوعِ الأول، عن ذكر عبارة: «ناصِبَ القامة مرفوع الرأس» في النوع الثاني، لأنَّ التقابل بين النـوعين هو تقابلُ تضادٍّ في الصفات.

واكْتَفَى النَّصُّ أيضاً بدلالة عبارة: ﴿سَوِيّاً﴾ في النوع الثاني، عن ذكْرِ ضدِّهـا في النوع الأوَّل.

فإذا أردنا إبراز المطويّات التي دلَّ عليها النصّ بإشاراتـه، وبلوازمه الفكـرية، وبمقتضىٰ التقابل بين النوعين في صفاتهما المتضادَّة، وما لا بُدَّ أنْ نفهمـه بمقتضىٰ التقابُل والتكامل، وجدنا أنفسنا أمام البيان التحليليِّ التالي:

أفَمَنْ مَسَخَ نَفْسَه واحداً من الدَّواب أو الأنعام، فصار كالذي يمشي على أربع مُكِبّاً على وجهه، يتَخبَّط في السُّبُل، والمتاهات على غير هُدَى، ضالاًّ عن الصراط المستقيم، بسبب تولِّيه عن آيات الله وبياناته، ورَفْضِهِ لوسائل إقناعه الفكريّ والنفسيّ التي قدَّمها له القرآن المجيد، أكثر هدايةً مُوصلةً إلى ما يَتَمَنَّىٰ من وجوده في الحياة، أَمَّنْ أبْقَىٰ لِذَاتِهِ إنْسَانيَّته العاقلة الراشدة، فهو يَمْشِي ناصِبَ القامةِ مرفوعَ الرأسِ على صراطٍ مستقيم، يُوصِلُه إلى غاية ما يَتمنَّى من وجوده في الحياة.

إنَّ الجواب الحتميَّ لهذا التساؤل الذي يجيب به أولوا الألباب: إنَّ النوعَ الثانيَ هو الأْهدىٰ لا محالة، أمَّا النوعُ الأوَّل فليس له من الهداية شيء، بل هو ضالٌّ تائهٌ غبيٌّ كالأْنعام أو هو أضلُّ سبيلاً.

وجاءتْ عبارةُ: ﴿أهدىٰ﴾: التي قد تَدُلُّ علىٰ المشاركة في أصل الهداية انسجاماً مع حال المشبَّهِ به، إذِ الدَّوابُّ والأنْعَامُ لَهَا هداية ما بغرائزها.

أمَّا الإْنسانُ الذي مَسَخَ نَفْسَه برفْضِه آيات الله البينات، فهو أضَلُّ سبيلاً من الأنعام، لأنَّه يتَّبع هَوَاه، وتَسْتَحْوِذُ عليه الشياطين، فليس له هدايةٌ مطلقاً، وقد تُرِكَ فَهْمُ هذا لِذَكَاءِ المتدبِّر لمرامي النصّ.

بعد هذا أقول: أفليس من النصوص الأدبيَّة الرفيعة المعجزة قولُ الله عزَّ وجلَّ بعد تقديم وسائل الإقناع الفكري والنفسي المحاصرة:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾؟!﴾.

الذي دلَّ على هذه المعاني الثَّرَّةِ التي استطعنا على قدرنا أن نستنبطها منه؟!!

إذا لم يكن هذا النصّ القرآني وأمثالُه نصّاً أدبيّاً فأيُّ كلام بعدَ هذا يُمْكِنُ أن نضع على رأسه تاج الأدب.

إنَّ أئمة الحداثيين لا يعترفون بأدب ما لم يكن على رأسه قلنسوة حاخامٍ سوداء، أو قبعة غربي زرقاء، أو شارةُ شيوعي حمراء.

• • •

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ

في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) جاءَ بيانُ أنَّ الله عزَّ وجلّ قد جعل للمكذبين بالدّين، وبرسالاتِ رسُل ربِّ العالمين، مكاناً سحيقاً لتعذيبهم في جهنَّم، هو وادي «ويل».

وبفنّيّة رائعةٍ، جاءَ تذييلُ كُلِّ مَفْصِلٍ من مفاصلِ هٰذه السُّورة بجملة:

﴿ويلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبين﴾.

واقتضىٰ البيانُ الْبَلاغيُّ الأدبيُّ الرَّفيعُ أن يَصِفَ اللّهُ عزَّ وجلّ للمكَذِّبينَ بالدّينِ مَوْقِعَهُمْ في قاعِ هذا الوادي السحيق، بَعْدَ حِسَابِهِم، وقَرارِ معاقبتهم، يوم الحسابِ والجزاءِ والدينونة.

ففاجأهم بالانتقال بِهِمْ من الخطاب وهم في واقع حياة الامتحان والابتلاء، إلى خطابهم وكأنَّهم في موقفهم يوم الدين بعْدَ الحساب وقرارِ الجزاء. وهو مشهدٌ مقتَطَعٌ بفنّيّةٍ بَارعةٍ عجيبة، ممّا سيكونُ حتماً في يومِ الجزاء، فيُخاطبهم الله عزَّ وجلّ بقوله:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿جِمَالَةٌ﴾: اسم جمع طائفةٍ من الجمال، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفصٍ وخلف.

وقرأ جمهور القرّاء «جِمَالَاتٌ» بالجمع، وهو في المعنى جمع جمع.

وقرأ «رويس» عن يعقوب «جُمَالَاتٌ» جمع «جُمالَة» وهو الحبْلُ العظيم الذي تُشَدُّ بِهِ السفينة، ويسمَّىٰ «الْقَلْس».

فلننظر في تَحْليلِ هٰذا النَّصّ، لاكتشاف الأسلوبِ الأدبيِّ الرَّفيع الذي جاء فيه، ولاستجلاء التَّصْوير الرائع الذي لامَسَ بعضَ الظَّواهر من الصورة، وتركَ للفكرِ اللَّمّاح استكمالَ سائرها، بإبداعٍ عجيبٍ رائع.

يقول النصّ لهم في مضمونه وكأنَّهُمْ في نهاية موقف الحساب وفصلِ القضاء:

انطلقوا إلىٰ نُزُلِكُمْ في دارِ العذابِ في قاعٍ وادي «ويل».

لكِنَّ النصّ لم يستعملْ هذا الأسلوبَ التِّلْقائيَّ الساذج، وإنَّما قال لهم مُذَكِّراً بعبارات الوعيدِ يوْمَ كانوا في حياة الابتلاء:

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

فالنَّارُ، ووادي «ويل» فيها، ومعاقبتهم بالعذابِ يومَ الدين، هو ما كانوا به يُكَذِّبُون.

وجاء في التعبير فعل (انْطَلِقُوا) دون اذهبوا أو انصرفوا أو نَحْوِ ذلك، ليدُلَّ هذا الفعل على أنَّ المكذبين يكلَّفُونَ يوم الدين، بعْدَ الحسابِ وفَصْلِ القضاء، أنْ يُسْرِعوا في الذهاب إلى دار العذاب، وإلى نُزُلهم فيها، إذِ الانطلاقُ في اللغة هو سُرْعَةُ الذهاب.

وفي هذا التكليفِ حزْمٌ لَا تساهُلَ مَعَهُ ولَا تهاون، فَقَدْ أُبْرِم الأمر، وتمَّ بشأنِهم الْحُكْمْ، فَلْيُسْرِعوا إلى منازلهم، ومُسْتَقَرَّاتِهِمْ في دارِ العذاب، جهنَّمَ وَبِئْسَ الْقَرار.

وتَصْويراً بارعاً لموقعهم في قاعِ وادي «ويل» موطِنِ تعذيبِهم، رسَمَتِ الكلمةُ الفنيَّةُ الأدبيَّةُ الموقعَ، ببَثِّ لَقَطاتٍ تَصْويريَّة يستطيعُ الذَّكاءُ اللَّمَّاحُ من خلالها تَحْدِيدَ مَعَالِمِه، بِمَلْءِ الفراغاتِ المتروكَةِ بَيْنَ هٰذِهِ اللَّقَطاتِ، وهٰذا مِنْ أرْوعِ التَّصْويرِ الْفَنِّيِّ الأَدبيِّ.

فجاء التعبير التالي منْ فقَراتِ هذا التصوير الفنيِّ الرائع:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾.

ففي هٰذا التَّعبيرِ تَحْدِيدٌ وَصْفِيٌّ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُؤْمَرُونَ بالإِسْرَاعِ إليه.

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾:

أي: انطلقوا إلى مكانِ ظلٍّ، وهـذا التعبيرْ يَـدُلُّ علَىٰ أَنَّهُ مكـانٌ مظلمٌ ظُلْمـةً وسطَىٰ، إذْ لا يَصِلُ إليه شُعاعٌ إشراقي، كَشُعَاعِ الشَّمْسِ في الضَّحِّ الَّذِي هُـو ضِدُّ الظِّلِّ. فدَلَّ علَىٰ أنَّه لَا يَصِلُ إليه ضوءُ لَهَبِ النَّار، بسبب حاجبٍ يحجُبُ عَنْـهُ ضوءَ اللَّهب.

لكِنَّ الَّذِي يحجُبُ الضوءَ عَنْهُ لَا يَحْجُبُ الحرارة، بدليل:

﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾.

فما هو هذا الحاجب؟

إنَّ الذِّهْنَ ليستَدْعيهِ دُونَ كُلْفة، إذْ يُدْرِكُ أَنَّه حاجب دُخَانِ لَهَبِ النَّارِ الموقدة، فهو يُعْطي ظِلًّا، لا ظلمةً دامِسَـةً فأَهْـلُ هٰذَا المـوقعِ يُشـاهدُ بعضُهم بعضـاً، ويرونَ مَسَالكَهُمْ فيه، لكِنَّ الظلَّ لَا يَحْجُبُ عنهمْ حرارةَ اللَّهب.

أَلَا يدلُّ علىٰ ذلكَ قوْلُ الله عزَّ وجلّ في وصفه:

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾.

فهو غير ظَلِيلٍ: أي: غير دائم، وغيـر ساتـر للحرارة، ومن طبيعـة الظِّلِّ أنَّـه لا يحجُبُ الرؤية.

وقد جاء في كتُبِ اللُّغَة: مكانٌ ظليـل، أي: ذو ظلٍّ، وقيـل: الدائم الـظِّلّ. وصيغـة «ظليل» على وزن «فعيـل» هي من صيغ المبـالغة، ونفيُ كـونه ظليـلاً يدلُّ على نفي ما تقع عليه المبالغة، وهي تقع على الـدوام، وتقَعُ على مـا هو المقصـودُ من الظِّلِّ، وهو سَتْرُ الحرارةِ وحَجْبُها.

ويدلُّ على عدم الدوام لهذا الظلِّ أنَّ المقيمين فيه يَرَوْنَ شرَرَ نارِ جَهَنَّم، إذْ جَاء بعد ذلك وصفُ النارِ حَوْلَ موقع وادِي «ويل» بقوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فهذا الشَّرر العظيم الذي يَراهُ أَهْلُ وادي «ويل» يُعْطي ضياءً يَشُقُّ الظِّلَّ فيجعلُهُ ظِلًّا غير دائم.

ويدُلُّ أيضاً عن طريق اللزوم الذهني، على أنَّ لفحات لهَبِ النّار تأتيهِمْ بالوَهَج اللّاهب السَّمُوم حيناً بعد حين، في أوقات أكْثَرُها ظِلّ.

وجاء تأكيد أنَّ هَذا الظِّلَّ هو بسبب الحاجب من دُخانِ نارِ جهنَّمَ في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿اليحمُوم﴾: هو الدُّخان. والأسْوَدُ منْ كُلِّ شيءٍ، فهو دخان أسود.

بهذا تمَّت اللَّقْطَةُ السريعةُ الأولى من تصوير موقع المكذبين، في قاعِ وَادي «ويل».

وهنا ينْتَقِل بنَا الذِّهْنُ إلى موقع المنعمين في الجنَّة، فقد جاء في القرآن أنَّهم يكونون في ظلٍّ ظَليلٍ دائم ممدود.

فقال تعالى في سورة (المرسلات/٧٧):

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

وقال في سورة (النساء/٤):

﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

وقال في سورة (الرعد/١٣) في وصف الجنة:

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴿٣٥﴾﴾.

وقال في سورة (يس/٣٦):

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال في سورة (الإنسان/٧٦):

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

وقال في سورة (الواقعة/٥٦):

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

بعد هذه اللَّفْتَة السَّريعة نعودُ إلى النصِّ الذي ندرسه دراسةً أدبيَّةً بلاغيَّةً من سُورَةِ (المرسلات).

أمّا اللَّقطة الثانية من الصورة التي وصف الله بها مَوقع المكذبين في قاع وَادِي «ويل» فهي وصْفُ مكانِ الظِّلِّ الَّذِي يُكلَّفُونَ الانطلاقَ إلَيْه بأنَّه ذو ثلاثِ شُعَب.

وباستطاعة الذِّهن اللمَّاح، مستدعياً الأشباهَ والنظائر في الْمُشَاهدات الحسيَّة، أن يُدْرِكَ أنَّ مَكانَ هٰذا الظِّلِّ غيرِ الظَّلِيلِ في جهنَّم، يقع في أسفل وادٍ مِنْ وِدْيانِها، وفي سماءِ هذا الموقعِ يَمُوجُ الدُّخان الأسْوَدُ الذي يُلْقِي ظِلَّهُ عليه.

لكنْ كيف يكون هٰذا الموقع ذَا ثُلاثِ شُعَب؟

إنَّنا نستطيعُ بأنَاةٍ وتأمُّلٍ أنْ نُدرِكَ أنَّ الوديانَ لا بُدَّ أن تَقَعَ بَيْنَ جبال، وأنَّ المداخل أو المخارج من هذه الوديان هي شُعَب، أو شعاب، في المضايقِ التي تتقاربُ فيها الجبال.

﴿شُعَب﴾: جَمْعُ شُعبة، وهي صَدْعٌ في الجبل بمثابة طريق، أو مَضِيق بين جبلين.

فـإذا كانَ مَكَـانُ المكَذِّبين في قَعْـرِ وادِي «ويل» الْمُجَلَّلِ بـالظِّلِّ الْمَـوْصُوفِ ذا ثلاثِ شُعَب، فلا بُـدَّ أن يكون مكـاناً واسعـاً وسَطَ وادٍ تُحيطُ بِه ثـلاثَةُ جبـالٍ مِنْ جهاتٍ ثلاث.

ومن الـطبعـي أيضاً أَنْ يكـونَ لهذا الـوادي مَخَـارجُ في أطـرافـه، هي شُعبٌ ثلاث.

إذَنْ: لقَدْ تَمَّ بهذا رَسْمُ صُورَةِ الموقـعِ في أسْفلِ هـذا الوادي، الـذي يُطْلَقُ عليه اسم «ويل».

روى الإمام أحمد في مسنـده، والترمـذي، وابن حبّان في صحيحـهِ والحاكم في مستـدركه، عن أبـي سعيـد أنَّ النبـي ﷺ قال: «وَيْـلٌ وادٍ في جهنَّم يَهْـوِي فيـه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلُغَ قَعْرَه».

لم يـرق سنده إلى درجـة الحديث الصحيـح إلاَّ أنَّـه يَلْتَقي مـع دلالـة البيـان القرآني في هذا النَّص.

ومعلومٌ أنَّـه لا يكونُ واديـاً إلاَّ أن يكون بين جبـال، وتحديـدُ الشُّعَبِ الثَّلاثِ لهذا الوادي يَدُلُّ عن طريقِ اللُّزومِ الذهْنِي علَىٰ أنَّه بين ثلاثةِ جبالٍ غَيْرِ متـلاصقة، وهذه الشُّعبُ الثلاثُ هي المخارجُ الضيِّقة لهذا الوادي.

فالذين يكونون من أهل العذاب في هذا الوادي لا مَخْرَجَ لهم إلاَّ بأن يصعدوا على جبل من هذه الجبال، وهذا الصعود يتحمَّلون به عـذاباً أشَـدَّ، لأنَّه إرهـاقٌ من جهة، واقترابٌ من مصـادر اللَّهَب وشِدَّةِ الحـرِّ منْ جِهة أخـرى. أو بأن يـدخلوا في إحدى هذه الشعب الثلاث، وهي مضايق أشـدُّ حرّاً، وأشـدُّ عذابـاً، فاللَّهبُ مُحِيطٌ بالوادي، وبجباله، وبشُعَبِه.

وأمّا اللَّقطَة الثالثة من تصوير الموقع، فقـد جاء فيهـا وصف ما تَـرْمِي به النَّـارُ من حَوْلِه إلى سَمَاءِ وادي «ويل» من شَرَر، واحدته شرَرَة، فقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

بهذا التعبير يُضِيفُ النَّصُّ لقطةً تَصْويريَّةً للموقع الذي يُؤْمَر المكذِّبون بأن يَنْطَلِقوا إليه.

إنَّ الموقع الذي يُصَوِّره النصّ هو جزءٌ من جهنَّم الَّتي توقد فيها النار الحامية، فكان من الأَدب الرفيع التحدُّثُ عن النّار بالضمير «إنَّها» والخبرُ قرينةٌ تعيِّنُ المراد، إذْ لا يَرمي بالشَّرَرِ غيرُ النار، فهي تَرْمي إلى جوِّ وادي «ويل» بالشَّرَر الموصوف.

ومن طبيعة الشَّرَر أنَّه جَمْرِيٌّ مُتوهِّجٌ ولَهُ ضوءٌ ما، فيكفي ذكر الشَّرَرِ عَنْ وَصفه بالتوهُّج وبثِّ الضوءِ القاطع أحياناً لدوام الظلِّ في وادي «ويل».

﴿الشَّرَر﴾: اسم جنسٍ جمعي، واحدتُه شَرَرَة.

وقد وصف التعبير الشَّرَر بالقصر، وهو البناء العظيم العالي الواسعُ المحصَّنُ.

إنَّ هذا الوصف القرآني يوحي بأنَّ النارَ تَرْمِي من أعْلَىٰ الجبال المحيطةِ بوادي «ويل» بشرَرٍ قد اجتمع بَعْضُه إلى بعض اجتماعاً في أشْكالٍ هندسية تُشْبِه الْقَصْرَ العظيم، في مرتَفِعَاته ومُنْخَفِضَاتِه، وشُرُفاته، ونَوافِذِه، وأَسْوارِه، وحدائقه وأَشْجَارِه، إلى غير ذلك.

هل رأيتم الأَسْهُمَ النَّارِيَّة العظيمة التي تَنْطَلِقُ صاروخيَّةً، ثم تنفجر في الجوِّ، فَتُصَوِّرُ أشكالاً مختلفة؟

إنَّ القرآن قد قدَّم لنَا صورةً تعبيريَّةً فيها أكثر تشكيلاً هَنْدَسِيّاً رائعاً، من هٰذِه المستحدثات المعاصرة لنا اليوم.

فقد جاء وَصْفُ الشَّرر بعد تشبيهه مجتمعاً في الجوِّ بالقصر، بقوله تعالى في قراءة الجمهور: «كأنَّهُ جِمالاتٌ صُفْر».

وفي قراءة أخرى متواترة: «كأنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْر».

وفي قراءة ثالثة متواترة أيضاً: «كأنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ».

إنَّ هذا الوصفَ اللاّحقَ من دون حَرْفِ عطفٍ يوحي بإشارته السَّريعة الخفيفة إلى أنَّ الشَّرَر المجتمع الذي يكون أوَّلاً كالقصر، يتشكَّلُ تشكُّلاً آخر، فتكونُ كُلُّ شررةٍ منه عَلَىٰ شكلِ جَمَلٍ أَصْفَر، فيكونُ المشهد الكُلِّي «كأنه جِمَالَةٌ صُفْر»، أي: طائفةٌ من الجمال الصفر المجتمعة، وهذا ما دلت عليه قراءة ﴿جِمَالَةٌ﴾.

وبَعْدَ ذَلِكَ تتوزَّع في الجهات، فيكون المشهدُ الكُلِّيُّ «كأنَّه جِمَالاَتٌ صُفْر»، أي: قُطْعَانٌ من الجمال، كلُّ قطيعٍ منها يَهْوِي إلى جهة من الجهاتِ، على محيط الدائرة، وهذا ما دلَّت عليه قراءة جمهور القرّاء العشرة.

وبعد ذلك يكونُ تَشْكِيلُ الْمَشْهَدِ يُشْبِهُ حِبالاً عَظِيمةً مُتَدَلِّيَةً في اتِّجاه بَطْنِ الوادي، ومن كُلِّ جهاتِهِ. وهذا ما دَلَّت عليه قراءةُ رُويس «كأنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْر»، وقد عرفنا أنَّ جُمَالات جمع جُمَالة، وهو الحبلُ العظيم الذي تُشَدُّ به السفينة. فتكاملتِ القراءات في رسم المشهدِ العجيب، مع غاية الإيجاز.

ولا يخفى ما في مشهد الْجِمَالِ النَّاريَّة الهاجمة بشكلٍ مخيف من أعلى إلى أسفل حيثُ موقع المكذِّبين، وبعدَهُ الحبال الناريَّة العظيمة الممتدَّة، من إثارة للرَّهَب في النفوس، مع ما فيه من دقَّةٍ حركيَّةٍ في التَّصْوِيرِ الفنِّيِّ الأدبي.

وتتبُّعاً للدِّقَّةِ الرَّائعة البديعة في التصوير جاءتْ عبارة التشبيه اللاّحِقِ، للحركة التالية بعد الشَّرَرِ المجتمع كالقصر، بصيغةِ «كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ»، «كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ»، «كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ»، في حركاتٍ ثَلاثٍ متواترات من دون فاصل بعطف، مع المحافظة على الوصفِ بالصفرة، للدَّلالة على أنَّ الشَّرَر قد وصل إلى مرحلة الحبال العظيمة ولم ينطفىء.

والتشبيه يصوِّر المرحلةَ الْجَمَلِيَّةَ كُلَّ شَرَرَةٍ بجملٍ أصفر، فهي أَوَّلاً قطيعٌ واحدٌ ضَخْمٌ مِنَ الجمال الصُّفر، وهي ثانياً قطعانٌ من الجمال المتدافعة الساقطة في الْجَوِّ بانتظام في كلِّ الجهات.

وأخيراً تَتَدَلَّىٰ على شَكْلِ جِبالٍ عظيمةٍ في اتِّجاه أسفل الوادي، حيث موقعُ المكذبين.

إنَّه لمشهدٌ مرعبٌ حقاً، وقد جاء التَّتابع في التشبيه من دون عطف دليلاً على التتابع السريع في حركة الواقع، حتَّىٰ كأنَّ الأحداث المتلاحقة تأتي في وقتٍ واحد.

هذا هو الصدقُ الفنيُّ حقّاً، إذْ يَكُونُ الأَداءُ التعبيريُّ مطابقاً لحالة الشعور النَّفْسِيِّ، إنْ لم يكن بِالنسبةِ إلى المتكلِّم، فبالنِّسبَةِ إلى الْمُشَاهد، أو المخاطب.

ونلاحظ أنَّه لم يُوصَف القصر بالصُّفْرَة اكتفاءً بأمرين:

الأوَّل: أنَّه جاء وصفاً للشَّرر، والشَرَر جَمْرٌ أَصْفَرُ.

وحجارةُ القصور لدَىٰ المخاطبين من العرب أَكْثَرُهَا ذاتُ لونٍ أصفر.

الثاني: أنَّ مَرَاحِلَ (الجِمَالَة) فـ(الْجِمَالاَت) فـ(فـالْجُمَالاَت) قد وُصِفَتْ بالصُّفرة.

هذا تحليل أدبيٌّ على مقدارنا لهذا النصّ من سورة (المرسلات).

أفلا ترون معي أنَّه من روائع النُّصُوصِ الأدبِيَّةِ الرَّفيعة التي لا ترقَىٰ إلى أدناها عمالقة الأدب؟!

إذا لم يكُنْ هذا النصّ من القرآن المجيد نصّاً أدبيّاً، فأيُّ كلامٍ بَعْدَ هٰذَا يمكن أن نضع على رأسه تاج الأدب.

إنَّ أئمة الحداثيين لا يعترفون بأدب ما لم يكن على رأسه قلنسوة حاخام، سوداء، أو قبعة غربيّ زَرْقاء، أو شارةُ شيوعي حمراء.

• • •

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

قول الله عزَّ وجلّ لرسوله ولكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: على المكذِّبين بالقرآن والرسالة من مشركي مكَّة الذين عَرفوا الحقَّ، واستكبروا عن اتِّباعه، أو حسدوا الرسول أن يصطفيه الله بالرِّسالة ويُنَزِّل عليه القرآن، أو أرادوا الفجور في الأرض فأبعدوا عن قلوبهم حقائق أركان الإيمان، أُتْلُ عليهم:

﴿نبأ الَّذِي آتيناهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فكانَ مِنَ الْغَاوِين﴾.

الذي يظهر لي أنَّ قِصَّة هذا الشخص أو هذا الصنف قد ذكرها الله في القرآن، بدليل قوله عزَّ وجلّ في صَدْرِ النصّ: ﴿واتْلُ﴾، فالتلاوة بحسب الظاهر أمارةٌ على أنَّ الأمر مذكور في آيات القرآن الَّتي تُتْلَى، وحين نتفكَّرُ فيما جاءَ في القرآن من قِصَصِ الأولين الذين آتاهُمُ الله آياتِهِ، فأحاطتْ بهم بيَانَاتُها ودَلَالَاتُها، ولَبِسُوها كَجُلُودِهِمْ، وتَعَهَّدوا بِالتزام مَا جَاءَ فيها، فانْسَلَخُوا مِنْهَا خروجاً عن

مقتضياتها، هم من عُلَماء اليهودِ وعُلَماءِ النصارىٰ، الذين خرجوا من أحكام آيات الله بالتحريف والتبديل، وخرجوا عن تطبيقاتها اتِّباعاً للْهَوىٰ، وإيثاراً للحياة الدنيا ولذّاتها، وتحقيق شهواتهم منها، ومن هذه الآيات البشائرُ بالرَّسول الخاتم، والعهودُ المذكورةُ عندهم في التوراة والإنجيل، الَّتي أُخِذَتْ عليهم أن يَتَّبعوا الرسول النبيّ الأميّ، متىٰ بعثَهُ الله، فَلَمَّا جاءَهُمْ مَا عرفوا كفروا به، فانْسَلَخُوا من آياتِ الله بكفرهم، ورفضهم دلائل البشائر، ونَقْضِهم العهود والمواثيق.

هذا ما رأيته لدى تدبُّر النصّ مع سوابقه ولواحقه في السورة، منضمّاً إلى مفاهيمها في وحدة موضوعها، ومع ما أُنْزِلَ من سُوَر قبل سورة (الأعراف) في التنزيل المكّي، ومع المرحلة الزمنية التي أنزل فيها، وما أنزل بعدها بشأن علماء أهل الكتاب.

ولست أرى ما طرحه المفسِّرون من احتمالات لم يُنْقَلْ فيها عن الرسول ﷺ شيء صحيح السند، فقد جاء في احتمالاتهم التي طرحوها، أنَّ الْمُنْسَلِخَ: «بَلْعَمُ بْنُ باعوراء» أو «النُّعمان الخزرجيّ النصراني أبو عامر بن صَيْفِي الراهب» فحادثته مدنيَّة والنصُّ تنزيل مكّي، أو أميّة بن أبي الصلت الثقفي، إذْ لم يَثْبُتْ أنّه قد أنزلت بشأنه آيات تتلىٰ.

لكن جاء فيما سبق هذا النصّ من نصوص ما فعله اليهود والنصارى، كما أسلَفْت، ونزل في القرآن بعده عدّة نصوص تتلىٰ وهي تتعلّق بعلماء أهل الكتاب الّذِين لم يعملوا بما لديهم من آيات الله المتعلقة بالرسول محمد ﷺ، وانسلخوا من دلالات كثير من آيات الله المنزلة في كتبهم.

وقد جاء التعبير بالإفراد لا بالجمع في قوله عزَّ وجلّ: ﴿الذي آتَيْناهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾، إبرازاً لِلْمَسْؤُولِيَّةِ الفرديَّة لدى هؤلاء الْمُنْسَلِخين، وإعلاماً بأنَّ قضيَّة هؤلاء ليست قضيَّةً جماعيَّة تؤثِّر فيها ضواغطُ الجماعة، بل هي قضيَّةٌ إيمانيةٌ سلوكيَّة فرديَّة، وتتمثَّل في القادة الذين علِمُوا مضمون آيات الله، وأحاطت بهم دلالاتها من كُلِّ جانب، إحاطةَ جِلْدِ الحيوان بكلِّ جسده، لا في الأتباع المقلّدين الذين

لا يَفْقَهُـون دلالات آيـات الله، وإنَّمـا يتَّبعـون قـادَتَهُم من العلمـاء بـدينهم، ولفظ (الـذي) كلفظ (الذي) في قـوله تعـالى بشأن صنف من المنـافقين: ﴿مثلُهُمْ كمثـل الذي استوقـد ناراً فلمّـا أضاءت مـا حولـه ذهب الله بنورهم وتـركهم في ظلمات لا يبصرون﴾.

ويدلّ على أنّهم عَدَد من الأفراد لا فردٌ واحـد قولـه تعالى في النص: ﴿ذَلِـكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِين كذَّبُوا بآياتِنا﴾.

أي: مثـل الكلب الذي إنْ تَحْمـل عليه يلهثْ أو تتـركه يَلْهثْ هـو مثل القـوم الذين كذّبوا بآياتنا. وقـوله تعـالى أيضاً في النص: ﴿سَـاءَ مَثَلاً الْقَـوْمُ الَّذِينَ كـذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾.

ودلَّ الانسـلاخُ على أنَّ هذه الجلود قـد لازمتهم حقبةً من الـزمن، أي: أنَّهم حـافَظُوا عَلَىٰ إحَـاطةِ آيـاتِ الله بهم كمُحَافـظة الحيوان على جلده، وإشعـاراً بهـذه الإحاطة السابقة جاء التعبير بالانسلاخ اللّاحق، مع دَمْغِ كلِّ فرد من هذا الصنف من النـاس بأنّـه كالحيَّـةِ التي تنسلخ من جِلْدِهَـا، لاَنَتْ مـلامِسُ أبـدانهـا، وفيهـا السمُّ الزُّعاف، والأنيابُ النواهش القواتل.

واكتفى النصّ بذكر: ﴿فانسلخَ منها﴾ وتركَ لـذكـاء التالي والسـامع استكمـال ما أشار إليه الانسلاخ الذي يعرفه في الثعابين، إذْ يرى جلودَهَا التي انسلخت منها، فيعلم أنَّ كلّ فردٍ من هؤلاء ينطوي بانسـلاخه من آيـات الله على اللُّؤْم والخسَّة التي تنطوي عليها الحيَّة التي تنسلخ من جلدها.

وأبرز النصّ أنّ هذا المنسلخ لمّا انسلخ من آيات الله لم تبق لديه وقاية تحميه من الشيطان، إذْ فقد بانسلاخه جهاز المناعة.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾: أي: فأسْـرَعَ إليه الشيـطان حتى لحقه، فـأخذ يـوسوس له، وما زال يستدرجه، ويُدَلِّيه بغرور حتّىٰ أغواه.

﴿فكـانَ من الْغَاوِين﴾: أي: بـإرادته الاختيـاريّة، أي: فَـرَدَّه الله بسبب هذه الغواية إلَى أسفل سافلين، في حضيض أهـل الكفر والـطغيان، والـظُّلم والعدوان،

بعد أنْ مكَّنه من صناعة مصيره باختيـاره الحرّ، الـذي لا جبر فيـه ولا إلزام، بـل هو تخييرٌ وتمكينٌ للمسخَّراتِ من تحقيق المختارات بالإرادة الحرَّة.

وهُنَا لا بدّ من استدراكٍ لبيان أنّـه قد كـان من الممكن جعله مجبوراً غيـر ذي اختيـار، ولكنّـه في هٰـذهِ الحـالـة سيـرفعـه الله بـآيـاتـه، ولا يجعله ينـزل إلى هـذا الحضيض، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا رفْعَهُ بهذه الآيـاتِ لجعلناهُ مجبوراً غير مختار، فرفعناهُ بها. لكنّا جعلناه حرّاً مختاراً لنمتحنَهُ في ظروف هذه الحياة الدنيا، فاستعمل حرِّيّة إرادته، بإيثار الحياة الدنيا، واتّباعِ أهوائه.

إنّـه لم يَعْمَلْ بمـا يُحقِّق له السّعـادةَ الحقيقيَّة في الـدنيا والآخـرة، مع علمـه بذلك، فآياتُ الله بدلالاتها قَدْ كانت محيطةً به، كإحاطة جلده به، وكـان مستمسكاً بهـا، قبل امتحـانه بتـطبيق مضمونهـا، فلما جـاء دور التـطبيق، ودُعِيَ إلى الإيمـان بالرَّسُول، لم يؤمن به، ولم يرتَفِـعْ بآيـات الله التي كانت محيـطة به، ﴿ولكِنَّـهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ الأَرْضِ﴾، أي: اطمـأنَّ إلىٰ الأرض، ولَزِمَهـا، وآثر شهـواتِها ولـذّاتهـا وأنـواعَ مَتَاعِهَا العاجلِ، غَيْرَ مُتعالٍ إلى سَمَاوات الكمالات﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فضلَّ وغوىٰ.

وهُنَا يطوي النصُّ تساؤلاً يُقَدِّمُـهُ المتفكّر في قصـة هذا المنسلخ، يقـول هذا التساؤل المطويّ:

هـل حقَّق هذا المنسلخ من آيـات الله بإيثـارِهِ الحيـاةَ الـدّنيـا، وإخـلادِه إلى الأرض، واتِّباعه هواه، ما يصبُو إليه، وما يُريدُ من مطالبَ من دُنياه؟

ويأتي الجواب فيدلُّ بإشارته الأدبيَّة الرفيعـة، على أنَّه لم يُحقّق ذلـك لنفسه، بلْ ظَلَّ يُتَابِعُ أهواءه، ويُلاحقُها دواماً في كدّ لاهث، يتناول معه رذاذ لذّات عـابرات وهو في محيطٍ من الكَدْحِ والْمُلاحَقة، كملاحَقةِ أَمْوَاج البحر لسفح الجبل، بغية أن ترقىٰ إلى أعلاه، فتتكَسَّرُ على صخراته، ويظلُّ يُعَاوِدُ مُحَاولاته من دون أن يُحقِّقَ ما يصبو إليه.

وأحرِ بهذا الكادِحِ الكادّ اللاهث الذي يبتغي الوصول إلى ما يشتهي من متاع الحياة الدنيـا وزينتها متّبعـاً هواه، أن يكـون مَثَلُ كَـدِّه ولَهَثِهِ فيـه، وأن تكون صـورةُ

حياته النفسية وصورةُ حيَاتِه المعاشيَّة ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

واكتفىٰ النصّ القرآنيُّ بهذا المثل عن كلّ الجواب الَّذي فَصَّلْتُه آنفاً، مَثَلٌ مِنْ كَلِماتٍ مَعْدُودَات، دلَّ بإشعاعاته على جوابٍ طويلٍ يُشْرح بمقالة مستفيضة.

وهذا المثل على إيجازه البديع، هو صورةٌ تمثيلية رائعة لحالةِ اللَّهَثِ النَّفْسِيّ والظمأ لمطالب الحياة الدنيا، لدىٰ الذي كذَّب بآياتِ الله، بعْدَ أنْ آتاهُ الله إيَّاها، وعَلِمَ دَلَالَاتِها، وانْسَلَخ منها، فأَتْبَعَهُ الشيطانُ مُسْرِعاً إليه حتى أدركه وقبض على ناصيته.

وكَانَتْ علَّته النفسيَّةُ أنَّه أخلَدَ إلىٰ الأرضِ طلباً للطمأنينة فيها، والاستمتاع بلذّاتها، وأنَّه اتَّبَع هواه، فمثلُ حالَتِه كمثل حالة الكلب الذي يلهثباستمرار، سواء حملتَ عليه أو لم تحمل.

ما أبدع هذه الصورة الدالَّة على الدوام في الحركة الظاهرة في المثل، والمشيرةَ إلى الحرمانِ من تحقيقِ المطالبِ المدركَةِ في الممثّل له.

إنَّ هؤلاء اللاهثين لا يظفرون من دنياهم للذّاتهم الحقيقيَّةِ بطائل، ولو جمعوا وملكوا كُلَّ كنُوزِها، ويظَلُّ الظَّمأ النفسيُّ لدَيْهِم على حاله، ويستمرُّون في لَهَثٍ نفسيّ متواصل.

أفليس هذا النّصُّ مع إيجازه الكامل هو من روائع الأدب الرفيع ونفائسه، الذي تتدحرجُ دون سفوحه هامات أساطين البلاغة والأدب من الإنس والجنّ.

إذا لم يكن هذا النصّ من القرآن المجيد نصّاً أدبيّاً، فأيُّ كلامٍ بَعْدَ هذا يمكن أن نضع على رأسه تاج الأدب.

• • •

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

سـورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نـزول) أوّل سورة نـزلت في المدينـة، بعـد هجـرة الرسـول ﷺ إليها، وظهـور النفاق والمنـافقين بين صفوف المسلمين، وفيهـا ضـرب اللّه عزَّ وجـلّ للمنافقين مَثَلَيْنِ يـدلاَّنِ على أنَّهُم صِنْفـان، لا صنفٌ واحـد، صنفٌ مـرَدَ على النفاق، وصنفٌ مـا زال مُذَبْـذَباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لكنّـه إلى الثبات في موقـع الكفر أقـرب، فقال الله عـزَّ وجلّ فيهـا بعد عـرض طائفـة من صفاتهم الكليّةِ الجامعة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

في هـذا النصّ مَثَلانِ ضَـرَبَهُمَـا اللّهُ لمجمـوعِ المنـافقين، ولَـدَىٰ تَحْليلِهِمَـا بنـظراتٍ ثاقبـات، يتَبيَّن لنا أَنهمـا يدُلاَّنِ عَلىٰ أَنَّ الْمُنَـافِقِينَ صِنْفَانِ، وأنَّ كُـلَّ مَثَـلٍ مِنْهُما يُلْقي الضَّوْءَ الكاشف على صِنْفٍ من صِنْفَي المنافقين.

فالمثَلُ الأوَّل منهما تضمَّن تشبيهاً لحالة الصنف الأشـدّ من صنفي المنافقين، وهـو الصنف الذي مَـرَدَ على النفاق، بعـد رؤيَته أضـواءَ هِدَايَـةِ القـرآن، وسمـاعِهِ إنذاراتِ عذاب الله للكافرين، ولمَّا مَرَدَ على النفاق ملتزماً الثبات في مـوقع الكفـر، طَمَسَ اللّه بصيرته، بقانُونِه الْقَدَرِي.

والمثَلُ الثاني منهما تضمَّن تشبيهاً لحالة الصنف الثاني المذبذب الذي ما زال متردّداً محتاراً بَيْنَ الإيمان والكفر، وهو إلى الثبات في موقف الكفر أقْرَبُ، فهذا لم يطمس الله بصيرتَهُ إمهالاً له، وَلِيَمْنَحَهُ آخِرَ نُقْطَةٍ في كأسِ بصيرته، ولو شاء اللَّهُ لطَمَسَ بصيرته، حُكْماً عليه بالجانب الغالِبِ الأرجَحِ من واقعه، لكنّهُ سبحانه لم يشأ ذلك رحْمةً به.

١ ــ فالصنف الأوَّل مَثَله (أيْ: وَصْفُه) كَمَثَلِ (أي: كَوَصْف) الذي استوقَدَ نَاراً في مفازةٍ مظلمةٍ مُوحشةٍ ضِمْنَ لَيْلٍ دامِسٍ، فَلَمَّا أضاءَت هذه النار ما حولَهُ من أرْضِ المفازة، ورأى صراطه، وعرف سبيلَ هدايته، ووجَدَ أنَّه على غيرِ ما يهوَىٰ ويشتَهِي، اتَّخذ وسيلةً أبعد بها عنه شُعاعَ الضَّوْء، رافضاً الاهتداءَ بالنور، مُتَأَبِّياً أنْ يَسْلُكَ الصّراط المستقيم، إصراراً على الباطل، ومعاندةً للحقّ، فوقع عليه قانُونُ ذهابِ النور الذي تسبَّبَ هو في إذْهابه، فأمْسَىٰ كالأصَمّ الأبكم الأعمى، غيرَ مُسْتَعِدٍّ لأنْ يَرْجِعَ إلى مَوْطن النور.

وفي بيان حال هذا الصنف قال الله عزَّ وجلّ:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

من هذا الإيجاز الخاطف في المثل، يَسْتَطِيعُ الأديبُ اللَّمّاحُ أن يفهم قصّةً طويلةً لِلْمُمَثّلِ بِهِ، مُطَابِقَةً لِحَالِ المنافِقِ الْمُمَثَّلِ له، وهُو المنافق الذي اختار بإصرار مَوْقع الكفرِ في الباطن، ومَرَدَ على النفاقِ في الظاهر.

مَنِ الذي يَسْتَوْقِدُ النار ثُمَّ يُطْفِئُها ويَبْقَىٰ في الظُّلُماتِ لا يُبْصِر، فيكونُ كالأصم الأبكم الأعمى، الذي يتخبَّط في ظلماته؟

لا بُدَّ أن يَفْهَم الذكِيُّ اللَّمّاحُ أنه إنْسَانٌ في مفازة مُوحِشَةٍ مُظْلِمَة، يَتَخَبَّطُ في ظلماتِهِ عَلَىٰ غير هُدَىً.

ثُمَّ أدْرَكَ أنّ بإمْكَانـه أنْ يَجْمعَ حَـطَباً، ويقـدَحَ زِناداً، ويستَـوْقِدَ بِـذَلِكَ نـاراً، تُضيءُ لَهُ مَا حَوْلَه من الأرْض فَتُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ، وتَهْدِيهِ إلى صراط نجاته.

ففعل ذلكَ، واستوقَدَ النارَ الَّتِي أَرَادَ، وأضاءت لَهُ النارُ مـا حولـه من الأرْض، على محيط دائـرة مِحْوَرِ مَكَـانِه، لكِنَّـهُ رأَىٰ أنّ صِراطَ نَجَاتِهِ علىٰ خـلاف مَا يَهْـوىٰ ويَشْتَهِي، فَفِيـه تكليفٌ إيجابيٌّ بعمـلٍ لا يُحِبُّ أن يعمله، وفيه تَكْلِيفٌ سَلْبِيٌّ بتـرك عَمَلٍ لاَ يُحِبُّ أنْ يتْرُكَهُ، فاتَّخَذَ وسيلةً للتخلُّص من النار إذْ رفَضَ ضَوْءَها، فـأجْرىٰ اللَّهُ قَوَانِينَهُ الجبريَّةَ القدريَّةَ، فَذَهَبَ بنُورِه، وهكذا كُلُّ مَنْ اتَّخَذ بإرادتِـهِ وسيلةً ذات أثَرٍ لأَمْرٍ مَا، أَجْرَىٰ اللَّهُ لَهُ قَوَانِينَهُ الجَبريَّـةَ القدريَّـةَ فحقَّقَ لَهُ مـا أَرادَ منْ أَمْرٍ، سـواءٌ أكان فيه نفع لَهُ أوْ ضـرٌّ.

فصَارَ هَذا المتخبِّط في مفـازتِهِ يَتَحَسَّسُ بـاللَّمْسِ مَواقـع السُّبُل، ويَتَنَقَّـلُ مِنْ مَوْقعٍ إلَىٰ موقع كُلَّما وجَدَ في بعضٍ ما تقع عليـه لاَمِسَاتُـه ما يُمْتِعُـهُ ويَلَذُّ له، ومـع كلِّ تَنَقُّلٍ تخبُّطٌ وأشواكٌ وحُفَرٌ وعوارضُ مؤلمات.

وهكذا ظلَّ في مَتَاهَاتِهِ حتَّىٰ انْحدَرَ إلَىٰ تَهْلُكَتِهِ وَعَذَابِهِ الأليم.

لكِنَّ كَلِمَاتِ المثل في القرآن اقتصَرَتْ مِنَ الممثَّلِ بِهِ على عبارةِ:

﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

ووقف النَّصُّ هُنَا في إيجازٍ بديعٍ، وتَرَكَ لذكاءِ المتدبِّر الحصيفِ أَنْ يَمْلأَ بَقَايَا هٰذِهِ اللَّقْطَةِ مِنَ الممثَّلِ به.

إنَّ مُسْتَوقَدَ النار إنَّما استوقدها للإضاءة، بدليل: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

والصُّورةُ تُوحي بأنَّه في ليل دامس، وفي صحراءَ موحشة، وهـذا ما دعـاه إلى أن يتكلَّف بحثاً عنِ الوسائل، ويَـطْلُبَها ليَسْتَـوْقِدَ النـارَ الَّتِي يُرِيـدُ، بدليـل استعمالِ فعـل [استوقـد] دون فعل «أوقـد» وبدليـل حال الممثَّـلِ له الـذي جاء في وصفـه: ﴿وترَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾.

لكِنَّ هٰذَا الذي استوقَدَ النَّارَ اتَّخذَ وَسَائِلَ ليتخَلَّصَ منْ ضوئِهَا الـذي كشَفَ لَهُ مَا حَوْلَهُ فَدَلَّهُ علىٰ خلافِ مَا يَهْوَىٰ، إمَّا بعَصْبِ عينيه، وإمَّا بإطْفَاءِ النار، وإمَّا بالفرار من موقعها إلى موقع آخر.

إنَّ تحـديدَ وسيلة التخلّص من ضـوء النـار لا تتعلَّقُ بـه أَهميَّـةٌ حتَّىٰ تُـذْكَـر، والتعميمُ أولَىٰ ليشمَلَ كلَّ الصُّور.

وقـوانينُ الله عزَّ وجـلّ في الخلْقِ تقضي بـأَنَّ منِ اتَّخَـذَ وسيلَةً من الـوسـائـل المحقِّقةِ في نظام التكـوين الرَّبّـاني لأمر من الأمـور، فإنَّ اللَّهَ عـزَّ وجلّ يُحَقِّق هـذا الأمر، فمن رمىٰ نفسه من شاهقٍ على صخرٍ حطَّمهُ اللَّهُ وكسَّر عظامه وقَتَلَه، كذلـك من اتَّخَذَ وسيلة لإطفَاءِ النَّارِ أو الابتعاد عنها ذهبَ اللَّه بنوره.

كلُّ هذا يُدْرِكُه الفكر الذكيُّ المتدبّر اللَّماحُ من دون أن يُذْكَرَ في العبارة.

أفليس هذا من روائع الأدب الرفيع؟؟

وينتقلُ النَّصُّ من الممثَّلِ به إلىٰ الْمُمَثَّلِ لـه، فيأتي بنـاءُ الحكْم على المثَلِ كأَنَّهُ عَيْنُ الْمُمَثَّلِ له، على طريقة القرآن في أمثالـه، والْمُمَثَّلُ لَـهُ هو الصنف الأوّل من صنفي المنافقين كما سبق بيانه.

وقد دلَّ هذا الحكم علىٰ هُوِيَّةِ هٰذا الصنف، فَهُوَ صِنْفٌ رفضَ الحقّ، وأصـرَّ علىٰ الكفـر، ومرَدَ على النفـاق، فقال الله عـزَّ وجلّ غـطاءً لقولـه: ﴿فَلَمَّـا أَضَـاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾:

﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

إنَّ عبارةَ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ هيَ مِنَ الْمُمَثَّلِ بِه، أَمَّا ما جاءَ غِطَاءً لَهَـا

فهو حُكْمٌ يتعلَّقُ بالممثَّلِ له، وهُمُ المنافقون المبطنون للكُفْرِ المتظاهرونَ بالإسلام، وقد مَرَدُوا على النفاق، فهم غير مستعدِّين للرُّجُوع إلى روضة الإيمان، بَعْدَ اختيارهم طريقَ الكفرِ باطناً والنفاقِ ظاهراً.

إنَّهُمْ لمَّا اختاروا لأنْفُسهم هذا الاختيار الآثم بإراداتهم، أجرى الله فيهم قانونه، فذهبَ بنور بصيرتهم الذي يُوَجِّه مسامعهم لاستماع آيات الله، وبيانات الرسول ومواعظ الهداية، ويوجِّهُ ألسنتهم الصادقة للاعترافِ بالحقِّ الديني، والدعوة إليه عن إيمانٍ وصدق، ويوجِّه أبصارهم لمشاهدة آيات الله في كونه دواماً، والانتفاع منها بتمكين الإيمان وتعميقه.

لذلك فهم بالنسبة إلى قطاع الهداية الرَّبَّانيَّة التي تُقَدِّم لهم دلائل السعادة الأخرويّة الخالدة: [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ].

كيفَ لَا يكُونُونَ كذلِكَ وقَدْ ذَهَبَ اللَّهُ بنور بصيرتهم، إذِ اتَّخذوا باختيارهم الحرِّ الوسائل إلى ذلك، بإصرارهم علىٰ الكفر بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواء آيات الله وبيانات الرسول ﷺ، وابتغائهم تحصيلَ الأمْنِ والمنافِعِ من جهة جماعة المؤمنين، بإعلان الإسلام نفاقاً.

ثمَّ إنَّ من اختار بإرادته الجازمة الواعية مثل هذا الاختيار لايمكن أنْ يَرْجع إلى مواقع النورِ والهدايةِ وصِدْقِ الإسلام، فقال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

هل في أقوال النَّاس أدبٌ رفيعٌ يرقَىٰ إلى عُشْرِ مِعْشارِ هذا الأدبِ الرفيعِ الجامعِ بَيْنَ كَمالِ المعنى، ودقَّةِ الألْفاظ، والاعتماد الفنِّي على لوازم الأفكار وسلاسلها، وإشاراتها ورموزها الإيحائيَّة، التي يتَّفق على استخراجها وإدراكها الأذكياء اللَّماحون الْمُحَلِّلُون للنّصوص الأدبيّةِ الرَّفيعةِ.

* * *

٢ ــ أمَّا جماعة الصِّنْف الثاني منْ صِنْفَي المنافقين فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ جَمَاعَةٍ في مفازةٍ مظلمةٍ بليلٍ دامسٍ، جَاءَهُمْ سحابٌ مُمْطِرٌ، فأمْطَرَ عليهِمْ مطراً غزيراً،

فأصابتْهُمُ الحيرَةُ يبتغُونَ النجاة، ورافَقَ ذلك رعدٌ وبرقٌ، فكانُوا ضِمْنَ هـذا الحدثِ على مفـازتهم، في مَطرٍ غـزيـرٍ مخيفٍ، وفي ظُلُمـاتٍ مُـوحِشـات، وفي رَعْـدٍ يُثِيـرُ الرُّعْبَ، وفي بَرْقٍ يتلامَعُ بالضَّوْء.

فَهُمْ كُلَّمَـا تواتَـرَ عَلَيْهِمُ الرَّعْـدُ الشَّديـدُ المخيفُ القاذف بـالصواعِقِ، يجعَلُونَ أصابعهم في آذانِهم خَوْفاً من الصَّواعقِ أن تأتِيَهُمْ بالمـوت، وكُلَّمَا أضَـاءَ لهمُ البرقُ مَشَوْا في ضَوْئِه على قَدرِ ما يكشفُ لَهُمْ وَمِيضُهُ. فخُطُواتُهُم على طريقِ الْهُدىٰ قليلةٌ بقدرِ الْوَمَضَـات. وكلَّما انتهت وَمَضَـاتُه السَّـريعاتُ الخـاطفاتُ تـوقَّفُوا في مَـوَاقِعِهِمْ حَيَارىٰ، لا يدرونَ كيفَ يتصرَّفون.

إنَّ أهْلَ هذا الصِّنْفِ من المنافقين لم يَصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ مـرحلةِ العنادِ والإصـرار علىٰ الكُفْرِ، ورفضِ قبول الحقّ الذي جاء به كتابُ الله، وبيَّنه رسولـه الكريم، بـل ما زالت لَدَيْهِمْ بَقِيَّة خيرٍ تَنْزِع في داخلهم إلى الاستجابة، لكنَّها بَقِيَّةٌ ضعيفة.

إنَّهُمْ لم يفقـدوا القدرة على رؤيـة طريقِ الهـداية، كمـا فَقَدَهـا أفراد الصنف الأوَّل، لكنَّهـا بقيتْ لديهم في مستـوى نَزَعـاتٍ تُشْبِهُ خَـوَاطِفَ البـرق، وهي قَـوِيَّـةٌ باهرة، إلاَّ أنَّها قصيرةُ الزمن، بيْنما هُمْ بحاجة لالتـزام طريق الهـداية إلى نُـورٍ دَائم الإشراق، أو طويل الإشراق، حتَّىٰ يملكوا دوامَ الهداية.

ولـم يَفْقِدُوا أيضاً الْقُدْرَةَ على سماع إنذارات العقاب الأليم جزاءً وِفاقاً، لكنَّها بقيت لديهم في مستوى نزعات قليلات تشبه الوحداتِ الزَّمنيَّةَ القليلةَ الَّتي يأتي فيها مع المطر الغزير رعْدٌ يَقْذِفُ بـالصواعق، وهُمْ بحـاجة لاجتنـاب سلوك سُبلِ الكُفْرِ والضَّـلال إلى خوف دائم أو طـويل البقـاء من عقـاب الله الأليم، حتى يملكـوا دوام اجتناب سُبُل الكفر والضلال.

فهم حيارىٰ بَيْنَ بَيْنَ، ما زال يَتَجَـاذَبُهُمْ النقيضان، الكفـر والإيمان، وهم إلى الثبات في موقع الكفر أقـرب، ويصدُقُ في شـأنهم على وجه العمـوم أنَّهم متردّدُون مُذَبْذَبُون.

إنَّهم يَسْمَعُونَ أَحْياناً آياتِ الوعيد التي تهزّ قلوبَهم هزّاً عنيفاً، فيخافون، وتنزع قلوبُهم إلى اختيار الإيمان والثبات فيه.

وتتلامَعُ أحياناً لعقولهم وألبابهم أضواء الحقّ الشديدة القويَّةُ، التي تُشْبِه أضواءَ البرْقِ الذي يخطفُ الأبصار لقوَّته وشدَّته، فتنزع قلوبهم لاختيار الإيمان والثَّباتِ فيه، واجتناب سُبُلِ الكفرِ والعصيانِ.

لكنَّهُمْ سَرْعَانَ ما تَغْلِبُهُمْ أهواؤهم وشهواتُهم، فيقمعون نوازع الخير في قلوبهم، ويُحْجِمُونَ عن قبولِ الحقِّ، ويُعْرِضُون مائلين ميلاً شديداً إلى اختيار الثبات في موقع الكفر والعصيان.

فهم في وسَطٍ بين السَّمع والصَّمم، بين الْبصر والعمى، وهم إلى الصمم والعمىٰ أقرب، دلّ على هذا المشهد التمثيلي قول الله عزَّ وجلّ في المثل الثاني:

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾.

﴿كصَيِّبٍ﴾: الصَّيِّب المطرُ الغزير. أو السحابُ الممطر مطراً غزيراً.

أي: أو المنافقون كجمَاعَةٍ في مفازةٍ عمَّهُمْ وأَحَاطَ بِهِمْ صَيِّبٌ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، وهذا الرعد قد يقذف بالصواعق.

وحرفُ «أو» للتقسيم في التمثيل المناظر للقسمَيْنِ اللَّذَيْنَ ينقَسِمُ إليهما المنافقون. كما تقول: الكلمةُ مِثْلُ: أكَلَ يَأْكُلُ كُلْ. أو سعيدٍ وسماءٍ وماء. أو في ولمَّا وثُمَّ. أي: الكلمة: إمَّا فعل أو اسم أو حرف. فليست كلمة (أو) للتشكيل، ولا للتنويع في ضرب المثل، إنَّها للتقسيم.

وهؤلاء الجماعة الذين هم في مفازةٍ مغمورةٍ بسحابٍ مُمْطِرٍ مطراً غزيراً فيه رعدٌ وبرقٌ، يَمْلكون أن يسمعوا صَوْتَ الرَّعْدِ الذي قد يقذف بالصواعق، فَكُلَّما

سَمِعُوا الرعْدَ وأحَسُّوا بمقدِّمات الصَّواعِقِ جَعَلُوا أصابعهم في آذانهم من أثر قعقعة الصواعق وقَرْعِهَا الشديد، والدافِعُ إلى ذلك خوف الموت.

وجاء التعبير بالأصابع بدل الأنامل لأنَّ مشاعرهم تندفع لو استطاعوا أن يُدْخلوا كلّ أصابعهم في آذانهم، ليسدُّوا عنهم وقع الصوت، الذي قد يكون مصحوباً بالصواعق التي تأتي بالموت، وهذا من الصدق الفني.

وهؤلاء كلّما أضاء لهم البرق مَشَوْا في ضوئه، وإذا انقطع فأظلم عليهم الْجَوُّ قَامُوا، أي: وقفوا في موقعهم في الظلمات حَيَارىٰ.

ودلّ النَّصُّ على أنّ هذا الصنف من صِنْفَي المنافقين يُحْكَمُ عليه أيضاً بالكُفْر، وإنْ كانَ لَدَيْهِ بَقِيَّةُ أَمَلٍ بالرَّجعةِ إلى الإيمان الصادق، لأن الإيمان لا يَقْبَلُ التَّنْصِيفَ، فكيف وهُمْ أكْثَرُ مَيْلاً إلَىٰ جانب الكفرِ الجازم، وإلى الثبات الدائم في موقع الكفر من دُونَ رجعة عنه. فقال تعالى: ﴿واللَّهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِين﴾.

وما دام لدى هذا الصنف بَقِيَّةُ أَمَلٍ فإنَّ الله عزَّ وجلّ في قوانينه القدريّة التي تتمُّ نتيجة إرادات عباده الاختيارية، يتْرِكُ لهم هذا المقدارَ القليل من الرغبات الضعيفات الضئيلات الباعثات على اسْتماع آياتِ الوعيد، ورُؤْيةِ أنوار الحق، مهما قلّ هذا المقدار، إمهالاً لهم، وليَتْرُكَ لَهُمْ كُلَّ فُرْصَةٍ في الحياة الدنيا قد تَسْمَحُ لهم ولو في أضعف الاحتمالات، بأن يتماثَلُوا إلَىٰ العافية والشفاء، مع أنَّه لو شاء عزَّ وجلّ لَمَا تَرَكَ لديهم هذه البقايَا، على اعتبار أنَّها بَقَايَا ضعيفة، غيرُ صالحةٍ بحسَبِ العادة للتماثُل إلى العافية، فإراداتهم ميَّالةٌ برجْحَانٍ إلَىٰ جانب الكُفْرِ الجازم، لكنَّ الله عزَّ وجلّ لا يَفْعَلُ ذلك رحمةً بهم، واستيفاءً لظروفِ امتحانهم حتَّىٰ آخِرِ قَطْرَةٍ من الإمْهالِ الحكيم. دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لجعلهم كأهل الصنف الأوّل صُمّاً بُكْماً عُمْياً.

ولم يدْمَغِ الله عزَّ وجلّ هذا الصنفَ الثاني بأنَّهُمْ لا يرجعون، كما ذَكَر بجانبِ

الصنف الأوّل، نظراً إلى أنّهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ مستوىٰ التصميم على الثبات في موقع الكفر عن وعيٍ كاملٍ لِمَا قَرَّروهُ لأنفسهم بالاختيار الحرّ، لذلك فهم لم يَصِلُوا إلى حضيض:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ ﴾.

إنَّ هذا الصنف لم تَنْطَمِسْ بصيرته انطماساً تامّاً، بلْ يَتَلَامَعُ لَهُ نورُ الحقّ أحياناً فيَراهُ، فَيَسِيرُ فيه قليلاً، ويَسْمَعُ إنذاراتِ آياتِ الله أحْيَاناً فَيَرْهَبُ، لكنَّهُ إذا اشْتَدَّتْ عليه سدَّ سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعود إلى حالته الأولى.

وهكذا نُلَاحِظُ أنَّ لوحةَ المثَلِ بجملتها تمثّل صورة هذا الصنف المتردد المذبذب الحيران من صنفي المنافقين.

أليست هذه اللَّوحةُ التمثيليَّةُ الدقيقةُ ذاتُ الإيحاءات الرائعات من روائع الأدب السامي؟؟

إذا لم يكن هذا من الأدب فأيُّ شيءٍ بعده هو من الأدب؟!

لكنَّ أئمةَ الحداثيّين لا يريدون أن يعترفوا بأدب ما لم يكن على رأسه قلنسُوَةُ حاخامٍ سوداء، أو قبعةُ غربيٍّ زرْقاء، أو شارة شيوعيٍّ حمراء.

• • •

الصُّورَةُ الخَامِسَةُ

قال الله تعالى في سورة (المدَّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿التَّذْكِرَة﴾: التَّذْكِرَة لغة: ما يُسْتَذْكَرُ به الأمر. ولما كان القرآن مُذَكِّراً بالحقائق وواعظاً بها وصفه الله بأنَّه تَذْكِرة، وأطلق عليه اسم (التَّذْكِرَة).

﴿حُمُرٌ﴾: جَمْع حِمَار.

﴿مُسْتَنْفِرة﴾: أي: نافرة بشدّة إذْ أصابها الذعر.

﴿قَسْوَرَة﴾: على صِيغَة «فَعْولَة» من الْقَسْر، وهو الْقَهْرُ والأَخْذُ بإكراه.

الْقَسْوَرُ والْقَسْوَرَةُ مِن أسماء الأسد. والْقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ الْقَسْوَر، وقد سُمِّي الأسد بذلك لأنَّه يفترس صَيْدَهُ قَسْراً.

ويُطْلَقُ الْقَسْوَرُ على الصيّاد الرامي، وجَمْعُهُ «قَسْوَرَة». فالرُّماةُ الصَّيّادون الذين يصيدون الحيوانات البرِّيَّة بِسهَامهم، فيقْسِرونها بوسائلهم، ويُكرهونها حتّى يأسروها، يُطْلَقُ عليهم لغة لفظ «قَسْوَرَة».

إنَّ المُعْرِضِين عن القرآن النّافِرين من سَطْوَتِه المؤثِّرةِ فيهم، بما فيه من بلاغة رَفِيعةٍ ودلالات مَنِيعة، وحَقَائِقَ لا يَأْتِيها الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها ولا من خَلْفِها، وأنوارٍ ساطعة، وهدايةٍ قاسرة لمن اسْتَسْلم إليها، قدْ جَاء تمثيلُهم في هذا النص بالْحُمُر التي هجم عليها أَسَدٌ أو أُسُودٌ لِتَفْتَرِسَها، فأصَابَها الذُّعْرُ الشديد فنفَرتْ وَفَرَّتْ لا تَلْوِي عَلَىٰ شيء.

* * *

تحليل المثل:

١ ــ في هذا المثل تمثيلٌ لصُورَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ مَقْرُونةٍ بظواهِرَ تُدْرَكُ بالْحِسِّ الظاهر، بصُورَةٍ تُدْرَك بالْحِسِّ الظاهر مقرونةٍ بحالةٍ مَعْنَوِيَّة نَفْسِيَّة.

٢ ــ الصورةُ التَّمثيليَّةُ في الْمَثَلِ صُورةٌ منْتَزعةٌ من الواقع.

٣ ــ يَبْدُو أنَّ الغرضَ منْ هذا التَّمْثِيل التنفيرُ من الإعْراض عَنْ هِدَاية القرآن، مَعَ تَقْبِيح صُورَةِ المعرضين وذَمِّهِم، إذْ جَاء تمثيلُهُمْ بالحُمُر، وكَانَ مِنَ الممكن تمثيلُهم بالْبَقَر أو بالظباء، لَكنَّ الحُمُر هي المعروفةُ عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيلُ بِها أكْثَرُ تقبيحاً وذماً لحالة النفور من السَّطْوَةِ المعنويَّة التي يتَّصِفُ بها القرآن.

والفكرةُ الَّتي سِيقَ لَها التَّشْبيهُ في هذا النَّصّ، هيَ أنَّ دَعْوةَ الإسلام وما جَاء في القرآن، دعوةُ تَذْكرَةٍ فِكْرِيَّةٍ بحقائقَ علميَّة، هي فِطْرِيَّةٌ في فكر الإنسانِ ووِجْدانِه، أوتَذْكِرَةٌ بحقائقَ عِلْمِيَّةٍ مُنَزَّلَةٍ منْ لَدُنْ حكيم عليم، يُطْلَب من الناس أن يَعْلَمُوها أوَّلاً، ثمَّ يَتَذَكَّرُوها دواماً، لِتَكُونَ مُوَجِّهَةً لإراداتِهم، وأنْواعِ سلوكِهِمْ.

وكلُّ إنسانٍ هو حُرٌّ بعد أنْ تُعْرَضَ علَيْه هذه التَّذْكِرة في أنْ يستجيب لمضمونها فيُؤْمِنَ، أَوْ يَرْفُضَها فيكْفُر، فَهيَ إذَنْ لَيْسَتْ مُطَارَدَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ قَاسِرٍ، يُلاحِقُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَها، أو يَصِيدَها، كما يَفْعَلُ الأسَدُ، أو كما يفْعَلُ الرُّماةُ الصَّيّادُونَ.

إنَّ الإنسانَ ذا الفكْر الحصيفِ لا يَفِرُّ منْ عَرْضِ التَّذْكرات الفكريَّةِ عليه، بلْ يَقْبَلُ عَرْضَها، ومُنَاقَشَتَها، ثم هو بعد ذلك إمّا أن يقبلها، وإمّا أن يرفضها.

فإذا وجدنا قوماً تُعرَض عليهم التَّذْكِرَةُ التي لا إكراه فيها ولا جَبْرَ ولاَ قَسر، فَيَسْتَنْفِرون منها، أي: ينفرون منها نُفْرَةً عشوائية على غير هدى، كالمذعورين من مُطَارِدٍ يُريد أن يقتُلَهم وهم لا يستطيعون مواجهته، فأقربُ تشبيهٍ يَنْطَبِق على حالِهِمْ

بدقَّةٍ بالغة، تَشْبيهُهُمْ بقطيعٍ مِنْ حُمُر الْوَحْشِ طارَدَها أسَدٌ، أو جماعةٌ من الرُّماة الصيّادين، فاستَنْفَرَتْ مَذْعورة ذات اليمين وذات الشمال.

إنَّه لا داعي لنُفْرتهم إلَّا إذا كانوا كالحمير، لا يفرِّقون بَيْنَ التَّذْكِرَة القائمة على الفكر والعلم والمنطق والحجَّةِ والبرهان، وبين الافتراس الذي يفْعَلُه الأسدُ، أو الصَّيْدُ الذي يَفْعَله الصيَّادُون الرُّماة، والذي يُشْبِهُهُ الإكراه والقسرُ الفكري، بقوَّة السلاح والسلطان.

فالتشبيه في هذا النصّ ذو غرض فكريّ يدلُّ عليه، وهو غرضٌ دقيقٌ جدّاً، وليْس مُجَرَّدَ صياغةٍ تشبيهيَّة جماليَّة، فيها معنى التشفّي من الَّذين رفضوا التذكرة وأَعْرضُوا أَوْ تولّوا عنها.

فهذه المعاني الثَّرَّة التي سلف بيانُها يستطيع المتدبِّر الذوّاق للأدب إدراكَها من قول الله عزَّ وجلّ:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

بصيغة الاستفهام الإنكاريّ عليهم، إذْ يَفِرُّونَ كالمذعورين من القرآن، وهو يُقَدِّمُ لهُمْ التذكرة بحقائق دينيَّة مغروزة في فِطَرِ عُقُولهم، وفِطَر ضمائرهم، وبمعارف دينيَّة مؤيَّدة بالأدلَّة البرهانية والحجج المنطقية، ويطالبُهُم بِتَذَكُّرِها دواماً لتكون دافعاً لهم إلى فعل الصالحات، وتَرْكِ السيئات.

أفليس هذا من الأدب الرفيع، في تشبيه بديع، يؤدّي أغراضاً توجيهيَّةً دقيقة، وبيانات فكريَّة حقيقيَّة عن الدين، وعن وظيفة القرآن، ووظيفة الرسول الداعي إلى دين الله.

• • •

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) يقول الله عزَّ وجلّ موجِّهاً أنظار الكافرين إلى مَشْهدٍ من آياته في كونه، الدّالَّة على جُمْلةٍ من جليل صفاته الَّتي لو لم تكن له لمَا أَتْقَنَ هذا الكونَ وأَبْدَعَه، وكُلُّ مُثْبِتٍ للصِّفات هو مُثْبِتٌ لذات الموصوف، إذْ لا تكون صفات بدون موصوف بها:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

أعالج في هذا النَّصّ من جوانبه الأدبيَّةِ فَنِّيَّةَ تَرْتِيب جُمَلِه فقط.

قد يهدفُ ترتيبُ الجمل القرآنيَّة إلى عَرْضِ لَوْحةٍ فنيَّة من لوحاتِ ما خَلَقَ اللَّهُ في كَوْنه، حتّى كأنَّها رسْمٌ قد رُوعيت فيه كلُّ الشروط الفنيَّةِ الّتي تراعى في الرسوم والصُّوَر الرفيعة، فتَبْدُو الصُّورَة مثالاً مُطَابقاً لحركة تَتَابُع الْمَشْهد في نفس الْمُشَاهِد.

تَصوَّرْ أنَّك جَالِسٌ في بَادِيةٍ، في خَيْمةٍ، كَواحِدٍ من عُرْبَانِ البادية، وأمامك سهْلٌ ممتدٌّ، وبعْدَه سلسلة جبالٍ مُتَتَابعة، ومَرَّت قافلة جمالٍ في هذا السهل بينَك وبَيْن الجبال.

فكيف تَتَنَقَّل نَفْسكَ في هذا المشهد، بعْدَ هذا الحدث المتحرِّك المثير، وهو قافلة الجمال.

لقد تمثَّلْتُ هٰذه الصُّورَة فوجَدْتُ أنَّني أتنَقَّلُ في مُتَابَعتها مُرَكِّزاً على بؤرة الْمَشْهَد مَرْحَلةً فمرحلةً على الوجه التالي:

اللَّقطة الأولى: صورةُ قافلةِ الجمالِ السّائرة، إذْ كانَتْ أوَّل لافتٍ لنظري، بسبب الحركة، وغَرابةِ المشهد، ورَغْبَةِ النفس في متابعة مشاهدته قبل أن يغيب عن النظر، فكانت في حسِّي هي بُؤْرَةَ المشهد البارزة، وما سواها كان أرضيَّةً لها.

اللقطة الثانية: صُورَةُ السماء من جهة الأفق البعيد وراء القافلة، إذْ شَبِعتْ نفسي من مُتَابعَةِ التركيز علَىٰ قافلة الجمال، فتركتُهَا، وجعَلْتُها مع أَرْضيَّة الصورة، وانْتَقَلْتُ للتأمُّل في السماء، فكانت السماء في حِسِّي هي بُؤْرةَ المشهد البارزة، وتَوَجَّه بصري بالتركيزِ على السماء، بحثاً وتأمُّلاً، حتَّى إذا شبعتُ من ذلك ظَهَرتْ في شعوري لقطة أخرىٰ.

اللقطة الثالثة: هي صُورَةُ الجبال المتتابعة، إذْ أَخذَتْ تبرُزُ في حِسّي، فتكُونُ بُؤْرَةَ المشهد، وتوجَّه بَصَرِي للتركيز على الجبال بحثاً وَتَأَمُّلاً فيها.

وأدْركتُ أنَّ من طبيعَةِ النُّفُوسِ لدَىٰ مُشاهدة مشهد مُتَعَدِّد العناصر، أن تَبْدأ بالمتحرك لأنَّه أكثر إثارة، ثم تَنْتَقِل إلى أعلى المشهد، ثم تتدلَّىٰ شيئاً فشيئاً حتى أدناهُ.

ولمّا شَبعتُ منَ التأمُّل في الجبال ظهرت في شعوري اللَّقْطَةُ التي وراءها.

اللقطة الرابعة: هي صورةُ الأرضِ الْمُنْبَسطة الممتَدَّة أمامي كأنَّها السَّطْحُ، إذْ أخَذَتْ تبْرُزُ في حسِّي، فتكونُ بُؤْرَةَ المشهد، وتَوجَّه بَصَرِي للتركيز على الأَرْض بَحْثاً وتأَمُّلاً فيها.

عندئذٍ عَلِمْتُ الحكمةَ الَّتِي دَعَتْ إلى تَرْتِيبِ الجمل القرآنية في سورة (الغاشية) وما فيها من تصوير كلاميّ، مُتَابع لحركة النَّفْس لدىٰ مشاهَدَةِ مِثْلِ هٰذِهِ اللَّوحَةِ الَّتِي عَرَضَها النَّص:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

وقلْتُ في نفسي: إنَّها بهَذَا التَّرْتِيب تُقدِّم لوحةً فنِّية، تطابق ما يحدُثُ لمُشَاهدٍ واقعٍ في مثل هذا المشهد.

إنَّه لمشهدٌ يأْسِرُ بقُوَّةٍ نظَرَ إنسانٍ جالسٍ في خيمته خارج العمران، في أرض من أرض العرب، وأَمَامَهُ سَهْلٌ ممتدّ، ومرَّتْ قافلةٌ من الإبل بينه وبين الأفق البعيد، وجِبَالٌ قائماتٌ منتصبات دُونَه.

ويقدِّم العليم الحكيم الخبير هذه اللَّوحة الفنيَّة، ليلفت نظر المشاهد من خلالها إلى إدْراك طائفةٍ من صفات الخالق، التي تدلُّ عليها آياتُ هَذَا المشهد البديع، ومنها أنَّه عليم حكيم قدير بديع السماوات والأرض، قد أتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

• • •

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿والذين معه﴾: أي: أَصْحابُه صلوات الله عليه ورَضِيَ عنهم.

﴿أشدّاء﴾: جمع شَدِيدٍ، والشَّديدُ في اللُّغة الْقَوِيّ، والشُّجاع، ويأتي بمعنى الأَسَدِ، فأصْحَابُ محمد ﷺ أَقْوِياءُ شُجْعَانٌ كالأسود.

﴿رُكَّعاً﴾: جَمْعُ رَاكِعٍ، وهُو مِنْ رُكُوعِ الصَّلاةِ المَعْرُوفِ، ويجمع راكِع على رُكُوعٍ أيضاً.

﴿سُجَّداً﴾: جمعُ سَاجِدٍ، وهو مِنْ سُجُود الصلاة المعروف، ويُجْمَعُ سَاجد على سُجُودٍ أيضاً ويُفْهم من كونهم رُكَّعاً سُجَّداً أنَّهم كَثِيرو الصَّلاة لِرَبِّهم.

﴿يبتغون فَضْلاً من الله﴾: أي: يَبْتَغُونَ أنْ يمنحهم اللَّهُ من فضله، أي: من عَطائِه وَجُوده وما يُفَضِّلُهم به على مَنْ سواهم، ومِنْ فَضْلِه حفظهم من المعاصي.

﴿ورضواناً﴾: الرِّضْوان بكسر الراء وضَمِّها الرِّضا.

﴿سِيمَاهُمْ﴾: أي: عَلامَتُهم الظَّاهِرةُ، السِّيما في اللُّغَةِ الْعَلامَة.

﴿ذلك مَثَلُهُمْ﴾: أي: ذلِكَ وصْفُهُمْ.

﴿كَزَرْعٍ﴾: أيْ: كنبات، الزَّرع واحد الزروع، والزَّرْعُ اسْمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير.

﴿أخرج شطأَهُ﴾: شَطْءُ الزرع والنباتِ فِرَاخُهُ، وقال الأخفش: طَرَفُهُ.

﴿فآزَرَهُ﴾: أيْ: فَأَعَانَهُ وقَوَّاهُ.

﴿فاسْتَغْلَظَ﴾: أيْ: فَغَلُظَ واشْتَدَّ.

﴿فاستوىٰ﴾: أي: فاعتدل، ووصَلَ إلىٰ دَرَجَةِ كماله وقُوَّتِه.

﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: سوق جمع «سَاق» سَاقُ الشجرة جِذْعُها، ودَلَّ استعمال السُّوق على أنَّ المراد من الزرع عدد كثيرٌ منه لا نبتة واحدة.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾: أي: يُعْجب الذين زرعوا الزرع إذْ يَرَوْنَ البهجَةَ فيه، ومظهر العطاء الوفير.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾: ليغيظَ اللَّهُ بهم الكُفَّارَ إذْ يَرونَهُمْ أَشِدَّاءَ أقْوِياءَ ذوي بأسٍ شدِيدٍ وانتشارٍ في الأرْض.

في هذه الآية من سورة (الفتح) شَهِد الله عزَّ وجلّ بصفاتٍ وصف بها رسُولَهُ محمَّداً وأصحابه الكرام.

أمّا محمَّد ﷺ فهو رسُولُ الله وكَفَاهُ هذا الوصف شرفاً ومَجْداً، إذ الرسول يكتسب مَجْدَهُ وشرفه من قَدْرِ المرسل، وحكمتِه العظيمة في الاصطفاء.

وأمّا الذين معه، وهم صحابتُه الكرام، فقد شَهِد الله لَهُمْ بصفاتٍ جَليلات، بعد اخْتبارٍ في ظروف شتَّى ما بَيْنَ العهد المكي، ومُعْظَم الْعَهْدِ المدني، لأنَّ سُورة (الفتح) قد نزلَتْ قَبْل ثلاثِ سُوَر هي آخر ما نزل من سور القرآن المجيد، فقد نَزَلَتْ على الرسول ﷺ في الطريق إلى المدينة وهو منصرفٌ مِنْ صُلْحِ الحديبية الَّذي كان في شهر ذي القَعْدة من سنة ستٍّ للهجرة.

ومن بديع هذِهِ الشهادة أَنَّها جَمعَتْ بأدَب رفيع بين أمرين:

الأمر الأوَّل: الشَّهادة لَهُمْ بعد الاختبار بواقعٍ دلَّت عليه التجربة العمليَّة والمشاهَدَةُ الحسيَّة.

الأمر الثاني: الإعْلام بأنَّ هذا الواقع المشهودَ قد كان بشارةً في خَبَرٍ غَيْبِيٍ بما سَيَكُونُونَ عليه، ورَدَ بَعْضُه في كتاب الله التوراة المنزَّل على مُوسَىٰ عليه السلام، ووَرَدَ بعضُه الآخر في كتاب الله الإنجيلِ المنزَّلِ علىٰ عيسىٰ عليه السلام.

أي: فما كان خَبَراً غَيبيّاً في التوراة والإنجيل عمّا سيكونون عليه حين يوجدُون، ويَتَّبعون محمَّداً الرسولَ الخاتم، ويكونون معه أصحاباً له، قد صار بعضُه واقعاً مشهوراً بَعْدَ مَحَكِّ التجربة العمليَّة التي تكْشِفها المشاهدة الحسِّية، أمّا بعضه الآخر فهو سائر إلى كماله، وقد تحقَّق منه مقدار كبير.

هنا أقول:

هل جاء النصُّ بمثل السَّذاجة التي يَتَحدَّثُ بها الناس فيقولون: لقد كنّا ذكرنَا وصْفَ أصحاب محمَّد في التوراة بكذا، وذكرنا وصْفَهُم في الإنجيل بكذا، وهذا هو واقعُهُمْ بعْدَ التَّجْربة الكافية للحكم بالمطابقة قَدْ أثبتَ مَا سَبَق أنْ أَنْبَأْنَا به قبْلَ أن يحدث بقرون؟

إنَّ أدب القرآن قد ارتفع كثيراً عن هذا المستوى الذي تُقَدِّمه الأفكار بتلقائيَّتِها الساذجة.

إنَّما كان أدَبُ القرآن باختيار الأُسْلُوب الذي يَشْهَد فيه البيان عنْدَ التَّنْزِيل بما هُو قائم مُتَحَقِّق، معَ بَيان أنَّه هو ما سبق أَنْ وصفهم الله به في التوراة إنْباءً غَيْبِيّاً، عنْ مستَقْبَلٍ سَيَتَحقَّق فيهم.

أَمَّا ما لم يَزَلْ في دَوْرِ التحقُّق السائر إلى كماله المرتقب، فقد اختار البيان أن يَنْقُل الخبر الَّذي كان قد نزل بشأنهم في الإنجيل، ليُعْلَم أنَّ بعضه قد تحقَّق بدليل

المشاهدة، وأنَّ بعضه الآخر آتٍ على أسلوب التَّنامي المتدرِّج قياساً على ما تَحقَّق منه.

فلنتدبَّر النصَّ بتأمُّلٍ وإمعان نَظَرٍ. يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ ﴾.

فشهِدَ الله في هذَا النصّ لأصْحَاب محمد ﷺ الذين هُمْ معه بصفاتٍ هي:

أولاً: أنَّهُم أَشِدّاء على الكفّار، أيْ: أقوياء شُجْعان كالأسود، وذلك في حَالة المواجهة القتالية التي يَحْسُنُ أنْ تظهر فيها الشدَّة.

والمراد من الكفار هم الذينَ اختاروا لأنْفُسِهم بَعْدَ معرفةِ الحق سبيلَ الكُفْر جُحوداً وعناداً، لا الَّذين هُمْ بالحقِّ والباطل جَاهلون. فلقد اتَّخذ الرَّسول أو الدعاة من المؤمنين مختلف الوسائل لتعريفهم بالحقّ والباطل، وهدايتهم وإرشادهم، وترغيبهم وترهيبهم، وتقديم ما فيه إقناع أيّ طالب حقّ، حريصٍ عليه، مستعِدٍّ لأنْ يؤمن به متى اكتشفه وعرفه.

ثمَّ إنَّهم مع رفْضِهم للحقِّ لم يَقْتَصِروا على ما اختاروا لأنفسهم من الكفر القاصر على ذواتهم، بل اخْتَارُوا لأنْفُسِهم سُبُل صَدِّ النّاس عن الإِيمان بالدّين الحقّ، وكَمِّ أفْوَاهِ الدُّعَاة الْهُدَاةِ إليه، ومُقَاوَمَتِهِمْ ومُقَارَعَتِهم والتَّنكيل بهم ومُقَاتَلَتِهم في مَعارك حربيَّة.

وبسبب ذلك يُضطَّر دعاةُ الحقّ أن يُدافعوا ويُقَاتِلوا، ويَرُدُّوا كَيْدَ الكُفَّار، وكُلِّ مَنْ يَقِفُ في سبيل دَعْوَتِهِمْ مُعارِضاً ومُقَاوِماً انتشارها.

عندئذٍ يقفون أقوياء شُجْعاناً كالأُسُود، يُقَارِعُونَ الكفار ويُقَاتلونهم بكُل بَسالةٍ وبأس وتضحية.

لكنَّ شِدَّتهم على الكفّار لا تَجْعَلُ القتال والْقَتْلَ مِهْنَةً لهم تُشَوِّه صورة

نُفُـوسِهم، فتجعلُهم أشدّاءَ دَواماً، لأنَّها شِـدَّة عارضَـةٌ ولغرض مَحْـدُودٍ، أَمَّا حـالةُ نُفُوسِهم الأصليَّةِ فَهِي أنَّهُم رُحَمَاءُ فِيمَا بَيْنَهم داخلَ مُجْتَمعِهم الإسلاميِّ.

كما أنَّ رَحْمَتَهُمْ بالنَّـاس هي الَّتِي جَعَلَتْهُم يُريـدُون الهدايَـةَ والخير والسَّعـادة للنَّاس كلِّ الناس، ويضحُّون بأنفسهم من أجل خير البشريَّة، وإعلامها بالحقّ الذي اصْطَفاهم الله لتَبْلِيغه.

وكـونُهُم رحمـاءَ بَيْنَهُم لـهُ ظـواهـر في سلوكهم منهـا: إرادةُ الخيـر لكـلِّ المسلمين، والتَّعَـاوُن على البرِّ والتقـوىٰ، والأمْـرُ بـالمعـروف والنهيُ عن المنكـر، والبذْلُ والْعَطاءُ، والْمَوَدَّةُ والإخاء، ومُسَـاعَدَةُ ذوي الضَّـرُورَات والحاجـات، والإيثار على الأَنْفُسِ أَحْياناً، إلى كل ما فيه شَدُّ أواصر الروابط الاجتماعية.

ثانياً: أنَّهم كثيرو الصِّلة بربِّهم والخضوع له، والتذلُّل بيْن يـدَيهِ إذْ تـراهم أَيُّها الـرّائي الْمُشَاهِـدُ لَهُمُ آيَـاً كنتَ رُكَّعـاً سُجَّـداً يَبْتَغُـون بِنِيَّـاتِهم وقلوبهم، وبـأدعيتهم بألسنتهم وأصواتهم، أن يمنحهم الله خالقُهم وبارئُهم فضلاً من عطائه وكرمـه وجوده في العاجلة والآجلة، وأنْ يشملهم برضوان منه، الذي هو أكبر من كلِّ نعيم الجنة.

ومن عـلامات كثـرة سجودهم في صلواتهم سِيمـا (أيْ: علامـة) تـظهـر على وجـوههم، في جباههم وأنـوفهم من أثر السجـود، واكتفى النَّصُّ بذكـر الوجـوه لأنَّ السُّجود إنَّما يكون على الجبهة والأنف من الوجه، ففيهما يظهر أثر السجود المتكرر الطويل.

ويلاحظ المتدبِّـر أنَّ في الثناء عليهم بكثـرة السجود وطـولِه معنىً تمجيـد كلِّ من هـو كثير السجـود لله عزَّ وجـلّ، والسَّبَبُ في ذلك أنَّ العبـد لله عـزَّ وجـلّ أقْـرَبُ ما يكون من ربِّه وهو ساجد باطناً وظاهراً.

ولعـلَّ في اختيار تنـزيل هـذه الصفـات من صفـات أصحـاب محمـد ﷺ في التـوراة، تَوْجيـهَ بني إسرائيـل للتخلُّص من ماديَّتهم المفـرطـة، وجُبْنِهم وأنـانيـاتهم ونَقْصِ خُلُق التراحم فيما بينهم، وتحريك غيرتهم للتَّشبُّه بأصحاب الرسول الخـاتم

الذي نزلت المبشِّرات بمقدمه في كتابهم وعلى لسان رسولهم، وأخذ الله عليهم الْعَهْدَ أن يؤمنوا به ويتَّبعُوه حينما يَبْعَثُه.

أمّا الوصف الذي أنزله الله عزَّ وجلّ في الإنجيل لأصحاب محمَّد رسول الله ﷺ، فيقول الله بشأنه:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

فدلَّ هذا التشبيه على أنَّهم في تناميهم وتكاثرهم واشتداد قوتهم، والمظْهَرِ البهيج الذي يكونون عليه، والإنتاج العظيم الذي يقدِّمونه، الذي يُعجب المؤمنين زُرَّاعَ الخير، ويغيظ الجاحِدين كُفَّار الحقِّ، كَزَرْعٍ نبتَ نباتاً حسناً وفق نظام النبات في أخصب أرضٍ وأحْسَنِ شروط، بدليل أنَّه أخرج شطأه (أي: فروخه من جوانبه)، ولا يكون ذلك إلاَّ في زرع خصيب، وبدليل أنَّ هذا الشطْءَ اشتدَّ ونما بسرعة فآزر أصله بالقوَّة والحِمَاية، فاستغلظ بذلك الأصل واشتدَّ ونَما، واعْتَدَل بذلك الزَّرْعُ مستوياً على سوقه.

ودلَّ العطفُ بالفاء لأفعال (فآزره ـ فاستغلظ ـ فاستوى) على التعاقب من دون إبطاءٍ عن مواعيدها النظاميَّة في سُنَّة التَّنامي، ومن دون أَنْ تعوِّقها عقباتٌ ولا أيَّة معوِّقات.

وإذِ استوىٰ الزَّرْع على سُوقه فإنَّ الذِّهنَ يَسْتَطِيع أنْ يُتِمَّ ما بقي من تصوير حالة هذا الزرع من ظهور سنابله وثمراته ووفرةِ عطاء الخير، لذلك سكتَ عنه النصّ، وتوقف عند ﴿فاستوى على سوقه﴾، وفي قول الله عزَّ وجلّ بعد ذلك: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، ما يتضمَّن الإلماحَ إليه، لأنَّ ما يُعْجِبُ الزُّرَّاع ليس مجرَّد نباتٍ اشتدَّ ونَما، ولكنْ ما يَحْمِلُ من رزق وفير وخير كثير.

هكذا كان حال الذين مع محمد رسول الله ﷺ من أصحابه الأخيار الميامين،

تكاثراً ونماءً وشِدَّةً وقُوَّةً وثمراتٍ وفيراتٍ، فَهُم بكلِّ ذلك يُثيرون الإعجاب إلى حَدِّ الدَّهْشَة.

وإذِ انْتَهَىٰ المثل عند هذا ودلَّ على ما يُرادُ منه من تشبيه أصحاب محمَّد رسول الله ﷺ بالزرع في عدَّة عناصر مركَّبة يجتمع منها وجه الشَّبَه، وإذْ أُحضِرَتْ صورةُ المشبَّه في ذهن السامع أو التالي للنصِّ، عند هذا جاء الغطاء للمثَل كأنَّه عَيْنُ الممثَّلِ له، فقال عزَّ وجلَّ في روعة إبداعيَّة على طريقة القرآن في أمثاله:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾:

أي: ليغيظ الله بأصحاب محمد الذين معه، الكفَّارَ الذين جحدوا رسولَه وكذَّبوا بما جاء به عن ربِّه، إنهم يشتدُّون غيظاً حينما يَرَوْن تكاثُر أصحاب محمَّد، وقوَّتَهم المهيَّأَةَ لاكتساح قُوىٰ الكفر، ودَكِّ عروشه، وتحطيم زعاماته.

إنَّ اختيار التعبير بإغاظة الكفار يدلُّ على كلِّ هذه المعاني، لأنَّ الغيظ حركة نفسيَّة تُوَلِّدها مشاعر ألم شديد من قُوَّةٍ ضاغطة، وما دام الكفَّار حريصين على مُقارعة المؤمنين، وكَتْم أنفاس دعوتهم، والتغلُّب عليهم، حتى رغبةِ القضاء عليهم، فإنَّ تكاثُرَهُم وتنامي قُوَّتِهم واشْتِدادَ بأْسِهم أمورٌ تمنع الكُفَّارَ من تحقيق أهدافهم فيهم بقُوَّةٍ ضاغطةٍ، فيؤلِمُهُم ذلك ويغيظُهم أشدَّ الغيظ.

واقتصر النصُّ بتعبير الإغاظة ليدلَّ بإيحاءاته على كلِّ هذه المعاني، وهذا من روائع الإيجاز، والاكتفاء باللَّمح، والاعْتِمادِ على ذكاء المتلقّي، وكلُّ ذلك من نفيس الأدب والإبداع فيه.

وبين الكفَّار والزُّرّاع تناسب، إذْ يُطْلَقُ في اللُّغة على الزَّارع اسم «كافر» وجَمْعُه كُفَّار، فالزُّرّاع كُفَّارٌ في مزارعهم، إذ يغطّون ساترين في أرضها الْبُزُور بالتُّراب، ومنه تُسمَّى المزارع والْقُرىٰ كفوراً واحدها كَفْر.

والكُفَّار في الدّين يُغطُّون ويَسْتُرون بُزُور الحقّ والخير بالإنكار والجحود، ويُوهِمون بذلك أنَّهم لا يعرفُون أنَّها حقٌّ وخَيْر، ويَسْتُرونَها أيضاً بزخرف القول

وادِّعاءات أنَّ ما هم عليه من باطل هو حقّ، وأنَّ ما هُمْ عليه من شرٍّ هو خير.

ولا شكَّ أنَّ استخدام لفظ «الكفار» ذي الدلالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تجمعهما المناسبة في النصِّ الواحد، هو من الحِيَل الأدبيَّة الجميلة، المُعْجِبَة، لِذَوْقِ الأديب، فجاء الاختيار للفظ «الكفار» في ﴿ليغيظ بهم الكُفَّار﴾ دُون مُسَاويها من الألفاظ كالجاحدين والمكذّبين والمجرمين ونحو ذلك.

وهنا نلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلّ قال في هذا النصِّ: ﴿يُعْجِبُ الزُّرّاع﴾ فلم يُطْلق عليهم هنا لفظ «الكُفّار» بمعنى الزُّرّاع، مثلما ذكر في آية سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿الكفّارَ﴾: أي: الزُّرّاع.

ويبدو أنَّ السبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: أنَّ الزَّرْع قد ضُرِبَ في سورة (الفتح) مثلًا للمؤمنين، فلا يناسب أنْ يُطْلَق على زُرّاعِهِ اسم «كُفّار» لاشتراك اللَّفْظِ بين معنى الزُّرَّاع ومعنى الكفار في الدين.

الأمر الثاني: أنّه لو قال: «يُعجب الكُفَّارَ نَباتُه»، وقد قال بعده: «ليغيظ بهم الكُفّار» لحصل شِبْهُ تَنافٍ في ظاهر اللَّفظ، إذْ كيف يعجبُ الكفّار ويغيظ الكُفّارَ معاً، واستخدامُ الْجِناس التامّ هنا من نوع الإلغاز الذي يُضْعِف من قيمة النصِّ أدبيّاً ولا يُحَسِّنه، مع ما في تكرير اللفظ بهذه الصورة من جَسٍّ غَيْرِ مُحبَّبٍ للحسِّ الجمالي.

* * *

التوجيه الضمني من خلال التشبيه:

ويُلاحظ في تشبيه أصحاب محمد ﷺ في نمائهم وتكاثرهم وقُوَّتِهم، وكثرةِ ثمراتهم وخيراتِهم بزَرْعٍ أخرج شطأَه فآزره فاستغلظ فاستوىٰ علَىٰ سُوقه يُعْجِبُ الزُّراع، التَّوْجِيهُ الضِّمنيُّ للأسلوب الأمْثل الذي يتحقَّقُ به بناءُ أمَّةٍ مُثْلَىٰ كأصحاب محمد ﷺ.

إنَّ التَّشبيه بالزَّرع يدلُّ على أنَّ العمليَّة تبدأ بإعداد الأرض وتهيئتها لبذر البزور الصالحة فيها، حتّى تَنْبُتَ على أحسن وجه. ثم باختيار البزور الصالحة ووضعها في مواضعها من الأرض على أحْسَن طريقة لإنبات الزَّرْع الْمُعْجِب، وبِسَتْرِها عن الأنْظَار حتّى لا تأكلها الطُّيورُ وحشرات الأرض، ثُمَّ تأتي بعد ذلك أعْمال السَّقي بمواعيدها المناسبة، وأعمالُ التعهُّد والحماية، والتَّربية المتدرجة.

بذلك تنبت الزروع بفضل الله، وتخرُج سُوقها، ثمَّ تَخْرُجُ فروخ السُّوق، إذْ تكون كلُّ بِزْرَةٍ بمثابة أسرة ذات أصْلٍ غليظ، حَوْلَهُ فروخه التي تؤازره وتقوّيه، وهكذا ينمو الزرع ويمتدُّ ويفرِّخ، ويشتدُّ ويقوىٰ ويتكاثر حتى يُعْطِيَ أَحْسَنَ الإنتاج وأفضل الثمرات بفضل الله.

على مثل هذه الصورة يكون بناء الأمَّة الفاضلة الرشيدة، وهذه هي سنَّة الله في الخلق.

إنَّ الحقول الزراعيَّة النباتية، وحقول الزراعة البشرية، سواءٌ في خطَّة النظام الكلِّيِّ العامّ.

فعلى المربّين أنْ يَنْتَفِعُوا من سنن الله في الزرع، ويقيسوا عليها أعمالهم في إنشاء المجتمع الفاضل الذي يُريدون إنشاءه.

وقد يلاحظ المتدبِّر أنَّ الله عزَّ وجلّ قد ذكر هذا الوصْفَ من أوصافهم في الإنجيل، مثنياً فيه عليهم، لتوجيه الذين يؤمنون بعيسىٰ عليه السلام كيف ينشرون

دين الله، ويبنون المجتمع الرَّبّانيَّ الأمثل، مع ما فيه من بشارة بمحمَّد وأصحابه القادمين من بعدهم.

* * *

ختم الآية:

وبعد أن شهد الله لأصحاب محمد بأنَّهم قد حقَّقوا في واقعهم التطبيقي ما كان قد أخبر الله عزَّ وجلّ به مُبَشِّراً بالتوراة والإنجيل، ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

فدلَّ بهذا على أنّ المقصودين بقوله في أول الآية ﴿والذينَ مَعَهُ﴾ هم الذين آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات. فخرج بذلك المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وهؤلاء هم الذين قد وعدهم بأمْرَيْن:

الأمر الأول: مغفرة عظيمة لسيئاتهم وخطاياهم، أي: فهم ليسوا بمعصومين عن الذُّنوب والمعاصي والخطايا مع ارتفاع منازلهم وعلوِّ مقاماتهم، فقد يقعون بالذنوب والمعاصي والخطايا، لكنهم لا يصرّون عليها بل يستغفرون.

الأمر الثاني: أجرٌ عظيم لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحات، ومن أعمالهم الصالحة جهادهم في سبيل الله، ونشرُهُم لدينه، ونصرتهم لرسوله.

أفليس هذا النصّ من رَوَائع نصوص الأدب، مع ما اشتمل عليه من حقائق فكرية؟!!

• • •

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

قـولُ الله عزَّ وجـلّ في (سـورة الأنفـال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نـزول) وهي ثـاني سورة مدنيَّة:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ۝٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾.

﴿لِيَمِيزَ﴾: أي: ليَفْصِلَ ويَفْرِزَ ويَعْزِلَ. يقـال لغـة: مَـازَ أشيـاءَ من أشيـاء ومَيَّزَها، إذا فَصَلَها وفرزها وعَزَلها.

﴿الْخَبِيث﴾: هو الرّدِيء الفاسِدُ من كُلِّ شيء. والْكَرِيهُ المستَقْذَر. والأشيـاءُ النَّجِسَةُ. والْخَبِيثُ من الناس السيِّـىءُ الفاسد، والكافر المجرم.

وضِـدُّه الـطيِّبُ، ووصف الله المؤمنين والمؤمنـات بـأَنَّهم طيِّبـون وطيِّبَـاتٌ، ووصَفَ الكـافرين والكـافرات بـأَنَّهم خَبِيثُونَ وخَبِيثَـاتٌ، كمـا وَصَفَ الله المشـركين بـأَنَّهم نَجَسٌ. وبأَنَّهم رِجْسٌ. ووصف الكفـر والشِّرْكَ وطـائفة من كبـائر الإثم بـأَنَّها رِجْسٌ. كما وصف كلّ ذَلِكَ بأَنَّه خبيث.

فاشتركتْ أَلْفَـاظُ الْخُبْثِ، والرِّجْسِ، والنَّجَس، في أنَّهـا تُطْلَق على الأشيـاء والأعمال والأفكار والْعَقائد والنِّيات الرَّدِيئَة الْفَاسِدة المستَقْذَرَة.

﴿فَيَرْكُمَه﴾: أي: فَيُلْقِيَ بعضَه على بعض من دون أَيَّة عِنايَةٍ بشأنه.

الرَّكْمُ في اللُّغة: إلْقَاءُ الأشياءِ بَعْضِها عَلَىٰ بعض، كما يفعل النَّاسُ بالتُّراب، والـرِّمـال، والْقُمَـامَـاتِ، والأَنْقَـاضِ التي يُـراد التَّخَلُّص منهـا، وكَـذلـك يَفْعَلُون بِالْمُسْتَقْذَرَاتِ والنَّجَاسَات.

في هـذا النصّ القرآني من سـورة (الأنفال) صـورةٌ بيانيّـةٌ أدبيّةٌ بـديعـة، مـع جوانب أخرى أدبيّة لَمْحِيَّةِ الأداء، دقيقةِ التّعبير، ساميَةِ الْهَدَف.

النَّصُّ هُنا يَلْتَقِط لقَطَاتٍ من مشْهدٍ طويل، وهذه اللَّقطات كافيـاتٌ لتدلَّ أهـل التَّدبُّر العميق، والتَّفكُّرِ الدقيق، لتدلّ أَهْلَ اللَّمـح الَّذين تُسْعِفُهُمْ بَـدِيهَتُهُم الذَّكِيَّـة، عَلَىٰ سَائِر عناصر المشهد.

العنـوان: [وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا إِلَىٰ جَهَنَّم] أي: مَسِيـرُهُم، وغـايَـةُ رِحْـلَاتهم من الموت إلى البعث والنشور إلى الحشر إلى الحساب والمحاكمة والحكم الجـزائي، إلى التمييـز عن سائـر الخـلائق، إلى الجمـع الـرّكـامي، إلى الإلقـاء والنَّبْـذِ، إلى جَهَنَّمَ.

فجمع العنوان صفتهم في الدنيا، وغايَةَ أَمْرِهم يوم الدين.

واقتصر البيان بعد العنوان على ما يلي:

اللقطةُ الأولى: ﴿يُحْشَرُونَ﴾: أي: يُجْمَعُون يوم القيامة في أرْض الْمَحْشَرِ، مع سائر الخلائق الَّتي بعثت وَنُشِرَتْ للحِساب والجزاء.

ودلَّت لقطةُ [يُحْشَرُونَ] عَلَى لقـطاتٍ هي قَبْلَهَا، فـالْحَشْرُ مَسْبُـوقٌ باستكمـال رحلةِ الحياة الدنيا، فَالموت، فَالْبَرْزَخ بين الموت والبعث، فالبعث والنشور، وبَعْـدَ هذه اللَّقَطات المطويّة في النصِّ يأتي الحشر.

ودلَّتْ عبارَةُ [يُحْشَرُونَ] على حركةٍ حَشْرِيَّةٍ تَتَـابُعِيَّةٍ، لا تتمُّ دفعـةً واحدة، بَـلْ تَتوالَىٰ خِلَالَ مُدَّةِ الزَّمنِ.

ودَلَّت أيضاً مع قرائن آياتٍ نزلَتْ قبل هذا النَّصّ من نجوم التنزيل على الغاية من الحشر وهي المحاسبة فالمحاكمة، فالحكم.

اللقطة الثانيـة: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الـطَّيِّبِ﴾: هذه اللَّقْـطَةُ البيانيـةُ تُبيِّنُ علَّةَ حـدَثٍ مَـطْوِيٍّ من أحـداثِ شـرِيط المشهـد، فهي بهـذا التعليـل تَـدُلُّ عليـه،

وباسْتِطَاعةِ الذِّهْنُ أن يسْتدعيَـهُ بالتـأمل، فبعـدَ إصدارِ الحُكْم عليهم بـالكفر وبـأنَّهم مُجْرِمُون، وبأنهمْ من أهل جَهَنَّم، لا يُعادون إلى حيثُ كانَتْ مواقفهم في المحشر، بل يُساقون إلى مكان خاصّ، فالْحُكْمُ عَليهم مازَهُمُ اللَّهُ بهِ، فكَشَفَ أنَّهُمْ خَبيثون، وسَوْقُهم إلى مَكَان خاصّ بهم مازَ اللَّهُ بـه أَجْسَادَهُمْ ونفـوسَهُم، من أجساد الـطَّيِّبين ونفوسهم، وجعَلَهُمْ بذلك مفروزين معزولين.

وهُنَا يَتَساءل الذِّهن: هلْ سيَكُونون في مكانهم الجديد الذي فُرزوا إليه، مثْلَ ما كانوا في أمْكِنَتِهِم في المحشر، مختلطين مع الطيبين؟

ويأتي الجواب في:

اللَّقْطَة الثالثة: ﴿ويَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْض﴾: ودلَّت هذه اللَّقطة على أنَّهُمْ يُجْمَعُـونَ مُمَيَّزِين مَفْـرُوزِينَ جَمْعاً ضـاغطاً، يكـون فيه بعضُهُم ضَـاغـطاً على بعض.

وحتَّى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ هذا الجمع الضَّاغط مصحوبٌ بتصفِيفٍ وعنايةٍ وترتيب فيه نظامٌ مَا جَاءَتْ:

اللَّقطة الرابعة: ﴿فَيَرْكُمَهُ جميعاً﴾، فأبرَزَتْ هٰذِه اللَّقْطَةُ من المشهد أنَّه جمعُ رُكَامِيٌ، كما يَجْمَعُ الناس في الدنيا الْقُمَامَاتِ والنُّفَـايات، والْمُسْتَقْـذَرَات، والأشياءَ الخبيثة النجسة.

وعلى الخيال أنْ يَرْسُمَ صُورَةَ هذا الـرُّكَام الْبَشَـرِيّ في المحبِس الضَّيِّق الَّذِي امتاز به المجرمون، المحكُومُ عليهم بأنَّهم في جَهَنَّم خالدون.

ودلَّت (الفاء) في: ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ على أنَّ عمليَّة الـرَّكْمِ تأتي عَقِبَ السـوقِ إلى مكان تَمْيِيزهم وفَرْزِهم في محبِسٍ خاصّ بهم.

حتى إذَا انتهىٰ فَـرْزُهُمْ، ورَكْمُ بعـضهـم على بـعض في رُكـام الـخبيثِـين والخبيثات، بدلالة كلمة ﴿جميعاً﴾ جاء دور:

اللَّقطة الخامسة: ﴿فَيَجعلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾، فدلَّت هذه اللَّقْطَة على أنَّ إلْقَاءَهُمْ في جَهَنَّمَ يَكُونُ عَقِبَ استكْمَالِ فَرْزِهِم وركْمِهِم من دُون إبطاءٍ وَلاَ تَراخٍ زَمَنِيّ.

واسْتَحقُّوا مُنْذُ صَدَر الحكْمُ عليهم أن يَسْلُبَهُمُ اللّه وصْفَ التَّكْرِيم الذي كرّم به بني آدم، إذْ ذكَرَهُمْ تحتَ عُنْوان صِنْفٍ خَبِيثٍ من خبيثات الأشياء الرُّكاميّة.

وهذا من بَراعة الأداء، في انتقاء الأُسْلُوب التعبيريّ الملائم.

واكتفى النّصّ هذا بِعِبَارَةِ الْجَعْلِ في جهنّم، لأنَّ صُورة هذا الجعل قد جاء تقديمُ لَوْحَاتٍ لها نَزَلَتْ قبل هذا النصّ من سورة (الأنفال) وذلك في:

١ ـ قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) خطاباً لِصِنْفَي قُرَنَاءِ البشر من الملائكة:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

٢ ـ وقولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

٣ ـ وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

فالجعلُ في جهنّم يكونُ إلْقاءً، وكَبْكَبَةً جَماعِيَّةً عَلَىٰ رُؤوسِهم، ووصولاً كبّاً في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِم، فتكامَلَتْ بذلك لوحات النصوص في تَصْوير المشهد، ويكونُ نَبْذاً مُهيناً في الحطمة للكافر الهمزة اللّمزة كما جاء في سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول)

وباستقرارِهِمْ في جَهَنّم دارِ عِقابهم عَلَىٰ إجرامهم في رحلة ابتلائهم، تحقّقَتْ

خَسارتُهُمْ أَنْفُسَهم، بحرمانهم من كلّ لذّة، وكلّ سعادة، وكلّ راحة، وبتحمُّلِهم آلاَمَ مَا يُعَذَّبُون به من ألوان تعذيبٍ جَزَاءً وِفاقاً.

أمَّا اللَّذاتُ العاجلات، وممتلكاتُ الحياة الدنيا التي من أجل الحصول عليها بذلوا ما كانَ مُعَدّاً لَهُمْ في دار النعيم لو آمنوا وعملوا صالحاً، فلم يَبْقَ لديهم منها شيء، وتَبَيَّن لَهُمْ أنَّها كانت سراباً، ومَتَاعاً سريعاً، وأبنيةً من الأوهام والتخيّلات.

وإذا كانت الحياة الدنيا سُوقَ تِجارة، تقامُ لِوَقْتٍ قَصِيرٍ، ثُمَّ تُقَوَّضُ خِيامُها، وتُقْفِرُ أَرْضُها، فَمَنْ هُمْ أَعْظَمُ الْخاسِرِينَ فيها، الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ، حتَّىٰ أَنْفُسَهم، وكلّ راحةٍ وسعادَةٍ يمكنُ أَنْ تكونَ لهم؟

لا شَكَّ أَنَّهُمْ هؤلاء الْخَبِيثُونَ والخبيثاتُ، الَّذِين قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِيهِم:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ... ﴿٣٧﴾﴾.

إذَنْ: فَمِنَ الْحقِّ أَنْ يُخْتَمَ النَّصُّ بعد عرضِ هذهِ الصورة البيانية المستقبلية عنهم، المقتطعةِ ممَّا سَيَجْرِي لهم يوم الدين، بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الخاسرون لكلِّ شيء.

أمَّا الخسارات الجُزئيَّة فتَكُونُ للعصاة من المؤمنين أيضاً.

ونَقْصُ فُيُوضِ الأرباح يكون للمقصِّرِين عن درجاتِ المراتب الْعُلْيَا في جنَّاتِ النعيم.

• • •

الصُّورَةُ ٱلتَّاسِعَةُ

في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) قال الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّدﷺ، ثُمَّ لكلّ داعٍ من أمّته يدعو إلى سبيل ربِّه، في وصايا التنزيل المكيّ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

جاء هذا النصّ بعد إحدى عشر آية يعلّم الله فيها رسوله والدّعاة من أمّته مناظرةً جَدليَّة يُناظرون بها المشركين، لإقناعهم بأنَّ ما هم فيه من شِرْكٍ باطلٌ بلا شُبْهَة، وأنَّ توحيد الله في ربوبيَّته وإلٰهيَّته هوالحقّ بلا شُبْهَة.

وعقب هذا التعليم جاء قول الله عزَّ وجلّ:

﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين . . .﴾ الآيات.

إنَّ المتدبّر اللَّمَّاحَ يُدْرِكُ أنَّ مُناظرة مشتملة على حُجَج بُرْهانيّة مُقْنِعَةٍ لمن أراد الحقّ، ودامغَةٍ لِمَنْ أصَرَّ على الباطل، كالمناظرة التي أرشدت إليها الآيات السابقات لهذا النصّ، سَتُلْجِىءُ المصِرِّين على باطلهم، أن يتّخذوا وسائل يُغَطُّونَ بها هَزِيمَتَهُمْ فِي مجالِ المناظرة الفكرية القائمة على الحجج البرهانيّة الدامغة، ومن هذه الوسائل اللُّجُوءُ إلى السِّبَاب والشتائم، والتجريحات والاتِّهامات الشخصيَّة، والشَّغَبِ والغوغائيَّة، والْهُرُوبِ إلى المغالطات، والرَّوَغان عن ساحَةِ المناظرة.

فما هو موقف الدَّاعي المناظر تُجاه هذِهِ الوسائل القذرة التي يلجأ إليها المنهزمون في مجال الفكر والعلم؟

أيتابعهم على طريقتهم، حتى تَتَحوَّل حَلَبَةُ المناظرة العلميَّة الفكرية إلى حظيرة تَشَاتُمٍ وَسِبَابٍ، وعنْدئذ يكونُ أغلبُ الخصميْنِ أكثرَهُمْ سفاهةً وأعلاهم نُباحاً؟

أمْ يَعْفُو، ويقْطَعُ ألْسِنَة الشتائم بالعطاء، ويُعْرِض عن الجاهلين السفهاء؟.

إنَّ التوجيه القرآنيّ يقول لمن تعرَّض لمثل هذا الموقف: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجاهلين].

هذه الآية على إيجازها البديع تحكي قصّة معاناة الداعي إلى الله، المناظر بالمنطق العقلي والحجج البرهانية العلمية، وما يَلْقَاه من تصلُّبٍ على الباطل، وسفاهَةٍ وجهلٍ وعِنَادٍ، وسِبَابٍ وشتائم واتهامات بالباطل، وسُخْرِيَةٍ واستهزاء، وغير ذلك من ألوان غمْزٍ ولَمْزٍ وإيذاء.

إنَّها تقول للداعي إلى الله: أيُّها الدَّاعي إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، ستواجه أذىً وعداءً وكيداً، من الذين تَدْعُوهُم إلى دين الله، وتُنَاظِرُهُمْ ضِمْنَ أصُول العقل السليم بالحجج المنطقية البرهانية المقْنِعَةِ.

وأنت أمامَ مواقفِ السِّباب والشتائم والإيذاء والعداء وألْوَانِ الكيد من قِبَلِ الَّذِين تدعوهم إلى سبيل ربِّك:

● إمَّا أن تواجههم بمِثْلِ أعْمالِهِمْ، فتَخْرُجَ عن مَنْهجِ دَعْوَتك، وتُقِيمُ بَيْنَك وبين النَّاس الذين هُمْ في أكثريَّتهم أتْباعُ المتصدِّينَ للمواجهة، عقباتِ الخصومات فالعداوات، وهي عَقَباتٌ كأداء تُقِيمُها في طريق دَعْوَتِكَ، فتمنعُك من مُتَابَعةِ الْمَسِير.

● وإمَّا أن تَعْفُوَ عمَّن يُسِيءُ إليك، وتُبْقِيَ جسور الصِّلة بينك وبين من تسعى

لهدايتهم قائمةً. وبسَبَبِ ذلك تَسْتَطِيع مُتَابَعَةَ مسيرتك، في الدعوة إلىٰ سبيل ربِّك، لتَغْنَم الثواب عند الله، وعسىٰ أن تَظْفَر بمن يَسْتَجِيب لك ويَهْتَدِي.

وقد جاءَ التَّوْجِيه القرآنيُّ لضرورة العمل بمُقْتَضَىٰ الاحتمال الثاني وهو العفو.

ولكنَّ البديع في عبارة التَّوْجيه أنَّها كانَتْ بأُسْلُوب المطالبة بأخذ العفو، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، دُونَ عِبَارَة: فَاعْفُ. أو فالْزَم الْعَفْوَ. أو فالْزَم سبيل العفو. أو نحو ذلك.

إنَّ جملة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، تُشْعِرُ بأنَّ الْعَفْوَ شَيْءٌ ثمِينٌ يُؤْخَذُ، ويُغْتَنَم، ويُظْفَر به، وأَمْرٌ يَحْرِصُ عليه أهل البصيرة الإيمانيّة.

ولدى التحليل يلاحِظُ المتدبِّر أنَّ العفو لَـهُ حَلاوَةٌ في القلوب والنفوس، فمن عفا ذاق حلاوة العفو، والأشياءُ ذاتُ الحلاوة في المادّيَّات تُؤْخَذُ، وتُسْتَعْمل في الوجوه التي تُعْطِي بها حَلاوَتها.

فجاء التعبير بالأخذ، ولمَّا كان مجرَّدُ أخْذِ العفو يسبّب في نفس المؤمن وقَلْبِه مشاعر الحلاوة الإيمانية قال الله تعالى للداعي: [خُذِ الْعَفْوَ].

ثم يُلَاحِظُ المتدبِّر أيضاً أنَّ العفو يثيب الله عليه ثواباً عظيماً جليلاً، والمؤمنُ شديدُ الحرصِ على الظفر بهذا الأجر العظيم.

ولمَّا كان تحصيلُ هذا الأجر العظيم الذي يأخذه المؤمن عند ربِّه إنَّما يأخذهُ بسبب العفو، كان من فنّيّة الأداء البياني البديع، والأدب الرفيع، إسنادُ الأخذِ إلى السَّبَبِ الَّذِي به يؤخذ الأجرُ العظيم عند الله.

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أي: ولَا تأخذ التَشَفِّيَ لنفسك بالانتقام، ومقابلة الإساءة بمثلها، ومعاقبةِ المسيء، فحلاوَةُ الْعَفْو ولَذَّته، مع ثواب الله العظيم، خَيْرٌ لَكَ مِنْ لذَّة التَّشَفِّي العابرة، الَّتِي قد لَا تَظْفَر بها، وقدْ تَجْلُبُ لَكَ شَرّاً كبيراً، مَعَ مَا تُقِيمُ من عَقَبَاتٍ وجُدُرٍ في سُبُلِ دَعْوَتِك، ومَعَ مَا تُدَمِّر مِنْ جُسور بيْنَك وبين من تدعوهم.

إنَّ العفو عن إساءات الْمَدْعُوِّينَ وإيذَاءَاتهم يُعَبِّد للدَّاعي السُّبُل الوعـرة، التي ينبغي أن يَسْلُكَها في دعوته، ابتغاء مرضاة ربِّه، وهذا أمرٌ يُرْضِي اللَّهَ عزَّ وجلّ، لأَنَّهُ أَكْثَرُ تَأْثِيراً فِي هداية الناس، بما يَمْلِكُ من قلوبهم ونفوسِهم وعواطِفهم، وبما يُمَهِّـدُ الطريق إلى استجابتهم، فَيُثِيبُ عليه ثواباً عظيماً.

قـول الله تعالى: ﴿وَأْمُـرْ بِالْعُـرْفِ﴾: أي: ولْيَكُنْ هَمُّـكَ أَنْ تَـأْمُـر بـالْعُـرف. والْعُرفُ في هذه المـرحلة المكيّة هـو ما يُسَمِّيـه الْعَرَبُ عُـرْفاً، وهـو البذل والعـطاء والمساعدة.

وهـذا التوجيـه يَدُلُّ بعمـومه على أنَّ الـداعي إلى الله إذا اهْتمّ مع دعـوته إلى سبيل ربِّه بقضـايا ذوي الحـاجات من الفقـراء والمساكين والضعفـاء، فدافـع عنها، وأمَرَ باصطناع المعروف معهم، وحثَّ على العطف عليهم ومسـاعدتهم، استعـطفَ إلى دعوته قلوبَ الكثرةِ الكاثرةِ من جماهير الشعب ونفوسَها.

إذِ الكثـرةُ الكـاثـرةُ من النَّـاس في كُـلِّ عَصْـرٍ وكـلِّ أُمَّـةٍ هم ذوو الحـاجـات والضعفاء.

والدَّعْوَةُ إلى صُنْع المعروف معهم تَسْتَعطِفُهم إلى الدَّاعي، وتَجْعَلُهُم يَلْتَفُّـون حوله، وبذلك تَتَوَجَّهُ أَفْكَارُهُمْ بقوَّةٍ لقاعدةِ الإيمانِ الَّتِي يَدْعُـوهُمْ إليها، فيتقبَّلونهـا، ويَسْتَجِيبون لها.

ويَدُلُّ هذا التَّوْجِيهُ بمناسَبة وُروده عقب ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ على التوجيه الإلْمَـاحِيّ لقطع لسان من يُسِيءُ إلى الدَّاعي بأنْ يأْمُرَ إخوانه أوْ أصحابه أو أنصـاره بأن يصْنَعُـوا الْعُرْف معه، فإذَا رَأى هٰذا المسيء أنَّ الدَّاعي الَّذي أساء هو إلَيْـهِ قد أمـر أصحابـه بأن يُقَدِّمُوا له الْعُـرْف، بعد أنْ ثـارت فيهم الحميَّةُ وهَمُّـوا بأن ينكّلوا بـه، وينْتَصِروا لقـائدهم ورَائِـدِهم ودَاعِيهم إلى سَبيل ربِّهم، فـإنَّـه لاَ بُـدَّ أن يتَصـاغَـرَ في نفسـه، ويتراجَعَ عَنْ موقفه، ويُحَاول التكفير عن إساءته.

وتحكي لنا قِصَصُ شمائل الرسول ﷺ شيئاً كثيراً ممَّا يَتضَمَّن تطبيقَ هذا التوجيه الرَّباني.

إنَّ هذه الجملة [وأمُرْ بالْعُرْف] على اقتضابها تحكي قصة الأسلوب الأنجع للدَّاعي في دعوته، الذي يجذب به الجمهور الأوسع للإيمان برسالته، يُدْرِكُ هذا أهلُ التدبُّر، من أهل المعرفة بطبائع الناس وواقع الشعوب، وبأَسَاليب اسْتِعْطَافِ الجمهورِ الأَعظَم منهم.

قول الله تعالى: ﴿وأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِين﴾: أي: قَابلِ الذينِ يتمادَوْنَ في الْجَهالة عليك بعْدَ العفو عن إساءاتهم وأذاهم، وبعد أَمْرِكَ بِصُنْعِ الْعُرْفِ لَهُمْ، قابلْهُمْ بِمُجَرَّد الإعراض، وهو إعطاء عارضك لهم، والْعَارِضُ جَانِبُ الوجه والجسم.

ونفهم من هذا أنه لا يَنْبَغِي إدَارَةُ الظَّهْرِ لَهُمْ والتَّوَلِّي عنهم، بل ينبغي الاكتفاء بمجرد الإعراض إذا تطاولوا في السفاهة.

والإعراض هو منزلة بين المواجهة والإدبار.

والمراد بلفظ الْجَاهِلين هُنَا هم الذين يتسافهون على الفضلاء، فيخاطبونهم بالأقوال النابية القبيحة، أو بالشتائم وأنواع السباب، وهو ما عناه الشاعر العربي في قوله.

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدُ عَلَيْنَا   فنجهلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

أفلا تُلَخِّصُ هذه الآية الموجَزَةُ بِفَقَراتِها الثلاث، فصولاً ثلاثة من كتاب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحدِّدُ سياسة الداعي مع الذين يدعوهم إلى دين الله.

﴿خُذِ الْعَفْوَ. وأْمُرْ بالْعُرْف وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾:

إنَّ ظاهر النصّ قد يُوهِمُ أنَّها جُمَلٌ اقْتَصَرَتْ على التوجيه المباشر لثلاث وصايا، وأنَّها لا تحتوي صُوراً أدبيَّة.

لكن المتدبّر الحصيف يعلَمُ أنَّ هـذه الجمل المقتضبة، الحاملة لهـذه الـوصايا، إنَّما هي جُمَـلٌ ملتقطة من ثلاثة فصول من كتاب الدعوة. وهي تـدلُّ بلوازمها الفكرية على كلٍّ عناصر فصولها.

وهذا لوْنٌ من ألوان الأدب الرفيع الذي يُـدْرِكُه كبار البلغاء، ويعتمدون عليه في بياناتهم.

إنَّـك إذا سألت أديباً ذكيّاً: هـل حضرت محاضرة فلان؟وما رأْيُكَ فيها؟ فأجابك: أبْدَعَ، وأَجَادَ، وكَبَا. فَـإِنَّكَ تُـدْرِكُ أنَّه قسم محاضرته إلى ثلاثة أقسام. فقسمٌ أبدع فيه، إذ كان فيه مبتكراً، وقسم أجاد فيه بالعرض والتصنيف والصياغة، وقسم لم يوفَّق فيه، إذ كان له فيه كبوات.

وحين يكون باستطاعتك الرجوعُ إلى نصِّ المحاضرة ودراسته، فإنَّك تستطيع حينئذٍ أَنْ تُحدِّدَ بالتفصيل القسم الـذي ابتكر فيـه، والقسم الذي أجاد فيه، والقسمَ الذي كَبَا فيه.

وهـذا من أدَب اختيار الجملة الكُلِّـيَّة الجامعة المُحْكَمَة، ذات الـدلالات الواسعات التي تُشْرَح ببيان طويل.

وتُلاَحَظُ الدِّقةُ المتناهية في اختيار كلمات الجمل الثلاث في هذه الآية، فهي منتقاة بإحكام، لتدلَّ على معانيها بتحديد، مـع ما في الجملة الأولى ﴿خُـذِ الْعَفْوَ﴾ من فنِّيَّـة إسناد مـا هـو لِلْمُسَبَّب والنتيجة إلى السبب، على اعتبار أنَّ السَّبَبَ هـو الموصل إلى النتيجة.

لو قال حداثي بتسهيماته غير الـواعية: «حَصَـدْتُ مطري» لقـام قَرِينُـهُ الشارح لكـلامه يقـول: هذا من روائع الإبداع، إذِ استعمل عبارة الحصاد للمطر، لأنَّ مشاعره في العقل الباطن قد انتقلت بسرعة فائقة من الشتاء إلى الربيع فالصيف، حيث أَحْصَدَ الزَّرعُ، فجمع بين الشتاء والصيف في لمحة سريعة خاطفة، وأَدْرَكَ الرَّبْط بين المطر وآثاره في الحصيد، فقال: «حَصَدْتُ مَطَرِي».

لكن إذا قال الله عزَّ وجلّ للداعي: [خُذِ العَفو] لم يجدْ هذا القرين في هذا القول البديعِ شيئاً من الأدب الرفيع، وقال هذا مجرّد تشريع.

ثم عالج النصّ دوافع نفس الداعي للتشفِّي ممَّن أساء إليه، فأبان له أنه من نَزْغِ الشَّيْطان، أي: من تحريكه وتحريضه وإثارته إلى الغضب وفعل الشرّ انتقاماً للنَفس، وعلّمه الدواء الذي يَصْرِفُ الله به عنه هذا النزغ، وهوأن يستعيذ بالله منه، فإذا فعل ذلك سمع الله استعاذته، وهو يعلم ما حدث في نفسه وقلبه من انفعال يستخفُّه للانتقام، فصرفه عنه، وبذلك يعود إلى حالة الهدوء والسكينة والطمأنينة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

وانتقل النصّ من توجيه الداعي إلىٰ توجيه كلّ المؤمنين حول قضايا نَزْغِ الشيطان ووساوسه وتسويلاته، فأبان الوصْفَ الذي يتحلَّى به المتَّقون، بأسلوب الخبر، لا بأسلوب التكليف، وهذا من روائع أدب التوجيه التكليفي، فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

طَائِفٌ: في قراءة جمهور القرَّاء.

طَيْفٌ: في قراءة المكي والبصريين والكسائي.

وفي القراءتين أدب التكامل الفكري:

فالطَّيْفُ: التخيّلات والرؤىٰ النَّفْسيَّة.

والطَّائفُ: هو الذي يحمل الوساوس والدسائس والتسويلات ويقذف بها.

تَذَكَّرُوا: أي: تَذَكَّرُوا الله فاسْتَعَاذُوا به، وهم حزب الله.

وأمَّا إخوان الشَّياطين الَّذين يَسْتَجِيبُونَ لِوَسَاوِسِهِم، فقال الله بشأنهم في النصِّ:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿وإِخْـوَانُهُمْ﴾: أي: إخوانُ الشَّياطين، وجاء الضمير العائد إلى الشيطان بصيغة الجمع تنبيهاً على أنَّ «الشَّيطان» اسْمُ جِنْسٍ يعمُّ كلّ شياطين الإنس والجن.

وإخوانُ الشياطين، هم كُلُّ من يَتَّبعونهم، ويُصَاحِبُونَهُمْ، ويستجيبون لوساوسهم وتَسْوِيلاَتهم.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: من فعل «مَدَّهُ يَمُدُّهُ» إذا أعطاه مَدَداً، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، والْمَدُّ هنا يكون في المادّيات وفي المعنويات.

هذه قراءة جمهور القرَّاء، وقرأ المدنيان نافعٌ وأبو جعفر:

﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾: من فعل «أَمَدَّهُ يُمِدُّهُ» وهو بمعنى «مَدَّهُ».

﴿في الْغَيِّ﴾: الْغَيُّ: مَصْدَرُ غَوَىٰ يَغْوِي غَيّاً وَغَوَايَة، وهو ضدُّ الرَّشد، فيَشْمَلُ كلّ ضلال وانحرافٍ وبُعْدٍ عن الحقِّ والصِّراط السويِّ.

﴿ثُمَّ لاَ يُقْصِرُون﴾: أي: ثُمَّ لاَ يَكُفُّونَ ولاَ يُمْسِكُونَ، والمعنىٰ أنَّ الشياطين مهما غَوَىٰ تابِعُهُمْ، وأَوْغَلَ في ضلالاته، فإنَّهم لا يتركونه وشأنه يتَخَبَّطُ بنَفْسه في الضلال ولو طال الزمن، بل هم لا يُمْسِكُون ولاَ يَكُفُّونَ عن إمداده في الغَيِّ، لأنَّ دركات الْغَيِّ ذاتُ سَحِيقٍ بعيدٍ، وهم يُريدُونَ أن يُوصلُوه إلى أسفل سافلين، ولا يكْتَفُونَ بِما دُونَ ذلك من دَرَكَات، ولذلك جاء التعبير بحرف العطف «ثُمَّ».

• • •

الصُّورَةُ ٱلعَاشِرَةُ

تحـدَّث الله عـزَّ وجـلَّ عن الكـافـرين في سـورة (القمـر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول). وأبان فيهـا أنَّهم إنْ يَرَوْا آيـةً مِنْ آيات الله الكـونيَّة مهمـا كانت عـظيمة كانشقاق القمر يُعرضوا عنها، أي: يُعْطُونها جَانِبَهُم غير متـأثِّرينَ بمـا تَدُلُّ عليـه من صفات الرَّبِّ الخالق عزَّ وجلَّ، وصِدْقِ رَسُولِه المُبَلِّغ عنه.

ومهما يقالُ لهم: أَلَيْسَتْ هذه الآيَةُ من الآيات الدَّالَّات على صدق الرسـول، يقولوا:

﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾.

أي: سِحْرٌ قَوِيّ، ذُو مِرَّةٍ مُحْكَم، أو سِحْرٌ عَارِضٌ يَمُرُّ ويَمْضي ذاهباً.

وأبـان الله فيها أنَّهم كـذَّبُوا، وأنَّهُم اتَّبعُـوا أهواءهم، لكِنَّ ذلـك منهم لم يؤثِّرْ على شيْءٍ من أمر الله في كونـه، أو في دينه وتـأييد رَسُـوله، ولم يُـؤَثِّر في تغييـر أيِّ شيءٍ من مقـاديـر الله التكـوينيَّـة والجـزائيَّـة الجـاريـة والتي سـتـأتي في المستقبـل، فقضاء الله نافذ:

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣﴾.

وأبـان الله فيها أنَّهم قـد جـاءهم من الأنبـاء المتعلقـة بـالكـافـرين المكـذبين السابقين لهم، وما جـرى لهم من إهلاك عـامٍّ شامـل ما فيـه عظة واعتبـار، وما فيـه مزدجر، لمنَ شاء أن يعتبر ويتعظ ويزدجر، متحرِّراً من أهواء نفسـه، ونوازع كبـره، ورغبات الفجور عنده:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤﴾.

ودَلَّ فيها على أنَّ تقديم الآيات وأنباء الكافرين السابقين حكمةٌ إقناعيَّةٌ وتربويَّةٌ بالغةٌ حدَّ الكفاية لمن شاء أن يقنع ويتعظ، فمن لم تنفعه الآيات والأنباء الواقعيَّة، لم تغنه الإنذارات وأنواع الوعيد المستقبليَّة:

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

وإذْ بلغوا هذا المستوى فمن الحرص على وقت الداعي أن يتولَّىٰ عنهم، ويشتغل بدعوة غيرهم، فقال عزَّ وجلّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

وكان من المناسب بعد هذا عرضُ مشهد مقتطع من بعثهم من أجداثهم إلى يوم الحساب والجزاء.

وبعد ذلك ذكر الله عزَّ وجلّ قصة نوح مع قومه بإيجاز تعرَّض فيه لذكر عناوين فصول هذه القصة، فقال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦﴾.

فجاء في هذا النَّصِّ بعض تفصيل لقصة نوح مع قومه، وأعيد في هذا النصّ العنوان الذي سبق إنزاله في سورة (ق/ ٣٤ نزول) وهو قول الله عزَّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قوم نوح﴾ ليكون التفصيل الموجز الوارد هنا في سورة (القمر/ ٣٧ نزول) مبنيّاً عليه ومتفرِّعاً عنه، ومبنيًّا أيضاً على الإجمال الَّذي جاء قبلهما في سورة (النجم/ ٢٣ نزول) إذْ جاء فيها أنَّهم أُهلكوا، وأنَّهم كانوا أظلم وأطغى من عادٍ وثمودٍ.

وفي هذا البيان الموجز قال الله عزَّ وجلّ:

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا. وَقَالُوا: مَجْنُونٌ. وَازْدُجِرَ﴾:

أي: فكذَّبوا عبْدَنا نوحاً، وتكذيبُه يشمل التكذيبَ بأنَّه رسـول الله، والتكذيبَ بما أنبأهم به عن ربِّه.

● وطوى النَّص أمرين:

(أ) سوابق التكذيب المشتملة على دعوة نوح لهم، ومـا جاء في دعـوته من مجاهدات إقناعيَّة وبيانيَّة وجدالية، وإنذارية.

(ب) مـا كان منهم من اتِّهـامٍ له بعـد تكذيبهم إيّـاه، ولم يبـرز من ذلـك إلاَّ شتيمتهم له بأنَّه مجنون.

● وأجمل النَّصّ الأعمال التي قـاوموا بهـا دعوتـه بعبارة «وازْدُجـر» أي: منعه كبراء قومه، ونَهَوْهُ بغلظة وعنف وشدَّة عن أن يدعُوَ عامَّتَهم إلى الدِّينِ الذي جاء به.

الزجرَ: هو في اللُّغة المنع والنهي والانتهار، وازْدَجَرَهُ إذا أسرف واشْتـدَّ عليه في المنع والنَّهي والانتهار، أَخْذاً من زيادةِ المبنىٰ الدّال على زيادة المعنى. فازْدَجَرَ على وَزْنِ «افْتَعل» من فعل «زَجَر» وأصل: «ازدجر» «ازتجر» قلبت التاء دالاً لوقوعها بعـد الزاي، وهـو قياس مـطَّرد في صيغة «افتعـل» ممّا فـاء كلمة الفعـل فيـه «زاي» أو «دال» أو «ذال».

● وذكر النَّصّ لقطة موجزة سريعة ممّا كان من نـوحٍ عليه السـلام بعد صبـره الطويل في عمره المديد على قومه فقال تعالى:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فَدعا رَبَّهُ بعْد صبْـرٍ طويـلٍ علىٰ قومـه دعوةً تتضَمَّنُ معنَىٰ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾

أي: أني مغلوبٌ في دعـوتي لقومي، لم أظفـر منهم بمستجيبين للدّين الَّـذِي أمـرتني يا ربّـي بـأن أُبلِّغهم إيـاه، غيـر القلَّة القليلة جـدّاً (دلَّ على هـذا الاستثنـاء نصوص أخرى)، فانتصر لدينك ولرسولك المغلوب من قِبَلِ قَوْمه.

● وطوى النصُّ أحداثاً كثيرة لم يذكرها، منها أمر الله إياه بـأن يصنع الفلك،

ومنها سخرية ملأ قومه منه كلّما مرّوا عليه وهو يصنعها، إلى غير ذلك من أحداث طواها فلم يذكرها.

وانتقل إلى ذكر ما يدلُّ على استجابة الله لدعاء نوح، بعرض قصة إهلاك الكافرين من قومه بالطوفان، ونجاة نوح ومن كان معه وما كان معه، وما كان بعد النجاة، وعظة هذه الحادثة التي هي من أعظم حوادث الدهر في تاريخ البشريَّة على الأرض، كلُّ ذلك أوجزه النَّصّ في تسع فقرات، وهي:

١ ــ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

٢ ــ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

٣ ــ ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

٤ ــ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

٥ ــ ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

٦ ــ ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

٧ ــ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

٨ ــ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾.

٩ ــ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

فاشتملت هذه الفقرات على إبداعٍ اختزاليّ عجيب لكُلِّ قصة نوحٍ مع قومه، ولواحقها، وعظاتها.

● فقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ دلَّ علىٰ أنَّ الله عزَّ وجلّ قد استجاب لدُعاءِ نوحٍ، فانتصر له، فقضىٰ بإهلاك قومه بوسيلة الإغراق، فأنزل الأمطار غزيرة منصبَّة انصباباً شديداً، لكنَّ النَّصّ لم يُعبِّر بمثل هذا التعبير الساذج، بل عبَّر بعبارة دلَّ فيها على أنَّ السماء كانت كخزّانٍ عظيم مليءٍ بالماء، ولهذا الخزّان أبواب، وفتح الله هذه الأبواب، فانهمرت المياه على مقاديرها،

منصبَّةً انصباباً كأنَّها شلّالات موزعة توزيعاً منظماً على مواقعها من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ دلَّ على حركة تَفَجُّرٍ مائيٍّ من الأرْضِ مناظرٍ لحركة الشلّالات المنصبَّة من السماء، فالأرض المتحدَّث عنها على امتداد مساحاتها قد فجَّرَها الله عيوناً.

إنَّ التفجير يدلُّ على أشدِّ صُوَر تدفُّق الماء وتدافعه من باطن الأرض إلى ما فوقها.

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلِّ الأرض يُوحي أوَّلاً بأنَّ سطح الأرض قد تفجَّر ماءً، ولفظ «عيوناً» الذي جاء تمييزاً قد حدَّد الصورة التي تمَّ تفجير الأرض على وفقها، وهي صورة عيون مائيَّةٍ متفجِّرة موزَّعة على ساحة الأرض كعيون الغربال.

ولا أحبُّ هنا متابعة النحويين في قولهم: أي: وفجَّرْنا عيون الأرض. فقولُهُمْ هذا يضعف رَوْعة الصورة الأدبيَّة التي يرسمها قوله تعالى: ﴿وفجَّرْنَا الأرْضَ عُيُوناً﴾.

بل قد فجَّر الله الأرض كلَّها تفجيراً على صورة عيون مائية متدفقة متدافعة منْبَعِثَةٍ بقوَّة.

ولا مانع من فهم الجملة على وفق أسلوب التضمين الذي يكون تأويلها معه كما يلي: وفجَّرْنا الأرض فجعلناها عيوناً مائيَّةً متدفقة.

أو على أن «عيوناً» نائب مفعول مطلق مبيِّن لنوعه، والتقدير: وفَجَّرنا الأرض تفجيراً عيوناً، فنوع التفجير كان ببعث العيون المتدفقة، ونظيره قولك: نسجت الخيوط بُسُطاً، وخطتُ القماش سراويل، وقطعت اللَّحم إرْباً إرْباً.

هذا ما تدلُّ عليه الجملة بصياغتها الأدبيَّة الرائعة، دون ذلك التخريج الذي يقصِّر كثيراً عن دلالة النَّصِّ القرآني.

● فمـاذا حدث بعـد انهمار المـاء من السماء على مقـادير أبـواب خزّانـاتها، وتفجُّرِ الأرض على مدى مساحاتها عيوناً مائيَّة منبعثةً انبعاثاً قويّاً؟

وتأتي الفقرة الثـالثة من النصِّ فتجيب على هـذا التساؤل النفسيِّ، فيقـول الله عزَّ وجلّ:

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾.

أي: فدون تراخٍ التقىٰ الماءُ المنهمرُ، والماء المتفجِّرُ، على أمـرٍ من أمرِ الله قد قضي وقُدِر.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمر عن القضاء، لأنَّ الله عزَّ وجلّ لا يـأمر بشيءٍ إلاَّ إذا قضاه، فأمر التكوين تابع للقضاء، وقضاء الله مسبوق بتقديره لكل كبيـر وصغير ممّـا قضاه وفق حكمته وعلمه سبحانه، فاقتضت الحكمة البيانية الإعلام بأنَّهُ قَدْ قُدِرَ، مع ما في ختم الجملة القرآنيَّة بعبارة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ من روائع فيها إبداعٌ وإتقان بياني.

● فقد جاءت الفاصلة مناظرة لما قبلها (فازدُجر ـ فانتصر ـ منهمر ـ قَدْ قُدِر) وموازنة لها.

● وجاءت مؤكَّدة بلفظ (قد) التي تدل على تحقق الخبر الذي تضمَّنه البيان، في جملة (قُدِرَ) بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، أي: نؤكِّد لكم أنَّ الأمر الذي تمَّ بـانْهِمَارِ الماء وتفجُّره أمرٌ قُدِرَ بالتقدير الدقيق الشامل لكلِّ الدقائق والتفاصيـل، قبل الأمـر به وقبل قضائه وإمضائه. وظاهرٌ أنَّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً.

فما هو الأمر الذي قَدْ قُدِرَ والتقىٰ الماء على تحقيقه؟

إنَّ الذهن ليستدعيه بداهةً ولو لم يُذكر في النصِّ، فهو إهلاك قوم نوح الـذين كفروا به، على أنَّ مـا سبق من تنزيـل في النَّصَّيْنِ الأول (من سورة النجم) والثـاني (من سـورة ق) قد دلَّ على أنَّهم قـد أهلكوا، وأنَّهم قـد حقَّ عليهم وعيد الله الـذي أنذرهم به نوح عليه السلام.

ونلاحظ في قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

من إبداع التعبير وفَنِّيَّته ما يثير قمَّة العجب.

(أ) لم يأت التعبير عن إهلاك القوم بالأسلوب المباشر، بل بالرمز والإشارة واللَّمح.

(ب) اقتضى التعبير بانهمار الماء من السماء وتفجيره من الأرض استدعاء الرابط بين الماءَيْنِ، والتساؤل عن الغاية من ذلك، فجاء البيان على مقدار تشوُّف نفس الْمُتَلَقِّي وتساؤلها بقوله تعالى: ﴿فالتقىٰ الماء﴾.

وهنا يأتي تَسَاؤُل لاحق وهو: التقىٰ الماء على ماذا؟

وجاء الجواب: ﴿على أَمْرٍ قَدْ قُدِر﴾: أي: هما آيتان من آيات الله التقتا على تحقيق أمرٍ من أمر الله قضاه الله وقدَّره.

(ج) أمّا بيان هذا الأمر فلا ضرورة له لأنَّه يُدرَكُ بداهةً:

● ألم يَدْعُ نوحُ ربَّه: أَني مغلوب فانتصرْ، وقد انتصر الله له فعلىٰ من ينتصر؟ وماذا يحقِّق في هذا الانتصار إذا ملأ الأرض ماءً بما أنزل من السماء وما فجَّرَ من الأرْض؟

● لا شكَّ أنَّه إهلاك قوم نوح الذين كفروا وظلموا وطَغَوْا بالطوفان.

● ويتساءل مُتلَقِّي البيان: ماذا حصل لنوح عليه السلام؟

ويأتي الجواب في الفقرة الرابعة من النَّصِّ:

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

وكان هذا أوَّل بيان قُرآنيٍّ عن سفينة نوح، إذْ لم يأتِ بيانٌ عنها فيما سبق من نجوم التنزيل، وقد جاء التعبير عنها ببعض صفاتها:

● فهي أداة حاملة، أخذاً من: ﴿وحملناه على﴾.

● وهي ﴿ذات ألواح﴾: أي: فهي أداة خشبيَّة.

● وهي ﴿ذات دُسُر﴾. الدُّسُـر: جمع دِسـار، وهي المسامير التي تثبت بها الألواح بعضها إلى بعض. وهي أيضاً الخيوط والحبـال اللِّيفية الَّتي تُشَـدُّ بها ألـواح السُّفُن.

إذن: فهي مركبة من ألواح خشبيَّة قد شُدَّ بعضها إلى بعض بالدُّسُر.

ونلاحظ أنَّ التعبير عن هذه المركبة المائيَّة لم يأت بالاسم الخاص الذي يدلُّ عليها دلالة مباشرة، وإنَّما جاء بذكر بعض المواد الأساسيَّـة التي صنعت منها، وهي الألواح والدُّسر، وهذا من الإلماح الْفَنِّيِّ البديع، الذي يرضي ذكاء الأديب اللَّمَّـاحِ ويَهُزُّ مشاعِرَه.

لكن جاء بعد ذلك في نجوم التنـزيل ذكـرها بـالاسم الخاصِّ بهـا، وهو لفظ «الفلك» وذلك في (الأعراف ــ والشعراء ــ ويونس ــ وهود ــ والمؤمنون).

أليس من الإبـداع الجمالي الـرفيع أن لا تُـذْكـرَ أوَّل مـا تـذكـر إلَّا بـالإلمـاح لا سيما في هذا النَّص البالغ روعةَ الإعجاز مع الإيجاز؟

ثمَّ جاء إيضاحُ أنَّها مركبة مائية في قوله تعالى في الفقـرة الخامسـة: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

إنَّ ذات ألواحٍ ودُسُرٍ تجري وقد امتلأت الأرضُ ماءً، لا تجري على اليابسة، إنَّما تجري على الماء، فهي إذن «فُلْك».

وقَدْ دلَّت هذه الجملة على أنَّها تجري جرياً محاطاً بـالحفظ والعنايـة الربَّـانية ضمن بحرٍ عـظيم مُنْهمرٍ من السَّمـاء، وبحـر متفجِّـر من الأرض، ومـوج متـلاطم كالجبال.

إنَّ أحوج ما تحتاج إليه هذه المركبة أن تكون محاطة بالحفظ والعناية والحماية من الله عزَّ وجلّ، للنجاة والسلامة، حتّى بلوغِ البرِّ الساكن الآمن.

فأيُّ تعبير أدلُّ على هذا الأمر الذي هو مطلوب راكبيها من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بأعيننا﴾.

إنَّ العين فيما يعلم النّاس أرَقُّ وألطف حاسَّة تُحْفَظُ مِنْ أَقَلِّ الأقذاء وأصغرها، وهي أكمل حاسَّةٍ للمراقبة تحيط إحاطةً شاملةً بما تراقبه لحفظه، فإذا كانتِ مركبةُ نوح عليه السلام تجري بأعين الله، فذلك يدلُّ على أنَّها في غاية الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التامَّة لكلِّ حركة من حركاتها، على مدى اللَّحظات والآنات.

ويُضيف البيان ما يدلُّ على الغاية من هذا الاهتمام الشديد بحفظ سفينة نوح كُلَّ هذا الحفظ، وهي مكافأة نوح بثوابٍ معجَّل له في الحياة الدنيا، جزاءَ كونِه كُفِرَ من قِبَل قوْمه، فقال عزَّ وجلّ:

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

ونلاحظ أنَّه لم يأتِ في النَّص عبارة: جزاء نوح، بل جاء فيه وصفُ كونه كُفِرَ من قِبَلِ قومه، أي: جُحِد وكُذِّب.

وبالتأمل يظهر لنا غرض الدلالة على أنَّ هذا الجزاء قد لُوحظ فيه كونُه كُفِر، أي: أمّا صالحاته الأخرى فجزاؤها فوق ذلك يوم الجزاء الأكبر.

ويمكن أن نُضيف إلى هذا المعنى أمراً آخر: وهو إدخال من آمن معه ونجا معه في السفينة ضمن هذا الجزاء، لأنهم كانوا معه دُعَاةً وكُفِروا كما كُفِرَ.

فماذا حصل بعد أنْ جرت السفينة بعناية الله وحفظه؟

لقد طوى النَّصّ هنا النهاية، اكتفاءً بـإشارة العنـاية، واعتمـاداً على ما سيـأتي في نجـوم التنزيـل، واقتصر على ذكـر قضيَّةٍ هي من اللواحق البعيـدة لقصـة نـوح، وقومه، ومركبته المائية، فقال عزَّ وجلّ في الفقرة السابعة:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

أي: ولقد تركنا فلك نوح باقيةً زمناً طويلاً من بعده، لتكون علامة على حادثة الطوفان، وقصةِ نوح مع قومه، تُذكِّر بعقاب اللّهِ للمكذِّبين الظالمين الطغاة، وتكونُ عبرةً لمن يعتبر، وذكرى لمن يدَّكر، فقال تعالى في الفقرة الثامنة:

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾.

فدلَّ هذا التساؤل البديع على الغرض الديني من ترك سفينة نوحٍ آيةً شَهِدَتْها أجيالٌ متتابعـة من بعده، وهـو أن تكون لـلادِّكار، أي: للتـذكُّر الآخـذ بيد المتـذكر لـلاتِّعاظ، إذا كـان لديـه استعدادٌ لـلاتعاظ الإرادي، ورغبـةٌ فيـه. مـع مـا في هـذا التساؤل من حضٍّ على الادِّكار والاعتبار بما جرى لقوم نوح، وقد جـاء هذا الحض بأسلوب الاستفهام، ومع ما فيـه أيضاً من إشعـارٍ بقلَّة المدَّكـرين، لأنَّ السؤال يسأل عن واحدٍ مدَّكِرٍ، يَعْتَبِرُ بما جَرَىٰ للأولين من عقابٍ رَبّاني.

وبحَمْلِ هذا التعبير على معانيه العديدة التي يدلُّ عليها، تتكشَّف لنا وفـرةٌ من الدلالات أدّاها تساؤلٌ موجز ﴿فهل مِنْ مُدَّكِرٍ؟﴾

وأخيـراً جاء الختـام الواعظ المحـذِّرُ المنذر في الفقـرة التـاسعـة من النصِّ، فقال الله عزَّ وجلّ خطاباً لكلِّ من يَصْلُح للخطابِ من معاصري التنزيل وغيرهم:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فعلى أيَّـة حالٍ كـان عذابي لقـوم نوح؟ وعلى أيَّـة حَالٍ كـانت نُذُرِي لقومِ نوح؟

سؤال ينتزع الجواب انتزاعاً من كلِّ ذي فكر يفهم أهون الأمور من دون حاجة إلى رويَّةٍ وَتأمُّل، فيقول:

● لقد كان العذاب عذاباً شديداً مخيفاً، يثير الرهبَ والاتعاظ والادِّكار.

● ولقد كانت النُّذُر التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نُذُراً صادقةً، حقَّقَ الواقعُ الثابتُ في التاريخ، والَّذي ظلَّت آيته باقيةً حقباً تشهدها القرون، ما جاء فيها بلا نقصان.

فما أبدع هذا الإيجاز وما أحكمه، وما أغزره دلالات، وأوفاه بالمقصود من البيان.

● ● ●

الصُّورَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ

تحليل بلاغي لجملة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يتحدَّثُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هٰذِهِ الآية بنون العظمة حول ظاهرة إنزالِ ماءٍ من السماء بقَدَرٍ مُحدَّدٍ معلوم، فإسْكانِهِ في أَماكنِ حفظِ الماءِ في الأرض، فهي منْ آياتِ علمه وحكمته وقُدْرته وبديعِ إتقانه، وعظيم رحمته بعبادهِ في عالم الابتلاء.

وأبانَ تعالَىٰ أَنَّهُ قادر على أن يَذْهبَ بالماء كلِّه، ويحرم الناس منه، لكنَّه يُبْقيه لهم رحمةً بهم، حتَّىٰ يستكملوا ظروف امتحانهم.

وقد حلَّلَ السيرافي القالي الشقّار من علماء أواخر القرن السابع، والآلوسي، على ما ذكرَ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، مع زياداتٍ من ابن عاشور جملةَ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ تَحْلِيلاً بَلاَغِيّاً ضمن قواعد علم البلاغة، جاء في هذا التحليل بيانُ الوجوه البلاغية التي اشتملت عليها هذه الجملة، وهي:

● **أوّلاً:**

التوكيد للخبر فيها بالمؤكّدات التاليات:

١ ــ حرف «إنَّ» التي يؤتى بها للتأكيد.

٢ ــ اللام المزحلقة التي في الخبر.

٣ ــ ما في الجملة الاسمية من التأكيد على ما يقرِّره البلاغيُّون، وذلك بسبب

ما في إسناد القدرة إلى الله مرتين في الجملة: الأولى في الجملة الاسمية، والأخرى في الضمير المستتر في اسم الفاعل «قادِرُون» أي: قادرون «نحن».

● **ثانياً:**

المبالغة المستفادة من تنكير كلمة «ذهابٍ» أي: وإنّا على ذهابٍ عظيمٍ بِهِ لا يُبْقِي شيئاً منه لَقَادِرُون.

● **ثالثاً:**

ما في نُون العظمة وضمير الجمع في ﴿إِنَّا﴾ و ﴿لَقَادِرُونَ﴾ من إلقاء المهابة والدَّلالة على كمال القدرة.

● **رابعاً:**

التعبيرُ بالذَّهَابِ بالماءِ كُلِيّاً فيهِ دلالة على أَن قدرةَ اللَّهِ قادرةٌ على إلغاء وجودِهِ كُلِّيّاً، كما هي قادرةٌ عَلَى جعله غَوْراً في باطن الأرض، كما جاء في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● **خامساً:**

إخبارُ اللَّهِ عزَّ وجلّ في الجملة عن نفسه، على خلاف ما جاء في آية (الملك) التي جاء فيها:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴿٣٠﴾﴾.

ففي إخباره تعالى عن نفسه إشعارٌ بِشِدَّةِ العناية بالتنبيه على ما جاء في الجملة.

● **سادساً:**

تقديم ما في الجملة من الإيعاد بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ به﴾ على قوله: ﴿لقادرون﴾ لاستثارة خضوع الأنفس لله بدافع الخوف من عذابه.

● سابعاً:

عـدم تخصيص مخاطبٍ معيَّن في الجملة، ليشمـلَ مضمونُهـا كُلَّ من يصلحُ للخطاب.

● ثامناً:

تضمينُ الإيعـاد معنى إيعاد من يكفـر باللَّهِ بـإبعاده عن رحمـة الله تعالى، لأنَّ عبارة ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ تتضمَّنُ مصاحبة الفاعلِ للمفعول، فذهاب الله تعالى عنهم مع الماء هو بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم، أو بمعنى لعنهم وطردهم.

إلى غير ذلك ممّا يمكن استنباطه من بلاغيّاتِ هذه الجملة.

● ● ●

الصُّورَةُ ٱلثَّانِيَة عَشْرَة

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

وقرأ جمهور القرّاء: ﴿تُوقِدُون﴾.

﴿أنزل مِنَ السَّماءِ ماءً﴾:

أي: أنزلَ من جهة العُلُوِّ بالنِّسبة إلى الأرضِ مطراً، والمراد من السماء هُنَا السحاب.

﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بقَدَرِها﴾:

أَوْدِيَة: جَمْعُ وادٍ، وأَصْلُ الوادي الموضعُ الذي يسيل فيه الماء، ومنه سُمِّي ما بين الجبلين وادياً.

﴿بِقَدَرِها﴾: أي: بمقدار سعتها لاستيعابِ الماءِ، كلٌّ بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره.

وقد أُسْنِدَ فعل (سَالَ) إلى الأودية، والمراد مياهُ السيول التي تجمعَّتْ من الأمطار فيها، إشعاراً بانْغِمار الأودية بالمياه، وبِشدَّة تَدَفُّقِ السيول، حتَّىٰ ليُخيَّلُ للناظر أنَّ الوديان ــ أي: الأمكنة بما فيها ــ تسيلُ مع قُوَّةِ تَدَفُّقِ الماء.

﴿فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابياً﴾:

﴿فاحْتَمَل﴾: أي: فتكلَّفَ الحملَ، أخذاً من صيغة (افْتَعَل) وفي هـذا إشعارٌ بمغـالبة المـاء للزَّبد الـذي يختلط فيه، أو يقتلعـه من مجراه، فيحتمله ليقـذفه على شاطئيه.

﴿زَبَداً﴾: الزبد هو ما ينفيه الماء عن جوهره بالحركة، ويحتمله على سطحه من شوائب تنتفخ بالهواء، فيربو مظهرها، وتَبْرُقُ ألوانُها، ثم تَنْفَجِرُ وتنطفىء، وتَظْهَرُ حقيقتُها الحقيرة، حينما يقذف بها الماء على شاطئيه.

﴿رابياً﴾: أي: نامياً زائداً، وفي هذا تصويرٌ لما يحدُث في الزبـد من انتفاخ مظهره، واجتماع بعضه على بعض، بسبب حركة الأمـواج، لكنَّ الأمواج بعـد ذلك تقذف به إلى الشواطىء، لتنفيه عن الماء.

﴿وممّـا يُوقِـدُونَ عَلَيْهِ في النَّـارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَـةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَـدٌ مِثْلُهُ﴾: أي: ومن بعض ما يوقـد عليه المـوقدون من النـاس أو توقـدون عليه في النـار، وهي المعادن وأشباهها، زَبَدٌ آخَرُ مِثْلُ زَبَدِ الماء يخرج منهـا بعمليَّة الإيقـاد، التي تُجَمِّع المعـدن الخالص، وتُمَيِّزُ منه الخبثَ الذي يظهر زبداً.

﴿حِلْيَةٍ﴾: الحليةُ اسمٌ لكلِّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ من مصاغ الذهب والفضَّة ونحوهمـا، وجمعها حِلًى وحُلًى، بكسر الحاء وضمِّها مع فتح اللام.

﴿أو مَتَاعٍ﴾: المتاع كلُّ ما يُنتفع به على أيِّ وجـه من وجوه الانتفـاع، ويقال لما يُنْتَفع به في البيت من آنية وأوعية: متاعُ.

والنـاس في صناعـاتهم يوقـدون على المعادن وأشبـاهها، لصهـرها أو تلْيينهـا ابتغاء صُنْع ما يتزَيَّنُون به، أو يتمتَّعون به في حاجاتهم للسلم أو لِلْحَرب، وما يُصْهَـرُ منها يَرْبو عليه زبَدٌ خبيث شَبِيهٌ بزبد الماء.

﴿فأمّا الزَّبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً﴾:

﴿جُفَاءً﴾: قال أبو حيّان: مُضْمَحِلاًّ، أي: مُتَلاشِياً لا منفعة فيه ولا بقاء له.

قال ابن الأنباري: متفرِّقاً.

وقال الزمخشري: يجفَؤه السيلُ، أي: يرمي به، وجفأتِ القدرُ بزَبَدِها، وأجْفأ السيل.

وقال ابن سيده: وعندي أنَّه من النُّبُوِّ والتباعد.

ويلاحظ أنه جاء في الآية قراءتان: ﴿يُوقِدون﴾ في قراءة حفص والأخوين و﴿تُوقدون﴾ في قراءة باقي القرّاء، لتتكامل القراءتان في الأداء البياني، فإذا كان المخاطبون من أهل الصناعات المعدنيَّة ناسبتهم قراءة ﴿تُوقِدون﴾ وإذا لم يكونوا من أهلها ناسبتهم قراءة ﴿يُوقدون﴾.

● عرضت الآيات السابقات لهذه الآية من سورة (الرعد) أدلَّة قدرة الله في آفاق السماوات، وأدلَّة علمه المحيط بكلِّ شيء، وحكْمَتِه عزَّ وجلّ. وأشارتْ إلى مُخْتَلِف الآيات الْمُفَصَّلات في الكون، وأَتْبَعَتْ ذلك بيانَ أنَّ الغرض منه وصولُ النّاسِ إلى الْيَقِين بِعَدْلِ الله، وأَنَّهُم لا بُدَّ مُلاقُوهُ في الآخرة لإقامة عدله فيهم، ومَنْحِ فضله مستحقيهم، وذلك إبرازاً لركن الإيمان باليوم الآخر الذي هو محلُّ إنكار المشركين.

● ثمَّ عرضت الآيات أدلَّة قُدرَةِ الله وعلمه وحكمته في مجال الأرض.

● ثمَّ عرَضَتْ أقْوالَ المشركين مُنْكِري رُكْنِ الإيمان بالبعث والْيَوْمِ الآخرِ وناقَشَتْها.

● ثم عرضت أَدِلَّة قُدْرةِ الله وعلمه وحكمته في العُلوِّ القريب بين السماء والأرض.

● ثمَّ علَّم الله رسُولَهُ والمؤمنين أسلوباً من أساليب الجدال بالتي هي أحسن، يجادل على وفقه المشركين لإقناعهم، بالبراهين القواطع، والحجج الدوافع، أو إلزامهم بها.

● وبعد أن يَصِلَ الرسول ﷺ في مناظرتهم إلى نهاية مرحلة الهجوم الكلامي

على باطلهم تأتي هذه الآية التي نحاول تدبُّرَها، بوصفها صورةً من الصُّوَر الأدبيَّة الرفيعة المعجزة.

فَتُصَوِّرُ مرحلةً عنيفة من مراحل الصراع بين أنصار الحق وأنصار الباطل، في مجال المناظرات والمجادلات الفكرية العلمية، وفي مجال المعارك القتالية الحربية.

ضمن هذا الموقف تَأتي هذه الآية فَيَضْرِبُ الله فيها مثلين للصراع بين الحقِّ والباطل في المجتمع البشري، بوَصْفِهِما اتِّجاهَيْن فِكْرِيَّيْن متضادَّيْنِ، وللصِّراع بين المحِقّينَ والمبطلين، بِوَصْفِهِمْ حِزْبَيْن مُتَصَارِعَيْن متشاقَّين:

● فأنصار الحقّ ودعاته المؤمنون به العاملون بما يوجبه، هم حزبُ الله، وهم أصحابُ الصِّراط الربّاني المستقيم الواحد، الَّذي لا تعدُّدَ له، ولا تَفَرُّقَ فيه.

● وأنصار الباطل ودُعاتُه المؤمنون به المتَّبِعُونَ لوساوس الشياطين ولأهوائهم وشهواتهم من الحياة الدنيا هم أحزاب الشيطان، على تنوُّعِ اتِّجاهاتهم، وهم ذوو سُبلٍ مُتَفَرِّقةٍ شتَّىٰ.

ومن البديع في تقديم هٰذين المثلين أنَّ النَّص قد عَرَضَهُما بطريقةٍ مفاجئة، كأنه يبحث موضوعاً جديداً لا صلة له بما قَبْلَهُ، مع كمال اتصاله به.

فجاء المثلان بأسلوبهما البديع ليَدُلّا دلالةً غير مباشرة على أنَّ النتيجة المرتقبةَ للصِّراع الفكري إذا التزم أنْصَارُ الحقِّ بالمنهاج القويم الذي اشتمل عليه أو أشار إليه التعليم الرَّبّاني، لا بدَّ أن تكون انتصارَ فكرة الحق على أفكار الباطل.

وأشار الْمَثَلُ الثاني مِنْهُما بإلماحٍ بعيد المرمىٰ إلى أنَّ المبطلين مهما تحوَّلوا مِنْ حلَبَةِ الصراع الفكري التي لا بدَّ أن ينهزموا فيها إلى صراع ماديٍّ قِتَاليٍّ حربيٍّ، فلا بُدَّ أن تكون عاقبتهم الهزيمة أيضاً، إذا التزم أنصار الحقّ في كفاحهم وقتالهم الحربي بمنهجٍ سببيٍّ مثل المنهج الظافر الذي علَّمهم الله إيّاه في الصراع الفكري، وهذا المنهج السببي قد أبانته نصوص سابقة ولاحقة.

فللمُجَادلة الفكريَّة أسبابُها المنطقية التي تُتَوَّجُ بغلبة الحقّ علَى الباطل، ضِمْنَ سُنَن الله الثابتة.

وللقتال في الحرب أسْبَابُه الكونية الَّتي يتحقَّق عن طريقها بعون الله ونَصْره انتصارُ المحقّين على المبطلين.

هذه الأفكار لم تُقَدَّمْ في النصِّ بطريقةٍ مُبَاشرة ساذَجةٍ، وإنَّما قُدِّمتْ بصُورةٍ بديعة غيرِ مباشرة، وكان ذلك بأسلوب ضرب مثلَيْنِ من وَاقعٍ كَوْنيٍّ ماديٍّ، خاضِعٍ لبعض سنن الله في كونه، التي يُهيمِنُ عليها قانون شامل، سواءٌ أكانت في المادِّيّات كما في الممثَّل به، أو في الفكريّات والنفسيّات وسائر خصائص المجتمع البشري، ذي الإرادات الحرَّة كما في الممثَّل له.

ودلَّ النصُّ بعمومه على أنَّ سنن الله ذات شمول عام، فهي سُنَن تخضع لها المادِّيّات والمعنويّات، فيصحُّ ضَرْبُ المثل بالماديّات منها على المعنويّات، ولو كانت هذه المعنويّات حركةَ مخلوقات ذوات إراداتٍ حرَّة، لأنَّها لا تستطيع أن تغيِّر من طبائع المسخَّرات في الكون، وهي مسخَّراتٌ خاضعات لسنن ربّانية ثابتة، وإراداتُ الناس تتصرَّفُ فيها ضِمْنَ قَوانين تسخيرها، ولا يَسْتَطِيعُ الناس أن يتصرَّفُوا فيها بما تَهْوىٰ نُفُوسُهم أن تكون عليه، كما قال الله تعالى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . . ﴿٧١﴾﴾.

فمن اليقينيّات المجرّبة أنَّ النّاس يَتصرَّفُون في الْماء ضِمْنَ قوانين الماء، لا ضِمْنَ قوانين النار أو غيرِها مما له قوانين أُخْرَىٰ خاصَّةٌ به، ويتصرَّفون بالخشب ضمن قوانين الْخَشَبِ لا ضِمْنَ قوانين الحديد أو غيرِهِ ممّا لَهُ قَوَانِينُ أُخْرَىٰ خاصَّةٌ به، وهكذا.

● **فالمثل الأوَّل:**

مشهدٌ من المشاهد الكونيَّة يُلاحِظُه الذين يَعِيشُون في مُتَقَلَّبِ الأحوال الجويَّة في البوادي، بَيْنَ السُّهول والجبال والوديان.

إنَّه مشهد ماءٍ غزير ينزل من السماء بقضاء الله، فيعمُّ السهل والوعر والجبل، فيجتمعُ منحصراً بين الجبال، هابطاً من المرتفعات، حتى يملأ الأودية، ويسيل فيها سيلاً عنيفاً مخيفاً، يُخَيِّلُ للناظر إليه أنَّ الأودية تسيل أيضاً مع تدفُّق الماء.

ويَصْطَرِعُ الماء في مَجْرَاهُ مع أشواكٍ وأعوادٍ يَابِسَةٍ، وأكْـوَام قُمَامَـاتٍ كان لهـا بروزٌ وظهور في الوديان وعلى السُّطوح وفي المرتفعات، فيقتلعها ويحتملها، فيكُونُ لها بروزٌ وظهور آخَرُ على سُطُوح المياه لخفَّتِها وطَيْشِها، وتُـرْغي وتُزْبِـد، فَيَغْتَرّ بهـا الجاهلون، والأغِرّاء.

وتُسْفِر المعركة عن قَذْف الزَّبد الطافي وطَرْحِه إلى الشّاطِئَيْنِ مُحْتَقَـراً مهملاً، ينتظر البِلَىٰ.

وأمّـا الماءُ الـطهور الـذي ينفع النـاس فيمكثُ في مجاريـه ومساربـه وأمـاكن تجمُّعِه في الأرض، ثم إلى حيث يحصل بِه النَّفْعُ العظيم.

● **المثل الثاني:**

مشهدٌ آخرُ من المشاهد التي يُـلاحِظُهـا أربابُ الصِّنـاعاتِ داخـلَ مصانِعهم، مهما كانوا بعيدين عن أجواء الْبوادِي وتقلُّباتها الكونية.

إنه مشهد المعادنِ وأشباهِها التي يصهَرونها بوساطة النار التي يوقدونها عليها.

إنَّهم يلاحِظُون زَبَداً آخَرَ يَطْفُو على سُـطُوح مُنْصَهِراتهم بعـد أن يشتدَّ صِـراعُ الغليان بَيْنَ الجوهر النافع وبين الشوائب المفسدة.

أمّا الغِرُّ أو ناقص العقل فربَّما يَغْتَرُّ بألوان فُقَاعَاتِ الزبد، فيظنُّ أَنَّ الـزبد هـو الشيءُ الثمين، لِبُرُوزه، أو لِتَلامُعِ أَلْوَانِه.

لكنَّ الخبير العارف يُسْرِعُ إليه فَيَقْـذِفُ به خـارجاً لِيُنَقّي مَعْـدِنه من أخـلاطه، ويُصفِّيَ جَـوْهَرَهُ من خَبَثِـه، وأمّا مـا يمكثُ من دون السـطح فيحتفظ بـه، لأنَّـه هـو الجوهر النافِعُ الثمين.

* * *

ومن البديع في النصِّ الذي قدَّم القرآن المجيد هٰذين المثلين فيه ما بيانه في التحليل التالي:

الأول: أنَّ النصَّ جاء عارضاً لمَشْهدَيْن حِسِّيَّيْن كأنَّه يحكي قصّتهما لِلَفْتِ الأنظار إلى آيات الله فيهما، على مِثْلِ طريقة القرآن في ذكر الظواهر الكونية، للتَّنبيه على آيات الله فيها.

وبعد أن لفت الأنْظَار إليهما، واستحثَّ العقول للتفكُّر والتأمُّل فيهما، نبَّه على أنَّهما مثلان للصراع بين الحقِّ والباطل، ودُعَاة كُلٍّ منهما وأنصاره.

فكان من بديع العرض أنَّه جاء عرضاً مفاجئاً، دون سابِق تنبيه عليه، ودون إشعارٍ في صَدْرِ الكلام على أنَّ الغرض ضربُ مثل.

وكان ذلك أيضاً بطريقةٍ موجزةٍ بالغة الإيجاز، فالمثلان قد عُرضا في آيةٍ واحدةٍ من نحو أرْبعة أسطر.

الثاني: أنَّ الصفة المشتركة التي اشتملت عليها الفقرة النهائيَّة من المثلَيْن ومن الْمُمَثَّل له قد جاءت بعبارة واحدة دالَّة على الجميع، وهي:

﴿فأمّا الزَّبد فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾:

أي: فأمّا زَبَدُ الماء، وزَبَدُ المعادن المنصهرة وأشباهها، وزبَدُ الأفكار تُجاهَ المجادَلاتِ الفكريَّة الملتزمة بالضوابط العقلية المنطقيَّة. وزبَدُ الصراعات الماديَّة الحربيَّة بين أنصار الحقّ الملتزمين بسنن الله السَّبَبِيَّة وأَنْصَارِ الباطل، كلُّ ذلك الزَّبَدِ يذهب جُفاءً.

أي: يذهبُ مُضْمَحِلاً مُتَلاشِياً لا منفعة فيه ولا بقاء له.

الثالث: الدِّقَّة المتناهية في تشبيه الحقِّ الذي أنْزلَهُ الله على الرسول ﷺ، بماءِ الغَيْث الذي يَنْزِلُ من السماء.

فالماء الَّذي يَنْزِل من السماء ماءٌ مصفًّى مُقطَّر لا شوائِبَ فيه، ويحمل في

ذرّاته خَصَائِصَ مباركةً ممَّا اختلط به من الأنوار والأشعَّة الواردة إليه وهو في السحاب منْ مصادر النُّور في السماء.

وما أنْزَل الله على رسوله حقٌّ صَافٍ لا شَوائِبَ فيه، وهو مباركٌ ثرٌّ الْعَطاءِ الفكريِّ، وثَرُّ النَّفْع والخير.

ونلاحظ في آياتِ القرآن أنَّ الله قَدْ وصَفَ الْقُرْآن بأنَّه كِتَابٌ مُبَارَكٌ فقال تعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴿٢٩﴾﴾.

ووصف الماء الذي يُنَزِّلُهُ مِنَ السماء بأنَّه ماءٌ مبارك، فقال تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾.

الرابع: الدِّقةُ المتناهية في تشبيه الأفكار والمذاهب الباطلة المضادَّة لما جاء به الدِّين الرَّبّاني الحقّ، بالزَّبد الذي يتجمَّع ممَّا خفَّ وطاش ولاَ قِيمَةَ له، ممَّا يَعْلُو سَطْحَ الأَرْضِ، فيحتمله ماءُ السَّيْلِ، فيُرْغي ويُزْبِد، ويَظْهَرُ لَهُ فُقَاعات مُنْتَفِخات، وألوانٌ زاهيات يغترُّ بها الجاهِلُونَ والسُّفهاء، ويَنْخَدِعُ بها الصِّغار الأَغرَّاء الَّذين لَيْس لهم في الحياة تَجَارِبُ، ويَفْرَحُ بها أَصْحَابُ الشهوات الجامحة الجانحة، وأَهْلُ الأهواء.

ولكِنَّ هذا الزَّبَد لا يَلْبَثُ زماناً طَويلاً طافياً على السَّطح رابياً زاهِيَ الألوانِ في بَعْضِ فُقَاعَاته، إذْ إنَّ حركة الماء الدائبة الرصينة القويّة الفعّالة، وجوهَرَهُ الثقيلَ ذا القيمة النَّافعة كفيلان بكسْح الزَّبَد عن السطح، وقَذْفِه إلى الشواطىء، فإذَا ارْتَمَى فيها، وتقلَّبَتْ عليه ساعات اللَّيالي والأيَّام، وأَكَلَتْهُ المتعاقبات من أضواء الشمس ورطوبات الظلّ وحركات الرياح، وقاضمات الحشرات فما دونها، اضمحلَّ وتلاشىٰ، وصار جُفاءً، لا يكترث به إنسان ولا حيوان.

ويلاحظ أن هٰذه المعاني الدقيقة قد أَلْمَحَ إليها النصّ لتُدرَكَ بالذَّكاء، ولم يُصَرِّحْ بها بعبارةٍ نصِّيَّة، وهذا من رفيع الأدب.

الخامس: الدِّقَّةُ المتناهية في تشبيه دُعَاة الباطل من الناس وجنودهم الذين يقاتلون لإحقاق الباطل وإدْحَاض الحقّ، وتشبيهُ دعاة الحق وأنصاره الَّذين يجاهدون لنُصْرَة الحقِّ وإعلائه، وإبطال الباطل وإزْهاقه بكلِّ ما لديهم من قوَّةٍ حتَّى بذل أرْواحهم، بالشَّوائب المختلطة بالمعادن، مهما قَلَّتْ نسبة المعدن، وكثُرَتْ نسبة الشوائب المختلطة.

فأنصار الحقّ هم كالْمَعْدِن الصافي ذي الوزن الثقيل، والنَّفْع الكثير، وأنصارُ الباطل هم كالْخَبَثِ المختلط بالمعدن، وهم أَهْلُ خِفَّة وَطَيْشٍ، وليس بين أفرادهم تماسُكٌ حقيقيٌ قويّ، لأنَّهم يجتمعون على العاجلة، وهي أمورٌ لا ثباتَ لها ولا دوام، وروابطها روابطُ ضعيفة، أو وَهْمِيَّة، أو مَصْلَحِيَّةٌ سَرِيعةُ التَّقَطُّع.

والدِّقَّةُ المتناهِيَةُ في تَشْبِيه الصِّراع المسْتَعِر الذي يمَسُّ بناره كُلًّا من المعادنِ وما اختلط بها من شوائب كفيلٌ بأن يَمِيزَ الخبث، فيطفو، وينكشف، وقد يغرُّ في بداية أمره الجاهلين والسفهاء، ويَخْدَعُ الصغارَ الأغِرَّاء ببعض فقاعاته وألوانه.

لكنَّ الخبير الذي أَوْقَدَ النَّار ليَمِيزَ الْخَبِيثَ يُسْرِعُ فيطرحُه عن السُّطوح.كُلَّما ظَهَر منه قَدْرٌ ما، ويَبْقَىٰ جَوْهَرُ الْمَعْدَنِ النافع، في قاع بوتقته أو قِدْره.

على أنَّهُ متىٰ انْتَهَىٰ وَقْدُ النَّار، وبَرَد الأُوار، وعادَ المعدنُ إلى جُموده، ظَهَرَ المعدِنُ النافع راسِخاً ثابتاً مُتَمَاسِكاً في قَرارِه، وظَهَرَ الزَّبَدُ خفيفاً طائشاً كالحاً، غَيْرَ مُتَمَاسِكٍ وغير ذي نفع، فيقذِفُ بِه الخَبِيرُ الْمُعَدِّنُ إلىٰ حيْثُ يكونُ بَعْدَ ذلِكَ جُفاءً.

السادس: دَلَّ قولُ الله عزَّ وجلّ في أثناء الآية:

﴿كذلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحقَّ والباطل﴾.

على أنَّ المثلَيْنِ بينهما وبين الصراع البشريّ من أجل الانتصار للحقِّ من قِبَلِ فريق، والانتصار للباطل من قِبَلِ فريقٍ آخر، تَشابُهٌ، في العناصر، وفي

الحركة، وفي النتيجة، سواءٌ أكان الصِّراع صِراعاً فكريّاً علمياً، أو صراعاً حربيّاً قتاليّاً.

والتحليل للمَثَلَيْنَ يكشف:

● أنَّ المثلَ الأوّل، وهو مثل ماء الغيث الذي يَمْلأُ الوديان على مقاديرها، يُلائِمُ واقع الصراع الفكري بين أنصار الحقّ، وأنصار الباطل، القائم من جهة أنصار الحقّ على الجدال بالّتي هي أحسن، والقائم من جهة أنصار الباطل على المغالطات وزُخرُف القول، إذْ ليس في هذا الصراع لذْعُ نارِ الحرب ولا آلامها.

● وأنَّ المثل الثاني وهو مَثَلُ صَهْرِ المعادن وأشباهها يُلاَئِمُ واقع الصراع الحربيِّ الْقِتَالِيِّ بَيْنَ أنصارِ الحقّ وأنصار الباطل.

ففي المثل الثاني تَسْتَعِرُ النَّار الصاهرة للمعْدِن وللشوائب التي هي فيه معاً، كما تَسْتَعِرُ نارُ الحرب في الممثَّلِ له بين الفريقين، وتمسُّ بلذَعَاتِها وآلاَمِها الفريقين المتقاتلَيْنِ جميعاً.

ودلَّ قولُ الله عزَّ وجلّ في آخر الآية:

• ﴿كذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾.

بما فيه من تكميلٍ للقول الأول، بذكر الأمثال هنا، وبما تُشيرُ إليه الإعادة المقصودَةُ للدَّلالةِ على معنىً يُراد، دلَّ على أنَّ المثلَيْنِ مُوَزَّعَان على نوعَي الصراع، وهما: الصراع بالمجادلة بالَّتي هي أحسن، والصراعُ بالقتال والحرب.

إنَّ الحكْمَةَ الْبَيَانِيَّة اقْتَضَتْ استخدام أسلوب تكرير الفكرة المنبّهة على ضَرْبِ المثلين، للدّلالة على أنَّهما مثلانِ لموضوعين، لا لموضوعٍ واحد، والتحليلُ للمثلين قد دلّنا على نوعَيْهما.

ويلاحظ أنَّ العِبَارَتَيْن قَدْ حُذِفَ من كلٍّ منهما شيءٌ يدلُّ عليه بعضُ ما ذُكِر في الآخر، وشيءٌ يَدُلُّ عليه التحليل الفكريّ للمثلَيْن.

فالتقدير في العبارة الأولى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، نستطيع أن نقول فيه: مِثْلَ ذلك الذي جاء في حكاية المشهدين اللَّذين ضرب الله بهما مَثَلَيْنِ للصِّراع الفكريّ والصِّراع الحربيّ بين الناس، من أجل قضيتي الحقّ والباطل، يَضْرِبُ اللَّهُ الأمثال لتوضيح أمور أخرى، في قضايا أخرى.

وهذا التقدير نَفْسُه يصلُح لبيان المحذوفات في العبارة الأخرىٰ: ﴿كذلك يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثال﴾.

إذن: فقد دلَّتنا العبارة الأولى على أنَّ الموضوع هو صراع في طرفٍ منه الحقّ، وفي الطَّرف الآخر الباطل، لكنَّ الصراع لا يتمثل بينهما إلّا في واقعِ كائناتٍ ذوي إرادات حرَّة، يَنْصُرُ فريقٌ منهم الحقّ عملاً بالواجب، واتّباعاً لمرضاة الله، وينصُر فريقٌ منهم الباطل اتّباعاً للهوى وعبادةً للشهواتِ، ودلَّتْنَا العبارَةُ الثانية على أنَّ الصُّورَتَيْن المعروضتين مثلانِ يضرِبهما اللَّه للنَّاس، ودلَّتْنَا الإعادَة على أنَّ المثل الأول لموضوع، والمثلَ الثاني لموضوعٍ آخر.

ودلَّنا التحليل الفكريّ على أنَّ المثل الأوَّل، هو مَثَلٌ للصراع بأسلوب المجادلة الفكريّة الْعِلْميَّة، لأنَّ عناصرَهُ عَنَاصِرُ بارِدَةٌ لا حرارة فيها ولا نار، وعلى أنَّ المثل الثاني، هو مَثَلٌ للصراع القتاليّ الحربي، لأنَّ عناصره مشتملة على حرارة ونارٍ لَاذِعَةٍ لِلْمَعْدِن ولما فيه من شوائب، فهو كالحرب بين أنصار الحق وأنصار الباطل، إذْ تمسّ بآلامها كلا الفريقين المتقاتلَيْن.

وهذا من روائع الأداء البياني.

السابع: جاء تنكير لفظ «ماء» ولفظ «أودية» دليلاً على أنَّ الماء النازل من السماء كثير غزير، يملأ أودية عظيمة وكثيرة، ويفيض عنها.

وإذْ كان الماء مثالاً لما يُنَزِّلُ الله على رسوله من علم وهداية وخير عظيم عميم للناس، وكانَتِ الأودية مِثالاً لحاجة البشرية بفراغها ومجاريها إلى ما ينزل من

السماء من هداية ربّانيّة، فقد دلَّ ذلك على أن هذا الدينَ يَنْزِل بعلم وهداية يَغْمُران كلَّ حاجاتِ البشرية إلى عناصر الهداية الرَّبّانية.

ودلَّ أيضاً على أنَّ الذين يتلقّون العلم الربّاني من الناس هم كأمثال الوديان، فمنها الكبير ومنها الصغير، وكلٌّ من كبيرها وصغيرها يمتلىء فَيَسِيلُ على مقداره، وكذلك حاملو علم الدين وناقلوه ومبينوه للناس، باستطاعة كلٍّ منهم أن يمتلىء على مقداره من علوم هذا الدين الغزيرة.

ولولا أن ما يُنَزِّلُ الله من السَّماء كثير وفير، ما امتلأت وديان مُتَلَقِّي المعارف الرَّبّانيّة منها كلٌّ على قَدْره.

أفلا تدلّ على هذه المعاني عبارة: ﴿**أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾.

أي: امتلأت على مقاديرها وجَرَتْ.

ونرى في هذه العبارة من أدب التعبير أنَّ السيلان قد أُسْنِدَ إلى الوديان، مع أنَّ الماء وما يَحْمِلُ هو الذي يَسِيلُ ويجري فيها.

قال البلاغيون: هو من قبيل المجاز العقلي.

وأقول: هو تصوير صادق من قبيل ما يُسَمَّى لدى الأدباء بالصدق الفنّي، لحالة نفس المشاهد، حين يشاهد سيلاً متدفقاً في الوادي، إذْ لا يرى من المشهد بسبب الدهشة التي تَعْتَرِيهِ، إلاّ أنَّ الوادِيَ كلَّهُ شيءٌ عجيبٌ يَسِيل.

إنَّ صورة المشهد قد امتدَّتْ في شعوره امتداداً جعله يرى أنَّ الماء ليس هو وحده الذي يَسِيل، بل تسيل معه الجبال وأشجار الوادي الثابتة فيه، وكلُّ شيءٍ هو عليه.

وهذا من روائع التصوير، مع الصِّدْقِ الفنّي.

الثامن: جاء وصف الزَّبَدِ في النَّصّ بأنَّه رابٍ، فقال الله عزَّ وجلّ: ﴿**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً**﴾:

أي: زبداً نامِياً. من فعل «رَبا الشيءُ يربو» إذا نما ينمو.

وهـذا وصـفٌ في منتهىٰ الدقّة:

● فالزَّبد شيْءٌ يحملُه السيْلُ فيطفو على سطحه.

● ويكون في أوَّل الأمر قليلاً، ثمَّ ينمو شيئاً فشيئاً كلَّما تدفّق السيل، وجَلَبَ من المواقع والأطراف ما خفّ وطَفَا من متكسِّراتٍ وقُمَامات.

وكذلك حال الأفكار الباطلة الَّتِي لا وَزْنَ لها ولا قيمـة لها، وحـالُ أنصارِهـا، في التجمّع والتناصر والوقوف عقبة في طريق انتشار الحق، وظُهورِ دُعَاته وأنصاره.

وقد يكون لهذه الأفكار الباطلة ولأنصارها بروز وظهورٌ أحياناً، وفُقَاعَاتٌ تُغْرِي الأغرّاء والجاهلين وضعفاء العقول.

ويصطنع دعاةُ الْأَفْكار والمبادىء الباطلة للإقناع بها الزّخَارِفَ القوليّـة، الْمُلَوَّنَة بالأصباغ البرّاقة، والمغالطات الجدليّة التي تـوهم أنَّها حقٌ وَذاتُ وَزْنٍ، كمـا تَظْهـر على الزَّبد فُقاعات منتفخة، وألوانٌ برّاقة مغرية أحياناً.

ونظيرُ الزَّبَدِ الَّذي يَرْبُو على مَاءِ السُّيـول، يُلاَحَظُ زَبَـدٌ آخر، فيمـا يُوقِـدُ عليه المعدِّنُون في النـار ابتغاءَ حِلْيَـةٍ أومَتَاعٍ، فهـو زَبَد قَـدْ يربـو ويطفـو ويتلوَّن بألـوانٍ خوادع.

ألاَ نـرَىٰ في كلِّ عصْـرٍ وكلّ أمّـة أنّ أنْصَـار البـاطـل يَتَجَمَّعُـون بقُـوىً خبيثـة، وَيَتَنَاصَرُونَ فيما بينهم لمقاتلة أنصار الحق ودُعاته، والوقوفِ في طريق انْتِشَـارِ الحقّ وظهوره وانتصاره.

وحين يلتزم أنصار الحقّ ودُعاتُه بمنهج الله وسُنَنِه السببيّة، فقد قضت سنّـة الله بظهور الحق الذي يدعون إليه، وانتصارهم على المبطلين، وعندئذٍ يُرَدِّدون قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

التاسع: من السموّ الأدبي في هذا النصّ أنَّه قد حُذِفَ منه ما يمكن استنباطُهُ عن طريق التقابل والتناظر، أو عَنْ طَريق اللَّوازِم الفكرية، أو اقتضاءات النصّ، أو نحو ذلك، مع إبراز المهمّ من صورة المثَلَيْن.

فممّا هو ظاهر لكلّ متدبّر أنّ عناصر كثيرة من صورة المثلين قد حُذِفَتْ لأنَّ الذّهن يستدعيها بنَفْسِه دون ذكرها في النصّ، أو أنَّه لا حاجةَ داعيةً إلى ذكرها.

واكتفىٰ النصّ بذكْرِ لَقَطاتٍ تَدُلّ على الْفَجَوَاتِ الْمَتْرُوكة.

اللقطة الأولىٰ: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾: أي: أنزل الله، وحذف الفاعل للعلم به. هذه اللقطة من صورة المثل تدلُّ على أنَّ الماء قد بدأ ينزل واستمر ينزل وينزل، ويجرف ما يجرف معه، ممّا يَقَع في منازِله حتَّى تجمّع وفيراً غزيراً.

اللقطة الثانية: ﴿**فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾، وينطلق الذهنُ في تصوّر المشهد العجيب الذي امتلأت به الوديان الكثيرة الصغيرة والكبيرة، كلٌّ منها بقدر استيعابه، وهي تسيل وتتدفّق بصورةٍ مذهلة، تُشْعِرُ الناظرَ بأنَّ الوديان بما فيها تسيل مع الماء الغزير.

اللقطة الثالثة: ﴿**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً**﴾، وينطلق الذهن في تصوّر أحوالِ مختلِف المشاهدين لهذا السيل، الذين قد يوجد منهم من يغترُّ بما يطفو على الماء من زَبَد.

وينتقل النصّ من هذه الصورة التي يَشْهَدُها أهل البوادي والجبال والوديان، إلى صورة أخرى نائية جدّاً، يَشْهَدُها أهْلُ المصانع المعدِّنون، الذين يُوقِدُون في بَوْتقاتهم وقُدُورِهم على المعادن لِيَصْهَروها من أجْل صناعة الحليّ الذهبيّة والفضيّة وغيرها، ومن أجل صناعة الأمتعة المعدنيّة الَّتي يستخدمها الناس في مَنَازِلِهم كالصِّحاف والجفَانِ والْقُدُور.

ما أبعد ما بَيْنَ الْمَشْهَدَيْن في المكان وفي الحال، إلَّا أنَّهما متشابهان في الصفات ذوات الدَّلالة المقصودة من المثلَيْن.

وفي هذا الجمع بين الشَّبِيهَيْنِ في الظاهرة الَّتِي يَقْصِدُ البيان التشبيه بها مع التباعد في المكان والْحَال، واخْتِلَاف المشاهدين لكلّ منهما، إبداعٌ بيانيٌّ يَجْذِبُ انْتِباه الأفكار حقّاً، ويَرُوقُ جدّاً لدى النفوس والأفكار التي تتذوّق رفيعَ الأدب.

ودلَّ المثلان على أنَّ الحقّ وجماعةَ المحقّين لَهُمَا المكث والبقاء في الأرض، أمّا الْبَاطِلُ وأحْزَابُه فإلى اضْمِحْلالٍ وزوال، ومهما ظهر في كل عصر باطل جديد وكان له بعض ظهور في الأرض، فإنَّ الحق هو الذي يكون له البقاء والدوام، وكلّ جديد من الباطل سيضمحلّ، ويكون جُفَاءً، ويظلُّ الحقُّ هو الشيء الخالد.

كم اضمحلَّت أفكارٌ ومذاهبُ وضعيَّة باطلة، ناصرها مبطلون كثيرون، وكانت لها دولٌ تفرضها على الناس، وبقيت فكرة الإيمان باللَّه وتوحيده هي الفكرة السائدة على كلِّ ذي عقل حصيف، وقلْب نظيف، منذ بدء البشرية حتَّى يوم الناس هذا، أمَّا استمرار الْمِلَلِ الباطلة فمن آثار تقاعس دعاة الحق والمؤمنين به عن القيام بواجباتهم تُجاهه، من أنواع الجهاد في سبيل الله لتبليغه، والدفاع عن دولته.

كم تساقطت أفكار المذاهب التي تعتمد على الكذب والنفاق والخيانة، والمصالح الفردية الأنانية، وتَسَاقَطَ معها أنصارها، وبقيت فضائل الأخلاق هي الأفكار السائدة على كلّ ذي عقل حصيف، وقلب نظيف، منذ بدء البشرية.

وكلَّما التزم المؤمنون بالحقّ المناصرون له بمنهج الله في اتّخاذ الأسباب التي ناط الله بها مسبَّباتِها، صادقين مخلصين صابرين، كان النصر والظهورُ في الأرض من حظوظهم، ومن ثمرات جهادهم لهم وللأمّة الرّبّانيّة من بعدهم.

وحين لا يظفرون بالنَّصْرِ فعليهم أن يُرَاجعوا أنفسهم لِيُصْلِحُوا ما أفْسَدُوا، ولِيُتَمِّمُوا ما لم يتخذوا من أسباب واجبة، ولِيَصْدُقُوا مع الله، وليخلصوا لِلَّه جهادهم، فإذا فعلوا ذلك كان الله معهم، وأمدَّهم بعونه ونصره، وآتاهم ما يحبُّون.

العاشر: جاء في هذه الآية استعمال الفعل الماضي في «أنزل ــ سالت ــ فاحتمل» لإعطاء المشهد صورة حكاية أمرٍ وقع وظهرت نتيجته.

وذلك ليكون المثَل المتحقّق فيما مضى أدلّ على تحقيق نتيجة الظفر والبقاء للحقّ، والهزيمة والتلاشي للباطل.

ولـلإشارة إلى أنَّ ما نزل من الدين قد وصل إلى مرحلةٍ حقّق فيها انتصاراً فكريّاً علميّاً، واستقراراً في نفوس المؤمنين.

أمّا الصِّراعُ القتالي بين المؤمنين والكافرين فقد كان عند تنزيل النصّ في طَوْرِه المتحرّك المتجدّد، لذلك جاء في عبارة المثل المشير إليه استعمالُ الفعل الْمُضَارِع الدالّ على التجدّد والحركة، فقال عزَّ وجلّ فيه:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أو متاع زبدٌ مِثْلُه﴾.

الحادي عشر: دلّ المثل الأول على أنَّ ظهور فكرة الحقّ في الناس وبقاءَها هما بمثابة الماء للحياة، ودلَّ المثل الثاني على أن ظهور أنصار الحقّ ودُعَاتِه وانتصارَهم على دعاة الباطل ومناصريه هما للناس بمثابة الْحُلِيّ والأمتعة التي يحتاجون إليها في حياتهم نساءً ورجالاً.

الثاني عشر: المثلان هما من نوع الأمثال المركّبة، الَّتي تُسَمَّىٰ عند البلاغيين بالتشبيه التمثيلي، الذي يُنْتَزَعُ وجه الشَّبَهِ فيه من متعدّد.

الثالث عشر: يلاحظ في المثَلَيْن التصوير الكلاميّ المتحرّك، حتّى كأنه شريط مشهدي يقدّم الصورةَ والصَّوْتَ والأفكار والمشاعر النفسيّة، وهويبثّ لقطاتٍ فنّيةً مُهِمَّة، ويَتْرُكُ للذّهن استكمال ما بينها، وما قبلها، وما بعْدَها.

الرابع عشر: في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، دقائق غاية في الإحكام البياني:

الأولى: استعمال لفظ ﴿مِنْ﴾ الدالّة على التبعيض، أي: ومن بعض ما يوقدون عليه في النار.

وذلك لأنَّ الناس يوقدون على أشياء ويضعونها في النار، وهي لا زبد لها، كالحجارة الكلسيّة، وكالطين ليصير فخّاراً، ومنه الخزفيّات ونحوها. فالنّاس يَصْنَعُون منها أواني وأمتعة، ولا يظهر لها زبدٌ يُطرح عنها.

الثانية: استعمال الفعل المضارع ﴿يوقِدُونَ﴾ للدلالة على حركة الإمداد بالوقود تِبَاعاً مدّةً من الزمن، بُغية المحافظة على الحرارة اللازمة، ولا تكفي عمليّة إيقادٍ لمرّة واحدة.

الثالثة: استعمالُ ضميرِ الغائب في ﴿يُوقدون﴾ في قراءة دون أن يكون في سابق الكلام من يعود عليهم الضمير، ليفهم منه أنَّ المراد كلُّ أصحاب المهن الصناعيّة المعدِنيّة من أيّ قوم.

والحديث بالضمير الغائب الجمعيّ يحمل معنى التعميم الذي يشملُ كُلَّ من يصلُح له. أمّا قراءة الجمهور [توقدون] فالضمير في الفعل ضمير المخاطبين وهم مجموع الناس ويتناول من يفعل ذلك أو يعلمه.

الرابعة: استعمالُ عبارة ﴿عليه﴾ للدلالة على أنَّ النّار تُسَلِّط كلَّ حرارتها على المعدن، حتى ينصهر، أو يلين، ويطاوع لما يُراد أن يُصْنَع منه.

الخامسة: عِبَارَةُ ﴿في النار﴾ تَدُلُّ على الصُّورَة الْمُثْلَىٰ الَّتي تُصْهَر بها المعادن، وهِيَ أَنْ تكونَ في داخل النّار، بمعنى أن تكون النار محيطة بها إحاطة تامّة من كلّ جوانبها.

أليست هذه الدقة المتناهية في كلّ كلمة من الروائع البيانية، مع الصدق الواقعي، والإيجازِ إلى أقصى ما تَبْقَىٰ معه الدلالات المرادة؟!.

فهل يشكُّ أيُّ مُتَدَبِّر لهذه الآية العظيمة على إيجازها البالغ الغاية في أنّها من أبلغ الكَلِمِ، وأجْمَلِ الأدب وأرفعه، وأنّ المستوى الأدبيّ فيها مستوى معجزٌ للبشر جميعاً؟!

مع ما في الآية من التزام بالحق، وبالصّدق الواقعي حين يكون البيان يَسْتَدْعِيه، وبالصدق الفنّي حين يكون البيان يستدعيه!!

الصُّورَةُ ٱلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

إنَّ قولَ الله عزَّ وجلّ في هذا النَّصّ: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وهو آيةٌ واحدة قصيرة، يُقَدِّم لوحةً تصويريَّةً كلاميَّةً عَجِيبةَ الأَدَاء.

فالعقابُ الْمُهْلِكُ الْمُدَمِّر الَّذِي أنزلـه الله عزَّ وجـلّ على المجرمين المكـذبين لرُسُلِ الله من قوم «عاد» وقَوْمِ «ثمود» و«فرعون وجنـوده»، الذين طَغَـوْا في البلاد، قد كان عقاباً بوسائل مختلفة، إذْ أُهْلِكَتْ عـادٌ بريـح صرصـرٍ عاتيـة، وأهلكتْ ثمود بالصَّيْحة والصَّاعِقَةِ والرجفة، وأُهْلِك فرعونُ وجنوده بالغَرَق.

لكنَّ صُورةً واحدةً قَدْ كانت مُشْتَركةً بَيْنَ المشَاهِدِ التي نزل على وفقها العقاب بهؤُلاءِ الْمُعَذَّبين، فَهِيَ تَنْتَظِمُها جميعـاً، مع الاختـلاف الكثير في غيـرها، ألا وهِيَ صُورَة الحركة المتتابعة السَّريعة المهلكة بُعُنْفٍ، فالهلكىٰ بِهَا تتابعَتْ عليهم ضَرَباتُ التَّعْذيب المتلاحقات التي تَمَّ بها إهلاكُهم.

إنَّ الـريح العـاتيةَ البـاردةَ الشديـدة الصرصـر «أي: ذات الصوت المخيـف» التي أهلك الله بها قوم عاد، قد نزلت عليهم متتابعة سريعة كحركة صبِّ شيءٍ سائل باردٍ أو ساخنٍ من أعلىٰ.

والصيحةُ، والصَّاعقة، والرجفة، اللَّواتي أهلك اللَّهُ بها قوم «ثمود» قد نَزَلَتْ عليهم أيضاً مُتَتَابِعَةً سَرِيعَةً، كحركةِ الصبِّ لِشَيْءٍ سائل.

والْتِئَامُ جِبالِ ماءِ البحر الذي فَرَقَه الله لموسى وبني إسرائيل، لِيُنْجِيَهُم من عَدُوِّهم، قد انْصَبَّ به الماء الْمُغْرِقُ الْمُهْلِكُ على فرعون وجنوده انصباباً متتابعاً سريعاً، كضرَبَاتٍ متلاحقات سريعاتٍ ليس بين السابقة وتاليتها فاصل زمني.

فهلك هؤلاء الأَقْوام هَلاكاً تتابعَتْ عَلَيْهِمْ فيه ضَرَباتُ التعذيب التي تَمَّ بها إهلاكُهُمْ.

هٰذِه الصورة الناظمة لهذه الأحداث المختلفة في وسائل التدمير والإِهلاك، والمختلفة في أمور كثيرة، هي ما جاء التعبير عنها بقول الله عزَّ وجلّ:

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

فلنتدبَّرْ هذه الآية بتفصيلٍ، من خلال كلِّ كلمة فيها.

﴿فَصَبَّ﴾:

الفاء دلَّتْ على أنَّ هذا العقاب الذي أَنْزَلَهُ الله الرَّبّ عزَّ وجلّ عليْهم قد كان مُرَتَّباً ترتيب جزاءٍ عِقابي على ما كان منهم من طُغْيانٍ في البلاد، وإكثارٍ مِنَ الفساد.

وفعل «صَبَّ» دلَّ على أنَّ وسائل التعذيب نزلت عليهم بصورة متتابعةٍ سَريعةٍ، ليس بين أجزائها فَواصل زَمَنِيَّة، فكأنَّها ضربةٌ واحدةٌ ذَاتُ امتدادٍ زمنيٍّ، فناسب هذه الفكرة أنْ يأتي السوط بالإِفراد، لا بالجمع، إذْ لم يكن التعبير: فصبَّ عليهم ربُّكَ سياط عذاب، بل كان: فصبَّ عليهم ربُّكَ سَوْطَ عذاب.

والصبُّ في اللغة: إراقة شيءٍ سائل من عُلو إلى سُفْل، فهو ينزل متواتراً متتابعاً، ولا يُسْتَطاعُ التخلُّص منه أو صَدُّه.

﴿عليهم﴾:

لقد ذُكِرَ الأقوام الثلاثة قبل هذا بالتفصيل، وكُنِّيَ عنهم هنا بضمير جمع

يَشْمَلُهُم جميعاً، لاشتراكهم هنا في صورة عقابٍ ذَاتِ نظامٍ حركيٍّ وغَائِيٍّ واحد.

ولمّا كانَ الصَبُّ نـازِلاً من فوقِهِم، لتعْـذِيبِهِمْ وإهلاكهم، كـان من الدِّقَّـةِ في التعبير أن يُسْتَعْمَل حرفُ الجرّ «على».

ولـو كان الصبُّ لِخَيْـرِهمْ ونَفْعِهِم لكان المنـاسب استعمال حـرف جرٍّ آخـر، مثل: «اللام» أو «إلى».

﴿ربُّكَ﴾:

جـاء الخطاب بـالكاف التي هي لخـطاب المفـرد ليـلامِسَ النصَّ بـالتـوجيـه الخاصّ كُلَّ فَرْدٍ يصلُحُ لهذا الخطاب، ويَفْهَم منه كلُّ فردٍ مَا يُلائم حاله.

● فالكافر يفهم منه معنىٰ التهديد، بأنَّ ربَّه قد يُنْزِل علَيْـه عقابـاً مشابهـاً لهذا العقاب إذا لم يَتُبْ إليه.

● والـرسول يَفْهَمُ منـه أنَّ ربَّه نـاصِرُه على الـطُّغَـاةِ المفسـدين فَتَهُـون عليـه مقالاتهم فيه ومكايدهم له.

● والمؤمنـون يفهمون منـه أنَّ الله ناصِـرٌ نبيَّهُ والمؤمنين معـه، وخاذِلٌ الـطُّغاة المفسدين في البلاد، ومُهْلِكُهم، فيَثْبُتُون على الحق، وينتظرون نصر الله والفتح.

وفي هـذا الخطاب «ربُّـكَ» تعبيرٌ عن حَقيقَـةِ أنَّ رَبَّك أيُّهـا المخاطب في أيِّ عَصْرٍ كُنْتَ، ورَبَّ الأُمَمِ السَّابِقة واحد أزليٌّ أبديٌّ.

وفي اختيار اسم «الربّ» هنا من أسماء الله الكثيـرة دلالَةٌ على معـاني الربوبيَّة الشـاملة للْخَلْقِ وفق نظام التـربية المتـدرجة بـالأشياء المخلوقـة حتى بلوغها مـرتبـة كمـالها، والشـاملة للترْبيـة بالبيـان الإقناعي الفكـري، وبالعبـر والعظات المشهـودة أو المحكيَّة.

وظاهر أنَّ في ذِكْـرِ إهلاك الأوَّلين الـذين طغوا وأفسـدوا في الأرض، توجيهـاً للاعتبار والاتِّعاظ بهم وبما جَرَى لهم، وهذا من ألوان التربية.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾:

السَّـوطُ: في اللغة، خلْطُ الشيء بَعْضِـهِ ببعض، ومنـه سُمِّيَ الْمِسْـوَاط وهـو خشبة يُحرَّكُ بها ما في الْقِدْر، ليختلط بعضه ببعض.

والسَّـوْطُ: مَا يُضْـرَبُ به أو يُجْلَدُ بـه، وسُمِّيَ سَوْطـاً لأنَّه إذا سِيطَ بـه إنسـان أو دابَّة خُلِطَ الدَّمُ باللَّحم، فهو مُشْتَقٌّ من ذلك لأنَّه بالضرب بـه يسوطُ «أيْ: يَخْلِطُ» الدَّم باللَّحم.

ويُجْمَعُ السَّوط عَلى سِيَاط، وعَلَىٰ أَسْواط، وهذا هو الأصل.

ونـلاحظ أنَّ الله عزَّ وجـلّ شَبَّهَ ضَـرَباتِ الـرياح الصـرصر العـاتية، وضَـرَبَات الصيحة والرجفـة والصاعقـة، وضربـاتِ أمواج الميـاه المنصبة بعـد أن كانت قـائمة كالجبال، بضَرَبَاتِ السياط المتواليات، بتتابع متلاحق دون فاصل زمنيٍّ بينها، حتَّىٰ كأنَّها سَوْطٌ واحد ذو أجزاء متتابعـةٍ، كلَّما أدّىٰ جُـزْءٌ منه وظيفتـه اختفىٰ وجاء الجـزء الـذي وراءه، وهذا معنًى دقيقٌ جـدّاً، وهو الَّـذِي دعا ـ فيمـا أرى ـ إلى استعمال لفظ «سوط» بالمفرد، دون لفظ «سياط» بالجمع كما سبق بيانه.

وفي استعمال كلمة السَّوط هنا دقَّـة في التعبير بـالغة الغـاية في الـدلالة على ما وقع فعلاً، في غاية الإيجاز.

والعذاب في اللُّغة: النَّكالُ والعقوبـة، فدلَّ صبُّ السَّـوطِ على ما يجلبُـهُ لمَنْ يَنْزِلُ عليهم وما يُحْـدِثُهُ من آلام وإهـلاكٍ على صورةِ الخلط، ودلَّت إضـافة السَّـوْطِ إلى العذاب على أنَّ صَبَّ السَّوط قد كان عِقاباً للقـوم على ما كـان منهم من طُغْيَانٍ وفساد كثير في البلاد.

فدلَّت هذه الآية الوجيزة علَىٰ كلِّ هذه المعاني، في صورةٍ بيانيـة فيها إبـداع عجيب ودقَّة في التعبير، واختيارٌ غايةٌ في الإتقان لكلِّ كلمة فيه.

أفليس هذا من أسمى الأدَبِ وأرفعه؟!

• • •

الصُّورَةُ الرَّابِعَة عَشْرَة

يصف الله عزَّ وجلّ الذين كفروا برسول الله محمد ﷺ من قومه في عصر التنزيل، وأصرّوا على كفرهم، وعاندوا واستكبروا، رغم كلِّ الْبَيِّانَاتِ والحجج والبراهين، ورغم كلِّ الترغيبات والإنذارات التي نزلت في القرآن قبل إنزال سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) فيقول الله عزَّ وجلّ فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ
﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ
بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

تمهيد:

كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في العرب نبيّاً رسولاً، وعنه تلقَّى العرب الملَّة الحنيفيَّة، وهي دينه ودين أبيه إبراهيم.

وبقي العربُ يتوارثون الدِّينَ الحقّ الذي لا شرك فيه، حتَّى دخلت إليهم الوثنيَّةُ والتحريفات، وأشركوا بالله، وبقوا مدَّةً لا يأتيهم مُنْذِرٌ خاصٌّ بهم، يُنْذِرهم بعقاب الله، إذا لم يتركوا الوثنيَّة، ويرجعوا إلى الحنيفيَّة والإيمان الصحيح، إلى أنْ بعثَ الله رسوله محمَّداً ﷺ، بالدِّين الخاتم، مُعلِّماً، ومُبَشِّراً، ونذيراً.

وتُعْرَفُ الْمُدَّةُ من انحرافهم حتى بعثة الرسول محمد بأَنَّها مُدَّةُ فَتْرَةِ الرُّسُل، وتُطْلَقُ علَىٰ أهلها عبارة: «أهل الفترة».

لكنَّهم خِلَالَ مُدَّةِ وَثَنِيَّتِهِم وقبْل بعثة خاتم المرسلين، كانت تبلُغُهم تعاليمُ الديانة اليهوديَّة، وتعاليمُ الديانة النصرانية، وكان بعضُها غير مُحرَّفٍ، فلا يُؤمنون، باستثناء من دخل منهم في اليهوديَّة. كيهود اليمن، ومن دخل منهم في النصرانيَّة، كنصارىٰ نجران.

وقد آخذهم الله في القرآن على بقائهم في الوثنيَّة، وكُفْرِهِمْ بما أُوتي موسَى عليه السلام، فقال الله عزَّ وجلّ بشأنهم في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقرأ جمهورُ القراء ﴿سَاحِرَانِ﴾ وهم غير الكوفيين: (عاصمٍ وحمزةَ والكسائي وخلفٍ).

وقد جاء في القرآن بيان أنَّ العرب الذين بُعث فيهم مُحمَّدٌ ﷺ، لم يأتهم نذيرٌ من قبله، يخوِّفهم من عقاب الله على شركهم، ولا جاء لآبائهم الذين يَحْفَظُون أنسابهم.

لذلك لم تكن حكمةُ الله تقضي بإهلاكهم، وإنزال العقاب عليهم في الدنيا، قبل إرسال رسولٍ إليهم، وتبليغهم دين ربِّهم الحقّ، وإنْذارِهم، إذْ لو عاقبهم فأهلكهم، لَكَانَ لهم حجَّةٌ أن يقولوا كما أَبان الله عزَّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وليس معنى هذا أنَّه لم يأتِهِمْ علْمٌ ما عن رسولٍ من رُسُل الله، وأنَّه ما كان عليهم أن يتَّبعوا الحقَّ الذي بلَغَهم، فقد كانت الديانة الْيَهُوديَّة، والدِّيانة النصرانية

معروفتَيْن لديهم، وقد آثروا الوثنيَّةَ وتقاليدَها، لِذَا فمن بلَغَهُ علْمٌ بالحقِّ الرَّبّاني فهُو مسؤولٌ عند الله عنه، وعلى هذا يُحْمَل ما صَحَّ في السُّنَّةِ عن الرَّسُولِ من بَيَانِ أَنَّ بَعْضَ أهل الجاهليَّة قبل بعثة محمَّد ﷺ في النار فالمسؤوليَّةُ عن الدين منوطة ببلوغ العلم بالحقِّ الربّاني على العباد.

مفـردات النـصّ:

﴿غَـافِلُون﴾: الغافـل الساهي الـذي لا يمرُّ الأمـر المغفـولُ عنـه بخـاطـره، ولا تستدعيه ذاكرته.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لقـد ثبت عليهم قـوْلُ اللَّهِ المحدِّد لأنـظمة النفس الإنسـانية، المتضمِّن أنَّ من جعـل نَفْسَهُ بـاختياره أَسِيرَ جوامحـه من الأهـواء والشهـوات والكِبْـرِ وحُبِّ الْعُلُوِّ في الأرض والـرغبـة في الفجـور، فإنَّـه لا يؤمن بالجـزاء والدينـونةِ واليـوم الآخر، لئـلا يُلْجِم جَـوامِحَـهُ عن مطالبها ورغائبها، مهما توالت عليه الآيات البينات، والحجج والبراهين الواضحات، وتَتَابَعَتْ عليه الإنذارات.

إنَّ قول الله، وكلمةَ الله سَوَاء، ويكون قول الله في الأقسام التالية:

الأول: في مـوضـوعٍ خبـري: أزليّ، أو غَيْـر أزليٍّ من مـاضٍ أو حـاضـرٍ أو مستقبـل، وهـو قـولٌ دالٌّ على معلومٍ من معلومـات اللَّهِ، وهـو حقٌّ لَا محـالـة، ولا يكون الواقع إلَّا مطابقاً لقول الله بشأنه.

الثاني: قولٌ في أمْرٍ تكويني، وهو نافـذ التكوين لا محـالة، ويتحقَّق المكـوَّن بأمر التكوين: «كُنْ»، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يٰس/٣٦):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

الثـالث: قَـوْلٌ في حُكْمٍ تَشْـريعي، ويَتَحقَّقُ نـفـاذُهُ ويَتِـمُّ بَـتُّ الْحُـكْمِ التَّشْرِيعي، ووَضْعِ حُدُودِه، على مُراد الله فيه، ويُوَجَّـه البيانُ بِـهِ للعباد أمـراً أو نهياً

أو إباحةً أو غيرَ ذلك من الأحكام، ولا يتوقف القول التشريعي على طاعة العباد له، إذ تتحقّق الإرادة بإصدار الحكم.

الرابع: قولٌ في موضوعٍ جَزَائِيٍّ، ويَتَحقَّقُ نفاذُهُ بإصدار الوعد والوعيد فيه، وتحديدِ قواعده وشروطِه ومجالاتِه، على ما تمّت به إرادةُ الله.

وعند تنفيذ الْجَزاءِ بالْوَعْدِ أو الوعيد يأتي أَمْرُ التكْوِين، فيتمُّ التَّنفيذ بكلمة: «كن».

﴿أغلالاً﴾: الغُلُّ طوقٌ من حديدٍ، أو من جِلْدٍ، يُجْعَلُ في عُنُق الأسير، أو المجرم، أو في أيديهما، وجمعه «أغلال». وقد تجمع يَدُ المغلولِ إلى عُنُقِه، وتُطوَّقَانِ بالْغُلِّ.

﴿الأذقان﴾: جمع الذَّقَنَ، وهو مجتمع اللَّحْيَيْن من أسفلهما.

﴿مُقْمَحُونَ﴾: أي: رَافِعُو رُؤُسِهم إلى الأعلى. يقالُ: أَقْمَحَ الْغُلُّ الأَسِيرَ إذا ضَاقَ الْغُلُّ على عُنُقه فاضطرَّه إلى رفع رأسه.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: أي: فجعلنا عليهم غِشاءً ساتراً يمنَعُ عَنْهُمُ الرُّؤْيـة. الْغِشاءُ: الغِطاء، والمرادُ الغطاء على بصائرهم، وهو غطاءٌ غير حسِّي.

التحليل الأدبي:

هذا النصُّ يقدِّم صورةً تمثيليَّة رائعة لحالة رفع رؤوسِ المستكبرين وأنوفِهم الذين رفضوا الاستجابة لدعوة الرسول محمَّد ﷺ من قومه، بعد أن دعاهم طويلاً إلى ما جاء في القرآن الحكيم في بياناته وحججه، وهذه الصورة هي في الحقيقة صورةٌ تمثيليَّةٌ لحالة نفوسهم من وراء رؤوسهم.

هذه الصورة التمثيليَّة تَدُلُّ على أنَّ رفضهم وعِنَادَهُمْ ظاهرةٌ ماديَّةٌ لأسبابٍ نفسيَّةٍ بعيدةٍ كُلَّ البعد عن منطق الحقّ. ورفْضُهُم ناتجٌ عن اختيارهمُ الحرّ، لا أثر للجبْرِ فيه.

وكُلُّنا نعلَمُ أنَّ ظاهرة الرفض قد يُعَبَّر عنها برفع الرأس إلى الأعلى نفياً واستكباراً.

فما هو سبَبُ رفْعِهِم رُؤُوسَهُم استكباراً عن آياتِ اللَّهِ في القرآنِ الحكيم؟

إنَّ النصَّ يُشِيرُ بِاللَّمْحِ الْبَارِعِ الذي يتصيَّدُهُ المتفكِّر الأديب إلى أنَّهم في حقيقة حالهم أَسْرَىٰ.

ويتساءل السائل: كيف هم أسرى، وهم أصحاب الْقُوَّةِ والسلطانِ في مكة، والْمُسلمونَ مستضعفون بين أيديهم؟

ويُجِيبُ التحليل اللَّمَّاح بأنَّهم أسرى شهواتهم وأهوائهم وكبرهم وحُبِّهم الاستعلاءَ في الأرض بغير الحق، وأَسْرَىٰ رغباتِهم الجامحات في الفجور، وأسرىٰ الشياطين التي تسوقهم أو تقودهم إلى شقائهم.

ولمّا كان المعتادُ في الأسرى أن تُوضَع الأغلالُ في أعناقهم.

وأن يساقوا منها بالسَّلاَسِل، ولمّا كان من الأغلال ما هو ضَيِّقٌ عريض، وبسبب ضِيقِه وعرضه يُضْطَرُّ المغلولُ بواحِدٍ منها أن يرفع ذَقَنَهُ إلى الأعلى، فمنظَرُهُ كَمَنْظَرِ الرافض لدعوة الرَّسولِ الرافع رأْسَهُ إلى الأعلى نفياً واستكباراً.

ولمَّا كانت أَغْلالُ هؤلاءِ الكفرةِ أغْلالاً غَيْرَ مرئية، وهي ضاغطةٌ على رقابهم من داخل نفوسهم، كان ما يُرىٰ من ظاهرهم تعبيراً مادِّيّاً عن هذه الأغلالِ النفسيَّة الَّتِي جَنَوْا بِتَقَلُّدِها، وأَجْرَمُوا، وظَلَمُوا بالانْجرار بسلاسلها إلى ما هم به مُغْتَرُّونَ مُنْخَدعون، وبسببها كفروا وعَانَدُوا، وأَصَرُّوا على الباطل رغم تبلُّغِهم الحقّ، ورغم عرض أَدِلَّتِهِ البرهانيَّةِ عليهم.

والمعنى: لا تَحْسَبَنَّ ما تَراهُ مِنْ رَفْعِ رُؤُسهم إلى الأعلى، مُعَبِّراً عن عُلُوِّ نفوسهم، بل هُمْ أَسْرَىٰ الجوامحِ من أهوائهم وشهواتهم وكبرهم وحبِّهم الاستعلاءَ في الأَرْضِ بغير الحق ورغباتهم في الفجور وأسرى الشياطين، وبما أنَّهم أسرى

فالأغلال الضَّيِّقة العريضة تَشُدُّ على أعناقهم، فيرفعون بسبب ذلك رؤوسَهُمْ وأنوفَهم، فيظهرون للرّائين مُسْتَكْبِرِينَ.

وهل يُوجَدُ أَذَلُّ وأَحْقَرُ من الأَسِير، الذي يُجَرُّ ويُسَاقُ بسلسلَةٍ مَعْقُودَةٍ بغُلٍّ يُطَوِّقُ عُنُقَهُ؟!

هكذا صوَّر الله عزَّ وجلّ حالةَ هؤلاء المعاندين المستكبرين الذين رفَضُوا دعوة الرَّسول محمد ﷺ من قومه، ويُلْحَقُ بهم أشباههُمْ في كُلِّ عصر، فقال الله عزَّ وجلّ في النصِّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

وهذا الجعل هو تطبيقٌ لنظامٍ من أنظمةِ اللَّهِ للنفوس، يستلزم أنَّ من اتَّبَع جَوَامِحَ أهوائه وشهواته وكبره ونحو ذلك، كان متبعاً للشياطين، وكان أسيراً مُطَوَّقاً بِغُلٍّ ضَيِّقٍ فِي عُنُقِهِ، عَرِيضٍ واصِلٍ إلى ذَقَنِهِ، يدفع برأسه إلى الأعلى، فَهُوَ «مُقْمَحٌ».

ويقدِّم هذا النَّصّ أيضاً صورةً تمثيليَّةً رائعةً أُخْرىٰ لحالة عَدَمِ رؤيتهم للحقّ.

وهيَ تَعْرِضُ ما قام دُون بصائرهم من سُدُودٍ تَمْنَعُ عَنْها رؤْيَةَ الحقِّ، بِسَبَبِ كَوْنهم سُجَنَاءَ شهواتِهم وأهوائِهم وكبرِهم، وحبِّهم الاستعلاءَ في الأرض بغير الحقِّ، ورغباتِهِمْ في الفجور، ومن ورائها الشياطين.

وجاء في الصورة تسميَتُها سُدُوداً، ولم يُسَمِّهَا الله سُتُوراً أو نَحْوَ ذلك، لأنَّها تَصَلَّبَتْ وتحَجَّرَتْ فَكَانتْ حَرِيَّةً بأن تُسَمَّىٰ سُدوداً، فهي بالنسبة إليهم وإلى من هم مثلهم كالسُّدود.

وقد جعل الله عزَّ وجلّ في أنظمة النفوسِ، أنَّ من جعل نفسه باختياره سَجين أهوائه وشهواتِه إلى آخِرِ هٰذِه الجوامحِ الأواسِرِ، أنْ تُقَامَ بَيْنَ بَصِيرَتِهِ وبَيْنَ الْحَقِّ سُدُودٌ مِن بيْنِ يَدَيْهِ ومن خَلْفِه، وهٰذِه السُّدُودُ تَحْجُبُ عن بَصِيرَتِهِ رؤيَةَ الْحَقِّ.

وهَلْ يُوجَدُ أَذَلُّ وأَحْقَرُ وأَخْزَىٰ من أَسِيرٍ سَجِينٍ لا يَرَى أنوار الهداية؟!

هكذا صَوَّرَ اللَّهُ عزَّ وجلّ حالةَ هؤلاء الْمُعَانِدينَ المستكبرينَ، الذين دخلوا باختيارهم في سِجْنِ الجوامح الأواسِرِ المتعلِّقةِ بمتاع الحيَاة الدُّنيا وزينتها.

إنَّهم بدخولهم هذا السجن المظلمَ الخادعَ باللَّذاتِ قد جعلوا أنفسهم ضِمْنَ سُدُودٍ تَحْجُبُ عنهم رؤية الحقِّ ضِمْنَ أنظمة الله في كونه للنفوس، فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ.

وفي عرض هذه الصُّورَةِ يقول الله عزَّ وجلّ في النَّصِّ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

ولا بُدَّ أن يكُونَ من نتيجة هذه الأغلالِ في أعناقهم من داخل نفوسهم، وهذه السدود القائمة دون بصائرهم، أن يكونوا في حالةٍ لَا تَنْفَعُهُمْ مَعَهَا الإنذارات مهما كانت ذَواتَ تأثيرٍ، ولا بُدَّ أن يَسْتَوِيَ بالنسبة إليهم الإِنْذَارُ وعدَمُه، فقال الله عزَّ وجلّ في النصِّ:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

بعد هذا أبانَ الله عزَّ وجلّ لرسوله أوصاف مَنْ يَنْتَفِعُ بالإنذار الرَّبانيِّ إذا سَمِعَه، فقالَ تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

أي: إنَّما تُنْذِرُ إنْذَاراً مؤثِّراً نافعاً، واصلاً إلى مواقعه المحرِّكةِ في النفس، مَنِ اتَّبعَ الذِّكْرَ الذي هو آياتُ اللَّهِ في القرآن الحكيم، ولم يَتَّبع الأهواء والشهواتِ وسائرَ جوامحِ النفس، ولم يَتَّبِعْ وسَاوسَ شياطينِ الإِنْسِ والجنِّ، وقد خَشِيَ الرحْمَنَ بالغيب، أي: خاف عقابه خوف معظم مُجِلٍّ لَهُ، ورَجَا مغفرته وعفوه وثوابه، طمعاً برحمته، لأنَّه آمن به بعقله ووجدانه، مع أنَّه غيْبٌ عن حواسِّه، وهذا هو أوَّلُ مطلوب الدِّين.

• • •

الصُّورَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ

في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول) يقول الله عزَّ وجلّ مبيِّناً للذين آمنوا طائفة من المحرَّمات الاجتماعية الَّتي هي عوامل خطيرة في تمزيق المجتمع الإسلامي، وإلقاء العداوة والبغضاء بين أفراده وطوائفه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾.

يُدهشُنا في هذا النصّ ما اشتمل عليه من أدب التكامل البيانيّ البديع.

وهو أسلوب تَخْصِيص كُلِّ صِنْفٍ من الأشباه والنظائر في النّص بتعبيرٍ يفيد معنىً خاصّاً، وهذا التعبير يَصْلُح اطِّراده في سائر الأشباه والنظائر. وبتوزيع التعبيرات ذوات الدلالات المختلفات على الأشباه والنظائر يحصل الاستغناء عن إعادة كلِّ شبيهٍ ونظيرٍ عدَّة مرّات بِعَدَدِ هذه التعبيرات، للإتيان به في كلِّ مرَّة مقترناً بواحدٍ منها حتى استغراقها.

وفي هذا الاستغناء إيجازٌ رائع واقتصادٌ في التَّعبير من جهة، ومسرَّةٌ لنباهة الأذكياء من جهةٍ أخرى، وتَخلُّصٌ من الرَّكاكة التي يَجْلُبُها التَّكْرِير في طريقة التعبير من جهة ثالثة.

وتتكامل التعبيراتُ فيما بينها في أداء المقصود من دلالاتها المختلفات،

وَيُفْهَمُ ذلك من قرينة جمع الأشباه والنظائر في نصٍّ واحد، وقد يَدُلُّ عليه بدءٌ وختام.

ويُلاحظُ مع هذا التوزيع التكاملي في العبارات ذوات الدلالات المختلفات براعةُ انتقاء التعبير الأكثر ملاءَمَةً للنوع الذي يقرن به من الأشباه والنظائر، مع صلاحيَّة التعبيرات الأخريات له.

ففي هذا النَّص من سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول) ينهىٰ الله عزَّ وجلّ الذين آمنوا عن ستٍّ قبائح اجتماعيَّة، من شأنها بذر بزور الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، لما فيها من إيذاءٍ أو إضرارٍ من بعضٍ منهم لبعض آخر.

وهي قبائح تشتمل على ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وكلُّ ظلم بين الناس من شأنه أن يُورِثَ العداوة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة.

والقبائح الست التي نهى النصُّ عنها هي:

«السخرية ــ اللَّمز ــ التنابز بالألقاب ــ اتِّهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوىٰ على الاتهام ــ التجسُّس على المؤمنين ــ الغيبة للمؤمنين المتقين».

ويلاحَظُ في هذا النَّصّ أَنَّ كُلَّ نَهْيٍ فيه قد انْفَرد بِلَوْنٍ تعبيريٍّ ذي دلالَةٍ خاصَّة قَابلة لأنْ تكونَ شاملةً لسائر القبائح التي جاء في النصِّ النَّهْيُ عنهنّ.

١ ــ ففي السخرية، قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . . وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ . . . ﴾.

٢ ــ وفي اللَّمز، قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣ ــ وفي النبز بالألقاب القبيحة، قال تعالى:

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

٤ ــ وفي الظَّنِّ المنهيِّ عَنْهُ، قال تعالىٰ:

﴿ ٱجۡتَنِبُواْ ﴾.

٥ ــ وفي التجسُّس على المؤمنين، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾.

٦ ــ وفي الغيبة، قال تعالى:

﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ﴾.

ويُلاَحظُ أنَّه يَصِحُّ في كُلٍّ منها استعمال التعبيرات الأخرى لتُؤَدِّيَ فيه دلالاتها.

● فيقال مثلاً في السخرية، مع ما جاء من تعبير حولها في النصِّ: «لَا تَسْخروا منْ أنفسكم ــ لا تتساخروا ــ اجتنبوا السخرية ــ لَا تسخروا ــ لا يسخَرْ بعضكم من بعض».

● ويقال في اللَّمز، مع ما جاء من تعبير حوله في النص: «لا يَلْمِزْ قَوْم قوماً ولا نساءٌ نساءً ــ لا تتلامزوا ــ اجتنبوا اللَّمز ــ لَا تَلْمِزُوا ــ لا يلمزْ بعضكم بعضاً».

● ويقال في النَّبْز بالألقاب القبيحة، مع ما جاء من تعبير حوله في النص: «لا يَنْبِز بالألقاب قومٌ قوماً ولا نِسَاءٌ نساءً ــ لا تَنْبِزوا بالألقاب أَنْفُسَكُمْ ــ اجْتَنِبُوا النَّبْزَ بِالأَلْقَابِ ــ لا يَنْبِزْ بعْضُكُمْ بعضاً».

وهكذا يقال في سائرها، فأغنى أسلوب التعبير الذي جاء في واحدة منها عن إعادته في سائرها، فتكاملت التعبيرات في أَدَاء المقصود من دلَالَاتها المختلفات.

ومع ذلك فقد اختير لكلِّ قبيحة من هذه القبائح الستِّ، صيغة التعبير التي تدلُّ على أبْرَزِ صورة من صُوَرها، وهذا من الدِّقة الفكريَّة والبراعة والإِبْدَاعِ الفنِّي.

(أ) فالسخرية تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذِ الساخر يضحك بسخريته آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب:

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء﴾.

وجاء في هذا التعبير إفراد النساء عن الذكور، لأنَّ الغالب أن لا يسخر الرجال من النساء، ولا يسخر النساء من الرجال، وللإشارة ضمناً إلى أنَّ المجتمعات الإسلاميَّة هي مجتمعات غير مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقلُّ فيها السخرية بين الصنفين، والخطاب في النصِّ قد ابتدأ بنداء الذين آمنوا.

وأسلوب هذا التعبير يَصْلُحُ تعميمه على سائر القبائح الستّ.

(ب) واللَّمز يغلبُ فيه الطابع الفرديُّ الخفيُّ، الذي يدركه أهل الفطانة والنباهة، فجاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

وللدَّلالة أيضاً على أنَّ من لَمَزَ أخاهُ المؤمن فكأنَّما لَمَزَ نفسَه، لأنَّ المؤمنين هم بمثابة الجسد الواحد.

وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يَصْلُحُ تعميمه على سائر القبائح الستِّ، فنقول فيها: «لا تسخروا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ــ لا تَنْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ بالألقاب ــ اجتنبوا كثيراً من الظنِّ في أنفسكم ــ لَا تجسَّسوا على أنفسكم ــ لا تغتابوا أنفسكم».

(ج) والنَّبْزُ باللَّقب ــ وهو الشَّتْمُ بالأَلْقَاب القبيحة ــ عَمَلٌ تغلب فيه المشاركة بين فريقين، فَمَنْ نَبَزَ غيرَهُ رَدَّ عليه المنبوز غالباً بمثل قَولِهِ، أو بأقبح منه، انتقاماً لِنَفْسِه، فالتَّنابُزُ كالتقاتل، من أجل ذلك جاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب﴾.

وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصلُح تعميمه على سائر القبائح السِّت، فنقول فيها: « لَا تتساخروا ــ لَا تتلامزوا ــ لا تترامَوا بكثير من الظنون ــ لا تتعاملوا فيما بينكم بالتجسس ــ لا تتراموا فيما بينكم بالغيبة».

(د) وأفضل وسيلة لترك الظنّ الذي يأثم به صاحبه، هو اجتناب كثير من الظنِّ، لأنَّ من جرى مع ظنونه أَوْصَلَتْهُ إلى ما يأثم به حتماً، لما لاتِّباع الظنّ من مزالق، وتَسَلُّطٍ على النفوس، فجاء التعبير فيه بأسلوب الأمر بالاجتناب، أي: بالابتعاد عن كثير من الظنِّ، فقال عزَّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾:

وأسلوب الأمر بالاجتناب يصلُح تعميمه على سائر القبائح الستِّ، ففي الابتعاد عن حدودها سلامة وحفظ وورع محمود. فنقول فيها: «اجتنبوا السخرية ــ اجتنبوا اللَّمز ــ اجتنبوا التنابز والنبز بالألقاب ــ اجتنبوا التجسُّس ــ اجتنبوا الغيبة».

(هـ) والتَّجسُّس يغلبُ فيه الطابع الفرديّ الذي يستخفي به فاعله، فجاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

وأسلوب هذا التعبير يصلُح تعميمه على سائر القبائح الستّ، فنقول فيها: «لا تسخروا ــ لا تلمزوا ــ لا تَنْبِزوا بالألقاب ــ لا تتبعوا كثيراً من الظنِّ ــ لا تغتابوا».

(و) والغيبة ظاهرة من ظواهر القبائح الاجتماعيَّة، التي يؤذي ويَضُرُّ بها الناس بعضُهُمْ بعضاً، إذْ فيها مغتابٌ وسامعٌ مشارك له أو أكثر، فجاء التعبير في النهي عنها بأسلوب:

﴿وَلَا يَغْتَبْ بعضكُم بَعْضاً﴾.

وهذا الأسلوب من التعبير يصلُح تعميمه على سائر القبائح الستّ، فنقول فيها: «لا يَسْخَرْ بعضُكم من بعض ــ لا يَلْمِزْ بَعْضُكم بعضاً ــ لا ينبز بعضكم بعضاً ــ لا يتَّبع بعضكم كثيراً من الظن ببعض ــ لا يتجسَّسْ بعضكم علىٰ بعض».

بعد هذا الشرح أقول: إنَّ المتدبِّر الفطن يكشف أنَّ جمع هذه التعبيرات ذواتِ الأداء المختلف، في نصٍّ واحدٍ قَدْ جَمعَ عدَّة رذائل اجتماعية، هي أشباه

ونظائر فيما بينها، بُغْيَةَ النهي عنها، والتَّحْذِيرِ منها، يُشْعِرُ بـأنَّ كلًّ تعبيـر منها يصلُحُ تعميمه في سائر القبائح.

وهذا من روائع الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه القرآن المجيد.

ولهـذا الفنّ الأدبـيّ المبتكر البـديع نَـظَائِـرُ في كتـاب الله، مثـل الآيـات من (٥٩ ــ ٦٤) من سـورة (النمل) إذْ جـاء فيها ختم فقـراتها بخـواتيم مختلفات، وهي تصلُح لتعميمها على سائر الفقرات.

وكذلك في الآيات من (١٠ ــ ١٥)، من سورة (النحل).

والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

• • •

الصُّورَةُ ٱلسَّادِسَة عَشَرَة

في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يقول عزَّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ بشأن السؤال الموجَّه له من مشركي مكّة عن الزمن الذي تَحْدُثُ فيه الساعة التي يتمُّ بها إنْهاء الحياة الدنيا وشروطها وظروفها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿أَيَّانَ﴾: اسْمُ استفهامٍ يُسأل به عن الزمان المستقبل، ويستعمل عادةً فيما يُرادُ تَعْظِيمُ أَمْرِهِ وتضخيم شأنه، أو فيما يُراد التعبير عن استغرابه واستِبْعادِه. فاستعمال (أيّان) في السؤال عن الساعة استعمال في غاية الدقّة.

﴿مُرْسَاها﴾: مصدر ميمي من فعل «أَرْسَىٰ» اللازم بمعنى «رسا» تقول: «رَسَا» الشيءُ يرسو رسُوّاً، و«أَرْسَىٰ» الشيءُ يُرْسي إرْساءً، إذا ثبت واستقرّ.

ويأتي فعل «أرْسَىٰ متعدِّياً، فتقول: «أَرْسَاهُ» إذا ثَبّتَهُ، وشاع استعمال الرُّسُوِّ والإرساء في وصول السفن إلى الميناء وإلقاء مراسيها لتثبت وتستقرّ.

فدلَّ استعمال ﴿مُرْسَاها﴾ على معنيَيْن هما: أَيَانَ رُسُوُّها، وأَيَّانَ إرسَاءُ اللَّهِ لَهَا.

وفي استعمال الرسوِّ والإرساء للدَّلالة على وقت انتهاء مسيرة هذه الحياة الدنيا، استعارةٌ قائمة على تشبيهها بالسفينة، وتشبيهِ الزَّمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا بالرُّسُوِّ في مرفأِ هذا البحر الزمني.

والغرضُ الفكريُّ من هـذه الاستعارة الـدَّلالة على معنىً فلسفي، هـو أنَّ هذا النظام الكونيِّ بتراتيبه وتصاريفه المتتـابعة لحـظةً فلحظة، وبـالتغييرات المستمـرَّات اللَّوَاتي تجري فيه، يشبه سفينةً جاريةً في البحـر، لها في كـلِّ لَحْظَةٍ مـوقعٌ وحَـرَكَةٌ جَدِيدَان دائماً، وأنَّ هذا التَّجَدُّدَ لا يَنْتَهِي إلَّا إذَا قَامَتِ الساعة، وانتهىٰ بها كُلُّ هـذا النظام، كما تتوقَّفُ السَّفِينة في الميناء، وتُلْقِي مراسيها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عنده.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرَّد الإمتاع الفنِّي بصورة بلاغيَّة جمالية، بل اقترن به غَرَضٌ فكـريٌّ اشتمل على بيـاناتٍ ذواتِ قيمـة، مع الإيجـاز الشَّدِيـد، والاقتصادِ في العبارة، وهكذا شأن التشبيهـات والاستعارات، إذْ تكفي فيهـا الكلمة الواحدة عن جُمَلٍ كثيرة، فتُغْنِي في الـدَّلالة عَلَىٰ معـانيها، مـع ما فيهـا من جمالٍ يَسُرُّ المتفكرين.

فتعبير القرآن: ﴿يَسْأَلُونكَ عَنِ السَّاعَةِ: أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟﴾ ـ بهذا الإيجـاز الذي هو غاية في الاقتصاد في العبارة ـ يَحْمِلُ أبعاداً فكريَّةً مديدةً وَاسِعةً، مـع أَنَّه مؤلَّف من كلمتين فقط: ﴿أيَّانَ مُرْسَاها؟﴾، لكنَّهما مُنْتَقَاتَان بدقَّة فائقة.

وبعد ذلك جـاء التعليم الربَّـاني للرسول ﷺ كيْفَ يُجيب على هـذا السؤال، فقال عزَّ وجلّ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾.

في هذا التعليم إجَابَةٌ شاملة على كلِّ التساؤلات الْمُحْتَمَلَةِ عَنِ السَّاعة بجُمَلٍ أَرْبَع، ليس بينها حرف عطف، لأنَّ بينها كمال الاتِّصال.

● **فالجملة الأولى: ﴿إنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾:**

أي: ما علم وقت وقوعهـا إلَّا عند ربِّـي، بحـذف كلمتي: «الْوَقْتِ والـوقوع» للعلم بهما، إذ المسؤول عنه هو وقت وقوعها، أمَّا ما سوى ذلك من أمرها فقد جـاء به الْخَبَرُ، فالتصريح بوقت الوقوع إطنابٌ لا لزوم له.

ودلَّ هذا الحصر على أَنَّ وقْتَ الساعة أمْرٌ من علم المستقبل لم يُعْلِمِ اللَّهُ به أحداً، فهو ممّا أخفاه الله على جميع خلقه، لحكمةٍ من حِكَمِهِ العظيمة، فلا يَعْلَمُهُ نبيٌّ مُرسل ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

إذن: فسؤال السائلين عنْهُ سؤال لا يملك الرسول الجواب عليه، باعتبار أنَّه أمرٌ يَجْهَلُهُ ولا يَعْلَمُه، لا باعتبار أنَّه يكتُمُه وهو يعلمه.

وهنا يتحرَّك في نفوس السائلين سؤالٌ آخر، وهو:

ألا تستطيعُ يا محمَّد وأنت الرسول كما تقول، سؤالَ ربِّكَ عن وقت وُقُوعِ الساعة، والإلحاحَ عليه في المسألة حتّى يُعْلِمَكَ به، فتجيبَنَا على سؤالنا كما يُبَيِّنُ لك.

وجواباً على هذا السؤال المطويِّ الذي يستدعيه الذِّهْنُ عقب الجواب الأول، جاءت:

الجملة الثانية: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا يُجَلِّي العلمَ بوقت وقوعها إلَّا الله وَحْدَهُ، ولا يكون ذلك إلَّا عند وقت وقوعها، بدليل قوله: ﴿لِوَقْتِهَا﴾، أي: في وقتها أو عند وقتها.

وهذا يدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلّ قد قضى بأن لا يُعْلِم بوقت وقوعها قبل وقت وقوعها أحداً من خلقه، وهذا قَضَاءٌ مُبْرَمٌ.

أي: فهو عزَّ وجلّ لا يُعْلِمُني بِه ولَوْ سَأَلْتُهُ وأَلْحَفْتُ عليه في المسألة.

إِذَنْ: فلا مطمع في الوصول إلى الْعِلْمِ بِوَقْتِ وقوعها، ولو سألت رَبِّي عن ذلك، فكُفُّوا عن السؤال.

وهنا يتحرَّك في نفوس السائلين سُؤَالٌ ثالث، وهو:

إِذَا أَخْفَى اللَّهُ الْعِلْمَ بوقت قيامِ الساعة عن أهل الأرض، فَهَلْ أخفاه أيضاً عن ملائكته المقرَّبين في السماء؟

ومع أنَّ الجملة الأولى: ﴿إنما عِلْمُها عِنْدَ رَبّي﴾، قد تضمَّنت بعمومها الجواب على هذا السؤال، لكِنْ قَدْ يَقعُ في ذِهْنِ السائلين أنَّ الْحَصْرَ خاصٌّ بالبشر، أو بالمكلفين من الإِنْس والجن، لأنَّ الساعة تقومُ لإِنْهَاءِ نظام الحياة الدنيا التي رُتِّبت في خِطَّةِ الوجود لابتلائهم، ومن منطلق هذا الاحتمال يأتي السؤال.

وقد جاء الجوابُ على هذا السؤال المطويِّ في:

الجملة الثالثة: ﴿ثَقُلَتْ في السَّمَاواتِ والأَرْض﴾:

ويلاحظ الأديب الذَّوَّاق للأدب الرفيع أنَّه اسْتُعِير في هذه الجملة «الثِّقَل» للدَّلالَةِ على تَعَذُّرِ وُصُول المخلوقَات المدرِكَةِ في السَّمَاوَات والأرض، من الملائكة والإِنس والجنِّ إلى الْعِلْمِ بوقت قِيَامِ الساعة.

وذلك لأنَّ الثقيل هو الَّذي لا يستطيع المخلوق رفعه وحمله.

وهنا تنطلق أذهاننا إلى إدراك الأمور المعنوية الثقيلة، فالْمُشْكِلَةُ الاجتماعية المعقَّدة ثقيلة، لا يستطيع المعالج حلَّها، والْمُعْضِلَةُ الحسابية ثقيلة لا يَسْتَطِيع الحيسوب حلَّها، وإدراكُ التَّنَاهِي في الكون دُونَ شيءٍ وراءه، وكذلك نقيضه وهو عدم التناهي في الكون، من الأمور الْمُعْضِلَةِ الثقيلة، التي لا يستطيع العقل أن يُنْهِيَ تساؤله عند واحد منهما، مع أنَّهُمَا نقيضان لا بدَّ من واحدٍ منهما.

أمَّا ما يَستطيعه المخلوق فهو إمَّا خفيف بالنسبة إليه، وإمَّا مُسَاوٍ لقوَّته.

وقد يكون الشيء الواحد ثقيلاً بالنسبة إلى بعض المخلوقين، وخفيفاً أو مساوياً بالنسبة إلى قُدْرات آخرين.

أمَّا أن يتعذَّر وُصُولُ أهلِ السماوات والأرض، إلى فعل أمرٍ ما، أو إلى علم أمرٍ ما، فهو دليلٌ على أنَّه أثقل من كلِّ قدراتهم إذْ تَظَلُّ قُدْراتُهم بالنسبة إليه طائشة، ويظلُّ هو في موضعه ثقيلاً، فلا تَسْتَطِيع قدراتُهُمْ رفعه، إلى حيث يُسَخِّرونَه، أو يَعْلَمُونَه.

وحين يكون المقصودُ مِنْ رَفعِه كَشْفَه والْعِلْمَ به، لأنَّه في المكان الذي هو فيه

مَحْجُوبٌ مستور، فإنَّ وصفه بأنَّه ثقيل يَدُلُّ على أنَّهم لا يَسْتَطِيعُون الوصولَ إلى العلم به.

فجاء التعبير بأنَّ العلم بوقت قيام الساعة ثقيلٌ على أهل السماوات والأرض، أي: هم عاجزون عن الوصول إلى العلم به. وذلك لأنَّ من لوازم الشيء الثقيل أن لا يُسْتَطاع رفعُه حتىٰ يساوي القوة الرافعة أو يكون أخفَّ منها.

ولمّا كان العلم بوقت قيام الساعة في مكان عميق مخفيٍّ عن أهل السماوات والأرض، فإنَّ الْغَرَضَ من رفعه من مكانه هو العلم به، لكنَّهم لا يستطيعون رفعه، فهم لا يستطيعون العلم به.

إنَّ هذا التعبير لَمِنْ أدق التعبيرات وأَبْرَعِهَا، وأَجْمَعِها للأفكار التي يُرادُ التعبيرُ عنها، مع أدائه للغرض الجمالي البلاغيِّ الفنِّيِّ،

فأدَّت كلمة «ثَقُلَتْ» الغرضين:

- الغرضَ الفكري.
- والغرضَ البلاغي الجماليَّ الفنيَّ.

وهنا يقفُ القومُ السائلون عن طَرْحِ تساؤلاتهم التي تَتَولَّدُ عن الإجابات التي يُكَافِيءُ كلُّ جوابٍ منها السؤالَ الْمَطْرُوحَ قبله.

فَحَسُنَ في الختام حَسْمُ كلِّ احتمالٍ لِسُؤَالٍ مُتَكَلَّفٍ قد يطرحونه، فجاءت:

الجملة الرابعة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾:

أي: لا تأتيكم السَّاعَةُ إلَّا فَجْأَةً دُونَ علمٍ منكم أو من أحدكم بوقت قيامها، ولو قبل لحظات من ذلك.

بهذه الجملة الرابعة تَمَّ حَسْمُ الأمر حولَ السؤال عن وقت وقوع الساعة.

من أجل ذلك نلاحظ أنه لمَّا تكرَّر منهم أَنْفُسِهم السؤالُ بعد مدَّة من الزمن عن وقت وقوعها أنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) قوله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾.

فأعرض القرآن في هذا النصّ عن تفصيل جواب أسئلتهم، اكتفاءً بما نزل قبله في سورة (الأعراف) السابقة في النزول لسورة (النازعات).

واكتفى النصُّ هنا بالتوجيه لواجب العمل لها، فخاطب الله السائل بقوله:

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وخاطب رسوله بقوله:

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾.

ونتابع تدبُّر بقيَّة النَّص من سورة (الأعراف).

فقول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله فيه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

لفظ: ﴿حَفِيٌّ﴾، يأتي في اللغة بعِدَّةِ معانٍ.

- **الحفيّ بالشيء**: المعتني المهتمّ به. العالم به علم استقصاء.
- **الحفيّ**: المُلْحِفُ في المسألة عن الشيء الذي يسأل عنه بتكرار، والمستقصي في السؤال عنه.

وجاء في أقوال المفسِّرين في تفسير قول الله عزَّ وجلّ: ﴿**كأنَّكَ حَفِيٌّ عنها**﴾ ما يلي:

- كأنَّك اسْتَحْفَيْتَ السؤال عنها حتّى علمتها.
- كأنَّك عَالِمٌ بها.
- كأنَّكَ معنيٌّ ومُهْتَمٌّ بالسؤال عنها.

ويمكن أن نفهم من جملة المعاني اللُّغوية وأقوال المفسِّرين معنىً جامعاً فنقول:

يسألك قومُك يـا محمد عن وقت وقـوع الساعـة، كأنَّـكَ مهتَمٌّ بأن تَعْلَمَ وَقْتَ قيامِ الساعـة فتسألُ ربَّـكَ عنه، وكـأنَّكَ عـالم بهذا الـوقت، وكأنَّـكَ مُهْتَمٌّ بسؤالهم راغب في إجابتهم عليه.

وهذا من بديع استعمال اللفظ الواحد في المعاني المتعدِّدة التي يـدلُّ عليها، وهو من باب الإيجاز، والاقتصاد في العبارة، مع الدلالة على معانٍ كثيرة.

وجاء تأكيـد الجواب في قـول الله عزَّ وجـلّ: ﴿قُلْ: إِنَّمَـا عِلْمُهَا عِنْـدَ اللهِ﴾، بتبديل عبارة ﴿عند ربِّي﴾ بِعِبَارَةِ ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ لبيان أنَّ ربَّه الـذي خلقه وربَّـاه ويُرَبِّيـه دواماً هو الله خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّ كُلِّ شيءٍ.

ولمّا كان السُّؤال عن وقت قيام الساعـة مُمَاحَكَـةً بارِدَةً حـول موضـوع لا يُهِمُّ السّـائلين بشيءٍ من أمور دنيـاهم ولا من أمور آخـرتهم، كانَ السؤالُ عنـه ـ لاتِّخاذ عَـدَمِ الإجابـة عليه ذريعـةً لجحود يـوم الدين ـ من الجنـوح عمّا ينبغي من العلم، ومن نقص العقل وفَسَادِ التَّصَوُّر، ولذلك قال الله عزَّ وجلّ في خاتمة النصّ:

﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أي: لا يعلمون ما يَنْفَعُهُمْ وما يَضُرُّهم فَيَجْنَحُونَ عن سواء السبيل، ويشغلونَ أنفسهم بمـا لا ينبغي لهم من العلم، ويَتَّخِذُون عَـدَمَ إعلامهم بـوقت قيام السـاعـة ذريعةً لجحودها، مع أن العلم بالوقت لا يزيد في إثباتها أيَّ تَرْجيح فكري، إذ دليل اليوم الآخر، يعتمـد على بَرَاهِينِ العـدل الربّـاني من جهة العقـل، وقواطـع الأخبار الدينيَّة من جهة النقل.

ولمّـا كان جُنُـوحُ السّائلين من كفـار قريش مُمَـاثلاً لجنـوح سـائـر الكـافـرين المكذبين بيوم الـدين، وكان الكـافرون هُمْ أكثـر الناس، اقتضى البيـان القرآني أنْ يُدْخِل كُفَّار قريشٍ ضِمْن أمثالهم من كفّار كلِّ عصر في قضيَّة عامة، فقال تعالى:

﴿وَلٰكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبهذا وُضِعَ الْخَتْمُ على قُفْل الموضوع.

• • •

الصُّورَةُ السَّابِعَة عَشْرَة

من الملاحظ في فُنونِ الأدب القرآني ظاهِرةُ اسْتقطاعِ النُّصوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا الْماضية أو المستقبلة، وعَرْضُها بألفاظها دون الإشارَة إلى أنَّه كَان كذا فيما مضىٰ، أو سيكون كذا فيما سيأتي.

ومنه استقطاع الأقوال الَّتي حدثت، أو الَّتي ستحدُثُ كأنَّها حادثةٌ الآن، وهذا فنٌّ قرانيٌّ بديع، لم يكن معروفاً في حكاية النصوصِ والأحداثِ في تعبيرات النَّاس.

إنَّه نظير اللَّقطات الفنيَّة التي اكتشفها أخيراً أَصْحابُ الْفَنِّ السينمائي والتليفزيوني، إذْ يقتطعُونَ من الأحداث الَّتي يُقدِّمها الْمَشهد التمثيليُّ المصوَّر، لَقطاتٍ منتقياتٍ تدلُّ على ما قبلها وعلى ما بعدها، ويعرضونها على شكلِ فِقَرَاتٍ متتابعاتٍ في المشهد المعروض، مع أنَّها متباعداتٌ جدّاً في الواقع، لكِنَّ الذِّهْنَ اللَّمَّاحَ يستطيع أن يستَنْبِط ويَسْتَبْطِن المطويَّات التي لم تُعْرض، ويملأ فراغات المشهد بتصوُّره.

هذا الفنّ البديع ممَّا يرضي ويُعجبُ مشاعر الأذكياء، ويَشُدُّهم إلى المتابعة والتفكُّر والاستنباط، فالإنسان مجبولٌ بفطرته على الرغبة في الاستنباط، واستخراج الأشياء وفهمها بنفسه، وينفر من تعليمه ما يستطيع اكتشافه بنفسه، وينفر من إخباره بما يستطيع إدراكه وتصوُّره بنفسه، من سلسلة الأحداث والوقائع، لا سيما دقائقها العاديَّة التي تتكرَّر في الأشباه والنظائر.

ويُلاحظُ في فنون الأدب القرآنيّ أنَّ الصُّور التمثيليَّة المستقطعة من الماضي أو من المستقبل، يؤتى بظروفها الزمانية والمكانية، وصُور أحداثها، فتُقَدَّمُ كأنَّها

أحداثٌ قائمةٌ فعلاً، للإشعار بأنَّها حقائق قد حدثَت فعلاً في الماضي، أو لا بُدَّ أن تحدث فعلاً في المستقبل.

يُضاف إلى هذا ظاهرةُ التَّنقُّل بين الأزمانِ والأَمْكنة بأسلوب المفاجأةِ، دون مُقدِّمةٍ تُشْعِرُ بالانتقال.

فَنُلَاحظُ مثلاً التنقُّل والتراوُحَ بَيْنَ عَالَم الابْتلاء وَعَالم الجزاء، على سبيلِ التَّعاقُب في النصِّ القرآني، ونَظِيرُهُ التَّنَقُّلُ والتراوُحُ بين الْمشاهد، من موقف الحساب مثلاً، إلى مُسْتَقرّ الجزاء، إلى غير ذلك من مشاهد ومواقف أخرويَّة، فإلى الحياة الدنيا، وما فيها من أحداثٍ، أو إلى ما تستدعي من خطاب، حتَّىٰ كأنَّ الزَّمَنَ كُلَّه ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومُسْتَقبَلَه، مَعَ الأَمْكِنة كُلِّها من عَالَم الابتلاء ومن عالم الجزاء على لوحةٍ واحدةٍ، تتنقَّلُ عليها عدساتُ البيان حسب مقتضيات الإثارة، ولفتِ النظر وشَدِّ الانتباه.

إنَّ هذا التنقُّلَ والتراوُح المفاجىء، دون مقدِّمةٍ تُشْعِر بالانتقال، هو من الإبداع الفنيّ الذي لم يكن معروفاً في فنون الأدب قَبْلَ القرآن المجيد.

ففي طائِفةٍ من النصوص القرآنية نلاحظ أنَّه بينما يكونُ النَّصّ يخاطبُ الناس وهم في عالم الابتلاءِ الدُّنيوي، إذا بِهِ يَنْتَقِلُ مُفَاجَأَةً إِلَىٰ مَشْهد من مشاهدهم، وهُمْ في عالم الجزاء الأخروي، فإذا بِه يفاجىء بالحديث عنهم، وهم في عالم الابتلاء الدنيوي. مع التنويع في الأساليب، والتغيير في منهج الخطاب، الأمر الذي يشُدُّ الفكر من أعماقه، لدى من هو حريصٌ على تلَقِّي المعرفة، وتَذَوُّقِ جمال البيان، ورَوْعةِ الكلامِ البليغ، فَهُو بسبب ذلك يُتَابِعُ التدَبُّر بنَشاطٍ فكريٍّ مُتجدِّد.

على خلاف النَّمطيَّة الواحدة في أُسلوب تقديم الأفكار، وعرْضِ المعارف، وسَرْدِها على وتيرة واحدة، فإنَّ هذه النَّمطيَّة الواحدة تجلُبُ الفتور، وشُرود الذهن، وربَّما نامَ معه الْمُتلقّي ولَوْ كانَ راغباً في التلقّي وحريصاً عليه، وتكونُ حالُهُ كحال من ينامُ على نَعِيرِ الناعُورةِ، وجَعْجَعَةِ الرَّحا.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿بِنُصْبٍ﴾: وهي قراءةُ جمهورِ القرَّاء، وقرأ أبو جعفر المدني «بِنُصُبٍ»، وقرأ يعقوب البصريّ «بِنَصَبٍ» وهي لُغاتٌ عربية للكلمة والمعنى فيها جميعاً: بِتَعَبٍ وَإعْيَاءٍ وَمَشقَّة.

ففي هذه الآيةِ حكايةُ حَدَثٍ مضىٰ، وفْق الأسلوب المعتادِ في حكاية الأخبار، وعقبه مباشرة قال الله عزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

الرَّكْضُ: ضَرْبُ الشيء بالرجْلِ ونحوها من أعضاء الجسد.

ألَسْنَا نُلاحظُ أنَّ هٰذا مَقْطَعٌ كلاميّ مستقطعٌ من الماضي، محكيٌّ بصيغته التي قيلت لأيوبَ ـ عليه السلامُ ـ إبَّانَ الحدثِ الماضي.

والذِّهنُ يكشف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لأيُّوبَ هذا القولَ، فَوْرَ نِدائِهِ رَبَّهُ: أَنِّي مسَّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب.

وطوى النصّ بعد ذلك ما فعل أيُّوب، من تنفيذ الأمْرِ، وما أكرمه به ربُّه من شفاء، وعطفَ الله عزَّ وجلَّ على هذا المطوي قوله:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وعقبه مُبَاشَرَةً جاءَ نصٌّ كلاميٌّ مُسْتَقْطَعٌ أَيْضاً من أحداث الماضي، محكيٌّ بصيغتِهِ الَّتي قِيلَتْ لأَيُّوبَ عليه السلام، إبَّانَ الْحَدَثِ الماضي، فقال تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ... ﴿٤٤﴾﴾.

هـذا القولُ يُشيـر إلى قصَّةِ يمين حلفهـا أيّوب على زوجتـه أن يضـربهـا مئـة ضـربٍ بالقضيب لأمـرٍ ما، فـأفتاه الله بـأنَّ باستـطاعتـه أن يبـرّ بيمينـه دون أن يؤذِي زوجته، وذلك بأن يأخذ حُزمَةً فيها مئـة قضيب من القضبان الـرفيعة جـدّاً ويضربهـا ضربة واحدةً تقومُ في وقتٍ واحدٍ مقامَ ضربها مئة مرَّة.

* * *

المثـال الثـاني:

يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) أيضاً في حكـاية ما سيحدُث للطاغين يوم الدِّين:

﴿هَـٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

في هذا النصّ حكايـةُ أمْرٍ سيحـدثُ في المستقبَلِ يَـوْمَ الجزاء الأكبـر، وبعده مباشرةً جاءَ نَصٌّ كلاميٌّ مُسْتقطع من الحدث الـذي سيحدث مستقبـلاً، وهو محكيٌّ بصيغته نَفْسِها التي سَتُقَال، فقال تعالى:

﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿حميم﴾: ماءٌ حارٌ شديد الحرارة.

﴿غسَّاق﴾: سائـل أصفرُ يشبـه الماء الأصفـر الذي تفـرزُه الجلود إذا تقرَّحَتْ أو احْترقَتْ.

وبَعْدَهُ جاء قولُهُ تعالى خطاباً للطَّاغِينَ وَهُمْ فِي جهنَّمَ:

﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ... ﴿٥٩﴾﴾.

وهُوَ أيضاً قَوْلٌ مستقطعٌ من الحدث الذي سيكـونُ: أي: سَيُقَالُ لأهـل جهنَّم الطَّاغِينَ، وقد كانُوا قـادةً لجماهيـر تبِعَتْهم في طغيانهم، حين يُلْحَقُ بِهِمْ أتبـاعُهُمْ: ﴿هَذَا فَوجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾.

وَعَقِبَهُ مُبَاشَرَةً جَاءَ في النَّصّ:

﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . . . ﴿٥٩﴾ ﴾.

هو أيضاً قَوْلٌ مستقطعٌ من الحدث الذي سيكـون، إذْ يجيبُ الطَّاغـونَ الأَئِمَّةُ بهذا القول، وقَدْ قُدِّم في النصّ على طريقةِ عَرْض الْمشاهد التمثيليَّة، دون الإشارَةِ إلى أنَّ الأئمة الطاغين يردُّون فيقولون: ﴿**لَا مَرْحَباً بهم إنَّهم صَالُو النار**﴾.

وَعَقِبَهُ مُبَاشَرَةً جاءَ في النصِّ:

﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وهُنَا نُلَاحِظُ تَنْويعاً في الأَسْلُوب، إِذْ صُدِّرَ هٰذا المقطع الكلاميّ بفعلِ «قَالُوا» كأَنَّ الحدَثَ أمرٌ جرى ووقع، واقْتَضَتْ فنيَّةُ الأداءِ البياني ذِكْر فعل «قالُوا».

وعَقِبَـهُ جَاءَ فِي النَّصِّ حكـايَةُ مقـالٍ آخَرَ لِلْفَـوْجِ المقتحم من الأتباع، فقـال تعالَىٰ:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾.

دون حرف عطف، للدلالـة على أنَّ هٰذا القـول والذي قبله قـد كانـا بتعاقب دون عـطف، أو كـانـا في وقتٍ واحـدٍ، على معنى أَنَّ بعضهم قــال القـول الأول، وبَعْضَهُمْ قالَ الْقَوْلَ الآخر.

* * *

المثـال الثالـث:

جـاء في سورة (الأعـراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نـزول) وَصْفُ أحْـدَاثٍ وَتَقْـدِيمُ صُوَرٍ مِنْ أَحداثِ يَوْمِ الدِّين وصُوَرِه، وعلى اللَّوْحَةِ البيانيَّة التَّنقُّلُ والتَّزاوُجُ الْعَجِيبُ الذي سَبَقَ بيانه.

فبينما يُقدِّمُ النَّصُّ لقطاتٍ من واقع حال الذين كانوا في الدنيا قد آمنوا وعملوا الصالحات، وهم سُعَداء بالنعيم المقيم في الجنة، بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . . . ﴿٤٣﴾﴾.

إذا بالنَّصّ انتقل إلى عرض مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ موقفِ الْحَشْرِ بَعْدَ الحساب وفصل القضاء، وهو يتعلَّقُ بأَهْلِ الجنَّةِ أنفسهم، دون أن تستكْمل الآية فاصلتها، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿. . . وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

دلَّنا على هذا الإشارةُ إلى الجنَّةِ الخاصةُ بالْبَعيد، ولو كانوا فيها لكان الظاهر أن يُقالَ لَهُمْ: هٰذِهِ الجنَّةُ. ودلَّنا عليه أيضاً، ما جاء بعد هذه العبارة من عرض لقطاتٍ موصولة بهذا النداء، وهي مُقْتطعةٌ من عُموم المشهد نفسه في موقف الحشر بعد الحساب وفصل القضاء بين أصحاب الجنَّة الأصليين، وأصحاب النار الخالدين فيها، فقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وبَعْدَ هٰذِهِ اللَّقطةِ من مشاهد هذا الموقفِ، إذا بالنَّصّ يتحدَّث عن هؤلاء الظالمين حديثَ مُبَيِّنٍ لبعضِ صفاتهم وهُمُ الآنَ فِي الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقد دلَّ على أنَّ هذا الحديث، هو حديثٌ عَنْهُمْ وهم ما زالوا في عالم الابتلاءِ في الحياة الدنيا، استعمال الفعل المضارع في عبارة: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله﴾، وفي عبارة: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾، ونحن نعلم أن الفعل المضارع يدلُّ على الحركة المتكرِّرة المتجدِّدة، بدءاً من الحاضر، فتكراراً في المستقبل، ومِمَّا يُضْعِف إبْداعَ النصّ أن نُقدِّر: الذين كانوا يصُدُّونَ عن سبيل الله، وكانُوا يَبْغُونَها عِوَجاً.

ويضاف إلى هاتين الدَّلالتين دلالةُ عبارة: ﴿وَهُمْ بالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، فهي واضحةٌ في أنَّها تُعبِّرُ عن حالهم في الحياة الدنيا، نظراً إلى أنَّهم يومَ الدِّين صاروا مؤمنين به إيمان شهودٍ حسّيّ.

بعد هذه النقلة إلى الحياة الدنيا، إذا بالنَّصّ رَجَع إلى عَرْضِ بقيَّةِ اللَّقطاتِ المنتقياتِ، الَّتي تحدُثُ بعد أذان المؤذِّنِ بين أهل الموقف في المحشر، فقال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ . . . ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ويوجد في هذا الموقف في المحشر بعد فصل القضاء العدليّ، حجاب، نحو سورٍ، أو جبلٍ ممتدّ من أقصى الموقف إلى أقصاه، يفصل بين زُمَر أهل الجنَّة، الَّذين قضىٰ اللَّهُ لهم بأنَّهم من أهلها ابتداءً، وبين زُمَرِ أصحاب النَّارِ الخالدينَ فيها.

ويقف على الأعراف من هذا الحجاب، رجالٌ يعرفونَ كلًّا من أهل هذا الجانب منه، وأهل هذا الجانب منه، بعلاماتهم، فأهل الجنة بيضُ الوجوه، ولَوْ كَانُوا في الدُّنْيا سُوداً أَوْ شيئاً آخَرَ مِنْ سائرِ الملوَّنين، وأهل النار سُودُ الوجوه، ولو كانوا في الدنيا بيضاً شُقراً.

والأعراف هي مرتفعات مشرفةٌ على الحجاب، يشاهد الواقف عليها أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال.

وأصحاب الأعراف هم الذين لم تكن حسناتهم كافية لأن يُقْضَى لهم بسببها ابتداءً أنَّهم من أهل الجنة، ولم تكن سيئاتهم بالمقدار الذي يَسْتَحِقُّونَ بسببه أن يكونوا من الخالدين في النار، أو من الذين قضى الله بتعذيبهم فيها تعذيباً مؤقّتاً، فأمرهم موقوف مؤقّتاً، حتَّىٰ يَقْضِي الله بشأنهم، بالتعذيب المؤقت في دار العذاب، أو بالتأخير والانتظار، أو بالغفران، وهؤلاء فيما ظهر لي هم من عصاة المؤمنين، الذين لم يتجاوز الله في محكمة العدل العامَّة عن معاصيهم.

هؤلاء أصحابُ الأعراف يَبْدُو لَهُمْ أن يتقرَّبوا إلى أصحاب الجنَّةِ الَّذِينَ هُمْ على الجانب الأيْمَنِ من الحجاب بالسَّلامِ عليهم، فقالَ تَعَالَىٰ بشأنهم:

﴿ . . . وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ . . . ﴿٤٦﴾ ﴾.

ولا يذكُرُ القرآن رَدَّ أصحاب الجنَّةِ، ولعلَّهم لا يَرُدُّونَ تحفُّظاً، وَمخافةَ أنْ يكُونَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أهْلِ النار، الذينَ لَا يجوز الردّ عليهم بالسلام.

بعد هٰذا أدْخلَ البيانُ جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً تَتَعَلَّقُ بأصْحاب الجنة، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ . . . لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: لم يَدْخُلْ بَعْدُ أصْحَابُ الجنَّةِ الْجَنَّةَ، لكنَّهُمْ فِي حَالَةِ طَمَعٍ مُتَجَدِّدٍ بأَنْ يَصْدُرَ أمْرُ تكريمهم بأنْ يدْخُلوا الجنَّة، لا أنَّهم يطمعون بِأَنْ يُقْضَىٰ لهم بدُخولِ الجنة، فهذا الأمْرُ قد قضي الحكْمُ به سابقاً في محكمة العدل، فَهُمْ أصحابُ الجنَّة، وتَذَاكِرُ الدُّخولِ في أَيْدِيهم، إنَّما طَمَعُهُمْ هو طمع مُترقِّب إعْلانِ مُباشَرَةِ الدُّخول، كمنتظري النِّدَاء بدخول بوابةِ العبور إلى الطائرة، في الصَّالَةِ الدَّاخليَّة، بعد استكمالِ كلِّ شروط الدخول ولوازمه.

بعد هذه المعترضة تَابَعَ النصّ عَرْضَ لقطاتٍ من المشهدِ تتعلَّق بأصحاب الأعراف، فقال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذا الدُّعاءُ يُناسِبُ أن يَدْعُوَ به مُشْفِقٌ خائفٌ من العذاب، ينظُرُ إلى سَوَابِقِ معاصيه، فيخافُ أنْ يُقْضىٰ عليه بأنْ يَكُونَ مع القوم الظالِمينَ المخلّدين في النار، أو من المعذّبين فيها ولو تعذيباً مؤقّتاً.

وتابع النصّ الحديث عنهم فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ . . . ﴿٤٩﴾ ﴾.

البيان يحكي حدثاً بصيغة الفعل الماضي، هو مُقْتَطَعٌ من المستَقْبَل ومُقَدَّمٌ في المشْهَدِ البياني.

أصْحَابُ الأعراف نادَوْا رِجالاً من أصحاب النار الذي هم على شمال الحجاب، وهَـٰؤُلاءِ الرِّجالُ هم من أئمة الكفر، ويَعْرِفُونَهُمْ بعلاماتهم المميِّزَةِ لهم، فيقولون لهم مثيرين فيهم النَّدم والتَّحَسُّرَ: ما أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جمْعكُمُ الْأَمْوالَ والْأَنْصارَ، وَمَا أغْنَىٰ عنكُمُ استكْبارُكُم الَّذِي كنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَهُ، وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرونَ به على عباد الله، وعَنْ طاعة الله.

ويقولُونَ لهم أيضاً مشيرينَ إِلَىٰ بعْضِ الضُّعَفاءِ من أَصْحَابِ الجنَّة: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، وهُمُ الآن يَنْتَظِرُونَ الإِذْنَ لَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيها.

عِنْدَ هَذَا الْمَفْصِلِ قَطَعَ الْبَيَانُ اللَّقَطاتِ المتعلِّقَةَ بأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، وقَدَّمَ عِبَارَةَ النِّدَاءِ لِأَصحابِ الْجَنَّةِ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّة، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿... ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

لقد صَدَرَ الأمْرُ التَّكْريمي بالإِذْنِ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ.

وطَوىٰ النَّصُّ ما يتعلَّقُ بالأمْرِ بإِدْخَالِ أهلِ النَّار النار، وجَمْعِهِمْ رُكاماً، وكَبْكَبَتِهِمْ فِيها، اعتماداً على أنه يُعْلَمُ ذهْناً وَلَوْ لَمْ يُذْكَرْ بالنَّصّ، وَجاءَ البناء على الأمْرَينِ المذكورِ والمطوي، في الآية التالية. فقالَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أليس هذا التَّنَقُّلُ العجيب في الأزمنة والأمكنة ومُخْتَلِفِ الْأَساليبِ من الإعجاز البياني في القرآن، ومن قمة الأدَبِ الَّتِي لا يرتقيها بشر.

• • •

الصُّورَةُ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ

يلاحظ الأديب ذو الحسّ الأدبيّ المرهف التنويعَ العجيبَ البديعَ في أساليب الأداء البيانيّ القرآني، حتَّى في عرض الأقسام أو الأنواع التي تدخل في مَقْسِمٍ واحدٍ أو جنسٍ واحدٍ، أو تَدْخُلُ تحت عنوان واحد، إيثاراً للجمال الفنّيِّ بالتنويع المجدِّدِ لِتَنْبيهِ الفكر، أو إيثاراً للتجديد في الإبداع الاختياري مع كلِّ نوعٍ أو قسمٍ أو صنف، فمن شأن التجديد تحريكُ الذهن في مختلفات من الأساليب، والتمكينُ من وضع أفكارٍ وأغراضٍ بيانية وتربوية في ظلال النّص، تُكْتَشَفُ حيناً بعد حين، كلّما تكرَّرَتْ قراءةُ النصّ، أو تكرّر سماعه.

وقد يقترن بإيثار الجمال الفنّيّ غَرَضٌ بيانيٌّ آخر، كاختيار الأسلوب الأكثر ملاءمة لِلْقِسْمِ أو النَّوعِ أو الصِّنْفِ الذي جرى التنويع في الأسلوب عند ذكره، أو الأُسْلُوبِ الأكثرِ مضامينَ فكريَّةً يُرادُ الدَّلاَلَةُ عليها مع ذكره، أو الأكثرِ بلاغةً وإيجازاً واقتصاداً في العبَارَةِ بالنسبةِ إلى مَضَامينه الفكريَّةِ التي يُرادُ بَيَانُهَا، إلى غير ذلك من أغراض.

والغفلة عن مُلاَحَظَةِ هذا التنويع في أساليب الأداء البياني، تَجْعَلُ المتدبِّرَ لكلام الله عزَّ وجلّ لا يُدْرِكُ الترابطَ الْفِكْرِيَّ في مَوْضُوعِ النَّصّ، فيفهمُهُ وَحَداتٍ مجزَّآتٍ غَيْرَ مُتَرَابِطَاتٍ، وتَنِدُّ عَنْه بسببِ ذلك رَوائِعُ مَفَاهِيمَ، وقد يقع في أغاليط، إذْ يُحَاوِلُ أَنْ ينتزعَ ارتباطاً من قريبٍ أو بعيدٍ لأدنَىٰ مناسبةٍ، أو شُبْهَةِ مُنَاسَبَةٍ، أو يَخْتَرِعَ مِنْ عنده أموراً لا أصل لها ولا دليل عليها.

* * *

الأمثلة

المثال الأوّل:

عرض القرآن المجيد ما كان في غزوة الأحزاب من المنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، من أقوال وأعمال، هي مظاهر لما في قلوبهم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

● هذا قسمٌ ممَّا كان منهم، جاء بأسلوب: ﴿وإذْ يقول﴾ بإذْ الظرفية، أي: واذْكرْ إذْ، وبالفعل المضارع الذي يَدُلُّ على أنَّ المقالة دارت على الألسنة حتّى شاعت، فقالَها المنافقون، وقالَها تأثُّراً بهم الذين في قلوبهم مرضٌ دُونَ النِّفَاق، وهو مرض ضعف الإيمان.

● أمّا القسم الثاني ممّا كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . . ﴿١٣﴾﴾.

فجاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ بإذْ الظرفية، أي: واذكرْ إذْ، وبالفعل الماضي، الذي يدُلُّ على أنَّ هذه المقالة قد قِيلَتْ من طائفة منهم، ثمّ لم تتكرّر، ولم تَدُرْ على الألسنة.

● أمّا القسم الثالث ممّا كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

فجاء أسلوب ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ بصيغة الفعل المضارع، للدلالة على تكرار الاستئذان من أفراد هذا الفريق، أو على الإلحاح به، ولم يأتِ على النسَقِ السابق من استعمال كلمة ﴿إذْ﴾ قبله، لأن حالتهم هذه كانت مستمرّة لا تستدعي التذكير بزَمَن حدوثها.

واعتنىٰ القرآن المجيد بتربية هذا الفريق المستأذن، وبيان حالته النفسية، وإقناعه، لتصحيح العناصر المختلّة لديه من عناصر القاعدة الإيمانية.

● وأمّا القسم الرابع ممّا كان منهم، وهو التعويق والتثبيط عن الخروج مع الرسول ﷺ لمواجهة عدُوّه، فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

فاختلف الأسلوب هنا اختلافاً كلّياً، إذْ نلاحظ أنَّ التعويقَ قد عرضه الله عزَّ وجلّ وصفاً ثابتاً لفريقٍ من المنافقين، لا أنَّه مجرّد عرض طارىء استدعته حالة مزعجة، وهو الأمر الذي كان في غزوة الأحزاب، فحصل فَهْمُ قِسْمِ التعويقِ والتثبيط من ذكر المعوّقين.

وقبل ذكر المعوقين بيّن الله عزَّ وجلّ تَحقُّقَ علمه بهم، ليشير هذا البيان من طرفٍ خفيّ إشارةَ تَهْدِيدٍ لهم، بأنَّهم مكشوفون معلومون لله، وبأنَّ عقاب الله يَترَصَّدُهم.

فمع التنويع في الأسلوب لإكساب التعبير جمالاً فنيًا، وإبداعاً مُعْجِباً، اختير لعرض كلّ قسم الأُسلوبُ الأكْثَرُ مُلاءَمةً له، والأكْثَرُ مَضامِينَ فكريَّةً يُرادُ الدلالةُ عَلَيْها مع ذكره، كإضافة أنّ المعوّقين معلومون لله عزَّ وجلّ، وأنّ تعويقَهُم لإخوانهم صِفةٌ ثابتة من صفاتهم، وملازمةٌ لهم في كلِّ الأحوال، فهم معوِّقُون دائماً، وقائلون في كلّ المعارك لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا، لا تخرجوا مع محمّد إلىٰ قتال.

* * *

المثال الثاني:

سورة (الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول) سورة مكيّة جاء فيها بيانٌ لبعضِ صفات المكذبين بالدِّينِ، أي: بالجزاء الذي يُجْريه الله في الآخرة، بعد البعث ليَوْمِ الدِّينِ، أمّا الصِّفَاتُ التي ذكرت فيها للمكذِّبِ بيومِ الدين، فهي ما يلي:

١ ـ أنَّه يَدُعُّ اليتيم، أي: يدفَعُه بعنف وقسوة، بسبب أنَّ الرحمةَ قد نُـزِعَتْ من قلبه، وهو لا يُؤمِنُ بيوم الدين، حتى يطمعَ بثواب الله، أو يخافَ من عقابه.

٢ ـ ولا يحضّ على طعام المسكين، أي: فكيف يَبْذُلُ من طَعامه أو ماله.

٣ ـ ولا يهتَمُّ بأنْ يُصَلِّيَ لربّه، ولو آمن بوجوده، بل يظلُّ ساهياً، لأنَّه مكذِّب بيوم الدِّينِ، فإذا صلَّى أو عمل عملاً من أعمال العبادة أو الخير، فإنَّه يُـرَائِي النَّاسَ بِذَلك، ولا يَعْمَـلُ لله عزَّ وجـلّ، وغَرَضُـهُ مِمَّا يُـرَائِي به جَلْبُ مَغْنَمٍ، أودَفْعُ مَغْرَمٍ، على أنّ ما يرائي به لا يكلّفه في الغالب مالاً.

٤ ـ وهـو شحيحٌ كـزُّ النَّفْسِ، يَمْنَعُ أيَّـةَ مَعُـونـةٍ، حتَّى الأمْتِعـةِ التي تُسَمَّىٰ «الماعون» عند العرب، والَّتي يتساهل البخلاء بإعـارتها، يَمْنَعُهـا إذا لم يكن له في إعارتها منفعة دنيويّة.

هذه الصفات الأربع جاءت في سـورة (الماعـون) على قصرهـا بأسلوبين من الأساليب البيانيّة.

● فالصفتان الأوليان جاءتا بأسلوب:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

بلغَتِ النظر إلى رؤية صفاته المنكرة على طريقة الاستفهام الاستهجـاني، مع مـا يَتَضَمَّنه من إقنـاع بأنَّ الإيمـان بيوم الـدين يُصْلِح فِي الأفراد صفـاتِهم وأخلاقَهم الاجتماعية، ويَجْعَلُهُمْ رُحَمَاءَ، يَفْعَلُون الخيراتِ، ويَحُضُّونَ عَلَىٰ فِعْلِهَا.

● والباقي من صفاتهم جاء بأسلوب التهديد والوعيد:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

فحصل بهذا الأسلوب التنويع الجماليّ الفنيّ، مع التهديد والوعيد بـالويـل، وهو العذاب الشديد، ووادٍ في جهنَّم فيه عذاب أليم.

* * *

المثال الثالث:

ويجد المتدبّر لسورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) تنويعاً عجيباً رائعاً، في عرض الأدلة، لدفع شبهات منكري البعث.

- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.
- ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ... ﴿٦﴾﴾.
- ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ... ﴿١٥﴾﴾.
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ... ﴿١٦﴾﴾.

أنواع من الأساليب البيانيّة، مع أنَّها تَرُدُّ شبهات المنكرين لقضية البعث للحساب والجزاء.

إنَّ الموضوع فيها موضوعٌ واحد، لو عالجناه بأساليبنا الإنسانيّة، لقال أحسنُ أديبٍ فينا وأَبْرَعُ كاتب مقالاً ذكر فيه أنَّ شبهات المنكرين ترجع إلى عدَّة توهُّمات:

فالأول: جوابه كذا.

والثاني: جوابه كذا.

والثالث: جوابه كذا.

والرابع: جوابه كذا.

أمَّا أن يَطْوِي ذِكْرَ الشُّبَهاتِ والتوهُّمَاتِ، ويأتِيَ بالرّدود الإقناعية ضِمْنَ أَسَالِيبَ متنوّعة، فهذا ممّا يَندُّ عَنِ الخواطر مهما كانت لمّاحةً صيّادَةَ فُنُونٍ أدبيّة.

* * *

المثال الرابع:

يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

اعترَضَ الْمُشْرِكونَ على إنْزال القرآنِ مُنجَّماً، وطالبوا بتحضيضٍ أن يُنزَّلَ جُمْلَةً واحدةً.

أي: ما الداعي إلى تنزيله مُفرَّقاً مُنَجَّماً؟ إنَّ هٰذا الأُسْلوب التَّنْجِيمِيَّ يدعو إلى الشَّكِّ في أنَّه كلامُ الله، أليسَ الله عليماً بكُلِّ شيءٍ، قَدِيراً على أنْ يُنَزِّلَ القرآنَ كُلَّهُ في وقتٍ واحدٍ، كما أنْزَلَ كُتُباً سابقةً على رُسُلٍ سَابِقينَ دُفعةً واحدةً؟!

فجاءَ الرَّدُّ القرآنيُّ مُبيِّناً ثلاثَ حِكَمٍ لِتَنْزِيلِهِ مُفرَّقاً مُنجَّماً، ولكِنَّ بيانَ هٰذه الحِكَم جاءَ مُنوَّعاً بأسَالِيبَ مُخْتَلِفةٍ، قد لا يلتَقِطُ مِنْهَا التالي للنَّصِّ إلَّا الحكْمَةَ الأُولى، لأنَّ الْحِكْمَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ جَاءَتَا بأسلوب آخر.

فالحكمة الأولى: نُدْرِكُهَا فِي قَوْل اللَّهِ عزَّ وجلّ خِطَاباً لَلرَّسول: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وتَثْبِيتُ الْفُؤَادِ يكون بما يُورثُهُ السُّكونَ والطمأنينة تُجاهَ مَا يمكن أنْ يهزّهُ ويُقْلِقَه ويُزْعِجَهُ من أحداثٍ يَوْمِيّةٍ غير سارَّة.

وقد كان الرسول ﷺ يتعرَّضُ دواماً من قِبلِ كُفَّارِ قَوْمِهِ لأحداثٍ غيرِ سارَّةٍ تُقْلِقُ وتُزْعِجُ أَفْئِدَة عُظَماءِ الرِّجالِ، فإذا وجَدَ نفْسَه على صلةٍ بالْوَحْيِ من آنٍ لآخر، بصُورَةٍ متكرّرةٍ مُتَتَابعة، لم تُزْعِجْه ولم تُقْلِقْهُ الأحداث، إذْ يشعُرُ حِسِّيّاً بأنَّ الرَّبَّ الجليل الَّذي أرسَلَه وأنزلَ عليه جبريلَ بالْوَحْي، لم يتركْهُ لنَفْسه يُؤَدِّي وظائف رسالته، بل هو على صلةٍ به، يُنَزِّلُ عَلَيْهِ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ تباعاً، ويُعالِجُ الأحداث الَّتِي يتعَرَّضُ لَهَا تِباعاً، ويُقَدِّمُ له الوصايا والتعليمات الهادية له في مَسِيرَتِهِ، وهو

يقومُ بوظائفِ رسالته، ويَشْعُرُ أيضاً بأنَّه مَدْعُومٌ بقوّةٍ عظيمة من الْغَيْب، تُتابعهُ في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

فلهذا الأمر شأنٌ عظيم جداً في تثبيت فُؤاده، ليقوم بجلائل الأمور، ضِمْن قوْمٍ يخْشَىٰ أنْ يَتَألَّبوا عليه، ويَمْنَعُوه بالقوَّةِ من مُتَابعةِ وَظائفِ رسالته.

والحكمة الثانية: نُذْرِكها من قولِ اللَّهِ عزَّ وجلّ فِي النَّصّ:

﴿وَرَتَّلْنَاه تَرْتِيلاً﴾.

وقد جاءَتْ بأُسْلوبٍ مخالفٍ لأسْلُوبِ عَرْضِ الْحِكْمَةِ الأُولى، الأمر الذي قد يَجْعَلُ تاليَ النَّصِّ لا يُدْرِكُ أَنَّ النَّصَّ يُتَابِعُ بيانَ الْحِكْمَةِ منْ تَنْزِيلِ القرآنِ مُفَرَّقاً مُنَجَّماً.

الترتيل: هو التمهُّل والتَّأنِي في الكلام، والتَّبْيينُ له، للتمكينِ والتحقيق، وبناءِ الْمَعْرِفَةِ في الْمُتَلَقِّين بناءً تكامُلِيّاً، وذلك لا يحصُل بإنْزَالِهِ جُمْلَةً واحِدةً، بل يحصُل بإنْزالِهِ فِي دُرُوسٍ تعليميَّةٍ قِسْماً بعْدَ قِسْمٍ، مع الاستفادَةِ من الأحداثِ والمناسبات.

وقد جاء شرح هذه الحكمةِ في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿فَرَقْنَاهُ﴾: أي: جزَّأناهُ، وفصَّلْناهُ، وبَيَّنَّاهُ، وأَصْلُ معنىٰ الْفَرقِ الْفَصْلُ بين الشيئَيْن أو الأشْياءِ، وتمييزُ بعْضِهَا عن بعضٍ.

وأوضَحُ صُوَرِ هذا الْفَصْل والتَّمْييزِ أنْ يُنَزَّلَ الكتَابُ على مراحل زمنيَّةٍ مُتَفاصلةٍ متباعدة.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: علَىٰ تَمهُّلٍ، وتَوقُّفٍ، وانْتِظَارٍ، ريْثما تثْبُتُ معرفةُ الْقِسْمِ الْمُنزَّلِ.

يقال لغة: مَكَثَ بالمكانِ يمكُثُ مُكْثاً وَمَكْثاً ومُكُوثاً، إذا تَوَقَّف وانْتَظَرَ.

﴿ونزَّلْنَاهُ تنْزِيلاً﴾: أي: ونزَّلْنَاهُ تنْزِيلاً بأنَاةٍ وتَمَهُّلٍ وتحقيقٍ مَعَ كُـلِّ قسمٍ يُنَزَّلُ منه، فالتأكيدُ بالمفعول المطلقِ للإشارَةِ إلى نوعِ التنزيل.

والحكمة الثالثة: نُدْرِكُهَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلّ في النَّصّ: ﴿**ولاَ يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾.

الخطاب هُنَا للرَّسُولِ ليسْمَعَ أصحَابُ الاعْتراضِ على تنزيلهِ مُفَرَّقاً، وقد سبق في سورة (الفرقان) نَفْسِهَا عَرْض طَائِفَةٍ من اعتراضاتهم ومقترحاتهم، الَّتي جاء في السُّورةِ الإجابَةُ عليها.

والمعنى أنَّ من حِكَمِ تَنزيلِ القرآنِ مُفَرَّقاً منجَّماً مُتَابَعَةَ جَدَلِيَّاتِ الَّذين كَفَرُوا فيما يُقَدِّمُونَهُ من أمْثِلَةٍ يصطنعونها بآرائِهِمْ، ويَقْتَرِحُونَها، ويَرَوْنَ أنَّها هي الصُّوَرُ الأفضَلُ الَّتي يَنْبَغِي أن يكونَ عليها حالُ الرسُولِ، أو حالُ القرآنِ، أوْ حالُ أحكامِ الشريعةِ والْمِنْهَاجِ.

فبهٰذِه الْمُتَابعةِ يُقَدِّم اللَّهُ عزَّ وجلّ في النَّصّ اللاحق ما يكشفُ بِهِ وَجْهَ الحقِّ، لمن يَطْلُبُ الحقّ بصِدْقٍ، إذا كان ما اقترحه الكافرونَ مِنَ الأُمورِ الباطلة.

ويقدِّمُ في النَّصّ اللّاحِقِ ما يَتَضَمَّن تفسيرَ وجْهِ الحكمةِ من الطريقة الرَّبّانيّةِ المختارة، إذا كان ما اقترحه الكافرون إحدى الصُّوَرِ الممكنة غير المرفوضةِ عقلاً، لكِنَّ الاختيار الرَّبّانيّ قد كانَ هو الأفضلَ والأَحْسنَ والأحكم، فيكونُ تفسير ما جاء من عند اللَّهِ في كلِّ ذلك لملاءمةِ الأفْضل والأحسنِ والأحكمِ، هو الأحسن والأفضل والأحكم من تفسير ما اقترحُوه.

وحينما يكون تفسيرُ ما أنزل اللَّهُ أَحْسَنَ من تفسير ما اقترحُوهُ، يكُونُ ما أنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ أَحْسنَ ممَّا اقترحوه حتماً.

والمرادُ من المثَلِ هُنَا: النموذَجُ المقترحُ الذي يُقدّمه الكافِرونَ، في اعتراضاتهم وجدليّاتِهِمْ، حول ما ينبغي ــ بحسب آرائهم القاصرة ــ أن يكون عليه

الرسول، أو القرآن، أو الحكم الديني، أو الطريقة الربَّانية في وسيلة التبليغ، أو غير ذلك.

ولمَّا كانت مقترحاتُ الناس بمثابة صُوَرٍ مَرْسومَةٍ يقدّمونها، ليكون الواقع التطبيقيُّ على وفْقِها، كانَ أدَقُّ تعبيرٍ جامعٍ هو التعبيرُ عنها بأنَّها أمثال، والواحد منها «مَثَل» فقال تعالى:

﴿وَلَا يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جئناك بالْحَقِّ وأَحْسَنَ تفسيراً﴾

أي: ولا تأتونَ الرَّسول بِمَثَلٍ تقترحونه إلَّا أنزلْنَا في نجوم التنزيل الْلاحق ما يكشف وجه الحقّ، أو يُبَيِّن أنَّ اختيارنا هو الأحسن ممَّا اقترحتم.

ولكن لم يواجهْهُم اللَّهُ بالخطاب، لأنَّ النصَّ جاء لإجابة الرَّسول على شكواه من أقوالِ كفَّار قَوْمِه.

* * *

المثال الخامس:

في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) عرض الله عزَّ وجلّ موجزات مختزلات من قصة قوم نوحٍ، وقصة عادٍ قوم هود، وقصة ثمود قوم صالح، وقصّةِ قوم لوطٍ، وقصّة فرعون وآله.

ويُلاحظُ في هٰذِه القصص المختزِلاتِ التنويعُ في الأْداء البياني لدى عرضها، فلم تُعْرَضْ فِقراتُها على نَمطٍ واحد.

ففي عرض قصة قوم نوح عليه السلام قال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

أي: قبل الذين كذّبوا محمداً ﷺ إبَّانَ التنزيل.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

نُلاحظُ أنّه بَعْدَ عَرْضِ قصّةِ إهلاكِهم وجّه السُّؤالَ الذي يَلْفتُ النظر إلى الاتّعاظ والاعتبار بما جرى لقوم نوح.

أمَّا عرضُ إهلاك عاد فقد قال تعالى فيه:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

فَوَجَّه السُّؤال نفسه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قَبْلَ أنْ يعرضَ مُوجَز إهلاكهم، وأجاب على هذا السؤال بقوله:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ريحاً صَرْصَراً﴾: أي: شديدة البرد ذاتَ صوت.

﴿أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾: أي: أصولُ نخلٍ منقلِعٍ من مَنْبتِه، بادِيةٍ أسافله المتشعثة المُمزَّقة.

وعقب ذكر هذا الموجَزِ وَجَّهَ السُّؤال نفسَه على معنى لَفْتِ النظر إلى الاتعاظ والاعتبار، فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

وأمَّا عرضُ موجزِ إهْلاكِ ثَمودَ فقد جاء بطريقة مختلفة عمَّا سبق فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في هذا العرض:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وهُنا يُقَدِّمُ النَّصُّ قَوْلاً مقتطعاً من الْحَدَثِ إبّان حدوثِهِ في الماضي، فيقول تعالى:

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨ ﴾.

الشِّرْبُ: وقْتُ الشُّرب، والنصيبُ من الماء.

هٰذا خطابٌ قدْ وجَّههُ اللَّهُ عزَّ وجلّ لرسولِهِمْ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام، قُدِّمِ هُنا مُقْتَطعاً من الْحَدَثِ الماضِي، دونَ مقدّماتٍ تُشِيرُ إلى ذلك.

وعادَ النَّصُّ إلىٰ حكايةِ القصة، فقال تعالى:

﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ ﴾.

أي: تمطَّىٰ مُتطاوِلاً قائماً على أطراف أصابعِ رِجْلَيْهِ رافعاً يَدَيْهِ، فَعَقَرَ ناقة اللَّهِ.

بعد هذا البيان وجَّهَ اللَّهُ السُّؤالَ السَّابقَ فقال:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠ ﴾.

وأجاب عليه بقوله:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١ ﴾.

إنَّهُ مَعَ تَناظُرِ الْهيكَلِ الْعَامّ إلاَّ أنَّ الأساليب اختلفت وتنوَّعَتْ.

وأمَّا عرض مُوجَزِ إهلاكِ قَوْمِ لوط، فقد جاء أيضاً بطرِيقَةٍ مختلفة، مع التناظُرِ في الهيكلِ العامّ مع ما سبق، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥ ﴾.

فقدَّمَ صُورة إهلاكِهِمْ قَبْلَ عَرْضِ أعمالهم، على خلاف مَا جاء في موجز قصّة ثمود، إذْ جاء عَرْضُ أعمالهم، قبل عَرْضِ صورةِ إهلاكهم.

بعد هذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

ولَمْ يُورِد اللَّهُ هُنَا السُّؤالَ السَّابقَ، إذْ كرَّر هُنَا عبارة: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وهي عبارةٌ مقتطعةٌ من الحَدَثِ الماضي.

أمَّا إهْلاكُ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِه فقَدْ جاءَ مُوجزاً بعبارَةِ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

فجاء هٰذا البيانُ بطريقةٍ مختلفة عمَّا سبق، مع بقاء التَّناظُر في الهيكلِ العامّ، كما نُشَاهِدُ اختلافَ السِّمَاتِ والخصائصِ في أفراد المخلوقات، مع تَشَابُه أفرادِ النوعِ الواحِدِ في الهيكل العامّ.

وهذا من إعجاز القرآن، وأَدَبِه الرَّفيع.

• • •

الصُّورَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ

وصف حال الإنسان إذا ركب الفلك وأحاطت به المهلكات تجاه الرَّبّ الخالق جلَّ وعلا . . ويقاسُ علىٰ هذه الحالة أشباهها :

عرض القرآن المجيد من صور الشدائد المخيفة التي تحيط بالمهلكات ما قَدْ يتَعرَّض له رُكّاب السُّفن في الْبَحْرِ من أهوال، يخشون معها الهلاك.

ونلاحظ في هذا العرض أنَّ القرآن قد قسَّم الناس إلى قسمين:

- **كافرين بربِّهم جاحدين.**
- **ومؤمنين به.**

١ ــ أمّا الكافرون فقد وصف الله عزَّ وجلّ حالهم، ووَعَظَهُمْ، وحَذَّرَهُمْ، وأَنْذَرَهم، في ثلاثة نصوص.

النصُّ الأول منها: جاء في سورة (يس/٣٦) السورة الحادية والأربعين بحسب ترتيب النزول.

النصُّ الثاني منها: جاء في سورة (الإسراء/١٧) السورة الخمسين بحسب ترتيب النزول.

النصُّ الثالث منها: جاء في سورة (يونس/١٠) السورة الحادية والخمسين بحسب ترتيب النزول.

٢ ــ وأمّا المؤمنون فقد وصف الله عزَّ وجلّ حالَهُم وعلَّمهم ما ينبغي أن يفعلوه ويقولوه إذا ركبُوا ما سخَّر الله لهم من مراكب ومنها الفلك في نصَّيْن:

النصُّ الأول منهما: جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول).

النصُّ الثاني منهما: جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

فلنتدبَّرْ هذه النصوص، لنكتشف ما نستطيع اكتشافه فيها من بلاغة عالية، وأدب بديع، وتَكامُلٍ فكريٍّ تربويٍّ حَرَكيٍّ عجيب.

النصوص الكاشفة لحال الكافرين والمعالجةُ لَهُم بالتَّربية الربّانية:

أما النصوص التي تكشف حال الكافرين وتَعِظُهم وتحذِّرهم وتنذرهم، فقد صوَّرت أنهم لا يلتجئُون إلى الله من أعماق قلوبهم مُخْلِصين له الدين ـ أي: يدعونه دُعاءَ المضطر المتضرِّع الذي لا يُشْرِك بربِّه أحداً ـ إلاَّ إذا أحاطت بهم المهلكاتُ، من كُلِّ الجهات، وتقطَّعَتْ بهم كُلُّ الأَسْباب التي يَرَوْن أنَّ اتِّخاذَها قد يُحَقِّق لهم النجاة، وغَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ هالكونَ لا محالة.

عندئذٍ يلجؤون إلى ربِّهم الواحد الأحد داعين مُتَضَرِّعين، وقَدْ يُقَدِّمون عهودهم ومواثيقهم له بأَنْ لَا يُشْرِكُوا به شيئاً إذا أنجاهم.

فإذا استجاب الله دعاءهم فأنجاهم ووصلوا إلى مأمَنِهم في البرِّ، رجعوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، فالْمُشْرِك يرْجع إلى شركه، وَالْمُعْرِض عن ربِّه الجاحد لنعمه يرجع إلى إعراضه وجحوده، وصاحب البغي يرجع إلى بغيه.

ونجد في جملة هذه النصوص الثلاثة المتعلقة بالكافرين (وقد يكون الأول منها عامّاً)، رُسُوماً بديعة من التصوير الأدبيِّ الرائِع لرُكّابٍ في الفلك، أحاطَتْ بهمُ الْمُهلكاتُ الْمَهُولة، وتقطَّعَتْ بِهم كلُّ أسباب النجاة المسخَّرة للناس، وأَعْيَتْهُمْ كلُّ الحيل، وصَارُوا يترقَّبون الضربة القاتلة من كل جهة، أو الْمَوْجَةَ المحطِّمة لفلكهم والْمُغْرِقَةَ له، لحظة فلحظة، ولَمْحَةً فلَمْحة، مع تسارع اللَّمحات، وقلوبُهم واجفة، وأفكارهم ونفوسهم في اضطراب متداخل متشابك، كتداخل حركاتِ الأهوال وتشابكها، وهم يَترنَّحُونَ سُكَارَىٰ ومَا هُمْ بسُكَارَىٰ، ويتراكضون مذعورين على غير هدى، وهذا التصوير بعضُه مذكورٌ وأكثره مطويٌّ اعتماداً على أذهان المتدبِّرين للنصوص، وما تستدعيه لوازم الأفكار، وطبيعة الواقع الذي تدلُّ عليه الرسوم.

ومع هـذا التصـوير البـديـع نجـد مـزيجـاً من التـربيــة والإقنـاع واستثـارة المشاعرالوجدانية الإيمانية، وجملةً من المعاني والمفـاهيم الدينيَّـة، وفنونـاً بلاغيَّـة كثيرة، مع إيجاز بالغ في العبارة.

وقد بدأ القـرآن المجيد لـدى عرض هـذا الموضـوع في نجوم التنـزيل بنصٍّ أُنزل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) يقول الله عزَّ وجلّ فيه:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

والذي يرجِّح أنَّ هذا النَّصّ مـوجَّه للكـافرين: أنـه مبنيٌّ هُو وآيـاتٌ قَبْلَه على قول الله عزَّ وجلّ في السورة نفسها:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿الْفُلْكُ﴾: مركب البحر، وهو يطلق على الواحد والاثنين والجمـع، ويذكـر ويؤنث، فيعـاد الضمير عليـه أحيانـاً بالتـذكير إذا اعتُبـر مذكـراً، وبالتـأنيث إذا اعْتُبر مؤنثاً. وقال ابن بَرّي: إذا جَعَلْتَ الْفُلْكَ واحداً فهو مُذكَّرٌ لا غير، وإنْ جعلتـه جمعاً فهو مُؤنَّث لا غير.

﴿الْمَشْحُونُ﴾: الْمَمْلُوء، تقول لغة: شَحَن السفينة يَشْحَنُها إذَا ملأها أحمالاً وركَّاباً.

﴿فَلَا صريخ لهم﴾: أي: فلا مُغيث لهم يستجيب لصُراخ استغاثتهم.

في هذا النجم الأوَّل حول هذا الموضوع من نجوم التنزيل يلفت الله عزَّ وجلّ النظر إلى آيةٍ من آياته التي أنعم بهـا على الناس في الأرض، وهي آيـة الفلك التي تجـري في البحر بمـا يَنْفَعُ النّـاس، وتحملهم وتحمل أثقـالهم إلى بلاد لم يكـونـوا بالغيها إلاَّ بشقِّ الأنفس، أو لا سبيل لهم إلى بلوغِها على اليابسة.

وهي آية تدلُّ على إتقان صنع الله، وعلمه المحيط بكل شيء وعظيم قدرتـه،

وبالغ حكمته، إذْ أعطى الأشياء والموادَّ الكونيَّة خَصَائِصَها وقوانينها، وذلَّلها وسخَّرها للإنسان، فمكَّنه من استخدامها، وبها استطاع أن يتَّخذ المراكب البحرية، ويجتاز على ظهورها المسافات الطِّوال، ويحمل عليها ثقيل الأحمال، ويَسْتَخْدِمَها في منافع كثيرة.

وهي آية على عناية الله بالإنسان، ورحمته به، وتكريمه له، إذْ سخَّر له الأشياء، ومكَّنه من الانتفاع بها، فعليه أن يشكر ربَّه على نعمه بالإيمان والطاعة، والتقرُّب إليه بالعبادات.

وكلُّنا نعلم أَنَّ المجموعات البشريَّة الأولى لم تكن تعرف هذه الوسيلة المسخَّرة لهم بمقتضىٰ قوانين الخلق، حتىٰ جاء تطوُّرٌ حضاري رافَقَهُ وحيٌ ربّاني بتعليم صناعة السُّفُن، فتوصَّلتِ الذُّرِّيَّة إلى اكتشاف هذا النوع من المراكب.

وفي توجيه النظر لهذه الآية يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

وقرأ المدنيان والشامي ويعقوب ﴿ذُرِّيّاتِهِمْ﴾ بالجمع.

وإذْ كانت هذه الآية غير معروفة للقرون السابقة للذُّرِّيَّة التي عرفت السُّفُنَ وركبتها، كان علينا أن نفهم أنَّ النصَّ يهدفُ للدلالة على أمرين:

الأوَّل: أنَّها آيةٌ مُقَدَّرة في التكوين منذ بدء الخلق، أي: قبل أن يكتشفها الناس وينتفعوا منها.

الثاني: أنَّها آية تُقَدِّم ظواهرها ودلائلها للناس بعد اكتشافهم لها، وانتفاعهم منها، ليتفكروا فيها، فيعلموا ما تدلُّ عليه من صفات الله الربِّ الخالق العليم الحكيم القدير الرحيم، ويَعْلَموا نعمةَ اللَّهِ عليهم بها، فيؤمنوا به ويَحْمَدُوه ويَشْكُروه ويُسْلِمُوا له.

● فالأمر الأَوَّل يُناسبه التعبير الذي ينطبق على البشر جميعاً.

● والأَمْرُ الثاني يُنَاسبه التعبيـر الذي ينـطبق على البشر بعـد اكتشاف الـذرِّيَّة لهذه الآية وانتفاعهم منها.

فكان من بديع البيان جَمْعُ التعبيرين في صيغة واحدة، والإشارة بالضميـر في ﴿لَهُم﴾ إلى عُمُوم الناس منذ بدء خلق آدم حتّى تقوم الساعة، وبهذه الإشـارة يُفْهَمُ المراد الأول. والإشارة بلفظ ﴿ذُرِّيَتهم﴾ إلى الناس بعد اكتشاف هذه الآية والانتفاع بها، وبهذه الإشارة يُفْهَمُ المراد الثاني.

فهي آيـة للناس منـذ بدء الخلق أودعهـا الله في التكوين، ثم ظهـرت للذرِّيَّة عند اكتشافها والانتفاع بها.

وهذا الأسلوب من بدائع البيان القرآني، ونظيـرُه قول الله عـزَّ وجلّ في سـورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) بشأن القرآن:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾.

أي: هو مُعَدٌّ لأن يكـون بَصَائـرَ وهدىً ورحمـةً للمكلَّفين من النَّاس جميعـاً، فهو لجميعهم بلاغٌ، وعليهم جميعـاً حُجَّةٌ، لكنَّـه في الواقـع بصائـر وهُدىً ورحمـةً لِقَوْمٍ يُوقِنُون بأنّه من عند الله، إذْ هم يؤمنون بالله ورسوله وبكتابه.

ولـو كان النصُّ: وآيـةٌ لهم أنّا حملنـاهم في الفلك المشحون، لَمـا كـان في النصِّ دلالـةٌ على أنَّها آيـة مقصودة منـذ بدء التكـوين بحسب صلاحيتهـا، وبحسب تقدير اكتشاف الذرِّيَّـة لها، على اعتبـار أنَّ الذين أدْركـوها هم الـذين شهدوهـا بعد اكتشافها، وشهدوا الانتفاع منها، فكان من الإبداع بغية التوجيه لفهم المرادَيْنِ قَوْلُـهُ تعالىٰ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وأشكل فهم هذه الآية على طائفـةٍ من المفسِّرين، فقـالوا في تفسيـر ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي: حَمَلْنَـا آبَاءَهُم، مـلاحظين سفينـة نوح ومن حُمِـل فيهـا من البشـر يومئذٍ.

وهذا التفسير لا نجد في اللُّغة ما يساعد عليه، لا عن طريق الحقيقة، ولا عن طريق المجاز.

والنظر في مقاصد الآية يهدي إلى أنَّ المراد هو ما سبق بيانه والله أعلم.

وبعد ذلك قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: من مثل الفلك. فأيُّ شيءٍ هذا الذي هو مثل الفلك؟

هل هو الجمل في الصحراء؟ هل هي الخيل والبغال والحمير وسائر المركوبات من الدواب؟ هل هي العربات التي كانت تجرها الحيوانات؟ هل هي السُّفُن المناظرة لسفينة نوح؟

آراء طرح المفسِّرون معظمها، ولا بأس أن يجري عليها الفهم حقبةً من الزمن لأنها داخلة في عموم الدلالة، لكن لدينا آية أخرى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) يقول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

فأبان اللَّهُ فيها أنَّه يخلُق لنا ما نركبه ممّا لم يكن الناس يعلمونه إبَّانَ التنزيل، أي: يَخْلُقُ في المستقبل.

وقد وصلنا إلى عصر وجدنا فيه أنَّ الله قد سخَّر لنا الحديد والنار والكهرباء وقُوىً كثيرة كانت خَفِيَّة، وهدى الناس إلى اختراع مراكبَ مختلفات، فركبوا منها مراكب بَرِّيَّةً وبحريَّةً وجوِّيَّة.

أفلا يحقُّ لنَا أن نراجع التَّدبُّر، فنفهم أنَّ الله عزَّ وجلّ قد دَلَّ بآية (النحل): ﴿ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ على ما سيخلُق عن طريق هداية البشر إلى صنع المركبات المختلفات، ونفهم أنَّه تعالى قد دلَّ بآية (يسٓ): ﴿وخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِه مَا يَرْكَبُونَ﴾ على هٰذِه المركبات التي تَوَصَّل إليها الناس وعلى أشباهها مما يمكن أن يستحدث في المستقبل، إضافة إلى ما سبق أن خلقه ممّا طرحه المفسِّرون في احتمالاتهم؟

وجاء استعمال الفعل الماضي في آية (يسّ) للدلالة على أنَّ الأمر مُبْرمٌ في القضاء ينتظر وقت ظهوره، ولهذا الاستعمال نظائر في القرآن، منها قوله تعالى خطاباً للرسول وصحبه في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: أورثكم بقضائه وقدره أرضاً لم تطؤوها بَعْدُ في الواقع.

وقوله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: قَدَّرْنا إهْلاكها، أو أمرْنا بإهلاكها، فهي مهلكة في القضاء المبرم ولو أنَّها ما زالت قائمة في الواقع.

والمُمَاثلة بين الْفُلْك في البحر والطائرات في الجوِّ ليست بحصول الركوب فقط، إنَّما هي مماثلة من وجوهٍ كثيرة.

الأول: أنَّها صنع إنساني يستفيد به الإنسان من المسخَّرات في الكون، ومن قوانينها التي فطرها الله عليها.

الثاني: أنَّ الفلك يحملها بحر من الماء، وأنَّ الطائرات يحملها شبيه البحر من الريح.

الثالث: أنَّ الرِّياح التي كانت تسوق السُّفُن بتوجيه رُبَّانها هي شرط لازم لِسَوْق الطائرات بتوجيه قائدها أو رُبّانها، وبدون الرِّياح لا ترتفع الطائرات في الجوِّ ولا تجري.

أفلا يُرَجِّح كلُّ هذا التماثل أن نفهم الآية على أنَّها من أنباء الغيب المستقبليِّ المؤكَّد بالفعل الماضي، والذي تحقَّق وقوعه فعلاً بعد قُرونٍ؟.

ولم يكن هذا أمراً واقعاً مشهوداً حتّى يتَنَبَّه إليه المفسرون الأوَّلون لكتاب الله عزَّ وجلّ، وعذْرُهم قائم، لأنَّهم لم يُرِيُدوا أن يتكهَّنوا بما لم يعلموا، ولم يريدوا أن يخرِصوا خرصاً ويَحْدُسُوا حدساً.

وكثير من الدلالات القرآنية لم تُعْرَفْ حتى اكتشف البحث العلميُّ التجريبيُّ حقيقتها.

وبعد عرض الظاهرة والتنبيه على أنها من آيات الله الدّالات على جملة من صفاته الجليلات، وعلى عِنَايَتِهِ بخلْقِهِ وإنعامه عليهم، وجَّه النصُّ لحقيقةٍ يجب على كلِّ ذي فكر أن يضعها في حسابه، وهي أنَّ أحداً من الخلق لم يخلُقْ موادَّ هذه المسخَّرات، ولا يستطيع السيطرة على أحداث الكون، وتصاريف المقادير، التي قد تأتي بأسباب لا يَمْلِكُ الناس ضَبْطها، أو توجيهها، أو التحكُّم بها، ودفع كوارثها، إنَّما يملكها الله عزَّ وجلّ وحده، فهو إذا شاء أرسل ريحاً عاصفة قاصفة، أو أيِّ سبب آخر، فأغرق المركبة البحرية وركّابها، مهما كان شأنها، أي: ورمى المركبة الجويَّة وحطَّمها، وأهلك رُكَّابها، وفَعَل مِثْلَ ذلك في كلِّ مركبة، فقال تعالى:

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وإنْ نشأْ إغراقَهم نُغْرِقهم.

وجاء التعبير بالإغراق لأنَّه الملائم الذهنيّ القريب لأحوال السُّفُن البحريَّة، ونَستطيع أن نفهم أنه ليس مقصوداً لذاته على وجه الخصوص، إنَّما هو مثال لكل الصُّور والوسائل التي يمكن أن يكون بها الإهلاك، فقد يكون الإهلاك بالحريق، أو بالصواعق، أو بالاختناق بالغازات، أو بالضربات القاتلات، أو بغير ذلك من وسائل.

ويشير النصُّ إلى حالتهم حينما تحيط بهم القواتل والمهلكات من كلِّ مكان، وقد تقطَّعَتْ بِهِم الأسباب، وأعيتهم الحيل، إذْ يَضِجُّون مصْطَرِخين مستغيثين، يَدْعُونَ بالإغاثة والإنقاذ، فلا يَجدون من يُغِيثُهم ويُنْقِذُهم ممَّا هم فيه، لأنَّ الرَّبَّ العليَّ القدير الذي بيده مقاليد كلِّ شيء قد شاء أنْ يُغْرِقهم.

فأين نجدُ الإشارة إلى هذه الصورة المطوية من حالتهم التي قد وصلوا إليها؟

إنَّنا نجدها في قول الله تعالى في النصِّ: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾: أي: فلا مغيثَ لهم مهما أضَجُّوا واصطرخوا.

إنَّهم لا يستغيثون بصُرَاخ إلَّا بعد أن يستنفدوا كلَّ وسائلهم وحيلهم، التي لم تُغْنِهم، ولدَىٰ تَصوُّر محاولاتهم تَرْتَسِمُ في الأذهان صُوَرٌ كثيرة من حركاتهم وأصواتهم، وآثارِ الرُّعْب في وجوههم، وتراكُضِهم الْعَشْوَائِي على غير هدى، ووُجُوم بَعْضِهِم حيارىٰ، وتَرنُّح بعضهم كالسُّكارى.

أليس الاكتفاء بعبارة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهم﴾ من الإبداع الأدبي الرفيع، إذْ يُكْتَفَىٰ بدلالة الفكرة من موضوع، أو اللَّمحة السَّريعة من مَشْهد، أو اللَّقطة الْجُزْئِيَّة من سِلْسِلةِ أحداث، للدَّلالَة على اللَّوازم، والمقتضيات والمقارنات، مع ما تُوحي به الْقَرائِنُ المختلفة اللَّفْظِيَّةُ أو الذِّهْنِيَّة.

واحتاط البيان القرآني هنا بعد عبارة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، فألمح إلى حالة من أحوال الاستغاثة، وهي حالة الاستغاثة بالله، والالتجاء إليه، وتَوْجيهِ الدُّعاء الخالص له، نَقِيّاً من الشِّرْكِ، ففي هٰذِه الحالة قَدْ تَقْضِي حِكْمةُ الْبَارِىء عزَّ وجلَّ بإنْقاذهم، فيصرفُ عنهم أسباب الهلاك برحمته، ويُعطِيهم فرصةً للتَّوْبة النَّصوح، والرجعة الصَّادقة إلَيْهِ، والثَّبات على الإيمان والطاعة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ مِنْ شُركائهم أَوْ غَيْرِهِمْ، ولا يُنْقَذُون من أَيَّةِ جهة من

الجهات، ولا بأيَّةِ وَسِيلةٍ من الوسائل، إلاَّ إنْقاذاً يكون رحمةً منَّا، ومَتاعاً قَلِيلاً في الحياة الدُّنيا، إلىٰ حينِ حُلُولِ آجالهم، ليستكملوا رِحْلَةَ ابتلائِهِمْ في الحياة الدنيا.

أفليسَ نصّاً أدبيّاً رائعاً هذا النصُّ الوجيز الذي استوعب كلَّ هذه المعاني والصُّور الأدبيَّة، والدلالات اللَّمْحيَّة؟!

فلنُعِد تلاوة النَّص مُلاحظين مَعَها هذا التدبر الذي نَعْتَقِد أنَّنا لم نَسْتَوْفِ فِيه كلَّ ما يُمْكِن أن يُفْهم منه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

إنَّ على الأديب ذي الحسِّ المرهف ـ مع اسْتِحْضار المعاني الثرَّة التي دلَّ عليها هذا النصّ ـ أنْ يتحسَّس ويتَذَوَّقَ فيه الانسجام الحلْوَ العَذْب، المنساب انسياب الماء الصافي الرقراق السلسبيل، ويرتشف من عذوبته وحلاوته وطَلاَوَتِه بسَمْعِه وفكره وقلبه قطرة قطرة.

* * *

وبعْدَ ثماني سُوَرٍ من الْقُرآن نزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ (يسٓ) أنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قولَهُ حوْلَ الموضوع نَفْسِه في سياق الْحَديث عن المشركين المكذبين بالرسول وبما جاء به عن ربِّه وخطاباً لهم:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

نـلاحظ في الآية الأولى من هـذا النَّص أنَّ الله عزَّ وجـلَّ يُوجِّـه الحديثَ فيهـا للمخاطبين الكافرين بكاف الخطاب ثلاث مرات: ﴿رَبُّكُمْ ـ يُزْجِي لَكُمْ ـ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

كان من الممكن الاكتفاء بالأول منها ﴿رَبُّكُم﴾ دون أن يؤثـر ذلك على المعنىٰ العام، لكِنَّ لتكرير الخطاب دلالة خاصةً مقصودة.

ونستطيع أنْ نفهم أنَّ الغرض بيانُ أنَّ الإزجاء لكل سفينةٍ فعلٌ ربَّانيٌّ مقصودٌ، ملاحظٌ فيه العناية بركَّابها، ولو كانوا كافرين بـربهم، جاحـدين، مشركين، عصـاة، وليس مجرَّد قانون عامّ ينطَبِقُ عليهم وعلى غيرهم، دُونَ تَوْجيه العناية الخـاصة بمن هم على ظهور السُّفُن. ونظير ذلك خِطَابُهم بقولـه: ﴿إِنَّه كَـانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾: أي: فرحمته موجهة بقصد لكل مـرحوم من عبـاده ولو كـان كافـراً، مع كـلِّ حركـة إمْدادٍ وحفظٍ من المخاطر، وتأمينٍ وتَسْلِيمٍ من العوارض والمهلكات.

وفي هـذا الخـطاب المتكـرر نتَـذَوَّقُ طُعُـوم التـودُّد، والتـأنيس، والامتنـان، واستثارة دوافع الإيمان والحمد والشُّكـر، والْعِتَاب، والتَّلويم، ويُحِسُّ كُـلُّ مخاطب منهم بمقـدار ما بقي لَـدَيْـهِ من حسٍّ لم يَنْعَـدِمْ، أو لَمْ يتبلَّدْ، فقـد يَتَـذَوَّقُ تلويمـاً، أو عتاباً، أو تودُّداً وتأنيساً أو غير ذلـك، وقَدْ لا يُحسُّ بشيء، لأنـه مُنْطَمِسُ كـلّ أداةِ حسّ وجدانيٍّ فيه بسبب إمعانه في كفوره وجحوده.

﴿يُزْجِي لكُمُ الْفُلْكَ﴾: أيْ: يَسُوقُها لكُمْ سَوْقاً بِرِفقٍ.

وقد استعمل القرآن هذا الفعل يُزْجي مرتين:

الأولَىٰ: هـذه من سُورة (الإسـراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نـزول) للدلالـة على سوق الفلك.

الثـانيـة: مـا في قـول الله عـزَّ وجـلَّ في سـورة (النـور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ... ﴿٤٣﴾ ﴾.

للدلالة على سَوْق السُّحُب.

والإِزْجاء في اللُّغة: هو السَّوْقُ والدَّفْعُ برفق ويُسْرٍ. فالْكَلِمةُ في الموضعين منتقاةٌ من اللِّسان العربي بمنتهى الدقَّة، إذِ السَّحَابُ يُساقُ إلى مواطن تجمُّعه في الجوّ برفق ولطف، والسُّفُن الشراعيَّة تُساقُ بالريح برفق. وهذا من بلاغة انتقاء الكلماتِ الدَّالَّاتِ بدقَّة على المعاني المرادة.

وفي التعبير بعبارة ﴿ربُّكم﴾ دلالة على أنَّ الرَّبَّ الخالق الذي يخلُقُ وفْقَ نظام التربية، وهو الإنشاء المتدرج لحظة فلحظة، هو الذي يُتَابع مَرْبُوبيه بالعِناية الدَّائمة، والمراقبة المستمرَّة، فهو الَّذِي يُزْجِي لكم الفلْكَ من خلال سُنَنه، أو خلقاً بعد خَلْقٍ مُقارناً لظواهر الأسباب التي جعلها سُنَناً، وسَتَرَ بِهَا عمليَّاتِ خلقه، وامتحن عباده عن طريقها.

● فالكافِرُ يَسْتُر أدِلَّة الإيمان بالله ويُؤْمِنُ بالأسباب.

● والمؤمن يَتَجاوَزُ ظواهر الأسباب ويؤمن بالله مُسَبِّبها، ويُلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سَتَر عمليَّاتِ خلقه بظواهر الأسباب، ليمتحن إيمانَهُمْ به، وصِدْقَ تعلُّقهم به لَا بالأسباب، مَعَ تكليفه إيَّاهم أَنْ يَتَّخِذُوا الأسْبَابَ.

ونتساءل: ما الغرضُ من قول الله تعالى: ﴿فِي الْبَحْرِ﴾، مع أنَّ الْفُلْكَ لا تُزْجَىٰ في العادة إلَّا في البحر؟ هل هو مجرَّد إطناب؟

وبالتأمُّل نستطيع أَنْ نَقُول: إنَّ الغرض إعطاء المشهد لقطةً من صورة بحر عظيم مهول، دلَّ على عظمه وهَوْلِهِ ذِكْرُهُ مُعَرَّفاً بِأَدَاةِ التَّعريف (أل) الَّتِي هي هُنا للتعظيم والكمال، والإشعار باستجماعه لكلّ صِفات البحر العظيم، توطئة لتصوُّر حالة الضُّرِّ التي قد تمسّ راكبي الْفُلْكِ الجاري عليه، ويضاف إلى هذا الغرض دفع تصوُّر أنَّ الْفُلْكَ تجْري في نهرٍ من الأنْهار.

فمن وضعَ في تصوُّره بحراً طامياً عظيماً، والفلْكُ في عُبَابه بعيدٌ عَنْ كلِّ

الشَّـواطىء، استطاعَ أنْ يَسْتَـدْعِي تصوُّرَه أحـوال هذا الفلك وركـابِه حينمـا تتخبَّطُهُ رياح عاصفة قاصفة على أمواج ثائِرة.

وبَيَّن الله عزَّ وجلَّ الغرض مِنْ إزْجَائه الفلك في البحر للنَّاس، فقَالَ سبحانه:

﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وعمَّمَ النَّصُّ الابتغاءَ ليشمل كُـلَّ ما فيـه منافـع للناس، كـالتجارة، والصَّيْـد، وجَلْب الأرزاق، واجتياز المسافات لتحقيق المصالح الحياتية، الدنيوية والدينيَّة.

ولمَّا كان كلُّ ما يمكن أن يُحَقِّقه النَّاسُ من منافع إنَّمـا هو من فضـل الله على عباده، وكان على الناس أَنْ يُدْرِكُوا هٰذِهِ الحقيقةَ ويؤمنوا بها كان من الحكمة الْبَيَانِيَّـةِ إبْرازُ هٰذِهِ الحقيقة في النصِّ، ولو كان المخاطَبُون غيْرَ مؤمنين بها، فقال تعالى:

﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وفي هذا التعبير تَوْجيهٌ ضمني لِلُزُوم التَّقَيُّد بطاعة الْمُزْجِي المتفضل، والعملِ بما يُرْضيه، أَوْ بما أَذِنَ به وأباحه، لا في الفسق والعصيان، والبغي والْعُـدْوان، فالله سخَّـر لكم المسخرات ويُـزْجي لكُم الفلك في البحر، لتبتغـوا من فضله ما هـو في الواقع لكم نفع، لا فيما يعـود عليكم بالضـرر. ومعاصي الله تَعُـودُ بالضَّـرَر الكبير، ومع ذلك تظلُّ المسخَّرات على وضعها ولو عصيتم، ليبلُوَكُمْ الله فيما آتاكم.

ويضع النصّ المتَلَقِّين له أَمَام احتمالين:

الاحتمـال الأوَّل: هو احتمـال الرِّحْلَة الآمنـة، وتَحْقِيقُ المقصود منهـا، وهنـا تأتي المفاهيم الإيمانية فتقدِّم نَفْسَها:

- الله هو الذي يُزجي لكم الْفُلْك.
- والله هو الذي سخَّر لكم المسخَّرات.
- والله هو الذي يَحْفَظكم ويُسلِّمكُمْ.
- ومـا تحقِّقونـه لأنفسكم بأعمـالكم من منـافـع لكم إنَّمـا هُـوَ من فضـل الله عليكم.

● وكلُّ ذَلِكَ من مَظَاهِرِ صِفَةِ رحمته بكم.

فيأتي ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إنَّهُ كانَ بكم رحيماً﴾ تتويجاً لهذه المفاهيم.

والتعبير بفعل (كان) يفيد الوصْفَ المستمرّ، لأنَّ الكينونة الأزلية ذاتُ ثَباتٍ أَزَلِي، فهي لا تتحوَّل ولا تَتَبدَّل ولا تتغيَّر.

الاحتمال الثاني: هو احتمال الإحاطة بالمخاطر والمخاوف والأسباب المؤدِّية إلى الهلاك. وما أكثر ما تَحْدُثُ لركَّاب الفلك في بحرٍ عظيم.

وفي هذه الحالة يمسُّ الضرُّ رُكّاب السفينة، إذْ تتقطع بهم الأسباب، ويشتدُّ خوفُهم من الهلاك، فلا يَجِدُونَ ملجأً، إلاَّ الدُّعاء والالتجاء لقوىً في الغيب وراء المشهود، ولا يَجِدُون من يُغِيثُهم إذا دَعَوْهُ إلاَّ ربَّهم، الذي يُزجي الفلك ويرحم عباده، ويُسَكّن الرياح الهوج، والبحر المتلاطم إذا شاء. والذي يمتحن ويذكِّر وينذر بالمخاوف إذا شاء. والَّذي يعاقب بالعدل إذا شاء، فَيُهْلِك ويُغْرِق، ويُحَطِّم ويَكْفأُ السُّفُن، ويَفْعَلُ ما يشاء، فقال عَزَّ وجلَّ:

﴿وإذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاه﴾.

﴿مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾: أي: وَصَل الضُّرُّ ــ وهو ما تكرهُونَ من المؤلمات ــ حدَّ المسِّ، ولكِنْ لم يصل حدَّ الْعَذَابِ الأليم المهلك، أو الإصابة القاتلة، وفي التعبير بالمسّ دقَّةٌ في الأداء وانتقاء ما يدلُّ على المعنى المراد من الكلمات.

﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُون إلاَّ إيَّاهُ﴾: أَيْ: ضَاعَ عنكم كُلُّ من تُوجِّهون له دعاءَكم من دون الله، لأنَّه إنْ كان يَسْمَعُكم أحدٌ من جنّ أو ملائكة، فهو لا يملك لِرَفعِ الضرّ عنكم شيئاً، إذَنْ فَهو أو غَوْثُه ضائع عنكم لأنه لا يغيثكم بشيء، وإنْ كان لا يسمعكم فهو أضْيَعُ.

والشَّيْءُ الضّائع مفْقُودُ الذات عند الحاجة إليه، أو مفقودُ الأثر والنفع. وكُلُّ الشركاء التِي يَتَّخِذُها النَّاسُ مِنْ دُونِ الله كَذلك، في فَقْدِ الذَّاتِ، أوْ فَقْدِ الأثَر

والنَّفْـع، حتَّى الأنظمـة السببيَّة، هي معـدومة الـذَّاتِ، أو معدومَـةُ الأثـر والنفـع إذا شاء الله ذلك.

والتعبيـرُ الشَّامـل الذي يـدلُّ على أخفِّ المعاني فمـا هو أشـدُّ منه لـزوماً هـو التَّعْبيـر بالضـلال، الذي هـو الضيـاع، فكـان اختيار كلمـة «ضَلَّ» في منتهىٰ الـدِّقَّة الْبَيَانِيَّة، وهي منتقاة هنا بعناية.

وفي التعبير بعبارة: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ﴾ تصـويرٌ لحـال الشركـاء، بأنَّ كلَّ شريكٍ مما يَزْعُمهُ المشـركون، هـو بمثابـة الشَّيْءِ الضَّائـع الَّذِي لا يُهْتَـدىٰ له، أو بمثابة الضَّالِّ الضائع السائرِ في متاهة، الَّذي يحتاج مَنْ يُرْشِدُه ويُعِينُه حتَّى يَهْدِيه إلى الصراط، فَضْلاً عَنْ أن يكون هو قادراً على إسعاف مَنْ يناديه ويَسْتَغِيثُ به.

ثمَّ لا يجـد هٰؤلاء الْمُحَاطُـونَ بـالْمُهْلِكـات من كـلِّ جـانب في فُلْكهم إلاَّ أن يقطعوا الصلة بشركائهم، ويدعوا ربَّهم مُخْلِصِين له الدعـاء مُدْرِكِينَ أنّـه لَنْ يُنْقِذَهم ممَّا فيه غيره.

فجاء الاستثناء في جملة ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاه﴾.

وطُوِيَ في النَّصِّ ما يَدُلُّ صَراحةً علىٰ أنَّ ربَّكم قَدْ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ إذَا دَعَـوْتُموهُ مُخْلِصيـن لـه الدعاء، لا تُشْرِكُون به شيئاً، فَيُسْكِن الريـح، ويُسْكِنُ البحر، ويَـدْفَعُ عنكم المخـاطر، وينجيكم، ولكن جـاءَتِ الإشـارة إليـه بقـول الله عـزَّ وجـلَّ عقب ذلك:

﴿فلمَّا نَجَّاكُمْ إلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾.

وهذا من الإيجاز النَّفِيس، الذي يَمْلأُ الذهنُ فراغَاتِه بسهولة.

ونَتَساءَلُ: هل يَتَعدَّى فِعْلُ ﴿نَجَّاكُمْ﴾ بحرف الجرّ ﴿إلى﴾؟.

والجواب: أنَّ فِعْلَ ﴿نَجَّاكُمْ﴾ قد يُقَالُ في تعديته: نَجَّاكُم مِن الهلاك. ولكن اسْتُغْنِي عن هٰذِهِ التَّعْدِية، لِأَنَّها تُفْهَمُ ذهناً، ولو لم تُذْكر، وضُمِّنَ الـفعـلُ معنى فعل

(أَوْصَلَكُمْ) أو فعل (أَبْلَغَكُم) فَعُدِّيَ تعديته، فأغنت التعدية بحرف الجرّ (إلى) عن ذكر الفعل المحذوف الذي ضُمِّنَ معناه في الفعل المذكور، والتقدير فلمّا نَجَّاكم من الهلاك وأبلغكم إلى البرِّ.

إنَّ هذا التضمين الَّذِي له نظائر في القرآن كثيرة هو من نفائس الإيجاز البديع فيه، القائم على الإلماح إلى الفعل المحذوف بذكر تعديته، مع مساعدة القرينة الفكرية، ولوازم المعاني في الجملة.

ونتساءل أيضاً: عـمّاذا أعرضوا؟ إنَّ النَّصّ قد طَوَى جواب هذا السؤال، واكتفى بعبارة:

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾.

وليس يصْعُبُ على أيّ متدبِّر أن يُدْرِكَ الجوابَ بسرعة.

إنهم لمَّا نَجَّاهم رَبُّهم من الهلاك وأوصلهم إلى البرِّ، وأحسّوا بالأمن، وكانوا قد دعوه مخلصين له الدِّين، وعاهدوه على أَنْ يُؤْمِنُوا به وحْدَهُ لا شَرِيْك له، ويكُونُوا له من الشاكرين، لمَّا نَجَّاهم أَعْرَضُوا عن ربِّهم، وعن كلّ ما قَطَعُوهُ من عُهودٍ تجاهه، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل.

لم يَتَّعِظُوا بالتَّرْبية الشَّديدة المخيفة الَّتِي وضَعَهُم الله فيها، بل عادوا إلى خَلَّتِهم التي هي دَيْدَنُهُم في الرَّخاء، وهي الْجُحود، والإمعان في الكُفْر، فقال الله عزَّ وجَلَّ:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

إنَّها خصلتُهُ الذميمةُ، يتضرَّع لربِّه عند الضرورة، وكلَّما أَعْيَتْهُ الحيل، ولم يَجِدْ سبباً يُنْجيه، فإذا استجاب الله دعاءه، وأعطاه سُؤْله، كَفر بربِّه، وأَمْعَنَ في غيِّه وبَغْيه، وتمرَّد على طاعته وأحال نَجاتَه وأَمْنَهُ على ظَواهر سَبَبيَّة صِرْف، وانْطَلَقَ في سُبُلِ فِسْقِهِ وَعِصْيَانِهِ، وجُحُودِه وَطُغْيَانِه.

هذه هي السِّمَة العامَّة للإنسان، والتي تظهر في النسبة العظمى من أفراد هذا

النوع، إذْ مَنَحَهُ الخالق البارىء المصوِّر الاختيارَ الحرّ، ولم يجعلْه مجبُوراً في تحرُّكاتِ إرادته وتوجُّهاتها.

إنَّه كفورٌ، بصيغة المبالغة «فَعُول».

وهُنَا لَا بُدَّ مِنْ مُعَالجة هٰذِهِ الْخَلَّة والسِّمَةِ الْبَارِزَة في الإِنْسان، والتي تظهر في الفئة الكافرة من هذا النوع، بالإقناع والتحذير من مغبة كُفْره مُحَاصَراً في تربيته من فكره ونفسه.

وجَمَع الله عزَّ وجلَّ في النصّ الإقناع والتحذير معاً بأسلوب السؤال الذي ينتزعُ من المخاطبين الجوابَ انتزاعاً تِلْقَائيّاً، إذْ لا جَوابَ غيره يراوغون به، فقال عزَّ وجلَّ خطاباً لهم:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

الخسف: أن يَذْهَبَ مكانٌ من الأرض ساقطاً إلىٰ أَغْوَارٍ جَوْفِيَّة فيها.

تارةً أخرى: مرَّة أخرى. أو عابرة من الزمان أخرى.

أي:

- أَفَـظَنَنْتُمْ أنَّكم إذَا وَصَلْتُم إلى الْبَـرِّ أَمِنْتُم كُـلَّ المخـاطـر، وانتهت كـلُّ مشكلتكم مع المهلكات القاتلات المحيطات بكم؟

- أفلا يستطيع الربّ الخالق البارىء عـزَّ وجلَّ إذَا شَـاء إهلاككم أن يُهْلِكَكُم بسبب آخر غيْرِ الإغراق في البحر، وهو الذي أنجـاكم حينما تـوكَّلْتُمْ عليه مخلصين له الدين، بعـد أن خابَتْ كـلُّ وسائلكم المـادية والغيبيَّـة إلَّا الالْتجاء إليـه والتوكُّـل عليه؟

- أَلَيْسَ مِنْ وسـائـل إهـلاككُمْ خسفَ الأرضِ من تَحْتِكُمْ، وتغييبكم فيهـا،

مُحطَّمين هَلْكَىٰ مَقْبُورين؟ وهـذا أمرٌ هيِّن على بـارئكم، وقد فعله لبغـاةٍ في الأرض قبلكم.

● أَلَيْسَ من وسـائـل إهـلاكِكُمْ رَجْمَكُمْ بِـريـحٍ تَحْمِـلُ الْحـصْبـاء وتَقْـذِفهـا عليكم؟ وقد أهلك ربكم أمماً قبلكم بهذه الوسيلة.

● أليس من وسـائل إهـلاكِكُمْ أن يُعِيـدَكُمْ بـوسيلةٍ مـا إلى البحـر من خـلال شعوركم بالأمن، ورغبتكم في ركوب البحر لتَبْتَغُـوا منافـع لكم بذلـك، فإذا جَـرَتْ بكُمُ الفلك إلى عُبَـابِـه، أرْسَـل عليكم ربُّكُم قـاصفـاً من الـريـح فـأغـرقكم بسبب كفركم؟

كلّ هذه الاحتمـالات التي تَهْلِكُونَ بهـا هي وغيرهـا أُمُورٌ ممكنـة، وهي على ربِّكم يسيرة، فهو على كلِّ شيءٍ قدير.

فكيف تُعْـرِضُـونَ عَنْ ربِّكم بَـارِئِكمْ ومُصـوِّركم، وتَنْقُضُـــونَ عُهـودَكُمْ الَّتي قَدَّمْتُموهَا لَهُ عند أَدْعية الاضْطِرار، فَرَحِمَكُمْ وأنجاكُم، إذْ توكَّلتم عَلَيْهِ حق التوكُـل، وأخْلَصْتُمُ الدين له؟!

أمَـا وقد أثْبَتَ الاخْتِبَـارُ أَنَّكم كَفُورُون كَنُـودُون جَحُودُون، فـإنَّـه إذا أحـاطكم بالشَّدائـد تارةً أخـرى، فلاَ تَـطْمَعُوا بـأن يكون وكيـلاً لكُمْ إذَا دَعَوْتُمُـوه مخلصين له الـدين، وتوكَّلْتُم عليـه، وإذَا لَمْ يكنْ هـو سبحـانـه وكيـلاً لكم لِعَـدَمِ أهليتكم لأَنْ يَرْحَمَكُم فيَتَوَلَّىٰ دفع الضرّ عنكم، وهو القدير عليه، لأنه هو الـذي بيده مَقـاليد كـلّ شيء، فلَنْ تجدوا لكُمْ وكيلاً.

وإذَا أهلككم ربُّكُـمْ بكُـفْـرِكُمْ، فـقـد أهلكـكمْ بـعـدلٍ، وحِيـنَ يَبْـعثُكُم لا تَسْتَطِيعُون المطالبةَ بأيِّ تَعْوِيضٍ عَنْ إهلاككم، ولَنْ تَجِدُوا تبيعـاً يُتَابِـع لَكُمْ عِنْدَ ربِّكم لِيُنْصِفكم من إهلاككم، إذْ لا أحد يُتَابع على الرَّبِّ، ولا حَقّ لكم يُتَابِـع أَحَدٌ لكُمْ بِه، لَوْ اسْتَطَاعَ الْمُتَابَعة.

فالتَّبيع هو الْمُتَابع عَنْ غَيْرِه لتحصيل الحقوق، وباستطاعتنا أَنْ نُفَسِّرهُ بمُحَصِّل الحقوق، وهي وظيفة من وظائف مَنْ نُسمِّيهِمْ مُحَامِين.

والحقُّ في محكمة العدْل الربَّانيَّة يوم الدِّين مصون للجميع بأعدل ميزانٍ وأدقه، ويَسْتَطيعُ كلّ إنسان أن يُطَالِبَ به، ولا يُغلَبُ إلاَّ المبطل، فلا وكيل له ولا تَبيعَ.

ونلاحظ في ختام هاتين الآيتين التكامل في الأداء البياني:

- فقد ختم الله الأولى منهما بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾.
- وختم الثانية منهما بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾.

وكلٌّ من الآيتين يَصِحُّ مِنَ النَّاحِيَة الفكريَّة أن تختم بكلٍّ منُ هٰذينِ الختامين.

ولكنَّ جَمْعَ الختامين في كلٍّ منهما، أو تأخيرهما للآية الثانية، أو تقديمهما للآية الأولى، أُمُورٌ تُضْعف من فنيَّة الأداء البيانيّ، فاختير أسلوب التوزيع، وبما أنَّ العناصر في الآيتَيْن متشابهة فإنَّ المتدبِّر يُدْرِك دُون إعْناتٍ فِكْريٍّ، أنَّهم في كُلِّ الأحوال لا يجدون وكيلاً يدفع عنهم الْهَلاَك، ولا يجدون تبيعاً يطالب لهم بالتعويض عنه، وهذا التكامل البياني هو من روائع الأساليب القرآنية التي نلاحظها في نصوصٍ كثيرة، وعلى المتدبر لكتاب الله أن يستحضره في تصوُّره دواماً، وقد سبق شرحُهُ في الصورَة الخامسة عشرة.

ونلاحظ أيضاً أنَّ إهلاك الله الجماعيّ لا يكون دُونَ تقديرٍ مُرادٍ لحكمة، لذلك أبَانَ الله سببَ إهلاكهم بقوله: ﴿بِمَا كفرتم﴾ وجعل هذه العبارة قبل فقرة ختام الآية الثانية، لِتَنْسَحِبَ على كلِّ صُورِ الإهلاكِ التي ذُكرتْ في الآيتين معاً.

وحُذِفَ من النصّ تَصْوير ما يَحْدُثُ لِلْقَوْم بخسفِ جانب البرّ بهم، وما يحدُثُ لهم بإرسال الْحَاصِبِ عليهم، لتستكمل الأذهان بأَنْفُسِها رسْمَ المطويّ في النصِّ، وهذا من الإبداع البياني، ولبيان أنَّ الإهلاك هو الخاتمة في كلِّ الصُّور، ذُكر الإغراق في الصورة الأخيرة الثالثة منها، فقال تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

ونلاحظ من الدِّقة في الأداء البياني ذِكْرَ كلمةِ ﴿جَانِبَ﴾ مضافة إلى ﴿البرّ﴾ لأنَّه لو أراد الله إهلاكهم بالخسف في البرِّ لخَسَفَ الجانب الَّذي هم فيه من البرِّ، ولم يخسف البرّ كلَّه، بمقتضىٰ سنته في الخسوف، وسنته في العقاب.

بعد هذا البيان لواقع حال الإنسان الكفور، ذكَرَ الله امتنانه على بني آدم بالتكريم والإنعام، ليستثير فيهم الشعور بواجب شكر المنعم الَّذي كرَّمَهُمْ، وكان من الممكن أنْ لَا يكرِّمَهُمْ، ولا يَمدَّهم بوافر نعمه، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

إنَّها أمُورٌ أربعة:

الأمر الأول: تكريم الله لبني آدم، وقد جاء مُؤكَّداً بمؤكِّدين في ﴿لقد﴾.

ويمكن أنْ نستدلَّ على مَضْمُون هذا التكريم، ممَّا حكاه الله عزَّ وَجَلَّ من مقال إبليس لربِّه بشأن آدم عليه السلام، قُبَيْلَ هذه الآيات التي نتدبَّرُها من سورة (الإسراء/١٧):

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

ونحن نَعْلَم أنَّ الَّذِي أَغْضَبَ إبليس إنَّما هو الأمر بالسجود له، تكريماً لشرف العلم الَّذي آتاه الله لآدم. وما كان لآدم أبي البشر، ينسحبُ على النوع كُلِّه، لأنَّهم ذُرِّيَّتُه، وهم جميعاً سُلالةٌ منه، من مُسْتَقَرٍّ كان فيه، أمَّا أرحام الأمَّهات فمستودع، وهنَّ منه أيضاً.

وحِقْداً عَلَىٰ هذا التكريم تصدَّىٰ إبليس لامْتِطاءِ ظهُورِ بني آدم والتحكُّم باللُّجُم في أَحْنَاكهم، أو سَوْقِهم من أحناكهم باللُّجُم، إلى جهنَّم دار عذابهم، كما تُشَدُّ الدَّوابُّ من أحناكها، وتعبيراً عن غيظه، وحِرْصِه الشديد على إهانة هَذا النوع

الذي كرَّمه الله عليه، أعلن استعداده أن يتَّخِذَ كُلَّ حيله الذكيَّة ليُثْبِتَ أنَّ هذا النوع الإنْساني ليس أرفع شأناً من الدوابّ التي تقادُ بِاللُّجم من أحناكها فهو نوع لا يستحقّ التكريم، فقال إبليس عليه اللَّعنة، مخاطباً ربَّه عزَّ وجلَّ:

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

وهذَّب القرآنُ عبارة إبليس وأغمضها محافظةً على كرامة بني آدم، فاكتفى بإشارةِ الاحتناك ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ أي لأَسُوقَنَّ من الْحَنَك، وهذا يكون باللُّجم للدَّوابِ، بغيةَ تَذْليلِها وسَوْقِها إلى ما يَبْتَغِي قوَّادُها.

أي: أنت يا ربِّ قد كرَّمته عليَّ، فلأَجْعَلنَّ مِنْ ذُريته بحِيَلِي الذكيَّة قطعاناً مُهَانَةً، كقطعان الدَّوابِّ، تُسَاقُ مِنْ أهوائها وشهواتها إلَى شقائها في جهنَّم.

أليس الاكتفاء بكلمة ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ عَنْ هذه المعاني التي تستدعيها اللوازم الذهنية، من اللَّمْحِ الأَدَبيِّ البديع.

الأمر الثاني: حَمْلُ الله بني آدمَ في البرِّ والبحر، ويُضَاف إليهما الجوّ أخذاً من قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: من مثل الْفُلْك، وأَقْرَبُ مَا يَنْطَبِقُ عليه المراكب الجويَّة.

وقوله في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

الأمر الثالث: رَزْقُهُمْ من الطيبات، وليس في المخلوقات التي نعلمها ما يَستَمْتع بكلِّ الطيبات المختلفات مثل بني آدم، والأرض تفيض بها بوفرة، لمن طلبها من أبوابها، وبوسائلها.

الأمر الرابع: تَفْضِيلُهُمْ علىٰ كثيرٍ ممَّنْ خَلَقَ الله تفضيلاً كثيراً، وتفضيل

بني آدم على كثيرٍ من مخلوقات الله أَمْرٌ ظاهر، وبيانُ أنواع هذا التفضيل يحتاج إلى سَبْرٍ، ونلاحظ منه كون الإنسان مخلوقاً في أحسن تقويم جسديّ ونفسيّ.

بهذا التحليل نلاحظ أنَّ هذا النَّصّ الذي تدبَّرناه على قَدْرِنا من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قد عرض سِمَةً عامَّة من سمات أهل الكفر، تظهر بتكرارٍ كُلَّما تعرَّضوا في حياتهم لمخاطر تقطَّعت معها كل أسبابهم، ولم يجدوا لهم ملجأً إلَّا أن يَدْعوا الله مخلصين له الدعاء، متضرِّعين له أن ينجيهم، فإذا نَجَّاهم وأوصلهم إلى البرِّ الآمن، استجابة لدعائهم أعرضوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه.

هذا هو دأب الإنسان الذي لا يريد أن يلتزم بمقتضيات الإيمان، إنَّه إنسانٌ كفور.

● ● ●

ثمَّ إنَّ هذا الوصف العامّ للإنسان في مجموعه، لا في جميع أفراده، قد اقتضى تَقْدِيمَ شاهِدٍ من حِكايات الواقع، في نماذج متكرِّرة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ عقب سُورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) وفيها قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قالوا: هذا النصُّ فيه التفاتٌ من ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ بأسلوب المواجهة بالخطاب، إلى أُسْلُوبِ الحديث عنهم بالغائب في ﴿وجَرَيْنَ بهم﴾ إلى آخر النَّصّ.

وأقول: إنَّ سياق الخطاب موجَّه للذينَ يَمْكُرُون في آيات الله، والمخاطَبُونَ

عند نُزُول النَّص قد لا يكونون قد ركبوا الفلك وتعرَّضوا لمثل ما وصف النَّصّ بعد ذلك.

لكنَّهم لو تعرَّضوا لمثله لكان حالهم مثل حال من وصف الله في النَّص، فأهل الكفر أشباه في تصرُّفاتهم، وذلك لأنَّ الفطرة تلجئهم إلى الله عند الاضطرار وشدَّة الخوف، ثم إنَّ عوامل كفرهم كالكبر ورغبات الفجور ودوافع الأهواء والشهوات والتعلُّق بالعاجلة. أمورٌ تردُّهم بعد الشعور بالأمن والاطمئنان، والتقلُّب في النعمة والرخاء، إلى ما كانوا فيه من بَغْي قَبْلَ ذلك.

فاقتضىٰ تشبيهُ حالهم بحال أَمْثَالِهِم السابقين لهُمْ، أنْ تُقَدَّم لهم صُورَةُ لوحةٍ متكرِّرة في تاريخ الناس، مُنْتَزَعَةٍ من واقع الكافرين السابقين.

فتوقَّف النصّ عند الفقرة الأولى المتعلِّقة بشأن المخاطبين الذين يَمْكُرُون في آيات الله، وهي:

﴿هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ حتَّىٰ إذَا كنتم في الْفُلْكِ﴾.

أي: هو الذي يسَيِّركم دواماً في البرِّ والبحر منذ نشأتكم حتى وقت ركوبكم في الفلك، وإرادَتِه إحاطَتَكُمْ بالمخاوف والمهالك.

وانتقل النصّ مُباشرة إلى تَصْوير مَشْهدٍ مُتَكَرِّرٍ لأقوام كافرين، رَكِبُوا سُفُنَهُم، وجَرَيْنَ بهم في البَحْر بَرِيح طَيبَّةٍ.

ونلاحظ هنا أنَّ النصّ قد استُعْمِلَ فيه الفعل الماضي، والفاعل ضمير جمع، للدلالة على أنَّ النَّص يقدِّم مَشْهَدَ أحداثٍ مَضَتْ لجماعَاتٍ ركبوا في سُفُنِهم، وقد جُمِعتِ الأحداث في مَشْهَدٍ واحد للتطابق الواقع بينها، فقال تعالى:

﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بها﴾.

واكتفىٰ النصّ بالمقدِّمة التي وُجِّهت للمخاطبين عن ذكر نظيرها ممَّا يخصُّ المتحدَّث عنهم بالغيبة.

وجاء البناء على الشرط في ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ مع أنها خاصَّةٌ بالمخاطبين الذين هم أمثال من يَحْكِي المشهد المعروضُ حالَهُمْ، على اعتبار أنَّ هؤلاء المخاطبين يُطَابِقُ حالُهم حَالَ أصحاب المشهد المعروض، بمقتضى التَّشَابُه التَّامّ في الصفات النفسية والظواهر السلوكية.

فكأنَّ النَّصّ يقولُ للمخاطبين: حتَّىٰ إذَا كُنتُم في الفلك كان حالكم مثل حال أمثالٍ لكم سَلَفُوا، ركبوا في الفُلك، أي: في سُفُن، وجَرَيْنَ بهم بريح طيِّبة، وهَكَذَا إِلَىٰ آخر القصة المعروضة في النصّ.

وهذا من أساليب القرآن البديعة، التي نلاحظها في الأمثال والتشبيهات القرآنية، إذْ تُبْنَىٰ النتائج على الممثَّل به كأنَّه عين الممثَّل له، وقد أَوضحت هذا بالأمثلة من القرآن في قِسْم «الأمثال القرآنية».

ونظيره أن يُبْنَىٰ الكلامُ على المشبَّه كأَنَّهُ عَيْنُ المشبَّه به، والنَّصُّ الذي نتدبَّره من هذا القبيل.

وما على المتفكرين إلَّا أنْ يَتَأَمَّلُوا في بدائع القرآن وعجائبه التي لا تفنى وأن يَتدبَّروا آياته، غير مقيَّدين بأساليب الناس في التعبير، ولا مشدودين إليها، لئلا يلْوُوا أعناقَ النُّصوص القرآنية، فيفهموها على غير المراد منها.

أليس بناءُ الكلام على المشبَّه كأنه عين المشبه به، وبناء الكلام على الممثَّل به كأنه عيْنُ الممثَّل له، أداءً منطقيّاً مفهوم الدلالة، ويستخدمه أحياناً بعض الكبار الذين يُخاطبون الناس مِنْ علو، وبعض الأدباء الذين يعتمدون على ذكاء المخاطب، فيبدأ أحدهم الكلام بالتوجيه لأمر ما، ثم يقطعه عند مقدِّمته، ويبني عليه قصة يحكيها يفهم منها المخاطب التوجيه الَّذِي كان يريد محدِّثه أن يوجهه له، دون أن يقول له بصريح العبارة: وحالُكَ مثل حال من ذكَرْتُ لك قصَّته، إلَّا أن يكون المخاطب شَدِيدَ الغباء.

لا شك أنَّ هذا الأسلوب الأدبيَّ من الفنون البديعة، التي تعتمد على

الحذف والإيصال، للإيجاز في التعبير، ولإمتاع أهل النباهة والْحَصَافَةِ والذَّكاء، إنَّه فَنٌّ إبْدَاعِيٌّ يُقَدِّمه التصوير البياني بالكلمة اللَّمْحِيَّة البارعة، غير فنِّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. إنَّه من الصُّور الأدبية الرفيعة حقّاً.

أمّا قصَّةُ الذين وصف النصُّ حالهم، فهم جماعات من الكافرين الأوَّلين ركبوا في سُفُنِهم، في أحوال متشابهة، تنتظمها حكاية واحدة، وجَرَتْ بهم سفُنُهم بريح طيِّبة عَبْر العُبَاب، فدلَّ هذا على أنَّ البحر سَاكن هادىء، وأنَّ الريح رفيقة ناعمة، نقيَّةٌ من الشوائب، ومن الروائح المؤذية، تمدُّ بالأنفاس المنعشة، فهي تُجْري السُّفُن الشراعية برفق ولطف. وهذه العوامل الملائمة لما يسرُّ تجعل الذين على ظهورها يستمتعون بكل أنواع المتع التي يملكون الاستمتاع بها في سُفُنهم، طعاماً وشراباً وغناءاً ولهواً ولعباً، حتى وصلوا إلى مستوى الفرح بما هم فيه، ورُبَّما دفَعَهُمْ فَرْطُ الفرح إلى البطر، كما هو شأن الإنسان ودَيْدَنُه، دَلَّ على هذه الأمور قول الله تعالى:

﴿وفَرِحُوا بِهَا﴾.

وأكثر ما جاء الفرح في القرآن هو من نوع الفرح المذموم الذي هو سرور مقرون بالمرح والبطر وكفر النعمة، وهذا هو المراد هنا فيما يظهر، لأنَّ المتحدَّث عنهم كافرون، والبطر وكفْرُ النعمة دَيْدَنُهم.

والفرح فقرة القمَّة السارَّة من الرِّحْلة، عندئذٍ:

﴿جاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، يقال: ريح عَاصِفٌ، وريح عاصفة.

أي: جاءتْ سُفُنَهُمْ هذه الرِّيحُ العاصفة التي تَضْرِبُ وجه البحر، وتَخْبِطُ أمواجه، وتحرك السفُنَ في كلِّ اتِّجاهٍ بشكلٍ رهيب، صعوداً وهبوطاً، وميلاناً، وتقاذفاً ذاتَ اليمن وذات الشمال.

﴿وَجَاءَهُم الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَان﴾:

أي: وجاءهُم الموجُ العظيم من كُلِّ مَكَانٍ مُحِيطٍ بِهِمْ، عن أيمانهم، وعن

شمائلهم ومن أمامهم ومن خلفهم ومن تحتهم، وشَظايا من الأمواج تتقاذف عليهم من فوقهم.

صورةٌ مرعبةٌ جدّاً، لقد فاجأتهم المهلكات المخيفات من كلِّ مكان حولهم.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾:

أي: وظنُّوا ظنّاً غالباً قاربَ درجةَ اليقين أنهم أحيط بهم بالقواتل والْمُهْلِكات، فلا مخرج لهم منها بأي سبب من الأسباب.

وهذا لا يكون عادَةً إلاَّ بعد اتخاذهم كلَّ ما يملكون من وسيلة وحيلة، فَلَمْ تُغْنِهِمْ شيئاً.

فدَلَّ بلوغُهم إلى هذا الظَّن على أنَّهم قد اتَّخذوا قبل وصولهم إليه كلَّ وسائلهم وحِيَلِهم، فما دفعت عنهم شيئاً من المخاطر الآتية بالمهلكات من محيط الدائرة حولهم.

فحصل الاكتفاء بعبارة ﴿وظَنُّوا أنَّهم أُحِيطَ بِهِمْ﴾ عن التصريح بالأعمال التي قاموا بها قبله، اعتماداً على أنَّ فِكْرَ المتدبِّر يُدْرِكُها متى تابع لوازم الأفكار، ومقْتَضَيَاتِها، وهذا من الأدب الرفيع في الكلام، الذي يعرفه ويمارِسُه كبار الأدباء، والْعِلْيَةُ من البلغاء، وله مستويات متفاوتات، يرتقي على سُلَّمها كلُّ أديب وكلُّ بليغ بمقدار ما يملك من إبداع.

وإذْ ظَنَّ هؤلاءِ الأَقْوَامُ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِم بالمهلكات:

﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

أي: دَعَوُا الله ربَّهم، مخلصين له الدُّعاء الذي هو لبُّ الدِّين ومخُّ العبادة، والمراد من الإخلاص هنا إخلاصُهم دعاءَهم من كلِّ شوائب الشِّرْك، فهم في دعائهم لا يَدْعُونَ مع الله أحداً، معتقدين مؤمنين بأنَّ أحداً غير الله لا يملك لهم نفعاً ولا ضرّاً.

فماذا قالوا في دعائهم؟

لا شك أنَّهم سألـوا ربَّهم أن يُنْجيهم، وانطلقَ كـلُّ واحدٍ منهم على سجيتـه، أو جعلوا يـردِّدون ما يقـولـه بعض من يُحْسِنُـون الـدعـاء، ولم يـذكـر النَّصّ معـظم عباراتهم ومطالبهم في الدعاء، لكن أبان من أقوالهم قولاً واحداً فقط، تضَمَّنَ عهداً قطعوه على أنفسهم تُجاه ربهم، فقال تعـالى حكايـةً لقولهم الـذي قطعـوا فِيهِ هـذا العهد على أنفسهم:

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: يا ربنا نُقْسِم لك، (أقسموا بما يرضاه من قسم، مثل: وعزَّتك وجـلالك وقدرتك على كـلِّ شيء) لَئِنْ أنجيتنا من هـذه (= الورطـة ـ المصيبة ـ الكـارثة ـ البليَّة)، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرين، أي: من المؤمنين المطيعين الحامدين الشاكرين.

فدلَّ النصُّ بالشكر على ما هو شرط له، وما هو مرتبـة سابقـة له، فـالشكر لله الـذي هو تقـديم مُقَابـل عمليّ لنعم الله على عباده، من شـرطـه الإيمـان الصحيـح الخـالص، وإعلانُ الـطاعة، وطبـعيٌّ أن يكـون أيضاً مسبـوقاً بـالحمد والثنـاء، لأنه أسهل من الشكر وأخفُّ على النفوس.

وهُنَا نستخرج مـطويّاً في النصِّ دلَّ عليـه مذكـور بعده، وهـذا المطوي هـو: واستجـاب الله دُعـاءَهم. أي: رحمـةً بهم، وليُقَـدِّم لهم البـرهـانَ التجـريبـي على وجوده ورحمته وقدرته، واستجابته دعاءَ المضطرِّ إذا دعاه مخلصاً له الدين.

﴿فَلَمَّا أَنْجاهُم﴾.

هذه العبارة هي التي دلَّت على المطويِّ السابق. واكتفى النصُّ بها أيضاً عن بيان الأسباب التي أنجاهم بها، وعن بيان وصولهم إلى مَـأْمَنِهِم بجانب الْبَـرِّ، لِيَتْرُكَ لِفِكْرِ الْمُتَدَبِّرِ اسْتِكْمَالَ رسم الصورة.

ونلاحظُ التنويعَ في أسلوب التعبير، وفي الحذفِ والذكـر بين النصّ الذي من سورة (الإسراء/١٧) وهذا النصُّ الذي من سورة (يونس/١٠).

● ففي (الإسراء) قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾، فجاء بفعل (نجّى) وذَكَرَ مكان الوصول.

● وفي (يونس) قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾، فجاء بفعل «أَنْجَىٰ» ولم يذكر مكان الوصول.

وبعد بيان أنَّه عزَّ وجلَّ أنجاهم، أبان أنهم فاجؤوا بنقض عهودهم التي كانوا قد قطعوها على أنفسهم تجاه ربِّهم فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾:

الْبَغْيُ: هو في أصل الوضع اللغوي مجاوَزَةُ الحدِّ. ويقال لغة: بَغَى عَلَيْهِ يَبْغِي، إذاعلا عليه وظلمه. والْبَغْيُ التعدّي والظُّلْمُ. ومن معاني البغي مطلقُ العلوِّ.

ولمّا كان هذا الأخير من معاني البغي، حَسُن أن يُقَيَّدَ البغي في النصِّ بقيد ﴿بغير الحقِّ﴾ لإخراج العلوِّ الذي يكون بالحقِّ، ولتحديد معنى البغي المذموم الذي يستحق فاعلوه التَّثريبَ أو المؤاخذة، بأن يكون بغياً بغير الحقِّ الواضح البيِّن، إذْ قَدْ يكون البغي مستنداً إلى شُبْهَةٍ، أو خطأٍ في الاجتهاد، فلا يدخل في عموم هذا البغي المذموم.

وبعد أن تمَّ عرضُ مشهدِ توبة الكافرين البغاة عند إحاطتهم بالشدائد القواتل، وخُضُوعهم لله، والتجائهم إليه بالدعاء الخالص من شوائب الشرك، ثُمَّ رُجُوعهم ـ بعد نجاتهم ووصولهم لمأمنهم ـ إلى ما كانوا عليه من بغي، خاطب الله عُمُومَ الناس الذين يتصفون بمثل هذه الصفات بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

هذه آيةٌ بينة من فقرات تتعاونُ أضواء دلالاتها ولَوَازمُ أفكارها، ومفاهيم مَا سَبَقَ مِنْ تَنزيل على إبراز المطويات في كلٍّ منها.

﴿إنَّما بَغْيُكُمْ على أَنْفُسِكُمْ﴾: أي: ما بغيكم على من تظلمونهم في الحياة الدنيا إلاَّ واقع على أنْفُسِكُمْ، ومنقلب عليكم، يوم تُرْجَعُون إلى بارئكم يوم الدين، ليحاسبكم ويعاقبكم.

﴿متاعَ الحياة الدُّنيا﴾: أي: قد تَتَمَتَّعُون بِبَغْيِكُمْ مَتَاعَ الحياة الدنيا النَّكِدَ المنغَّصَ سريعَ الزوال، إذْ تُمَكَّنُون فيها ـ بمقتضىٰ سنَّةِ الله فيها باعتبارها حياة ابتلاء ـ من استثمار بَغْيِكُم، لتحقيقِ بعضِ مطالبِ أهوائكم وشهواتكم.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾:

أي: وسَتَمُرّونَ في رحلة امتحانكم إلى غايتها، وستنقضي آجالكم وتموتون، ثُمَّ يَكُونُ إلينا مرجعكُمْ حين تُبْعَثُون، فنحاسبُكم على أعمالكم الَّتي عملتموها في الحياة الدنيا.

﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ولدىٰ محاسبتكم نُنَبِّئُكُمْ بكل ما كنتم في الحياة الدنيا تعملونه، إذْ كُنْتُمْ في الدُّنيا مُرَاقبين مراقبة تامَّة مقترنةً بتسجيل كلٍّ ما يصدُر عنكم من أعمال إرادية. فَربُّكُمْ لكم بالمرصاد، وبعد الحساب يكون الحكم بالإدانة، وبعد ذلك يكون تنفيذ العقاب، فيقع العقاب عليكم، أمّا من بَغَيْتُمْ عليهم في الحياة فَيُعَوَّضُون عمّا نزل فيهم من آلام بسببكم، فيحمدون الله على عَدْلِه وفضله.

عندئذٍ يظهر أنَّ بغيكم الذي بغيتموه في الحياة الدنيا إنَّما كان على أنفسكم.

ألسنا نلاحظ أنَّ النصَّ قد اكتفى للدلالة على كلٍّ هذه المعاني التي استنبطناها بالتدبُّر، بذكر عبارات منتقيات تدلُّ بأضوائها وإشعاعاتها ولوازمها الفكريَّة وقرائن المعلومات السابق بَيَانُها في نجوم التنزيل على ما بَيْنَها وما في خلالها وما قبلها وما بعدها، من مطويَّاتٍ، وهذا من روائع الأداء البياني.

جمل منتقيات بعناية غايةٍ في الإتقان، تكوَّن منها عِقْدُ مَوْضوع كامل:

١ ـ ﴿يا أيُّها الناس﴾: نداء لمن حالهم مثل حال من حكىٰ النصُّ قصتهم.

٢ ـ ﴿إنَّما بغيكم على أنفسكم﴾: جملةٌ تَدُلُّ بمفهومها على أنَّ عَدْلَ الله سَيُلاحِقُهُمْ بالعقاب جَزاء بَغْيِهم.

٣ ـ ﴿متاعَ الْحَياةِ الدُّنيا﴾: جُمْلة تَدُلُّ على أنَّ غاية ما يستثمرونه من بغيهم أن يَتَمتَّعُوا متاعَ الحياة الدنيا، والمتاعُ يطلق على كل مرغوب محبوب زائل لا دَوام له، أمّا النَّعِيم فهو المحبوبُ الْمُسْعِدُ الباقي.

٤ ـ ﴿ثمَّ إلينا مرجعكم﴾: جملة تدلُّ على البعث ليوم الدِّين، وتدلُّ بإشارتها على ما يجري في ذلك اليوم من حسابٍ وجزاء.

٥ ـ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾: جملة تدلُّ على أنَّ كلَّ عملٍ يعملونه في الحياة الدنيا نفسيٍّ أو جسديٍّ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ عليهم، ويُنَبَّؤُون به يَوْمَ الدين، ويَجْرِي حسابهم على وفقه.

ما أجلَّ هذا الكلام وأعلاه وأبدعه بلاغة وأدباً رفيعاً!!

هذه هي النصوص الثلاثة المتعلقة بالكافرين الجاحدين حول هذا الموضوع.

وبقي من هذا الموضوع نَصَّان يتعلَّقان بالمؤمنين أنزلهما الله عزَّ وجلّ بعدها، وفي الأوَّل منهما تذييل يتعلَّق بالجاحدين الكافرين الغدّارين، إشارةً إلى ما سبق بيانه في النصوص الثلاثة المتعلِّقة بالكافرين، والسابقة نزولاً.

● ● ●

● فالنصُّ الأول منهما وهو الرابع في جملة الموضوع، هو قول الله عزَّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الباحث المتدبر لكتاب الله بحسب ترتيب النزول يتساءل: لقد عرفنا في النُّصوص الثلاثة السابقة حال الكافرين، فما هو حال أهل الإيمان إذا ركبوا البحر،

ومـا هو حـالهم إذَا تَعـرَّضـوا لِمِثْـل المخـاطـر المهلكـة التي وُصِفت في النصـوص السابقة، أو لِمَا دُونَها شدَّةً وإثارةً للمخاوف؟

وقد جاء جواب هذا التساؤل في هذا النصّ من سورة (لقمان).

● فبدأ النصُّ بأسلوب الخطاب الإفرادي ليتناول كلَّ مُؤمنٍ بربِّه، وليشعُـرَ كلُّ مؤمن بأنَّ الله يخاطبـه على انفراد، معتنيـاً ومُحْتَفِياً بـه، وهذا من بـدائع الخـطابات العامَّة، فقال عزَّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ؟﴾

فبماذا يجيب المخاطَبُ المؤمن؟

إنَّه يجيب حتماً بقوله: بلى لقد رَأَيت.

● ونُلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذكر في هذا النصّ أنَّ الفلك تجـري في البحر بنعمـة الله، أمَّا النُّصُـوص السّابقـة الخاصـة بـالكـافـرين فقـد ذُكِـرَ في بعضهـا من صِفات الله صفةُ الرحمة.

ونتأمَّل في سبب هذا فيبدو لنا أنَّ عدم ذكر النعمة في النصوص السابقـة التي تحـدَّثت عن أحوال الكـافرين، سَبَبُـه أنَّهم في حالـة رَخائِهم لا يشعـرونَ بنعمة الله عليهم، لكنَّهم في حـالة الضـرورات الملجئة يشعـرون بـأنَّهم إذا استغـاثـوا بـربِّهم رَحِمَهم فـأنجاهم. أمّـا المؤمنون فـإنهم يَشْعُـرون بنعمـةِ الله عليهم، وحين يغْفُلُونَ يَكْفِيهم لإيقـاظ هذا الشعـور فيهم مُذَكِّرٌ يذكِّـرهم بنعمة الله، فجـاء التـذكيـر بهـذا الاستفتاح:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ؟﴾

فمن نعمـة اللَّهِ على عباده تَسْخِيـر الْبَحْرِ، وتَسْخِيـرُ الْفُلْك، وتَسْخِيـر قـوانينِ الطبيعة، وإرسالُ الرِّيح رُخاءً، وإزْجَاءُ السُّفُنِ بها، إلى غير ذلك من مسخَّـرات هِيَ مِنْ نِعَمِ الله على عباده.

ومـع كون هـذه المسخَّرَاتِ مِنْ نِعَم اللَّهِ على عبـاده في الحياة الـدنيا، وذَاتَ

وظائفَ حياتيَّة للناس، هي ذات وظيفةٍ أخرى تَتَعلَّق بقضيَّة الإيمان بـالله عزَّ وجـلَّ، وبالتفكُّرِ في صفـاته التي تـدُلُّ علَيْها هـذه المسخَّرات، بـاعتبارهـا من آيات الله في كَوْنِه، فقال الله عزَّ وجلَّ مُبيِّناً هٰذِهِ الوظيفة الإيمانية الدينيَّة: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾.

وهنا نلاحظ أنَّه بَعْدَ اسْتِخدام أسلوب الخطاب الإفرادي، في قولـه تعالى في فاتحة النصّ: ﴿أَلم تَرَ﴾ قال تعالى عقبها: ﴿لِنُـرِيَكُمْ﴾ فدَلَّ هـذا على أنَّ الخطاب الإفـراديَّ احتفاءٌ من الله بكـلِّ مؤمن، لكنَّ تسخير الفلك نعمـةٌ عـامـة في وظيفتهـا الحياتية، وآيَةٌ عامَّة في وظيفتها الإيمانية الدينيَّة.

هذه الدقة في الأداء للدَّلالة على المقاصد، مـع مطابقـة الحق هي من روائع البيان.

ومن الدقَّة أيضاً قوله تعالى: ﴿مِنْ آياته﴾ إذْ آيات الله كثيرة جدّاً، لا يستطيـع النّاسُ إِحْصَاءَها، وهذه منها.

لكنْ مَنِ الَّذي يَنْتَفع من هذه الآيات انتفاعاً من مستوى مرتبة الانتفاع العليـا؟ ويأتي البيانُ ليدلَّ على أنَّه كلُّ صَبّارٍ شَكُورٍ.

أي: إن المؤمن بعـد تعميق إيمانـه، والاستِزَادَةِ مِنَ المعـرفة بِـرَبِّه، وجَليـلِ صفاته، يتَّجه للتعبير عن مشاعره الإيمانية بأنواع كثيرةٍ من السلوك النفسيِّ والظاهر، فهو يَحْمَدُ الله، ويَعْبُدُهُ بطاعَتِه في كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ من تصرُّفاته، ويَتحمَّلُ التكـاليفَ الشاقَّة، والمصائب المؤلمة بصَبْرٍ عظيم. إِذَنْ فالْمُنْتَفِعُ من هـذه الآيات من مستـوى مرتبة الانتفاع العليا هو من كانَ كثير الصَّبْر، كَثِيرَ الشُّكر، أي: هو الصبّار الشكـور، فقال الله عزَّ وجلَّ في بيان ذلِك:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

فهم في حـالة الـرَّخاء والتقلُّب في أيـادي الله ونعمـه صبَّـارُون على مشقـات الطاعة، في فعْل ما يُرْضِيه، واجتنابِ ما يَكْرَهُ مِنْ أعمال، وفي تحمُّـل مَا يبتليهم بـه من مصائب، وهم شَكُورُون لِنِعَمِ الله عليهم بما يملكُونَ من قدرة على الشكر.

هذا هو شأْنُهم في الأحوال العاديَّة، فكَيْفَ يكونون إذا تَعرَّضُوا للمخاطر؟ يَقُول البيان القرآني:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدين﴾:

أي: إنَّهم لا يَنْتَظِرُون حتى تَتَقَطَّعَ بهم الأسباب، ويَظُنُّوا أَنَّهم قد أُحِيطَ بِهم مِنْ كُلِّ جَانب، بل يَلجَؤُون إلى الله بالدُّعاء، مخلصين له الدِّين لا يشركون به أحداً، بِمُجَرَّدِ أنْ يَغْشَاهُمْ موجٌ ما من جهة ما كالظُّلل.

﴿وإذا غَشِيَهُم مَوْجٌ﴾: أي: إذَا أَتَاهُمْ، والْغِشْيَانُ يدلُّ على أَنَّهُ إتْيَانٌ رفيقٌ لطيفٌ لا عُنف فيه، ولا ثِقَل له.

فالغشاء جلدٌ رقيق، والتغَشِّي استعلاءٌ مُجَلِّلٌ رفيق.

وتَشْبيه الْمَوْجِ بالظُّلَلِ في: ﴿وإذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كالظُّلَل﴾ يدلُّ على أنَّه مَشْهُودٌ مِنْ بَعِيدٍ، كما تُشْهَد السَّحَابَاتُ التي تُظَلِّلُ وهي بعيدة، فلم يقترب هذا الموج بَعْدُ من فُلكهم.

أي: فمع أنَّهم لم يصلوا بعْدُ إلىٰ مرحلة الذُّعر، واليأس مما يستطيعون اتِّخاذَه مِنْ أسباب، فإنَّهم يدعُونَ الله مخلصين له الدين، أنْ يَصْرِفَ عنهم الْمُهْلِكَات، وأن يُنْجِيَهُم، وفي معظم الأحوال:

يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دعاءَهم، فيُنْجِيهِمْ.

ولكن، فماذا يكونُ حالُهم بَعْدَ نَجاتِهِم؟

ويأْتِي الجوابُ الرَّبَّاني الوجيز بأنَّ حالهم يكونُ مختلفاً بحسب أصناف المؤمنين، ومراتبهم، ودرجاتهم في كلِّ مرتبة.

وجاء الرَّمْزُ إلى ذَلِكَ بقول الله عزَّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبِرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾:

الْمُقْتَصِدُ: هو المتَّقي للعقاب، وهو الذي يُؤَدِّي الواجبات، ويجتنب المحرَّمات.

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أي: بعضُهم مقتصد، يدلُّ على أنَّ بعضاً آخر منهم غَيْرُ مقتصد.

وبتَتَبُّعِ احتمالات الأقسام في التقسيم العقلي نُدْرِكُ أَنَّ فوق المقتصد قسماً يتوسَّع فوق الواجبات من فعل الخيرات والقربات، ويتورَّع عن ارْتِكاب غَيْرِ المحرَّمات شرعاً مما هو دونها مما يَحْسُن تركُه. ونُدْرِكُ أنَّ تحت المقتصد قسماً يظلم نفسه بارتكابِ بعضِ المحرمات وتركِ بعضِ الواجبات، دُونَ أَنْ يَصِلَ بِهِ الْحَالُ إلى الشِّركِ بِالله، والارْتِدَادِ عن الدين.

أفلاَ نَسْتَطِيعُ بَعْدَ هذا أَنْ نَفْهَم أَنَّ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يَدُلُّ بإشارة اللَّفظ، وَبِالسَّبْرِ الذِّهني، علىٰ أنَّ المقصودَ بَيَانُ هذه الأقسام الثلاثة؟

لا سِيَّما حينما يُلاحِظ المتدبِّر لكلام الله، ما أنزل الله قبل هذا النصّ، في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) من تقسيم للمصطَفَيْنَ من عباد الله، إذْ يقول تعالى فيها:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

فذكر الله الأقسام الثلاثة في هذه الآية بدءاً بالْقِسْم الأدنىٰ، فالقسم الأوسط، فالقسم الأعلى.

أمّا في نصِّ سورة (لقمان) فقد أشار بذكر القسم الأوسط، إلىٰ القسمين الأقصَيَيْنِ الأعلى والأدنى.

ما أبدع هذا البيان لمن أحسن تَدَبُّرَه.

ولتأكيد أنَّ المؤمنين تكون أحوالهم ضمن أصنافهم الثلاثة، ولا يصل واحد منهم إلى دركة الجحود، قال الله عزَّ وجلّ في خاتمة النصّ:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بآيَاتِنَا﴾: أي: وما يُنْكِرُ دَلالة آياتِنا. الْجُحُود هو إنكار الشيء مع العلم به.

﴿خَتّار﴾: أي: خَدّاع وغدّار.

﴿كَفُور﴾: أي: مُمْعِن مسرف مبالغ في كفره وستره لدلائل الحقِّ.

وبهذا انتهى النص.

● ● ●

● والنصُّ الثاني من النصوص الخاصة بالمؤمنين، وهو النصُّ الخامس في جملة الموضوع، هو نصٌّ تضمَّنَ تَوْجيهاً دِينيّاً للمؤمنين يتعلَّق بحالة رُكُوبِهم على ظهور الْفُلْك والأنعام، وهو ما أنزله الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) وهو آخر ما نزل من قرآن حول هذا الموضوع، وهو قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿خلَقَ الأَزْوَاجَ كلَّهـا﴾: أَيْ: خَلَق الأَصْنَاف كُلَّها مما تَعْلَمُونَ ومما لا تعلمون.

﴿لتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾: في هٰذا مَعْنَى التَّوجيه لإتْقَانِ الركوب، فالاستواءُ على المركوب أَحْسَنُ طَرِيقةٍ مُتْقَنَة للركوب، وللانتفاعِ الأَتَمِّ بالمسخَّر.

﴿وما كُنّا لَهُ مُقْرِنين﴾: أي: وما كُنَّا لَهُ مُطِيقين لولا أنْ سخَّره اللَّهُ لنا.

والمطلوب من المؤمنين بعد الاستواء على ظهور ما سخَّر الله لهم من مركوب حيواني أو شيءٍ من صنع الإنسان أمران:

الأمر الأول: أنْ يذكروا نعمة ربِّهم عليهم بقلوبهم وأفْكارهم.

الأمر الثاني: أن يقولوا بألسنتهم مع التفكير بما يقولون: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنين، وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون.

ودلَّ على أنَّ هذا الذكر اللِّسانِيَّ غير الذكر الفكريِّ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تذكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أنَّ طلب الذكر اللسانيِّ قد جاء معطوفاً بحرف (الواو) ومثل هذا العطف يَدُلُّ على التغاير، ولو كان هُوَ هُوَ لقَال: فتقولوا...

وقد اشتمل نصُّ الدعاء على ثلاث فقرات:

١ ـ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا﴾: فِي هٰذِهِ الفقرة تَنْزِيه لله، وإيْمانٌ به خالقاً مسخِّراً، وثناءٌ عليه.

٢ ـ ﴿وَمَا كُنَا لَهُ مُقْرِنين﴾: أي: وما كُنَّا لَهُ مُطِيقين، وفي هذه الفقرة، إعلانُ عجزِ العباد، وافتقارِهم الدائم إلى الله عزَّ وجلّ، وهٰذَا من مظاهر العبوديَّة لله عزَّ وجلّ.

٣ ـ ﴿وإنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون﴾: وفي هذه الفقرة إعلانُ الإيمان بالْيَوْمِ الآخر، واسْتِحْضَارُ مَا يَجِبُ لاجْتِنابِ عذَابِ الله، والظفر بالنعيمِ الخالد.

وتمَّ بذلك عِقْدُ هذا الموضوع.

فهل في هذه النصوص التي تدبَّرناها، وتدبَّرْنَا ما فيها من صور أدبية، مِنْ تكرار، مع أنها حول موضوعٍ واحِدٍ؟!

إنَّها نصوص موزَّعة في عدَّة سُوَرٍ، وقد جاء تنزيلها مطابقاً لكمال الحكمة في

بناء الأفكار بناءً تكامليّاً لا تَطَابقيّاً، مع مراعاة الجوانب التربوية المختلفة، ومراعاة كمال التعبير البلاغيِّ الأدبي الرفيع في كلِّ نصٍّ منها.

إنَّه عَجَبٌ من أرْفَعِ العجب، ولو كان من عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيه اختلافاً كثيراً.

وعلى هذا النَّمط ينبغي أنْ تُدْرَسَ النُّصُوصُ القرآنية الْمُتَوارِدَةُ حول موضوع واحد.

على أنَّ صِلَةَ هذِهِ النصوص بِغَيْرِها مِنْ نصُوص الْقُرآنِ لم تَنْتَهِ عند هذا القدر، بل تُوجَدُ شبكاتُ اتِّصالات عجيبة من خلال كُلِّ فِكْرَةٍ جزئية، وكُلِّ كَلِمَةٍ، ولَيْسَ في مستطاع المخلوقات إحصاؤها وسَيَظلُّ في القرآن جَدِيدٌ مهما تَدَبَّرَ الْمُتَدَبِّرُونَ، واكْتَشَفَ مِنْ عَجائِبِه المكتشفون.

• • •

الصُّورَةُ ٱلعِشْرُونَ

في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا
بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن
فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

* * *

الشرح اللفظي للمفردات والجمل
وما يدلُّ عليه النصّ اقتضاءً ولزوماً

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾: خطابٌ لِكُلِّ من تشملهم دعوة الرَّسول محمَّد ﷺ، حتَّى آخر الدَّهر، والمخاطبون الأوَّلون هم العربُ الذين بُعِثَ فيهم، وهُوَ منهم.

﴿آيَاتٍ﴾: جمعُ آيَة، وهي العلامة الدَّالة، ولمَّا كانَ الكلامُ رُمُوزاً لفظيَّةً تَدُلُّ على المعاني والأفكار والمفاهيم والأشياء، سمَّى الله كلَّ وحْدَةٍ من القرآن تنتهي عند مفصل جاء به التنزيل ﴿آيةً﴾.

كما جَعَل من مجموع جملة من الآيَات سورةً، فقسّم القرآن إلىٰ سُوَر، وقسَّم السُّوَر إلى آيات.

﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾: فيها قراءتان: فقرأ ابْنُ عامرٍ الشامي وحفص عن عاصم وحمزة والكسائيّ وخلف بكسر الياء المشدَّدَة ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾. وقرأ سائر القراء العشرة بفتح الياء المشدَّدة ﴿مبيَّنات﴾.

فدلَّت القراءتان بمجموعهما على أنَّ الآيات المشتملات على بيان القضايا التي ترتبط بها هداية الناس، هي ﴿مُبَيِّنَاتٌ﴾ لهٰذه القضايا، وعلى أنَّها ﴿مبيَّنات﴾ في ذواتها، أي: لا غموضَ فيها، ولا إبْهامات.

فتكاملت القراءتان في الدَّلالة على المعنيَيْن المرادَيْن، وهذا من الإيجاز في القرآن، الذي تُغْنِي فيه قراءتان لكلمةٍ من نصّ، عن إيراد نَصَّيْنِ كامِلَيْن، وهو من الفنون الأدبية التي ينبغي أن نتعلَّمَها من القرآن.

وسكَتَ النصُّ هُنا عن الإشارةِ إلىٰ القضايا التي جاءت الآياتُ مُبَيِّناتٍ لها، ليَعُمَّ كُلَّ قضايا الهداية في الدِّين، فمن أغْراضِ حَذْفِ الْمَفْعُول إرادةُ التعميم.

﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: يُطْلَق المثَل ويُرادُ منه ذكر نموذج[1]

---

(١) النموذج: قال صاحب القاموس المحيط: هو مثال الشيء وهو معرَّب.

أو أكثر لنوع من الأنواع، أو عمل من الأعمال، أو سُنَّةٍ من سُنَن الله، أوْ شخصٍ من الناس أو أكثر كانَ منهم عمل فحدثت لهم عواقبُ سارَّةٌ أو ضارَّة، أو نحو ذلك من كلّ ما يمكن أن يُعْتَبر جُزْئِيًّا من قضيّة كليّة، في أيِّ أمْرٍ من الأمور، نظراً إلى التشابه بين أفراد النوع الواحد، أو نظراً إلى اطّرادِ سُنَن الله وأعماله الحكيمة، وقوانينه في الكون.

ثم يأتي القياس المستند إلى مبدأ شمول الأحكام للمتماثلات، الأمر الذي تقضي به أصول الحقائق، أو تقضي به حكمةُ الخالق، في تصاريف عَدْلِهِ في خلقه، وفي ثَباتِ سُنَنِه، فيُنْتِج أحكاماً عامَّةً تَشْمَلُ سَائر الأفراد المماثلة لما جاء في المثل.

وما جاء في النصّ هُنا على هذا المعنى الذي قد تُطْلَقُ عليه كلمة المثل.

أي: ومثلاً من الأمَم الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم. وقد جاء لفظ ﴿مَثَلًا﴾ مفرداً، مع أنَّ الله عزَّ وجلّ قد ضرب في القرآنِ أمثالاً كثيرة من أحوال الأمم السَّالفة، فما السرّ في هذا؟

١ ــ هل أطلق المفرد، وأُرِيدَ به الجنس، فهو يعمّ؟

٢ ــ أو هو على تقدير: ومثلاً من كلِّ حالةٍ من أحوال الذين خلوا من قبلكم ممَّا فيه عِبْرَةٌ أو أسوةٌ حسنةٌ لكم؟

أنا أرجّح الاحتمال الثاني، لما فيه من دلالة على معنىً يُقْصدُ في البيان القرآني، ويؤيّده واقع ما جاء في القرآن من أمثالٍ عن الأمم الخوالي. ولقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الموعظة هي النُّصحُ المقرون بما يُثير الرغبة أو الرهبة في النفس للانتفاع بالنُّصح، واتِّباع ما تضمَّنَه، فعلاً أو تركاً.

وقد اشْتَمَلَتْ آياتٌ من آيات القرآن المجيد على ذلك، فكلُّ ما في القرآن

من توجيهٍ لأمر نافع، وترغيبٍ وإرشاد، وتحذيرٍ وتنبيه، ووعدٍ ووعيدٍ، وإنذارٍ وبشارة، يدخل تحت هذه الكليّة العامّة، التي جعل الله لها عنوان الموعظة.

ولكنَّ الموعظة التي تشتمل عليها بعضُ آيات القرآن وكذلك الآيات المبيِّنَات، وكذلك الأمثال من الأمم الذين خلوا من أهل القرون الأولى، إنما ينتفع بها المتقون، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، فخافوا الحسابَ والعقابَ يَوْمَ الدين، فاتَّقَوْا عذاب الله ودُخولَ النار، بالتزام الطاعة والانتفاع بالموعظة، لذلك قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي: فهي موعظة لمن يَنْتَفِعُ بها، أمَّا الذين لا ينتفعون بها فلا تكون هذه الآياتُ موعظةً لهم، لأنهم منصرفون عنها، مكذّبون بها، أو غيرُ مكترثين لها ولا مبالين بها.

المتقي: هو الذي يجعل بينه وبين ما يَضُرُّه أو يؤذيه أو يؤلمه وقاية، ولو بالابْتِعَاد عَنْ مواطن ذلك، والمتَّقي كامِلُ التقوى في الدين هو الذي يؤدي الواجبات، ويجتنبُ المحرّمات.

﴿اللَّه نُورُ السَّمَاواتِ والأرض﴾: وصَفَ الله نفسه بأنَّه نور السماوات والأرض، ورجّح المحققون من أهل التفسير أنَّ المعنى: الله هادي أهل السماوات والأرض، بما أعطاهم من نور يدركون به المعارف، وبما أنزل عليهم من آيات بيّنات هي نور.

وقد وصف الله القرآن بأنَّه نُورٌ في عدّة آيات.

أقول: لمَ لا يكون المعنى: الله صاحب كلّ نور السماوات والأرض، كما نقول: القاضي فلان، هو عَدْلُ محكمة الاستئناف مثلاً، أي: صاحب كلّ العدل فيها، ولولاه لم يكن فيها عدل وهذا من أساليب العرب في البيان، فيقال: فلان هو العلم، وفلان هو الشرّ كلّهُ، وفلان هو الجود[1].

---

(١) سيأتي مزيد إيضاح وشرح لهذه الفكرة.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾: أي: مثلُ بَعْضِ نُورِه الذي تَسْتَهِدُون بِه من خلال تَدَبُّر آيات كِتَابه، وما تُشِعُّهُ في قلوب المؤمنين، الصادقين في الطلبِ والبحْث والتدبّر، أو نموذج نوره ممّا يُدْرِكُ الناس منه، وهذا النموذج هو بعضُ نور الله العظيم.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: الْمِشْكَاةُ: كُلُّ كَوَّةٍ غَيْرِ نافذةٍ في الجدار، والجمعُ القياسيُّ لِمِشْكاةٍ «مَشَاكي».

والمصباح: هو السّراج، يقال: استصبح بالمصباح إذا أسْرَجه، والشمْعُ ممّا يُصْطبحُ به، أي: يُسْرَج به، فهو إذن الأداة التي إذا أسْرجَتْ كان لها شعلة يستضاء بها، كيف كان نوع هذه الأداة، وصيغة ﴿مِصْبَاح﴾ من صيغ أسماء الآلات، مثل المِفْتَاح، والمنشار.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة﴾: الزُّجاجُ مُرَكَّبٌ معدني شفاف صلب سهل الكسر يُذابُ بالنار، ويُصْنَع من الرَّمْلِ والْقِلْي، وأَجْوَدُه أنقاهُ، وأصفاهُ، وأكثرُهُ شُفُوفاً. والمراد من الزُّجَاجة ما يُحيطُ بالمصباح لتنظيم شعلته، ونشر ضوْئِه.

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: في هذه الجملة وصْفٌ للزجاجة المحيطة بالمصباح بأنَّ لَوْنَها يُشْبِهُ لونَ الكوكب ذي النور الأبيض الدّرّي، المشبه لونَ الدُّرّ، وهو اللُّؤلُؤُ العظيم المستخرج من الأصداف، فهي تنشر نوراً أبيض صافياً هادئاً دُرِّيًّا، وهو أهدأُ النور وأجمله وأكثرهُ راحةً للأعصاب، (الدرّة: اللؤلؤة العظيمة).

والكوكب: يطلق في اللّغة على ما له بريقٌ ولمعانٌ وجمال مع بَيَاضٍ صافٍ، وكَواكبُ السَّماء سمّيت بهذا الاسم لبياض نورها وبريقها ولمعانها.

ونسبة الكوكب إلى الدّرّ نِسْبَةٌ على معنى تشبيه لون نوره بلون الدّرّ، يقال لغة: كوكبٌ دُرِّيٌّ، ودِرِّيٌّ، بمعنى أنه ثاقبٌ مضيء.

والكوكب الدريّ عند العرب: هو العظيم المقدار.

أي: إنَّ الزجاجة تَبُثّ نُورَ المصباح كَبَثِّ الكوكب في السَّماء لنوره، وكَلَوْنِ الدُّرّ في صفائه وهدوئه، ولونُ الدّرّ في الأنوار أجملها وأهدؤها وأصفاها.

وأظنُّ أنَّ الزُّجاجات البيضاء الدّرّيّة لم تكن معروفة للناس إبَّان التنزيل، وقد وُصِفَتْ لهم إرشاداً إلى صناعتها. ولو أنَّ النَّاس كانوا يومئذٍ يعرفون المصابيح الكهربائية التي استُخْدِمَت بعد اكتشاف الكهرباء، في عَصْر النهضة العلمية، لربَّما كان التشبيه في النَّصّ بمصباحٍ كهربائيّ تُمِدُّه بالطاقة المنيرة الكهرباءُ، لا الزيت.

وقرأ أبو عمر والكِسَائي: ﴿كَأَنَّها كَوكَبٌ دُرِّيءٌ﴾: بضمّ الدال مع إثبات همزة بدل ياء النسبة وقرأ شعبة وحمزة: ﴿كَأَنَها كَوْكَبٌ دِرِّيءٌ﴾: بكسر الدال مع إثبات همزة أيضاً بدل ياء النسبة، وهما لغتان عند العرب في وصف الكوكب الثاقب المضيء، وربما كان بمعنى أنَّه يَدْرَأُ الظلمة، فهو دِرِّيء لها، أي: كثير الدرْء لها.

﴿يُوقَد مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾: أي: يوقَدُ هذا المصباح المشبَّهُ به من زيْتِ شجرةٍ مباركةٍ، هي من نوع شجر الزيتون.

ولفظ ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿شَجَرَة مباركة﴾.

﴿يُوقَدُ﴾: هذه قراءة نافع وابن عامر الشامي وحفص عن عاصم، فالضمير يعودُ على المصباح.

وقرأ ابنُ كثير وأبو جعفر وأبو عَمْرُو ويعقوب ﴿تَوَقَّدَ﴾: بفَتَحَاتٍ مع تشديد القاف وفتح الدال، بمعنىٰ تَلاَمَعَ وتَلأْلأَ، فالضمير يعودُ على المصباح، وهو فعل ماضٍ.

وقرأ باقي القرَّاء ﴿تُوقَدُ﴾: فالضمير يعود على الزجاجة مع أنَّ الزجاجة لا توقد، وإنما يوقد المصباح، فالإطلاقُ من قبيل النسبة إلى المحلّ، وهي في الحقيقة للحالّ فيه، وهو مجاز مرسلٌ في رأي بعض البلاغيين، أو مجاز عقلي في رأي فريق آخر، ولا فرق بينهما إذا أدركنا في كلّ منهما أنَّ غرض المجاز الإشعار بأنَّ أثَر الإيقاد إنما يظهر فيما تنشُره الزجاجةُ من نور يتلألأ في صفاء وبياض.

فتكاملت القراءات الثلاث في أداء المعاني الثلاثة مع الإيجاز البديع:

١ ــ المصباحُ يُوقد.

٢ ـ الزُّجاجة ناشرةُ النور تُوقد، إذ يظهر من خلالها نور الوقود.

٣ ـ المصباحُ تَوَقَّدَ بالضِّياء تأثراً بإيقاده.

وَوُصِفَتِ الشَّجرةُ بأنها مُباركة: أي: كثيرة الخير وافرة العطاء، وهي كذلك عند علماء النبات والغذاء والدواء.

﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾: مُتابعةٌ دقيقة بيانيّة وتعليمية في وصف الشجرة المباركة الزيتونة، وفي هذه المتابعة بيانٌ لمغْرِسِهَا الذي هو أجود المغارس، إذْ أجود مغارس شجر الزيتون موقعٌ لا شرقيٌّ يحجبُها عن الشمس صباحاً الجبَلُ الشرقي، ولا غربيٌّ يحجبُهَا فيه عن الشَّمس مساءً الجبلُ الغربي، بل تأخذ حظَّها من ضَوْءِ الشمس طَوال النهار.

﴿يَكَادُ زَيْتُها يُضَيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسِسْهُ نارٌ﴾: أيْ: يَكَادُ زَيْتُها يُضِيءُ فينشرُ النور ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ، من شدّة صفائه، وانكسار الأشعة عنه، حتَّى كَأَنَّه على وَشْكِ أن يلتهبَ ويُضيء.

إنَّ الحدّ الفاصل بين المادّة القابلة للاشتعال والإضاءة، وبين الإضاءة الناشرة للنّور، هي حالة انْبعاثٍ ذاتي متوهجٍ، يدركُهُ الناظر في بعض المواد الصافية القابلة للاشتعال، حركةَ بريقٍ ولمعانٍ، فكأنَّما شرارات ناريَّةٌ صُغْرَىٰ تعمل وتتحرك على سطح المادّة.

وأدَقُّ تعبيرٍ وأجملُه لِهٰذِه الصُّورة قولُه تعالى:

﴿يكَادُ زَيْتُها يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمَسَسْهُ نارٌ﴾.

إنَّ بينه وبين الإضاءة أنْ تمسّهُ النَّارُ فيشتعل.

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: أي: إنّ المصْباحَ الموقَدَ الَّذِي يُمِدّهُ أصفى الزيت وَأنقاهُ يبثُ نوراً، والزجاجةَ النقيةَ البيضاءَ التي هي كالكوكب الدّرّي تُضِيف بانعكاساتها أنواراً جميلةً صافيةً، فتزيد نور المصباح نوراً آخر من بثّ الزُّجاجة الدّرّية وانْعكاساتِها.

فيحدُثُ من ذلك نورٌ على نورٍ في المشبَّهِ به.

ويدلُّ هذا الكلام ضِمناً على أنَّ النُّور شَيْءٌ قابلٌ للزيادة، فهو ذو درجات دُنْيا، وفَوْقَها دَرَجاتٌ، وفوقَها أخرىٰ، ولا نَعْلَم سَقْفاً يقف عنده حدُّ النور، والله الذي لا نِهايَةَ لأزليّتِه وأبديّته ووجوده وصفاته هو نور السماوات والأرض، أي: هو صاحب كل نُورِهما، فلا نور من غيره.

أمَّا المشبَّهُ، وهو نُورُ القرآن في ذاتِ المؤمن المتدبِّر لآياتٍ منه فهو كذلك: ﴿نُورٌ علىٰ نور﴾ فإنَّ ألفاظه وجُملَهُ وأساليبه البيانية البديعَة نُور، وهو يُضيفُ إلى معانيه التي تهدي المؤمن في حياته نُوراً، فيكونُ منهما نُورَان مجتمعان، فهما ﴿نورٌ على نور﴾.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: هُنَا تجاوز النصُّ المثلَ، وتحدّث عنه كأنَّه عيْنُ الممثَّل لَهُ، وهي معاني آيَاتِ القرآن المجيد، التي هي من نور الله، إذ يُدْركها ويهتدي إليها المؤمن الصادق في الطلب والبحث والتدبّر، وينتفع منها، ويكون ذلك في كلِّ شخص بحسب استعداده وصدقه واجتهاده.

هذه الجملة تُبَيِّنُ أنَّ الله عزَّ وجلّ بقانونه القدري يهدي لنور كتابه المنزَّلِ أي: لإدراك مقدارٍ ما من هذا النور والانتفاع به، من يشاء من الناس الاهتداء بهديه، ويكون صادقاً في الطلب، والبحث، والتدبّر، لأنَّ تمام مشيئة الإنسان إنَّما تكون بصدق التوجّه القلبي، وصِدْقِ الطلب، ثمَّ إنَّ صدْق الطلب يدفع إلى البحث، والبحث الصّادق مع الاستعانة بالله يوصل بتوفيق الله إلى التدبّر السليم الصحيح، وبذلك تتحقق الهداية بالمعرفة التي يَفْتَحُ الله بها على عباده، أو يهدي الله من يشاء أن يهديه من عباده لإدراك مقدار ما من هذا النور والانتفاع به، ونحن نعْلم أنَّ مشيئة الله لا تفارق حكمته، فمن آمن وصدق في الطلب والبحث والتدبّر أدركته عناية الله، فشاء الله أن يهديه لمقدارٍ ما من نوره بحسب استعداده وصدقه واجتهاده.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاس﴾: أيْ: إنَّ اللَّه عزَّ وجلّ في تصريف آياتِ

كتابه المجيد، يَضْرِب الأمْثَالَ للنَّاس مراراً وتكراراً لتقريب المعاني المرادة إلى أَفْهَامهم، ولإمتاعهم بِمَحَاسِن الأمثال، وهذا المثل الذي جاء في هذا النصّ هو منها.

﴿واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أي: وبما أنَّه بِكُلِّ شيءٍ ـ دون استثناء ـ عليم، فهو سبحانه يَضْرِب الأمثال بدقّة متناهية، فيجمع الأشباه والنظائر من الممثَّل بِه والممثَّل له بِعِلْمِه بدقائق كلٍّ منهما.

فما على متدبّري الأمثال القرآنية إلَّا أن يَتَحَرَّوْا التوصُّل إلى هذه الدقائق في الممثَّل به، والممثَّل له، لِيُدْرِكُوا مِنْ مقابلة الأشياء بنظائرها المعاني المرادَةَ من المثل.

﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ﴾: يتابعُ النَّصُّ البيانَ حَوْل المثل الذي ضَرَبَه الله عزَّ وجلّ لآياتٍ مِنْ قرآنه المجيد، فَيُحَدِّدُ مَكَانَ المشكاة الَّتي فيها المصباحُ الموصوفُ في النّص، توسُّلاً إلى ما سيبني عليه من توجيهٍ للمؤمنين.

فالمكان ليس قصراً من قصور الأباطرة والملوك والرُّؤسَاء من أهل الدنيا، بل هو بَيْتٌ من بيوتٍ أذن الله أنْ تُرْفع.

إنَّها المساجد، وقد جاءَتْ في النّص بالوصف، ولم تأت بالاسم الخاصّ بها، بُغْيَةَ التعريف بخصائصها في الدِّين:

● فهي بيوتٌ أذن الله بأنْ تُرْفع، أي: أمرَ بأن تُبْنَىٰ وتُقَامَ، وأذِنَ بأن يُرْفع بُنْيَانُها.

فالرَّفع هُنَا لَيْسَ المراد منه مجرَّدَ بناء جُدرٍ وَسُقُفٍ لها، ولكِنَّ المرادَ إعلاؤُها ورَفْعُها أكْثَرَ مِنْ سائر بيوت النَّاس وقصورهم، لتكون معالِمَ بارِزَةً لبلدان الأمّة الإسلامية. فمادّة الرّفع في القرآن قد جاءت بمعنىٰ:

١ ــ رفع الدرجات.
٢ ــ ورفع السماوات.
٣ ــ ورفع الْكَلِم الطيب.

٤ ــ والرَّفع إلى مكانٍ عليّ.

٥ ــ وحين رَفَعَ إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت رفعها أكثر من بيوت الناس يومئذ.

وقد جاء التعبير بعبارة ﴿أَذِنَ﴾ لا بعبارة: ﴿أمَر ــ أو شرع ــ أو أوصى ــ أو نحو ذلك﴾ للإشارة إلى أنَّ من المتصوَّر أساساً أن يكون بناءُ بُيُوتِ الله مُتَطَامِناً، لتكون مُساعِدَةً للعابدين على الخشوع والخضوع لله عزَّ وجلّ، والذُّلّ بين يديه، حتى لا يُغْرِيَ رفْعُها بأن يَتَعَاظَمَ مُرْتَادُوها وعَابدو الله فيها.

لكنَّ المصلحةَ العامَّة من رفْعها، لجذب الناس إليها، وتأليفِ قلوبهم عليها، مع إبراز مَعَالِم الأمّة الإسلامية في البلاد، وتكريماً لشرفها بإضافتها إلى الله، نظراً إلىٰ كونها بُيُوتَ الله، رجَّحَ جانِبَ الإْذْنِ برفعها على عَدَمِ الإذن به.

وقَدْ جَاءَ الفعلُ في جملة ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: معطوفاً على الفعل المنصوب في جملة ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَع﴾: فهل المراد أنَّه أذن أيضاً بأن يُذكَرَ فيها اسْمُه، في حدود الإذن فقط، مع أنَّ المساجد لله فلا يَجُوزُ فيها الدّعاء لغيره، ومع أنَّ ذكر الله مأمور به، وإنَّما تُبْنَىٰ المساجد لذكر الله، وممَّا يدلُّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الجمعة/٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

وَأَرَىٰ أنَّ هذا العطف هنا هو على معنىٰ: في بُيُوتٍ أذِنَ الله أنْ تُرْفَعَ وأَمَرَ بأن يُذكَرَ فيها اسْمُه، نظير قول الشاعر العربي:

«عَلَفْتُها تِبْناً وَمَاءً بارداً»:

أي: وسقيتُها ماءً بارداً.

وقول الآخر:

«وزَجَّجْنَا الحواجبَ والعيونا».

أي: وزجَّجْنَا الحواجبَ وكحَّلْنَا العيون.

لذلك جاء بعد قوله تعالى في النَّصّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ﴾ قوله عزَّ وجلّ:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالْغُدُوّ والآصَالِ﴾: والتسبيحُ مِنْ ذِكْرِ الله كما جاء في النَّصّ بعدَ هٰذا.

ويحتملُ أنْ تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: واوَ المعيّة، أي: أَمَرَ بأن تُبْنَىٰ وأذن بأن ترفع مع ذكر اسم الله فيها.

فإن قيل: إنَّ شرط واو المعيّة أن تكون مسبوقةً بطلب أو نفي.

فالجواب أنَّ الطلب مُتَحقِّقٌ ضمناً، إذ المعنى على تقدير: ابْنُوهَا مأذوناً لَكُمْ بأنْ تَرْفَعُوها مع ذكر اسم الله فيها.

ومن المفهوم المخالف ندرك أن الله عزَّ وجلّ لم يأذن برفعها وتعظيم مبانيها لمجرد التفاخر والتنافس في تعظيم أبنيتها وتفخيمها، ولكنَّ الغرض الأساسيّ منها هو ذكر الله فيها.

ولمَّا كان رَفْعُها مِن المظاهر التي تُسَاعد على جَذْبِ الناس إليها لتحقيق ذكر الله فيها أَذِنَ الله به. ولولا تحقيق قَدْرٍ أوفىٰ من المصالح الدينيَّة برفعها، لكان تَعْظِيمُ أبْنِيَتِها شيئاً من أمور الدنيا كغيرها من الْقِلَاعِ والْحُصُون والقصور الَّتي تركها اللَّه للنَّاس، فلم يقُلْ لهم بِشَأْنِها شيئاً، لا أمْراً، ولا نهياً، وَلا إذْناً.

قرأ جمهورُ القراء: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغدوّ والآصَالِ رِجَالٌ﴾: بالبناء للفاعل، فكلمة ﴿رجال﴾ على هذه القراءة هي فاعل ﴿يُسَبِّح﴾.

وقرأ ابن عامر الشاميُّ وشعبة ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فيها﴾: وعلى هذه القراءة تكون عبارة ﴿لَهُ﴾ هي النَّائب عن الفاعل. وتكون كلمة ﴿رجالٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف يُفهَم من مضمون الجملة السابقة، والتقدير: المسبحون لله فيها رجالٌ.

وهذه القراءة تُقدِّم لَوْناً أدبيًّا بَدِيعاً، إذ جاءت جملة: ﴿رجالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله . . .﴾ جواباً على سؤال مقدّر، يَطرحُهُ التالي والسامعُ، تقديرُه: من الذي يُسَبِّح لله في هذه البيوت الَّتي أذن الله أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُه؟ هل هم إنسٌ، أم جنٌّ، أم ملائكة؟

والجواب: هم رجالٌ أوصافُهُمْ كذا وكذا وكذا .

﴿الْغُدُوِّ﴾: جمع مفرده «الْغُدْوَة» وهي ما بَيْنَ الفجر وطُلُوعِ الشمس، مثل «الْغداة» وجَمْعُها «غدَوَات».

﴿الآصال﴾: جمع مفرده «الأَصِيل» وهو الوقت حين تصفَرُّ الشمس مَسَاءً حتّى الغروب، ويُجْمَع أَيْضاً على «أُصُلٍ» و «أُصْلان» و «أَصَائِل».

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاة﴾: في هذا بيانٌ لأوصافِ الْمُسَبِّحِينَ في بيوت الله بالْغُدُوِّ والآصال، فهم:

١ ـ ﴿رِجَالٌ﴾: ، لأنَّهم هُمُ المدعُوُّونَ لِتَسْبيح الله في المساجِدِ بالغدوِّ والآصال. أمّا النساء فيسبِّحن الله أيضاً، ولكنَّ الأفضل لهنَّ أن يسبِّحْنَ في بيوتِهِنَّ، ولو خَرَجْنَ إلى المساجد لم يُمْنعْنَ، وكانت لهنَّ أُجورهُنَّ عند الله، بشرط مُراعاة الْعِفَّة، وعدم تَعَرُّضِهِنَّ للأذىٰ.

٢ ـ ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾:

يقال: لَهَا عن الشيء، إذا غَفَل عنه مشتغلاً بغيره، فصرفه ما اشتغل به عمّا يجب عليه نحوه، أو ينبغي له أن يؤدّيه تجاهه.

ويقال: أَلْهَاهُ كَذَا عَنْ كَذَا، إذا صَرَفَ ذِهْنَه عنه، واستأثر هو باهتمامِه، حتى مَضَىٰ الْوَقْتُ الذي كان ينبغي أن يُنْفِقَهُ فيما لَهَا عنه، فَأَضَاعَهُ فيما أَلْهَاهُ.

والتجارة: جُمْلَةُ أَعْمَالٍ مِنْ أعمالِ كَسْب الرِّزْقِ، منها البيع والشراء، وتوريدُ السِّلَعِ التجاريَّة وتَصْدِيرُها، والْمُدَايَنات، والشَّركات، وغيرُ ذلك.

﴿ولاَ بَيْعٌ﴾: الْبَيْعُ: هو عَقْدُ مُبَادَلَةٍ سلعة بسلعة أو بنقد، وقد لا يكون البائع أو الشاري تاجراً، بل هو طالب سلعة لحاجته، أو متخلِّص من سلعة لعدم حاجته إليها، ويُرِيدُ عوضها مالاً يدَّخره لحاجته، أو سلعة أخرى، لذلك جاء قوله تعالىٰ: ﴿ولاَ بَيْعٌ﴾ معطوفاً على لفظ ﴿تجارة﴾، ففي الأسواق تُجَّار، وفيها آخرون يَبِيعُونَ ويشترون، وليسوا تجّاراً، ولفظ البيع يُطْلَقُ بعمومه على البيع، وعلى الشراء، فالمبايعة تَبَادُلٌ بين شيئين لمالكين كلٌّ منهما يرضى بأن يبادل شيئه بشيء الآخر الذي يُبايعه.

وقد ذكر الله من الملْهيات عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة التِّجَارَة والبيع، لأنَّهما أهَمُّ الأشياء المباحة التي تُلْهِي المؤمن عن عبادة الله عزَّ وجلّ، لما فيهما من استئثارٍ قَوِيٍّ بمحوري الطمع والخوف في نفس الإنسان، فالطَّمَعُ بالرِّبح آسر لها، والخوف من الخسران آسِرٌ لها، والتِّجارة والبيع أكثَرُ عاملين مُلْهِيَيْن عن عبادة الله في حياة الناس مِنَ المباحات.

بخلاف الأعمال الأخرى فَقَدْ يَجِدُ الكادح فيها رغبة في الراحة منها، إذِ المؤمن الْحَريصُ على ذكر الله والصَّلاةِ والزكاة ولو من مستوى غير رفيع لا تُلْهِيه مِثْلُ هذه الأعمال التي فيها كَدْحٌ وكدّ.

وقد خصَّ الله هنا «الذِّكْرَ وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاة» بالبيان، لأنَّها أهَمُّ أعمالِ المؤمنين الدّائرةِ مع كلِّ الأوقات، والتي يُذَكِّرُ بها القرآن، ويَحُثُّ تالِيهِ ومُتَدَبِّريه عَليها في مُناسباتٍ كثيرات، ونفهم باللّزوم الذهني أَنَّهُمْ إذا لم تُلْهِهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ ولا غيرهما عَنْ هذِه الأمورُ الثلاثة، فَإنَّها لا تُلْهِيهم حَتْماً عن الصِّيام والحجِّ وسائر الواجبات الدِّينيَّة، وحقوقِ الأُسْرة والمجتمع الإِسلاميّ.

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتقَلَّبُ فيهِ الْقُلُوبُ والأَبْصَارُ﴾: في هذا بيان لأشَدِّ البواعث في النفوس والقلوب لِفعل الواجبات التي أمر الله بها، وتركِ المحرَّمات التي نهىٰ عنها.

إنَّه الخوفُ من الجزاء والعقاب يوم الدين، وفي هذا النص تصويرٌ للَقْطَةٍ من

لقطات مَوْقف الحساب في ذلك اليوم، هذه اللَّقطة تُصوِّر حال منتظري الحساب يومئذٍ، والصورةُ تُقدِّم أن قلوبهم وأبصارَهُمْ تَتقلَّب من هول الموقف.

أمّا تقلُّبُ الأبصار فهي حركة تطلُّعِهَا في كلِّ الجهات ترقُّباً للأحداث. وأمّا تَقَلُّبُ القُلُوب فهي حركة مشاعر الخوفِ مرَّة، ومشاعرِ الرجاء والطمع أخرى، ولمّا كان الأمران ضدّيْنِ متقابلين كان تَرَدُّدُ القلوب بينهما تقلُّبا.

أليس هذا الجمع بديعاً ورائعاً تحت عنوان التقلُّب، لنوعين من الحركة، حركةِ الأبصار الحسيَّة، وحركةِ القلوب المعنويَّة؟!

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي: لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله وإقام الصَّلاةِ وإيتاء الزكاة، بل هم يَعْمَلُونَ بطاعة الله، لِيَجْزِيَهُمُ الله عن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ثواباً مكافئاً أحسنَ ما عملوا من أعمالٍ حسنةٍ مقبولةٍ عنده، إذْ يَرجُون بما يَقُومُون به من تسبيحٍ لله عزَّ وجلّ بالغُدُوِّ والآصال في بيوتٍ أذن اللَّهُ أن تُرفع، باعتبار أنَّ هذا من أعمال البرِّ الزائدة على أعمال مرتبة التقوى، أن يَرْفَعَ الله درجاتِ أعْمالِهِمْ الصَّالحة العاديَّة إلى مستوى درجاتِ أحْسَنِ ما عَمِلُوا، وأَنْ يُبَدِّلَ الله سيِّئَاتِهِم حسنات، ويَجْعَلَها من درجاتِ أحْسَنِ مَا عملوا أيضاً، لأنَّهُمْ ضاعفوا جهادهم لنفوسهم حتَّى دَخَلُوا في مرتبة الأبرار الذين يُبَدِّل الله سيئاتهم حسنات، كما قال الله عزَّ وجلّ في معرض ذكر صفات فئة عباد الرحمن في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)، وهم من أهل مرتبة الأبرار، وربَّما كان بعضهم من أهل مرتبة المحسنين الذين هم فوق الأبرار:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾.

وأبانَ النَّصُّ أنَّ الله عزَّ وجلّ يَزيدُهم من فضله عطاءً فوق مُجازَاتهم عن أعمالهم على اختلاف درجاتها ثواباً يُكافِئُ أَحْسَن ما عَمِلُوا، فقال تعالى:

﴿وَيَـزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وهـذا وعدٌ من الله لهٰؤلاء الـذين سبق بَيَانُ وصْفِهِمْ، بـأن يزيدهم من فضله ضِمْنَ دائرة الحساب.

﴿وَاللَّهُ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْـرِ حِسَـابٍ﴾: أي: وفـوق حِسَـاب رَفـع درجـات الأعمال الصالحـة الدنيـا إلى أحسن ما عمـل الأبرار، ليجـزيهم الله عليها كـأنَّها من أحسن ما عملوا، وفوق تبـديل سيِّئـاتهم حسناتٍ، ليجـزيهم عليها كـأنَّها حسَنَـاتٌ، وفـوق الزيـادة التي يزيـدهـا الله تعـالى من فضله ضمن دائـرة الحسـاب، فعنـد الله عزَّ وجلّ عطاءُ رِزْقٍ يومَ الدين في جنّات النعيم بغير حساب، يُعْطِيه الله من يشاء.

ونحن نعلم أنَّ مشيئته تعالى لا تُفَارِقُ علمه وحكمتـه، وهذا يُـرشدنـا إلى أنَّ الذين يرزقهم الله بغير حسابٍ، فوق العطاء السابق، الداخل ضمن دائرة الحساب، هم من السابقين المقربين أهل مرتبـة الإحسان، وهؤلاء قـد استكملوا حُقوق مـرتبة التقوى، وتوسَّعوا في فعل الخيرات من نوافـل الصالحـات والعبادات، في درجـات مـرتبة البـرِّ، ثم ارْتقوا بعبـاداتهم لربِّهم في حـركات حيـاتهم إلى مرتبـة الإحسـان، فكـانوا من المحسنين، فَيُبَـدِّلُ الله سيِّئاتهم حسنـات، ويجـزيهم أحسن مـا عملوا، ويَزِيدُهم من فضله ضمن دائرة الحساب، ثُمَّ يَرْزُقُهم من فيض عطائه بغير حساب، وما كان بغير حساب كان فيضاً لا تستطيع الخلائق تقديره بحساب، أمّا الله عزَّ وجـلّ فلا يخفىٰ عليه حساب ما كان منه عطاءً بغير حساب، فالمعنى: بغيـر محاسبـة على مقادير الأعمال ومضاعفات جزاءاتها.

ونُلاحظُ ممّا سبَقَ أنَّ الله عزَّ وجلّ تحـدَّث عن الأبرار ببعض صفـاتهم، وأشار إلى المحسنين بِبَيَانِ أنَّه يَرْزُقهم يوم الـدين بغير حسـاب، وطوىٰ من المؤمنين أهـلَ مرتبة التقوىٰ، من أدنىٰ المؤمنين حتى أعلى درجةٍ من درجات المتقين، لأنَّ مناسبـة تمثيل نور الله في ذوات تالي آياته ومتدبِّـريها، الـذين يُسَبِّحون الله بـالغدوِّ والآصـال في بيوتٍ أذن الله أن ترفع، بالمشكاة التي في هذه البيوت، تستدعي بيـان أن هؤلاء هُمْ من الأبرار أو من المحسنين الذين هم فوق الأبرار. ويُفْهَم من الْعَرْض أنَّ سائـر المؤمنين لهم ثواب دون ثواب هؤلاء، وقد تكفَّلتْ ببيانه نصوصٌ أخرى في القرآن.

بعد هذا استدعى البيان ذكر أحوال الذين كفروا في حياتهم، في موضوع حرمانهم من النور الذي يهتدي به المؤمنون اقتباساً من آيات الله في كتابه.

فبعد تقرير أنَّ النّور في الوجود كلّه هو نور الله، وأنَّ آيات الله في قلوب المؤمنين وفي سائر دوائر ذواتهم، تعطيهم من النور بمقدار تدبُّرهم لها، واستهدائهم بهديها، يظهر بالتقابل أنَّ الكافرين الذين رفضوا الاستهداء بنور كتاب الله وآياته، لا يمكن أَنْ يكون لهم نور يهديهم.

فكيف إذن تكون مسيرة الذين كفروا في حياتهم؟

ويجيب البيان القرآنيُّ على هذا السؤال، بأنَّ الكافرين ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين يصنعون لأنفسهم بأوهامهم سراباً، يحسَبُونه هادياً لهم إلى غاياتهم السعيدة في الحياة، وهؤلاء أذكياؤُهم.

القسم الثاني: الذين يتخبَّطون في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، لا يستطيعون أن يصْنَعُوا لأنفسهم بأوهامهم سراباً، ولا يستطيعون أن يصرفوا عن حياتهم تخبُّطاً وَلاَ عذَاباً.

فقال عزَّ وجلَّ:

﴿**والَّذين كَفروا**﴾: أي: والذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر، وتولَّوا عن آيات الله، ولم يهتدوا بنورها، وطَمَسُوا أدلة الإيمان بالجحود وزُخْرُفِ القول، هم قسمان:

القسم الأول:

﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿**أَعْمالُهُمْ كَسَرَابٍ**﴾: أي: كُلُّ أعمالهم مهما كدّوا وكابَدُوا واجتهدوا وتَعِبُوا

من أجل تحقيق ما يتمنَّوْنه من سعادة، ومهما اتَّخذوا من وسائل وأسباب، ومهما صنعوا لأنفسهم من مفاهيم ونظَرِيّات، أَعْجَبَهُمْ بَرِيقُها ولَمعَانُها، فهم بها يَسْعَوْنَ إلى غايةٍ لَيْسَ فيها مما يصوِّرونه لأنفسهم غير أشياءَ تُشْبِهُ السَّراب.

السَّراب: هو ما يراه المسافر في الصحراء من بعيد مثل الماء في وسطِ النهار، وما هو بماء، إنما هي انعكاسات من أشعَّة الشمس، إذا جاءها الوارد الظمآن لم يَجِدْها شيئاً، وظَهَرَ لَهُ أنها كانَتْ سراباً.

وفي هذه الجملة مطويٌّ مقدَّر، يَفْهَمُهُ الْمُتَدَبِّر ببعض التأمل، حين يلاحظ أنَّ الأعمال التي يَعْمَلُونَها وهي أشياء وجودية ثابتة ليست هي التي كالسراب، وإنَّما الذي هو كالسَّراب ما يَكِدُّون ويكدحون بأعمالهم لبلوغه، ويَظَلُّون كذلك حتى تخترمَهُمْ مناياهم، عندئذ يُدْرِكُون أَنَّهم لم يظْفَرُوا بشيء، وأنَّ مَا كانوا يكدحون لبلوغه قد أفلت من أيديهم، وظهر أنَّه كالسَّراب.

فإمّا أن نقول في التقدير: غاية أَعْمَالِهم كسراب، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه.

وإمّا أن نقول: أعمالهم يعملونها سعياً إلى مطالبَ هي في الحقيقة كالسَّراب.

فلندرسْ أحوالَ طلاب الدنيا من أهل الكفر وأشباههم، هلْ حقَّقوا بَعْدَ الكدِّ الطويل لسعادة أنفسهم وقُلُوبهم وطمأنينتهم في حياتهم إلاَّ كما يحقِّق الظَّامىء في الصحراء السّاعي إلى سراب. كدٌّ مديد، وأملٌ عريضٌ، وغايةٌ مقرونةٌ بالخيبة والندم والحسرة، ومواجهةِ الحساب والجزاء.

ويصوِّر البيان في النصِّ موقع السَّراب، استكمالاً للمشهد المادِّيِّ، ويُصوِّر الحالة النفسيَّة المقرونةَ بالأمل، لدىٰ الظَّامىء السّاعي إلى السراب، إذ يحسبه ماءً، سيصل إليه، وسيشرب منه حتى يرتوي. فيقول تعالى:

﴿كسَرابٍ بقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذَا جَاءَهُ لم يجدْهُ شيئاً﴾:

الْقِيعةُ ـ والقاعُ: ما استوىٰ من الأرض. والسرابُ يظهر في النهار بالقيعة حين تكون أشعةُ الشمس ضاربةً عليها. واستعمل حرف الباء في «بقيعةٍ» للدلالة على أنَّ السراب ملاصق للقيعة، ولو كان شيئاً كالماء لكان المناسب استعمال حرف (في).

﴿يَحْسَبُه﴾: لم تستعمل مادة «حَسِبَ يَحْسَبُ» في القرآن إلَّا في الظنِّ الضعيف المرفوض، والتصوُّرات الباطلات المخالفات للحقيقة.

﴿الظَّمآن﴾: هو الذي يتحرَّك الظمأ في بطنه كالغليان.

فكيف تكون حالة الظمآن الذي لا ماء معه، فرأى لمعاناً من بعيدٍ فظنَّه ماءً يترقرق على سطح الأرض المنبسطة في امتدادِ بصره؟

إنَّه لا بُدَّ أن يسعىٰ بكلِّ ما لديه من طاقةِ سَعْيٍ حتى يبلغ الماء.

لقد أبرز البيان من الصورة السَّراب، والقيعةَ، وحركةَ نفس الظمآن، وتَرَكَ للتالي والمتدبِّر أن يستكمل بنفسه رسم سائر المشهد، وهذا من روائع الإبداع البياني في تصوير المشاهد في لقطات موجزات.

فأتمم أيُّها المتدبِّر تَصْوِيرَ النهار، والشمس اللّاهبة فيه، والصحراءِ الممتدة، والإنسانِ الظمآن المتهالك على جرعة ماء، وسَعْيِه كادّاً على الأرض، بترابها، بصخورها، برمالها، بأشواكها، بعقباتها، فاغراً فاه حيناً، ومُرْتَمياً على الأرض حيناً، وراكضاً حيناً، وساعياً حيناً، وماشياً كالاًّ حيناً آخر، وتَابِعْ تَصْوِيرَ حَرَكات سعيه وكدِّه، حتى يصل إلى موقع السَّراب، فلا يَجِدَهُ شيئاً، فيموتَ عنده وهو ظمآن، خائبُ المسعَىٰ.

كذلك حال فريق من الكافرين طلاب الحياة الدنيا دون الآخرة، وحَالُ أشباههم، إنَّهم ما داموا أصْحَابَ قُوَّةٍ وقدرة على العمل والكدِّ، فإنَّهم يصوِّرون

لأنفسهم بأوهامهم وظُنُونهم آمالاً ومطالب، ويتَّخذون لتحقيقها مختلف الأسباب من معصية الله والإضرار بالناس، ويكدّون طَوَال حيـاتهم، حتى يموتـوا في الكدِّ، دون أن يبلغوا إلى ما هم ظامئون إليه.

ويبني الله عزَّ وجلّ على الممثَّل به كأنَّه عينُ الممثَّل له فيقول:

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾:

الممثَّلُ به: هو المسافـر الذي يجتـاز الصحراء، وقـد اشتدَّ بـه الظمـأ، فرأى سراباً، فأسْرَعَ كادّاً كادحاً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

والممثَّلُ لَهُ: هـو الكافـر الذي يَسْتَخْـدِم ذكاءه في تحـديد مـطامحه وآمـاله، واتِّخاذ الأسباب التي يَحْسَبُ أنها توصله إليها، فيسعىٰ في حياته من خلال أسبـابه، لتحقيق غاياته التي تتجدَّد دواماً، ويَكِدُّ لاهثـاً، حتى تخترمـه المنيَّة، دون أن يصـلَ إلى ما يَصْبُو إليه.

هذا الممثل له، هو الذي يجد الله عند سرابه، الذي هـو مطامحـه وآمالـه، إذْ تنتهي عنده رحْلَةُ امتحانه في الحياة الدُّنيا. فيوفّيه الله حسابه على ما عَمِلَ في رحلة امتحانه.

ولمّا كان الموت قاطعاً لكلِّ ما في الحياة الدنيا، وكاشفاً أنَّ مَا كَانَ يسعَىٰ إليه الإنسـان منها مثـلَ السَّرَاب، وكـاشفاً بعض مـا يكـون بعـد المـوت من أمـور تنتهي بالحساب يوم الدين، ثم بالمصير إلى تطبيق العقاب، اختصر النصُّ بإيجازه مسافـة ما بين الموت والحساب وفَصْلِ القضاء، والمصيرِ إلى حيثُ ينالُ جزاءَهُ وافيـاً، كما ظهر بحسابه عمّا قدَّم في رحلة امتحانه، فطوىٰ من الأحداث كلَّ مـا يكونُ مِنْ بَعْـدِ إدْراكه أنَّ ما كان يسعىٰ إليه من الدُّنيا كالسَّراب، حتى غـاية مـوقفِ الحساب الـذي تمَّ به قرار الجزاء، بالإشارة إلى أنَّه كان حسابـاً وافياً، ويُشِيـرُ الحسابُ الـوافي إلى المصير التطبيقي لما تَمَّ بعد الحسـاب من قضاء، فهـو الذي يَتَحَقَّقُ فيـه فعلاً تـوفية الْحِسَاب.

هـذه اللَّقطة المـوجزةُ في البيـان أغنت في الدلالـة على المقصود، وأشـارت بذيولها من الأوائل والأواخر إلى سائر الأحداث التي جاء بيانُها في نصوصٍ أُخْـرىٰ من القرآن.

واستغلَّ البيان مناسبة الحـديث عن توفيـة الله عزَّ وجـلّ الكافـرَ حِسَابَـهُ، لبيان حقيقةٍ من حقائق صفات الله، وهي أنَّه سبحانه سريع الحساب، فقال تعالى:

﴿واللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: أي: مهما كانت عناصر الحساب دقيقةً ومتشابكـة متداخلة، فإنَّ الله عزَّ وجلّ يُجْري حسابَها بالسرعة الملائمة لكمال صفاته، وبالـدقَّة التّامَّةِ التي لا يكون فيها زيادةٌ ولا نقصانٌ مطلقاً، وفي هٰذا إشارةٌ إلى أَنَّ كـلَّ أعمال الكافر تعرض بسرعة، فتكون المحاسبة عليها، ويأتي بعدها الحكم، ثم يكون بعده الجزاء.

وبهـذه الجملة ينتهي البيان حـول القسم الأوَّل من قسمَي الـذين كفـروا، في موضوع حِرْمَانهم من النور الذي يهتـدي به المؤمنـون اقتباسـاً من نور الله في آيـات كتابه المنزَّل، بسبب كفرهم وتولِّيهم عن الاقتباس من نور الله، الذي منه كلُّ النور.

القسم الثاني:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يدلُّ هذا التشبيـه على أنَّ القسم الثاني من الـذين كفروا جَهَلَةٌ أغبيـاء تَبَعِيُّون تَقْلِيـدِيُّونَ، لا رأيَ لَهُم، ولا فكـرَ لهم يصنع بَـرِيقَ طُمُوحَـاتٍ ومطالبَ يسعـون إلى تحقيقها، من خلال أسبابِ الحياة الدنيا، حتّىٰ تكُون بالنسبـة إليهم كالسَّـراب الذي يسعىٰ إليه الظمآن.

بل هم أضلُّ من الأنعام، غَرائِزِيُّون يتخبَّطونَ في الظلمات بَحثاً عمّـا يحقِّقون به مطالب غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم.

واقْتَصَرَ النَّصُّ هُنا على تمثيل الظُّلمات الفكريَّة والنفسيَّة والقلبيَّةِ في ذواتهم، إذْ لم يَسْتَنِيروا بنور آيات اللَّهِ في كتابه، ولَيْسَ لديهم استعـدادات فِكْرِيَّـةٌ تَصْنَعُ لهم بالأوهام صُوَراً من الرؤىٰ اللّامعة البرّاقة التي تُشْبِهُ السَّرَابَ بالنِّسْبَةِ إلى الظمآن.

لكنَّهم مـدفـوعـون منْ قِبَـلِ غـرائـزهم وأَهْـوائهم وشهـواتهم للكـدِّ والكـدح والعمل، من أجل تحقيق مطالبها، فهم يتخبَّطونَ في الظُّلمات.

وبإبراز المحاذيف الَّتي يقتضيها البيان تنكشف لنا الروابط والمفاهيم.

والتقـدير مـع إبـراز المحـاذيف: والْقِسْمُ الثّاني من الَّـذين كفَـروا أعمـالُهُم تَخبُّطاتٌ عَمْيَاءُ في ظُلماتٍ فِكْرِيةٍ ونفسيَّة وقلبيَّـة، كظلمـاتٍ في بحْرٍ لُجِّيٍّ... إلى آخر الصورة التمثيليَّة في النصِّ.

﴿أو كَظُلُمَاتٍ﴾: «أو» حرف عطف للتقسيم هنا، أي: لبيان أنَّ الَّـذِينَ كفروا قسمـان: قسم أعمالُهُمْ كـأعمـال سـاعٍ إلى سـراب، وقسمٌ أعمـالهم كمتخبِّطٍ في ظلمات، وليست فيما ظهر لي للتنويعِ في ضربِ مثلَيْنِ لِقِسْمٍ واحِدٍ.

وجاء لفظ «ظُلُمَات» جمعـاً للدلالة على أن الـظلمة قـابلة للتراكب والـزيادة، فهي ذاتُ نِسَبٍ بعضُها أشدُّ من بعض، كما أنَّ النور قـابل للتـراكب والزيـادة، فهو ذو نِسَبٍ بعضُها أَشَدُّ من بعض، كما سبق بيانُه لدى تـدبُّر قـوله تعـالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نور﴾.

﴿فِي بحْـرٍ لُجِّيٍّ﴾: اللُّجِّيُّ: هـو الْمَنْسُـوبُ إلى اللُّجَـة، واللُّجَــةُ من البحـر ما كان منه عظيماً عميقاً، وهي أواسـطه، أي: في بحر عـظيم عميق، ويقال: بَحْـر لُجِّيٌّ، أي: واسعٌ عظيم. ولُجَّةُ البحر: حيث لا يُدْرِكُ قَعْرُه.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾: أي: يعلُوهُ موجٌ. إذن فالـظلماتُ المشبَّـهُ بها هي في بـاطنِ بحرٍ لُجِّيٍّ، ضِمْنَ عُمْقِ الماء.

﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾: أي: من فوق الْمَوْجِ الذي هو فوق الظلمات مَوْجٌ آخر.

فـدلَّ النصُّ على أنَّ الْبِحَارَ ذاتُ أمـواجٍ في العمق، وذَاتُ أمواج أُخـرى في السطح، ومن شأن الأمواج أن تمنع الأضواء من النفوذ إلى العمق، إذ تتبـدَّد وتتكسَّر بعنف الحركة، وتَتَابُعِها وارتجاجها.

﴿مِنْ فوقه سَحَابٌ﴾: أي: من فوق الموج السطحيّ سحاب.

ولفظ «سحاب» جمع أو اسم جنس جمعيّ مفرده سحابَـة. والمعنى من فوقـه «سُحُب» والسُّحُب من شـأنهـا أن تحجبَ الأنــوار والأضـواء الممتــدة من النجـوم والكواكب والشمس والقمر في اتِّجاه الأرض.

ولمّـا كان مصـدر النُّـورِ علويّـاً كـانت الـظلمـات التي في عمق البحـر قـابلة للتراكب والتزايد بقدر الْحُجبِ وتراكب بعضها فوق بعض، ولمّا كانت هذه القضيَّـة بحـاجةٍ إلى مـا يُبْرِزُهـا في تصـويـر المشهـد، قـال الله تعـالى بعـد وصف الأمـواج والسحب المتراكبة على بعضها:

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فَـوْقَ بَعْضٍ﴾: أي: تلك الظلمـات التي جاء وصفهـا فيما سبق هي ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعض.

وذلك لأنَّ الأمواج في العمق قـد أحدثت مقـداراً من الظلمـة، والأمواجَ التي في السطح قد أحدثت مقداراً آخر من الظلمـة. والسُّحبَ المتراكبـة فوق البحـر قد أحـدثت مقاديـر أخرىٰ من الـظلمة، بـاعتبارهـا حجباً حجبت الأنـوار العلويـة ذاتَ الأشعةِ الممتدة إلى الأرض.

كـذلك حـال قلوب الذين كفـروا، مَحْجُـوبَـةً عن نـور آيـات الله بـالغـرائـز، والشهـوات والأهواء ومـا يُحِيطُ بها من تقـاليد ضـالَّـة، وبيئـات فـاسـدات، وأفكـارٍ ومذاهب زُيوفٍ يُقْنِعُهُم بها شياطين الإنس والجنِّ، ويخدعونهم بألوانها وبريقها.

﴿إذَا أخـرج يَدَهُ لَمْ يَكَـدْ يَرَاهَـا﴾: أي: إنَّ هذا الـذي هو في ظُلمـات بحرٍ لجِّيٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب، وهو الممثَّل به، إذا أخرج يَـدَهُ من

مكان وضعها الطبعي، وأدناها من عَيْنَيْه إدْناءً كثيراً لَمْ يكَدْ يراها، من شدَّة ما هو فيه من ظُلُمات.

﴿لم يكدْ يراها﴾: أي: لم يَقْرُبْ من رؤيتها، فضلاً عن أن يراها، وكثيراً ما يستعمل العرب مثل هذه الصيغة بمعنى: فَعَلَ بعد شِدَّةٍ وإبطاء، فإذا كان هذا المعنى الثاني هو المراد، فإنَّ النَّصَّ يدلُّ على أنَّ هذا القسم من الكافرين لَدَيْهِ مع كلِّ ظلماته إمكانِيَّةُ أن يُدْرِكَ قليلاً من النور الذي قد ينفذ إليه ضعيفاً جدّاً مِنْ خلالِ الحجُب التي أقامها بين قلبه وبين نور آيات الله في كتابه، ممّا يصل إلى سمعه وفهمه باهتاً ضعيفاً، وأنوارُ آياتِ الله علويَّةٌ، لأنَّها تنزيل من لدن عليم حكيم.

واقتصر النَّصُّ على بيان حال المشبَّه به، وتَرَكَ للمتدبِّر استكمالَ المقارنة بين المشبَّه والمشبَّه به، واستجلاءَ عناصر التشابه بينهما.

أمّا بَيَانُ السَّبَبِ الذي وَلَّدَ هذه الظلمات في ذوات هذا القسم من الذين كفروا، فهو أنَّهُمْ رفضوا الإيمان، وألقوا بينهم وبين نُورِ الله الذي هو النور الوحيد في الوجود حُجُباً كثيفة، منها ما هو قريب من أعماق ذواتهم، وهي أمواج الغرائز والشهوات، ومنها ما هو فوقها على سطح نفوسهم، وهي أمواج الأهواء، ومنها ما هو مُظَلِّل لهم ومُضَلِّلٌ من تقاليدَ وأفكارٍ وعقائد ومذاهب أملاها عليهم شياطين الإنس والجنِّ، فكان من نتائج اختيارهم أنَّ الله تعالى ضِمْنَ قوانينه التكوينيَّة لم يجعل لهم نوراً.

﴿وَمَنْ لَمْ يجعل اللَّهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

وقد جاء هذا الحكم في هذه القضيَّة الكليَّة مَبْنِيّاً على المثل كأنَّه عَيْنُ الممثَّلِ لَهُ، وهو المشبَّه.

وهذا من خصائص الأمثال القرآنية، كما سبق في القسم الأَوَّل من الكتاب.

* * *

التحليل الأدبـي العامّ للنصِّ

أغراض البيان الأساسيَّة في هذا النص:

يظهر لنا بالتأمُّل من خلال الشرح السابق للمفردات والجمل، وما يدلُّ عليه النَّصُّ اقتضاءً ولزوماً ذِهْنِيّاً، أنَّ أغراض البيان الأساسيَّة فيه ثلاثة:

الغرض الأول: الحديث عن آياتٍ من القرآن أنزلها الله هدىً للنّاس، وأنَّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

● **فالقسم الأول منها:** آياتٌ مُبَيِّناتٌ لحقائق وشرائع وأحكام وتكاليف ووصايا، ونحو ذلك، وهي في ذواتها مبيَّنات مُوَضَّحَات لَا لَبْسَ فيها ولَا غُموض.

● **والقسمُ الثاني منها:** ما يتضمَّن أخباراً عن أحوال الأمم السابقة بتقديم نماذج وأمثلةٍ تاريخيَّةٍ منها.

فمنها ما يتضمَّن عرض أمثلة من أخبار نُخْبَةٍ مختارة من الناس، ينبغي أن يتخذهم النّاس قدوة وأسوةً حسنة لهم، فطالِبُو الهداية يقتدون بهم، معتبرين بما كانوا عليه، وبما ظفروا به من عاقبة سعيدة.

ومنها ما يتضمَّن عرض أمثلة من أخبار المجرمين والظالمين والكافرين والفاسقين، وكيف كانت عاقباتُهُمْ، وفي هذه الأمثلة عِبْرة للمعتبرين، الذين يستفيدون مما جرى لمن كان قبلهم، فيعتبرون بها، ويتعظون بدلالاتها.

● **والقسم الثالث منها:** ما يَتَضَمَّنُ وعداً ووعيداً، وبشارات وإنذارات، وتهديداً وإطماعاً.

فالوعود والمبشِّرات والإطماعات تستثير في النفوس المؤمنة الرَّغَبَ والطمع، وتحرِّكها للعمل بما يحقِّق في المستقبل المطلوب.

وصُوَرُ الوعيد والإنذارات والتهديدات تستثير في النفوس المؤمنة الرهب والخوف، وتحرِّكها لاتخاذ وسائل الوقاية من المرهوب المخوف.

فكيف جاء في النصِّ عرض هذا الغرض؟

لقد جاء بيانه بطريقة مباشرةٍ في الشكل العامِّ، ولكنَّ فيه من الإيجاز والمحاذيف، واستخدام الاقتضاءات الفكرية، واللوازم الذِّهْنِيَّة ما يجعله في قِمَّةِ الإبداع.

بدأ النصُّ بالتأكيد بلام الابتداء «أو اللام الواقعة في جواب قسم محذوف كما يقولون» والتأكيد بحرف «قد» التحقيقية، على أنَّ آيات القرآن المجيد منزَّلة من لدنه، فقال تعالى خطاباً لكل صَالحٍ للخطاب من الناس منذ التنزيل حتى آخر الدهر:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إليكم﴾.

فما هو المنزَّل إلى الناس؟

لقد أبانه الله عزَّ وجلّ بعنوان، هو مَقْسِمٌ ذو أقسام، هذا العنوان هو قوله تعالى: ﴿آيَاتٍ﴾ بصيغة التنكير، للدَّلالة على أنها صنف من آيات القرآن المجيد. وهي ما فيه هداية الناس ودعوتهم إلى صراط الله المستقيم، وترغيبهم فيه، وترهيبهم من اتِّخاذ سُبل أخرى غيره.

وعلى المتدبِّر أن يفهم عن طريق الاقتضاء الفكري، واللَّوازم الذهنية، واستذكار ما جاء في التنزيل قبل هذا النصِّ، أنَّها آياتٌ لهداية الناس إلى صراط نجاتهم وسعادتهم، في رحلة الحياة الدنيا التي هم فيها ممتحنون، ليَلْقَوْا حِسَابهم وجزَاءَهُمْ بعدها، منذ أن يطؤوا عتبة البرزخ بالموت، حتى يوم القيامة والحساب والجزاء والمصير الأخير في دار النعيم أو دار العذاب.

بعد ذكر هذا العنوان جاءت في النصِّ أقسامه، وهي أقسامٌ عنوانيَّة ثلاثة:

● **فالأول**: جاء إيجازه بعبارة ﴿مبيِّنات﴾ بكسر الياء المشدَّدة في قراءة، و ﴿مبيَّنات﴾ بفتح الياء في القراءة الأخرى.

وعلى المتدبر الباحث أن ينطلق باحثاً بفكره، ومن خلال نصوص القرآن في سُوَره، ليفصِّل هذا العنوان الشامل.

إنَّه سيكتشف ما في القرآن من آيات واضحات الدلالات، ومبيِّناتٍ للقضايا التي فيها هداية الناس، في مفاهيمهم وعقائدهم وأخلاقهم وشرائع حياتهم، ومنهاج سلوكهم الأمثل.

ودلَّ نصٌّ آخر مكيٌّ نزل قبل هذا النصِّ المدني، فيه بيان نوع هذه الآيات المبيَّناتِ المبيِّنات، وهو قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ... ﴿٩﴾﴾.

ففيه آياتٌ مُبَيَّنَاتٌ ومُبَيِّناتٌ تهدي للَّتي هي أقوم.

● **والثاني**: جاء إيجازُه بِعِبَارَةِ ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

وهنا على المتدبر أيضاً أن ينطلق باحثاً في الْقِصَصِ القرآنية، ويجمع ما جاء فيها ويدرِكَ أهدافها.

ويكشفُ الجمع والتحليل ما يلي:

١ ــ أنَّ مِنْ هذه القصص ما هو للاعتبار به خوفاً، وهي قصص المجرمين والظالمين والفاسقين، والعصاة لربِّ العالمين، والاعتبارُ هنا يَهْدِي إلى ترك سُبُلهم، والحذر من ارتكاب مثل ما ارتكبوا.

٢ ــ وأنَّ مِنْ هذه القصص ما هو للاقتداء بأصحابها من الأنبياء والمرسلين ومن اتَّبعهم بإحسان، وصالحي الأمم السالفة من المؤمنين والمؤمنات، وهذه القصص هي للاعتبار بها أيضاً، ولكن الاعتبار هنا يهدي إلى الاقتداء بهم واتباع خطواتهم الصالحات، لأنه اعتبار يُحَرِّك الطمع.

وقد جاء بيان هذين الغرضين في عدَّة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ... ﴿١١١﴾﴾.

وأبان الله عزَّ وجلّ أنَّه انتقم من فرعون لأنه كذَّب وعصى، واستكبر وقال: أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى، وعقَّب على هذا البيان بقوله تعالى في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

وصرَّح بغرض تقديم النماذج الصالحة للاقتداء بها، فقال تعالى لرسوله بعد أن ذكر عدداً من الرُّسُل السابقين في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

● **والثالث**: جاء إيجازه بعبارة: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وقد عرفنا أن الموعظة هي النصح بالأمر أو النهي على اختلاف درجاتهما، المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة في الأنفس للانتفاع بالنُّصح.

وعلى المتدبر هنا أن ينطلق باحثاً في القرآن، ويَسْبُر كُلّ نصٍّ فيه أمرٌ أو نهيٌ أو توجيه لعملٍ أو تركٍ، وكلّ نصّ فيه ترغيبٌ أو ترهيب، أو وعدٌ أو وعيد، أو بشارةٌ أو إنْذار، ليكتشف ما جاء في القرآن ممّا يندرج تحت عنوان «مَوْعظة».

وقد جاء بيان غرض الترغيب والترهيب في عدَّة نصوصٍ قرآنية.

١ ــ فبعد قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

قال تعالى في النصّ نفسه:

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

فالتبشير وعْدٌ يُثير الرغب والطمع في الأنفس المؤمنة. والإنْذارُ وعيد يُثيرُ الرهَبَ والحذرَ في الأنفس المؤمنة. وهما من الموعظة.

٢ ــ وقال الله عزَّ وجلّ لرسوله في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قوماً لُدّاً﴾: أي: قَوْماً ذوي خصامٍ شديدٍ مُكابرين معاندين، لا تلين قلوبهم للأدلة الكافية للإقناع، فلا وسيلة معهم إلَّا الإنْذار.

«لُدٌّ» جمع مفرده «أَلَدُّ» وهو ذو الخصومة الشديدة، الْجَدِلُ ولو بالباطل.

● أخيراً: ولكن من الذي ينتفع ويستفيد من آياتٍ هي مبيِّنات ومبيَّنات، وآياتٍ تتضمَّنُ مثلاً من الذين خلوا من الأمم السالفة، وآياتٍ تتضمَّنُ موعظة؟

هل كلُّ من تُوجَّهُ لَهُ هذه الآيات؟

البيان في النصِّ يُخَصِّص ذلك بِقَيْدٍ لازم، فيقول الله عزَّ وجلّ في آخر بيان الأقسام الثلاثة ﴿لِلْمُتَّقِين﴾.

فينسحب هذا القيد، ليكون قيداً لقسم ﴿مُبَيِّنَات﴾ ولقسم ﴿مثلاً من الَّذِينَ خلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولقسم ﴿مَوْعِظَة﴾.

وعلى المتدبِّر أن ينطلق باحثاً عن المتقين، وتهديه اللوازم الذهنية ودلالات النُّصُوص الأخرى في الكتاب المجيد، إلى إدراك أن مُتَّخِذ الوقاية من شيء يُخْشَىٰ وتُخاف عواقبه، لا بُدَّ أنْ يكون قَدْ آمن بأنَّ ذلِكَ الشيءَ تُخَافُ عواقِبُه حقّاً، فَمَنْ لم يؤمن بالشيء الْمُخَوِّفِ به لم يخَفْهُ، فلم يتَّقِه. وكذلك من لم يؤمن بالشيء المدعُوِّ

للطمع فيه، لم يَطْمَعْ فيه، فلم يَسْعَ لنواله والحصول عليه، فالإيمانُ حركةٌ سابقة للتَّقْوىٰ، تُدْرَك ذهناً، ولو لم يُصرَّحْ بها في اللَّفظ، وقبل الإيمان تأتي أعمال فكريَّة ونفسيَّةٌ تُهَيِّىءُ لحركة الإيمان، يَكْشِفُها التأمُّل والنَّظَرُ في عوامل النفس المختلفة، التي تُمَثِّلُ عقبات تَصُدُّ عن الالتفات إلى دعوة الحقّ، والنَّظَر فيها، أو قبولها والاستجابة إليها.

وكلُّ هذا قد تركَهُ النَّصُّ للباحث المتدبِّر المتفكر، ليظل النصّ في مستوى بيانه الكُلِّي الدستوري، الواضع لعناوين بحوث ذوات تفصيلات واسعات، يجدها متدبِّر كتاب الله منبثَّة في سُوَرِهِ وآياته.

وهل كلُّ المتقين على مستوى واحد؟

ينطلق الباحث فيكتشف أنهم على درجات أدناها الناجون من الخلود في النار والعذاب، وأعلاها الناجون من استحقاق العقاب، بقيامهم بالواجبات، وتركهم للمحرَّمات.

هذا ما يتعلَّق بالغرض الأوَّل من أغراض النصِّ.

* * *

الغرض الثاني: بَيانُ أنَّ آياتِ الله في كتابه هي نورٌ من نورِه العظيم الذي لا نُورَ في الوجود غيره. فمن آمن بهذا النور واستهدى به كان له حظٌّ من الاستقامة في الحياة ومن السَّعادَةِ العاجلة والآجلة، بمقدار انتفاعه واستفادته من النور. ومن كفر به وتولّى عنه لم يكن له نور يوصله إلى ما يُحَقِّقُ له هُدىً في حَياته، وغايةً سعيدةً حقيقيةً، في عاجلِ أمره وآجله.

فهل جاء بيان هذا الغرض بصورة مباشرة؟

هنا نجد النصَّ يبتعد عن البيان المباشر ابتعاداً كبيراً، فيبدأ بالحديث عن النور كلّه في السماوات والأرض، ما كان منه مادِّيّاً يُشاهَد بالأبصار، وما كان منه معنوياً يُدْرَكُ بالأفكار والقلوب والنفوس والبصائر، كالأنوار الفكرية التي تكشف

الحقّ والخير والجمال والكمال والفضائل وأضدادها، وكأنوار الهداية التي تهدي الخلائق في عقائدهم ومفاهيمهم وعلومهم وكلٍّ أنواع سلوكهم في الحياة، في بيانات الله ورُسُله.

فيقرِّر النصُّ منذ الجملة الأولى منه أنَّه لا نور في السماوات والأرض إلَّا من الله، مَصْدَراً، وإمْداداً، وتمكيناً، وتسخيراً، ولا نور في السماوات والأرض إلَّا هو له سبحانه، أي: فمن استهدى بنوره وانتفع منه كان له نور، ومن تَوَلَّىٰ عنه والتمس نوراً غير نوره لم يجد نفسه إلَّا في أوهامِ نُورٍ كاذب، أو يتخبَّط في الظلمات.

فكيف جاء التعبير عن هذه الفكرة؟

إنَّ من أساليب الناس عامّة، ومن أساليب أهل البيان العربي، أنَّهم إذا رأوا ـ على سبيل الحقيقة أو المبالغة ـ انحصارَ شيءٍ كصفةٍ أو عمل أو أثر ما، في شخص من الأشخاص كان من تعبيرهم عن هذا الانحصار بجعل ذلك الشيء هو عين ذلك الشخص فيخبرون به عنه.

فيقولون مثلاً: الجيش هو القوة في البلاد، أي: هو ذو القوة التي لا تُقاوم ولا تُضارَع.

ويقولون في قاضٍ عُرِفَ بالعدل من بين القضاة، هذا القاضي هو العدل كله، أي: هو ذو العدل المتفرد به من بين القضاة.

ويقولون في فارسٍ شجاع فَاقَ بشجاعته كلَّ الشجعان: هذا الفارس هو الشجاعة كلّها.

وكلامهم هذا هو على سبيل الادِّعاء والمبالغة، والمعنى أنَّه هو المتفرِّد بكمال هذه الصفة.

ويقولون في إنسان يملك من الذهب ما لا يملك عشراتٌ من أغنياء البلاد سواه: فلانٌ هو الذهب. أي: ذو الذهب الأعظم، فكأن الذهب قد انحصر فيه.

إلى غير ذلك من أمثلة، وهي لا تصحّ في الناس إلا على سبيل المبالغة، فكيف إذا كان الانحصار حقيقيّاً وشاملاً؟

أقول: إنَّ مثل هذا التعبير يكونُ عندئذٍ صادقاً مطابقاً لا مبالغة فيه، وهو من الأساليب البيانية الدالّة على الحصر.

على مثل هذا نفهم قول الله عزَّ وجلّ:

﴿اللَّهُ نور السماوات والأرض﴾:

أي: هو وحده ذو نورهما، فكلُّ النور المادِّيّ والمعنويّ فيهما منه، وله، سبحانه.

وإذْ لم يَهْتَدِ بَعْضُ المتدبرين إلى هذا الفهم في هذه الجملة القرآنية، وقعوا في إشكالات كثيرة لم يكن في الواقع داعٍ إلى طرحها.

إنَّ هذا الأسلوب من التعبير مع تعريف ركني الإسناد: المبتدأ بالعلميّة، والخبر بإضافته إلى المعرّف بالألف واللام، هو من أكمل أساليب الحصر وأَخْصرِها.

ويفهم المتدبّر عن طريق اللوازم الذهنيّة أَنَّ أَحَداً لا يمكن أن يأتي بنور أو يكون له نور، إلَّا اقتباساً من نور الله، أو أنَّ الله منحه من نوره نوراً مادّيّاً كان أو معنويّاً. حتّىٰ أنوار المعرفة الكَوْنيّة، التي يصل إليها الباحثون في ظواهر الكون، إنَّما هي عطاء من الله لأذهانِهم وأفكارهم وسائر مَلَكات المعرفة وأدواتها لَدَيْهم.

إذن: فهل بعد نور الله إلَّا الظلمات، أو أوهام نور كاذب؟

كذلك ليس بعد الحق الذي يهدي إليه نور الله، إلَّا الضلال الذي تدفع إليه الظلمات، بعمىٰ الأبصار، أو عمىٰ البصائر، وعمىٰ البصيرة، إنَّما هو اكتساب يكتسبه الكافر الجاحد، ويجني به على نفسه بإرادته ورفضه للاهتداء بنور الله.

فجملة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأرض﴾: وفق المعنى الذي سبق بيانه ويطمئنّ إليه القلب، قضيّةٌ كليّةٌ عامّة، تتفرّع عنها بحوث تفصيليّةٌ كثيرة واسعة،

وتلْزمُ عنهـا لوازم ذهنيَّة فكريَّـة كثيرة، وقـد أوجزهـا البيان الـرّبـاني بهـذا الإبـداع مستخدماً أسلوباً من أساليب الناس في كلامهم الرفيع.

وقد جُعلت هذه القضيّة الكليَّةُ مقـدّمةً للحـديث عن نور آيـات الله في كتابـه المجيد، المشتمل على مـا تنحصر بـه هدايـة الناس إلى صـراط سعادتهم العـاجلة والآجلة.

فكيْفَ جاء البيان القرآنيُّ المتعلّق بالحديث عن نور آيات الله في كتابه؟

هنا نلاحظ أنَّ النّصَّ قـد انتقل من تقـرير الحقيقـة الكليّة السـابقة، إلى بيـانٍ يتضمَّن مـا يُرادُ تـوصيلُه من مفاهيم متشـابكة، حـول نور آيـات الله في كتابـه، مـع الإشـارة إلى اختـلاف نِسَب مقـاديـر انتفـاع المؤمنين ذوي الـدرجـات المتفـاوتـات واستفادتهم من هذا النـور، ومع إضـافات تتعلَّق ببيـوت الله المساجـد في الأرض، الَّتي تتهيّأ فيها مقاديرُ أكثر كمّاً وكيفاً من استفادة عامة المؤمنين بنور آيات الله.

إنَّ آيات كتاب الله المنزَّل إلى الناس، والتي بـدأ النصّ بالحـديث عنها، هي مَثَلٌ من نور الله العظيم الذي لا حدّ له، أي: (نـمـوذج) بيانيّ كـلاميٌّ ممَّا يشتمـل على نور من أنوار علمه وهدايته لعباده جلَّ وعلا.

وهـذا المثل (النـمـوذج) من نوره هـو: مثلٌ في معـانيه، إذْ هـو حقٌّ وصدق ويهدي للتي هي أقوم، صافٍ من كلّ شائبة، إذْ لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفه، ولا غبش فيه ولا كُدورة، كاملٌ في مبانيـه وألفاظـه الصافيـة البرَّاقـة المشرقـة الناشرة لمعانيه بدلالاتِها المتشابكة المتداخلة العجيبة، كاملُ المدَدِ الذي يُمدّه دواماً ليظلّ عطاءُ نوره دائماً وصافياً.

ولكن لم يأتِ التعبير عن هذه الأفكار بهذه الصورة المباشرة السـاذجة، وإنَّمـا جاء التعبير عنها من خلال صورة تشبيهيّة بديعة، أدَّت هذه المعاني، وزادت عليها، فقد تَضَمَّنَتْ ما فيه توطئة للحديث عن بيوت الله في الأرض، وهي المساجد.

فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾:

أي: مَثَلُ آيات كتابه التي سبق الحديث عنها في بداية النصّ، والتي هي مثلٌ من نوره العظيم، فالقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطرة من بحر عظيم يمده من بعده سبعة أبحر.

﴿كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَب دُرّي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شرقيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

المشكاة: مِثَالُ ذات المؤمن التالي لآيات الله والمتدبّر لبعض معانيها، والمؤمنون في هذا يتفاضلون كما تتفاضل المشاكي.

المصباح: مثالُ قلبِ المؤمن وفكره حين يَستمدان شُعْلَتَهُمَا من مَدَدِ آيات الله.

النور: مثالُ المعاني التي تدُلُّ عليها آيات الله في كتابه.

الزُّجاجة: مثالُ الألْفاظ والأساليب الكلاميّة البيانية الباثَّة الناشرة بدلالاتها البديعة العجيبة للمعاني المرادة من الآيات، مهما تداخَلَتْ وتشابكت، وكان لها لوازم ذهنية، ومهما كان في الصيغ اللفظية من محاذيف يُمْكِنُ الاستدلاَلُ عليها عن طريق الألفاظ المذكورة، أوعن طريق المعاني واقْتِضَاءاتها ولوازمها.

الزيت الذي يمدّ المصباح: مثال واردات العلم التي يمدّ الله بها الصادقين من عباده المؤمنين المتدبّرين لآياته، فهو مَدَدٌ صافٍ يكاد يضيء لشدة صفائه، ولو لم يَنْقَدِحْ عليه زِنَادُ فِكْرِ المؤمِنِ المتدبر.

الشجرة المباركة الزيتونة: مثال شجرة العلم الربّاني العظيمة، التي تمد ببحور زيتِ المعرفة، إلى كل مُؤَهَّل للاستفادة منها، ومُعدٍّ نفسه للبحث والاقتباس.

والمعنى: أنَّ آيات الله التي هي مثلٌ «أي: نموذج» من نور الله العظيم، في قلب المؤمنِ المنتفعِ بها، والمستضيءِ بما تَبُثُّه مِنْ نُور علمٍ وهداية، والمتعهِّدِ لبيوت الله بالغدوّ والآصال والَّذي يذكر الله فيها، والعاملِ في حياته بمقدارٍ ما ممَّا ترشد إليه آيات الله في كتابه، هذه الصورة المجتمعة من أجزائها المتعدّدة هي، كمشكاة في بيتٍ من بيوت الله، وفي هذه المشكاة مصباح، وهذا المصباح تحيط به زُجاجةٌ نفيسةٌ بديعةٌ كأنَّها كوكبٌ دُريّ، والمصباح مُسْرَجٌ يضيء، ويُمدّهُ وقُودُ زيتٍ نقي صافٍ معتصر من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقيّة ولا غربيّة، يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء لشدّةِ صفائه، ولو لم تَمْسَسْهُ نار، والمصباح في الابتداء أُسْرِجَ فَتَوَقَّدَ، وفي الدوام يُوقَدُ، فالزجاجةُ من أثر المصباح تُوقَدُ من نور المصباح.

صورتان متقابلتان عَقَدَ النصّ تشبيهاً بينهما، على طريقة تشبيه التمثيل، ولدىٰ تحليل المثل نلاحظ تقابلاً بين أجزاء الصورتين فيه، وكلُّ جزءٍ من صورة المشبّه تشبه جزءاً من صورة المشبّه به، وهذا من أدقّ تشبيه التمثيل وأعلاه.

وبأسلوب غير مباشر أدّى المثل المعاني المرادة أدقّ أداء وأخصره وأجمله، وهذا من روائع الأدب.

وقد سبق بيان التقابل بين أجزاء الصورتين.

أمَّا تفاضل أفراد المؤمنين في مقادير ما يستفيدونه من تدبُّر آيات الله في كتابه فيُفْهَمُ من واقع حال تفاضل المشاكي، وتفاضل المصابيح فيها، إذا قدَّرْنا أنَّ المشكاة مثالُ ذاتِ المؤمن، وأنَّ المصباحَ مثالُ قَلْبِهِ وفكره.

وبعد أن أدّىٰ هذا المثل التشبيهي أغراضه البيانية مع ما فيه من إمتاع جمالي، نلاحظ فيه ما يلي:

من البديع في صورة هذا المثل ما جاء فيها من رسمٍ كاملٍ، بلوحة كلاميّة رائعة:

١ ـ لقد بدأت برسم مكان المصباح، وهي المشكاة.

٢ ــ ثمَّ رسمت زجاجته الدّرّية المشعة.

٣ ــ ثمَّ انطلقت بحركة سريعة، فعرضت مشهد الشجرة المباركة التي تمدّ المصباح بالزيت الصافي، فهي نابتة في أرضٍ واسعة لا تُحجَبُ عنها الشمس عند الشروق، ولا تُحجَبُ عنها الشمس عند الغروب، فضلاً عن سائر النهار، وبسبب ذلك تكون الشجرة خَضِرَةً نَضِرَةً صافية الزيت.

٤ ــ ثمَّ رسمت صُورَةَ الزَّيْتِ الصافي، فأبانت أنَّه من شدّة صفائه يكاد يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نار. وكذلك نور آيات الله وكلماته، تكاد تضيء ولو لم يقدح الفكر المتدبّر عليها زِنَادَه.

٥ ــ وتركَتِ الصورةُ التمثيليَّةُ للخيال أن يستكمل بنفسه مشاهد أخذ الزيتون بعد صلاحه، وعصره في معاصره، واستخلاص الزيت منه، إذْ لا داعي لذكرها.

وقدَّمت مشهد الزيت الصافي المتلامع في أشدّ حالات لمعانه.

٦ ــ ولمَّا اجتمع صفاءُ الزيت، وصفاءُ نور المصباح، وصفاءُ الزجاجة المشعة مع لونها الدّرّي، التي تزيد النور وتضاعفه بانعكاساتها، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: متراكب بعضُه فوق بعض تراكباً يَزِيدُ من قوته وشدّته.

وهنا نلاحظ أنَّ المدد بالزيت بالغٌ درجةَ كماله، وأنَّ الزيت بالغٌ درجةَ كماله، وأنَّ النور بالغٌ درجة كماله، وأنَّ الزجاجة بالغةٌ درجةَ كَمَالِها في جوهرها ولونها، وأنَّ المشكاة التي هي الكوّة التي فيها المصباح هي المكان الأنسب لوضع المصابيح التي من هذا النوع.

فاللَّوْحَةُ التمثيليَّة قد استكملت كلّ عناصرها بدقّة تامّة.

ففي هذا المثل من الخصائص الفنيّة ما يلي:

أولاً: دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية.

ثانياً: التصوير المتحرك في العناصر القابلة للتحرّك فيه، كنور المصباح، وحركة إيقاده.

ثالثاً: صدقُ المماثلة بين المثل والممثَّل له.

رابعاً: حذف ما يمكن تصويره أو استدعاؤه ذهناً، وعدم الإشارة إليه باللّفظ.

خامساً: البناء على المثل والحكم عليه كأنّه عَيْنُ الممثَّل له، على اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورةِ الممثل له في ذهن المتلقي ونفسه.

وإذْ قد حضرت صورة الممثَّل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة، وكأنَّ المثل قد تلاشى، وظهرت حقيقة الممثل له.

وهذا يظهرُ لَنَا في قوله تعالى:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: أي: فمن استجاب لدعوة الإيمان، وتدبّر آيات الله بصدق، وكان من طلاب المعرفة، ظهرت له من أنوار العلم الرّباني في كتابه على مقدار استعداده.

ولا يترك الله البيان دون أن يُعَقّب عليه بما يؤكد بعض صفاته سبحانه، تأصيلاً لعناصر الإيمان به وبحكمته وعلمه إلى غير ذلك مما تقتضيه المناسبة من صفاته.

وهنا يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

بعد هذا يعود النصّ فيُتِمُّ اللّوحة التمثيليّة، فيرسم البيوت المقصودة التي يُوضع فيها هذا النوع من المصابيح، ويَرْسُم من في هذه البيوت من الناس الذين شُبهت ذواتهم بالمشكاة، وشُبهت قُلوبهم بالمصابيح التي هي أدوات إذا أوقدت، وكان لها زيتٌ يُمِدُّها أعطت شعلتُها نوراً.

أمّا البيوت فهي المساجد، وأمّا مَنْ فيها فهم رجالٌ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ فيها بالغدوّ والآصال، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون

يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصار، ليجزيهم اللَّهُ أحسنَ ما عَمِلُوا ويزيدهم من فضله، والله يَرْزُقُ من يشاء بغير حساب.

ومن الرائع في هذه التتِمّة، أنَّ المنتفعين بمصباح المثل هم الذين ينتفعون بما أنزل الله من نور في آيات كتابه.

إنَّهم أهل بيوت الله والذكر والصلاة والزكاة، وهم طلاب الآخرة والثواب الجزيل عند الله، فمثل آياته لهم، كمثل نورِ المصباح الذي وُصِفَ لهم، والذي يُضِيءُ في بيوت عبادتهم لربهم، والشبه بين ذواتهم وقلوبهم وبين عناصر من المثل شبه قائم.

لقد جاء المثل كذلك ليكون ذا مضمون توجيهي يجمع تصوُّرات المتَلَقِّي فيما ضُرِبَ له المثل.

* * *

الغرض الثالث من أغراض النصّ: بَيَانُ أَنَّ الناس بالنسبة إلى النور الذي تَتَضَمَّنُه آيات الله في كتابه المجيد، ينقسمون إلى قسمين عامَّين:

القسم الأوَّل: المؤمِنُونَ على مراتبهم ودرجات كلِّ مرتبة منها.

القسم الثاني: الكافرون على دركاتهم ومستوى كلِّ دركة منها.

أمّا المؤمنون فقد جاء وصف حالهم بالنسبة إلى نور آيات الله في كتابه تمثيلاً في مضمون مَثَلِ المشكاة، فهم كالمشاكي على اختلافها وتفاضلها، وقلوبُهُم المدركة كالمصابيح التي هي أدوات قابلةٌ للإيقاد على اختلافها وتفاضلها، وانتفاعُهُمْ بالنور هو على مقدار شعلة كلِّ واحد منهم، وما تمتصُّ من المدد في الفهم والتدبُّر، ومقدار ما يتأثّر كلٌّ منهم اهتداءً بالنور في حياته.

وجاء ذكر أهْلِ مرتبة البرِّ، وأهل مرتبة الإحسان منهم، في قوله عزَّ وجلّ:

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هذا البيان عنهم.

وتَرَكَ النصُّ الحديثَ عن أهل مرتبة التقوىٰ على اختلاف درجاتهم وتفاضلهم فيما بينهم، ووَكَلَ ذلك إلى أهل التدبُّر يُتِمُّونَه عن طريق ما يُفْهَم ذهناً من لزوم استكمال مراتب المؤمنين، ودرجات كلِّ مرتبة منها، مع ما في النصوص القرآنية الأخرى الموزعة في السُّور، من بيان عنهم، وعن درجاتهم، فمنْهُمْ مقتصدون، وهم الذين اسْتكملوا متطلبات مرتبة التقوى دون زيادة ومنهم ظالمون لأنفسهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومنهم مسرفون على أنفسهم، وأدناهم آخِرُ من يخرج من النار ويدخلُ الجنة، بعد أن ذاق عذاب التطهيرِ والتكفيرِ عن السيئات.

وأمَّا الكافرون الذين تَوَلَّوْا عن الاهتداء بنور آيات الله، ورفضوا الاستجابةَ لنداءاتها، وكذَّبوا بها، فقد جاء بيان مسيرة حياتهم في الدنيا عن طَريق ضَرْبِ مَثَلَيْنِ، هدانَا تدبُّرهما إلى أن الله عزَّ وجلّ يُبيِّن لنا أن الكافرين نَوْعَان كليَّان، فالمثل الأوَّل للنوع الأول منهما، والمثل الثاني للنوع الثاني على الترتيب.

فالنوع الأول منهما: هم قادة أهل الكفر، من أهل الرأي والفكر، والتقدير والتدبير، ورَسم الخطط ووضع المناهج، وتحديد الأهداف والغايات الدنيوية، وهؤلاء على درجات متفاضلات ذكاءً وطموحات.

وقد ضَرَبَ الله لمسيرة هؤلاء في حياتهم مثلاً بظمآن يسعىٰ ويكدُّ في الصحراء إلى سَراب.

ولكن المثل قد جاء مختزلاً مقتضباً، فيه محاذيف يستطيع المتدبِّر إدْراكها وتقديرها.

فجاء النصُّ بالعنوان أوّلاً، فقال تعالى:

﴿والَّذين كفروا﴾.

ولمّا أدْرَكْنَا أنَّ المثلين بعد ذلك هما لنوعَيْن، علمنا أنَّ المثلين كليهما هما معاً خَبَرُ هذا المبتدأ.

وعلى طريقتنا التقسيميَّة نقول في خبر هذا المبتدأ: والذين كفروا نوعان، فالنوع الأول مَثَلَهُمْ كذا، والنوع الثاني مثلهم كذا.

وفي اختزال مَثَلِ قادة أهل الكفر قال تعالى:

﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعة﴾.

والمتدبِّر هنا يفهم بسرعة أنَّه ليس المراد تشبيه ذوات الأعمال بالسَّراب ولكنَّ المراد تشبيه غايَةِ أعمالهم عندما يَصِلُون إلى آخر حركة منها في حياتهم الدنيا بالسَّراب.

فانتقى البيان من الصُّورة العامَّة للمثَلِ: لقطةَ أعمالهم من الهيئة الكاملة ذات الأجزاء المتعدِّدة للمشبَّه، ولقطة السَّراب من الهيئة الكاملة للمشبَّه به، وعلى المتدبِّر المتفكر الحصيف أَنْ يتمَّ سائر الأجزاء من صورة المشبَّه، وسائر الأجزاء من صورة المشبَّه به.

ويسهُل على المتدبِّر أن يستخرج بذكائه سائر العناصر متى لاحظ أحوال قادة أهل الكفر، ولاحظ نهاياتهم بعد كدِّهم الطويل الشاقِّ في الحياة الدنيا.

تَرْسُم لهم نُفُوسُهم مَطَامِحَ وآمَالاً جسيمة عظيمةً، يَتَوالىٰ تجدُّدها كُلَّما بلَغُوا مَبْلغاً منها فَاكتشفوا أنَّه لم يُرْوِ ظمَأَهُمْ، ولم يُحقِّقْ لهم ما كَانُوا يَحْلُمون به.

ويُفكِّرونَ بالوسائل والْحِيلِ لبلوغ مطامحهم وآمالهم، ويرسُمُون الْخِطَطِ ويُقَدِّرُونَ ويُدَبِّرُون، ويَتَّخِذُون الوسائل، ويعملون كادِّين كادحين من خلالها، يتَحمَّلُون ألوان المتاعب الفكرية والنفسيَّة والقلبية والجسدية، لَيْلُهُمْ قلقٌ وسهر، ونهارهم كدْحٌ وكدٌّ وعمل، وتعترضهم مشكلات الحياة وعقباتها وصراعاتها،

فيُغالِبُون لجلْبِ المغانم، ودفع المخاطر والمغارم، ويصطدمون بأنواع من البلايا والمصائب، فيسعَوْن للتخلُّص منها، هذه في أنفسهم، وهذه في أموالهم، وهذه في أهليهم وذويهم، وهذه عامة شاملة في بلدهم وقومهم، إلى غير ذلك ممّا لا يحصر.

أمّا آمالُهُم وَطُمُوحاتُهم فما زَالَتْ بعيدة عنهم، فيعملون ويعملون، ويُصَرِّفُون في الخطط والوسائل، ويَظَلُّون كذلك حتى لحظة الموت، التي تخيب عندها كلُّ مساعيهم، وأعمالهم، وأفكارهم، وتخطيطاتهم، ووسائلهم وأسبابهم، وطموحاتهم وآمالهم، أمّا لذات الحياة التي تناولوا شيئاً منها فلم تكن قادرة على منحهم السعادة الحقيقة، والقليل منها لا يأتي إلاَّ مقروناً بالمنغصات والأكدار، فيا خيبة المسعى.

هذه الصورة مع كلٍّ فروعها التفصيليَّة، والمختلفة من شخص إلى آخر منهم، التقط البيان منها «أعمالهم» ليشير هذا التعبير إلى كُلِّ صورة المشبّه في كدح الحياة الدنيا وكدِّها، ومتاعبها وآلامها، ثُمَّ تأتي النِّهاية التي تتحقق عندها الخيبة، وتأتي معها مشاعر البؤس والتعاسة والنَّدَم والحسرة، والخوفِ العظيم من عُبُور نفق المصير.

أمّا صورة المشبَّه به، فظمآنُ شديد الظمأ متهيِّج، عابرٌ في صحراء لا يعرف فيها مصدرَ ماء، فتراءىٰ له من بعيدٍ سرابٌ يتحرَّكُ متكسِّراً كغديرٍ أو بركة ماء، فأسرع نحوه، يكدُّ ويعملُ متحملاً مشقات اجتياز الصحراء في حرارة الشمس اللاَّهبة، وينطلق الخيال في تصوير حالة هذا المجتاز، في ظاهر حركاته الجسدية، وباطن حركاته النفسيَّة، وحين يصل إلى مكان السَّراب يَجِد أنَّه كان مَخْدوعاً قد الْتَبَسَتْ عليه الرؤىٰ الكاذبة بالرؤية الحقيقية، واكتشف أنَّه كان يسْعىٰ لا إلى شيءٍ يُرْوي ظمأه الشديد، أو يَبُلُّ به ريقه، فيرتمي بائساً تعيساً حزيناً، يتلوّىٰ ظمأً، ويتقلَّب ألماً، ويتمنّى الموت ليتخلَّص ممَّا هو فيه.

وقد التقط البيان في النصِّ من هذه الصورة مع كلٍّ فروعها التفصيليَّة عبارة واحدة، فجعلها هي المشبَّه به، فقال تعالى:

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾.

ويَسْهُلُ على المتدبِّر أَنْ يرسُمَ تَتِمَّةَ صُورَة المشبَّه به، من خلال ملاحظاته لواقع أحوال الناس، حينما يتَعَرَّضون لمثل هذا الظمأ الشديد في صحراء قاحلة، فيتراءى لهم سرابٌ من بعيد.

وهذا من بديع الإيجاز الذي تُغْني فيه الإشارة والرمز، عن تفصيل العناصر والأجزاء، وذكرِها بدقائقها، لا سيما إذا كان البيان صادراً عن الكبار والعظماء، وفي المخاطبين فطناء أذكياء يقومون بشرح الموجزات لجماهيرهم.

وهنا نلاحظ أنَّ ضرب المثل للمؤمنين الذين انتفعوا بنور آيات كتاب الله انتفاعاً ما، قد اقتضىٰ ضرب المثل أيضاً لمن أعرض عن نور الهداية الربّانية، وجعل يصطنع لنفسه أوهاماً ورؤىٰ يجعلها بمثابة النور، وهي كواذب، ويعتمد على ذكائه وحيله وخططه، ويلتمس نوراً غير نور الله الذي لا يوجد في السماوات والأرض نورٌ سواه، فيصابُ بخيبة العاقبة.

وفي هذا المثل الرائع ظهر لنا من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي:

أولاً: صدق المماثلة بين الممثَّل به والممثَّل له.

ثانياً: التصوير المتحرك في ﴿**يَحْسَبُه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجدهُ شَيئاً**﴾.

ثالثاً: حذف ما يمكن استدعاؤه ذهناً، وتصويرُه، اعتماداً على ذكاء المتلقِّي، وتقديراً ضمنيّاً لفطنته.

رابعاً: البناء على المثل، والحكم عليه كأنه عيْنُ الممثَّل له، على اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المتلقي ونفسه.

وإذْ قد حضرت صورة الممثَّل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثَّل له، وتسقط صورة المثل، لتبرز القضايا المقصودة، وكأنَّ المثل قد تلاشىٰ، وظهرت حقيقة الممثَّل له، وهذا يظهر لنا هنا في قول الله عزَّ وجلّ بعد عرض المثل مُباشرةً:

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾

فالكافر من الأئمة القادة لجماهير الكافرين، يُدركُ عند الموت وبَعْدَهُ أنَّه كـان يسعىٰ في حياته إلى شيء هـو كالسَّراب، رؤىٰ كواذب، إذ تـظهر لـه الحقيقة حين يجد حِسَابه وجزاءه عند ربِّه، على ما قدَّم في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا.

ولا يَـدَعُ اللَّهُ البيانَ دُونَ أن يُعَقِّبَ عليـه، بما يؤكِّـد بعض صفاتـه، تـأصيـلاً لعناصر القاعدة الإيمانيَّة، فيقول عزَّ وجلّ:

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾.

والنـوع الثاني من الـذين كفروا: هم الإمّعيّـون التّبعيّون التقليـديون، الـذين يصعبُ على قدراتهم الفكرية المتدنيَّة أو المهملة أن يصنعُوا فيهـا بأنفسهم لأنفسهم آمالاً عريضة وطموحات، وأن يتخذوا لها وسائل وأسباباً، ويرسموا الخطط ويُقـدِّروا ويُدبِّروا.

وهؤلاء تكون غرائزهم الآنيَّة وأهواؤهم وشهواتهم ومطالبهم لمستقبل معـاشهم هي المحرِّكة لهم في حياتهم.

فيعملون على غيـر هـدىٰ، ويتَّبعـون مقلِّدين على غيـر بصيـرة، أو متخبـطين عشـوائيين، وهؤلاء على دركات متنـازلات، في قـدراتهم الفكـريـة، وطمـوحـاتهم ومطالبهم في الحياة.

فكيف جاء في النصِّ عرض هذا النوع؟

لقد ضرب الله عزَّ وجلّ لمسيرة هؤلاء في حياتهم مثـلاً بمتخبّط في عمق بحرٍ عظيم، تحت أمواجٍ في العمق، فوقَها أمـواجٌ في السَّطح، فـوقها سحبٌ متـراكمة، لا يدري أيْنَ يسير، ولا كيفَ يكون المصير، ثمَّ تـأتي منايـاهم، ويلْقَوْن عنـد ربهم حسابهم وجزاءهم، إذْ رفضوا الاهتداء بنور آيات الله في كتابه، وقـد كان بـإمكانهم أن يهتـدوا بهـا لـو أنهم لم يعطِّلوا قـدرات الفهم لـديهم، ولم يتَّبعـوا أهـواءهم وشهواتهم.

وفي اختزال المثل لهذا النوع من أهل الكفر قال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.

فانتقى البيانُ من الصورة العامَّة للمثل: لَقْطَةَ الظُّلُماتِ المتراكبات المتراكمات في بَاطِنِ بَحْرٍ لُجِّي، يغشَىٰ هذا الباطنَ موجٌ يُضيف ظلمةً إلى ظلمة الباطن، ومن فوق هذا الموج موجٌ في السطح يُضيف ظلمةً أخرى، وفوقه سحاب متراكم بعضه فوق بعض، وهو أيضاً يضيف ظلمات، كما سبق بيانه، كلّ هذا بيان لحال الظلمات في عمق البحر اللُّجي.

وجاءت الإشارة إلى المتخبِّط فيها بقوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ فدلَّ هذا على أنه في العمق يتخبَّط، وقد حُذِفَ من اللَّفظ ذكر المتخبِّط في الظلمات في بدء النصّ، استغناءً بهذه الإشارة، وهذا من بديع الحذف.

وتركَ النصُّ لذهن المتدبِّر استكمال صورة حالة المتخبط في ظلمات عمق البحر الموصوف.

وترك له أن يقيس عليها أحوال الإمَّعِيّين التَّبعيين التَّقليديين والجهلة الأغبياء من أهل الكفر الذين رفضوا الاستجابة لنداءات الرَّب الخالق في آيات كتابه المجيد، وهم يملكون الاستجابة لها، وعندهم من المدارك ما يكفيهم لمعرفة الخير والشرِّ في الحياة، على مقادير أفهامهم، وما هم مسؤولون عنه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

ومثل هذا الحذف هو من روائع أساليب البيان الموجز، الذي يصدر عن العظماء والكبراء والملوك، فكيف ببيان ملك الملوك وربِّ العباد؟!

وينطلق ذهن المتدبر المتفكر، فيُدْرِكُ بسهولة مصير هذا المتخبط في ظلماته، سواءً أكان في صورة المثل، أو في صورة الممثَّل له.

إنَّ مسيرته شقيَّة تعيسة، ونهايته وخيمة حزينة.

لقد رفض نور آيات الله في كتابه، فمن أين يأتيه النور، واتَّبع أصحاب الرؤىٰ الكواذب، فليس له وراءهم إلَّا الظلمات يتخبَّط فيها، أو انطلق على غرائزه وأهوائه وشهواته دون أيِّ تفكير أو تدبير، فليس بين عينيه إلَّا الظلمات يتخبَّط فيها.

إنَّه لمثل بديع يصوِّر أحوال هذا النوع من الذين كفروا في مسيرة حياتهم بغير نور يهديهم.

ويظهر لنا في هذا المثل الرائع من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي:

أولاً: صدق المماثلة بين الممثَّل به والممثَّل له.

ثانياً: التصوير المتحرك (حركة الموج في العمق ـ حركة الموج في السطح ـ حركة السحاب المتراكم ـ حركة رفع المتخبط يَدَهُ إلى جهة عَيْنَيْه).

ثالثاً: حذف ما يمكن استدعاؤه وتَصْوِيره ذهناً، اعتماداً على ذكاء المتلقي، وتقديراً ضمنيّاً لِفِطْنَتِه.

رابعاً: البناء على المثل، والحكم عليه كأنَّه عَيْنُ الممثَّل له، على اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صُورَةِ الممثَّل له في ذهن المتلقِّي ونفسه، وهذا البناء قد جاء هنا في قوله تعالى عقب ذكر المثل مباشرة:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

فأدَّت هذه الخاتمة غرض البناء على المثل كأنه عين الممثَّل له، وغرض التعقيب بما يؤكِّد بعض صفات الله، تأصيلاً لعناصر القاعدة الإيمانية، وربطاً بما يُشبه القفل لما بدأ به النصُّ في قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾، أي: لا نور إلَّا نورهُ، إذن: فَمَنْ لم يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فما له من نور، فالتقى أوَّل النصّ بآخره، وقد سبق لنا تدبُّر هذه الجملة الشرطية:

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ له نوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُور﴾.

فما أبدع الأدب القرآني، وما أعظم إعجازه!!

• • •

خَاتِمَةُ ٱلصُّوَرَةِ ٱلأَدَبِيَّةِ

هذه صُوَر من الأدب القرآنيّ المجيد، جمعتُها لِهَذا القسم من الكتاب على أنَّ القرآن كلَّه هو كذلك نصوصٌ أدبيَّة سامية رفيعة، قابلة للتحليل الأدبيٍّ على مثل الطريقة التي عرضْتُ بها نصوص هذه الدراسة المتواضعة، أو على أفضل منها وأجود، مع ما اشتمل القرآن عليه من عقائد ومفاهيم، وتربية، وأخلاق، وتشريعات، وعلوم وتوجيهات، ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك.

وما على أهل الفكر والنظر إلَّا أَنْ يتدبَّروا هذا القرآن حقّ تدبُّرِه، ليقدُرُوهُ حقَّ قَدْرِه.

أفَلَا يتدبَّرون القرآن أم على قُلوبٍ أقفالُها؟!

فليَقُلْ أعداءُ الأدب القرآنيِّ ما يقولون، فكتابُ الله عزيزٌ غلّاب، والله غالبٌ علَىٰ أمره، ولَقَدْ عَلِمتِ الوعولُ من قبلِهِمْ أنَّ قرونها تتكسَّر على صخور جبل كجبَلِ حراء، أو أبي قُبَيْسٍ، أو جَبَلِ أُحُد، فَلَمْ تُناطحها، فكانت أعقلَ من أشباهها من الناس الذينَ يحاولون ادِّعاء أنَّ القرآن كتابُ تشريعٍ فقط، فهو لا يدخُل ضمن روائع النُّصوصِ الأدبيَّة.

إنَّ هؤلاء يتلاءم مع تفكيرهم أن يُلْغُوا أيضاً ظاهرة الجمال فيما خَلَق الله في السماوات والأرض، على اعتبار أنَّها ذات غاياتٍ نفعيَّةٍ في الكون، وأَنْ يَقْصُروا الجمال على الفنِّ السِّرْيالي الذي رسم نظيره في قول بعضهم ذنب حمارٍ يهتزُّ شَطْرَ الغرب مسحاً على لوحة حُجُرات الأصباغ، وشَطْرَ الشَّرْقِ لَطْخاً على اللَّوحَةِ السِّرْيالية.

اللَّهم أرنا الحقَّ حقّاً وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

• • •

الخَاتِمَةُ العَامَّةُ لِلكِتَاب

هذا ما فتح الله به عليَّ في هذا الكتاب الجامع لِقسْمَي أمثال القرآن، وصُـوَرٍ من أدبه الرفيع، وهما بحثان مبتكران جـديدان في معـظم ما جـاء فيهما حَـوْلَ كنوز القرآن الذي لا تفنىٰ عجائبُهُ ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّد.

وأرجـو أن أكُونَ قَـدْ وُفِّقْتُ في اسْتخراج مَـا لَم أُسْبَقْ إليـه إلى مُسْتَخْـرَجَـات جديراتٍ باهتمام أهل العلْم والفكر والأدب القرآني.

وأسأل الله العليَّ الجليل الوهّاب أنْ يجعله خالصاً لـوجهه الكـريم، وأنْ ينفع به، وأنْ يرى المطَّلعون عليه دلائل جديدة مِنْ دلائل إعجاز القرآن الكثيرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلَّم على سيدنـا النبـيِّ الـرسـول الأميِّ محمَّـد وعلى آلـه وصحبـه أجمعين، وعلى سـائـر إخـوانـه النبيّين والمرسلين، ومن تبعهم بإحْسَانٍ إلى يوم الدين.

وكـان الفراغ منـه في ليلة الخميس ٢٣ من شهر رجب لسنـة ١٤١١ هجـريـة الموافق للسابع من شهر شباط «فبراير» لسنة ١٩٩١م.

مكة المكرمة

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني